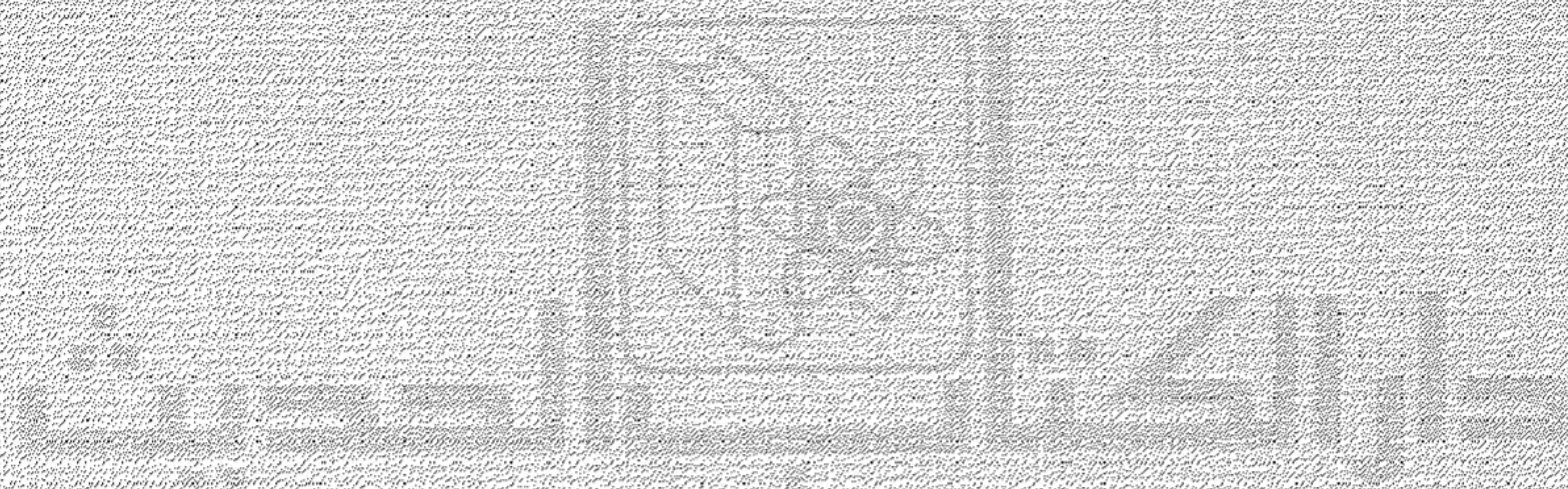
15 رواية حوارية كتبتها من أجل الدفاع عنه

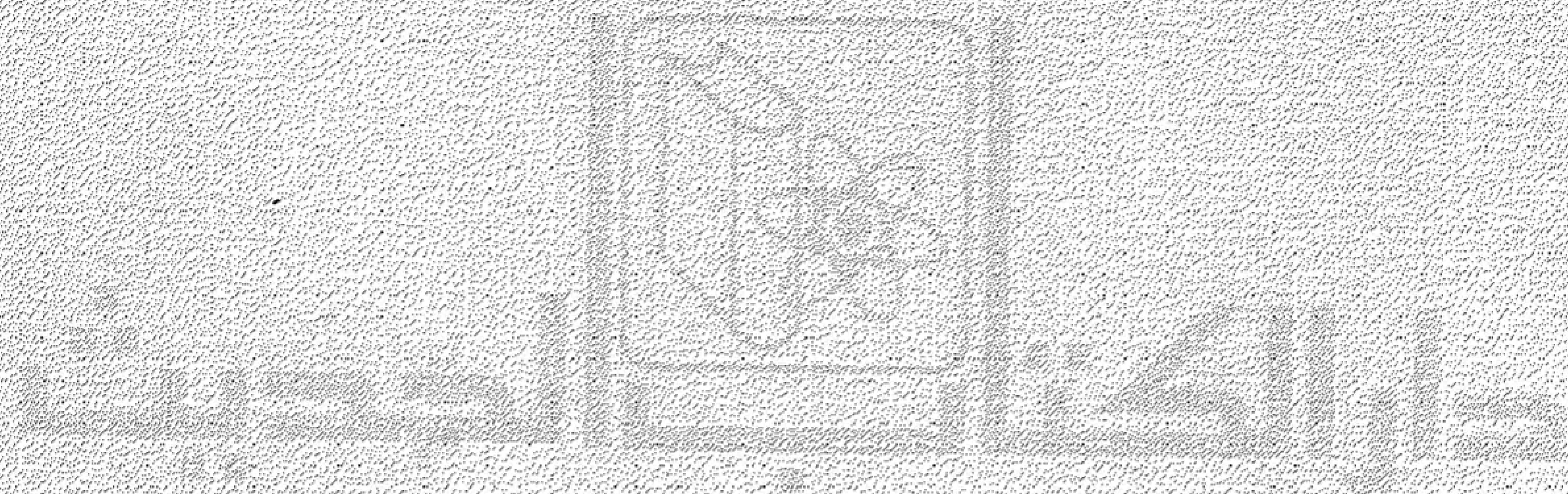



# والمعجزات الحسية والخوارق الكونية براهين على نبوته

نور الدين أبو لحية

دار الكتاب الحديث


دار الكتاب الحديث


دار الكتاب الحديث

حبيبنا رسول الله ﷺ
15 رواية حوارية كتبتها من
أجل الدفاع عنه



محمد صلى الله عليه وسلم

# والمعجزات الحسية والخوارق الكونية
# براهين على نبوته

نور الدين أبو لحية

أبو لحية ،نور الدين.

محمد صلى الله عليه وسلم : والمعجزات الحسية والخوارق الكونية

/نور الدين أبو لحية . ـ القاهرة: دار الكتاب الحديث ، 2008.

410ص ؛ 24سم .

في رأس العنوان : حبيبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم 15 رواية حوارية كتبتها من أجل الدفاع عنه

تدمك 8 219 350 977

1- السيرة النبوية 2- السيرة النبوية ـ دفع مطاعن

أ ـ العنوان

239

رقم الإيداع /2008/17980



1430 هـ / 2009 م

دار الكتاب الحديث



| | |
|---|---|
| القاهرة | 94 شارع عباس العقاد – مدينة نصر – القاهرة ص.ب 7579 البريدي 11762 هـاتف رقم : 22752990 (202 00) فاكس رقم : 22752992 (202 00) بريد إلكتروني : dkh_cairo@yahoo.com |
| الكويت | شارع الهلالي ، برج الصديق ص.ب : 22754 – 13088 الصفاه هـاتف رقم 2460634 (965 00) فـاكس رقـم : 2460628 (965 00) بريـد إلكترونـي : ktbhades@ncc.moc.kw |
| الجزائر | B. P. No 061 – Draria Wilaya d'Alger– Lot C no 34 – Draria Tel&Fax(21)353055 Tel(21)354105 E-mail dkhadith@hotmail.com |

# من القرآن الكريم

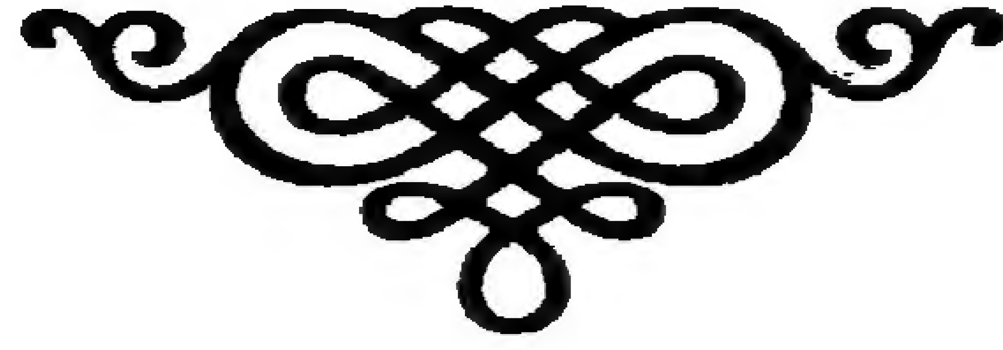
﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ۝٣ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّنَ الْأَنبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۝٤ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ ۝٥ ﴾ [القمر].

﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٤٠ ﴾ [التوبة].

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يُنَزِّلَ آيَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝٣٧ ﴾ [الأنعام].

﴿ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ۝١٨ ﴾ [النجم].

# تنبيه



نحب أن يتنبه قارئ هذه السلسلة لما يلى:

1 ـ بما أن الغرض من هذه الرسائل هو أن تكون مدرسة تعلم فنون الحوار الإيمانى، والجدال بالتى هى أحسن، فقد اهتممنا فى أصل الرواية بما يحقق هذا الغرض، ولم ننشغل عنه بأى شاغل.. ولكن الكثير من المعلومات التفصيلية أو التوثيقية قد يحتاج إليها لتحقيق هذا الغرض، وهى مما لا يمكن إدراجه فى الأصل.. فلذلك اكتفينا بإيرادها فى الهوامش..

فلذلك يحتاج من يتعلم من هذه الرواية مراجعة ما ورد فى الهوامش والاهتمام بها باعتبارها معلومات أساسية تيسر عليه فهم وتحصيل ما يرد فى أصل الرواية من معلومات.

2 ـ أنا لم نهتم كثيرا بتوثيق كل ما نرجع إليه من مصادر ما عدا ما يتعلق بالنصوص المقدسة الإسلامية والمسيحية.. أما سائر النصوص، فتوثيقها يستهلك صفحات كثيرة، وقد يشغل القارئ عن المهمة التى تهدف إليها هذه الرواية..

بالإضافة إلى أن أكثر ما نورده مما توزع وجوده فى الكتب الكثيرة التى اهتمت بهذه الناحية.. ولهذا نكتفى بذكر المراجع العامة التى لجأنا إليها دون التدقيق فى التوثيق فى كل محل.

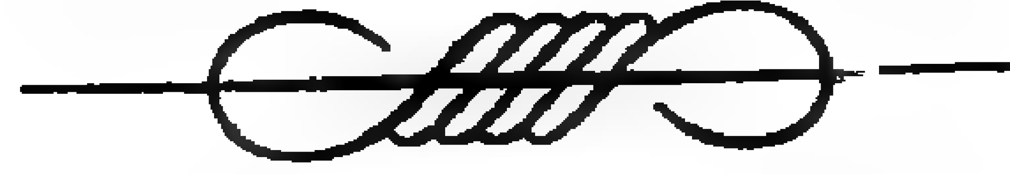
3 ـ نحب أن نعتذر هنا عن عدم ذكر الصلاة على رسول الله ﷺ أو على الأنبياء، وعدم الترضى عن الصحابة والعلماء والأولياء ـ كما هو شأن المؤلفات الإسلامية ـ فى بعض المواضع أو فى كثير منها، وذلك لأن الحديث المفترض فيها بحسب الرواية بين مسيحيين.. والضرورة الفنية تقتضى أن لا نذكر ذلك حتى لا يؤثر فى أصل الرواية وجانبها الفنى.. ولا حرج على القارئ المسلم أن يصلى على رسول الله ﷺ والأنبياء كلما ذكروا بغض النظر عن كتابة ذلك..

4 ـ قد يعترض بعض أدباء الأدب الواقعى على كثير مما يرد فى هذه السلسلة مما لا يمكن انسجامه مع الجانب الفنى الواقعى.. كحفظ أبطال الرواية للنصوص الطويلة مع كون بعضهم من العامة البسطاء.

ونحن نقدر هذا النقد.. ولكنا ننبه إلى أن الغرض من السلسلة ليس أحداث الرواية، وإنما الجانب العلمى منها.. وإنما ذكرنا هذه الأحداث لنمزج المعلومة التى قد تكون جافة بما ييسر تحصيلها من التشويق والمتعة.

ولذلك إذا تعارض التشويق مع المعلومة قدمنا المعلومة عليه بناء على اعتبار أنها الأصل.

# المقدمة



فى اليوم الرابع من زيارة البابا لى، رأيت عجبا، سأحكيه لكم كما رأيته، ولا جناح عليكم أن تنكروه، فأنا نفسى كنت أنكر الكثير مما يحكى لى من هذا الباب، إلى أن رأيته بأم عينى.

كنت قد أعددت للبابا غرفة خاصة منذ زيارته لى، هى أحسن غرف منزلى، وقد كانت منفصلة عن سائر الغرف، وتطل على حديقة البيت.

فى منتصف تلك الليلة، انقطعت الكهرباء، فنبهنى أهلى إلى أخذ سراج ـ كنا نستعمله فى هذه الحالات ـ إلى غرفة البابا، لعله يحتاج إليه، فقد كانت الظلمة شديدة جدا.

ما سرت قليلا إلى غرفة البابا حتى رأيت عجبا.. لقد رأيت أضواء ساطعة، كأجمل ما يمكن أن تراه من أضواء دفئا وحنانا وإنارة ولطفا.. فتعجبت كل العجب من مصدرها، فلم يكن لدى البابا أى شىء يمكن اعتباره مصدرا لها.

لقد أرانى البابا حقيبته الصغيرة التى كان يحملها، ولم يكن فيها إلا مصحفه الصغير الذى أهداه له رجل الإسكندرية، كما ذكر لى قصته فى (الكلمات المقدسة)، ومنها بعض الأوراق التى تشمل بعض ما استطاع تسجيله فى رحلاته إلى الإسلام، وبعض المقتنيات التى احتفظ بها من رحلاته.

ولكن، لم يكن من بينها أى سراج أو أى مصابيح..

أصابتنى هيبة من ذلك كادت تقعد بى عن زيارته وإيصال السراج له، ولكنى تغلبت عليها، وقهرت مخاوفى، وسرت نحو غرفته.

أطللت من نافذة صغيرة على البابا، فرأيته جالسا على السجادة التى هيأتها له، رافعا يديه إلى السماء، والدموع تنحدر من عينيه بخشوع وجلال، وقد غمرت تلك الأضواء الجميلة وجهه، فصار كالشمس، أو قريبا من الشمس.

لقد كان منظرا يصور الخشوع والإيمان بأرقى درجاته.. ولا يمكن لأى آلة تصوير فى الدنيا أن تصور جلال ذلك المنظر وجماله.

لست أدرى كيف سقط السراج من يدى، فأحدث بعض الجلبة، جعلت البابا ينتبه من ذلك الخشوع الذى ملأ كيانه، ثم يلقى ببصره إلى النافذة ليرانى.

غمرنى الحياء من نظره لى، خشية أن يتهمنى بالتجسس عليه.. لكنه نادانى، فدخلت إليه، لتشملنى تلك الأنوار التى شملته، والتى لم يكن لها أى مصدر ظاهر.

قلت: ما هذا.. إن هذا لعجب!؟

قال: ليس عند ربك عجب.. إن ما تراه من أنوار فضلٌ من فضل الله لا يقل عن أى فضل آخر نراه فى كل لحظة، ونعيشه، ونتنعم به.

قلت: ولكن تلك الأنوار ينعم بها كل الناس.. أما هذا النور، فلا أراه الآن إلا فى بيتك، وهو كرامة عظيمة لا تقل عن الكرامات التى حكيت عن أهل الله.

قال: إن فضل الله العظيم يشمل الكل.. وما أنا إلا فرد بسيط حقير فقير.. وقد علم الله فقرى إليه، فأنالنى بعض ما أنالهم، وذلك لا يعنى أنى مثلهم، بل ولا قريبا منهم.

ثم أخذ نفسا عميقا، وقال: أنا الآن مشغول ببناء حياتى الجديدة مع الله.. أنا لست سوى مريد صغيرة يجلس أمام أشعة تلك الشمس الجميلة المشرقة ليشم عطر أنوارها..

قلت: ولكن أحاديث الكرامات صارت موضوعة فى هذا الزمان.. فأنا بين قوم لا يصدقون إلا بالأسباب، وعالم الأسباب.. ولو أصبحت أحدثهم بما رأيت لاتهمونى بالكذب، بل بالدجل.. بل يملأون الأرض ضجيجا على خفة عقلى، وأحسنهم حالا، وأقربهم إلى مودة من يذهب يلتمس لهذا الأمر أسبابه وقوانينه التى لا تخرج به عن قوانين الكون التى نعيشها.

ابتسم، وقال: الله رب القوانين والأسباب والكون.. فلا ينبغى أن تخضعوا الله للقوانين التى خلقها.

نظر إلى السراج الذى كنت أحمله، ثم قال: ما هذا؟

قلت: سراج.. لقد أتيت به إليك، لما انقطعت الكهرباء.

قال: فحدث قومك عن سراجك هذا، لتقنعهم بسراج ربك.. استعمل القياس لإقناعهم بذلك.

قلت: كيف ذلك؟

قال: لم تكن عادتك أن تحمل سراجا فى هذا الوقت من الليل لتحمله إلى هذا الموضع من بيتك.

قلت: أجل.. ذلك صحيح.. لعل هذه أول مرة أفعل هذا.. فقد كان هذا البيت معدا للضيوف.. ولم يكن من عادة الكهرباء أن تنقطع فى حضورهم.

قال: فما فعلته إذن خرق للعادة..

قلت: كيف ذلك؟

قال: البشر يتعرفون على القوانين من خلال التجربة والاستقراء.. إنهم يرون للأشياء صورا معينة فى ظل ظروف معينة، فيستنتجون القوانين من خلال ذلك.

قلت: ذلك صحيح.. كل القوانين تبدأ هكذا، ثم تعمم أحكامها.

قال: وحينذلك يقع الخطأ.

قلت: أى خطأ؟

قال: التعميم.. التعميم أعظم الأخطاء.

قلت: لابد للقوانين أن تعمم.. وإلا ذهب العلم.. ولاحتجنا فى كل لحظة إلى تجارب جديدة.

قال: يمكنكم أن تعمموا، ولكن مع ذلك لا ينبغى أن يمنعكم التعميم من اعتقاد احتمال خرق التعميم.

قلت: لم أفهم.. عد بنا إلى السراج، وتطبيقه على هذا.. لعلى أفهم مرادك.

قال: فلنفترض أن هناك رجلا تتبع حياتك فى هذا الوقت من الليل.. فرآك فى كل السنوات التى مرت بها حياتك، وفى هذا الوقت بالذات من الليل لا تفعل ما فعلته الليلة، فراح يستنتج قانونا يذكر فيه هذا.. بناء على استقراء كل المدة التى مضت من حياتك.. هل ترى ذلك ممكنا؟

قلت: أجل.. فكل العلماء الذين يستنتجون القوانين يفعلون هذا.. إنهم ينطلقون من استقراء حالات معينة فى فترة معينة، ثم يحكمون من خلال ذلك، ثم يعممون الحكم.

قال: فما فعلته أنت اليوم إذن بهذه المقاييس خرق للعادة!؟

قلت: يمكنك أن تقول ذلك.. بل نحن في عرفنا نصف الكثير من تصرفاتنا بأنها خارقة للعادة، أو أنها مستحيلة.

قال: فكيف أجزتم لأنفسكم ـ وأنتم الممتلئون ضعفا ـ أن تنخرق لكم العوائد، ولم تجيزوا لربكم أن يخرق العوائد لمن شاء، وكيف شاء!؟

قلت: وعيت هذا.. ولكني أعلم أن لله سننا في الكون.. وأنه لا تبديل لسنن الله، فكيف ينسجم هذا مع ما أراه؟

قال: هذا من سنن الله..

قلت: هذا خرق للعوائد.. فكيف تذكر أنه من سنن الله؟

قال: أليست السنن هي القوانين التي تحكم الأشياء؟

قلت: أجل.. فالله نظم الكون بنظام دقيق محسوب لا ينخرق.

قال: سأضرب لك مثالا يوضح لك هذا.. لقد منّ الله تعالى على إبراهيم عليه السلام بأن جعل النار بردا وسلاما عليه، فقال تعالى: ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾﴾ (الانبياء].

قلت: هذا خرق للعادة.. وقد تحقق لإبراهيم عليه السلام، لأنه نبي الله.. ولكن مع ذلك فإن من قومي من يستحيي من ذكر مثل هذا..

قال: نعم إن ما حصل لإبراهيم عليه السلام خرق للعادة، ولكنه ليس خرقا لسنن الله.. بل هو من سنن الله.. فسنن الله مطلقة لا تتبدل، ولا تتغير.

قلت: كيف ذلك؟

قال: لقد كان إبراهيم عليه السلام في تلك اللحظات يعيش حالة إيمانية عالية.. لقد ألقي في المنجنيق ليرمي به إلى ما أضرم له أعداء الله من النار، فلم يتحرك قلبه، ولم ترتعد فرائصه، بل بقي كالطود الأشم لا تزعزعه الرياح، بل سرت السكينة من باطنه إلى ظاهره إلى ما حوله، فأطفأت ببرودتها وسلامها نار النمروذ وزبانيته.

جمعوا الحطب شهرا ثم أوقدوها، واشتعلت واشتدت، حتى إن الطائر كان يمر بجنباتها، فيحترق من شدة وهجها.

ثم قيدوا إبراهيم ووضعوه في المنجنيق مغلولا، وغفلوا أن يقيدوا سكينته، أو عجزوا أن يقيدوها.

وحينذاك ضجت السموات والأرض ضجة واحدة: ربنا! إبراهيم ليس في الأرض أحد يعبدك غيره يحرق فيك، فأذن لنا في نصرته.

وكان الله يعلم ما في قلب إبراهيم، فقال ـ كما يروي المفسرون ـ:(إن استغاث بشيء منكم أو دعاه، فلينصره، فقد أذنت له في ذلك، وإن لم يدع غيري، فأنا أعلم به وأنا وليه).

فلما أرادوا إلقاءه في النار، أتاه خزان الماء – وهو في الهواء – فقالوا: يا إبراهيم إن أردت أخمدنا النار بالماء. فقال: لا حاجة لي إليكم.

وأتاه ملك الريح فقال: لو شئت طيرت النار. فقال: لا.

ثم رفع رأسه إلى السماء فقال:(حسبي الله ونعم الوكيل)

وحينها جعل الله من هذا الذي أرادوا حرقه به بردا وسلاما وبشارة.

قلت: وعيت هذا.. وهذا من خرق السنن، فكيف تعتبره من السنن؟

قال: بل هو من السنن.. فـ ﴿...وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفتح].

قلت: كيف ذلك؟

قال: أرأيت لو أن عالما ـ يحترم نفسه، ويحترم تخصصه، ويحترم العلوم التى وهبت له ـ تمكن من إجراء تجارب معينة فى ظروف معينة، واستنتج قوانين منها، ولكنه لم يتمكن من إجراء تجارب على ظروف أخرى.. فهل يستطيع الحكم على نتائج ما لم يجرب عليه؟

قلت: لو فعل ذلك لخرج عن المنهج العلمى.. ولدخل فى زمرة أهل الخرافة الذين يستخدمون كل ما توحيه لهم أنفسهم من أهواء.

قال: فهذا ينطبق على من ينكر هذه الخارقة، أو يعتبرها خارج سنن الله.

قلت: كيف ذلك؟

قال: لأن إبراهيم عليه السلام كان فى ذلك الحين فى حالة نفسية معينة، حولت من النار الحارقة بردا وسلاما.. فلو أن أحدا مر بنفس ظرف إبراهيم عليه السلام، وبنفس حاله الإيمانية، فإن النار ستبرد له، وستصير سلاما كما صارت على إبراهيم.

قلت: لا يمكن لأحد أن يكون كإبراهيم.

قال: إذن لا يمكن الحكم على شىء لا يمكن التجريب عليه، وإلا كان ذلك الحكم محض خرافة.

قلت: إن ما ذكرته يحتاج إلى تأمل لاستيعابه.. دعنا منه، وأخبرنى عن السنة التى جعلت غرفتك تضاء بالسرج دون غرفتى.. ودون غرف كل أولئك الخلق الذين نراهم.

قال: لا طاقة لى بالتعرف على السنن التى تضبط هذا، ولكنى سأذكر لك حديثا قد يبين لك بعض القوانين التى يمكن أن تستنتجها لهذا.

حدث حنظلة بن الربيع الأسيدى أحد كتاب رسول الله ﷺ، فقال: لقينى أبو بكر رضى الله عنه فقال: كيف أنت يا حنظلة؟ قلت: نافق حنظلة! قال: سبحان الله ما تقول؟! قلت: نكون عند رسول الله ﷺ يذكرنا بالجنة والنار كأنا رأى عين، فإذا خرجنا من عند رسول الله ﷺ عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات نسينا كثيراً، قال أبو بكر رضى الله عنه: فوالله إنا لنلقى مثل هذا، فانطلقت أنا وأبو بكر حتى دخلنا على رسول الله ﷺ فقلت: نافق حنظلة يا رسول الله! فقال رسول الله ﷺ: (وما ذاك؟)، قلت: يا رسول الله نكون عندك تذكرنا بالنار والجنة كأنا رأى عين، فإذا خرجنا من عندك عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات نسينا كثيراً. فقال رسول الله ﷺ: (والذى نفسى بيده لو تدومون على ما تكونون عندى، وفى الذكر، لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفى طرقكم، ولكن يا حنظلة ساعةً وساعةً) ثلاث مرات[1].

قلت: أفى هذا الحديث قوانين تشير إلى هذا؟

قال: أجل.. لقد ذكر رسول الله ﷺ شيئا خارقا فى تصوراتنا الهزيلة، وهو مصافحة الملائكة لنا، وذكر لها سببين، عبر عنهما رسول الله ﷺ بقوله: (لو تدومون على ما تكونون عندى، وفى الذكر)

فأولهما الديمومة على استذكار المعانى الإيمانية التى كان يذكر بها رسول الله ﷺ، والثانى هو الديمومة على الذكر.

قلت: وعيت هذا.. وقد ذكرنى حديثك هذا بحديث آخر يذكر هذه السرج الجميلة التى نستضىء الآن بضوئها.

---

(1) رواه مسلم.

قال: لا أعرفه.. فحدثني به.

قلت: حدث أسيد بن الحضير عن نفسه، فذكر أنه بينما كان يقرأ من الليل سورة البقرة، وفرسه مربوطة عنده، إذ جالت الفرس، فسكت فسكنت، ثم قرأ، فجالت، فسكت فسكنت، ثم قرأ فجالت الفرس، فانصرف، وكان ابنه يحيى قريبا منها، فأشفق أن تصيبه، فلما اجتره رفع رأسه إلى السماء حتى ما يراها، فلما أصبح حدث النبي ﷺ فقال: (اقرأ يا ابن حضير، اقرأ يا ابن حضير)، قال: فأشفقت يا رسول الله أن تطأ يحيى، وكان منها قريبا، فرفعت رأسي وانصرفت إليه، فرفعت رأسي إلى السماء، فإذا مثل الظُّلَّة، فيها أمثال المصابيح، فخرجت حتى لا أراها قال: (أو تدري ما ذاك؟)، قال: لا، فقال ﷺ: (الملائكة دَنَتْ لصوتك، ولو قرأت لأصبحت تظر الناس إليها لا تتوارى منهم)[1].

وفي رواية أخرى عن أسيد بن حضير قال: قلت: يا رسول الله، بينما أنا أقرأ البارحة بسورة، فلما انتهيت إلى آخرها سمعت جبة من خلفي، حتى ظننت أن فرسي تطلق، فقال رسول الله ﷺ: (اقرأ أبا عتيك) مرتين، قال: فالتفت إلى أمثال المصابيح ملء بين السماء والأرض، فقال رسول الله ﷺ: (اقرأ أبا عتيك)، فقال: والله ما استطعت أن أمضي فقال: (تلك الملائكة نزلت لقراءة القرآن، أما إنك لو مضيت لرأيت الأعاجيب).

قال: فهذا الحديث الذي قرأته يبين لك أن ما تراه ليس شيئا غريبا.. إنه فضل من فضل الله يكرم الله به من توفرت فيه أسباب تنزل ذلك الكرم..

إنه يشبه حرصك على بأن أتيتني بالسراج خارقا بذلك سنتك في حياتك جميعا..

قال ذلك، ثم رمى ببصره إلى السماء، وسبح في آفاقها البعيدة، وقال: ألا يرمي هؤلاء المساكين الذين ينكرون هذا بأبصارهم إلى السماء ليروا هذا الكون العريض؟

أليس الذي خلق كل هذا بقادر على أن يخلق أي شيء؟

إن حياتنا جميعا خوارق يعجز العقل عن تفسيرها.. فكيف ينكر العقل الذي يعجز عن تفسير كل شيء ما لا يستطيع فهمه أو إدراكه؟

نظرت إلى الساعة، فوجدتنا قد قطعنا شوطا طويلا من الليل، فأخذت السراج، وأردت أن أنصرف، فقال: اجلس..

قلت: لقد خشيت أن أكون قد آذيتك.. وإلا فإن الحديث معك لا يمل.

قال: اجلس لأحدثك عن رحلتي الرابعة التي اكتشفت فيها أشعة جديدة من شمس محمد ﷺ.. فلا حال أنسب للحديث عن هذه الأشعة من هذا الحال، ولا وقت أنسب لها من هذا الوقت.

تحت أشعة تلك السرج الجميلة بدأ البابا يحدثني عن رحلته الرابعة إلى الإسلام.

قال: لقد انتهينا في حديثنا ـ أمس ـ إلى رسالة الكنيسة لي، والتي تأمرني فيها بالذهاب إلى الهند، وإلى مدينة من مدنها الفقيرة، وقد عرفت سر اختيار تلك المدينة، وعرفت أن أخي التوأم هو الذي أوحى لهم بذلك، فقد صار له منزلة رفيعة عندهم.

لقد كان يعرف توجهي العقلي.. ويعرف مثله بغضي للتخلف.. فأراد من خلال هذه الرحلة أن أتعرض لما يفاجئني.. فأرى الخرافة التي تصادم توجهي العقلي، وأرى الفقر الذي يصادم بغضي للتخلف.

---

(1) صحيح البخاري برقم (5018).

ولكن الله شاء أن أتعرض فى تلك المدينة الفقيرة.. والجميلة بفقرها.. إلى أشعة لم أكن لأظفر بها لولا أن قيض الله لى تلك الرحلة.

امتطيت الطائرة المتوجهة إلى الهند..

ولست أدرى كيف خطر على بالى العذراء.. لقد ارتسمت صورتها التى رأيتها فى مخيلتى.. كما ارتسمت الكلمات التى ذكرتها لى فى أذنى[1]..

لقد صرت أسمعها فى اليقظة كما سمعتها فى النوم.. وهى تصيح فى بصوتها الرقيق الحنون.. والذى يحمل شدة مكسوة برحمة.. تقول لى: ابحث عن الشمس التى بشرت بها الأنبياء، وتحطمت أمام أشعتها الطواغيت.. ومن أفواهها سارت الكلمات المقدسة.

ابحث عن الشمس التى فتحت لها خزائن العلوم، وخرقت لها أسوار الأقدار، وامتلأت القلوب حبا لها، وشوقا إليها.

ابحث عن الشمس التى هى رحمة وعدل وسلام.

ابحث عن الشمس التى تبشرك بحقيقة الوجود، وحقيقة الإنسان، وحقيقة الحياة.

فلن ينقذك من بردك وظلمتك إلا هذه الشمس.

قالت ذلك، ثم انصرفت فى طى الغيب، كما جاءت..

أما أنا، فبقيت أتأمل ما ذكرت..

لقد رأيت البشارات.. وانطباقها على محمد ﷺ.

ورأيت الكلمات المقدسة.. وانطباقها على القرآن الكريم.

ورأيت خزائن العلوم، وهى تنفتح على آيات القرآن، وفى كلام محمد ﷺ.

رأيت كل ذلك.. ولكن قلبى لا يزال فى شك من أمره..

تألمت كثيرا لذلك الشك.. ووددت أن أصيح ليسمعنى الكل.. ولكنى جبنت عن ذلك.. وكأن الله أراد لقلبى المزيد من الأنوار.. والمزيد من الأشعة.

لست أدرى كيف خطر على بالى صاحبك معلم السلام.. فقد تعودت أن يصاحبنى فى بداية كل رحلة ليدل عقلى على منهج التفكير السليم..

التفت، فإذا هو بجانبى، كعهدى به، مشرقا كالشمس، هادئا كصفحة الماء التى لم تعبث بصفائها التيارات.

ابتسم، وقال: ألا تزال تذكر رؤياك للعذراء؟

قلت: أجل.. وقد كانت تخطر على بالى الساعة.. بل كان صوتها العذب الجميل يترنم بألحانه العذبة الآن فى أذنى.

قال: فهل أسمعتك حديث الخوارق؟

كنت فى ذلك الحين لا أؤمن بالخوارق.. حتى ما ورد عن المسيح.. كنت أقلد فيها تقليدا.. لقد كان توجهى العقلى يكاد يحيلنى ملحدا فى هذا الباب.

قلت: أجل.. أنت لا تزال تذكر تلك الرؤيا إذن.. أنت تنعم بذاكرة طيبة.

ابتسم، وقال: ذاكرتك تبع لهمتك.. وهمتك تبع لطبيعتك.. وطبيعتك تبع لحقيقتك.

قلت: وحقيقتك تبع لمن؟

قال: تبع لإرادتك.. فلن يصنعك غيرك.. أنت الذى تقرر كيف تكون.

---

(1) انظر مقدمة رسالة (أنبياء يبشرون بمحمد) من هذه السلسلة.

قلت: ولكن الإرادة قد يعتريها ما يملؤها بالعجز، فتقع في أدغال الجبن.

قال: لقد زود الله الإرادة بما يخرجها من كل السجون..

قلت: حتى لو رميت مفاتيح سجونها في أعماق المحيط!؟

قال: حتى لو رمى بمفاتيحها في أدغال المجرات.. فإن الروح تستطيع أن تصرخ مستغيثة ليأتيها المدد من كل مكان..

قلت: بالعوائد.. أم بخرق العوائد؟

قال: ليس هناك شيء اسمه عوائد.. فلذلك لا وجود لخرق العوائد.

قلت: العوائد هي القوانين التي يسير بها الكون.. فكيف تزعم عدم وجودها؟

قال: العوائد تعني التكرار.. ولا تكرار عند ربك.. إن ربك هو البديع الذي لا يكرر صنعه..

قلت: ولكنا نرى القوانين السارية..

قال: أنتم ترونها بعين الغفلة.. فلذلك ترونها تكرارا.. ولكنكم لو رأيتموها بعين الحقيقة لرأيتم في كل قديم جديدا، وفي كل حادث حديثا.

إن الكون الذي ترونه كآلات تتحرك بتلقائية، فتشبهونه بآلاتكم التي تتفنون في صنعها أشبه ما يكون بتلك العرائس التي تحتاج من يحركها.. فإذا رآها الغبي الغافل تصورها تتحرك من ذاتها.

قلت: لقد ذكرت لي العذراء أن القوانين تُخرق لتلك الشمس التي بشرتني بها.

قال: لا بد للقوانين أن تُخرق لكل شمس، لتثبت أنها شمس.. فلا يمكن لطاقة الشمس أن تكون كطاقة السرج التي تستضيئون بها.

قلت: فما حاجة الشمس لأن تخرق لها العادات؟

قال: ليعرف الناس أنها من مصدر علوي..

ثم التفت إلي، وقال: أنت الآن ذاهب إلى الهند.. وهناك لا يعرفك أحد.. وستذهب إلى قوم قد ينكرونك، وقد يطردونك من بينهم، فما الذي تفعله لتثبت لهم أنك أنت أنت، وأن وظيفتك هي وظيفتك؟

قلت: لا تخف علي من ذلك.. فهناك من أنبأهم بأني سآتي..

قال: فهناك من بشرهم بقدومك إذن[1].

قلت: تستطيع أن تقول ذلك..

قال: ولكن.. يمكن أن يستغل أحد من الناس تلك المبشرات، فيدعي أنه المبشر بها دونك، فكيف يميز بين الكاذب والصادق منكما؟

قلت: ذلك بسيط.. لدي في هذه الحقيبة كل الوثائق الدالة على هويتي ووظيفتي، ولن يستطيع أحد من الناس أن يأتي بمثلها.

قال: ولكن يمكن أن يزور وثائق مثلها.

قلت: يمكن أن يزور الكتابة.. ولكن هناك أشياء مهمة يستحيل تزويرها، وهي تعرف بالمصدر الذي ابتعثني لهذه الوظيفة.

قال: فتقليدها مستحيل إذن.

قلت: أجل.. لقد ابتكر قومي في هذا الباب وسائل خارقة يستحيل تقليدها.

---

(1) انظر: أنبياء يبشرون بمحمد، من هذه السلسلة.

قال: فـربك يفعل هذا إذن مع الشـمس التى يرسلهـا لتضىء على خلقـه.. فهو لا يـكتفى بالبشارات التى تبشر بها، بل يعطيها من القوى والخوارق ما يعجز الدجالون عن تقليده.

قال ذلك، ثم قام مستأذنا، بعد أن طلبت المضيفة المشأومة أوراقه.

بقيت متأمـلا ما قال، فوصلت إلى نتيجـة نفت عن عقلى ما كان يتمسك بـه مما يعتبره روح العلم وحقيقته.

لقـد صرت أدرك أن الله تعـالى لا بد أن يمد عـباده الذين يـصطفيـهم بما يؤكد كـونهم من عنده.. حتى يقطع الطريق على الدجالين من المتنبئين.

***

كان فى المقعد الأمامى للطائرة شابان يتحدثان بحمـاسة، وقد ارتفعت أصواتهما، وكل منهما يريد أن يفرض قناعته على أخيه.

قال أحدهمـا، وهو عبد الحكيم[1]، على حسب ما عرفت بعـد ذلك: اسمع.. يا أخى عبد القادر.. إن الذى تقوله خطير جدا.

قال عبـد القادر: لست أرى أى خطورة فيه.. بل لا أرى شيئـا يناسب تلك البلاد، ويناسب أهلها والظروف التى يمرون عليها إلا هذا.

قال عبد الحكيم: ولكن ألا تخشى من ثورة الخبراء والعلماء على الإسلام كما ثاروا قبل ذلك على الكنيسة؟

قال عـبد القادر: نحن لا نزعم أن هـذه قوانين تنطبق على كل الناس.. هذه أحكام خـاصة ارتبطت ببيئة خاصة، وكان قصدها تحقيق أهداف خاصة.

قال عبد الحكـيم: ولكنا يمكن أن نتوسل للإقناع بذلك بأدلة أخرى كثيـرة غير هذه.. يمكننا أن نـستدل ببلاغة القرآن الكريم.

قال عبد القادر: هم لا يعرفون العربية، فكيف نقنعهم ببلاغة القرآن الكريم؟

قال عبد الحكيم: فنقنعهم بعلومه؟

قال عـبد القادر: هم يتخـبطون فى مستنقـعات الجهل التى فـرضها عليـهم عدوهم، فكيف يفهمون ما تقول؟

قال عبد الحكيم: نقنعهم بتشريعات الإسلام وتنظيماته.

قال عـبد القادر: هم لن يفـهموا كل هذا.. هم قـوم لا يؤثر فيهـم شىء مثلما تؤثر فـيهم الخوارق.. إن آباءهم هم الذين اخـترعوا فنون اليوغـا، وأنواع السحر.. إنهم لا يؤمنون بشىء كـما يؤمنون للخوارق..

وقد استغلت الكنيسة القائمة هناك هذه الطبيعة المتأصلة فيهم، فراحت تستنفر لها كل ما روى عن المسيح عليه السلام من الخوارق، لا لتثبت لهم نبوته، بل لتثبت لهم إلهيته.

---

(1) الأسماء التى نوردها فى العادة فى هذه الرسـائل وغيرها تكون لها دلالة معنوية خاصة، فعبـد الحكيم يشير هنا إلى عالم الحكمة والأسباب والسنن الإلهيـة التى يسير عليها الكون، وعبد القادر يشير إلى الناحـية الثانية المكملة لهذه الناحية، وهى أن قدرة الله لا يحدها شىء، ولا يحكم عليها شىء.

والإشارة فيهما ـ كالإشارة فى الرسالة السـابقة (معجزات علمية) فى شخصية على وحذيفة.

فعبد القادر فى هذه الرسالة يمثل الحديث عن القدرة الإلهية، والخوارق المرتبطة بها، ويمثل فى نفس الوقت جمهـور المسلمين القائلين بذلك، وعبـد الحكيم يمثل عالم الحكمة، وهو يمثل طائـفة من الناس ظهرت فى هذا العصر تحاول التهرب من المعجزات خشية من تلبس الدين بالخرافة.

قال عبد الحكيم: أجل.. وقد علمت أن مبشرا خبيرا قدم تلك البلاد.. واسمه (بولس) وقد كان لهذا الرجل أثره الخطير في ردة الكثير من المسلمين في إفريقيا، فله القدرة على تصوير الخوارق ببلاغة، وكأنها تحدث أمامك.

قال عبد القادر: أفنترك هذا الرجل يعيث في الأرض فسادا، ونظل نتجادل.

قال عبد الحكيم: لم أقصد أن أجادلك، ولكني أردت أن نتحرى الحقيقة فيما تقول، خشية أن يتسرب لدينا من الخرافة ما يكدر صفوه.

قال عبد القادر: لا تخف.. فنحن أحرص الناس على صفاء الدين.. إن الأدلة التي نستند إليها في إثبات ما نقوله تعجز كل الدنيا عن ردها..

قال عبد الحكيم: فما ترى من سبيل لرد دعوة هذا المبشر؟

قال عبد القادر: ذلك بسيط.. أخرج ورقة وقلما.. وتعال أخبرك بما سنفعل.

أخرج عبد الحكيم ورقة من محفظته، وراحا يهمسان بما سيفعلانه.

***

وصلت إلى الهند، فاستقبلني الرجل الموكل بكنيستها، ولست أدري كيف عرفني، لقد جاء، واحتضنني، وقال: مرحبا بك معنا رسولا من رسل المسيح.

ثم عرفني بنفسه، وأنه (بولس) ـ الذي كان يتحدث عنه عبد القادر وعبد الحكيم ـ وحدثني، والسرور يهز نفسه، عن الفتوح العظيمة التي فتحت له في إفريقيا.

لقد كان بولس من خلال كلماته وحركاته كتلة عجيبة من النشاط قل نظيرها، وكان له من الإخلاص والصدق بقدر ما كان له من النشاط، فلم يكن يرغب في أي مسؤولية أو وظيفة غير وظيفة التبشير، قال لي: في الحقيقة أنا لا أصلح لتولي هذه المسؤولية التي أنيطت بي في هذه الكنيسة.. أنا لا أصلح لأن أكون مسؤولا.. ولذلك فقد سررت كثيرا بمجيئك.. فأنت الذي ستتحمل ما يرتبط بهذه الكنيسة من مسؤوليات.. أما أنا، فدعني أسير بين الناس أبشر بذلك المخلص الذي فدانا على خشبة الصليب.

قلت: هل لي أن أسير معك، لأتعلم على يديك فنون التبشير.

قال: إن ذلك يسرني.. سوف أعلمك من أساليب التبشير في هذه البلاد ما يجعل الناس يتهافتون عليك كما يتهافت الفراش على النار.

ابتسم، وقال: عذرا.. أنا دائما لا أعرف صياغة التشبيهات.. أقصد.. يتهافتون عليك كما يتهافت النحل على الأزهار.

قلت: من أين لك هذه القدرة العجيبة؟

قال: لقد اكتسبتها من طول المدة التي مكثتها في إفريقيا.. تصور.. لقد استطعت عن طريق قصي لحادثة واحدة ـ هي حادثة إحياء المسيح لبنت يايرس، والتي وردت قصتها في (مرقس 5: 21-43)[1]ـ من إدخال الآلاف المؤلفة رحاب الكنيسة.

قلت: وهل يصدق الناس أنباء الخوارق بسهولة؟

قال: وهل تتصور أن هناك دينا من غير خوارق.. الدين لا يثبت إلا بالخوارق.. بل ولا يستمر إلا بالخوارق.. بل إن الكنيسة في جميع أطوارها التاريخية اعتمدت هذا الأسلوب.. حتى

(1) ستأتي قصتها في فصل (تحديات) مبحث (الخوارق والألوهية)

بولس.. بولس الرسول.. لولا تلك الخارقة التى حصلت له[1] ما كان ليصير بولس الذى يزاحم الحواريين، بل يبعدهم عن طريقه، ويسبقهم مكانة وتقديرا ودورا.

قلت: أليس فى هذه البلدة مسلمون؟

قال: بلى.. كما كان فى إفريقيا التى بشرت فيها مسلمون.. إن الإسلام ييسر لنا التبشير أكثر من أى دين آخر.. فالمسلمون يؤمنون بالله أصلا، فلذلك لا نحتاج لأن نقنعهم بالله، بل نكتفى بإضافة ابن لله.. فيتحولون من الإسلام إلى المسيحية.

قلت: فإن حصلت اعتراضات من المسلمين، أو ناقشنا بعضهم!؟

قلت هذا، وأنا أشير إلى عبد القادر وعبد الحكيم اللذين سمعت عزمهما على تعطيل محاولات (بولس) التبشيرية.

قال: نرحب بكل كلمة تقال.. بل نسمع لها.. ولو حصل ذلك، فإنا نكون أنشط لما نقول.. وقد نجد من الشبهات حينها ما نمطرهم به..

قلت: متى تبدأ جلساتنا التدريبية؟

قال: من الغد.. غدا تبدأ تلك الجلسات أو تلك الخرجات.. لقد نذرت حياتى للمسيح.. ولا ينبغى أن أضيع لحظة منها.

---

(1) الخارقة التى حصلت لبولس، والتى جعلت المسيحيين يولونه كل ذلك الاهتمام هى أنه رأى المسيح بعد رفعه بسنوات، فبينما هو ذاهب إلى دمشق فى مهمة لرؤساء الكهنة تجلى له المسيح دون القافلة التي كان يسير معها، وفي ذلك التجلى منحه منصب الرسالة.. وكان مما قاله له: «ولَكِنْ قُمْ وَقِفْ عَلَى رِجْلَيْكَ لأَنِّي لِهَذَا ظَهَرْتُ لَكَ لأَنْتَخِبَكَ خَادِماً وَشَاهِداً بِمَا رَأَيْتَ وَبِمَا سَأَظْهَرُ لَكَ بِهِ مُنْقِذاً إِيَّاكَ مِنَ الشَّعْبِ وَمِنَ الأُمَمِ الَّذِينَ أَنَا الآنَ أُرْسِلُكَ إِلَيْهِمْ لِتَفْتَحَ عُيُونَهُمْ كَيْ يَرْجِعُوا مِنْ ظُلُمَاتٍ إِلَى نُورٍ وَمِنْ سُلْطَانِ الشَّيْطَانِ إِلَى اللهِ حَتَّى يَنَالُوا بِالإِيمَانِ بِي غُفْرَانَ الْخَطَايَا وَنَصِيباً مَعَ الْمُقَدَّسِينَ» (أعمال 26/ 16-18)

## أولا - إرهاصات

فى اليـوم الأول.. خرجت مع بولس إلى الـقرية الهندية الفـقيـرة الجـميلة.. فـرأينا الناس مجتمعين حول بيت من البيوت، وهم ممتلئـون فرحا وسعادة، وقد علمنا أن سبب فرحهم يرجع إلى ولادة مولود لأحدهم، كـان به مرض يمنعه من الإنجاب، ولكن الله قـدر أن يرزقه هذا الولد بعد أن هرم، وكاد يرد إلى أرذل العمر.

اقتربنا منهم، لنهنئـهم بذلك الميلاد السعيد، فـسمعنا ذلك الشيخ الوقور يحدث أضـيافه عن دعائه الله بأن يرزقه ولدا صالحا، وكيف رأى الرؤى الصالحة التى تبشره بميلاد ذلك الولد.. وحدثهم عن أشياء كثيرة ترتبط بميلاد ذلك الولد هى أقرب للخوارق منها إلى العادات.

هنا تحين بولس الفرصة ليبدأ تبشيره.

قال بولس: إن ما تذكرونه من إرهاصات بمولد هذا الصبى يذكرنا بالمسيح..

لقد كانت للمسيح إرهاصات كثيرة ارتبطت بمولده الشريف.

إن حادث ميلاد المسيح لم يكنْ له مثيل فى تاريخ البشريَّة، فقد كان مظاهرة سمائيَّة وأرضيَّة، فرحٌ فى السماء، وبهجةٌ على الأرض.

فبالرغم من أنَّه وُلِدَ فى مزود حقير للبقر، إلاَّ أنَّ ما حدث كان أكبر وأروع من أنْ يحدث مع أىّ من أبناء البشر مهما كانت مكانتهم على الأرض.

لقد جاء ملاك من السماء، ومعه جمهور من الجند السماوىّ فى احتفال سمائىّ، وبشَّر جماعة من الرعاة بميـلاد المسيح الذى وصفـه بالمخلِّص الربّ:(وَإِذَا مَلاَكُ الرَّبِّ وَقَفَ بِهِمْ وَمَجْـدُ الرَّبِّ أَضَاءَ حَوْلَهُمْ فَخَافُوا خَوْفًا عَظِيمًا. فَقَالَ لَهُمُ الْمَلاَكُ: (لاَ تَخَافُوا. فَهَا أَنَا أُبَشِّرُكُمْ بِفَرَحٍ عَظِيمٍ يَكُونُ لِجَمِيعِ الشَّعْبِ: أَنَّهُ وُلِدَ لَكُمُ الْيَـوْمَ فِى مَدِينَةِ دَاوُدَ مُخَلِّصٌ هُوَ الْمَـسِيحُ الرَّبُّ. وَهذِهِ لَكُمُ الْعَلاَمَـةُ: تَجِدُونَ طِفْلاً مُقَـمَّطًا مُضْجَعًا فِى مِذْوَدٍ). وَظَـهَرَ بَغْتَةً مَعَ الْمَلاَكِ جُمْـهُورٌ مِنَ الْجُنْدِ السَّمَاوِىِّ مُـسَبِّحِينَ اللهَ وَقَائِلِينَ:(الْمَجْدُ للَّهِ فِى الأَعَالِى وَعَلَى الأَرْضِ السَّلاَمُ وَبِـالنَّاسِ الْمَسَرَّةُ). وَلَمَّا مَضَـتْ عَنْهُمُ الْمَلاَئِكَةُ إِلَى السَّمَـاءِ قَالَ الرُّعَـاةُ بَعْضُـهُمْ لِبَعْضٍ: (لِنَذْهَبِ الآنَ إِلَى بَيْتِ لَحْمٍ وَنَنْظُرْ هذَا الأَمْـرَ الْوَاقِعَ الَّذِى أَعْلَمَنَا بِهِ الرَّبُّ). فَجَـاءُوا مُسْرِعِينَ وَوَجَدُوا مَـرْيَمَ وَيُوسُفَ وَالطِّفْلَ مُضْجَعًـا فِى الْمِذْوَدِ. فَلَمَّا رَأَوْهُ أَخْبَرُوا بِالْكَلاَمِ الَّذِى قِيلَ لَهُمْ عَنْ هذَا الصَّـبِىِّ. وَكُلُّ الَّذِينَ سَمِعُوا تَعَجَّبُوا مِـمَّا قِيلَ لَهُمْ مِنَ الرُّعَاةِ. وَأَمَّا مَرْيَمُ فَكَانَتْ تَحْفَظُ جَمِيعَ هذَا الْكَلاَمِ مُتَفَكِّرَةً بِهِ فِى قَلْبِهَا)(لوقا: 2/8-19)

وهذا ما لم يحدث ولن يحدث مع أىّ كائنٍ ظهر على الأرض، لم تهتف السماء لميلاد أحد، ولم تسبِّح الملائكة لميلاد أحد، سواء كان نبيًا أو رسولاً أو قديسًا، سوى شخص المسيح فقط.

التفت إلى الجمع المندهش لحديثه، وقال: أتدرون لماذا؟

ثم أجاب نفسه بنفسه: لأنَّ المسيح هو فوق الكلّ، أو كما قال هو فى مقارنة بينه وبين كلّ من وُجِدَ على الأرض فَقَالَ لَهُمْ:(أَنْتُمْ مِنْ أَسْفَلُ أَمَّـا أَنَا فَمِنْ فَوْقُ. أَنْتُمْ مِنْ هذَا الْعَالَمِ أَمَّا أَنَا فَلَسْتُ مِنْ هذَا الْعَالَمِ)(يوحنا: 8/23)، وقال القـديس يوحنا بالروح (الَّذِى يَأْتِى مِنْ فَوْقُ هُوَ فَوْقَ الْجَـمِيعِ وَالَّذِى مِنَ الأَرْضِ هُوَ أَرْضِىٌّ وَمِنَ الأَرْضِ يَتَكَلَّمُ. اَلَّذِى يَأْتِى مِنَ السَّمَاءِ هُوَ فَوْقَ الْجَمِيعِ)(يوحنا: 3/31)

ابتسم ابتسامة عريضة، ثم قال: ليس ذلك فقط.. هناك المزيد من الإرهاصات..

لقد جـاء المجوس، وهم حكمـاء علماء، من المشـرق، يحملون هدايا لهـذا المولود الإلهىّ، وكان قد ظهر لهم نجم من السماء ليُبلغـهم بخبر الميلاد ويُرشدهم فى الطريق للوصول إلى هذا الطفل

الإلهي، يقول الكتاب: (وَلَمَّا وُلِدَ يَسُوعُ فِي بَيْتِ لَحْمِ الْيَهُودِيَّةِ فِي أَيَّامِ هِيرُودُسَ الْمَلِكِ إِذَا مَجُوسٌ مِنَ الْمَشْرِقِ قَدْ جَاءُوا إِلَى أُورُشَلِيمَ. قَائِلِينَ: (أَيْنَ هُوَ الْمَوْلُودُ مَلِكُ الْيَهُودِ؟ فَإِنَّنَا رَأَيْنَا نَجْمَهُ فِي الْمَشْرِقِ وَأَتَيْنَا لِنَسْجُدَ لَهُ)، وَإِذَا النَّجْمُ الَّذِي رَأَوْهُ فِي الْمَشْرِقِ يَتَقَدَّمُهُمْ حَتَّى جَاءَ وَوَقَفَ فَوْقُ حَيْثُ كَانَ الصَّبِيُّ. فَلَمَّا رَأَوْا النَّجْمَ فَرِحُوا فَرَحًا عَظِيمًا جداً وَأَتَوْا إِلَى الْبَيْتِ وَرَأَوْا الصَّبِيَّ مَعَ مَرْيَمَ أُمِّهِ فَخَرُّوا وَسَجَدُوا لَهُ ثُمَّ فَتَحُوا كُنُوزَهُمْ وَقَدَّمُوا لَهُ هَدَايَا: ذَهَبًا وَلُبَانًا وَمُرًّا)(متى: 2/1-12)

قال رجل من الجمع، عرفت بعد ذلك أنه مستأجر من بولس للقيام بدور السائل والمتأثر: ما هذا النجم يا مولانا.. إن خبره لعجيب!؟

سر بولس لهذا السؤال، وقال ـ متوجها للسائل ـ: بورك فيك.. لقد آتاك الله ذكاء وفهما.. وسؤالك هذا يدل على ذلك.

إن علماء اللاهوت ذكروا أنّ هذا النجم قد يكون نجمًا حقيقيًا جعله اللّه يتحرك خارج إطار قانون وناموس الكون ويظهر بصورة إعجازيّة، ليُرشد المجوس إلى ميلاده ومكان ولادته.

وإمّا أنّه ملاك ظهر في شكل نجم ليقوم بنفس المهمّة.

فإذا اعتبرناه نجما حقيقا ـ كما هو الظاهر ـ فإنه بذلك يعبر عن أن الأفلاك السمائيّة شاركت هي أيضا في الاحتفال بهذا المولود الإلهي.

التفت إلى الجمع، وقال: فهل حدث مثل هذا عند ميلاد أحد الأنبياء؟! ولماذا حدث ذلك عند ميلاد المسيح؟ والإجابة هي كما قال الملاك أنه هو (المسيح الرب)، وليس سواه.

أظهر مستأجر بولس الكثير من الاستغراب والدهشة لكلام بولس، وقال: إن هذا لعجيب.. فهل هناك غيره؟

قال بولس: أجل.. في وقت ختانه في اليوم الثامن في الهيكل حسب عادة اليهود جاء رجل من أورشليم اسمه سمعان، وهذا الرجل يقول عنه الكتاب أنّه كان (بَارًّا تَقِيًّا يَنْتَظِرُ تَعْزِيَةَ إِسْرَائِيلَ وَالرُّوحُ الْقُدُسُ كَانَ عَلَيْهِ. وَكَانَ قَدْ أُوحِيَ إِلَيْهِ بِالرُّوحِ الْقُدُسِ أَنَّهُ لاَ يَرَى الْمَوْتَ قَبْلَ أَنْ يَرَى مَسِيحَ الرَّبِّ. فَأَتَى بِالرُّوحِ إِلَى الْهَيْكَلِ. وَعِنْدَمَا دَخَلَ بِالصَّبِيِّ يَسُوعَ أَبَوَاهُ لِيَصْنَعَا لَهُ حَسَبَ عَادَةِ النَّامُوسِ أَخَذَهُ عَلَى ذِرَاعَيْهِ وَبَارَكَ اللهَ وَقَالَ: (الآنَ تُطْلِقُ عَبْدَكَ يَا سَيِّدُ حَسَبَ قَوْلِكَ بِسَلاَمٍ لأَنَّ عَيْنَيَّ قَدْ أَبْصَرَتَا خَلاَصَكَ الَّذِي أَعْدَدْتَهُ قُدَّامَ وَجْهِ جَمِيعِ الشُّعُوبِ. نُورَ إِعْلاَنٍ لِلأُمَمِ وَمَجْداً لِشَعْبِكَ إِسْرَائِيلَ). وَكَانَ يُوسُفُ وَأُمُّهُ يَتَعَجَّبَانِ مِمَّا قِيلَ فِيهِ. وَبَارَكَهُمَا سِمْعَانُ وَقَالَ لِمَرْيَمَ أُمِّهِ: (هَا إِنَّ هَذَا قَدْ وُضِعَ لِسُقُوطِ وَقِيَامِ كَثِيرِينَ فِي إِسْرَائِيلَ وَلِعَلاَمَةٍ تُقَاوَمُ. وَأَنْتِ أَيْضاً يَجُوزُ فِي نَفْسِكِ سَيْفٌ لِتُعْلَنَ أَفْكَارٌ مِنْ قُلُوبٍ كَثِيرَةٍ)(لوقا: 2/25-36)

وكان هناك ـ أيضًا ـ في الهيكل امرأة نبيّة اسمها حنّة يقول عنها الكتاب: (وَكَانَتْ نَبِيَّةٌ حَنَّةُ بِنْتُ فَنُوئِيلَ مِنْ سِبْطِ أَشِيرَ وَهِيَ مُتَقَدِّمَةٌ فِي أَيَّامٍ كَثِيرَةٍ قَدْ عَاشَتْ مَعَ زَوْجٍ سَبْعَ سِنِينَ بَعْدَ بُكُورِيَّتِهَا. وَهِيَ أَرْمَلَةٌ نَحْوَ أَرْبَعٍ وَثَمَانِينَ سَنَةً لاَ تُفَارِقُ الْهَيْكَلَ عَابِدَةً بِأَصْوَامٍ وَطِلْبَاتٍ لَيْلاً وَنَهَاراً. فَهِيَ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ وَقَفَتْ تُسَبِّحُ الرَّبَّ وَتَكَلَّمَتْ عَنْهُ مَعَ جَمِيعِ الْمُنْتَظِرِينَ فِدَاءً فِي أُورُشَلِيمَ. ° (لو2/ 36-38).

فجاء سمعان إلى الهيكل بالروح، وكان الروح القدس قد سبق أنْ وعد أنْ لا يرى الموت قبل أنْ يرى المسيح الربّ، وتكلّمت عنه حنّة النبيّة مع جميع الذين كانوا يتوقّعون ميلاده، بحسب النبوات، جميع المنتظرين الفداء الذي كان سيأتي من إسرائيل.

قال ذلك، ثم التفت للجمع، وقال: هذا ما حدث في ميلاد المسيح.. فهل حدث مثل ذلك عند ولادة أي نبيّ أو رئيس أنبياء أو أيّ شخص ظهر على الأرض مهما كانت أهميّته؟

ثم أجاب نفسه بنفسه: بالطبع لم يحدث مثل ذلك إلاَّ فى ميلاد الربّ يسوع لأنّه ليس مجرّد شخص عادىّ، ولا هو مجرّد نبىّ، بلْ هو المسيح الرب الذى ظهر فى الجسد، فهو مرسل الأنبياء.

لم يكن بولس يتصور أن يفاجأ بأى اعتراض، فقد كان يتصور أنه يتكلم مع أميين جهلة لا علم لهم يناقشون به ما يقال، ولا عقول لهم تستطيع أن تعترض على ما يقال.

لكنه فوجئ بصوت يريد أن يناقشه.. وقد فوجئت مثله، لا بالاعتراض، وإنما بصوت المعترض.. لقد عرفته.. إنه صوت عبد القادر، ذلك الرجل الذى سمعته يتحدث مع عبد الحكيم فى الطائرة..

لست أدرى كيف شعرت بسرور عظيم، وأنا أسمع صوته، وكأن روحى أدركت أنها ستنال من ذلك الصوت المزيد من أشعة شمس محمد ﷺ.

قال عبد القادر: إن أذنت لى ـ حضرة القس الفاضل ـ فإن قرآننا قد ذكر فى ميلاد المسيح من العجائب ما لم تذكره، سأقرأ عليك ما ورد فى القرآن الكريم من ميلاد المسيح عليه السلام.

فتح عبد القادر المصحف، وراح يقرأ بخشوع ما ورد فى قصة ميلاد المسيح من سورة مريم:

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾ [مريم].

رفع رأسه، والتفت إلى بولس، وقال: هذه هى قصة ميلاد المسيح عليه السلام كما وردت فى القرآن الكريم..

إن المسيح عليه السلام ولد من عذراء.. وقد حصل لأمه فى فترة حملها من البركات والخيرات ما ذكره القرآن الكريم.

وعند ميلاده أنطقه الله فى المهد ليصور حقيقته ووظيفته التى أنيطت به على هذه الأرض، لقد كانت أول كلمة قالها، وأشرف كلمة قالها هى ـ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ـ (مريم: من الآية30).. لقد بدأ بإعلان عبوديته لله، فليس هو ابن الله، ولا هو الله، ولا هو ثالث ثلاثة هم إله واحد، وهم فى نفس الوقت ثلاثة آلهة.

ثم يذكر أن الله جعله نبيا، لا ولدًا ولا شريكا، وأنه بارك فيه، وأوصاه بالصلاة والزكاة مدة حياته وأوصاه بالبر بوالدته والتواضع مع عشيرته.. وأنه قدر له السلام والأمان والطمأنينة يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيًا.

ظهر عبد الحكيم، هو الآخر، وقال: هذا ما يقوله العقل والمنطق.. فلا يمكن لهذا الكون أن يكون له إله غير إله واحد.. إن النظام والتناسق والدقة تدل على أن المبدع واحد.

هنا تدخل مستأجر بولس، وأراد أن ينقذ الموقف، فقال: ولكن ما تقول فى تلك المعجزات العظيمة التى صاحبت ميلاد المسيح.. لقد ولد كما ذكرت من عذراء..

ابتسم عبد الحكيم، وقال: إن هناك ملايين الكائنات يولدون من عذراوات، فهل نعتبرهم جميعا آلهة؟

ثم التفت لبولس، وقال: أيهما أحق بالألوهية من لم يكن له والد أصلا لا أما، ولا أبا، أم من له أم؟

سكت بولس، فقال: لقد خلق الله آدم من تراب.. ليس له أب، ولا أم.. فلذلك لو اعتمدنا المنطق الذى تعتمدونه فى هذا الباب، فهو أحق بالألوهية من المسيح[1].

لقد ذكر القرآن الكريم هذا، فقال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾ [آل عمران]

قال مستأجر بولس: ولكن ما تقول فى هذه الخوارق التى حصلت للمسيح، ولم تحصل لغيره؟

قال عبد القادر: ومن قال: إنها لم تحصل لغيره.. إن الله تعالى بحكمته يظهر بعض الإرهاصات الدالة على المصطفين الذين يختارهم لهداية خلقه.. ليكون ذلك تمهيدا لتقبل الناس لهم.

لقد ذكر القرآن الكريم هذا عن موسى عليه السلام.. فموسى عليه السلام هيئ منذ ولادته للوظيفة الخطيرة التى كلف بها.

فبعد أن ذكر الله تعالى ما أراده للمستضعفين من بنى إسرائيل من الخروج عن ضعفهم، فقال: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾﴾ [القصص].

بعدها ذكر الله تعالى مقدمات تلك التهيئة، فقال: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾ [القصص].

ويحيى عليه السلام ذكر القرآن الكريم قصة ميلاده، وما ارتبط بها من البشارات، والإرهاصات..

وهكذا كل الأنبياء ـ عليهم السلام ـ جعل الله فى مقدمات حياتهم ما يشير إلى الدور الخطير الذى كلفوا به.

قال بولس: إلا محمد.. فمحمد ولد ولادة عادية، كما يولد سائر الناس.

قال عبد القادر: نعم ولد ولادة عادية بفضل الله، ولكنه ـ كسائر الأنبياء ـ سبق ميلاده ورافقه إرهاصات كثيرة تدل على الوظيفة الخطيرة التى هيئ لها.

قال مستأجر بولس: ذلك غير صحيح.. لقد ولد ولادة عادية.. هذا ما أعرفه.

ابتسم عبد القادر، وقال: أنت تحثنى إذن على أن أعرفك ما لم تكن تعرف، وأعلمك ما لم تكن تعلم.

---

(١) هناك ردود كثيرة جدا متصلة بهذا ذكرناها فى رسالة (الله جل جلاله) من هذه السلسلة.

قال الجمع: نعم.. لقد حدثنا هذا عن إرهاصات المسيح، فحدثنا أنت عن إرهاصات محمد.

قال عبد القادر: لـقد حدثت لمحمد ﷺ ثلاثة أنواع من الإرهاصات ـ على حسب ما ذكرت للمسيح عليـه السلام: إرهاصات سبقت مولده، وإرهاصات تزامنـت مع مولده، وإرهاصات حدثت بعد مولده.. وسأحدثكم عن بعض الحوادث المرتبطة بكل نوع منها.

## ١ - قبل الميلاد

قالوا: فحدثنا عن الإرهاصات التى سبقت مولده.

قال عبد القادر: لقد كانت الجزيرة العربية فى ذلك الزمن الذى ولد فيه محمد ﷺ كلها على أحر من الجمر في انتظار ذلك النبى الموعود الذى بشرت به الأنبياء.

قالوا: فكيف عرفوا أنه سيبعث فى ذلك الزمان؟

قال عبد القادر: لقد ذكر الكتاب المقدس الكثير من العلامات المرتبطة بهذا النبى، والزمن الذى سيولد فيه، والمكان الذى سيخرج منه[1]، والذى حرف أكثره بعد أن أرسل الله رسوله.

قالوا: من فعل ذلك، ولم؟

قال عبد القادر: فعله من وكله الله بحفظ كتابه، وفعلوه ليصرفوا النبوة عن محمد ﷺ بغيا وحسدا.. لقد ذكر القرآن الكريم هذا، فقال: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [البقرة].

فهذه الآية الكريمة تخبر عن ذلك الانتظار الطويل الذى عاناه أهل الكتاب، وهم يبشرون الناس بمحمد ﷺ.

قالوا: فحدثنا عن ذلك.

**انتظار طويل:**

قال عبد القادر: لقد رويت الروايات الكثيرة الدالة على ذلك.. وسأذكر لكم منها ما يبين لكم الجو العام الذى كان يمهد لمجيء محمد ﷺ.

حدث عاصم بن عمر بن قتادة قال: حدثنا أشياخ شتى قالوا: لم يكن أحد من العرب أعلم بشأن رسول الله ﷺ منا، كان معنا يهود، وكانوا أهل كتاب وكنا أهل وثن، وكنا إذا بلغنا منهم ما يكرهون قالوا: إن نبيا مبعوثا الآن قد أظل زمانه نتبعه، فنقتلكم معه قتل عاد وإرم.

فلما بعث الله تعالى رسوله ﷺ اتبعناه وكفروا به، ففيهم أنزل الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [البقرة][2].

وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قال: كانت يهود خيبر تقاتل يهود غطفان، فلما التقوا انهزمت يهود خيبر.

فعاذت اليهود بهذا الدعاء فقالوا: اللهم إنا نسألك بحق محمد النبى الأمى الذى وعدتنا أن تخرجه لنا فى آخر الزمان إلا نصرتنا عليهم، فكانوا إذا التقوا دعوا بهذا الدعاء فهزموا غطفان، فلما بعث رسول الله ﷺ كفروا به، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [البقرة][3].

وعن سلمة بن سلامة بن وقش ـ رضى الله عنه ـ قال: كان بيننا يهودى، فخرج على نادى قومه بنى عبد الأشهل ذات غداة، فذكر البعث والقيامة والجنة والنار والحساب والميزان، فقال ذلك لأصحاب وثن لا يرون أن بعثا كائن بعد الموت، وذلك قبل مبعث النبى ﷺ، فقالوا: ويحك يا فلان! وهذا كائن أن الناس مبعوثون بعد موتهم إلى دار فيها جنة ونار ويجزون من أعمالهم؟ قال: نعم والذى يحلف به لوددت أن يكون حظى من تلك النار أن توقدوا أعظم تنور فى داركم فتحموه

---

(1) انظر: أنبياء يبشرون بمحمد.

(2) رواه ابن إسحاق.

(3) رواه الحاكم والبيهقى.

ثم تقذفوني فيه ثم تطينوا علي وأن أنجو من تلك النار غدا، قالوا: فما علامة ذلك؟ قال: نبي يبعث من ناحية هذه البلاد، وأشار بيده نحو مكة واليمن، قالوا: فما الذي تراه، فرمى بطرفه إلى وأنا أحدث القوم فقال: إن يستنفذ هذا الغلام عمره يدركه.

فما ذهب الليل والنهار حتى بعث رسول الله ﷺ، وإنه لحي بين أظهرنا، فآمنا به وصدقناه وكفر به بغيا وعنادا، فقلنا له: يا فلان ألست الذي قلت لنا فيه ما قلت وأخبرتنا به؟ قال: ليس به[1].

وعن محمد بن عدي أنه سأل أباه كيف سماه في الجاهلية محمدا؟ فقال: خرجت مع جماعة من بني تميم، فلما وردنا الشام نزلنا على غدير عليه شجر، فأشرف علينا ديراني[2] فقال: من أنتم؟ قلنا: من مضر، فقال: أما إنه سوف يبعث منكم وشيكا نبي فسارعوا إليه وخذوا بحظكم منه ترشدوا، فإنه خاتم النبيين. فقلنا: ما اسمه؟ فقال: محمد. فلما صرنا إلى أهلنا ولد لكل واحد منا غلام فسماه محمدا[3].

وعن سعيد بن المسيب قال: كانت العرب تسمع من أهل الكتاب ومن الكهان أن نبيا يبعث من العرب اسمه محمد، فسمى من بلغه ذلك من ولد له محمدا، طمعا في النبوة[4].

وعن أبي سفيان قال: خرجت أنا وأمية بن أبي الصلت إلى الشام، فمررنا بقرية فيها نصارى، فلما رأوا أمية عظموه وأكرموه، وأرادوه على أن ينطلق معهم، فقال لي أمية: يا أبا سفيان انطلق معي فإنك تمضي إلى رجل قد انتهى إليه علم النصرانية، فقلت: لست أنطلق معك.

فذهب ورجع وقال: تكتم علي ما أحدثك به؟ قال: نعم قال: حدثني هذا الرجل الذي انتهى إليه علم الكتاب: أن نبيا مبعوث، فظننت أنني هو، فقال: ليس منكم، هو من أهل مكة.

قلت: ما نسبه؟ قال: وسط قومه.

وقال لي: إن آية ذلك أن الشام قد رجفت بعد عيسى ثمانين رجفة، وبقيت رجفة يدخل على أهل الشام منها شر ومصيبة: فلما صرنا قريبا من ثنية إذا راكب قلنا: من أين؟ قال: من الشام.

قلنا: هل كان من حدث؟ قال: نعم، رجفت الشام رجفة دخل على الشام منها شر ومصيبة[5].

وعن أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - قال: كنت جالسا بفناء الكعبة وزيد بن عمرو بن نفيل قاعد، فمر به أمية بن أبي الصلت فقال: أما إن هذا النبي الذي ينتظر منا أو منكم أو من أهل فلسطين.

قال: ولم أكن سمعت قبل ذلك بنبيٍّ ينتظر فلا يبعث.

فخرجت أريد ورقة بن نوفل، فقصصت عليه الحديث، فقال: نعم يا ابن أخي، أخبرنا أهل الكتاب والعلماء، أن هذا النبي الذي ينتظر من أوسط العرب نسبا، ولي علم بالنسب فقومك أوسط العرب نسبا.

قال: يا عم وما يقول النبي؟ قال: يقول ما قيل له، إلا أنه لا يظلم ولا يظالم.

قال: فلما بعث رسول الله ﷺ آمنت وصدقت[6].

وعن زيد بن حارثة - رضي الله عنهما - أن النبي ﷺ لقي زيد بن عمرو بن نفيل، فقال له

---

(1) رواه ابن إسحاق، والبخاري في التاريخ وصححه الحاكم.
(2) الديرني: الراهب الذي يسكن الدير.
(3) رواه الطبراني والبيهقي وأبو نعيم.
(4) رواه ابن سعد.
(5) رواه الطبراني والبيهقي.
(6) رواه ابن عساكر.

النبى ﷺ:(ما لى أرى قومك قد شنفوك[1]؟) قال: أما والله إن ذلك لغير ثائرة[2] كانت منى إليهم، ولكن أراهم على ضلالة فخرجت أبتغى هذا الدين حتى أتيت على شيخ بالجزيرة، فأخبرته بالذى خرجت له، قال: ممن أنت؟ قلت: من أهل بيت الله. قال: فإنه قد خرج فى بلدك نبى أو خارج قد طلع نجمه، فارجع فصدقه وآمن به. فرجعت فلم أحس بشىء بعد.

قال: ومات زيد بن عمرو قبل أن يبعث رسول الله ﷺ[3].

وعن عامر بن ربيعة ـ رضى الله عنه ـ أن زيد بن عمرو بن نفيل قال: خالفت قومى واتبعت ملة إبراهيم وما كان يعبد، فأنا أنتظر نبيا من ولد إسماعيل اسمه أحمد، ولا أرانى أدركه، فأنا أؤمن به وأصدقه وأشهد أنه نبى، فإن طالت بك مدة فأقرئه منى السلام، وأخبرك يا عامر ما نعته حتى لا يخفى عليك: هو رجل ليس بالطويل ولا بالقصير، ولا بكثير الشعر ولا بقليله، وليس يفارق عينيه حمرة، وخاتم النبوة بين كتفيه، واسمه أحمد، وهذا البلد مولده ومبعثه، ثم يخرجه قومه منها ويكرهون ما جاء به حتى يهاجر إلى يثرب فيظهره أمره، فإياك أن تخدع عنه فإنى بلغت البلاد كلها أطلب دين إبراهيم، وكل من أسأله من اليهود والنصارى والمجوس يقول: هذا الدين وراءك، وينعتونه مثل ما نعته لك، ويقولون: لم يبق نبى غيره.

قال عامر: فلما تنبأ رسول الله ﷺ وأخبرته، فقال: (قد رأيته فى الجنة يسحب ذيله)[4].

وروى عن عمرو بن عبسة ـ رضى الله عنه ـ: قال رغبت عن آلهة قومى فى الجاهلية، ورأيت الباطل يعبدون الحجارة، فلقيت رجلا من أهل الكتاب فسألته عن أفضل الدين فقال: يخرج رجل بمكة ويرغب عن آلهة قومه ويدعو إلى غيرها، وهو يأتى بأفضل الدين، فإذا سمعت به فاتبعه.

فلم يكن بى هم إلا مكة آتيها فأسأل: هل حدث فيها أمر؟ فيقولون لا.

فإنى لقاعد على الطريق إذ مر بى راكب فقلت: من أين جئت؟ قال: من مكة. قلت: هل حدث فيها خبر؟ قال: نعم، رجل رغب عن آلهة قومه ودعا إلى غيرها. فقلت: صاحبى الذى أريد.

فأتيته فوجدته مستخفيا، فقلت: ما أنت؟ قال: نبى. قلت: وما النبى؟ قال: رسول. قلت: من أرسلك؟ قال: الله. قلت: بماذا أرسلك؟ قال: أن توصل الأرحام وتحقن الدماء وتؤمن السبل وتكسر الأوثان ويعبد الله ولا يشرك به شيئا. قلت: نعم ما أرسلك به، أشهدك أنى قد آمنت بك وصدقتك أفأمكث معك ما ترى؟ قال: ترى كراهة الناس لما جئت به فامكث فى أهلك، فإذا سمعت أنى قد خرجت مخرجا فاتبعنى.

فلما سمعت به ﷺ خرج إلى المدينة سرت حتى قدمت عليه[5].

وعن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال: بلغنى أن بنى إسرائيل لما أصابهم ما أصابهم من ظهور بختنصر – وفرقتهم وذلهم تفرقوا، وكانوا يجدون محمدا رسول الله ﷺ مبعوثا فى كتبهم وأنه سيظهر فى بعض القرى العربية فى أرض ذات نخل، ولما خرجوا من أرض الشام جعلوا يتقرون كل قرية من تلك القرى العربية بين الشام واليمن يجدون نعتها نعت يثرب، فنزل بها طائفة منهم ويرجون أن يلقوا محمدا ﷺ فيتبعونه، حتى نزل من بنى هارون بيثرب منهم طائفة، فمات أولئك الآباء وهم

---

(1) شنفوك: أى أبغضوك.

(2) لغير ثائرة: أى لم أصنع لهم شرا.

(3) رواه أبو يعلى والطبرانى والحاكم وصححه.

(4) رواه ابن سعد وأبو نعيم.

(5) رواه ابن سعد وأبو نعيم وابن عساكر.

مؤمنون بمحمد ﷺ أنه جاء ويحثون أبناءهم على اتباعه إذا جاء، فأدركه من أدركه من أبنائهم فكفروا به وهم يعرفونه[1].

التفت عبد القادر إلى بولس، وقال: هذه أول الإرهاصات.. فمحمد ﷺ كان منتظرا من الكل.. من اليهود، ومن المسيحيين، ومن الأحناف الذين يبحثون عن ملة إبراهيم.

قال مستأجر بولس: نحن نريد الآيات العجائب.

قال عبد القادر: وهذا من الآيات العجائب.. فكيف يتفق كل ذلك الجمع على ذلك الانتظار؟

ثم كيف يرحل الأحبار والرهبان من ديارهم لينتظروا ذلك المولود الموعود في تلك البلاد القاحلة؟

ومع ذلك.. فهناك آية أخرى تتناسب مع الطريقة التي تفكر بها.

قال الجمع: ما هي؟

**حماية الكعبة:**

قال عبد القادر: أنتم تعلمون أن محمدا ولد بمكة المكرمة في عام يسمى عام الفيل.

قالوا: أجل.

قال عبد القادر: لقد كان هذا الفيل الذي ولد في عامه محمد ﷺ إرهاصا من إرهاصات النبوة.

قالوا: كيف ذلك؟

قال عبد القادر: في شهر المحرم قبل مولد النبي ﷺ بخمسين يومًا أو بخمسة وخمسين يومًا، وهو ما يطابق أواخر فبراير أو أوائل مارس سنة 571م، حصلت واقعة خارقة حفظت البلد الذي ولد فيه محمد ﷺ، وحفظت الكعبة المشرفة.

قالوا: فحدثنا عنها.

قال عبد القادر: في ذلك الحين، قدم أبرهة الأشرم ملك اليمن إلى مكة المكرمة، لهدم الكعبة المشرفة، ولكن الله حماها منه، وأنزل به وبجنوده عقابا أليما خارقا.

وخلاصة الحادثة أن الحاكم الحبشي لليمن ـ في الفترة التي خضعت فيها اليمن لحكم الحبشة ـ بعد طرد الحكم الفارسي منها وتسميه الروايات (أبرهة)، كان قد بنى كنيسة في اليمن باسم ملك الحبشة، وجمع لها كل أسباب الفخامة، على نية أن يصرف بها العرب عن البيت الحرام في مكة، وقد رأى مبلغ انجذاب أهل اليمن الذين يحكمهم إلى هذا البيت، شأنهم شأن بقية العرب في وسط الجزيرة وشماليها، وكتب إلى ملك الحبشة بهذه النية.

لكن العرب لم ينصرفوا عن بيتهم المقدس، فقد كانوا يعتقدون أنهم أبناء إبراهيم وإسماعيل صاحبي هذا البيت، وكان هذا موضع اعتزازهم على طريقتهم بالفخر بالأنساب، وكانت معتقداتهم على تهافتها أفضل في نظرهم من معتقدات أهل الكتاب من حولهم، وهم يرون ما فيها من خلل واضطراب وتهافت كذلك.

عندئذ صح عزم (أبرهة) على هدم الكعبة ليصرف الناس عنهم؛ وقاد جيشًا جرارًا تصاحبه الفيلة، وفي مقدمتها فيل عظيم ذو شهرة خاصة عندهم.

فتسامع العرب به وبقصده، وعز عليهم أن يتوجه لهدم كعبتهم، فوقف في طريقه رجل من

(1) رواه أبو نعيم وابن عساكر.

أشراف أهل اليمن وملوكهم يقال له ذو نفر، فدعا قومه ومن أجابه من سائر العرب إلى حرب أبرهة وجهاده عن البيت الحرام، فأجابه إلى ذلك من أجابه، ثم عرض له فقاتله، ولكنه هزم وأخذه أبرهة أسيراً.

ثم وقف له في الطريق كذلك نفيل بن حبيب الخثعمي في قبيلتين من العرب ومعهما عرب كثير، فهزمهم كذلك وأسر نفيلا، الذي قبل أن يكون دليله في أرض العرب.

حتى إذا مر بالطائف خرج إليه رجال من ثقيف فقالوا له: إن البيت الذي يقصده ليس عندهم إنما هو في مكة، وذلك ليدفعوه عن بيتهم الذي بنوه للاّت، وبعثوا معه من يدله على الكعبة.

فلما كان أبرهة بالمغمس بين الطائف ومكة، بعث قائداً من قواده حتى انتهى إلى مكة فساق إليه أموال تهامة من قريش وكنانة وهذيل ومن كان بذلك الحرم بقتاله، ثم عرفوا أنهم لا طاقة لهم به فتركوا ذلك.

وبعث أبرهة رسولاً إلى مكة يسأل عن سيد هذا البلد، ويبلغه أن الملك لم يأت لحربهم وإنما جاء لهدم هذا البيت، فإن لم يتعرضوا له فلا حاجة له في دمائهم، فإذا كان سيد البلد لا يريد الحرب جاء به إلى الملك.

فلما كلم عبد المطلب فيما جاء به قال له: والله ما نريد حربه وما لنا بذلك من طاقة. هذا بيت الله الحرام. وبيت خليله إبراهيم، فإن يمنعه منه فهو بيته وحرمه، وإن يخل بينه وبينه فوالله ما عندنا دفع عنه.

ثم انطلق عبد المطلب مع رسول أبرهة إليه، فلما استؤذن لعبد المطلب، قالوا لأبرهة: هذا سيد قريش، فأذن له.

فلما رآه أبرهة أجله وأكرمه عن أن يجلسه تحته، وكره أن تراه الحبشة معه على سرير ملكه، فنزل أبرهة عن سريره، فجلس على بساطه وأجلسه معه عليه إلى جنبه، ثم قال له: حاجتك؟ فذكر عبد المطلب أباعره التي أخذت له فقال أبرهة: قد كنت أعجبتني حين رأيتك، ثم زهدت فيك حين كلمتك، أتكلمني عن مائتي بعير أصبتها لك، وتترك بيتا هو دينك ودين آبائك، قد جئت لهدمه لا تكلمني فيه؟ قال له عبد المطلب: أنا رب الإبل، وإن للبيت ربا سيمنعه.

فرد أبرهة على عبد المطلب الإبل، فانصرف إلى قريش، فأخبرهم الخبر وأمرهم بالخروج من مكة والتحرز بالجبال والشعاب تخوفا عليهم معرة الجيش، وقد كانوا أكثر من قريش عددا.

ثم قام عبد المطلب، فأخذ بحلقة باب الكعبة، وقام معه نفر من قريش يدعون الله ويستنصرونه على أبرهة وجيشه.

وكان مما قال عبد المطلب، وهو آخذ بحلقة باب الكعبة:

لا هم أن العبد يمنع رحله فامنع حلالك
لا يغلبن صليبهم ومحالهم غدوا محالك
إن كنت تاركهم وقبلتنا فأمر ما بدا لك

فأما أبرهة فوجه جيشه وفيله لما جاء له، فبرك الفيل دون مكة لا يدخلها، وجهدوا في حمله على اقتحامها فلم يفلحوا[1].

---

(1) وهذه الحادثة ثابتة بقول رسول الله ﷺ يوم الحديبية حين بركت ناقته القصواء دون مكة، فقالوا: خلأت القصواء (أي حرنت)، فقال رسول الله ﷺ «ما خلأت القصواء، وما ذاك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل».

وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال يوم فتح مكة: «إن الله حبس عن مكة الفيل وسلط عليها رسوله والمؤمنين، وإنه قد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس، ألا فليبلغ الشاهد الغائب».

ثم إن الله تعالى أرسل على هذا الجيش جماعات من الطير تحصبهم بحجارة من طين وحجر، فتركتهم كأوراق الشجر الجافة الممزقة، وأصيب أبرهة في جسده، وخرجوا به معهم يسقط أنملة أنملة، حتى قدموا به صنعاء، فما مات حتى انشق صدره عن قلبه كما تقول الروايات.

وقد ذكر القرآن الكريم هذه الحادثة، فقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾﴾[الفيل].

هنا تدخل بولس، وقال: أعرف هذه الحادثة، وهي حادثة عادية، وهي لا تعني سوى أن وباء أصاب ذلك الجيش، فمنعه من غزو الكعبة.

لا تتهمني.. فلست أنا الذي أقول هذا..

إن هذا يقوله مفسروكم.. لقد قال محمد عبده في تفسيره للسورة في جزء عم: (وفي اليوم الثاني فشا في جند الجيش داء الجدري والحصبة.. قال عكرمة: وهو أول جدري ظهر ببلاد العرب. وقال يعقوب بن عتبة فيما حدث: إن أول ما رؤيت الحصبة والجدري ببلاد العرب ذلك العام. وقد فعل الوباء بأجسامهم ما يندر وقوع مثله. فكان لحمهم يتناثر ويتساقط فذعر الجيش وصاحبه وولوا هاربين، وأصيب الجيش، ولم يزل يسقط لحمه قطعة قطعة، وأنملة أنملة حتى انصدع صدره ومات في صنعاء، هذا ما اتفقت عليه الروايات، ويصح الاعتقاد به. وقد بينت لنا هذه السورة الكريمة أن ذلك الجدري أو تلك الحصبة نشأت من حجارة يابسة سقطت على أفراد الجيش بواسطة فرق عظيمة من الطير مما يرسله الله مع الريح).

ثم قال: (فيجوز لك أن تعتقد أن هذا الطير من جنس البعوض أو الذباب الذي يحمل جراثيم بعض الأمراض، وأن تكون هذه الحجارة من الطين المسموم اليابس الذي تحمله الرياح فيعلق بأرجل هذه الحيوانات، فإذا اتصل بجسد دخل في مسامه، فأثار فيه تلك القروح التي تنتهي بإفساد الجسم وتساقط لحمه. وأن كثيراً من هذه الطيور الضعيفة يعد من أعظم جنود الله في إهلاك من يريد إهلاكه من البشر، وأن هذا الحيوان الصغير الذي يسمونه الآن بالمكروب لا يخرج عنها. وهو فرق وجماعات لا يحصي عددها إلا بارئها).

قال ذلك، وسكت، فرد عليه عبد الحكيم: أكمل.. لقد قال بعد هذا كلاما جميلا.

قال بولس: هذا ما حفظته من كلامه.

قال عبد الحكيم: لقد قال بعدها كلاما يرد على سوء الفهم الذي قد يعرض لمن قرأ موقفه هذا، لقد قال: (ولا يتوقف ظهور أثر قدرة الله تعالى في قهر الطاغين، على أن يكون الطير في ضخامة رؤوس الجبال، ولا على أن يكون من نوع عنقاء مغرب، ولا على أن يكون له ألوان خاصة به، ولا على معرفة مقادير الحجارة وكيفية تأثيرها.. فلله جند من كل شيء:

وفي كل شيء له آية تدل على أنه الواحد

وليست في الكون قوة إلا وهي خاضعة لقوته. فهذا الطاغية الذي أراد أن يهدم البيت، أرسل الله عليه من الطير ما يوصل إليه مادة الجدري أو الحصبة، فأهلكته وأهلكت قومه، قبل أن يدخل مكة. وهي نعمة غمر الله بها أهل حرمه على وثنيتهم حفظاً لبيته، حتى يرسل من يحميه بقوة دينه (وإن كانت نعمة من الله حلت بأعدائه أصحاب الفيل الذين أرادوا الاعتداء على البيت دون جرم اجترمه، ولا ذنب اقترفه).

ثم قال: (هذا ما يصح الاعتماد عليه في تفسير السورة. وما عدا ذلك فهو مما لا يصح قبوله

إلا بتأويل، إن صحت روايته. ومما تعظم به القدرة أن يؤخذ من استعز بالفيل وهو أضخم حيوان من ذوات الأربع جسمًا ويهلك، بحيوان صغير لا يظهر للنظر، ولا يدرك بالبصر، حيث ساقه القدر لا ريب عند العاقل أن هذا أكبر وأعجب وأبهر).

قال عبد القادر: لقد علق سيد قطب على قوله هذا تعليقا جميلا، فقال: (ونحن لا نرى أن هذه الصورة التي افترضها الأستاذ الإمام ـ صورة الجدري أو الحصبة من طين ملوث بالجراثيم ـ أو تلك التي جاءت بها بعض الروايات من أن الحجارة تخرق الرؤوس والأجسام وتنفذ منها وتمزق الأجساد فتدعها كفتات ورق الشجر الجاف وهو (العصف).. لا نرى أن هذه الصورة أو تلك أدل على قدرة الله، ولا أولى بتفسير الحادث. فهذه كتلك في نظرنا من حيث إمكان الوقوع. ومن حيث الدلالة على قدرة الله وتدبيره، ويستوي عندنا أن تكون السنة المألوفة للناس، المعهودة المكشوفة لعلمهم، هي التي جرت فأهلكت قومًا أراد الله إهلاكهم. أو أن تكون سنة الله قد جرت بغير المألوف للبشر، وغير المعهود المكشوف لعلمهم، فحققت قدره ذاك.

إن سنة الله ليست فقط هي ما عهده البشر وما عرفوه. وما يعرف البشر من سنة الله إلا طرفًا يسيرًا يكشفه الله لهم بمقدار ما يطيقون، وبمقدار ما يتهيأون له بتجاربهم ومداركهم في الزمن الطويل، فهذه الخوارق كما يسمونها هي من سنة الله. ولكنها خوارق بالقياس إلى ما عهدوه وما عرفوه!

ومن ثم فنحن لا نقف أمام الخارقة مترددين ولا مؤولين لها متى صحت الرواية أو كان في النصوص وفي ملابسات الحادث ما يوحي بأنها جرت خارقة، ولم تجر على مألوف الناس ومعهودهم. وفي الوقت ذاته لا نرى أن جريان الأمر على ألسنة المألوفة أقل وقعًا ولا دلالة من جريانه على ألسنة الخارقة للمألوف. فالسنة المألوفة هي في حقيقتها خارقة بالقياس إلى قدرة البشر.

إن طلوع الشمس وغروبها خارقة وهي معهودة كل يوم وإن ولادة كل طفل خارقة وهي تقع كل لحظة، وإلا فليجرب من شاء أن يجرب! وإن تسليط طير كائنًا ما كان يحمل حجارة مسحوقة ملوثة بميكروبات الجدري والحصبة وإلقائها في هذه الأرض، في هذا الأوان، وإحداث هذا الوباء في الجيش، في اللحظة التي يهم فيها باقتحام البيت.. إن جريان قدر الله على هذا النحو خارقة بل عدة خوارق كاملة الدلالة على القدرة وعلى التقدير. وليست بأقل دلالة ولا عظمة من أن يرسل الله طيرًا خاصًا يحمل حجارة خاصة تفعل بالأجسام فعلاً خاصًا في اللحظة المقررة.

هذه من تلك.. هذه خارقة وتلك خارقة على السواء[1]).

(1) وقد رجح سيد اعتبار الخارقة في هذه الحادثة، فقال: فأما في هذا الحادث بالذات، فنحن أميل إلى اعتبار أن الأمر قد جرى على أساس الخارقة غير المعهودة، وأن الله أرسل طيرًا أبابيل غير معهودة وإن لم تكن هناك حاجة إلى قبول الروايات التي تصف أحجام الطير وأشكالها وصفًا مثيرًا، نجد له نظائر في مواضع أخرى تشي بأن عنصر المبالغة والتهويل مضاف إليها! تحمل حجارة غير معهودة، تفعل بالأجسام فعلاً غير معهود..

نحن أميل إلى هذا الاعتبار. لا لأنه أعظم دلالة ولا أكبر حقيقة. ولكن لأن جو السورة وملابسات الحادث تجعل هذا الاعتبار هو الأقرب. فقد كان الله سبحانه يريد بهذا البيت أمرًا. كان يريد أن يحفظه ليكون مثابة للناس وأمنًا؛ وليكون نقطة تجمع للعقيدة الجديدة تزحف منه حرة طليقة، في أرض حرة طليقة، لا يهيمن عليها أحد من خارجها، ولا تسيطر عليها حكومة قاهرة تحاصر الدعوة في محضنها. ويجعل هذا الحادث عبرة ظاهرة مكشوفة لجميع الأنظار في جميع الأجيال، حتى ليمتن بها على قريش بعد البعثة في هذه السورة، ويضربها مثلاً لرعاية الله لحرماته وغيرته عليها.. فمما يتناسق مع جو هذه الملابسات كلها أن يجيء الحادث غير مألوف ولا معهود، بكل مقوّماته وبكل أجزائه ولا داعي للمحاولة في تغليب صورة المألوف من الأمر في حادث هو في ذاته وبملابساته مفرد فذ..

وبخاصة أن المألوف في الجدري أو الحصبة لا يتفق مع ما روي من آثار الحادث بأجسام الجيش وقائده، فإن الجدري أو الحصبة لا يسقط الجسم عضوًا عضوًا وأنملة أنملة، ولا يشق الصدر عن القلب.

قال بولس: قد أسلم بما ذكرت من أنها حادثة خارقة، ولكن كيف تذكر أنها من الإرهاصات المرتبطة بمحمد.

قال عبد القادر: أنت تعلم أن بيت المقدس لا يقل حرمة عن الكعبة المشرفة.

قال بولس: نحن لا نرى للكعبة أى مكانة مقارنة ببيت المقدس.

قال عبد القادر: ومع ذلك فقد استولى عليه بُخْتَنَصَّر سنة 587 ق.م، ثم استولى عليه الرومان سنة 70م، ولكن الكعبة المشرفة لم يتم استيلاء مسيحيو الحبشة عليها مع كونهم من المسيحيين، وأهل الكعبة من المشركين.

وليس لذلك من سر إلا حفظ هذا البلد من كل تأثيرات أجنبية قد تنحرف بالدين الخاتم.

بالإضافة إلى ذلك، فقد وقعت هذه الوقعة فى الظروف التى يبلغ نبؤها إلى معظم المعمورة المتحضرة إذ ذاك، فالحبشة كانت لها صلة قوية بالرومان، والفرس لا يزالون لهم بالمرصاد، يترقبون ما نزل بالرومان وحلفائهم؛ ولذلك سرعان ما جاءت الفرس إلى اليمن بعد هذه الوقعة، وهاتان الدولتان كانتا تمثلان العالم المتحضر فى ذلك الوقت.

فهذه الوقعة لفتت أنظار العالم ودلته على شرف بيت الله، وأنه هو الذى اصطفاه الله للتقديس، فإذن لو قام أحد من أهله بدعوى النبوة كان ذلك هو عين ما تقتضيه هذه الوقعة، وكان تفسيراً للحكمة الخفية التى كانت فى نصرة الله للمشركين ضد أهل الإيمان بطريق يفوق عالم الأسباب.

## 2 - عند الميلاد

سكت عبد القادر، فقال الجمع: لقد وعدتنا بأن تحدثنا عن الإرهاصات المرتبطة بمولد محمد، فحدثنا عنها.

**نجم محمد ﷺ:**

قال أجيبر بولس: عم تريدون أن يحدثكم؟.. عن نجم محمد!؟.. لم يظهر عند ولادة محمد أى نجم، كما ظهر للمسيح.

قال عبد القادر: لقد روى الرواة ـ وهم لا يقلون عن رواة نجم المسيح ثقة ـ بأن نجما ظهر فى الليلة التى ولد فيها رسول الله ﷺ، وسأذكر لكم بعض ما ورى فى ذلك.

لقد حدث حويصة بن مسعود - رضى الله عنه - قال: كنا ويهود فينا كانوا يذكرون نبيا يبعث بمكة اسمه أحمد، ولم يبق من الأنبياء غيره، وهو فى كتبنا وما أخذ علينا صفته كذا وكذا حتى يأتوا على نعته.

قال: وأنا غلام وما أرى أحفظ وما أسمع أعى إذ سمعت صياحا من ناحية بنى عبد الأشهل. فإذا قوم فزعوا وخافوا أن يكون أمر حدث، ثم خفى الصوت ثم عاد فصاح ففهمنا صياحه: يا أهل يثرب هذا كوكب أحمد الذى ولد به.

قال: فجعلنا نعجب من ذلك، ثم أقمنا دهرا طويلا ونسينا ذلك، فهلك قوم، وحدث آخرون، وصرت رجلا كبيرا، فإذا مثل ذلك الصياح بعينه: يا أهل يثرب قد خرج محمد، وتنبأ وجاءه الناموس الأكبر الذى كان يأتى موسى عليه الصلاة والسلام.

فلم أنشب أن سمعت أن بمكة رجلا خرج يدعى النبوة، وخرج من قومنا وتأخر وأسلم فتيان منا أحداث ولم يقض لى أن أسلم، حتى قدم رسول الله ﷺ المدينة[1].

وعن حسان بن ثابت رضي الله عنه قال: إنى لغلام يفعة ابن سبع سنين أو ثمان، أعقل ما رأيت وسمعت، إذا بيهودى فى يثرب يصرخ ذات غداة: يا معشر يهود، فاجتمعوا إليه ـ وأنا أسمع ـ فقالوا: ويلك مالك؟ قال: قد طلع نجم أحمد الذى يولد به فى هذه الليلة[2].

وعن مالك بن سنان قال: جئت بنى عبد الأشهل يوما لأتحدث فيهم، ونحن يومئذ فى هدنة من الحرب، فسمعت يوشع اليهودى يقول: أظل خروج نبى يقال له أحمد يخرج من الحرم.

فقال له خليفة بن ثعلبة الأشهلى، كالمستهزئ به: ما صفته؟ فقال: رجل ليس بالقصير ولا بالطويل، فى عينيه حمرة، يلبس الشملة ويركب الحمار، سيفه على عاتقه وهذا البلد مهاجره.

قال: فرجعت إلى قومى بنى خدرة وأنا يومئذ أتعجب مما يقول يوشع، فأسمع رجلا منا يقول: ويوشع يقول هذا وحده!؟ كل يهود يثرب يقولون هذا.

قال أبى - مالك بن سنان -: فخرجت حتى جئت بنى قريظة فأجد جمعا، فتذاكروا النبى ﷺ، فقال الزبير بن باطا: قد طلع الكوكب الأحمر الذى لم يطلع إلا لخروج نبى أو ظهوره، ولم يبق أحد إلا أحمد، وهذا مهاجره.

قال أبو سعيد: فلما قدم النبى ﷺ أخبره أبى هذا الخبر، فقال رسول الله ﷺ: (لو أسلم الزبير لأسلم ذووه من رؤساء اليهود، إنما هم له تبع)[3].

---

(1) رواه الواقدى وأبو نعيم.

(2) رواه ابن إسحق.

(3) رواه أبو نعيم.

وعن زيد بن ثابت ـ رضى الله عنه ـ قال: كان أحبار يهود بنى قريظة والنضير يذكرون صفة النبى ﷺ، فلما طلع الكوكب الأحمر أخبروا أنه نبى، وأنه لا نبى بعده، واسمه أحمد ومهاجره إلى يثرب، فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة أنكروا وحسدوا وكفروا[1].

وعن أسامة بن زيد ـ رضى الله عنه ـ قال: قال زيد بن عمرو بن نفيل: قال لى حبر من أحبار الشام: قد خرج فى بلدك نبى، أو هو خارج، قد خرج نجمه، فارجع فصدقه واتبعه[2].

**أحداث كبرى:**

قال رجل، عرفت بعد ذلك أنه مستأجر من طرف عبد الحكيم ليقوم بالدور الذى يقوم به أجير بولس: لقد سمعنا أشياء أخرى ارتبطت بمولده ﷺ منها ارتجاس الإيوان، وسقوط الشرفات، وخمود النيران، ورؤيا الموبذان، وغيرها من الإرهاصات.

قال عبد القادر: أجل.. لقد رويت فى ذلك روايات كثيرة، وهى لا تقل عن مرويات الأناجيل وثوقا، فقد تحدث بعض المعاصرين لميلاد رسول الله ﷺ، فقال: لما كانت الليلة التى ولد فيها رسول الله ﷺ ارتجس إيوان كسرى، وسقطت منه أربع عشرة شرفة، وخمدت نار فارس، ولم تخمد قبل ذلك بألف عام، وغاضت بحيرة ساوة.

ورأى الموبذان إبلا صعابا تقود خيلا عرابا قد قطعت دجلة، وانتشرت فى بلادهم، فلما أصبح كسرى أفزعه ذلك، فتصبر عليه تشجعا، ثم رأى أنه لا يدخر ذلك عن مرازبته، فجمعهم ولبس تاجه وجلس على سريره.

ثم بعث إليهم فلما اجتمعوا عنده، قال: أتدرون فيم بعثت إليكم؟ قالوا: لا إلا أن يخبرنا الملك.

فبينما هم كذلك إذ ورد عليهم كتاب خمود النيران، فازداد غما إلى غمه، ثم أخبرهم بما رأى وما هاله، فقال الموبذان: وأنا، أصلح الله الملك، قد رأيت فى هذه الليلة رؤيا، ثم قص عليه رؤياه فى الابل.

فقال: أى شىء يكون هذا يا موبذان؟ قال: حدث يكون فى ناحية العرب، وكان أعلمهم من أنفسهم.

فكتب عند ذلك: من كسرى ملك الملوك إلى النعمان بن المنذر، أما بعد، فوجه إلى برجل عالم بما أريد أن أسأله عنه، فوجه إليه بعبد المسيح بن عمرو بن حيان بن بقيلة الغسانى، فلما ورد عليه قال له: ألك علم بما أريد أن أسألك عنه؟ فقال: لتخبرنى أو ليسلنى الملك عما أحب، فإن كان عندى منه علم وإلا أخبرته بمن يعلم.

فأخبره بالذى وجه به إليه فيه.

قال: علم ذلك عند خال لى يسكن مشارف الشام يقال له سطيح. قال: فائته فاسأله عما سألتك عنه ثم ائتنى بتفسيره.

فخرج عبد المسيح حتى انتهى إلى سطيح وقد أشفى على الضريح، فسلم عليه وكلمه، فلم يرد إليه سطيح جوابا، فأنشده شعرا، فلما سمع سطيح شعره رفع رأسه قال: عبد المسيح، على جمل مشيح، أتى سطيح، وقد أوفى على الضريح، بعثك ملك بنى ساسان، لارتجاس الإيوان، وخمود النيران، ورؤيا الموبذان، رأى إبلا صعابا، تقود خيلا عرابا، قد قطعت دجلة، وانتشرت فى بلادها.

---

(1) رواه أبو نعيم.

(2) رواه أبو نعيم وابن حبان.

يا عبد المسيح إذا كثرت التلاوة، وظهر صاحب الهراوة، وفاض وادى السماوة، وغاضت بحيرة ساوة، وخمدت نار فارس، فليس الشام لسطيح شاما، يملك منهم ملوك وملكات، على عدد الشرفات وكل ما هو آت آت، ثم قضى سطيح مكانه.

فلما قدم عبد المسيح على كسرى أخبره بما قال له سطيح، فقال كسرى: إلى أن يملك منا أربعة عشر ملكا كانت أمور وأمور، فملك منهم عشرة فى أربع سنين، وملك الباقون إلى خلافة عثمان رضي الله عنه[1].

ليس هذا فقط.. بل قد انتشر خبر ميلاده ﷺ بين الكثير من الأحبار والرهبان[2]، لعلامات خاصة كانوا يعرفونها، ومن ذلك ما رواه الرواة أنه كان بمر الظهران راهب من الرهبان يدعى عيصا من أهل الشام، وكان متخفرا بالعاص بن وائل، وكان الله قد آتاه علما كثيرا، وجعل فيه منافع كثيرة لأهل مكة من طيب ورفق وعلم.

وكان يلزم صومعة له ويدخل مكة فى كل سنة، فيلقى الناس ويقول: إنه يوشك أن يولد فيكم مولود يا أهل مكة يدين له العرب ويملك العجم، هذا زمانه، ومن أدركه واتبعه أصاب حاجته، ومن أدركه، فخالفه أخطأ حاجته، وبالله ما تركت أرض الخمر والخمير والأمن ولا حللت بأرض الجوع والبؤس والخوف إلا فى طلبه.

وكان لا يولد بمكة مولود إلا يسأل عنه، فيقول: ما جاء بعد، فيقال له: فصفه، فيقول: لا.

ويكتم ذلك للذى قد علم أنه لاق من قومه، مخافة على نفسه أن يكون ذلك داعية إلى أدنى ما يكون إليه من الأذى يوما.

ولما كان صبيحة اليوم الذى ولد فيه رسول الله ﷺ خرج عبد الله بن عبد المطلب حتى أتى عيصا، فوقف فى أصل صومعته، ثم نادى: يا عيصاه، فناداه من هذا؟ فقال: أنا عبد الله.

فأشرف عليه فقال: كن أباه، فقد ولد المولود الذى كنت أحدثكم عنه يوم الاثنين، ويبعث يوم الاثنين، ويموت الاثنين.

قال: فإنه قد ولد لى مع الصبح مولود.

قال: فما سميته؟ قال: محمدا. قال: والله لقد كنت أشتهى أن يكون هذا المولود فيكم أهل البيت لثلاث خصال نعرفه بها، منها أن نجمه طلع البارحة، وأنه ولد اليوم، وأن اسمه محمد، انطلق إليه فإن الذى كنت أخبركم عنه ابنك.

---

(1) رواه الخرائطى وابن إسحق وغيرهما، ونحن نورد هنا من باب التساهل فى النقل فى مثل هذه المواضع، وإلا فإن البعض تشدد فيها، كالدكتور أكرم ضياء العمرى الذى قال فى كتابه (السيرة النبوية الصحيحة) (1/ 98-101): «وكذلك وردت روايات موضوعة حول هواتف الجان فى ليلة مولده وتبشيرها به، وانتكاس بعض الأصنام فى المعابد الوثنية بمكة. وحول ارتجاس إيوان كسرى، وسقوط شرفاته، وخمود نيران المجوس، وغَيض بحيرة ساوة، ورؤيا الموبذان الخيل العربية تقطع دجلة، وتنتشر فى بلاد الفرس. كذلك وردت روايات ضعيفة عن إخبار يهود بليلة مولده، وإخبار الراهب عيصا بمر الظهران بمولده. وقول العباس عمه إنه رآه فى المهد يناغى القمر. ولكن ثمة أخباراً تقوى ببعضها إلى الحسن احتفت بمولده منها ما يفيد أن آمنة رأت حين وضعته نوراً خرج منها أضاءت منه قصور بصرى من أرض الشام».

ونحن لا نعتبر ما روى من ذلك أحاديث مرفوعة، فلذلك لا نحبذ وصفها بالوضع، فالحديث الموضوع لا يجوز روايته، ولكنها أخبار تاريخية، قد تدل بمجموعها على حقيقة الإرهاصات التى سبقت ميلاد رسول الله ﷺ.

بالإضافة إلى ذلك، فإنا قد أوردنا هذا هنا من باب المشاكلة، فالأسانيد التى روى بها المسيحيون إرهاصات المسيح عليه السلام ليست أقوى من الأسانيد التى روى بها علماء السيرة إرهاصات محمد ﷺ.

(2) انظر الرسالة الأولى من هذه السلسلة (أنبياء يبشرون بمحمد).

قال عبد الله: فما يدريك أنه ابني؟ ولعله أن يولد في هذا اليوم مولود غيره؟ قال: قد وافق ابنك الاسم، ولم يكن الله ليشبه علمه على العلماء، فإنه حجة، وآية ذلك أنه الآن وجع، فيشتكي أياما ثلاثة، فيظهر به الجوع ثلاثا ثم يعافى، فاحفظ لسانك، فإنه لم يحسد أحد حسده قط، ولم يبغ على أحد كما يبغى عليه، إن تعش حتى يبدو مقاله، ثم يدعو لظهر لك من قومك ما لا تحتمله إلا على صبر وعلى ذل، فاحفظ لسانك ودار عنه، قال: فما عمره؟ قال: إن طال عمره وإن قصر لم يبلغ السبعين، يموت في وتر دونها من الستين في إحدى وستين أو ثلاث وستين في أعمار جل أمته[1].

**أنوار الميلاد:**

قال أجير بولس: هل حدث شيء عند ميلاده ينبئ عنه؟

قال عبد القادر: أجل.. لقد روى الرواة الكثير من ذلك..

وأول ذلك ما من الله به على أمه من أنها لم تجد مشقة في حمله، بل إن الله تعالى بشرها بحمله، وبما له من شأن عظيم:

فقد ذكرت آمنة ـ أم رسول الله ﷺ ـ أنها لما حملت برسول الله ﷺ كانت تقول: ما شعرت أني حملت به، ولا وجدت ثقله كما تجد النساء إلا أنني أنكرت رفع حيضتي وربما ترفعني وتعود، وأتاني آت وأنا بين النائم واليقظان فقال لي: هل شعرت أنك حملت؟ فأقول: ما أدري. فقال: إنك حملت بسيد هذه الأمة ونبيها وذلك يوم الاثنين وآية ذلك أنه يخرج معه نور يملأ قصور بصرى من أرض الشام، فإذا وضع فسميه محمدا.

قالت: فكان ذلك مما يقن عندي الحمل، ثم أمهلني حتى إذا دنت ولادتي أتاني ذلك فقال قولي: (أعيذه بالواحد من شر كل حاسد)، قالت: فكنت أقول ذلك، فذكرته لنسائي فقلن: تعلقي عليك حديدا وفي عضديك وفي عنقك[2]، ففعلت، فلم يكن يترك على إلا أياما، فأجده قد قطع، فكنت لا أتعلقه[3].

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أن آمنة بنت وهب أم رسول الله ﷺ، قالت: (لقد علقت به فما وجدت له مشقة حتى وضعته)[4].

وكانت آمنة بنت وهب أم رسول الله ﷺ تحدث أنها أتيت حين حملت برسول الله ﷺ فقيل لها: إنك قد حملت بسيد هذه الأمة، فإذا وقع إلى الأرض فقولي: أعيذه بالواحد، من شر كل حاسد، من كل بر عاهد وكل عبد رائد، يذود عني ذائد، فإنه عند الحميد الماجد، حتى أراه قد أتى المشاهد[5].

وروى عن أبي جعفر محمد بن علي ـ رضي الله عنهما ـ قال: أمرت آمنة وهي حبلى برسول الله ﷺ أن تسميه أحمد[6].

وعند مولده ظهرت الأنوار العظيمة التي أشار إليها قوله ﷺ عندما سئل: يا رسول الله أخبرنا عن نفسك، فقال: (أنا دعوة أبي إبراهيم، وبشرى عيسى، ورأت أمي حين حملت بي كأنه خرج منها نور أضاءت له قصور بصرى من أرض الشام)[7].

---

(1) رواه أبو نعيم وغيره.

(2) على عادة الجاهلية.

(3) رواه ابن سعد، والبيهقي وغيرهما.

(4) رواه ابن سعد وابن عساكر.

(5) رواه محمد بن إسحاق.

(6) رواه البيهقي.

(7) رواه الحاكم وصححه والبيهقي.

وقد ذكرت بعض النسوة الحاضرات مولده ﷺ هذه الأنوار، فعن عثمان ابن أبى العاص، قال: حدثتنى أمى، أنها شهدت ولادة آمنة بنت وهب رسول الله ﷺ ليلة ولدته، قالت: فما شىء أنظره فى البيت إلا نور، وإنى أنظر إلى النجوم تدنو حتى إنى لأقول: لتقعن على[1].

وقد اشتهر هذا النور الذى ظهر وقت ولادته ﷺ فى قريش وكثر ذكره فيهم، وإلى ذلك أشار عمه العباس - رضى الله عنه - فى قوله فى مدح النبى ﷺ:

**وأنت لما ولدت أشرقت الأرض وضاءت بنورك الأفق**

**فنحن فى ذلك الضياء وفى النور وسبل الرشاد نخترق**

وقد قال الشاعر يذكر تلك الأنوار:

**لما استهل المصطفى طالعا أضاء الفضا من نوره الساطع**

**وعطر الكون شذى عطره الطيب من دان ومن شاسع**

**ونادت الأكوان من فرحة يا مرحبا بالقمر الطالع**

وفى خروج هذا النور معه ﷺ حين وضعته إشارة إلى ما يجىء به من النور الذى اهتدى به أهل الأرض، كما قال الله تعالى: ﴿ ... قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ ﴾ [المائدة]

ومما حصل عند مولده ما ذكره الرواة من أنه وقع على يديه، رافعا رأسه إلى السماء، وقبض قبضة من تراب.

فعن موسى بن عبيدة عن أخيه قال: لما ولد رسول الله ﷺ فوقع على يديه رافعا رأسه إلى السماء وقبض قبضة من تراب، فبلغ ذلك رجلا من لهب فقال لصاحبه: انجه لئن صدق الفأل ليغلبن هذا المولود أهل الأرض[2].

وعن محمد بن عمر الأسلمى بأسانيد له متعددة عن آمنة أنها قالت: لما وضعته خرج معه نور أضاء له ما بين المشرق والمغرب، ثم وقع جاثيا على ركبتيه معتمدا على الأرض بيديه، ثم أخذ قبضة من تراب وقبضها ورفع رأسه إلى السماء، وأضاءت له قصور الشام وأسواقها، حتى رأيت أعناق الإبل ببصرى[3].

وعن حسان بن عطية أن رسول الله ﷺ لما ولد وقع على كفيه وركبتيه شاخصا ببصره إلى السماء[4].

وقد رووا أن المولود كان إذا ولد فى قريش دفعوه إلى نسوة من قريش إلى الصبح يكفأن عليه برمة، فلما ولد رسول الله ﷺ دفعه عبد المطلب إلى نسوة، فكفأن عليه برمة، فلما أصبحن أتين فوجدن البرمة قد انفلقت عنه باثنتين، ووجدنه مفتوح العينين شاخصا ببصره إلى السماء.

فأتاهن عبد المطلب فقلن له: ما رأينا مولودا مثله، وجدناه قد انفلقت عنه البرمة، ووجدناه مفتوحا عينيه شاخصا ببصره إلى السماء.

فقال: احفظنه فإنى أرجو أن يكون له شأن، أو أن يصيب خيرا.

فلما كان اليوم السابع ذبح عنه ودعا له قريشا، فلما أكلوا قالوا: يا عبد المطلب، أرأيت ابنك هذا الذى أكرمتنا على وجهه، ما سميته؟ قال: سميته محمدا.

قالوا: فما رغبت به عن أسماء أهل بيته؟ قال: أردت أن يحمده الله فى السماء وخلقه فى الأرض.

---

(1) رواه البيهقى.

(2) رواه ابن سعد.

(3) رواه ابن سعد.

(4) رواه ابن سعد وأبو نعيم بسند قوى.

# 3- بعد الميلاد

بعد أن أنهى عبد القادر حديثه عن الإرهاصات المرتبطة بمولد النبي ﷺ، استحثه أجير بولس قائلا: لقد حدث بعد ميلاد المسيح الإرهاصات الكثيرة المنبئة عن عظم شأنه، فهل حصل مثلها لمحمد؟

قال عبد القادر: إن المسيح ومحمدا أخوان.. وقد أظهر الله للناس ما يدل على مكانتهما، ليتبعوهما، وليس بينهما أى تنافس فى هذا، ولا فى غيره.

فكلاهما عبد لله، وكلاهما يبشر بما أمره الله أن يبشر به.

### غلام له شأن:

قال أجير بولس: لقد ذكر الكتاب المقدس عن المسيح أن المجوس عرفوا أنه المسيح.

قال عبد القادر: وقد روى من ذلك الكثير عن معرفة أهل الكتاب وغيرهم بمحمد ﷺ، فقد روى عن رجل من العرب كان عائفا، فكان إذا قدم مكة أتاه رجال قريش بغلمانهم ينظر إليهم ويعتاف لهم فيهم، فأتى به أبو طالب، وهو غلام مع من يأتيه، فنظر إلى رسول الله ﷺ، ثم شغله عنه شيء، فلما فرغ قال: الغلام.. على به، فلما رأى أبو طالب حرصه عليه غيبه عنه، فجعل يقول: ويلكم ردوا على الغلام الذى رأيت آنفا، فوالله ليكونن له شأن، فانطلق به أبو طالب خوفا عليه[1].

وعندما خرج مع عميه أبى طالب فى تجارة إلى الشام، ونزل الركب ببصرى، كان هناك راهب يقال له (بحيرى) فى صومعة له، وكانوا كثيرا ما يمرون به قبل ذلك فلا يكلمهم ولا يعرض لهم حتى كان ذلك العام، فلما نزلوا به قريبا من صومعته صنع لهم طعاما كثيرا، وسبب ذلك هو أنه رأى رسول الله ﷺ، وهو فى صومعته فى الركب حين أقبلوا، وغمامة تظله من بين القوم، ثم أقبلوا فنزلوا فى ظل شجرة قريبا منه، فنظر إلى الغمامة حين أظلت الشجرة، وتهصرت أغصان الشجرة على رسول الله ﷺ حتى استظل تحتها، فلما رأى ذلك بحيرى نزل من صومعته، ثم أرسل إليهم فقال: إنى قد صنعت لكم طعاما يا معشر قريش، فأنا أحب أن تحضروا كلكم صغيركم وكبيركم وعبدكم وحركم.

فقال له رجل منهم: والله يا بحيرى إن لك لشأنا اليوم، فما كنت تصنع هذا بنا، وقد كنا نمر بك كثيرا، فما شأنك اليوم؟

فقال له بحيرى: صدقت، قد كان ما تقول، ولكنكم ضيف، وقد أحببت أن أكرمكم وأصنع لكم طعاما، فتأكلوا منه كلكم.

فاجتمعوا إليه وتخلف رسول الله ﷺ من بين القوم لحداثة سنه فى رحال القوم تحت الشجرة، فلما نظر بحيرى فى القوم لم ير الصفة التى يعرف ويجد عنده، فقال: يا معشر قريش، لا يتخلفن أحد منكم عن طعامى؛ قالوا له: يا بحيرى، ما تخلف عنك أحد ينبغى له أن يأتيك إلا غلام وهو أحدث القوم سنا، فتخلف فى رحالهم. فقال: لا تفعلوا، ادعوه فليحضر هذا الطعام معكم.

فقال رجل من قريش مع القوم: واللات والعزى، إن كان للؤم بنا أن يتخلف ابن عبد الله بن عبد المطلب عن طعام.

فلما رآه بحيرى جعل يلحظه لحظا شديدا، وينظر إلى أشياء من جسده قد كان يجدها عنده

---

(1) رواه ابن إسحق.

من صفته، حتى إذا فرغ القوم من طعامهم وتفرقـوا، قام إليه بحيرى، فقال له: يا غلام أسألك بحق اللات والعزى إلا ما أخبـرتنى عما أسألك عنه، وإنما قال له بحيرى ذلك، لأنه سـمع قومه يحلفون بهما، فـقال له رسول الله ﷺ:(لا تسألنى باللات والعزى، فوالله مـا أبغضت شيئا قط بغـضهما)، فقال له بحيرى: فبالله إلا ما أخبرتنى عـما أسألك عنه، فقال له:(سلنى عما بدا لك)، فجعل يسأله عن أشياء من حاله فى نومه وهيئته وأموره فجـعل رسول الله ﷺ يخبره، فيوافق ذلك ما عند بحيرى من صفته، ثم نظر إلى ظهره، فـرأى خاتم النبوة بين كتفيه على موضعـه من صفته التى عنده، فلما فرغ أقـبل على عمه أبـى طالب فقال له: مـا هذا الغلام منك؟ قال: ابنـى. قال له بحيـرى: ما هو بابنك، وما ينبـغى لهذا الغلام أن يكون أبوه حيا؛ قـال: فإنه ابن أخى؛ قال: فمـا فعل أبوه؟ قال: مات وأمـه حبلى به قال: صـدقت، فارجع بابن أخيك إلـى بلده واحذر عليه يهـود فوالله لئن رأوه وعرفوا منه ما عرفت ليبغنه شرا، فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم، فأسرع به إلى بلاده[1].

**رؤى صادقة:**

قال عبد القـادر: ومن الإرهاصات المعرفة بعظم شأن رسول الله ﷺ رؤى كـثيرة رؤيت تنبئ بأن محمدا ﷺ هو رسول الله الذى كان ينتظره العالم.

ومن تلك الرؤى ما حـدث به أبو طالب عن رؤيا أبيه عـبد المطلب، قال: بيـنما أنا نائم فى الحجر، رأيت رؤيا هالتنى، ففزعت منها فزعا شـديدا، فأتيت كاهنة قريش وعلى مطرف خز وجمتى تضـرب منكبى، فقلت لهـا: إنى رأيت الليلة كـأن شجرة نـبتت قـد نال رأسها الـسماء، وضـربت بأغصانها المشرق والمغرب، وما رأيت نورا أزهر منها، أعـظم من نور الشمس بسبعين ضعفا، ورأيت العرب والعجم لها ساجدين، وهى تزداد كل ساعة عظما ونورا وارتفاعا، ساعة تخفى وساعة تظهر، ورأيت رهطا من قريش قد تعلقـوا بأغصانها، ورأيت قوما من قريش يريدون قطعـها، فإذا دنوا منها أخذهم شـاب لم أر قط أحسن منه وجـها، ولا أطيب منه ريـحا، فيكسـر أظهرهم ويقلع أعـينهم، فرفعت يدى لأتناول منها نصـيبا، فلم أقدر فقلت: لمن النصيب؟ قال: الـنصيب لهؤلاء الذين تعلقوا بها، وسبقوك، فانتبهت مذعورا.

فرأيت وجه الكاهنة قد تغير، ثـم قالت: لئن صدقت رؤياك ليخرجن من صلبك رجل يملك المشرق والمغرب ويدين له الناس.

فقال عبد المطلب لأبى طالب: لعلك أن تكون عم هذا المولود.

فكان أبو طالب يحدث بهـذا الحديث، والنبى ﷺ قد خرج ويقول: كـانت الشجرة والله أبا القاسم الأمين[2].

ومن تلك الرؤى التى سبقت مبعثه الشريف ﷺ ما روى عن أم خالد بنت خالد بن سعيد بن العاص ـ رضى الله عنها ـ قـالت، قبيل مبـعث النبى ﷺ: كان خالد بن سعيـد بن العاص ذات ليلة نائما فقـال: رأيت كأنه قد غشيت مكة ظلمـة عظيمة حتى لا يبصـر امرؤ كفه، فبـينما هو كذلك إذ خرج نور من زمـزم، ثم علا فى السماء، فـأضاء فى البيت، ثم أضاءت مكة كلهـا، ثم ضرب إلى نخل يثرب فأضاءها، حتى إنى لأنظر إلى البسر فى النخل، فاستـيقظت، فقصصتها على أخى عمرو بن سعيد، وكان جزل الرأى فقال: يا أخى إن هذا لأمر يكون فى بنى عبد المطلب، ألا ترى أنه خرج من حفرة أبيهم.

(1) سيرة ابن هشام: 1/ 180.

(2) رواه أبو نعيم فى الدلائل.

قال خالد: فإنه لما هدانى الله للإسلام.

قالت أم خالد: فأول من أسلم ابنى، وذلك أنه ذكر رؤياه لرسول الله ﷺ فقال يا خالد: أنا والله ذلك النور وأنا رسول الله.

فقص عليه ما بعثه الله به فأسلم خالد وأسلم عمرو بعده(1).

ومما يروى من هذا عن حرام بن عثمان الأنصارى ﷺ قال: قدم أسعد ابن زرارة من الشام تاجرا فى أربعين رجلا من قومه، فرأى رؤيا أن آتيا أتاه، فقال: إن نبيا يخرج بمكة يا أبا أمامة، فاتبعه، وآية ذلك أنكم تنزلون منزلا، فيصاب أصحابك، فتنجو أنت، وفلان يطعن فى عينه.

فنزلوا منزلا، فبيتهم فيه الطاعون، فأصيبوا جميعا غير أبى أمامة، وصاحب له طعن فى عينه(2).

ومما يروى فى هذا عن عمرو بن مرة الجهنى ﷺ قال: خرجت حاجا فى جماعة من قومى فى الجاهلية، فرأيت فى المنام وأنا بمكة نورا ساطعا خرج من الكعبة حتى أضاء لى من الكعبة إلى جبل يثرب وأشعر جهينة، فسمعت صوتا فى النور، وهو يقول: انقشعت الظلم وسطع الضياء وبعث خاتم الأنبياء.

ثم أضاء إضاءة أخرى حتى نظرت إلى قصور الحيرة وأبيض المدائن، فسمعت صوتا فى النور، وهو يقول: ظهر الإسلام، وكسرت الأصنام، ووصلت الأرحام.

فانتبهت فزعا، فقلت لقومى: والله ليحدثن فى هذا الحى من قريش حدث، وأخبرتهم بما رأيت.

فلما انتهينا إلى بلادنا جاءنا خبر أن رجلا يقال له أحمد قد بعث، فخرجت حتى أتيته فأخبرته بما رأيت فقال ﷺ: (يا عمرو بن مرة أنا النبى المرسل إلى العباد كافة أدعوهم إلى الإسلام وآمرهم بحقن الدماء وصلة الأرحام وعبادة الله ورفض الأصنام وحج بيت الله وصيام شهر رمضان شهر من اثنى عشر شهرا، فمن أجاب فله الجنة ومن عصى فله النار، فآمن بالله يا عمرو بن مرة يؤمنك الله من هول جهنم)

فقلت: يا رسول الله، آمنت بما جئت به من حلال وحرام.

ثم أنشدته أبياتا قلتها حين سمعت به وهى:

شهدت بأن الله حق وأننى لآلهة الأصنام أول تارك
لأصحب خير الناس نفسا ووالدا رسول مليك الناس فوق الحبائك(3)

**شق الصدر**

قال عبد القادر: ومن الإرهاصات الدالة على ما ينتظره من شأن عظيم ما روى الرواة الثقاة من شق صدره ﷺ(4).. فقد سأل الصحابة رضى الله عنهم رسول الله ﷺ، فقالوا: يا رسول الله أخبرنا عن نفسك، فقال ﷺ: (أنا دعوة أبى إبراهيم(5)، وبشر بى عيسى، ورأت أمى حين حملت بى أنه خرج منها نور أضاء له قصور بصرى من أرض الشام، واسترضعت فى بنى سعد بن بكير، فبينا أنا مع أخ لى خلف بيوتنا نرعى بهما لنا، إذ جاءنى رجلان عليهما ثياب بيض(6) بطست من ذهب

(1) رواه أبو نعيم.
(2) رواه ابن سعد.
(3) رواه وابن الجوزى.
(4) وقد حصل ذلك مرات كثيرة، سنعرض لها فى فصل (طاقات)
(5) يعني قوله: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (البقرة: 129)
(6) وفى حديث آخر ثلاثة رجال.

مملوءة ثلجا، فأخذاني، فشقا بطني[1]، ثم استخرجا منه قلبي، فشقاه، فاستخرجا منه علقة سوداء، فطرحاها، ثم غسلا قلبي وبطني بذلك الثلج حتى أنقياه[2]، ثم قال أحدهما لصاحبه: زنه بعشرة من أمته، فوزنني بهم فرجحتهم، ثم قال: زنه بمائة من أمته، فوزنني بهم، فوزنتهم ثم قال: زنه بألف من أمته، فوزنني بهم فوزنتهم، ثم قال: دعه عنك، فلو وزنته بأمته لوزنها.

وفي رواية أخرى: ثم ضموني إلى صدورهم، وقبلوا رأسي وما بين عيني، ثم قالوا: يا حبيب لم ترع، إنك لو تدري ما يراد بك من الخير لقرت عيناك.

**عصمة النشأة:**

قال أجير بولس: لقد حفظ المسيح من صغره من تأثيرات البيئة اليهودية المنحرفة، فهل حفظ محمد؟

قال عبد القادر: أجل.. ومما يروى في ذلك قوله ﷺ، وهو يحكي عن صباه: لقد رأيتني في غلمان قريش ننقل حجارة لبعض ما يلعب به الغلمان كلنا قد تعرى، وأخذ إزاره، فجعله على رقبته يحمل عليه الحجارة، فإني لأقبل معهم كذلك وأدبر إذ لكمني لاكم ما أراه لكمة وجيعة، ثم قال: شد عليك إزارك؛ قال: فأخذته وشددته علي، ثم جعلت أحمل الحجارة على رقبتي وإزاري علي من بين أصحابي[3].

وفي حديث آخر عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: حدثني أبي العباس بن عبد المطلب قال: لما بنت قريش الكعبة انفردت رجلين رجلين ينقلون الحجارة، فكنت أنا وابن أخي، فجعلنا نأخذ أزرنا، فنضعها على مناكبنا، ونجعل عليها الحجارة، فإذا دنونا من الناس لبسنا أزرنا، فبينا هو أمامي إذ صرع، فسعيت، وهو شاخص ببصره إلى السماء، فقلت: يا ابن أخي ما شأنك؟ قال: نهيت أن أمشي عريانا.

قال: فكتمته حتى أظهره الله بنبوته[4].

ومما له علاقة بهذا أن النبي ﷺ لم يكن يحلف بحلف أهل الجاهلية الذين كانوا يحلفون بأصنامهم، ومما يروى في ذلك أن بحيرا حين ناشد النبي ﷺ باللات والعزى، قال له النبي ﷺ: (لا تسألني باللات والعزى شيئا، فوالله ما أبغضت بغضهما شيئا)[5].

ويخبر رسول الله ﷺ أنه ما هم بشيء من فعل الجاهلية من اللهو، ولو كان من المباح، فعن علي رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما هممت بشيء مما كان أهل الجاهلية يهمون به من الغناء إلا ليلتين كلتاهما عصمني الله منهما».

ثم ذكر تينك الليلتين، فقال: (قلت ليلة لبعض فتيان مكة، ونحن في رعاية غنم أهلنا، فقلت لصاحبي: أبصر لي غنمي حتى أدخل مكة، فأسمر بها كما يسمر الفتيان، فقال: بلى، فدخلت حتى إذا جئت أول دار من دور مكة سمعت عزفا وغرابيل ومزامير، قلت: ما هذا؟ قيل:

---

(1) قال في غير هذا الحديث من نحري إلى مراق بطني.

(2) قال في رواية أخرى: ثم تناول أحدهما شيئا فإذا بخاتم في يده من نور يحار الناظر دونه فختم به قلبي فامتلأ إيمانا وحكمة ثم أعاده مكانه وأمر الآخر يده على مفرق صدري، فالتأم.

وفي رواية: إن جبريل قال قلب وكيع أي شديد فيه عينان تبصران وأذنان تسمعان.

(3) سيرة ابن هشام: 1/ 184.

(4) رواه الطبراني والبيهقي في الدلائل وابن جرير في التهذيب، وأبو نعيم في المعرفة وفي الدلائل، وهذا يدل على أن هذه الحادثة مخالفة للأولى، وقد قال السهيلي وتبعه ابن كثير وأبو الفتح وابن حجر: إن صح حمل على أن هذا الأمر كان مرتين مرة في حال صغره، ومرة في أول اكتهاله عند بنيان الكعبة.

(5) رواه الترمذي، أبو نعيم في الدلائل (127) وابن سعد في الطبقات: 1 / 100.

تزويج فلان فلانة، فجلست أنظر، وضرب الله على أذني، فو الله ما أيقظني إلا مس الشمس، فرجعت إلى صاحبي فقال: ما فعلت؟ فقلت: (ما فعلت شيئا)، ثم أخبرته بالذي رأيت.

ثم قلت له ليلة أخرى: أبصر لي غنمي حتى أسمر بمكة، ففعل، فدخلت، فلما جئت مكة سمعت مثل الذي سمعت تلك الليلة، فجلست أنظر، وضرب الله على أذني، فوالله ما أيقظني إلا مس الشمس، فرجعت إلى صاحبي، فقال: ما فعلت؟ فقلت: لا شيء، ثم أخبرته بالذي رأيت، فوالله ما هممت ولا عدت بعدهما لشيء من ذلك، حتى أكرمني الله بنبوته[1].

ويذكر ﷺ تجنبه لأكل الحرام في الجاهلية مع كونه مما تعم به البلوى في ذلك الزمان، فقال: (سمعت زيد بن عمرو بن نفيل يعيب كل ما ذبح لغير الله، فما ذقت شيئا ذبح على النصب حتى أكرمني الله برسالته)[2].

وإذا كان بهذه الحالة، فحرى به أن لا يقع فيما كان يقع فيه أهل الجاهلية من عبادة الأصنام وشرب الخمر وغيرها، وقد ذكر على رضي الله عنه أنه قيل للنبي ﷺ: هل عبدت وثنا قط؟، قال:(لا) قالوا: فهل شربت خمرا قط؟ قال: (لا وما زلت أعرف أن الذي هم عليه كفر، وما كنت أدري ما الكتاب ولا الإيمان)[3].

وذكرت حاضنته أم أيمن - رضي الله عنها - بعض حاله في صغره المرتبط بعصمته من شؤون الجاهلية، فقالت: كان بوانة صنما تحضره قريش يوما في السنة، فكان أبو طالب يحضره مع قومه، وكان يكلم رسول الله ﷺ أن يحضر ذلك معه، فيأبى حتى رأيت أبا طالب غضب عليه، ورأيت عماته غضبن عليه، وقلن: يا محمد، ما تريد أن تحضر لقومك عيدا، ولا تكثر لهم جمعا.

فلم يزالوا به حتى ذهب، فغاب ما شاء الله، ثم رجع مرعوبا فزعا، فقالت عماته: ما دهاك؟ قال: إني أخشى أن يكون بي لمم، فقلن: ما كان الله يبتليك بالشيطان، وفيك من خصال الخير ما فيك، فما الذي رأيت؟ قال: إني كلما دعوت من صنم منها تمثل لي رجل أبيض طويل يصيح بي: وراءك يا محمد لا تمسه، قالت: فما عاد إلى عيد لهم[4].

وفوق هذا كله، فقد كان رسول الله ﷺ في غاية الخلق والنبل، حتى لقبه قومه (الصادق الأمين)[5].

ولهذا عندما نادى رسول الله ﷺ في قريش بطنا بطنا فقال: (أرأيتم لو قلت لكم: إن خيلا بسفح هذا الجبل أكنتم مصدقي؟)، قالوا: نعم ما جربنا عليك كذبا قط[6].

ولهذا - أيضا - لما ذكر ﷺ لزوجه خديجة - رضي الله عنها - خوفه على نفسه بعد تنزل الوحي، قالت له:(كلا، أبشر، فو الله لا يخزيك الله أبدا، إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق)[7].

---

(1) رواه ابن إسحاق وإسحاق بن راهويه والبزار وابن حبان، قال ابن حجر: وإسناده حسن متصل.
(2) رواه أبو نعيم في الدلائل 1 / 59.
(3) رواه أبو نعيم وابن عساكر.
(4) رواه ابن سعد وأبو نعيم وابن عساكر.
(5) فعن الزهري، أن قريشا سمت رسول الله ﷺ الأمين قبل أن ينزل عليه الوحي، فطفقوا ألا ينحروا جزورا إلا التمسوه فيه، فيدعو لهم.
(6) رواه البخاري ومسلم.
(7) رواه البخاري ومسلم.

لست أدرى كيف ظهر لبولس أن ينصرف، ويجرنى معه، ليترك عبد القادر وعبد الحكيم مع الجمع يذكرون لهم ميلاد رسول الله ﷺ، والإرهاصات التى ارتبطت به، والتى لا تقل عن الإرهاصات التى ارتبطت بميلاد المسيح وغيره من الأنبياء.

انصرفت مع بولس، وفى قلبى بصيص جديد من النور اهتديت به بعد ذلك إلى شمس محمد ﷺ.

## ثانيا - بركات

فى اليوم الثانى.. جاءنى بولس صباحا، وأخبرنى أننا مدعوان لوجبة غداء مفتوحة عند بعض الوجهاء من مسيحيى المنطقة، وأخبرنى كيف سيستغل الموقف ليبشر ببركات المسيح، والتى ستجر الحاضرين إلى المسيح، وبعده إلى الكنيسة.

ذهبنا إلى تلك الوجبة التى أقيمت فى ساحة عامة، وقد حضرها جمع كبير من فقراء المسلمين.. وقد لمحت من بينهم عبد القادر وعبد الحكيم، وكأنهما علما بالدعوة الموجهة إلينا، وبما عزم بولس أن يقوله ذلك اليوم.

بعد انتهاء الغداء، وقف أجير بولس، والذى حفظ كل ما يقوله فى هذه المواقف، وقال: أيها الجمع المبارك.. لقد شرفنا اليوم رجل تقى من رجال الله بالجلوس معنا، وبالأكل من الطعام الذى أكلنا منه.. ولذلك فإنه من دواعي سرورنا أن يحدثنا ـ فى هذه المناسبة ـ عن البركات التى ارتبطت بأعظم المباركين فى الأرض، وما فتح عليهم من خزائن البركات.. ليكون ذلك مفتاحا لنا نفتح به أبواب بركات الله.

وقف بولس، وقال: أيها الجمع المبارك، لقد طلب منى هذا الرجل الفاضل أن أحدثكم عن البركات.. وما كان لهذا العبد الضعيف أن يتأخر عن هذا الطلب..

ولذلك أبادر، فأقول لكم: هيا نبحث جميعا عن هذا المبارك العظيم الذى امتلأ بالبركات، وملأ ما حوله بالبركات..

ولنيسر البحث عنه أسالكم: ما تقولون فيمن يشبع أكثر من خمسة آلاف رجلٍ مع من معهم من أطفال ونساء بخمسة خبزات وسمكتين؟

تعجب الجميع، وقال بعضهم لبعض: هل يمكن هذا.. إن هذا لغريب!؟

قال بولس: نعم هو غريب.. هو فى غاية الغرابة.. ولكنه عند المسيح بسيط غاية البساطة.

قال أجير بولس: حدثنا عن قصة ذلك.. كيف حصل ذلك؟

قال بولس: لقد نص على هذه الحادثة الكتاب المقدس.. فقد ورد فيه هذا النص الذى يثبت لكم ما ذكرته: (ثُمَّ أَخَذَ الأَرْغِفَةَ الْخَمْسَةَ وَالسَّمَكَتَيْنِ وَرَفَعَ نَظَرَهُ نَحْوَ السَّمَاءِ وَبَارَكَ وَكَسَّرَ وَأَعْطَى الأَرْغِفَةَ لِلتَّلاَمِيذِ وَالتَّلاَمِيذُ لِلْجُمُوعِ، فَأَكَلَ الْجَمِيعُ وَشَبِعُوا، ثُمَّ رَفَعُوا مَا فَضَلَ مِنَ الْكِسَرِ: اثْنَتَى عَشْرَةَ قُفَّةً مَمْلُوءَةً، وَالآكِلُونَ كَانُوا نَحْوَ خَمْسَةَ آلاَفِ رَجُلٍ مَا عَدَا النِّسَاءَ وَالأَوْلاَدَ)(متى: 14/19-21)[1].

قال أجير بولس: حدثنا عن القصة من مبدئها.

استغل بولس هذا السؤال ليجعل من القصة موعظة يكسب بها جمهور الحاضرين، فقال: فى ذلك المساء الذى حصلت فيه تلك المعجزة، تقدم التلاميذ الاثنا عشر إلى المسيح الذى كان يعظ الجموع الكثيرة، وقالوا له: (الموضع خلاء والوقت مضى، اصرف الجموع لكى يمضوا إلى الضياع والقرى حوالينا، فيبيتوا ويبتاعوا لهم طعامًا، لأننا ههنا فى موضع خلاء، وليس عندهم ما يأكلون).

لقد خاف التلاميذ أن يطالبهم الجمهور بحقوق الضيافة، وحسبوا أن هؤلاء الرجال والنساء والأطفال مع مرضاهم يتضرّرون إذا دخل الليل عليهم فى هذا الخلاء.

---

(1) وانظر: مرقس: 6/ 13-21؛ لوقا: 9/ 10-17؛ ويوحنا: 6/ 1-14.

وهنا وجّه المسيح لفيلبس جوابه على هذا الكلام، وكان فى صيغة سؤال عن مكان يوجد فيه طعام، وكأنه يكلّف فيلبس بتدبير ما يلزم لهؤلاء الضيوف، سأله المسيح: (من أين نبتاع خبزاً ليأكل هؤلاء؟)

لم يقل المسيح ذلك ليستفهم، بل ليمتحن ويعلّم، لأنه كان يعلم جيداً ما سيفعل، لكنه أراد أن ينبّه تلاميذه إلى عجزهم وضعف إيمانهم، لأن درس التواضع درس أولى يجب أن يتعلموه.

كان فيلبس متنبّهًا إلى صعوبة الأمر من وجوه عديدة، فعمل حسابًا بأن الخبز وحده يكلّف أكثر من مئتى دينار، فأين الدنانير؟ هل هى عند المسيح الذى ليس له ما يسند رأسه؟.. وفضلاً عن ذلك: لو وجدوا الدنانير، فأين الوقت للذهاب إلى قرى عديدة لجَمع كمية كهذه، ولو من الخبز وحده والإتيان به، والشمس أوشكت أن تغرب؟.. وفوق هذا كله: أين وسائل النقل لإحضار طعام يكفى الألوف؟ ويُلاحظ أيضًا أن حصة يسيرة من الخبز الحاف لا تقوم بضيافة يليق أن يقدمها شخص كالمسيح لضيوفه.

بناء على هذا كله أجاب فيلبس المسيح: (لا يكفيهم خبز بمئتى دينار ليأخذ كل واحد منهم شيئًا يسيراً)، وظن أن جوابه يقنع المسيح فيتبع نصيحة الرسل ويصرف الجمع، لكن عجبه اشتد لما أجابه المسيح: (لا حاجة لهم أن يمضوا، أعطوهم أنتم ليأكلوا).

لقد قال المسيح ذلك، وهو يعلم أنه ليس لديهم طعام، ليعلّمهم أن الذين يقصدون إفادة الآخرين يحتاجون إليه، إذ ليس لديهم ما يطعمون به نفوسًا جائعة، وفى الوقت ذاته يشير إلى أن الله يختار الوسائط البشرية ليُجرى مقاصده فى العالم، لأنه لا يوزّع خيراته الروحية والزمنية رأسًا، أو بواسطة الملائكة إلا نادراً - وذلك عندما لا توجد وسائط بشرية، وهذا القانون هو لخير الذين يقدمون والذين يأخذون معًا، إذ تنشأ بذلك رُبط المحبة بين المحسِن والمحسَن إليه، ويتنشط الذى يوزّع فى ممارسة إنكار الذات وخدمة الآخرين.

لكن التلاميذ اعترضوا على أمر المسيح قائلين: (أنمضى ونبتاع خبزاً بمئتى دينار ونعطيهم ليأكلوا؟)، فسأل: (كم رغيفًا عندكم؟ اذهبوا وانظروا).

لقد نبّههم المسيح بهذا الكلام إلى أن العمل الإلهى لا يُغنى عن العمل البشرى المستطاع، ولم يُرد أن يوجد خبزاً من لا شىء، طالما يوجد شىء، فاستخدم أولاً الموجود بين أيديهم ليعلّمهم أن لا يطلبوا من الناس عملاً يستطيعونه بالوسائط الطبيعية، لأن هذه دبرها لهم الله، فلا حق لهم فى غيرها، إلا بعد الفراغ من استعمالها.

فاعتماد الإنسان على غيره فى ما يستطيعه يُحسب دناءة، وانتظارُه أن الله يعمل ما يطلب منه هو يُعَدّ كسلاً وتواكلاً، فمتى عجز العمل الإنسانى أو انتهى، يحقُّ طلب العمل الإلهى.

وكان أندراوس تلميذ المسيح الأول قد لاحظ غلامًا بين الجمهور معه خمسة أرغفة شعير وسمكتان، فأخبر المسيح عنه مع التحفُّظ قائلاً: (لكن ما هذا لمثل هؤلاء؟)

ولم يقل المسيح بعد أن سمع بوجود هذا القليل: (اتركوه لأنه لا يستحق الذِّكر)، ولا قال: (قدموها للجمع)، بل قال: (إيتونى بها إلى هنا) ليعلمهم أنه هو مصدر الخير والبركة، هو الملك وصاحب الحق.. وكل ما عندنا هو له، يتصرف فيه كما يشاء دون مُعارض.

ولما كان الترتيب من أبواب الرقى فى الدين والدنيا، فلا نعجب من اهتمام المسيح به، فأمر أن يجعلوا الناس يتكئون فرقًا خمسين خمسين على العشب الأخضر، فلو توزّع الطعام على هذه الألوف دون ترتيب، لداس بعضهم بعضًا، وتغلّب القوى على الضعيف. وأخذ البعض كثيراً والبعض لم

يأخذوا شيئًا، لكن بواسطة الترتيب يتمّ التوزيع بسرعة ولياقة وإتصاف، ويرى كل مفكرٍ فى أمور الطبيعة، اهتمام الخالق بأمر الترتيب.

استلم المسيح الأرغفة الخمسة والسمكتين، ثم رفع نظره نحو السماء وشكر، فعلّم تلاميذه أن كل خير ـ حتى الطعام الذى نشتريه ـ هو عطية إلهية، وأننا يجب دائمًا أن نقدم الشكر للمعطى الجواد عندما نتناول الطعام، ولا يجب أن نشكر فى وقت الطعام فقط، بل نشكر عندما ننال أى نوع من الخيرات لأن (كُلُّ عَطِيَّةٍ صَالِحَةٍ وَكُلُّ مَوْهِبَةٍ تَامَّةٍ هِيَ مِنْ فَوْقُ، نَازِلَةٌ مِنْ عِنْدِ أَبِي الأَنْوَارِ) (يعقوب 1: 17)

وبعد أن شكر المسيح بارك وكسر الأرغفة والسمكتين، ثم ناول الكسر التى باركها للرسل ليقدموها للمصطفّين فرقًا على البساط الأخضر، وفى هذا العمل علّمهم أن يطعموا غيرهم أولاً، ثم يأكلوا هم بعدهم، كما يجدر بالمؤمنين الأفاضل.

وفى أثناء التوزيع على هذا العدد الغفير حدثت معجزة الإكثار، فقد قسم السمكتين على الجميع بقدر ما شاءوا فأكلوا وشبعوا جميعًا، وليس ذلك فقط بل إن القطع التى لم تؤكل كانت أضعاف الموجود أصلاً.

بهذه المعجزة المؤثرة الغنية بالفوائد، علّم المسيح أتباعه أنه مستعد أن يأخذ خدمتهم الدينية الضعيفة، وكلامهم البسيط، ويضع فيها قوة وتأثيرًا ليزيد فعلهما أضعاف فعلهما الطبيعى، لأنه يأخذ ما يقدمّ له ويزيده، ثم يعيده لمقدّمه زائدًا.

بعد أن أطعم المسيح الجموع هتفوا له، وأرادوا أن يملكوه عليهم، وكان ردُّ فعله الأول هو أنه فصل تلاميذه عن الجمهور المتحمّس لهذا العمل، وألزمهم أن يدخلوا السفينة، ويسبقوه إلى العبر، حتى يكون قد صرف الجموع.

لم يسهُل عليهم ترك سيدهم أثناء نجاحه الباهر، وانتشار صيته، خصوصًا بعد أن ظهر لهم أن باب العظمة العالمية، والثروة الزمنية، قد فُتح أمامهم، وإن كان المسيح قد صرفهم بشىء من العنف، لأنهم رفضوا فكره، نراه يُتبع العنف باللطف، لأن البشير يذكر صريحًا أنه ودّعهم. ومع أنه سيفترق عنهم ساعات قليلة فإنه يودّعهم وداعًا حبيًا يحقق لهم به عواطفه الحارة نحوهم.

وكان رد فعل المسيح الثانى أنه صرف الجمهور.

وكانت خطوته الثالثة انصرافه هو، وصعوده منفردًا إلى الجبل ليصلى، وما أكثر المرات التى كان فيها يختلى للصلاة.

ليس هذا فقط ما روى من بركات المسيح. .

لقد ورد فى محل آخر من الكتاب المقدس أنه قام بإطعام أربعة آلاف وثنى. . اسمعوا ما جاء فى الكتاب المقدس.

فتح الكتاب المقدس وراح يقرأ: (فِي تِلْكَ الأَيَّامِ إِذْ كَانَ الْجَمْعُ كَثِيرًا جِدًّا، وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مَا يَأْكُلُونَ، دَعَا يَسُوعُ تَلاَمِيذَهُ وَقَالَ لَهُمْ: (إِنِّي أُشْفِقُ عَلَى الْجَمْعِ، لأَنَّ الآنَ لَهُمْ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ يَمْكُثُونَ مَعِي، وَلَيْسَ لَهُمْ مَا يَأْكُلُونَ، وَإِنْ صَرَفْتُهُمْ إِلَى بُيُوتِهِمْ صَائِمِينَ يُخَوِّرُونَ فِي الطَّرِيقِ، لأَنَّ قَوْمًا مِنْهُمْ جَاءُوا مِنْ بَعِيدٍ). فَأَجَابَهُ تَلاَمِيذُهُ: (مِنْ أَيْنَ يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يُشْبِعَ هؤُلاَءِ خُبْزًا هُنَا فِي الْبَرِّيَّةِ؟) فَسَأَلَهُمْ: (كَمْ عِنْدَكُمْ مِنَ الْخُبْزِ؟) فَقَالُوا: (سَبْعَةٌ). فَأَمَرَ الْجَمْعَ أَنْ يَتَّكِئُوا عَلَى الأَرْضِ، وَأَخَذَ السَّبْعَ خُبْزَاتٍ وَشَكَرَ وَكَسَرَ وَأَعْطَى تَلاَمِيذَهُ لِيُقَدِّمُوا، فَقَدَّمُوا إِلَى الْجَمْعِ. وَكَانَ مَعَهُمْ قَلِيلٌ مِنْ صِغَارِ السَّمَكِ، فَبَارَكَ وَقَالَ أَنْ يُقَدِّمُوا هذِهِ أَيْضًا. فَأَكَلُوا وَشَبِعُوا، ثُمَّ رَفَعُوا فَضَلاَتِ الْكِسَرِ: سَبْعَةَ سِلاَل. وَكَانَ الآكِلُونَ نَحْوَ أَرْبَعَةِ آلاَفٍ. ثُمَّ صَرَفَهُمْ) (مرقس 8: 1-9).

أغلق الكتاب المقدس، وقال: لقد أجرى المسيح معجزة إشباع خمسة آلاف نفس فى الجليل، وأجرى معجزة إشباع أربعة آلاف نفس فى دائرة ديكابوليس، أى (المدن العشر)، وهى من البلاد الوثنية.

لقد اجتمع الناس هناك من حول المسيح فى البرية، وطال اجتماعهم به ثلاثة أيام حتى نفد الزاد، لأن قومًا جاءوا من بعيد، فحمله إشفاقه على تكرار إشباع الجمهور بمعجزة.

وإشفاق المسيح هذا يرافق كل فرد من البشر من مهده إلى لحده. كان كلامه الحنون: (لست أريد أن أصرفهم إلى بيوتهم صائمين لئلا يخوروا فى الطريق) لا يسعنا إلا أن نستغرب تكرار التلاميذ اعتذارهم بالعجز فى صيف ذات السنة التى فى ربيعها أشبع المسيح جمْعًا أكثر بشىء زهيد من الطعام، غير أن المسيح بكّتهم بعد قليل على نسيان المعجزتين معًا وعدم استفادتهم منهما، فالشكوك الحاضرة تولّد نسيان المراحم الماضية.

ازداد استغراب الجمهور الحاضر، فقال أجير بولس: إن هذه عجائب عظيمة تدل على أن الذى فعلها لا يقل عن الرب فى قدراته وتصرفاته وبركاته.

سر بولس لهذا الكلام، وقال: صدقت.. ففى المعجزة الأولى التى حوّل المسيح فيها من الرغيف الواحد طعاما يُشبع أكثر من ألف رجل غير النساء والأطفال، بل وفَضُلَ عنه حوالى قفّتين ونصف، كما حوّل من أقل نصف سمكة صغيرة إلى سمك كثيرٍ أشبع أكثر من ألف شخص.

وفى المعجزة الثانية فعل تقريبًا نفس ما فعله فى الأولى.

إن هذا كله يعنى أنّ ما حدث على يَدَيْه هو عمليّة خلق، خلق من الرغيف الواحد كمًّا كبيرًا من الأرغفة، وخلق من أقل من نصف سمكة صغيرة كميةً كبيرةً من السمك.

قال ذلك، ثم توجه للحاضرين قائلا: هل يمكن أنْ يكون الذى فعل هذا مجرَّد إنسان!؟

سكت الجميع، فقال بولس: لا.. إن الذى فعل هذا لا يمكن إلا أن يكون إلها، أو أقنوما من إله[1]!؟

هنا قام عبد الحكيم، وقال: بناء على قولك هذا.. فإنه ليس المسيح وحده من نال هذه المرتبة العظيمة.. فاستحق أن يصير إلها، أو أقنوما من إله.

قال أجير بولس: لا.. ليس هناك غير المسيح.

قال عبد الحكيم: لقد ذكر الكتاب المقدس تكثير الطعام ومباركته عن غير المسيح، فقد ذكر عن إيلياء تكثير الدقيق والزيت فى بيت امرأة أرملة.. كما جاء فى الكتاب المقدس.

فتح الكتاب المقدس، وراح يقرأ: (وَقَالَ إِيلِيَّا التِّشْبِيُّ مِنْ أَهْلِ جِلْعَادَ لأَخْآبَ: (حَيٌّ هُوَ الرَّبُّ إِلَهُ إِسْرَائِيلَ الَّذِي أَخْدُمُهُ، إِنَّهُ لَنْ يَهْطِلَ نَدًى وَلاَ مَطَرٌ فِي هَذِهِ السِّنِينَ، إِلاَّ حِينَ أُعْلِنُ ذَلِكَ)، وَأَمَرَ الرَّبُّ إِيلِيَّا: (امْضِ مِنْ هُنَا وَاتَّجِهْ نَحْوَ الْمَشْرِقِ، وَاخْتَبِئْ عِنْدَ نَهْرِ كَرِيثَ الْمُقَابِلِ لِنَهْرِ الأُرْدُنِّ، فَتَشْرَبَ مِنْ مِيَاهِهِ وَتَقْتَاتَ مِمَّا تُحْضِرُهُ لَكَ الْغِرْبَانُ الَّتِي أَمَرْتُهَا أَنْ تَعُولَكَ هُنَاكَ)، فَانْطَلَقَ وَنَفَّذَ أَمْرَ الرَّبِّ، وَأَقَامَ عِنْدَ نَهْرِ كَرِيثَ مُقَابِلَ نَهْرِ الأُرْدُنِّ، فَكَانَتِ الْغِرْبَانُ تُحْضِرُ إِلَيْهِ الْخُبْزَ وَاللَّحْمَ صَبَاحًا وَمَسَاءً، وَكَانَ يَشْرَبُ مِنْ مَاءِ النَّهْرِ. وَمَا لَبِثَ أَنْ جَفَّ النَّهْرُ بَعْدَ زَمَنٍ، لأَنَّهُ لَمْ يَهْطِلْ مَطَرٌ عَلَى الأَرْضِ.

فَخَاطَبَ الرَّبُّ إِيلِيَّا: (قُمْ وَتَوَجَّهْ إِلَى صِرْفَةَ التَّابِعَةِ لِصِيدُونَ، وَامْكُثْ هُنَاكَ، فَقَدْ أَمَرْتُ هُنَاكَ أَرْمَلَةً أَنْ تَتَكَفَّلَ بِإِعَالَتِكَ) فَذَهَبَ إِلَى صِرْفَةَ. وَعِنْدَمَا وَصَلَ إِلَى بَوَّابَةِ الْمَدِينَةِ شَاهَدَ امْرَأَةً تَجْمَعُ

(1) هذا ـ طبعا ـ بناء على اختلاف الطوائف المسيحية، فنحن فى هذه السلسلة نتعامل معهم ـ كطائفة واحدة ـ مهما اختلفت آراؤهم فى طبيعة المسيح.

حطَبًا، فَقَالَ لَهَا: (هَاتِي لِي بَعْضَ الْمَاءِ فِي إِنَاءٍ لأَشْرَبَ). وَفِيمَا هِيَ ذَاهِبَةٌ لِتُحْضِرَهُ نَادَاهَا ثَانِيَةً وَقَالَ: (هَاتِي لِي كِسْرَةَ خُبْزٍ مَعَكِ)، فَأَجَابَتْهُ: (حَيٌّ هُوَ الرَّبُّ إِلَهُكَ إِنَّهُ لَيْسَ لَدَيَّ كَعْكَةٌ، إِنَّمَا حَفْنَةُ دَقِيقٍ فِي الْجَرَّةِ، وَقَلِيلٌ مِنَ الزَّيْتِ فِي قَارُورَةٍ. وَهَا أَنَا أَجْمَعُ بَعْضَ عِيدَانِ الْحَطَبِ لآخُذَهَا وَأُعِدَّ لِي وَلابْنِي طَعَامًا نَأْكُلُهُ ثُمَّ نَمُوتُ)، فَقَالَ لَهَا إِيلِيَّا: (لاَ تَخَافِي. امْضِي وَاصْنَعِي كَمَا قُلْتِ، وَلَكِنْ أَعِدِّي لِي مِنْهُ كَعْكَةً صَغِيرَةً أَوَّلاً وَأَحْضِرِيهَا لِي، ثُمَّ اعْمَلِي لَكِ وَلابْنِكِ أَخِيرًا، لأَنَّ هَذَا مَا يَقُولُهُ الرَّبُّ إِلَهُ إِسْرَائِيلَ: إِنَّ جَرَّةَ الدَّقِيقِ لَنْ تَفْرُغَ، وَقَارُورَةَ الزَّيْتِ لَنْ تَنْقُصَ، إِلَى الْيَوْمِ الَّذِي يُرْسِلُ فِيهِ الرَّبُّ مَطَرًا عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ)، فَرَاحَتْ إِلَى مَنْزِلِهَا وَنَفَّذَتْ كَلاَمَ إِيلِيَّا، فَتَوَافَرَ لَهَا طَعَامٌ لِتَأْكُلَ هِيَ وَابْنُهَا وَإِيلِيَّا لِمُدَّةٍ طَوِيلَةٍ. جَرَّةُ الدَّقِيقِ لَمْ تَفْرُغْ، وَقَارُورَةُ الزَّيْتِ لَمْ تَنْقُصْ، تَمَامًا كَمَا قَالَ الرَّبُّ عَلَى لِسَانِ إِيلِيَّا) (الملوك الأول: 17/ 1-16)

فهل تعتبرون إيليّا أيضا إلها.. أو تعتبرونه أقنوما من إله؟

سكت بولس، فقال عبد الحكيم: ليس إيليا وحده من فعل هذا.. لقد ورد في الكتاب المقدس أن أليشع ـ أيضا ـ فعل هذا.

فتح الكتاب المقدس، وراح يقرأ من (سفر الملوك الثاني: 4 / 1 - 7): (وَاسْتَغَاثَتْ إِحْدَى نِسَاءِ بَنِي الأَنْبِيَاءِ بِأَلِيشَعَ قَائِلَةً: (عَبْدُكَ زَوْجِي تُوُفِّيَ، وَأَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّهُ كَانَ يَتَّقِي الرَّبَّ، وَقَدْ أَقْبَلَ مُدِينُهُ الْمُرَابِي لِيَسْتَرِقَّ وَلَدَيَّ (لقاء ديونه)). فَسَأَلَهَا أَلِيشَعُ: مَاذَا يُمْكِنُ أَنْ أَصْنَعَ لَكِ؟ أَخْبِرِينِي مَاذَا عِنْدَكِ فِي الْبَيْتِ؟) فَقَالَتْ: (لاَ أَمْلِكُ فِي الْبَيْتِ شَيْئًا سِوَى قَلِيلٍ مِنَ الزَّيْتِ). فَقَالَ لَهَا أَلِيشَعُ: (اذْهَبِي اسْتَعِيرِي أَوَانِيَ فَارِغَةً مِنْ عِنْدِ جَمِيعِ جِيرَانِكِ وَأَكْثِرِي مِنْهَا. ثُمَّ ادْخُلِي بَيْتَكِ وَأَغْلِقِي الْبَابَ عَلَى نَفْسِكِ وَعَلَى بَنِيكِ، وَصُبِّي زَيْتًا فِي جَمِيعِ هَذِهِ الأَوَانِي، وَانْقُلِي مَا يَمْتَلِئُ مِنْهَا إِلَى جَانِبٍ). فَمَضَتْ مِنْ عِنْدِهِ وَأَغْلَقَتِ الْبَابَ عَلَى نَفْسِهَا وَعَلَى أَبْنَائِهَا، الَّذِينَ رَاحُوا يُحْضِرُونَ لَهَا الأَوَانِيَ الْفَارِغَةَ فَتَصُبُّ فِيهَا. وَحِينَ امْتَلأَتْ جَمِيعُ الأَوَانِي قَالَتْ لابْنِهَا: (هَاتِ إِنَاءً آخَرَ). فَأَجَابَهَا: (لَمْ يَبْقَ هُنَاكَ إِنَاءٌ). عِنْدَئِذٍ تَوَقَّفَ تَدَفُّقُ الزَّيْتِ. فَجَاءَتْ إِلَى رَجُلِ اللهِ وَأَخْبَرَتْهُ. فَقَالَ لَهَا: (اذْهَبِي وَبِيعِي الزَّيْتَ وَأَوْفِي دَيْنَكِ، وَعِيشِي أَنْتِ وَأَبْنَاؤُكِ بِمَا يَتَبَقَّى مِنْ مَالٍ).

فأنتم ترون أن أليشع صنع معجزة تكثير الزيت، بل إن أليشع لم يرفع نظره نحو السماء كما فعل المسيح، ولا بارك ولا شكر الله كما فعل المسيح، ومع ذلك لم يقل أحد إن في أليشع طبيعة لاهوتية مع أن هذه الأعجوبة أبلغ مما وقع للمسيح.

هنا نطق أجير بولس، كعادته في إفساد خطط بولس من غير أن يقصد: نعم.. لقد روى عن هذين النبيين هذه البركات.. ولكن نبيكم الذي تزعمون كونه نبيا خلت سيرته من أي بركة.. حتى إنه كما تروون كان يعصب الحجر على بطنه من الجوع، وكانت الأهلة تمر وتمر، ولا يوقد في بيته نار.

نظر عبد القادر إليه بابتسامة، وقال: لكأني بك تريد أن تستفزني لأحدثك عن بركات النبوة المرتبطة بهذا الجانب.

قال الأجير: وهل هناك شيء مرتبط بهذا الجانب حتى تحدثني عنه؟

ود بولس في تلك اللحظة لو يلقم أجيره حجرا يسكته به، ولكن وقاره وسمته منعه من ذلك، كما كان يمنعه كل مرة.

فقال عبد القادر: نعم.. لقد روى ذلك مرات كثيرة.. وسأذكر لك بعض ذلك ما دمت مصرا على أن أذكره.

قال بعض الجمع: كلنا نحب أن نسمع ذلك.. لقد سمعنا بركات المسيح.. وبركات الأنبياء، فحدثنا عن بركات محمد.

قال عبد القادر: ما دمتم قد طلبتم ذلك، فسأحدثكم عن خمس نواح من البركات ارتبطت به ﷺ.

أما الأولى، فبركاته ﷺ على كل من صاحبه، أو لقيه، أو عاش معه.

وأما الثانية، فبركاته ﷺ على كل من لمسه.

وأما الثالثة، فبركاته ﷺ فى بعض الولائم التى أقامها هو أو أقامها أصحابه.

وأما الرابعة، فبركاته ﷺ على بعض الأطعمة.

وأما الخامسة، فبركاته ﷺ فى المياه.

وكل هذا بعض بركاته ﷺ المرتبطة بما نحن فيه.. أما بركاته المرتبطة بالجوانب الأخرى، فلا عد لها ولا حصر.

# 1 - الصحبة المباركة

قال رجل من الجمع: فابدأ حديثك بالبركات التى تنزلت على من صاحب محمداً، أو لقيه، أو عاش معه.

**1 - بركاته على أهل بيته:**

قال عبد القادر: لقد كان أعظم من تشرف ببركاته ﷺ من عاش ﷺ فى كفالتهم، أو عاشوا فى كفالته، وسأحدثكم عن بعض ما روى من ذلك..

أول ما ظهر من بركاته ﷺ فى هذا الباب ـ على حسب ما ذكرت الروايات الكثيرة التى لا تقل عن الروايات التى تقل بها الكتاب المقدس ـ هو ما ذكرته مرضعته حليمة السعدية، والتى نقل عنها الرواة ذكرها لخبرها مع رسول الله ﷺ، وبركاته عليها وعلى أهلها، فقد ذكرت أنها خرجت من بلدها مع زوجها، وابن لها صغير ترضعه فى نسوة من بنى سعد بن بكر، تلتمس الرضعاء قالت: وذلك فى سنة شهباء، لم تبق لنا شيئا.

فخرجت على أتان لى قمراء معنا شارف لنا، والله ما تبض بقطرة، وما ننام ليلنا أجمع من صبينا الذى معنا، من بكائه من الجوع ما فى ثديى ما يغنيه، وما فى شارفنا ما يغذيه، ولكنا كنا نرجو الغيث والفرج.

فخرجت على أتانى تلك، فلقد أدمت بالركب حتى شق ذلك عليهم ضعفا وعجفا، حتى قدمنا مكة نلتمس الرضعاء، فما منا امرأة إلا وقد عرض عليها رسول الله ﷺ، قيل لها: إنه يتيم، وذلك أنا إنما كنا نرجو المعروف من أبى الصبى، فكنا نقول: يتيم؟! وما عسى أن تصنع أمه وجده؟! فكنا نكرهه لذلك.

فما بقيت امرأة قدمت معى إلا أخذت رضيعا غيرى، فلما أجمعنا الانطلاق قلت لصاحبى: والله إنى لأكره أن أرجع من بين صواحبى ولم آخذ رضيعا، والله لأذهبن إلى ذلك اليتيم، فلآخذنه، قال: لا عليك أن تفعلى، عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة.

قالت فذهبت إليه فأخذته، وما حملنى على أخذه إلا أنى لم أجد غيره.

وهنا بدأت حليمة تستشعر بركات رسول الله ﷺ.. قالت: فلما أخذته رجعت به إلى رحلى، فلما وضعته فى حجرى أقبل عليه ثدياى بما شاء من لبن، فشرب حتى روى وشرب معه أخوه حتى روى، ثم ناما، وما كنا ننام معه قبل ذلك.. وقام زوجى إلى شارفنا تلك، فإذا هى حافل فحلب منها ما شرب وشربت معه حتى انتهينا ريا وشبعا، فبتنا بخير ليلة، قالت: يقول صاحبى حين أصبحنا: تعلمى والله يا حليمة لقد أخذت نسمة مباركة، قالت: فقلت: والله إنى لأرجو ذلك.

قالت: ثم خرجنا وركبت أتانى، وحملته عليها معى، فوالله لقطعت بالركب ما يقدر عليها أبى ذؤيب، حتى قال الذين معى: ويحك أربعى علينا، أليست هذه أتانك التى كنت خرجت عليها؟ فأقول لهن: بلى والله إنها لهى هى، فيقلن: والله إن لها لشأنا.

قالت: ثم قدمنا منازلنا من بلاد بنى سعد، وما أعلم أرضا من أرض الله أجدب منها، فكانت غنمى تروح على حين قدمنا به معنا شباعا لبنا، فنحلب ونشرب وما يحلب إنسان قطرة لبن ولا يجدها فى ضرع حتى كان الحاضرون من قومنا يقولون لرعيانهم: ويلكم اسرحوا حيث يسرح راعى بنت أبى ذؤيب، فتروح أغنامهم جياعا ما تبض بقطرة لبن وتروح غنمى شباعا لبنا.

فلم نزل نتعرف من الله الزيادة والخير حتى مضت سناه وفصلته، وكان يشب شبابا لا يشبه الغلمان، فلم يبلغ سنتيه حتى كان غلاما جفرا.

قالت: فقدمنا به على أمه ونحن أحرص شيء على مكثه فينا، لما كنا نرى من بركته، فكلمنا أمه، وقلت لها: لو تركت بني عندي حتى يغلظ، فإني أخشى عليه وباء مكة، قالت فلم نزل بها حتى ردته معنا[1].

قال رجل من الجمع: لقد بقي محمد مدة في كفالة عمه أبي طالب، فهل ظهرت بعض بركاته عليه.

قال عبد القادر: أجل.. لقد رويت في ذلك روايات كثيرة.

فعن ابن عباس رضي الله عنهما وغيره قالوا: لما توفى عبد المطلب كفل أبو طالب رسول الله ﷺ فكان يكون معه، وكان يحبه حبا شديدا لا يحبه ولده، وكان لا ينام إلا إلى جنبه، وصبَّ به صبابة لم يصب مثلها قط، وكان يخصه بالطعام، وكان عيال أبي طالب إذا أكلوا جميعا أو فرادى لم يشبعوا، وإذا أكل معهم رسول الله ﷺ شبعوا.

وكان أبو طالب إذا أراد أن يغديهم أو يعشيهم، يقول: كما أنتم حتى يحضر ابني، فيأتي رسول الله ﷺ فيأكل معهم، فيفضلون من طعامهم، وإن لم يكن معهم لم يشبعهم، وإن كان لبنا شرب أولهم، ثم يتناول العيال القعب، فيشربون منه، فيروون عن آخرهم من القعب الواحد، وإن كان أحدهم ليشرب قعبا وحده، فيقول أبو طالب: إنك لمبارك.

وكان الصبيان يصبحون رمصا شعثا، ويصبح رسول الله ﷺ دهينا كحيلا[2].

وفي حديث آخر عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان أبو طالب يقرب للصبيان تصبيحهم، فيضعون أيديهم، فينتهبون، ويكف رسول الله ﷺ يده، فلما رأى ذلك أبو طالب عزل له طعامه.

وقد ذكرت حاضنته أم أيمن ـ رضي الله عنها ـ سيرته في طعامه، فقالت: ما رأيت رسول الله ﷺ شكا جوعا ولا عطشا لا في كبره ولا في صغره، وكان يغدو إذ أصبح، فيشرب من ماء زمزم شربة، فربما عرضنا عليه الغداء فيقول: أنا شبعان[3].

ومن بركاته على عمه أبي طالب ما ورد من استسقائه به، فعن جلهمة بن عرفطة، قال: قدمت مكة وقريش في قحط، فقائل منهم يقول: اعتمدوا واللات والعزى، وقائل منهم يقول: اعتمدوا مناة الثالثة الأخرى، فقال شيخ وسيم حسن الوجه جيد الرأي: أنى تؤفكون، وفيكم بقية إبراهيم وسلالة إسماعيل، قالوا: كأنك عنيت أبا طالب؟ قال: إيها.

فقاموا بأجمعهم، وقمت معهم، فدققناه عليه بابه، فخرج إلينا رجل حسن الوجه، عليه إزار قد اتشح به، فثاروا إليه، فقالوا: يا أبا طالب أقحط الوادي، وأجدب العيال، فهلم فاستسق لنا.

فخرج أبو طالب، ومعه غلام كأنه شمس دُجُنَّة، تجلت عليه سحابة قتماء، وحوله أغيلمة، فأخذه أبو طالب، فألصق ظهره بالكعبة، ولاذ بأصبعه الغلام وما في السماء قزعة، فأقبل السحاب من هاهنا وهاهنا أغدق واغدودق وانفجر له الوادي وأخصب النادي والبادي.

---

(1) وقد بقي معها ﷺ إلى أن حدثت حادثة شق الصدر، فخشيت حليمة عليه، فردته إلى أمه، فقالت: أفتخوفت عليه الشيطان؟ قالت: قلت نعم قالت: كلا، والله ما للشيطان عليه من سبيل وإن لبني لشأنا، أفلا أخبرك خبره قالت: (قلت) بلى، قالت: رأيت حين حملت به أنه خرج مني نور أضاء لي قصور بصرى من أرض الشام، ثم حملت به فوالله ما رأيت من حمل قط كان أخف (علي) ولا أيسر منه ووقع حين ولدته وإنه لواضع يديه بالأرض رافع رأسه إلى السماء. دعيه عنك وانطلقي راشدة.

(2) رواه ابن سعد والحسن بن عرفة وابن عساكر وغيرهم.

(3) رواه أبو نعيم.

وفى ذلك يقول أبو طالب:

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمـال اليتامى عصمة للأرامل
يلوذ به الهـلاك من آل هاشم فهـم عنده فى نعـمة وفواضل

ومن البركات المرتبطة بصحبة رسول الله ﷺ لعمه أبى طالب ما حدث به عمرو بن سعيد من أن أبا طالب قال: كنت بذى المجاز مع ابن أخى - يعنى النبى ﷺ - فأدركنى العطش، فشكوت إليه، فقلت: يا ابن أخى قد عطشت.

وما قلت له ذلك، وأنا أرى عنده شيئا إلا الجزع. قال: فثنى وركه، ثم قال: يا عم عطشت؟ قلت: نعم.

فأهوى بعقبه إلى الأرض، فإذا أنا بالماء، فقال: اشرب، فشربت[1].

سكت عبد القـادر قليلا، ثم قال: ومن بركاته ﷺ على أهل بيتـه، ما روى فى الحديث عن جابر - رضى الله عنه - قال: قام رسول الله ﷺ أيامـا لم يطعم طعاما حتى شق ذلك عليه فطاف فى منازل أزواجه فلم يصب عند واحدة منهن شيئا، فأتى فاطمة، فقال: (يا بنية، هل عندك شيء آكله، فإنى جائع) فقالت: لا والله.

فلما خرج من عندها رسول الله ﷺ بعثت إليها جارة لها برغيفين وقطعة لحم، فأخذته منها، فوضعـته فى جَفْنة لها وغطت عليـها، وقالت: والله، لأوثرن بهذا رسـول الله ﷺ على نفسى ومن عندى، فكانوا جميعا مـحتاجين إلى شبعة طعام، فبعثت حـسنا أو حسينا إلى رسول الله ﷺ فرجع إليها فقـالت له: قد أتى الله بشيء فخبأته لك، قال: (هلمى يا بنيـة)، فكشفت عن الجفنة، فإذا هى مملوءة خبـزا ولحما، فلما نظرت إليـها بهتت وعرفت أنهـا بركة من الله عز وجل، فحـمدت الله عز وجل وصلت على نبيه ﷺ وقدمته إلى رسـول الله ﷺ فلما رآه حمد الله عز وجل، وقال: (من أين لك هذا يا بنيـة؟) قالت: يا أبت، هذا من عنـد الله، إن الله يرزق من يشاء بغـير حـساب، فـقال: (الحمد لله الذى جـعلك شبيهـة بسيدة نساء بنـى إسرائيل، فإنها كـانت إذا رزقها الله عز وجل شـيئا فسئلت عنه قـالت: هو من عند الله، إن الله يرزق من يشاء بغير حساب، فـبعث رسول الله ﷺ إلى على، ثم أكل رسول الله ﷺ وعلى وفاطمة وحسن وحسين وجميع أزواج النبى ﷺ وأهل بيته حتى شبعوا وبقيت الجـفنة كما هى فأوسعت بقيتهـا جميع جيرانها، وجعل الله عز وجل فيـها بركة وخيرا كثيرا[2].

ومما يروى فى هذا مـا حدث به على رضي الله عنه قال: غمنـا ليلة بغيـر عشاء فـأصبـحت فالتـمست فأصبت ما أشترى به طعاما ولحما بدرهم، ثم أتيت به فاطمة فخبزت وطبخت، فلما فرغت، قالت: لو أتيت أبى، فـدعوته، فجـئت إلى رسول الله ﷺ وهو يقـول: (أعوذ بالله من الجوع ضـجيـعا)، فقلت: يا رسول الله، عندنا طعـام فهلم، فجاءوا والقدر تفـور، فقال: (اغرفى لعائشة فى صـحفة) حتى غـرفت لجميـع نسائه، ثم قـال: (اغرفى لأبيـك وزوجك)، فغرفت، فـقال: (اغـرفى فكلى)، فغرفت ثم رفعت القدر، وإنها لتفيض فأكلنا منها ما شاء الله عز وجل[3].

**2 - بركاته على أصحابه:**

قال عبد القادر: بالإضافة إلى أهل بيته، فقد نال الكثير من بركاته - المرتبطة بهذا الباب - كل من لقيه ﷺ أو صاحبه من النساء والرجال.

---

(1) رواه الخطيب وابن عـساكر.

(2) رواه أبو يعلى، انظر: السيوطى فى الدر المنثور 2/ 20 وابن كثير فى التفسـير 2/ 29.

(3) رواه ابن سعد: 1 / 124.

وسأحدثكم عن بعض ما وردت به الأسانيد من ذلك:

**رجال،**

فممن نالتهم بركات النبى ﷺ فى هذا الجانب جابر بن عبد الله رضي الله عنه، فقد حدث عن بعض بركاته ﷺ عليه، فذكر أن أباه توفى، وترك عليه ثلاثين وسقا[1] لرجل من اليهود، فاستنظره جابر[2]، فأبى أن ينظره، فكلم جابر رسول الله ﷺ ليشفع إليه، فجاءه رسول الله ﷺ، فكلم اليهودى ليأخذ تمر نخله بالذى له، فأبى، فدخل رسول الله ﷺ، فمشى فيها، ثم قال: يا جابر، جد له[3]، فأوفه الذى له فجد بعدما رجع رسول الله ﷺ، فأوفاه ثلاثين وسقا، وفضلت له سبعة عشر وسقا.

فجاء جابر رسول الله ﷺ ليخبره بالذى فعل، فوجد رسول الله ﷺ يصلى العصر، فلما انصرف رسول الله ﷺ جاءه فأخبره أنه قد وفاه، وأخبره بالفضل الذى فضل، فقال رسول الله ﷺ: (أخبر ذلك ابن الخطاب)، فذهب جابر إلى عمر فأخبره، فقال عمر رضى الله عنه: لقد علمت حيث مشى فيها رسول الله ﷺ ليباركن الله عز وجل فيها[4].

وقد ذكر هذا الصحابى بركة أخرى حصلت لجمله ببركة رسول الله ﷺ، فقد ذكر أنه كان يسير على جمل له قد أعيا فأراد أن يسيبه[5]، فقال: فلحقنى رسول الله ﷺ، فضربه ودعا له، فسار سيرا لم يسر مثله، ثم قال: (بعنيه بأوقية)، قلت: لا. قال: (بعنيه بأوقيتين) فبعته، واشترطت حملانه[6] إلى أهلى، فلما قدمنا أتيته بالجمل، فنقدنى ثمنه، ثم انصرفت، فأرسل على أثرى، وقال: (أترى أنى ماكستك[7] لآخذ جملك؟ خذ جملك ودراهمك وهما لك)[8].

وقريب من هذا الحديث ما حدث به أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: فزع الناس، فركب النبى ﷺ فرسا لأبى طلحة بطيئا، ثم خرج يركض وحده، فركب الناس يركضون خلفه، فقال: (لن تراعوا إنه لبحر)، قال: فوالله ما سبق بعد ذلك اليوم[9].

ومن تلك البركات ما حصل لأبى هريرة رضي الله عنه، قال: أتيت رسول الله ﷺ بتمرات فقلت: ادع لى فيهن بالبركة، قال: فقبضهن، ثم دعا فيهن بالبركة، ثم قال: (خذهن فاجعلهن فى مزود[10]، فإذا أردت أن تأخذ منهن، فأدخل يدك فخذ ولا تنثرهن نثرا)، قال: فحملت من ذلك التمر كذا

---

(1) الوسق: مكيال مقداره ستون صاعا والصاع أربعة أمداد، والمُدُّ مقدار ما يملأ الكفين.

(2) استنظره: طلب منه الانتظار إلى ميسرة.

(3) الجداد: قطع الثمر وجنْيه وحصاده.

(4) رواه البخارى، قال ابن كثير: وهذا الحديث قد روى من طرق متعددة عن جابر بألفاظ كثيرة، وحاصلها أنه ببركة رسول الله ﷺ، ودعائه له، ومشيه فى حائطه وجلوسه على تمره، وَفَّى الله دين أبيه، وكان قد قتل بأحد، وجابر كان لا يرجو وفاءه فى ذلك العام ولا ما بعده، ومع هذا فضل له من التمر أكثر وفوق ما كان يؤمله ويرجوه ولله الحمد والمنة. (انظر: البداية والنهاية 6/ 0121)

(5) السائبة والسوائب: كان الرجلُ إذا نَذَر لقدُومٍ من سَفَر، أو بُرْءٍ من مَرَضٍ، أو غير ذلك قال ناقتى سائبةٌ، فلا تُمنَع من ماء ولا مَرْعى، ولا تُحلَب، ولا تُركَب، وكان الرجلُ إذا أعتَق عبدا فقال هو سائبةٌ فلا عَقْل بينهما ولا ميراثَ، وأصلُه من تسييب الدوابِ، وهو إرسالُها تذهَبُ وتجيء كيف شاءت.

وقد كان هذا قبل تحريم السائبة، والذى نص عليه قوله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِن بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (المائدة: 103)

(6) حملانه: الحمل عليه.

(7) المُماكَسَةُ فى البيع: انْتِقاصُ الثمن واستِحْطاطُه.

(8) رواه البخارى ومسلم.

(9) رواه البخارى.

(10) المزود: الوعاء الذى يُحمل فيه الزاد ونحوه.

وكذا وسقا في سبيل الله، وكنا نأكل ونطعم، وكان المزود معلقـا بحقوي لا يفارق حقوي، فلما قتل عثمان انقطع[1].

وفي حـديث آخـر عن أبي هريرة رضي الله عنه قـال: أتت على ثلاثة أيام لم أطعم، فـجـئت أريد الصفة، فجـعلت أسقط فجعل الصبيان يقولون: جن أبو هـريرة، فجعلت أناديهم، وأقول: بل أنتم المجانين، حتـى انتهينا إلى الصفـة، فوافقت رسول الله ﷺ أتى بقـصعة من ثريد، فدعا عـليها أهل الصفة وهم يأكلون منها، فجعلت أتطاول كي يدعوني حتى قام القوم وليس في القصعة إلا شيء في نواحي القصعـة، فجمعه رسـول الله ﷺ فصارت لقمة فـوضعه على أصابعـه، فقال لي: (كل باسم الله)، فو الذي نفسي بيده ما زلت آكل منها حتى شبعت[2].

وفي حديث آخر عن أبي هريرة رضي الله عنـه قال: أصبت بثلاث مصيبـات في الاسلام لم أصب بمثلهن: مـوت رسول الله ﷺ، وقـتل عثـمان، والمزود، قـال زيد بن أبي منصور عن أبيـه: فقلت: وما المزود يا أبا هريرة؟ قال: كان رسول الله ﷺ في غزاة، فأصابهم عوز من الطعام فقال: (يا أبا هريرة عندك شيء؟) قـلت: شيء من تمر في مـزود لي، قال: (جئ بـه)، قال: فـجـئت بالمزود، قال: (هات نطعا)، فجئت بالنطع فبـسطته، فـأدخل يده، فقبض على التمر، فإذا هو إحدى وعشرون تمرة، فجـعل يضع كل تمرة، ويسمي الله عز وجل حـتى أتى على التمر، فـقال به هكذا، فجمـعه، فقال: (ادع عشرة).

فدعوت عشـرة، فأكلوا حتى شبعوا وكذلك حتى أكـل الجيش كله وفضل تمرات، فقلت: يا رسول الله، ادع لي فيهن بالبركـة فقال: فقبضهن ثم دعا فيهن بالبركـة ثم قال: (خذهن فاجعلهن في المزود، وإذا أردت أن تأخذ منهن شيئا فأدخل يدك فيه ولا تكفأ فيكفأ عليك) قال: فما كنت أريد تمرا إلا أدخلت يدي فأخذت منه، ولقد حملت منه خمسـين وسقا في سبيل الله، ونأكل ونطعم منه حياة رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر وحياة عثمان.

وكان معلقا خلف رحلي، فلما قتل عثمان انتهب ما في بيتي وانتهب المزود.

وفي رواية فلم نزل نأكل منه حتى كان آخر إصابة أهل الشام حين غاروا بالمدينة. ألا أخبركم كم أكلت منه؟ أكثر من مائتي وسق[3].

ومن تلك البركات مـا حصل لخباب بن الأرت ـ رضي الله عنه ـ فـعن ابنة خباب بن الأرتّ قالت: خرج خباب في سرية، فكان رسول الله ﷺ يتعاهدنا حتى كان يحلب عنزا لنا، فكان يحلبها في جفنة لنا فتمتلئ فلما قدم خباب حلبها، فعاد حلابها كما كان، فقالت أمي: أفسدت علينا شاتنا، قال: وما ذاك؟ قالت: إن كانت لتحلب ملء هذه الجفـنة، قال: ومن كان يحلبها؟ قالت: رسول الله ﷺ قال: وقد عدلتيني به؟ هو والله أعظم بركة[4].

ومن تلك البركات ما حصل لنضلة بن عمـرو الغفاري، فقد حدث أنه حلب لرسول الله ﷺ إناء، فشرب، ثم شرب نضلة، فـامتلأ، فقال: يا رسول الله، إني كنت لأشرب السـقـية فما أمتلئ، فقال رسول الله ﷺ: (إن المؤمن ليشرب في معى واحد، وإن الكافر ليشرب في سبعة أمعاء)[5].

---

(1) رواه الترمذي، وأحمد 2/ 352، والبيهقي في الدلائل 6/ 109، وأبو نعيم مجموعًا من روايتين 2/ 588-589، وابن حبان في صحيحه 14/ 467.

(2) رواه ابن حبان، ذكره الهيثمي في الموارد (2148) والسيوطي في الدر المنثور 4/ 216.

(3) رواه أحمد وابن سعد والترمذي وابن حبان والبيهقي في الدلائل 6 / 110.

(4) رواه أحمد وأبو داود الطيالسي وابن سعد والطبراني.

(5) رواه مسلم (3 / 1632).

ومن تلك البركـات ما حصل لنوفل بن الحـارث ـ رضى الله عنه ـ فقد روى عنه أنه استـعان برسول الله ﷺ فى التزويج فأنكحـه امرأة فالتمس شيئا فلم يجـده فبعث رسول الله ﷺ أبا رافع وأبا أيوب بدرعه فرهناه عند يهودى بثلاثين صاعا من شعير، فدفعه رسول الله ﷺ إليه، قال: فطعمنا منه نصف سنة ثم كلناه فوجـدناه كما أدخلناه، قـال نوفل: فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فـقال: (لو لم تكله لأكلت منه ما عشت)[1].

ومن تلك البركات ما حصل لحمزة الأسلمى ـ رضى الله عنه ـ فقد روى عنه أنه قال: عملت طعاما للنبى ﷺ ثم ذهبت به، فتحرك به النحى فأهريق ما فيه، فقلت: على يدى أهريق طعام رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: (ادنه) فقلت: يا رسول الله لا أستطيع، فرجعت مكانى، فإذا النحى يقول قب قب، فـقلت: مه قـد أهريق فضلة فـضلت فيه، فـاجتـذبته، فإذا هو قـد ملى إلى يديه، فأوكيته، ثـم جئت إلى رسول الله ﷺ فذكرت له ذلك، فقال: (أما إنك لو تركـته لملئ إلى فيه، ثم أوكى)[2].

وفى رواية: فقال رسول الله ﷺ:(لو تركته لسال واديا سمنا)[3].

ومن تلك البركات ما حصل لمسعـود بن خالد ـ رضى الله عنه ـ فقد روى عنه أنه قال: بعثت إلى رسول الله ﷺ شـاة، ثم ذهبت فى حاجة، فـرد رسول الله ﷺ شطرها، فرجـعت، فإذا ... فقلت: يا أم خناس ما هـذا اللحم؟ قالت: رد رسول الله ﷺ من الشاة التى بعثـت بها إليه شطرها، قلت: مالك لا تطعميـنه عيالك، قالت: هذا سؤرهم، وكلهم قد أطعمت، وكـانوا يذبحون الشاتين والثلاثة فلا تجزئهم[4].

ومن تلك البركات مـا حصل لخالد بن عبد العـزى ـ رضى الله عنه ـ فقد روى أن النبى ﷺ أجزره شاة، وكان عيال خالد كثيـرا، يذبح الشاة، فلا يبد عياله عظما، وإن النبى ﷺ أكل منها، ثم قال:(أرنى دلوك يا أبا حباش)، فوضع فيه فـضلة الشاة، ثم قال:(اللهم بارك لأبى حباش)، فانقلب به، فنثره لهم، وقال:(تواسوا فيه فأكل منه عياله وأفضلوا)[5].

ومن تلك البركات ما حصل لعبد الله بن طهفة ـ رضى الله عنه ـ فقد روى عنه أنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا اجـتمع الضـيفان قـال: (لينقلب كل رجل مع جليسـه)، فكنت أنا ممن انقلب مع رسول الله ﷺ فقال: (يا عائشة، هل من شىء) قالت: حويسة كنت أعددتها لإفطارك، فأتى بها فى قعبة فأكل منها رسول الله ﷺ شيئا ثم قـدمها إلينا ثم قال: (بسم الله كلوا) فأكلنا منها حتى والله ما نظر إليهـا، ثم قال: (هل من شراب؟) فـقالت: لبينة أعـددتها لإفطارك، فجـاءت بها فشـرب منها شيئا، ثم قال: (باسم الله اشربوا)، فشربنا حتى والله ما ننظر إليها[6].

ومن تلك البركات ما حصل لرجل أنه أتى النبى ﷺ يستطعمه، فأطعمه شطر وسق شعير فما زال يأكل منه هو وامرأته ومن ضيفهما حتى كالوه فأخبر النبى ﷺ فقال رسول الله ﷺ: (لو لم تكله لأكلتم منه ولقام لكم)[7].

---

(1) رواه الحاكم فى المستدرك 3 / 346 والبيهقى فى الدلائل 6 / 114.
(2) رواه الطبرانى وأبو نعيم والبيهقى، انظر: مجمع الزوائد: 8 / 313.
(3) رواه الطبرانى والبيهقى وأبو نعيم.
(4) رواه الطبرانى.
(5) رواه الحسن بن سفيان والنسائى فى الكنى والطبرانى والبيهقى.
(6) رواه أحمد: 5 / 526 وأبو نعيم فى الدلائل (153) وانظر المجمع: 8 / 101.
(7) رواه أحمد فى المسند 3 / 337، 347، ومسلم.

ومن تلك البركات ما حصل لأم سليم ـ رضى الله عنهما ـ فقد حدثت عن ذلك، فقالت: كانت لنا شاة فجمعت من سمنها فى عكة فملأتها، وبعثت بها مع الجارية فقالت: أبلغى هذه العكة رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله هذه عكة سمن بعثت بها إليك أم سليم، قال: (فرغوا لها عكتها) ففرغت العكة فدفعت إليها فانطلقت وجاءت أم سليم، فرأت العكة ممتلئة تقطر فقالت أم سليم: أليس قد أمرتك أن تنطلقى بها إلى رسول الله ﷺ فقالت: قد فعلت فإن لم تصدقينى فانطلقى فسلى رسول الله ﷺ فانطلقت أم سليم، فقالت: يا رسول الله إنى بعثت إليك بعكة سمن قال: قد فعلت جاءت بها. قالت: والذى بعثك بالهدى ودين الحق إنها لممتلئة تقطر سمنا فقال لها رسول الله ﷺ :(يا أم سليم أتعجبين إن كان الله أطعمك كما أطعمت نبيه كلى وأطعمى)، فجاءت إلى البيت، ففتت لنا كذا وكذا وتركت فيها ما ائتدمنا شهرا أو شهرين[1].

ومن تلك البركات ما حصل لأم أوس البهزية ـ رضى الله عنها ـ فقد حدثت عن ذلك، فقالت: سليت سمنا لى فجعلته فى عكة فأهديته إلى رسول الله ﷺ فقبله، وترك فى العكة قليلا ونفخ فيه، ودعا بالبركة، ثم قال: (ردوا عليها عكتها) فردوها عليها وهى ممتلئة سمنا، قالت: فظننت أن رسول الله ﷺ لم يقبلها فجاءت ولها صراخ فقالت: يا رسول الله إنما سليته لك لتأكله فعلم أنه قد استجيب له، فقال:(اذهبوا فقولوا لها لتأكل سمنها وتدعو بالبركة)، فأكلت بقية عمر رسول الله ﷺ وولاية أبى بكر وولاية عمر وولاية عثمان حتى كان من أمر على ومعاوية ما كان[2].

ومن تلك البركات ما حصل لأم شريك الدوسية ـ رضى الله عنها ـ فقد حدث عن ذلك أبو هريرة ـ رضى الله عنه ـ فقال: كانت امرأة من دوس يقال لها أم شريك أسلمت فأقبلت تطلب من يصحبها إلى رسول الله ﷺ فلقيت رجلا من اليهود، فقال: تعالى أنا أصحبك، قالت: أنظرنى حتى أملأ سقائى ماء، قال: معى ماء فانطلقت معه، فساروا حتى أمسوا، فنزل اليهودى ووضع سفرته وتعشى، وقال: يا أم شريك، تعالى إلى العشاء، قالت: اسقنى، فإنى عطشى ولا أستطيع أن آكل حتى أشرب، قال: لا أسقيك قطرة حتى تهودى، قالت: والله لا أتهود أبدا. فأقبلت إلى بعيرها فعقلته ووضعت رأسها على ركبته، قالت: فما أيقظنى إلا برد دلو قد وقع على جبينى فرفعت رأسى فنظرت إلى الماء أشد بياضا من اللبن وأحلى من العسل فشربت حتى رويت ثم نضحت على سقائى حتى ابتل ثم ملأته ثم رفع بين يدى وأنا أنظر حتى توارى منى فى السماء فلما أصبحت جاء اليهودى، فقال: يا أم شريك قلت: والله قد سقانى الله، قال: من أين؟ أنزل عليك من السماء ماء؟ قالت: نعم، والله لقد أنزل على من السماء ماء ثم رفع بين يدى حتى توارى عنى فى السماء ثم أقبلت حتى دخلت على رسول الله ﷺ فوهبت نفسها له فزوجها زيدا وأمر لها بثلاثين صاعا وقال:(كلوا ولا تكيلوا)، وكان معها عكة سمن هدية لرسول الله ﷺ فأمرت جاريتها أن تحملها إلى رسول الله ﷺ فانطلقت فأخذوها، فأفرغوها، وأمرها رسول الله ﷺ إذا ردتها أن تعلقها ولا توكئها فدخلت أم شريك فوجدتها ملأى، فقالت للجارية: ألم آمرك أن تذهبى إلى رسول الله ﷺ؟ قالت: قد فعلت ثم أقبلت بها ما ينظر منها شىء، ولكنه قال:(علقوها ولا توكئوها)، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فأمرهم أن لا يوكئوها، فلم تزل حتى أوكأتها أم شريك، ثم كالوا الشعير فوجدوه ثلاثين صاعا لم ينقص منه شىء[3].

(1) رواه أبو يعلى والطبرانى وأبو نعيم وابن عساكر، انظر: البداية والنهاية 6 / 120 وأبو نعيم فى الدلائل 148 والكنز (ح35444).

(2) رواه الطبرانى والبيهقى، وانظر: ابن كثير فى البداية والنهاية 6 / 120.

(3) رواه البيهقى.

ومن تلك البركات ما حصل لعائشة ـ رضي الله عنها ـ فقد حدثت عن ذلك، فقالت: لقد توفي رسول الله ﷺ وما في بيتي من شيء يأكله ذو كبد إلا شطر وسق من شعير في رف، فأكلت منه حتى طال علي، فكلته ففني)[1].

(1) رواه البخاري ومسلم.

## 2 - اللمسات المباركة

قال رجل من الجمع: لقد حدثتنا عن الصحبة المباركة، فحدثنا عن اللمسات المباركة.

قال عبد القادر: لقد كانت البركات تتبع كل ما مسه النبي ﷺ، كما كانت تتبع كل من لقيه. وسأحدثكم عن بعض أحاديث تلك البركات:

فمن الذين أصابتهم لمساته ﷺ المباركة ما حدث به أبو الطفيل من أن رجلا ولد له غلام على عهد رسول الله ﷺ فأتى به، فدعا له بالبركة، وأخذ بجبهته، فنبت شعره في جبهته كأنها هلبة فرس، فشب الغلام، فلما كان زمن الخوارج أجابهم فأخذه أبوه فأوثقه وحبسه، فسقطت تلك الشعرة، فشق عليه سقوطها، فقيل له: هذا مما هممت به، ألم تر بركة رسول الله ﷺ وقعت، فلم نزل به حتى تاب، فرد الله تعالى عليه الشعرة بعد في وجهه، قال أبو الفضل: فرأيتها بعد ما نبتت قد سقطت، ثم رأيتها قد نبتت[1].

ومن ذلك ما حدث به أبو عطية البكري، قال: انطلق بي أهلي إلى رسول الله ﷺ وأنا شاب، فمسح رأسي، قال الراوي: فرأيت أبا عطية أسود الرأس واللحية، وكانت قد أتت عليه مائة سنة[2].

ومن ذلك ما حدث به عبد الله بن هلال الأنصاري، قال: ذهب بي أبي إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله ادع الله له. فما أنسى وضع رسول الله ﷺ يده على رأسي حتى وجدت بردها فدعا لي، وبارك علي، فرأيته أبيض الرأس واللحية ما يستطيع أن يفرق رأسه من الكبر، وكان يصوم النهار ويقوم الليل[3].

ومن ذلك ما حدث به عمرو بن ثعلبة الجهني ـ رضي الله عنه ـ قال: لقيت رسول الله ﷺ بالسالة، فأسلمت، فمسح رأسي، قال الراوي: فأتت على عمرو مائة سنة، وما شاب موضع يد رسول الله ﷺ من رأسه[4].

وقد حدث الرواة[5] أن وسط رأس السائب كان أسود، وبقيته أبيض، وحدثوا عن عطاء مولى السائب بن يزيد قال: رأيت السائب لحيته بيضاء، ورأسه أسود، فقلت: يا مولاي، ما لرأسك لا تبيض؟ فقال: لا تبيض رأسي أبدا!، وذلك أن رسول الله ﷺ مضى وأنا غلام ألعب مع الغلمان، فسلم عليهم وأنا فيهم، فرددت عليه السلام، من بين الغلمان، فدعاني، فقال: (ما اسمك؟) فقلت: السائب بن يزيد بن أخت النمر فوضع يده على رأسي، وقال: (بارك الله فيك)، فلا يبيض موضع يد رسول الله ﷺ.

ومن ذلك ما حدث به مدلوك أبي سفيان قال: أتيت رسول الله ﷺ مع موالي فأسلمت فمسح رسول الله ﷺ يده على رأسي قال: فرأينا مسح رسول الله ﷺ من رأسه أسود وقد شاب ما سوى ذلك[6].

ومن ذلك ما حدث محمد بن أنس الظفري قال: قدم النبي ﷺ المدينة وأنا ابن أسبوعين، فأتى بي فمسح رأسي، ودعا لي بالبركة وحج حجة الوداع، وأنا ابن عشرين سنة.

---

(1) رواه البيهقي.

(2) رواه الطبراني بسند جيد.

(3) رواه الطبراني بسند حسن.

(4) رواه البغوي في معجمه والبيهقي والطبراني.

(5) رواه ابن سعد والبيهقي والطبراني في الثلاثة.

(6) رواه البخاري في التاريخ وابن سعد والبيهقي.

قال يونس: ولقد عمر أبي حتى شاب كل شيء منه، وما شاب موضع يد النبي ﷺ من رأسه، ولا من لحيته[1].

ومن ذلك أن رسول الله ﷺ مسح رأس عبادة بن سعد بن عثمان الزرقى، ودعا له، فمات وهو ابن ثمانين سنة، وما شاب.

ومن ذلك ما حدث به بشير بن عقربة الجهنى أن رسول الله ﷺ مسح رأسه، فكان أثر يده من راسه أسود، وسائره أبيض[2].

ومن ذلك ما حدث به أبو زيد الأنصارى قال: مسح رسول الله ﷺ بيده على رأسى وقال: (اللهم جمله وأدم جماله) قال: فبلغ بضعا ومائة سنة وما فى لحيته بياض، ولقد كان منبسط الوجه، ولم ينقبض وجهه حتى مات[3].

ومن ذلك ما حدث به أنس أن يهوديا أخذ من لحية النبى ﷺ فقال: (اللهم جمله)، فاسودت لحيته بعدما كانت بيضاء[4].

ومن ذلك ما حدث به قتادة، قال: حلب يهودي للنبى ﷺ ناقة، فقال: (اللهم جمله)، فاسود شعره، حتى صار أشد سوادا من كذا وكذا، قال معمر: وسمعت قتادة يذكر أنه عاش تسعين سنة فلم يشب[5].

ومن ذلك ما حدث به حنظلة بن جذيم بن حنيفة التميمى أن أباه قدم على رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إن لى بنين ذوى لحى، وإن هذا أصغرهم، فادع الله له، فمسح رأسه، وقال: (بارك الله فيك) أو قال: (بورك فيك)، قال الذيال: فلقد رأيت حنظلة يؤتى بالإنسان الوارم وجهه فيتفل على يديه ويقول: باسم الله، ويضع يده على رأسه موضع كف رسول الله ﷺ ثم يمسح موضع الورم، فيذهب الورم[6].

ومن ذلك ما حدث به بشر بن معاوية بن ثور أنه وفد من بنى البكاء على رسول الله ﷺ ثلاثة نفر، معاوية بن ثور، وابنه بشر، والفجيع بن عبد الله، ومعهم عبد عمرو البكائى، فقال معاوية: يا رسول الله، انى أتبرك بمسك، فامسح وجه ابنى بشر، فمسح وجهه، ودعا له، فكانت فى وجهه مسحة النبى ﷺ كالغرة، وكان لا يمسح شيئا إلا برأ، وأعطاه أعنزا عفرا، قال الجعد: فالسنة ربما أصابت بنى البكاء ولا تصيبهم[7].

وقد قال يذكر ذلك محمد بن بشر بن معاوية، ويفخر به:

وأبى الذى مسح الرسول برأ   سه ودعا له بالخير والبركات
أعطاه أحمد إذ أتاه أعنزا   عفرا نواجل ليس باللجبات
يملأن وفد الحى كل عشية   ويعود ذاك الملء بالغدوات
بورك فى منح ويورك مانحا   وعليه منى ما حييت صلاتى

---

(1) رواه البخارى فى تاريخه والبيهقى.

(2) رواه ابن عساكر واسحاق بن ابراهيم الرملى وابو يعلى فى فوائده.

(3) رواه الترمذى وحسنه والبيهقى وصححه.

(4) رواه البيهقى.

(5) رواه عبد الرزاق.

(6) رواه أحمد وابن سعد والحسن ويعقوب بن سفيان وأبو يعلى وصححه والضياء فى المختارة عن حنظلة برجال ثقات.

(7) رواه ابن سعد وابن شاهين وعبد الله بن عامر البكائى عن أبيه، والبخارى فى تاريخه، وأبو نعيم وأبو القاسم البغوى فى معجمه.

ومن ذلك ما حدث به أبو وجزة السعدى قال: قدم وفد محارب سنة عشر فى حجة الوداع، وهم عشرة نفر منهم سواء بن الحارث، وابنه خزيمة، فمسح رسول الله ﷺ وجه خزيمة، فصارت له غرة بيضا[1].

ومن ذلك ما حدث به خزيمة بن عاصم البكائى أنه قدم على رسول الله ﷺ فمسح رسول الله ﷺ وجهه فما زال جديدا حتى مات[2].

ومن ذلك ما حدث به أبو العلاء بن عمير قال: كنت عند قتادة بن ملحان حيث حضر، فمر رجل من أقصى الدار، فأبصرته فى وجه قتادة، قال: وكنت إذا رأيته كأن على وجهه الدهان، كان رسول الله ﷺ يمسح وجهه[3].

ومن ذلك ما حدث به عائذ بن عمرو ـ رضى الله عنه ـ قال: أصابتنى رمية - وأنا أقاتل بين يدى رسول الله ﷺ يوم خيبر، فلما سالت الدماء على وجهى وجبينى وصدرى، فوضع رسول الله ﷺ يده، فسلت الدم عن وجهى وصدرى إلى ثندوتى ثم دعا لى.

قال حشرج: فكان عائذ يخبرنا بذلك حياته، فلما هلك وغسلناه نظرنا إلى ما كان يصف لنا من أثر يد رسول الله ﷺ التى مسها ما كان يقول لنا من صدره، فإذا غرة سائلة كغرة الفرس[4].

ومن ذلك ما حدث به أبو العلاء قال: عدت قتادة بن ملحان فى مرضه، فمر رجل فى مؤخرة الدار، فرأيته فى وجه قتادة، وكان رسول الله ﷺ مسح وجهه، وكنت قلما رأيته إلا رأيت كأن على وجهه الدهان[5].

ومن ذلك ما حدث به المدائنى عن خاله أن أسيد بن أبى إياس ـ رضى الله عنه ـ مسح رسول الله ﷺ وجهه وألقى يده على صدره فكان أسيد يدخل البيت المظلم فيضىء.

ومن ذلك ما حدث به وائل بن حجر ـ رضى الله عنه ـ قال: كنت أصافح النبى ﷺ أو يمس جلدى جلده فأعرفه فى يدى بعد ثالثة أطيب من ريح المسك[6].

ومن ذلك آثار يده الشريفة فى إدرار اللبن فى المواشى التى يحلبها، وقد رويت فى ذلك روايات كثيرة:

منها أنه لما هاجر النبى ﷺ من مكة إلى المدينة، مر فى هجرته ببعض الناس، وكان منهم عبد كان يرعى غنما، فاستسقاه اللبن، فقال: ما عندى شاة تحلب غير أن ههنا عناقا[7] حملت أول الشتاء، وقد أخرجت وما بقى لها لبن، فقال ﷺ: (ادع بها)، فجاء بها الرجل، فمسح النبى ﷺ ضرعها، ودعا حتى أنزلت.

ثم جاء أبو بكر بمجن، فحلب وسقى أبا بكر، ثم حلب، فسقى الراعى، ثم حلب فشرب، فقال الراعى: بالله من أنت؟ فوالله ما رأيت مثلك قط. قال: (أوتراك تكتم على حتى أخبرك؟) قال: نعم، قال: (فإنى محمد رسول الله)، فقال: أنت الذى تزعم قريش أنه صابى[8]؟ قال: (إنهم

(1) رواه ابن سعد.
(2) رواه ابن شاهين.
(3) رواه أحمد برجال الصحيح.
(4) رواه الطبرانى.
(5) رواه البيهقى.
(6) رواه البيهقى وابن عساكر.
(7) العناق: الأنثى من المعز إذا قويت ما لم تستكمل سنة.
(8) صبأ الرجل وصبا: ترك دين قومه ودان بآخر.

ليقولون ذلك) قال: فأشهد أنك نبى، وأشهد أن ما جئت به حق، وأنه لا يفعل ما فعلت إلا نبى، وأنا متبعك، فقال ﷺ: (إنك لن تستطيع ذلك يومك، فإذا بلغك أنى قد ظهرت فأتنا[1])[2].

وحدثت له حادثة أخرى فى طريقه هذه حدث بها أبو بكر الصديق رضي الله عنه، فقال: خرجت مع رسول الله ﷺ من مكة، فانتهينا إلى حى من أحياء العرب، فنظر رسول الله ﷺ إلى بيت متنحيا فقصد إليه، فلما نزلنا لم يكن فيه إلا امرأة، فقالت: يا عبد الله إنما أنا امرأة، وليس معى أحد، فعليكما بعظيم الحى إذا أردتم القرى قال: فلم يجبها، وذلك عند المساء، فجاء ابن لها بأعنز له يسوقها، فقالت له: يا بنى انطلق بهذه العنز والشفرة إلى هذين الرجلين، فقل لهما: تقول لكما أمى: اذبحا هذه وكلا وأطعمانا، فلما جاء قال له النبى ﷺ: (انطلق بالشفرة، وجئنى بالقدح)، قال: إنها قد عزبت، وليس لها لبن قال: انطلق، فانطلق فجاء بقدح فمسح النبى ﷺ ضرعها، ثم حلب حتى ملأ القدح، ثم قال: انطلق به إلى أمك، فشربت حتى رويت، ثم جاء به فقال: (انطلق بهذه وجئنى بأخرى)، ففعل بها كذلك، ثم سقى أبا بكر، ثم جاء بأخرى ففعل بها كذلك، ثم شرب النبى ﷺ، قال: فبتنا ليلتنا.

ثم انطلقنا، فكانت تسميه المبارك، وكثرت غنمها حتى جلبت جلبا إلى المدينة، فمر أبو بكر الصديق رضي الله عنه، فرآه ابنها فعرفه، فقال: يا أمه، إن هذا الرجل الذى كان مع المبارك، فقامت إليه، فقالت: يا عبد الله، من الرجل الذى كان معك؟ قال: أوما تدرين من هو؟ قالت: لا. قال: هو النبى ﷺ، قالت: فأدخلنى عليه، قال: فأدخلها عليه، فأطعمها وأعطاها، وأسلمت.

وفى طريقهما ـ أيضا ـ لقيا المرأة المشهورة أم معبد، وهذا حديثها، كما رواه علماء السيرة:

فقد ذكروا أن رسول الله ﷺ حين أخرج من مكة مهاجرا إلى المدينة، هو ومن معه، مروا على خيمتى أم معبد الخزاعية وكانت برزة جلدة[3] تحتبى بفناء القبة، ثم تسقى وتطعم، فسألوها لحما، وتمرا، ليشتروه منها، فلم يصيبوا عندها شيئا من ذلك، وكان القوم مرملين مستنين، فقالت: والله لو كان عندنا شىء ما أعوزناكم نحرها.

فنظر رسول الله ﷺ إلى شاة فى كسر الخيمة، فقال: (ما هذه الشاة يا أم معبد؟)، قالت: شاة خلفها الجهد[4] عن الغنم، قال: (أبها من لبن؟)، قالت: هى أجهد من ذلك، قال: (أتأذنين لى أن أحلبها)، قالت: بأبى أنت وأمى إن رأيت بها حلبا، فاحلبها.

فدعا بها رسول الله ﷺ، فمسح بيده ضرعها، وسمى الله تعالى، ودعا لها فى شاتها، فتفاجت عليه ودرت واجترت، ودعا بإناء يربض الرهط، فحلب فيه ثجا حتى علاه البهاء، ثم سقاها حتى رويت، وسقى أصحابه حتى رووا، ثم شرب آخرهم رسول الله ﷺ، ثم أراضوا، ثم حلب فيه ثانيا بعد بدء حتى ملأ الإناء، ثم غادره عندها، ثم بايعها، وارتحل عنها.

فلم تلبث إلا قليلا حتى جاءها زوجها أبو معبد يسوق أعنزا عجافا، فلما رأى اللبن عجب، وقال: من أين لك هذا اللبن يا أم معبد، والشاء عازب حيال ولا حلوب فى البيت؟ فقالت: لا والله، إلا أنه مر بنا رجل مبارك من حاله كذا وكذا،قال: صفيه لى يا أم معبد. قالت: (رأيت رجلا ظاهر الوضاءة، أبلج الوجه[5]، حسن الخلق، لم تعبه نحلة، ولم تزر به صعلة، وسيم

---

(1) نهاه ﷺ فى هذا الحديث عن الهجرة معه فى ذلك الوقت، لا عن الإسلام، أو الهجرة مطلقا، كما قد يفهم.

(2) رواه البيهقى فى الدلائل.

(3) جلدة: صلبة.

(4) الجُهْد والجَهْد: بالضم هو الوُسْع والطَّاقة، وبالفتح: المَشَقَّة. وقيل المُبالَغة والغَايَة. وقيل هُمَا لُغتَان فى الوُسْع والطَّاقَة، فأمَّا فى المشَقَّة والغَاية فالفتح لا غير.

(5) أبلج الوجه: مشرق الوجه مضيئه.

قسيم[1] إن صمت فعليه الوقار، وإن تكلم سما وعلاه البهاء، أجمل الناس وأبهاهم من بعيد. وأحلاهم وأحسنهم من قريب. حلو المنطق، فصل، لا نذر ولا هذر. كأن منطقه خرزات نظم يتحدرن. ربعة لا بائن من طول ولا تقتحمه عين من قصر، غصنا بين غصنين فهو أنضر الثلاثة منظرا، وأحسنهم قدرا، له رفقاء يحفون به، إن قال أنصتوا لقوله، وإن أمر تبادروا إلى أمره، محفود محشود، لا عابس ولا مفند.

فقال أبو معبد: هو والله صاحب قريش الذى ذكر لنا من أمره ما ذكر بمكة، ولقد هممت أن أصحبه، ولأفعلن إن وجدت إلى ذلك سبيلا.

فأصبح صوت بمكة عاليا، يسمعون الصوت ولا يدرون من صاحبه وهو يقول:

جزى الله رب الناس خير جزاية ... رفيقين قالا خيمتى أم معبد
هما نزلاها بالهدى واهتدت به ... فقد فاز من أمسى رفيق محمد
فيا لقصى ما زوى الله عنكم به ... من فعال لا تجارى وسؤدد
ليهن بنى كعب مقام فتاتهم ... ومقعدها للمؤمنين بمرصد
سلوا أختكم عن شاتها وإنائها ... فإنكم إن تسألوا الشاة تشهد
دعاها بشاة حائل فتحلبت له ... بصريح ضرة الشاة مزبد
فغادرها رهنا لديها بحالب ... يرددها فى مصدر ثم مورد[2]

ومن ذلك بركة يده ﷺ فى شاة أبى قرصافة، فعنه ـ رضى الله عنه ـ قال: كان بدء إسلامى أنى كنت يتيما بين أمى وخالتى، وكان أكثر ميلى لخالتى، وكنت أرعى شويهات لى، وكانت خالتى كثيرا ما تقول لى: يا بنى، لا تمر على هذا الرجل، فيغويك ويضلك، فكنت أخرج حتى آتى المرعى، وأترك شويهاتى وآتى رسول الله ﷺ فلا أزال أسمع منه ثم أروح غنمى ضمرا يابسات الضروع، فقالت لى خالتى: ما لغنمك يابسات الضروع؟ قلت: لا أدرى، ثم عدت إليه اليوم الثانى، ففعل كما فعل اليوم الأول، ثم إنى رحت بغنمى كما رحت فى اليوم الأول، ثم عدت إليه فى اليوم الثالث، فلم أزل عنده أسمع منه حتى أسلمت وبايعته وصافحته، وشكوت إليه أمر خالتى، وأمر غنمى، فقال لى رسول الله ﷺ: (جئنى بالشياه)، فجئته بهن، فمسح ظهورهن وضروعهن ودعا فيهن بالبركة، فامتلأت لحما ولبنا، فلما دخلت على خالتى بهن قالت: يا بنى هكذا فارع، قلت: يا خالة، ما رعيت إلا حيث أرعى كل يوم، ولكن أخبرك بقصتى، وأخبرتها بالقصة، وإتيانى رسول الله ﷺ وأخبرتها بسيرته وبكلامه، فقالت أمى وخالتى: اذهب بنا إليه، فذهبت أنا وأمى وخالتى فأسلمنا، وبايعنا رسول الله ﷺ وصافحهن[3].

ومثلما رويت الآثار فى بركات يده ﷺ، رويت الآثار فى بركات ريقه الشريف:

ومن ذلك ما حدث به أبو عقيل الديلى ـ رضى الله عنه ـ قال: أتيت رسول الله ﷺ فآمنت به، وصدقت وسقانى رسول الله ﷺ - شربة سويق، شرب رسول الله ﷺ أولها، وشربت آخرها، فما زلت أجد بلتها على فؤادى إذا ظمئت، ويردها إذا أضحيت[4].

---

(1) وقد أضاف بعض الرواة هنا، وهو محمد بن موسى قولها: وسيما قسيما فى عينه دعج، وفى أشفاره غطف، وفى صوته صهل، وفى عنقه سطع، وفى لحيته كثاثة، أزج أقرن.

(2) رواه البيهقى فى الدلائل وغيره.

(3) رواه الطبرانى برجال ثقات.

(4) رواه الطبرانى.

وفى حـديث آخر عن حنش بن عـقيل، قـال: دعـانى النبى ﷺ إلى الإسلام، فـأسلمت، فـسقانى فضلة سويق، فما زلت أجد ريها إذا عطشت، وشبعتها إذا جعت[1].

ومما يروى فى هذا ما حدث به جمع من أصحاب النبى ﷺ - فيهم أبو أسيد وأبو حميد وأبو سهل بن سعد - فقالوا: أتى رسول الله ﷺ بئر بضـاعة، فتوضأ فى الدلو، ورده فى البئر، ومج مرة أخرى فى الدلو، وبصق فيها وشرب من مائها، وكان إذا مرض المريض فى عهده يقول: (اغسلوه من ماء بضاعة)، فيغسل، فكأنما حل من عقال[2].

ومن ذلك ما يروى عن حنظلة بن قـيس أن عبد الله بن عامر بـن كريز أتى به رسول الله ﷺ فتفل عليه وعوده، فجعل يتسرع ريق النبى ﷺ فقال: (إنه ليشفى)، وكان لا يعالج أرضا إلا ظهر له فيها الماء[3].

ومن ذلك ما روى عن ثابت بن قيس بن شماس أنه فارق جميلة بنت عبد الله بن أبى، وهى حامل بمحمـد، فلما ولدته حلفت لا تلبنه من لبنها، فـدعا به رسول الله ﷺ فبزق فـى فيه، وحنكه بتمـرة عجوة، وسـماه محـمدا، وقال: اختلف به، فإن الله رازقه، فـأتيته فى اليـوم الأول والثانى والثالث، فـإذا أنا بامرأة من العرب، تسأل عن ثابت بـن قيس بن شماس، فـقلت: ما تريدين منه؟ فقالت: رأيت أنـى أرضع ابنا له، يقال له: محمـد، قال: فأنا ثابت، وهذا ابنى محـمد، قال: وإذا درعها ينعصر من لبنها[4].

ومن ذلك ما روى عن أبى قتادة أن رسول الله ﷺ بصق على أثر سهم فى وجهه فى يوم ذى قرد، قال: فما ضرب على قط ولا قاح[5].

ومن ذلك ما روى عن عكرمـة أن رسول الله ﷺ تفل على رجل زيد ابن معاذ حـين أصابها السيف - أى العلب - حين قتل ابن الاشرف فبرأت[6].

ومن ذلك ما روى عن بشير بن عقربة، قال: لما قتل أبى يوم أحد، أتيت رسول الله ﷺ وأنا أبكى، فقال: (أمـا ترضى أن أكون أبوك[7]، وعائشـة أمك)، فمـسح رأسى فكان أثر يده من رأسى أسود وسائره أبيض، وكانت بى رتة فتفل فيها فانحلت[8].

ومن ذلك ما حـدث به جرهد - رضى الله عنه - عن نفسـه أنه أتى رسول الله ﷺ وبين يديه طعام، فأدنى (جرهد) يده الشمال وكانت يده اليمنى مصابة، فنفث عليها رسول الله ﷺ، فما شكى حتى مات[9].

ومن ذلك ما روى عن وائل بن حجر - رضى الله عنه - قال: أتى رسول الله ﷺ بدلو من ماء

---

(1) رواه قاسم بن ثابت فى الدلائل.

(2) رواه ابن سعد.

(3) رواه الحاكم.

(4) رواه الحاكم وصححه وأقره الذهبى، والبيهقى فى الدلائل 6 / 227.

(5) رواه البيهقى.

(6) رواه عبد بن حميد، والواقدى.

(7) هكذا ورد مرفوعا، وهو مبنى على رفع بعض العرب المبتدأ والخبر بكان، وقد جاء على ذلك قول الشافعى:

إذا سـبنى نذل تزايدت رفـعة ... وما العيب الا أن أكون مسـابـه
ولو لم تكن نفـسى على عـزيزة ... لمكنـتها من كل نـذل تحاربه.

(8) رواه ابن عـساكر.

(9) رواه الطبرانى.

زمزم، فشرب، ثم توضأ، ثم مجه فى الدلو مسكا، أو أطيب من المسك، واستنثر خارجا من الدلو[1].

ومن ذلك ما حدث به أبو هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ حتى إذا كنا ببعض الطريق سمع صوت الحسن والحسين، وهما يبكيان، فقال لفاطمة: (ما شأن ابنى؟) قالت: العطش، فنادى فى الناس: (هل أحد منكم معه ماء؟) فلم يجد أحد منهم قطرة، فقال: (ناولينى أحدهما)، فناولته إياه من تحت الخدر، فأخذه فضمه إلى صدره وهو يضغو لم يسكت، فأدلع لسانه فجعل يمصه حتى هدأ، وسكن، فلم أسمع له بكاء، والآخر يبكى كما هو ما يسكت، فقال: (ناولينى الآخر)، فناولته إياه ففعل به كذلك، فسكتا فما سمع لهما صوتا[2].

***

قال رجل من الجمع: فكيف لم يعرف الناس قيمة لمساته المباركة وريقه المبارك مع كثرة هذه الروايات؟

قال عبد القادر: أما أعداؤه، فقد طمس الله على قلوبهم بحسدهم وكبرهم، فمنعوا من بركات الدنيا، كما منعوا قبلها من بركات الآخرة.

وأما أصحابه، فقد كانوا أكثر الناس التماسا لبركاته وتعظيما لها، وسأذكر لك بعض الروايات التى تبين ذلك، والتى تدل على أنه لولا يقينهم ببركاته ﷺ ما فعلوا ذلك:

فمن ذلك ما روي عن أبى جحيفة ـ رضى الله عنه ـ قال: خرج رسول الله ﷺ بالهاجرة، فأتى بوضوء فتوضأ، فجعل الناس يأخذون من فضل وضوئه فيتمسحون به[3].

ومن ذلك ما روى عن أبى موسى ـ رضى الله عنه ـ قال: كنت عند رسول الله ﷺ وهو نازل بالجعرانة، فذكر حديثا وفيه: ثم دعا رسول الله ﷺ بقدح فيه ماء، فغسل يديه ووجهه ومج فيه، ثم قال لهما: (اشربا منه، وأفرغا على وجوهكما ونحوركما. .)[4].

ومن ذلك ما روى عن مروان والمسور بن مخرمة ـ يصدق كل واحد منهما صاحبه ـ أن النبى ﷺ كان إذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه[5].

ومن ذلك ما روى عن المسور بن مخرمة قال: خرج رسول الله ﷺ عام الحديبية يريد زيارة البيت، ولا يريد قتالا، فذكر الحديث، وفيه: أن قريشا بعثت إليه عروة بن مسعود الثقفى ـ رضى الله عنه ـ فجعل عروة يرمق أصحاب رسول الله ﷺ بعينيه قال: فوالله ما بصق رسول الله ﷺ إلا وقعت فى كف رجل منهم، فدلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، ما يحدون النظر إليه تعظيما له، فرجع إلى أصحابه، وقد رأى ما يصنع برسول الله ﷺ فرجع الى قريش فقال: يا معشر قريش، إنى جئت كسرى فى ملكه، وجئت قيصر والنجاشى فى ملكهما، فوالله ما رأيت ملكا قط يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد محمدا، والله إن بصق إلا وقعت فى كف رجل منهم، فدلك بها وجهه وكفه، وإن أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدون النظر إليه تعظيما له ولقد رأيت قوما لا يسلمونه لشىء أبدا، فروا رأيكم فيه[6].

---

(1) رواه الحميدى برجال ثقات.

(2) رواه الطبرانى وابن عساكر.

(3) رواه البخارى ومسلم.

(4) رواه البخارى تعليقا وأسنده الاسماعيلى.

(5) رواه البخارى تعليقا وأسنده الاسماعيلى.

(6) رواه البخارى وغيره.

ومن ذلك ما روى عن أنس ـ رضى الله عنه ـ قال: كان رسول الله ﷺ إذا صلى الغداة جاء خدم أهل المدينة بآنيتهم فيها الماء، فلم يؤت بإناء إلا غمس يده فيه، فربما فى الغداة جاؤوا الباردة، فيغمس يده فيها[1].

ومن ذلك ما روى أن أبا محذورة كانت له قصة فى مقدم رأسه يرسلها، فتبلغ الأرض إذا جلس فقيل له: ألا تحلقها؟ فقال: إن رسول الله ﷺ مسح عليها بيده، فلم أكن لأحلقها حتى أموت، فما حلقها حتى مات[2].

ومن ذلك ما روى عن أبى سعيد الخدرى ـ رضى الله عنه ـ قال: كنت يوما عند رسول الله ﷺ فأتى بتمر يفرقه علينا، وكنا ندنيه منه ليمسه لما نرجو من بركة يده، فإذا رآه قد اجتمع فرقه بيننا[3].

ومن ذلك ما روى عن السائب بن يزيد ـ رضى الله عنه ـ قال: ذهبت بى خالتى إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله، إن ابن أختى وقع فمسح رأسى، ودعا لى بالبركة ثم توضأ فشربت من وضوئه. ـ الحديث[4].

ومن ذلك ما روى عن الأسلع بن شريك قال: كنت أرحل ناقة رسول الله ﷺ فأصابتنى جنابة فى ليلة باردة وأراد رسول الله ﷺ الرحلة، وكرهت أن أرحل ناقته، وأنا جنب وخشيت أن اغتسل بالماء البارد، فأمرض، فأموت فأمرت رجلا من الأنصار فرحلها ووضعت أحجارا فأسخنت بها ماء فاغتسلت ثم لحقت برسول الله ﷺ وأصحابه، فقال لى: (يا أسلع ما لى أرى راحلتك قد تغيرت؟) فقلت: يا رسول الله، لم أرحلها، رحلها رجل من الأنصار[5].

ومن ذلك ما روى عن أم اسحاق، قالت: هاجرت مع أخى إلى رسول الله ﷺ فقال لى: نسيت نفقتى بمكة، فرجع ليأخذها، فقتله زوجى، فقدمت على رسول الله ﷺ فقلت له: أخى قتل، فأخذ كفا من ماء، فنفخه فى وجهى، فكانت تصيبها المصيبة، فترى الدموع فى عينيها ولا تسيل على خدها[6].

ومن ذلك ما روى عن الزهرى، قال: حدثنى من لا أتهم من الأنصار أن رسول الله ﷺ كان إذا توضأ أو بصق ابتدروا بصاقه، فمسحوا به وجوههم وجلودهم، فقال رسول الله ﷺ: (لم تفعلون هذا؟) فقالوا: نلتمس البركة[7].

ومن ذلك ما روى عن أبى العشراء عن أبيه قال: لما مرض أبى أتاه رسول الله ﷺ فتفل عليه رسول الله ﷺ من قرنه إلى قدمه ثلاث مرات بريقه إلى جسده[8].

ومن ذلك ما روى عن ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ قال: رأيت رسول الله ﷺ كحل على بيزاقه[9].

ومن ذلك ما روى أن زينب بنت أبى سلمة دخلت وهى صغيرة على رسول الله ﷺ فى

---

(1) رواه أبو الحسن بن الضحاك.
(2) رواه أبو القاسم البغوى.
(3) رواه أبو سعيد بن الأعرابى.
(4) رواه البخارى.
(5) رواه الطبرانى.
(6) رواه أبو نعيم.
(7) رواه عبد الرزاق.
(8) رواه ابن عدى.
(9) رواه أبو نعيم.

مغتسله فنضح في وجهها الماء وقال: (ارجعى)، قال عطاف: قالت أمى: ورأيت زينب وهى عجوز كبيرة ما نقص من وجهها شيء[1].

ومن ذلك ما روى عن خالد بن الوليد ـ رضى الله عنه ـ قال: اعتمرنا مع رسول الله ﷺ فحلق شعره فاستبق الناس إلى شعره، فسبقت إلى الناصية فأخذتها فاتخذت قلنسوة فجعلتها فى مقدمة القلنسوة فما وجهت فى وجه إلا فتح لى[2].

ومن ذلك ما روى عن أبى سعيد الخدرى أن أباه مالك بن سنان لما أصيب رسول الله ﷺ فى وجهه يوم أحد مص دم رسول الله ﷺ وازدرده فقال له: (أتشرب الدم؟) قال: أشرب دم رسول الله ﷺ. فقال النبى ﷺ: (من خالط دمى دمه لا يضره الله)[3].

ومن ذلك ما حدث به سفينة قال: احتجم رسول الله ﷺ وقال: (غيب عنى الدم)، فذهبت فشربته، ثم جئته فقال: (ما صنعت؟)، قلت: غيبته، قال: (أشربته؟) قلت: نعم[4].

وفى حديث آخر عن سفينة، قال: حجم رسول الله ﷺ حجاما فأمر أن يوارى الدم من الطير والدواب، فذهبت فشربته، ثم أتيت النبى ﷺ فذكرت له ذلك فضحك ولم يقل لى شيئا[5].

ومن ذلك ما روى عن عبد الله بن الزبير ـ رضى الله عنهما ـ أنه أتى النبى ﷺ وهو يحتجم، فلما فرغ قال: (يا عبد الله اذهب بهذا الدم فأهرقه حيث لا يراه أحد)، فلما برزت عن رسول الله ﷺ عمدت إلى الدم فحسوته، فلما رجعت إلى النبى ﷺ قال: (ما صنعت يا عبد الله؟) قال: جعلته فى مكان ظننت أنه خاف عن الناس، قال: (فلعلك شربته؟) قال: نعم. قال: (ومن أمرك أن تشرب الدم، ويل لك من الناس، وويل للناس منك)[6].

---

(1) رواه عبد الله بن الإمام أحمد.

(2) رواه أبو الحسن بن الضحاك وأبو يعلى بسند صحيح.

(3) رواه أبو على بن السكن.

(4) رواه البزار.

(5) رواه بقى بن مخلد.

(6) رواه أبو يعلى والبزار باسناد حسنه الابوصيرى فى التحفة.

## 3 - الولائم المباركة

قال رجل من الجمع: لقد حدثتنا عن الصحبة المباركة، وعن اللمسات المباركة، فحدثنا عن بركات محمد فى الولائم التى أقامها هو، أو أقامها أصحابه، فقد سمعنا من هذا القس الوليمة العظيمة التى أقامها المسيح ببعض الخبز، وبعض السمكات.

قال عبد القادر: محمد والمسيح كلاهما رسولان لله، وكلاهما مباركان، ونحن لا نقيم هنا مسابقة بينهما، ولكنا نريد أن نثبت نبوة كليهما.. فمثل هذه البركات العظيمة لا يجريها الله إلا على أيدى أنبيائه، أو من هم سائرون على أقدام أنبيائه.

وبما أنك رغبت إلى فى أن أحدثك فى هذا، فسأذكر لك بعض ما وردت به أسانيدنا الثابتة التى تفيد بمجموعها تواتر ذلك عن نبينا ﷺ:

فمن ذلك ما حصل يوم الخندق، حيث أطعم رسول الله ﷺ جيش المسلمين الذى كان يحفر يوم الخندق من طعام فئة قليلة من الناس.

وقد حدث صاحب الوليمة جابر بن عبد الله رضي الله عنه عن ذلك، فقال: كنا يوم الخندق نحفر الخندق، فعرضت فيه كذانة، وهى الجبل، فقلنا: يا رسول الله، إن كذانة قد عرضت فيه، فقال رسول الله ﷺ:(رشوا عليها)، ثم قام رسول الله ﷺ، فأتاها، وبطنه معصوب بحجر من الجوع، فأخذ المعول أو المسحاة، فسمى ثلاثا ثم ضرب، فعادت كثيبا أهيل، فقلت له: ائذن لى يا رسول الله إلى المنزل، ففعل، فقلت للمرأة: هل عندك من شىء؟ فقالت: عندى صاع[1] من شعير وعناق[2]. فطحنت الشعير وعجنته، وذكت العناق وسلختها، وخليت من المرأة، وبين ذلك.

ثم أتيت رسول الله ﷺ، فجلست عنده ساعة ثم قلت: ائذن لى يا رسول الله، ففعل، فأتيت المرأة فإذا العجين واللحم قد أمكنا، فرجعت إلى رسول الله ﷺ، فقلت: إن عندى طعيما[3] لنا، فقم يا رسول الله أنت ورجلان من أصحابك، فقال: (وكم هو؟) فقلت: صاع من شعير، وعناق، فقال للمسلمين جميعا: (قوموا إلى جابر)، فقاموا، فلقيت من الحياء ما لا يعلمه إلا الله، فقلت: جاء بالخلق على صاع شعير وعناق، فدخلت على امرأتى أقول: افتضحت، جاءك رسول الله ﷺ بالجند أجمعين، فقالت: هل كان سألك كم طعامك؟ فقلت: نعم، فقالت: الله ورسوله أعلم، قد أخبرناه ما عندنا، فكشفت عنى غما شديدا.

فدخل رسول الله ﷺ فقال: خذى ودعينى من اللحم، فجعل رسول الله ﷺ يثرد، ويغرف اللحم، ثم يخمر هذا، ويخمر هذا، فما زال يقرب إلى الناس حتى شبعوا أجمعين، ويعود التنور[4] والقدر أملأ ما كانا، ثم قال رسول الله ﷺ:(كلى وأهدى).

قال جابر: فلم نزل نأكل ونهدى يومنا أجمع[5].

وفى رواية ذكر العدد الذى أكل من هذه الوليمة، فقال:(وجعل رسول الله ﷺ يثرو، ويغرف اللحم، ويخمر هذا ويخمر هذا، فما زال يقرب إلى الناس حتى شبعوا أجمعين، ويعود التنور والقدر أملأ ما كانا، فكلما فرغ قوم جاء قوم حتى صدر أهل الخندق، وهم ألف حتى تركوه، وانحرفوا وإن

---

(1) الصاع: مكيال المدينة تقدر به الحبوب وسعته أربعة أمداد، والمد هو ما يملأ الكفين.
(2) العناق: الأنثى من المعز إذا قويت ما لم تستكمل سنة.
(3) طعيما: تصغير طعام، أى طعاما قليلا.
(4) التنور: المَوْقِد.
(5) رواه البخارى ومسلم وأحمد والبيهقى فى السنن الكبرى والدارمى فى سننه وأبو عوانة وابن أبى شيبة فى المصنف والفريابى فى دلائل النبوة والأصبهانى فى دلائل النبوة وغيرهم.

برمتنا لتغط كما هي، وإن عجيننا ليختبز كما هو، ثم قال رسول الله ﷺ:(كلى وأهدى فإن الناس أصابتهم مجاعة) فلم نزل نأكل ونهدى يومنا.

وفى حديث آخر عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: صنعت أمى طعاما إلى رسول الله ﷺ قالت: ادعه، فجئت فساررته، فقال لأصحابه:(قوموا)، فقام معه خمسون رجلا، فقال: (ادخلوا عشرة عشرة) فأكلوا حتى شبعوا وفضل نحو ما كان[1].

ومن ذلك وليمة حصلت فى نفس الغزوة، ذكرتها ابنة بشير بن سعد، فقالت: دعتنى أمى فأعطتنى جفنة من تمر فى ثوبى، ثم قالت: يا بنية، اذهبى إلى أبيك وخالك عبد الله بغدائهما، قالت: فأخذته ثم انطلقت بها، فمررت برسول الله ﷺ فقال:(تعالى ما معك؟) فقلت: يا رسول الله هذا تمر بعثتنى به أمى إلى أبى بشير بن سعد وخالى عبد الله بن رواحة يتغديانه فقال: (هاتيه)، فصببته فى كفى رسول الله ﷺ فما ملأها ثم أمر بثوب فبسط ثم دعا بالتمر فصبه فوق الثوب ثم قال لإنسان عنده:(اخرج فى أهل الخندق أن هلموا إلى الغداء)، فاجتمع أهل الخندق عليه، فجعلوا يأكلون منه وجعل يزيد حتى صدر أهل الخندق عنه، وإنه ليسقط من أطراف الثوب[2].

ومن ذلك ما حدث به أنس رضي الله عنه، فقال: جئت رسول الله ﷺ فوجدته جالسا مع أصحابه يحدثهم قد عصب بطنه بعصابة، فقلت لبعض أصحابه: لم عصب رسول الله ﷺ بطنه؟ فقالوا: من الجوع، فذهبت إلى أبى طلحة فأخبرته فدخل على أمى فقال: هل من شيء؟ قالت: نعم عندى كسر من خبز وتمرات، فإن جاءنا رسول الله ﷺ وحده أشبعناه وإن جاء معه بأحد قل عنهم، فقال لى أبو طلحة: قم قريبا من رسول الله ﷺ فإذا قام فدعه حتى يتفرق عنه أصحابه ثم اتبعه حتى إذا قام على عتبة بابه، فقل: أبى يدعوك، ففعلت ذلك، فلما قلت: أبى يدعوك، قال لأصحابه:(يا هؤلاء تعالوا) ثم أخذ بيدى فشدها، ثم أقبل بأصحابه حتى إذا دنونا من بيتنا أرسل يدى فدخلت وأنا حزين لكثرة من جاء به، فقلت: يا أبتاه، قد قلت لرسول الله ﷺ الذى قلت لى فدعا أصحابه، وقد جاء بهم، فخرج أبو طلحة، فقال: يا رسول الله، إنما أرسلت أنسا يدعوك وحدك ولم يكن عندى ما يشبع من أرى، فقال رسول الله ﷺ: (ادخل، فإن الله سيبارك فيما عندك)، فدخلت فقال:(اجمعوا ما عندكم ثم قربوه) فقربنا ما كان عندنا من خبز وتمر، فجعلناه على حصير فدعا فيه بالبركة، فقال:(يدخل على ثمانية) فأدخلت عليه ثمانية، فجعل كفه فوق الطعام، فقال:(كلوا وسموا الله عز وجل) فأكلوا من بين أصابعه حتى شبعوا، ثم أمرنى أن أدخل عليه ثمانية فما زال ذلك أمره حتى دخل عليه ثمانون رجلا كلهم يأكل حتى يشبع، ثم دعانى وأمى وأبا طلحة، فقال:(كلوا)، فأكلنا حتى شبعنا، ثم رفع يده، فقال: يا أم سليم، أين هذا من طعامك حين قدمتيه؟ فقالت: بأبى أنت وأمى، لولا أنى رأيتهم يأكلون لقلت: ما نقص من طعامنا شيء[3].

ومن ذلك ما حدث به على والبراء - رضى الله عنهما - أن الله تعالى لما أنزل: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ [الشعراء] جمع رسول الله ﷺ بنى عبد المطلب، وهم يومئذ أربعون رجلا يأكلون المسنة، ويشربون العس، فأمر عليا أن يصنع لهم طعاما، وأن يجعل عليه رجل شاة، فصنعها، ثم قربها إلى رسول الله ﷺ، فأخذ منها بضعة، فأكل منها، ثم تتبع بها جوانب القصعة، ثم قال: (ادنوا باسم الله)، فدنا القوم فأكلوا عشرة عشرة، فأكلوا حتى صدروا ما نرى إلا أثر

---

(1) رواه الطبرانى فى الأوسط ورجاله ثقات انظر: المجمع: 8 / 310.

(2) رواه ابن سعد، وانظر: ابن كثير فى البداية 6 / 133.

(3) رواه مسلم (143 / 2040) والبيهقى فى الدلائل 1 / 963 وأبو نعيم فى الدلائل 148 وانظر المجمع 8 / 306.

أصابعهم، والله إن كان الرجل ليأكل مثل ما قدم لجميعهم، ثم قال: (يا علي، اسق القوم) فجاءهم بذلك العس، فشرب منه ثم ناولهم، وقال: (اشربوا باسم الله) فشربوا حتى رووا عن آخرهم، وايم الله، إن كان الرجل منهم ليشرب مثله فذكر الحديث[1].

ومن ذلك ما حدث به أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه قال: صنعت لرسول الله ﷺ وأبي بكر طعاما قدر ما يكفيهما، فأتيتهما به، فقال رسول الله ﷺ: (اذهب فادع ثلاثين من أشراف الأنصار) قال: فشق ذلك علي، وقلت: ما عندي شيء أزيده، قال: فكأني تثاقلت، فقال:(اذهب فادع لي ثلاثين من أشراف الأنصار)، فدعوتهم فجاؤوا، فقال: اطعموا، فأكلوا حتى صدروا، ثم شهدوا أنه رسول الله ﷺ وبايعوه قبل أن يخرجوا.

ثم قال: اذهب فادع لي ستين من أشراف الأنصار، قال أبو أيوب: فوالله لأنا بالستين أجود مني بالثلاثين، قال: فدعوتهم فقال رسول الله ﷺ: (اطعموا فأكلوا حتى صدروا) ثم شهدوا أنه رسول الله ﷺ وبايعوه قبل أن يخرجوا.

ثم قال: (اذهب فادع لي تسعين من الأنصار) فلأنا أجود بالتسعين مني بالثلاثين، قال: فدعوتهم فأكلوا حتى صدروا، ثم شهدوا أنه رسول الله ﷺ وبايعوه قبل أن يخرجوا فأكل من طعامي ذلك مائة وثمانون رجلا كلهم من الأنصار[2].

ومن ذلك ما حدث به صهيب رضي الله عنه قال: صنعت لرسول الله ﷺ طعاما فأتيته وهو في نفر من أصحابه فقمت حياله، فلما نظر إلي أومأت إليه، فقال: (وهؤلاء) قلت: لا، مرتين يفعل ذلك أو ثلاثا فقلت: نعم، وهؤلاء وإنما كان شيئا يسيرا صنعته لك فأكلوا وفضل منهم[3].

ومن ذلك ما حدثت به أم عامر أسماء بنت يزيد بن السكن قالت: رأيت رسول الله ﷺ صلى في مسجدنا المغرب، فجئت إلى منزلي فجئته بعرق وأرغفة فقلت: بأبي وأمي تعش، فقال لأصحابه:(كلوا باسم الله)، فأكل هو وأصحابه الذين جاؤوا معه، ومن كان حاضرا من أهل الدار، فوالذي نفسي بيده لرأيت بعض العرق لم يتعرقه وعامة الخبز وإن القوم أربعون رجلا[4].

ومن ذلك ما حصل في غزوة تبوك، حيث أطعم رسول الله ﷺ جيش المسلمين من طعام فئة قليلة من الناس:

فعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: لما نزل رسول الله ﷺ مر الظهران في عمرته بلغ أصحابه أن قريشا تقول: ما يتباعثون من العجف، فقال أصحابه: لو انتحرنا من ظهورنا، فأكلنا من لحمه وحسونا من مرقه لأصبحنا غدا ندخل على القوم وبنا جمامة فقال:(لا تفعلوا، ولكن اجمعوا لي من أزوادكم)، فجمعوا له،وبسطوا الأنطاع،فأكلوا حتى تولوا،وحشا كل واحد منهم في جرابه[5].

وقد حدث جمع من الصحابة رضي الله عنهم، ومنهم أبو هريرة، وأبو سعيد الخدري.. قالوا: لما كان يوم غزوة تبوك أصاب الناس مجاعة، فقالوا: يا رسول الله لو أذنت لنا فنحرنا نواضحنا[6] فأكلنا وادهنا، فقال رسول الله ﷺ: (افعلوا)، فجاء عمر رضي الله عنه، فقال: يا رسول الله إن

---

(1) رواه ابن إسحاق وابن جرير وابن أبي حاتم والبيهقي وأبو نعيم انظر: السيوطي في الدر المنثور 5 / 97.

(2) رواه الطبراني في الكبير: 4 / 221، 222 والبيهقي في الدلائل: 6 / 94 وابن عبد البر في التمهيد: 1 / 294، ونظر: ابن البداية والنهاية:6 / 127.

(3) رواه الطبراني في الكبير، قال الهيثمي (في المجمع 4 / 58): ورجاله رجال الصحيح إلا أن ضريب بن نفير لم يسمع من صهيب.

(4) رواه ابن سعد 1 / 2 / 110.

(5) رواه أحمد: 1 / 305 وانظر: المجمع 3 / 278 والبداية والنهاية: 4 / 231.

(6) الناضح: الجمل أو الثور أو الحمار الذي يستقى عليه الماء.

فعلت قل الظهر[1]، ولكن ادعهم بفضل أزوادهم[2] وادع الله لهم فيها بالبركة لعل الله عز وجل أن يجعل في ذلك، فقال رسول الله ﷺ: (نعم)، فدعا بنطع[3] فبسطه، ثم دعا بفضل أزوادهم فجعل الرجل يأتي بكف ذرة، ويجيء الآخر بكف تمر، ويجيء الآخر بكسرة، حتى اجتمع على النطع من ذلك شيء يسير.

فدعا رسول الله ﷺ بالبركة، ثم قال لهم: (خذوا في أوعيتكم)، فأخذوا في أوعيتهم حتى ما تركوا في العسكر وعاء إلا ملئوه، فأكلوا حتى شبعوا، وفضلت فضلة، فقال رسول الله ﷺ: (أشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله، لا يلقى الله بهما عبد غير شاك فحجب عن الجنة)[4].

هذا ما حدث من بركات الطعام في هذه الغزوة التي سميت غزوة العسرة لشدتها على المسلمين، أما الشراب، فقد حدث عمر ﷺ عن البركات التي ارتبطت به، فقال: خرجنا إلى تبوك في قيظ شديد، فنزلنا منزلا أصابنا فيه عطش، حتى ظننا أن رقابنا ستنقطع، حتى إن كان الرجل ليذهب يلتمس الرجل فلا يرجع حتى يظن أن رقبته ستنقطع، حتى إن كان الرجل لينحر بعيره فيعصر فرثه فيشربه، ويجعل ما بقي على كبده، فقال أبو بكر الصديق ﷺ: يا رسول الله، إن الله عز وجل قد عودك في الدعاء خيرا، فادع الله لنا، قال: (أتحب ذلك؟)، قال: نعم، فرفع يديه فلم يرجعهما حتى قالت السماء فأظلت ثم سكبت فملئوا ما معهم، ثم ذهبنا ننظر فلم نجدها جاوزت العسكر)[5].

قال أجير بولس: وما في هذا.. لقد مرت سحابة كما يمر السحاب، فأمطرتهم.

نظر إليه عبد القادر، وابتسم، وقال: أنت تذكرني بقولك هذا بأحد المنافقين الذين كانوا مع رسول الله ﷺ في هذه الغزوة، ورأى عطش الناس، ثم ما كان من دعاء رسول الله ﷺ حين دعا، فأرسل الله السحابة، فأمطرت حتى ارتوى الناس، فأقبل عليه بعض أصحابه من المؤمنين، فقالوا: ويحك، هل بعد هذا من شيء، فقال: سحابة مارة.

ثم إن رسول الله ﷺ سار حتى إذا كان ببعض الطريق ضلت ناقته، فخرج بعض أصحابه في طلبها، وعند رسول الله ﷺ عمارة بن حزم الأنصاري، وكان في رحله زيد، وكان منافقا، فقال زيد: أليس محمد يزعم أنه نبي ويخبركم خبر السماء، وهو لا يدري أمر ناقته، فقال رسول الله ﷺ وعمارة بن حزم عنده: (إن رجلا قال: هذا محمد يخبركم أنه نبي ويخبركم بأمر السماء، وهو لا يدري أين ناقته، وإني والله ما أعلم إلا ما علمني الله، وقد دلني الله عليها، هي في الوادي قد حبستها الشجرة بزمامها[6]، فانطلقوا فجاءوا بها، فرجع عمارة إلى رحله، فحدثهم عما جاء رسول الله ﷺ من خبر الرجل، فقال رجل ممن كان في رحل عمارة: إنما قال زيد والله هذه المقالة قبل أن تأتي، فأقبل عمارة على زيد يجأ في عنقه، ويقول: إن في رحلي لداهية وما أدري، اخرج عني يا عدو الله فلا تصحبني.

---

(1) الظهر: الإبل تعد للركوب وحمل الأثقال.

(2) الزاد: هو الطعام والشراب وما يُتَبَلَّغُ به، ويُطْلَق على كل ما يُتَوصَّل به إلى غاية بعينها.

(3) النطع: بساط من جلد، والخوان والوعاء.

(4) هذا الحديث رواه البخاري ومسلم عن سلمة بن الاكوع والامام أحمد ومسلم عن أبي هريرة وأحمد عن أبي الحسين الغفاري وابن سعد والحاكم وصححه عن أبي عمرة الانصاري والبزار والطبراني والبيهقي عن أبي الحسين العبدي وإسحاق بن راهويه وأبو يعلى وأبو نعيم وغيرهم.

(5) رواه البيهقي في الدلائل.

(6) الزمام: الخيط الذي يشد في البُرَة أو في الخشاش ثم يشد إلى طرف المقود، البعير: ما صلح للركوب والحمل من الإبل، وذلك إذا استكمل أربع سنوات، ويقال للجمل والناقة.

## 4 - الأطعمة المباركة

قال رجل من الجمع: إن ما ذكرته من بركات محمد لا يقل عما ذكر هذا القس عن بركات المسيح، فكيف لا تزعمون لنبيكم ما يزعمون للمسيح؟

قال عبد القادر: نحن نعلم أن هذه البركات فضل من فضل الله يهبه الله لمن يشاء من عباده، ولذلك نحن لا نجاوز بنبينا قدره العظيم الذى أعطاه الله له، وهو قدر العبودية، فالعبودية أشرف مقام يصل إليه العبد.

ولهذا، فنحن لا نرى فيما حصل لنبينا من بركات إلا فيضا من فيوضات تمام تحققه بذلك المقام العظيم مقام العبودية لله.

قال آخر: إن العجب يأخذ منا كل مأخذ عندما تذكر البركة، فهل أعيان الطعام تزاد، فيتحول القليل كثيرا، أم أن شهوات الناس تسد، فيشبعون من حيث هم جائعون!؟

قال عبد القادر: لقد ورد فى النصوص الكثير ما يؤكد إلى أن أعيان الطعام نفسها يحصل فيها من الزيادة ما يجعلها أضعاف ما كانت عليه.

وقد روى فى ذلك بعض النصوص الدالة على هذا، فعن أنس عن أبى رافع مولى رسول الله ﷺ قال: أهديت لنا شاة، فجعلتها فى قدر، فدخل رسول الله ﷺ فقال: (ما هذا يا أبا رافع؟) فقلت: شاة أهديت لنا، فطبختها فى القدر، فقال: (ناولنى الذراع) فناولته ثم قال: (ناولنى الذراع يا أبا رافع)، فناولته ثم قال: (ناولنى الذراع الآخر) فقلت: يا رسول الله، إنما للشاة ذراعان، فقال رسول الله ﷺ: (أما إنك لو سكت لناولتنى ذراعا ما دعوت به)[1].

وفى حديث آخر عن أبى هريرة رضي الله عنه أن شاة طبخت، فقال رسول الله ﷺ: (أعطنى الذراع)، فناولته إياه، ثم قال: (الذراع) وفى رواية أخرى، قال ﷺ: (أما إنك لو التمستها لوجدتها)[2].

وفى حديث آخر عن أسامة بن زيد ـ رضى الله عنه ـ أن امرأة جاءت بابن لها فذكر الحديث، وفيه: فأهدت للنبى ﷺ شاة مشوية، فقال: (خذ الشاة منها)، ثم قال: (ناولنى ذراعها)، فناولته ثم قال: (ناولنى ذراعها)، فقلت يا رسول الله إنما هما ذراعان، وقد ناولتك فقال: (والذى نفسى بيده، لو سكتَّ ما زلتَ تناولنى ذراعا، ما قلتُ لك ناولنى ذراعا)[3].

وفى حديث آخر عن أبى عبيد مولى رسول الله ﷺ أنه طبخ للنبى ﷺ قدرا فيه لحم، فقال: (ناولنى ذراعها) فناوله ثم قال: (ناولنى ذراعها) فناوله، ثم قال: (ناولنى ذراعها)، فقلت: يا رسول الله، كم للشاة من ذراع، فقال: والذى نفسى بيده، لو سكتَّ لأعطتك ذراعا ما دعوت به)[4].

وفى حديث آخر عن سمرة بن جندب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ أتى بقصعة فيها ثريد، فأكل وأكل القوم، فلم يزالوا يتداولونها إلى قريب من الظهر، يأكل قوم ثم يقومون، ويجىء قوم فيتعاقبونه. فقال له رجل: هل كانت تمد بطعام؟ قال: أما من الأرض فلا، إلا أن تكون كانت تمد من السماء[5].

قال رجل من الجمع: كيف ذلك.. إن ذلك لعجيب؟

---

(1) رواه أحمد: 6 / 392، وأبو يعلى، وانظر المجمع: 8 / 311.

(2) رواه أحمد: 2/517، انظر: ابن كثير فى البداية والنهاية: 6/140.

(3) رواه أبو يعلى وأبو نعيم بسند حسنه الحافظ ابن حجر.

(4) رواه أحمد: 3/ 484، 485 وانظر: المجمع 8 / 311 وابن كثير فى البداية: 5/ 322.

(5) رواه الدارمى 1 / 30 والترمذى 5 / 553 (3625) وقال حسن صحيح وابن حبان ذكره الهيثمى فى الموارد (2149) والحاكم 2 / 618.

قال عبد القادر: إن الله الخالق لكل شيء لا يعجز عن مثل هذا.. وعدم إدراكنا للكيفية لا ينبغي أن يجرنا لإنكار الإمكانية.

قال رجل آخر: أفتريدنا أن نلغي عقولنا؟

قال عبد القادر: إنا في حياتنا نستعمل أشياء كثيرة، ومع ذلك لا نعرف كيفيتها.. إن أكثر الناس يتفرجون على التلفزيون، فيرون العالم جميعا بين أيديهم، ثم هم لا يعرفون عن الكيفية التي يشتغل بها، ولا يكادون يبحثون عنها، مع أنك لو ذكرت هذا لمن سبقنا بقرون قليلة لاعتبره خرافة ومستحيلا.

وانطلاقا من هذا.. سأحدثكم عن بعض الأطعمة التي ربت وزادت ببركة رسول الله ﷺ، فقد روي في ذلك نصوص كثيرة يفيد مجموعها التواتر:

**الشعير المبارك:**

ومما روي في ذلك ما ورد من عن أنس رضي الله عنه أنه كان شاهد أبا طلحة قال لأم سليم: لقد سمعت صوت رسول الله ﷺ ضعيفا أعرف فيه الجوع، فهل عندك من شيء؟ فقالت: ما عندنا إلا نحو من مد شعير، قال: فاعجنيه وأصلحيه، عسى أن ندعو رسول الله ﷺ فيأكل عندنا، قالت: فعجنته وخبزته، فجاء قرصا، فقال: ادع لي رسول الله ﷺ.

قال أنس: فذهبت فوجدت رسول الله ﷺ في المسجد ومعه الناس ـ قال مبارك بن فضالة، فأحسبه قال: بضعة وثمانون ـ فقمت عليهم، فقال رسول الله ﷺ: (أرسلك أبو طلحة؟)، فقلت: نعم، فقال رسول الله ﷺ لمن معه:(قوموا)، فانطلق وانطلقت بين أيديهم حتى جئت أبا طلحة، فأخبرته، فقال أبو طلحة: فضحتنا، قلت: إني لم أستطع أن أرد على رسول الله ﷺ أمرا.

فتلقاه أبو طلحة، فدهش لمن أقبل مع رسول الله ﷺ فمشى جنبه، فقال: يا رسول الله، إنما هو قرص، فقال: (إن الله عز وجل سيبارك فيه)، فلما انتهى رسول الله ﷺ إلى الباب قال لهم:(اقعدوا)، ودخل رسول الله ﷺ فقال أبو طلحة: يا أم سليم قد جاء رسول الله ﷺ والناس ليس عندنا ما نطعمهم، فقالت: الله ورسوله أعلم.

فدعا رسول الله ﷺ بالقرص. دعا بجفنة فوضعه فيها. وقال:(هل من سمن) قال أبو طلحة: قد كان في العكة شيء، قال: فجاء بها، فجعل هو ورسول الله ﷺ يعصرانها حتى خرج شيء مسح رسول الله ﷺ به سبابته، ثم مسح القرص، فانتفخ، وقال:(باسم الله)، فانتفخ فلم يزل يصنع كذلك، والقرص ينتفخ حتى رأيت القرص في الجفنة.

ثم قال: (ادع عشرة من أصحابي)، فدعوت له عشرة، قال: فوضع رسول الله ﷺ يده وسط القرص، وقال:(كلوا باسم الله)، فأكلوا من حوالي القرص حتى شبعوا، فلم يزل يدعو عشرة بعشرة يأكلون من ذلك القرص حتى أكل منه بضعة وثمانون من حوالي القرص حتى شبعوا، وإن وسط القرص حيث وضع رسول الله ﷺ يده كما هو، وأكل رسول الله ﷺ وأبو طلحة وأم سليم وأنا حتى شبعنا وفضلت فضلة أهديناها لجيران لنا[1].

وفي حديث آخر عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: (ادع لي أصحابك، فجعلت أتتبعهم رجلا رجلا)، فجئنا باب النبي ﷺ فاستأذنا فأذن لنا، قال أبو هريرة فوضعت بين أيدينا صحفة صنيع قدر مد من شعير، فوضع رسول الله ﷺ عليها يده وقال: (كلوا

---

(1) رواه البخاري 1/ 115، 7/ 89 ومسلم في كتاب الأشربة (142) والترمذي (3630) والبيهقي 7 / 273 وفي الدلائل 6 / 89 وأبو نعيم في الدلائل 147 ومالك في الموطأ 927.

باسم الله) فأكلنا ما شئنا وكنا ما بين السبعين إلى الثمانين، ثم رفعنا أيدينا. فقال رسول الله ﷺ حين وضعت الصحفة: (والذى نفسى بيده ما أمسى لآل محمد طعام).

قيل لأنس: كم كانت حين فرغتم منها؟ قال: مثلها حين وضعت إلا أن فيها أثر الأصابع[1].

**اللبن المبارك:**

ومن ذلك ما ورد من بركاته ﷺ على لبن قليل كفى جماعة كبيرة من الناس، فعن أبى هريرة رضي الله عنه قال: والله الذى لا إله إلا هو إن كنت لأعتمد بكبدى على الأرض من الجوع، وإنى كنت لأشد الحجر على بطنى من الجوع، ولقد قعدت يوما على طريقهم الذى يخرجون فيه، فمر بى أبو بكر، فسألته عن آية من كتاب الله عز وجل ما سألته إلا ليستتبعنى، فمر، ولم يفعل، ثم مر عمر، فسألته عن آية من كتاب الله عز وجل ما سألته إلا ليستتبعنى فمر ولم يفعل.

فمر أبو القاسم ﷺ فتبسم حين رآنى وعرف ما فى نفسى وما فى وجهى، ثم قال: (يا أبا هر) فقلت: لبيك يا رسول الله، فقال: (الحق) ومضى فتبعته، فدخل واستأذنت فأذن لى، فدخلت فوجدت لبنا فى قدح، فقال: (من أين هذا اللبن؟) فقالوا: أهدى ذلك فلان أو فلانة، فقال: (يا أبا هر)، قلت: لبيك يا رسول الله، قال: (الحق بأهل الصفة فادعهم لى).

قال أبو هريرة: وأهل الصفة أضياف الإسلام لا يأوون إلى أهل ولا مال، إذا أتته صدقة بعث بها إليهم، ولم يتناول منها شيئا، وإذا أتته هدية أرسل إليهم، فأصاب منها وأشركهم فيها، فساءنى ذلك، فقلت[2]: وما هذا اللبن فى أهل الصفة؟ كنت أرجو أن أصيب من هذا اللبن شربة أتقوى بها بقية يومى وليلتى، وإنى لرسول، فإذا جاءوا أمرنى أن أعطيهم، وما عسى أن يبلغنى من هذا اللبن، ولم يكن من طاعة الله وطاعة رسوله بد، فأتيتهم، فدعوتهم، فأقبلوا وأخذوا مجالسهم من البيت، فقال: (يا أبا هر)، قلت: لبيك يا رسول الله، قال: (خذ فأعطهم)، فأخذت القدح، فجعلت أعطيه الرجل فيشرب حتى يروى، ثم يرد على القدح أعطيه الآخر، فيشرب حتى يروى، ثم يرد على القدح حتى انتهيت إلى رسول الله ﷺ وقد روى القوم كلهم، فأخذ القدح، فوضعه على يده فنظر إلى وتبسم، وقال: (يا أبا هر)، قلت: لبيك يا رسول الله، قال: (بقيت أنا وأنت)، قلت: صدقت يا رسول الله، قال: (اقعد فاشرب) فشربت فقال: (اشرب)، فشربت حتى قلت: لا والذى بعثك بالحق ما أجد له مسلكا، فأعطيته القدح، فحمد الله عز وجل وشرب الفضلة[3].

**الحيس المبارك:**

ومن ذلك ما ورد من بركاته ﷺ على حيس[4] قليل كفى جماعة كبيرة من الناس، عن أنس رضي الله عنه قال: لما تزوج رسول الله ﷺ زينب بنت جحش قالت لى أمى: يا أنس إن رسول الله ﷺ أصبح عروسا، ولا أدرى أصبح له (غذاء) فهلم تلك العكة، فأتيتها بالعكة وبتمر، فجعلت منه حيسا فقالت: يا أنس، اذهب بهذا إلى النبى ﷺ وامرأته، فلما أتيت رسول الله ﷺ بتور من حجارة فيه ذلك الحيس، قال: (دعه ناحية البيت وادع أبا بكر، وعمر وعليا وعثمان ونفرا من أصحابه ثم ادع لى أهل المسجد، ومن رأيت فى الطريق).

قال أنس: فجعلت أتعجب من قلة الطعام وكثرة ما يأمرنى أن أدعو الناس، وكرهت أن

---

(1) رواه ابن أبى شيبة 11 / 470 وابن سعد 1 / 2 / 13.

(2) أى قال ذلك فى نفسه من غير أن يسمع رسول الله ﷺ.

(3) رواه البخارى ومسلم، ورواه البيهقى: 7 / 83، 88، 8 / 55 والحاكم: 3 / 15 والبيهقى فى الدلائل: 6 / 101.

*(4) الحيس: سمن وأقط وربما جعل عوض الأقط دقيق.*

أعصيه، حتى امتلأ البيت والحجرة، فقال: (هات ذلك التور[1])، فجئت به، فوضعه قدامه، فغمس ثلاث أصابع فى التور، فجعل التمر يربو، فجعلوا يتغدون، ويخرجون حتى إذا فرغوا أجمعون، وبقى فى التور نحو ما جئت به، فقال:(ضعه قدام زينب).

قال ثابت[2]: يا حمزة، كم ترى كان الذين أكلوا من ذلك التور؟ قال: واحدا وسبعين أو اثنين وسبعين[3].

وفى حديث آخر عن عبد الله بن مغيث أبى بردة الأنصارى قال: أرسلت أم عامر الأشهلية بقصعة فيها حيس إلى رسول الله ﷺ وهو فى قبته، وعنده أم سلمة، فأكلت أم سلمة حاجتها، ثم خرجت بالقعبة، فنادى منادى رسول الله ﷺ إلى عشائه، فأكل أهل الخندق وهى كما هى[4].

**التمر المبارك:**

ومن ذلك ما ورد من بركاته ﷺ على التمر، فعن دلين بن سعيد الخثعمى، والنعمان بن مقرن قالا: أتينا رسول الله ﷺ ونحن أربعون وأربعمائة نسأله الطعام، فقال النبى ﷺ لعمر:(قم فأعطهم)، فقال: يا رسول الله، ما عندى إلا ما يقيظنى والصبية، قال:(قم فأعطهم)، قال: يا رسول الله، سمعا وطاعة، فقام عمر وقمنا معه وصعد بنا إلى غرفة له فإذا فيها من التمر مثل الفصيل الرابض قال: شأنكم، فأخذ كل رجل منا حاجته ما شاء قال: وإنى لمن آخرهم فكأنا لم نرزأ منه تمرة[5].

وفى حديث آخر عن أبى رجاء قال: خرج رسول الله ﷺ حتى دخل حائطا لبعض الأنصار، فإذا هو يسنو فيه، فقال: (ما تجعل لى إن أرويت حائطك هذا)، قال: إنى أجهد أن أرويه، فلا أطيق ذلك فقال له رسول الله ﷺ: (تجعل لى مائة تمرة أختارها من تمرك) قال: نعم، فأخذ رسول الله ﷺ الترب فما لبث أن أرواه حتى قال الرجل: غرقت على حائطى فاختار رسول الله ﷺ من تمره مائة تمرة، قال: فأكل رسول الله ﷺ وأصحابه حتى شبعوا، ثم رد عليه مائة تمرة كما أخذها[6].

وفى حديث آخر عن رجل من بنى سعد، قال: جئت مع رسول الله ﷺ وهو فى نفر من أصحابه وهو سابعهم، فأسلمت، فقال:(يا بلال، أطعمنا)، فبسط نطعا ثم جعل يخرج شيئا له، فأخرج شيئا من تمر معجون بالسمن والأقط، فقال رسول الله ﷺ:(كلوا)، فأكلنا حتى شبعنا، فقلت: يا رسول الله، إنى كنت آكل هذا وحدى.

ثم جئته من الغد، فإذا عشرة نفر حوله، فقال:(أطعمنا يا بلال)، فجعل يخرج من جراب تمرا بكفه قبضه قبضة، فقال: (اخرج، ولا تخف من ذى العرش إقلالا)، فجاء بالجراب، فنثره فحزرته مدين، فوضع النبى ﷺ يده على التمر، ثم قال: (كلوا باسم الله)، فأكل القوم، وأكلت معهم حتى ما أجد له مسلكا، وبقى على النطع مثل الذى جاء به كأنا لم نأكل منه تمرة واحدة.

ثم غدونا من الغد، وعاد نفر عشرة يزيدون رجلا أو رجلين، فقال:(يا بلال، أطعمنا)، فجاء بذلك الجراب بعينه، فنثره فوضع يده عليه، وقال: (كلوا باسم الله) فأكلنا، ثم رفع مثل الذى صب ففعل ذلك ثلاثة أيام[7].

---

(1) التور: إناء من مدر أو حجارة.
(2) أحد رواة الحديث.
(3) رواه أبو يعلى وأبو نعيم وابن عساكر، انظر: البداية والنهاية: 6 / 127.
(4) رواه ابن عساكر.
(5) رواه أحمد وأبو داود وابن حبان.
(6) رواه الطبرانى وأبو نعيم وابن عساكر بسند لا بأس به.
(7) رواه أبو نعيم معضلا.

وفى حديث آخر عن أبى هريرة رضي الله عنه قال: دعانى رسول الله ﷺ ليلة، فانطلق إلى المنزل فقال: (هلموا إلى الطعام الذى عندكم)، فأعطونى صحفة فيها عصيلة بتمر، فأتيته بها، فقال: (ادع أهل المسجد) فقلت فى نفسى: الويل لى مما أرى من قلة الطعام، والويل لى من المعصية، فدعوتهم، فاجتمعوا، فوضع النبى ﷺ أصابعه فيها وغمز نواحيها وقال: (كلوا بسم الله) فأكلوا حتى شبعوا، وأكلت حتى شبعت، ورفعتها، فإذا هى كهيئتها حين وضعتها إلا أن فيها أثر الأصابع[1].

وفى حديث آخر عن العرباض بن سارية رضى الله عنه قال: كنت مع رسول الله ﷺ بتبوك، فقال ليلة لبلال: (هل من عشاء؟) فقال: والذى بعثك بالحق لقد نفضنا جرابنا، قال: (انظر عسى تجد شيئا)، فأخذ الجرب ينفضها جرابا جرابا، فتقع التمرة والتمرتان حتى رأيت فى يده سبع تمرات ثم دعا بصحفة فوضع التمر فيها ثم وضع يده على التمرات وقال: (كلوا باسم الله) فأكلنا ثلاثة أنفس فأحصيته أربعا وخمسين تمرة أعدها عدا ونواها فى يدى الأخرى وصاحبى يصنعان كذلك فشبعنا ورفعنا أيدينا فإذا التمرات السبع كما هن فقال: (يا بلال ارفعهن، فإنه لا يأكل منها أحد إلا نهل منها شبعا) فلما كان من الغد دعا بلالا بالتمرات فوضع يده عليها ثم قال (كلوا باسم الله)، فأكلنا حتى شبعنا وإنا لعشرة ثم رفعنا أيدينا، وإذا التمرات كما هى، فقال رسول الله ﷺ: (لولا أنى مستح من ربى لأكلنا من هذه التمرات حتى نرد إلى المدينة عن آخرنا) فأعطاهن غلاما فولى يلوكهن[2].

**البيض المبارك:**

ومن ذلك ما ورد من بركاته ﷺ على بيض قليل كفى جماعة كبيرة من الناس، فعن أنس عن جابر رضي الله عنه قال: لما أراد رسول الله ﷺ غزو ذات الرقاع جاء له حبه زيد بثلاث بيضات أداحى، فقال: يا رسول الله، وجدت هذه البيضات فى مفحص نعام، فقال: (دونك يا جابر، فاعمل هذه البيضات).

فعملتهن ثم جئت بهن فى قصعة، فجعلت أطلب خبزا، فلا أجده، فجعل رسول الله ﷺ وأصحابه، يأكلون من ذلك البيض بغير خبز حتى انتهى إلى حاجته، والبيض فى القصعة كما هو ثم قام، فأكل منه عامة أصحابه، ثم رحلنا مبردين[3].

قال ابن سعد: وكانوا أربعمائة ويقال: سبعمائة.

**الثريد المبارك:**

ومن ذلك ما ورد من بركاته ﷺ على ثريد قليل كفى جماعة كبيرة من الناس، فعن أنس عن واثلة بن الأسقع، قال: بعثنى أهل الصفة إلى رسول الله ﷺ يشكون الجوع فالتفت فى بيته، فقال: (هل من شيء؟) قالوا: نعم، كسرة أو كسرتين وشيء من لبن فأتى به، ففته فتا دقيقا، ثم صب عليه اللبن ثم حلبه بيده حتى جعله كالثريد ثم قال: (يا واثلة، ادع عشرة من أصحابك) ففعلت، فقال رسول الله ﷺ: (كلوا باسم الله من حواليها، وأبقوا رأسها فإن البركة تأتيها من فوقها وإنها تمد) فرأيتهم يأكلون ويتخللون أصابعه حتى تملوا شبعا ثم ذهبوا، فقال: (جئ بعشرة)، فقال لهم مثل ذلك، فأكلوا حتى شبعوا ثم قال: (هل بقى أحد)، قلت: نعم، عشرة، قال: (جئ بهم)، فقال لهم مثل ما قال لمن قبلهم فأكلوا حتى شبعوا، وحتى انتهوا وإن فيها فضلة، فقمت متعجبا مما رأيت[4].

---

(1) رواه الطبرانى فى الكبير بسند حسن: 18 / 138، وانظر المجمع: 8 / 311.

(2) رواه أبو نعيم وابن عساكر، انظر: الجامع الكبير للسيوطى 2 / 566 والبداية والنهاية (6 / 122 - 123).

(3) رواه ابن سعد.

(4) رواه الطبرانى والحاكم وصححه وأبو نعيم وابن عساكر.

**الطحين المبارك:**

ومن ذلك ما ورد من بركاته ﷺ على طحين قليل كفى جماعة كبيرة من الناس، فعن أنس عن صفية أم المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ قالت: جاءني رسول الله ﷺ يوما، فقال: (هل عندك شيء فإني جائع)، قلت: لا، إلا مدين من طحين قال: (فاسخنيه) فجعلته في القدر وأنضجته، فقلت قد نضج، ثم دعا يتحى ليس فيه إلا القليل، فعصر حافتيه في القدر موضع يده، فقال: (بسم الله ادعي أخواتك، فإني أعلم أنهن يجدن مثل ما أجد) فدعوتهن فأكلنا حتى شبعنا، ثم جاء أبو بكر، فدخل، ثم عمر، ثم جاء رجل فأكلوا حتى شبعوا وفضل عنهم[1].

**الأحشاء المباركة:**

ومن ذلك ما ورد من بركاته ﷺ على أحشاء شاة أطعم بها جمعا كبيرا من الناس، فعن عبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله عنه قال: كنا مع رسول الله ﷺ ثلاثين ومائة فقال: (هل مع أحد منكم من طعام؟) فإذا مع رجل صاع من طعام أو نحوه، فعجن ثم جاء رجل مشرك مشعان طويل بغنم يسوقها، فاشترى منه رسول الله ﷺ شاة فصنعت، وأمر رسول الله ﷺ بسواد البطن[2] أن يشوى، قال: وايم الله، ما من الثلاثين ومائة إلا وقد حز له رسول الله ﷺ حزة حزة من سواد بطنها، إن كان شاهدا أعطاه، وإن كان غائبا خبأ له، وجعل منها قصعتين فأكلنا منها أجمعون، وشبعنا وفضل في القصعتين، فحملته على البعير[3]

**طعام من السماء:**

بالإضافة إلى هذا كله، فقد روى نزول الطعام من السماء، كما حدث عن ذلك أبو سلمة بن نفيل السكوني رضي الله عنه قال: كنا جلوسا عند رسول الله ﷺ إذ قال له قائل: يا رسول الله، هل أتيت بطعام من السماء، وفي لفظ: من الجنة[4]؟ قال: (نعم)، قال: وبماذا؟ قال: (بطعام مسخنة[5])، قالوا: فهل كان فيها فضل عنك؟ قال: (نعم)، قال: فما فعل به؟ قال: (رفع إلى السماء)[6].

وفي حديث آخر عن الحراث بن جعد حدثني يقال له أبو سعيد، قال: قدمت المدينة، فسمعت رجلا يقول لصاحبه: إن رسول الله ﷺ قرى الليلة، فأتيت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله بلغني أنك قريت الليلة، قال: (أجل)، قلت: وما ذاك؟ قال: (طعام فيه مسخنة)، قلت: فما جعل في فضله؟ قال: (رفع)[7].

---

(1) رواه الطبراني، انظر: مجمع الزوائد: 8 / 309.

(2) سواد البطن: الكبد، وقيل حشوه كله.

(3) رواه البخاري 3 / 14، 213 ومسلم في الأشربة (175) وأحمد 1 / 197، 198 والبيهقي في الكبرى 9 / 215 وفي الدلائل 6 / 95.

(4) وقد روى في هذا بعض الأحاديث المنكرة والموضوعة منها:

ما روى عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: أتى جبريل إلى النبي ﷺ فقال: إن ربك يقرئك السلام، وأرسلني إليك بهذا القطف لتأكله، فأخذه رسول الله ﷺ.

فقد رواه ابن عساكر من طريق حفص بن عمر الدمشقي عرف بصاحب القطف، قال البخاري: لا يتابع عليه، وقال الذهبي: خبر منكر.

ومنها خبر حوط بن مرة، قيل: يا رسول الله هل أتيت من طعام الجنة بشيء؟ قال: «نعم، أتاني جبريل بخبيصة من خبيص الجنة فأكلتها».

قال ابن حجر في الإصابة: هذا حديث موضوع.

(5) مسخنة: وهي قدر كالتور يسخن فيها الطعام.

(6) رواه أحمد والنسائي والدارمي والحاكم وصححه، وقال الذهبي في مختصر المستدرك: إنه من غرائب الصحاح.

(7) رواه ابن عساكر، كما في التهذيب 3 / 464، ورواه البخاري في التاريخ 9 / 34.

وبذلك حصل في هذه الأمة ما أخبر عنه القرآن الكريم من تنزل المائدة على الحواريين بعد أن طلبوا تنزلها من المسيح كما قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١١٢) قَالُوا نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ (١١٣) قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (١١٤) قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ (١١٥)﴾ [المائدة].

## 5 - المياه المباركة

قال رجل من الجمع: لم يبق إلا أن تحدثنا عن بركات محمد في المياه، فحدثنا عنها.

قال عبد القادر: لقد وردت النصوص الكثيرة التي تدل على ما حصل من بركاته ﷺ على المياه سواء كانت آبارا جافة، فتتحول إلى آبار مملوءة ماء، أو مياه مالحة، فتتحول إلى مياه عذبة، أو يحتاجون إلى الماء، فيبارك الله ببركة نبيه ﷺ فيما عندهم من الماء، فيتحول القليل كثيرا.

وسأذكر لكم من النصوص الدالة على ذلك ما تقر به أعينكم، وتعلمون أن من حصل منه كل هذا، وأمام كل تلك الجموع، وبكل تلك الأسانيد، يستحيل أن يكون كاذبا.

**آبار وعيون:**

فمن بركاته ﷺ على الآبار والعيون بركاته ﷺ على بئر بتبوك، وذلك فيما حدث به معاذ بن جبل رضي الله عنه، حيث ذكر أن رسول الله ﷺ قال في غزوة تبوك: (إنكم ستأتون غدا إن شاء الله عين تبوك، وإنكم لن تأتوها حتى يضحى النهار، فمن جاءها فلا يمس من مائها شيئا حتى آتي).

قال معاذ: فجئنا، وقد سبق إليها رجلان، والعين مثل الشراك تبض بشيء من ماء، فسألهما رسول الله ﷺ:(هل مسيتما من مائها شيئا؟) قالا: نعم، فاشتد عليهما رسول الله ﷺ، وقال لهما ما شاء الله أن يقول.

ثم غرفوا من العين قليلا قليلا حتى اجتمع في شيء، ثم غسل رسول الله ﷺ وجهه ويديه، ثم أعاده فيها، فجرت العين بماء كثير، فاستقى الناس، ثم قال رسول الله ﷺ:(يا معاذ، يوشك إن طالت بك حياة أن ترى ماء ههنا قد ملئ جنانا)[1].

ومن ذلك ما ورد من بركاته ﷺ على بئر بقباء، فعن يحيى بن سعيد أن أنس بن مالك أتاهم بقباء، فسأله عن بئر هناك، قال: فدللته عليها فقال: لقد كانت هذه، وإن الرجل لينضح على حماره فتنزح، فجاء رسول الله ﷺ وأمر بذنوب، فسقى، فإما أن يكون توضأ منه، وإما أن يكون تفل فيه، ثم أمر به، فأعيد في البئر، فما نزحت بعد[2].

ومن ذلك ما ورد من بركاته ﷺ على بئر باليمن، فعن زياد بن الحارث الصدائي قال: قلت: يا رسول الله، إن بئرنا إذا كان الشتاء وسعنا ماؤها واجتمعنا عليها، وإذا كان في الصيف قل ماؤها وتفرقنا عن مياه حولنا، وقد أسلمنا وكل من حولنا لنا عدو، فادع الله لنا في بئرنا، فيسقينا ماؤها، فنجتمع عليها، ولا نتفرق.

فدعا رسول الله ﷺ بسبع حصيات، فعركهن بيده، ودعا فيهن، ثم قال: (اذهبوا بهذه الحصيات، فإذا أتيتم البئر فألقوا واحدة واحدة، واذكروا اسم الله عز وجل)، قال: ففعلنا ما قال لنا، فما استطعنا أن ننظر إلى قعرها (يعني البئر)[3].

ومن ذلك ما ورد من بركاته ﷺ على قطيعة برهاط، فعن راشد بن عبد ربه السلمي قال: كان الصنم الذي يقال له سواع بالمعلاة، قال: فأرسلتني بنو ظفر بهدية إليه، فألفيت مع الفجر إلى صنم قبل صنم سواع، وإذا صارخ يصرخ من جوفه: (العجب كل العجب من خروج نبي من بني عبد المطلب، يحرم الزنا والربا والذبح للأصنام، وحرست السماء ورمينا بالشهب)، ثم هتف هاتف من جوف صنم آخر:(ترك الضماد، وكان يعبد، خرج أحمد نبي يصلي الصلاة ويأمر بالزكاة والصيام

---

(1) أحمد: (5 / 237، 238).

(2) رواه البيهقي.

(3) البيهقي في الدلائل: 4 / 127، 5 / 357 وابن كثير في البداية: 5 / 84.

والبر والصلة للارحام)، ثم هتف من جوف صنم آخر هاتف:(إن الذى ورث النبوة والهدى بعد ابن مريم من قريش مهتدى نبى يخبر بما سبق، وما يكون فى غد).

قال راشد: فألفيت سواعا مع الفجر، وثعلبان يلحسان ما حوله، ويأكلان ما يهدى له ثم يعرجان عليه ببولهما، فعند ذلك أقول فى ذلك:

**أرب يبول الثعلبان برأسه لقد ذل من بالت عليه الثعالب**

وذلك عند مخرج رسول الله ﷺ إلى المدينة، فخرج راشد حتى أتى إلى رسول الله ﷺ بالمدينة، فأسلم وبايعه، ثم طلب منه قطيعة برهاط، فأقطعه إياها، وأعطاه إداوة مملوءة من ماء، وتفل فيها، وقال له:(أفرغها فى أعلى القطيعة ولا تمنع الناس فضولها)، ففعل فجاء الماء عينا جمة إلى اليوم، فغرس عليها النخل.

وقد روى: إن رهاط كلها تشرب منه وسماه الناس: ماء الرسول، وأهل رهاط يغتسلون منه ويستقون به[1].

ومن ذلك ما ورد من بركاته ﷺ على بئر أنس، فعن أنس رضي الله عنه قال: أتى رسول الله ﷺ منزلنا، فسقيناه من بئر كانت لنا فى دارنا، وكانت تسمى فى الجاهلية (النزور) فتفل فيها فكانت لا تنزح بعد.

ومن ذلك ما ورد من بركاته ﷺ على بئر الحديبية، فعن البراء وسلمة ابن الأكوع - رضى الله عنهما - قالا: قدمنا مع رسول الله ﷺ الحديبية، ونحن أربع عشرة مائة، والحديبية بئر، فنزحناها، فلم نترك فيها قطرة، فقعد رسول الله ﷺ على شفيرها، قال البراء: وأتى بدلو فيه ماء فبصق ودعا، ثم قال:(دعوها ساعة) وقال سلمة: فجاشت، فأرووا أنفسهم وركابهم بالماء، فسقينا واستقينا[2].

ومن ذلك ما ورد من بركاته ﷺ على بئر غرس[3]، فعن أنس رضي الله عنه قال: جئنا مع رسول الله ﷺ إلى قباء، فانتهى إلى بئر غرس، وإنه ليستقى منه على حمار، ثم نقوم عامة النهار ما نجد فيها ماء، فمضمض فى الدلو ورده، فجاشت بالرواء[4].

**تكثير الماء:**

ومن بركاته ﷺ المرتبطة بالمياه تكثيره الماء القليل، فيكفى الجمع الكثير، وقد حصل ذلك مرات كثيرة:

ومنها ما حدث به أنس رضي الله عنه فذكر أن رسول الله ﷺ كان فى سفر، فقال لأبى قتادة: (أمعكم ماء؟)، قلت: نعم، فى ميضاة فيها شىء من ماء، قال: (ائت بها)، قال: فأتيته بها، فقال لأصحابه: (تعالوا مسوا منها فتوضئوا)، وجعل يصب عليهم، فتوضأ القوم، وبقيت جرعة، فقال: (يا أبا قتادة، احفظها، فإنها ستكون لها نبأ) .

فذكر الحديث إلى أن قال: فقالوا: يا رسول الله، هلكنا عطشا، انقطعت الأعناق، فقال:(لا هلك عليكم)، ثم قال: (يا أبا قتادة، ائت بالميضاة)، فأتيته بها، فقال: (أطلقوا لى غمرى) - يعنى قدحى - فحللته فأتيته به، فجعل يصب فيه ويسقى الناس، فازدحم الناس، فقال رسول الله ﷺ: (أيها الناس أحسنوا الملأ، فكلكم سيروى).

---

(1) رواه أبو نعيم فى الدلائل.

(2) رواه البخارى ومسلم، وفى غير روايتيهما من طريق ابن شهاب فأخرج سهما من كنانته فوضعه فى قليب بئر ليس فيه ماء فروى الناس حتى ضربوا بعطن خيامها.

(3) بئر غرس: بئر بالمدينة.

(4) رواه ابن سعد.

فشرب القوم، وسقوا دوابهم وركابهم وملئوا ما كان معهم من إداوة وقربة ومزادة حتى لم يبق غيري وغيره، قال: (اشرب يا أبا قتادة)، قلت: اشرب أنت يا رسول الله، قال: (ساقي القوم آخرهم شربا)، فشربت، وشرب بعدي، وبقي في الميضاة نحو مما كان فيها وهم يومئذ ثلاثمائة[1].

ومنها ما حصل في غزوة هوازن، وذلك فيما حدث به سلمة بن الأكوع رضي الله عنه، فقال: غزونا مع رسول الله ﷺ هوازن فأصابنا جهد شديد فأتى بشيء من ماء في إداوة، فأمر بها فصبت في قدح، فجعلنا نتطهر حتى تطهرنا جميعا.

وفي لفظ: فأفرغها في قدح فتوضأنا كلنا ندغفقه دغفقة[2] وكنا أربع عشرة مائة[3].

ومنها ما حدث به عمران بن حصين رضي الله عنه قال: كنا مع رسول الله ﷺ في سفر، فاشتكى إليه الناس العطش، فنزل ثم دعا عليا، ورجلا آخر[4]، فقال: (اذهبا فابغيا الماء فإنكما ستجدان امرأة بمكان كذا وكذا معها بعير عليه مزادتان[5] فأتيا بها)، فانطلقا فلقيا امرأة بين مزادتين من ماء على بعير لها، فقالا لها: أين الماء؟ قالت: عهدي بالماء أمس هذه الساعة، فقالا لها: انطلقي إذًا. قالت: إلى أين؟ قالا: إلى رسول الله ﷺ. قالت: الذي يقال له الصابئ؟ قالا: هو الذي تعنين[6]، فانطلقا فجاءا بها إلى النبي ﷺ وحدثاه بالحديث، قال: فاستنزلوها عن بعيرها ودعا النبي ﷺ بإناء، فأفرغ فيه من أفواه المزادتين، فمضمض في الماء، وأعاده في أفواه المزادتين، وأوكأ أفواههما، وأطلق الغزارتين، ونودي في الناس: (اسقوا، واستقوا)، فسقى من شاء، واستقى من شاء، وملأنا كل قربة معنا وإداوة، وهي قائمة تنظر ما يفعل بمائها وايم الله، لقد أقلع عنها، وإنها ليخيل إليها أنها أشد ملئة منها حيث ابتدأ فيها فقال النبي ﷺ: (اجمعوا لها طعاما)، فجمعوا لها ما بين عجوة ودقيقة وسويقة حتى جمعوا لها طعاما، فجعلوه في ثوب، وحملوها على بعيرها، ووضعوا الثوب بين يديها، وقالوا لها: تعلمين ما رزأنا من مائك شيئا، ولكن الله هو الذي أسقانا.

فجاءت المرأة أهلها فأخبرتهم، فقالت: جئتكم من أسحر الناس، أو إنه لرسول الله حقا، قال: فجاء أهل ذلك الحواء[7] حتى أسلموا كلهم[8].

**نبع الماء**

ومن بركاته ﷺ المرتبطة بالمياه ما وردت به النصوص الكثيرة المتواترة من نبع الماء على يده الشريفة إما من الأرض، أو من بين أصابعه الشريفة:

أما من الأرض، فمما ورد في ذلك من الروايات ما حدث به خديج بن سدرة بن علي السلمي من أهل قباء عن أبيه عن جده قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ حتى نزلنا القاحة وهي التي تسمى اليوم السقيا، لم يكن بها ماء، فبعث رسول الله ﷺ إلى مياه بني غفار على ميل من القاحة، ونزل رسول الله ﷺ في صدر الوادي، واضطجع بعض أصحابه ببطن الوادي، فبحث بيده في

(1) مسلم: 1 / 472 (311 / 681)، وأبو داود في الأدب باب (130) والنسائي 1 / 76 وأحمد 1 / 398 والدارمي 1 / 358.
(2) دغفقة: يدفعه ويصبه صبا كثيرا.
(3) الدلائل للبيهقي (4 / 119).
(4) وفي رواية: وعمران بن حصين.
(5) المزادتان: تثنية مزادة وهي قربة كبيرة يزاد فيه جلد من غيرها ويسمى أيضا السطيحة والمراد بها الراوية.
(6) ذكر العلماء حسن الأدب الذي حوى عليه قول علي رضي الله عنه ورفيقه لها لما قالت: الصابئ: (هو الذي تعنين)، لأنه لو قالا لها: لا، لفات المقصود، أو نعم، لما حسن بهما، إذ فيه طلب تقرير ذلك، فتخلصا أحسن تخليص.
(7) الحواء: القرية المجتمعة على الماء.
(8) رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

البطحاء فنديت فجلس ففحص، فانبعث عليه الماء، فأخبر النبي ﷺ فسقى واستقى جميع من معه حتى اكتفوا فقال رسول الله ﷺ: (هذه سقيا سقاكموها الله عز وجل) فسميت السقيا[1].

وأما من بين أصابعه الشريفة، فقد بلغ من الكثرة ما وصل به حد التواتر[2]، وسأذكر لكم منه ما تقر به أعينكم، وتعلمون أن من هذا يستحيل أن يكون مدعيا، فبركات الله لا تتنزل إلا على الصادقين من عباد الله:

فمما روى من ذلك ما حدث به أنس، قال: كان رسول الله ﷺ بالزوراء، وحانت صلاة العصر، والتمس الناس الوضوء فلم يجدوا ماء، فأتى رسول الله ﷺ بوضوء، فوضع رسول الله ﷺ يده فى ذلك الإناء، فحين بسط يده فيه فضم أصابعه فأمر الناس أن يتوضأوا منه، فرأيت الماء ينبع من بين أصابع النبى ﷺ فتوضأوا من عند آخرهم.

قال قتادة: قلت لأنس: كم كنتم؟ قال: كنا زهاء ثلاثمائة[3].

ومن ذلك ما حدث به عبد الله بن مسعود ـ رضى الله عنه ـ قال: بينما نحن عند رسول الله ﷺ ليس معنا ماء، فقال: اطلبوا من معه فضل ماء، فأتى بماء فوضعه في إناء، فوضع يده فيه، فجعل الماء يجرى ـ وفى لفظ يخرج من بين أصابعه ـ ثم قال: (حي على الطهور المبارك، البركة من الله) فتوضأوا وشربوا، قال عبد الله: كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل)[4].

ومن ذلك ما رواه الحسن البصرى، عن أنس ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ خرج ذات يوم لبعض مخارجه، معه ناس من أصحابه، فانطلقوا يسيرون، فحضرت الصلاة فلم يجد القوم ماء يتوضئون به، فقالوا: يا رسول الله، والله ما نجد ماء نتوضأ به، ورأى فى وجوه أصحابه كراهية ذلك، فانطلق رجل من القوم، فجاء بقدح فيه ماء يسير، فأخذ رسول الله ﷺ فتوضأ منه، ثم مد أصابعه الأربع فى القدح، ثم قال: (هلموا فتوضأوا) فتوضأ القوم حتى بلغوا ما يريدون، قال الحسن: سئل أنس كم بلغوا؟ قال: سبعين أو ثمانين[5].

ومن ذلك ما حدث به زياد بن الحارث، فذكر أنه كان مع رسول الله ﷺ فى سفر، فقال له: (هل معك من ماء؟)، فقلت: لا إلا شيء قليل لا يكفيك، فقال: (اجعله فى إناء وائتنى به)، ففعلت فوضع كفه فى الماء، فرأيت الماء بين أصبعين من أصابعه عينا تفور، فقال: (ناد فى أصحابى من كان له حاجة فى الماء)، فناديت فيهم فأخذ من أراد منهم[6].

ومن ذلك ما حدث به جابر بن عبد الله ـ رضى الله عنهما ـ قال: عطش الناس يوم الحديبية، وكان الذى بين يديه ركوة يتوضأ منها وجهش الناس نحوه، قال: (ما لكم؟) قالوا: ليس عندنا ماء نتوضأ به، ولا ماء نشربه إلا ما بين يديك، فوضع يده فى الركوة فجعل الماء يفور من بين أصابعه

---

(1) رواه أبو نعيم.

(2) قال القرطبي: قصة نبع الماء من بين أصابعه ﷺ تكررت منه فى عدة مواطن فى مشاهد عظيمة، ووردت عنه من طرق كثيرة يفيد عمومها العلم القطعى المستفاد من التواتر المعنوى، قال: ولم يسمع بمثل هذه المعجزة العظيمة من غير نبينا ﷺ حيث نبع الماء من بين عظمه وعصبه ولحمه ودمه.

ونقل ابن عبد البر عن المزنى أنه قال: نبع الماء من بين أصابع النبى ﷺ أبلغ فى المعجزة من نبع الماء من الحجر حيث ضربه موسى عليه السلام بالعصا فتفجرت منه المياه، لأن خروج الماء من الحجارة معهود، بخلاف خروجه من بين اللحم والدم.

(3) رواه البخارى ومسلم.

(4) رواه النسائى والبيهقى وابن مردويه.

(5) رواه البخارى ومسلم.

(6) رواه الحارث بن أبى أسامة والطبرانى وأبو نعيم والبيهقى.

كأمثال العيون، فشربنا وتوضأنا، قال سالم: قلت لجابر: كم كنتم؟ قال: لو كنا مائة ألف لكفانا، كنا خمس عشرة مائة[1].

ومن ذلك ما حدث به أبو قتادة، قال: بينما نحن مع رسول الله ﷺ تسير في الجيش إذ لحقهم عطش كاد يقطع أعناق الرجال والخيل والركاب عطشا، فدعا بركوة فيها ماء فوضع أصابعه عليها، فنبع الماء من بين أصابعه، فاستقى الناس، وفاض الماء حتى رووا خيلهم وركابهم، وكان في العسكر اثنا عشر ألف بعير، والناس ثلاثون ألفا، والخيل اثنا عشر ألف فرس[2].

ومن ذلك ما حدث به ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ قال: أصبح رسول الله ﷺ ذات يوم، وليس في العسكر ماء، فقال رجل: يا رسول الله، ليس في العسكر ماء، قال: هل عندك شيء؟ قال: نعم فأتى بإناء فيه شيء من ماء فجعل رسول الله ﷺ أصابعه في الإناء وفتح أصابعه، قال: فرأيت العيون تنبع من بين أصابع النبي ﷺ فأمر بلالا ينادي في الناس بالوضوء المبارك[3].

ومن ذلك ما حدث به ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أيضا، قال: دعا رسول الله ﷺ بلالا، فطلب الماء، فقال: لا والله ما وجدت، قال:(هل من شيء؟)، فأتاه بشيء فبسط كفه فيه، فانبعث تحت يده عين، فكان ابن مسعود يشرب وغيره يتوضأ[4].

ومن ذلك ما حدث به أبو ليلى الأنصاري، قال: كنا مع رسول الله ﷺ في سفر، فأصابنا عطش، فشكونا إليه، فأمر بحفرة فوضع عليها نطعا، ووضع يده عليها، وقال:(هل من ماء؟)، فأتى بماء، فقال لصاحب الإداوة: (صب الماء على كفي، واذكر اسم الله)، ففعل.

قال أبو ليلى:(فلقد رأيت الماء ينبع من بين أصابع النبي ﷺ حتى روى القوم وسقى ركابهم)[5].

ومن ذلك ما حدث به جابر ـ رضي الله عنه ـ أيضا قال: غزونا مع رسول الله ﷺ ونحن يومئذ بضع عشرة، فحضرت الصلاة، فقال رسول الله ﷺ: (وهل في القوم من ماء؟)، فجاءه ماء وعبه رسول الله ﷺ في قدح، وتوضأ رسول الله ﷺ فأحسن الوضوء، ثم انصرف وترك القدح فركب الناس القدح وقالوا: تمسحوا تمسحوا، فقال رسول الله ﷺ.(على رسلكم) حين سمعهم يقولون ذلك، قال: فوضع رسول الله ﷺ كفه في الماء ثم قال:(سبحان الله ،ثم قال:(أسبغوا الوضوء).

قال جابر: والذي ابتلاني ببصري، فلقد رأيت العيون، عيون الماء، يومئذ تخرج من بين أصابع النبي ﷺ فما رفعهما حتى توضأوا أجمعون[6].

ومن ذلك ما حدث به جابر ـ رضي الله عنه ـ أيضا، قال: إن رسول الله ﷺ قال له في غزوة ذات الرقاع: (يا جابر، ناد بوضوء)، فقلت: ألا وضوء، ألا وضوء، قلت: يا رسول الله، ما

---

(1) رواه البخاري ومسلم، وهذا الحديث لا يتعارض مع ما ورد في حديث البخاري عن البراء بن عازب قال: كنا يوم الحديبية أربع عشرة مائة، والحديبية بئر فنزحناها فلم نترك فيها قطرة ماء فبلغ رسول الله ﷺ فأتاها فجلس على شفيرها، ثم دعا بإناء من ماء فمضمض ومج في البئر، فمكث غير بعيد ثم استقينا حتى روينا وصدرنا ركائبنا.

لأن كل حديث له محل خاص، بالإضافة إلى أن بركته ﷺ المرتبطة بالبئر مستمرة باقية في البئر بخلاف نبع الماء بين أصابعه الذي غطى حاجة الصحابة للماء في ذلك المحل فقط.

وقد جمع ابن حجر بينهما، فقال: ويحتمل أن يكون الماء لما انفجر من بين أصابعه ويده في الركوة وتوضئوا كلهم وشربوا أمر حينئذ بصب الماء الذي بقي في الركوة في البئر، فتكاثر الماء فيها.

وفي هذا الجمع بعض التكلف، وأولى منه القول بتعدد الحوادث، وهو ما ذكره ابن حبان.

(2) رواه رواه أبو نعيم.

(3) رواه أحمد والبزار.

(4) رواه الدرامي وأبو نعيم.

(5) رواه الطبراني وأبو نعيم.

(6) رواه البخاري ومسلم، قال ابن كثير: وظاهره أنها قصة أخرى غير ما تقدم.

وجدت فى الركب من قطرة، وكـان رجل من الأنصار يبرد لرسول الله ﷺ الماء، فـقال لى: (انطلق إلى فلان الأنصارى، فانظر هل فى أشجابه من شىء)، فانطلقت إليه، فنظرت فيها فلم أجد فيها إلا قطرة من عزلاء شجب منها لو أنى أفرغه لشربه يابسه، فأتيت رسول الله ﷺ فأخبرته فقال: (اذهب فأتنى به)، فـذهبت فأتيته به فـأخذه بيده فـجعل يتكلم بشىء لا أدرى مـا هو، ويغمـزه بيده، ثم أعطانيه، فقال: (يا جـابر، ناد بجفنة الركب)، فقلت: يا جفنة الركب، فأتيتـه بها فوضعت بين يدى رسول الله، فـقام رسـول الله ﷺ بيده فى الجـفنة هكذا، فبـسطها فى الجـفنة وفرق بين أصـابعه ثم وضعها فى قعر الجـفنة وقال: (خذ يا جابر، فصب على، وقل: بسم الله)، فرأيت الماء يفور من بين أصابعه، ففـارت الجفنة، ودارت حتى امتلأت، فقال: (يا جابر، ناد من كـانت له حاجة بماء)، فأتى الناس، فاسـتقوا حتى رووا ورفع رسـول الله ﷺ يده من الجفنة، وهى ملأى[1].

ومن ذلك ما حدث به أبو رافع، حيث ذكر أنه خرج مع رسول الله ﷺ فى سفر، فقال: (يا قوم كل رجل يلتـمس من إداوته)، فلم يجدوا غيـر واحد فى إناء، ثم قال: (توضـئوا)، فنظرت إلى الماء وهو يفور من بين أصابع النـبى ﷺ حتى توضأ الركب أجمعون، ثـم جمع كفيه فمـا خلتها إلا النطفة التى صب أول مرة[2].

ومن ذلك ما حدث به أبو عمـرة الأنصارى ـ رضى الله عنه ـ قال: كنا مع رسول الله ﷺ فى غزوة غزاها، وأصـاب الناس مخمصة، ثم دعـا بركوة، فوضعت بين يديه، ثم دعـا بماء، وصبه فيها، ثم مسح فيها بما شاء الله أن يتكلم، ثم أدخل خـنصره فيها، فأقسم بالله لقد رأيت أصابع النبى ﷺ تفجر ماء مع الماء، ثم أمر الناس فشربـوا وملأوا قربهم وإداواتهم، فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه، ثم قال: (أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمـدًا عبده ورسوله لا يلقى الله بهما أحد يوم القيامة إلا دخل الجنة)[3].

ومن ذلك ما حكاه حبان بن بح الصدائى قال: كفر قومى، فأخبرت أن النبى ﷺ جهز جيشا لهم، فأتيته، فقلت: إن قومى على الإسلام، قـال: كذلك، قلت: نعم، واتبعته ليلتى إلى الصباح، فأذنت بالصـلاة لما أصبـحت وأعطانى إناء فتـوضأت منه، فجـعل النبى ﷺ أصابعـه فى الإناء فنبع عيـون، فقال: (من أراد منكم أن يتـوضأ، فليتـوضأ)، فتـوضأت وصليت فأمرنـى عليهم وأعطانى صدقتهم، فقال رجل: يا رسول الله إن فلانا ظلمنى فقال رسول الله ﷺ: (لا خير فى الإمارة لرجل مسلم)، ثم جاء رجل يسأل الصدقة، فقال رسول الله ﷺ: (إن الصدقة صداع فى الرأس وحريق فى البطن أو داء)، فأعطيتـه صحيفتى أو صـحيفة إمرتى وصـدقتى، فقال: (ما شـأنك؟)، فقلت: كيف أقبلها وقد سمعت منك ما سمعت فقال: (هو ما سمعت)[4].

**عذوبة الماء:**

ومما ورد فى النصوص من عذوبة المياه المالحة ما حدث به همـام بن نقيد السعدى قال: قدمت على رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله: حفرنا لنا بئرا، فخرجت مالحة، فدفع إلى إداوة فيها ماء، فقال: (صبه)، فصببته فيها، فعذبت فهى أعذب ماء بئر باليمن[5].

ما إن وصل عبد القـادر من حديثه إلى هذا الموضع حتى صاح الجمع الملتفـين حوله بالتكبير، ثم تقدموا منه طالبين أن يبين لهم كيفية الاتصال بهذا النبى المبارك.

لم يجد بـولس إلا أن يسير، وأسـير خلفـه، وقد حـملت معى بصـيصا جـديدا من النور، اهتديت به بعد ذلك إلى شمس محمد.

---

(1) رواه مسلم والبيهقى وأبو نعيم.
(2) رواه أبو نعيم.
(3) رواه أبو نعيم.
(4) رواه أحمد والطبرانى فى الكبير والبيهقى فى الدلائل.
(5) رواه ابن السكن.

## ثالثا - دعوات

فى اليوم الثالث..

طلب منى بولس أن نذهب إلى مستشفى موجود فى حى قريب من ذلك الحى الذى نقيم به.

قلت: كيف بدا لك أن تقطع تدريبى لتزور المرضى.. أم أن لك مريضا معينا تريد أن تعوده؟

قال: لا.. لا أعرف أى مريض فى ذلك المستشفى، اللهم إلا المتمارض الذى سيتولى إعانتى فى الوظيفة التى سأزور ذلك المستشفى من أجلها.

قلت: متمارض.. ما الذى جعله يتمارض؟

قال: لم أجعله أنا.. هو الذى اقترح على ذلك.. وهو على العموم لا يكذب فى ادعائه، فمن الصحيح فى هذه الأيام؟.. فكل الناس مرضى.. إن لم تمرض أجسادهم، فقلوبهم ونفوسهم مملوءة مرضا.

قلت: فأنت تريد أن تذهب لتبشير المرضى إذن؟

قال: إن تبشير المرضى أسلوب قديم من أساليب التبشير.. لقد مارسه المسيح.. ومارسه كل من بعده.

بل إن المسيح أعطى لأتباعه هذه القدرة على الشفاء وإخراج الشياطين، وبذلك سار الرسل والقديسون بين الناس يشفونهم، ويخرجون منهم الشياطين، ويدعون لهم.

وصلنا إلى المستشفى، وهناك وجدنا قاعة كبيرة تضم الكثير من المرضى، وكأنهم حضروا لزيارتنا، وكان من بينهم ذلك الرجل المتمارض الذى كان يعمل معينا لبولس، والذى ما إن رآنا حتى ارتمى ساقطا مصروعا يتخبط.

هرع إليه من حوله، محاولا إفاقته، ولكنه لم يستفق.

جاء بعض المسلمين، وراح يقرأ القرآن، فلم يزد حاله إلا سوءا.

أما المرضون البسطاء الذين كانوا فى مستشفى يخلو من أكثر وسائل العلاج، فلم يجدوا ما يفعلوه، فتركوا للمحيطين به التصرف وفق ما تعودوا عليه.

وهنا، وفى ذلك الموقف الأليم الذى لم يجد الكل فيه أى حل، تدخل بولس المنقذ الذى جاء يمثل دور المسيح.

تقدم بولس من الرجل، وشهر أمام وجهه صليبه الصغير، وقال: أيتها الشياطين، اخرجى باسم المسيح.

تحرك الرجل حركة عنيفة مثلها أحسن تمثيل، فقال بولس: إنى آمرك أيتها الشياطين أن تخرجى باسم الرب المسيح.

وهنا نطق الرجل بلسان غريب، وقال: سمعا وطاعة لربى المسيح.. فلا أخرج إلا باسمه.

ما إن قال ذلك حتى تحرك حركة عنيفة، ثم قام نشيطا، وكأنه نشط من عقال.

لقد أدى دوره بإتقان عظيم، ولولا انى أعرفه، وأعرف الدور الذى كلف به، لانبهرت مثل الجميع بما حصل منه.

استغل بولس ذلك الانبهار، وتلك الوجوه التى تنظر إليها، وكأنه المنقذ الذى نزل عليها من السماء، فراح يقول: لا تنظروا إلى ـ أيها الإخوان الفضلاء ـ فلست سوى عبد حقير لربه المسيح..

إن هذه السلطة سلطة ممنوحة لكل من أحب المسيح، وأخلص للمسيح.

أنتم مرضى، ولا شك أنكم تحتاجون إلى طبيب.. أتعلمون من هو الطبيب الأعظم.

سكتوا منتظرين جوابه، فقال: الطبيب الأعظم هو المسيح.. وليس هناك غير المسيح.

لإنْ كان بعض الأنبياء استطاعوا بقوة الله أنْ يشفوا أحد المرضى أو بعض المرضى من أحد الأمراض أو بعض الأمراض فقد كان المسيح يشفى كل المرضى من جميع الأمراض مهما كانت، فهو الطبيب الشافى الأعظم الذى شفى جميع المرضى الذين قُدِّموا إليه من جميع الأمراض.

لقد ذكر الكتاب المقدس أنَّه عندما أرسل يوحنَّا المعمدان اثنين من تلاميذه يسألان الربّ يسوع المسيح إنْ كان هو المسيح الآتى (فَأَجَابَ يَسُوعُ: (اذْهَبَا وَأَخْبِرَا يُوحَنَّا بِمَا رَأَيْتُمَا وَسَمِعْتُمَا: إِنَّ الْعُمْيَ يُبْصِرُونَ وَالْعُرْجَ يَمْشُونَ وَالْبُرْصَ يُطَهَّرُونَ وَالصُّمَّ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَقُومُونَ وَالْمَسَاكِينَ يُبَشَّرُونَ) (لوقا: 7/ 22)

لقد شفى المسيح جميع المرضى الذين قُدِّموا إليه من جميع الأمراض مهما كانت أنواع أمراضهم ومهما كان عددهم، ولأزيد من يقينكم بما ذكرت، سأذكر لكم نماذج لبعض المرضى الذين شفاهم المسيح، والأمراض التى شفوا منها:

فمن الأمراض التى شفاها المسيح، الحمى، فقد شفى ابن خادم الملك الذى كان مريضاً بالحمّى، وطلب من الربّ يسوع المسيح أنْ يذهب إلى بيته ليُشفيه، فقال له: (اذْهَبْ. اِبْنُكَ حَيٌّ)، فشُفى ابنه فى تلك اللحظة[1].

كما شفى حماة سمعان أيضاً (وَكَانَتْ حَمَاةُ سِمْعَانَ قَدْ أَخَذَتْهَا حُمَّى شَدِيدَةٌ. فَسَأَلُوهُ مِنْ أَجْلِهَا. فَوَقَفَ فَوْقَهَا وَانْتَهَرَ الْحُمَّى فَتَرَكَتْهَا! وَفِي الْحَالِ قَامَتْ وَصَارَتْ تَخْدِمُهُمْ) (لوقا: 4/ 38-39)

ومن الأمراض الخطيرة التى شفاها داء الشلل، فقد شفى المسيح مقعدين ومفلوجين؛ فقد شفى مريض بركة بيت حسدا الذى أقعده المرض فى الفراش مدةً ثمان وثلاثين سنة عندما قال له: (قُمِ. احْمِلْ سَرِيرَكَ وَامْشِ). فَحَالاً بَرِئَ الإِنْسَانُ وَحَمَلَ سَرِيرَهُ وَمَشَى[2].

وشفى مفلوج من مرض الفالج عندما أمر قائلاً: (قُمِ احْمِلْ فِرَاشَكَ وَاذْهَبْ إِلَى بَيْتِكَ!) فَقَامَ وَمَضَى إِلَى بَيْتِهِ (متى: 9/ 6-7)

وشفى عبد قائد المئة من الفالج، وكان قائد المئة هذا يؤمن أنَّ المسيح يستطيع أنْ يُشفى عبده بكلمة دون أنْ يذهب إليه: (يَا سَيِّدُ لَسْتُ مُسْتَحِقًّا أَنْ تَدْخُلَ تَحْتَ سَقْفِي لَكِنْ قُلْ كَلِمَةً فَقَطْ فَيَبْرَأَ غُلاَمِي)، فشُفى غلامه فى تلك الساعة[3].

وشفى رجلاً يده يابسة فقال له: (مُدَّ يَدَكَ)، فَمَدَّهَا. فَعَادَتْ صَحِيحَةً كَالأُخْرَى) (متى: 12/ 13)

أما إخراج الشياطين والأرواح النجسة؛ فقد كان يُخرج الشياطين بكلمة الأمر منه، وكانت الشياطين عندما تراه تصرخ مرتاعة ومرتعبة وتتوسَّل إليه أنْ لا يرسلها إلى الجحيم قبل الموعد، يقول الكتاب: (وَكَانَ فِي الْمَجْمَعِ رَجُلٌ بِهِ رُوحُ شَيْطَانٍ نَجِسٍ فَصَرَخَ بِصَوْتٍ عَظِيمٍ: (آهِ مَا لَنَا وَلَكَ يَا يَسُوعُ النَّاصِرِيُّ! أَتَيْتَ لِتُهْلِكَنَا! أَنَا أَعْرِفُكَ مَنْ أَنْتَ: قُدُّوسُ اللهِ). فَانْتَهَرَهُ يَسُوعُ قَائِلاً: (اخْرَسْ وَاخْرُجْ مِنْهُ)، فَصَرَعَهُ الشَّيْطَانُ فِي الْوَسْطِ وَخَرَجَ مِنْهُ وَلَمْ يَضُرَّهُ شَيْئاً. فَوَقَعَتْ دَهْشَةٌ عَلَى الْجَمِيعِ وَكَانُوا

(1) كما فى (يوحنا: 4/ 46-54)
(2) كما فى (يوحنا: 5/ 1-9)
(3) انظر: (متى: 8/ 5-13)

يُخَاطِبُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا قَائِلِينَ: (مَا هَذِهِ الْكَلِمَةُ! لأَنَّهُ بِسُلْطَانٍ وَقُوَّةٍ يَأْمُرُ الأَرْوَاحَ النَّجِسَةَ فَتَخْرُجُ) (لوقا: 4/ 33-36).

وأخرج الشيطان من أخرس مجنون: (وَفِيمَا هُمَا خَارِجَانِ إِذَا إِنْسَانٌ أَخْرَسُ مَجْنُونٌ قَدَّمُوهُ إِلَيْهِ. فَلَمَّا أُخْرِجَ الشَّيْطَانُ تَكَلَّمَ الأَخْرَسُ فَتَعَجَّبَ الْجُمُوعُ قَائِلِينَ: لَمْ يَظْهَرْ قَطُّ مِثْلُ هَذَا فِي إِسْرَائِيلَ!) (متى: 9/ 23-33).

وأخرج عددا كبيرا من الشياطين من مجنون كورة الجدريين: (وَلَمَّا خَرَجَ إِلَى الأَرْضِ اسْتَقْبَلَهُ رَجُلٌ مِنَ الْمَدِينَةِ كَانَ فِيهِ شَيَاطِينُ مُنْذُ زَمَانٍ طَوِيلٍ وَكَانَ لاَ يَلْبَسُ ثَوْبًا وَلاَ يُقِيمُ فِي بَيْتٍ بَلْ فِي الْقُبُورِ. فَلَمَّا رَأَى يَسُوعَ صَرَخَ وَخَرَّ لَهُ وَقَالَ بِصَوْتٍ عَظِيمٍ: (مَا لِي وَلَكَ يَا يَسُوعُ ابْنَ اللهِ الْعَلِيِّ! أَطْلُبُ مِنْكَ أَنْ لاَ تُعَذِّبَنِي) لأَنَّهُ أَمَرَ الرُّوحَ النَّجِسَ أَنْ يَخْرُجَ مِنَ الإِنْسَانِ. فَسَأَلَهُ يَسُوعُ: (مَا اسْمُكَ؟) فَقَالَ: (لَجِئُونُ). لأَنَّ شَيَاطِينَ كَثِيرَةً دَخَلَتْ فِيهِ. وَطَلَبَ إِلَيْهِ أَنْ لاَ يَأْمُرَهُمْ بِالذَّهَابِ إِلَى الْهَاوِيَةِ. . فَخَرَجَتِ الشَّيَاطِينُ مِنَ الإِنْسَانِ وَدَخَلَتْ فِي الْخَنَازِيرِ) (لوقا: 8/ 27-32)

وشفى ابنة امرأة فينيقية سورية من الجنون كما في (مرقس: 7/ 24-30)

وشفى امرأة بها روح ضعف: (وَإِذَا امْرَأَةٌ كَانَ بِهَا رُوحُ ضَعْفٍ ثَمَانِيَ عَشْرَةَ سَنَةً وَكَانَتْ مُنْحَنِيَةً وَلَمْ تَقْدِرْ أَنْ تَنْتَصِبَ الْبَتَّةَ. فَلَمَّا رَآهَا يَسُوعُ دَعَاهَا وَقَالَ لَهَا: (يَا امْرَأَةُ إِنَّكِ مَحْلُولَةٌ مِنْ ضَعْفِكِ). وَوَضَعَ عَلَيْهَا يَدَيْهِ فَفِي الْحَالِ اسْتَقَامَتْ وَمَجَّدَتِ اللهَ)(لوقا: 13/ 11-13)

وشفى غلاماً به روح شيطان كان الشيطان يصرعه ويمزقه: (فَانْتَهَرَهُ يَسُوعُ فَخَرَجَ مِنْهُ الشَّيْطَانُ) (متى: 17/ 17-18)

وفوق هذا كله، فقد شفى المسيح البرصى، وطهرهم من برصهم، وقد ذكر الكتاب المقدس حديث هذا الأبرص: (وَإِذَا أَبْرَصُ قَدْ جَاءَ وَسَجَدَ لَهُ قَائِلاً: (يَا سَيِّدُ إِنْ أَرَدْتَ تَقْدِرْ أَنْ تُطَهِّرَنِي). فَمَدَّ يَسُوعُ يَدَهُ وَلَمَسَهُ قَائِلاً: (أُرِيدُ فَاطْهُرْ). وَلِلْوَقْتِ طَهُرَ بَرَصُهُ) (متى: 8/ 2-3)

كما ذكر الكتاب المقدس شفاء عشرة برص آخرين: (وَفِيمَا هُوَ دَاخِلٌ إِلَى قَرْيَةٍ اسْتَقْبَلَهُ عَشَرَةُ رِجَالٍ بُرْصٍ فَوَقَفُوا مِنْ بَعِيدٍ وَصَرَخُوا: (يَا يَسُوعُ يَا مُعَلِّمُ ارْحَمْنَا). فَنَظَرَ وَقَالَ لَهُمُ: (اذْهَبُوا وَأَرُوا أَنْفُسَكُمْ لِلْكَهَنَةِ). وَفِيمَا هُمْ مُنْطَلِقُونَ طَهَرُوا) (لوقا: 17/ 12-14)

ويذكر الكتاب المقدس أن المسيح فتح أعين العميان بمجرد لمس أعينهم، كما حدث مع أعميين: (حِينَئِذٍ لَمَسَ أَعْيُنَهُمَا قَائِلاً: (بِحَسَبِ إِيمَانِكُمَا لِيَكُنْ لَكُمَا) (متى: 9/ 27-31)، وشفى أعمى في بيت صيدا كما في (مرقس: 8/ 2-26)

والأخطر من ذلك كله أنه شفى مولودا أعمى بعد أن خلق له عينين من طين: (تَفَلَ عَلَى الأَرْضِ وَصَنَعَ مِنَ التُّفْلِ طِينًا وَطَلَى بِالطِّينِ عَيْنَيِ الأَعْمَى. وَقَالَ لَهُ: (اذْهَبِ اغْتَسِلْ فِي بِرْكَةِ سِلْوَامَ). الَّذِي تَفْسِيرُهُ مُرْسَلٌ. فَمَضَى وَاغْتَسَلَ وَأَتَى بَصِيرًا) (يوحنا: 9/ 6-7)، فهذا يدل على أنه خلق له عينين من طين كما خلق آدم من تراب الأرض.

وشفى بارتيماوس الأعمى، وأعمى آخر كان معه، وكانا يصرخان لكي يشفيهما بلمس أعينهما، يقول الكتاب: (فَتَحَنَّنَ يَسُوعُ وَلَمَسَ أَعْيُنَهُمَا فَلِلْوَقْتِ أَبْصَرَتْ أَعْيُنُهُمَا فَتَبِعَاهُ)[1].

وشفى ـ إلى جانب هذا كله ـ أمراضا كثيرة أخرى مثل شفاء المرأة النازفة الدم: (وَامْرَأَةٌ بِنَزْفِ دَمٍ مُنْذُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ سَنَةً وَقَدْ أَنْفَقَتْ كُلَّ مَعِيشَتِهَا لِلأَطِبَّاءِ وَلَمْ تَقْدِرْ أَنْ تُشْفَى مِنْ أَحَدٍ) لأَنَّهَا قَالَتْ فِي نَفْسِهَا: (إِنْ مَسَسْتُ ثَوْبَهُ فَقَطْ شُفِيتُ) (متى: 9/ 21). فَفِي الْحَالِ وَقَفَ نَزْفُ دَمِهَا. فَقَالَ يَسُوعُ: (مَنِ الَّذِي لَمَسَنِي!) . . . (قَدْ لَمَسَنِي وَاحِدٌ لأَنِّي عَلِمْتُ أَنَّ قُوَّةً قَدْ خَرَجَتْ مِنِّي) (لوقا: 8/ 43-48).

(1) انظر: (متى: 20/ 34-39؛ مرقس: 10/ 46-52؛ لوقا: 18/ 35-43)

وشفى أصمّ أعقد بأنْ (وَضَعَ أَصَابِعَهُ فِي أُذُنَيْهِ وَتَفَلَ وَلَمَسَ لِسَانَهُ وَرَفَعَ نَظَرَهُ نَحْوَ السَّمَاءِ وَأَنَّ وَقَالَ لَهُ: (إِفَّثَا). أَيِ انْفَتِحْ. وَلِلْوَقْتِ انْفَتَحَتْ أُذْنَاهُ وَانْحَلَّ رِبَاطُ لِسَانِهِ وَتَكَلَّمَ مُسْتَقِيمًا) (مرقس: 7/ 33-35).

وشفى مريضًا بالاستسقاء (فَأَمْسَكَهُ وَأَبْرَأَهُ وَأَطْلَقَهُ) (لوقا: 14/ 1-4).

هذه نماذج قليلة لما صنعه الربّ يسوع المسيح من كمٍّ كبيرٍ لا يمكن حصره لم يُدَوَّن في الإنجيل تفصيلاً، وإنْ كان يُذكر بصورة إجمالية، يقول القدّيس يوحنّا بالروح (وَآيَاتٍ أُخَرَ كَثِيرَةً صَنَعَ يَسُوعُ قُدَّامَ تلاَمِيذِه لَمْ تُكْتَبْ فِي هَذَا الْكِتَابِ) (يوحنا: 20/ 30)، (وَأَشْيَاءُ أُخَرُ كَثِيرَةٌ صَنَعَهَا يَسُوعُ إِنْ كُتِبَتْ وَاحِدَةً وَاحِدَةً فَلَسْتُ أَظُنُّ أَنَّ الْعَالَمَ نَفْسَهُ يَسَعُ الْكُتُبَ الْمَكْتُوبَةَ) (يوحنا: 21/ 25)

فقد شفى جميع المرضى الذين قدّموهم إليه من جميع أنواع الأمراض مهما كان عددهم ومهما كانت أنواع هذه الأمراض (فَأَرْسَلُوا إِلَى جَمِيعِ تِلْكَ الْكُورَةِ الْمُحِيطَةِ وَأَحْضَرُوا إِلَيْهِ جَمِيعَ الْمَرْضَى وَطَلَبُوا إِلَيْهِ أَنْ يَلْمِسُوا هُدْبَ ثَوْبِهِ فَقَطْ. فَجَمِيعُ الَّذِينَ لَمَسُوهُ نَالُوا الشِّفَاءَ) (متى: 14/ 35-36)

وفي مرقس: (وَلَمَّا صَارَ الْمَسَاءُ إِذْ غَرَبَتِ الشَّمْسُ قَدَّمُوا إِلَيْهِ جَمِيعَ السُّقَمَاءِ وَالْمَجَانِينَ. وَكَانَتِ الْمَدِينَةُ كُلُّهَا مُجْتَمِعَةً عَلَى الْبَابِ. فَشَفَى كَثِيرِينَ كَانُوا مَرْضَى بِأَمْرَاضٍ مُخْتَلِفَةٍ وَأَخْرَجَ شَيَاطِينَ كَثِيرَةً وَلَمْ يَدَعِ الشَّيَاطِينَ يَتَكَلَّمُونَ لأَنَّهُمْ عَرَفُوهُ) (مرقس: 1/ 32-34)

وفي متى: (فَجَاءَ إِلَيْهِ جُمُوعٌ كَثِيرَةٌ مَعَهُمْ عُرْجٌ وَعُمْيٌ وَخُرْسٌ وَشُلٌّ وَآخَرُونَ كَثِيرُونَ وَطَرَحُوهُمْ عِنْدَ قَدَمَيْ يَسُوعَ. فَشَفَاهُمْ) (متى: 15/ 30)، وفيه: (وَلَمَّا صَارَ الْمَسَاءُ قَدَّمُوا إِلَيْهِ مَجَانِينَ كَثِيرِينَ فَأَخْرَجَ الأَرْوَاحَ بِكَلِمَةٍ وَجَمِيعَ الْمَرْضَى شَفَاهُمْ) (متى: 8/ 16)، وفيه: (فَذَاعَ خَبَرُهُ فِي جَمِيعِ سُورِيَّةَ. فَأَحْضَرُوا إِلَيْهِ جَمِيعَ السُّقَمَاءِ الْمُصَابِينَ بِأَمْرَاضٍ وَأَوْجَاعٍ مُخْتَلِفَةٍ وَالْمَجَانِينَ وَالْمَصْرُوعِينَ وَالْمَفْلُوجِينَ فَشَفَاهُمْ) (متى: 4/ 24)، وفيه: (وَتَبِعَتْهُ جُمُوعٌ كَثِيرَةٌ فَشَفَاهُمْ جَمِيعًا) (متى: 12/ 15)، وفيه: (فَجَاءَ إِلَيْهِ جُمُوعٌ كَثِيرَةٌ مَعَهُمْ عُرْجٌ وَعُمْيٌ وَخُرْسٌ وَشُلٌّ وَآخَرُونَ كَثِيرُونَ وَطَرَحُوهُمْ عِنْدَ قَدَمَيْ يَسُوعَ. فَشَفَاهُمْ) (متى: 30/ 15)، وفيه: (وَتَقَدَّمَ إِلَيْهِ عُمْيٌ وَعُرْجٌ فِي الْهَيْكَلِ فَشَفَاهُمْ) (متى: 21/ 14)، وفيه: (لأَنَّهُ كَانَ قَدْ شَفَى كَثِيرِينَ حَتَّى وَقَعَ عَلَيْهِ لِيَلْمِسَهُ كُلُّ مَنْ فِيهِ دَاءٌ) (مرقس: 3/ 10)، وفيه: (وَفِي تِلْكَ السَّاعَةِ شَفَى كَثِيرِينَ مِنْ أَمْرَاضٍ وَأَدْوَاءٍ وَأَرْوَاحٍ شِرِّيرَةٍ وَوَهَبَ الْبَصَرَ لِعُمْيَانٍ كَثِيرِينَ) (لوقا: 7/ 21)

ما إن وصل بولس بحديثه إلى هذا الموضع حتى صاح أجيره المتمارض، وقال: شكرا لربي المسيح الذي شفاني.. لولا ربي المسيح لكنت الآن تحت رحمة الشياطين الذين استعمروني.. آمنوا يا جماعة بالرب المسيح، فإنه لن ينقذكم من عللكم إلا هو.

لقد رأيتم كيف أبت الشياطين أن تخرج لسماعها القرآن، ولكنها ما إن رأت الصليب، وسمعت اسم المسيح حتى راحت هاربة من جسدي.

لست أدري كيف ظهر من بين الجمع عبد الحكيم الذي راح يقول لأجير بولس:

أقدر لك ـ يا أخي ـ إيمانك بالمسيح.. ولكني مع ذلك أريد أن أصحح لك خطأين أوقعك فيهما الوهم.

أما الأول، فهو تصورك أن من سكنك هم الشياطين، وهذا خطأ عظيم، فلم يجعل الله للشيطان على الإنسان إلا سلطانا واحدا هو سلطان الوساوس التي يبثه في النفس، فيملأها بالقنوط والكآبة والحزن.

فالقرآن يقرر أن المس الذي يمس به الشيطان الإنسان لا يعدو الوساوس التي يلقيها، فتملأ القلوب هما وحزنا، وقد يمتد تأثيرها إلى الجوارح مرضا وأنينا، وقد يكون محل الوسوسة مريضا

مستعدا لحصول الصرع، فيصرع ويتخبط، لتأثير تلك الوساوس على نفسه، بل هو يتخبط لأى وساوس من الجن أو من الإنس.

وقد ذكر القرآن الكريم بعض هذه الوساوس التي يلقيها الشياطين، فذكر أن منها التخويف من الفقر، والأمر لذلك بالفحشاء، قال تعالى: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾﴾ [البقرة].

ويبين القرآن الكريم الغاية الكبرى من وساوس الشيطان، وهى الإضلال وتوابعه، فيقول: ﴿...وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلالاً بَعِيداً ﴿٦٠﴾﴾ [النساء]، ويقول: ﴿وَلا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾﴾ [الزخرف].

وهذا التأثير الذى يحدثه الشيطان فى القلوب والنفوس، وقد يمتد إلى الجوارح والأعضاء، لا يكون إلا لأوليائه المقترنين به، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ [آل عمران]، وقال تعالى: ﴿... وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِيناً فَسَاءَ قِرِيناً ﴿٣٨﴾﴾ [النساء]، وقال تعالى: ﴿... وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾﴾ [النساء]، وقال تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ [الأعراف]، وقال تعالى: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [النحل].

أما المؤمنون، فلا يضرهم الشيطان، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾﴾ [الأعراف]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا النَّجْوَىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾﴾ [المجادلة].

وذلك لأن معهم أسلحة مقاومته، قال تعالى: ﴿إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [ص]، وقال تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾﴾ [الأعراف].

والقرآن الكريم فوق ذلك كله يملأ النفوس بالطمأنينة والقوة حين يخبرها أن كيد الشيطان مهما اشتد ضعيف كضعف الشياطين، فلذلك لا ينبغى الخوف منه، قال تعالى: ﴿...إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾﴾ [النساء]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٤٨﴾﴾ [الأنفال].

قال أجير بولس: كيف تزعم ذلك؟ وها أنت ترى بأن القرآن لم يفعل شيئا أمام الشياطين التى حاولت أن تستولى على حتى جاء هذا الرجل بصليبه، فخلصنى منها.

ابتسم عبد الحكيم، وقال: إن هذا المرض الذى قد يكون أصابك مرض من الأمراض، له نوبة تعترى صاحبها بأسباب خاصة، ولها على كل حال مدة محدودة، سواء قرأت عليها القرآن، أو قرأت عليها الإنجيل، أو قرأت كتب الهنود والصينيين، فسوف ترتفع بعد ارتفاع سببها.

قال أجير بولس: أراك تذهب مذاهب الملحدين لا مذاهب المؤمنين.

قال عبد الحكيم: بل أذهب مذاهب المؤمنين، لقد أخبرنا نبينا أن الله ما أنزل داء إلا أنزل له دواء[1].. فذلك بدل نتيه فى البحث عما نقرؤه فى هذه الأحوال، ونتنازع فيما بيننا هيا نبحث عن العلاج الذى أنزله الله.

قال أجير بولس: وهل هذا مرض حتى يكون له علاج.. إنها شياطين تستعمر الإنسان.

قال عبد الحكيم: لا يستعمر الإنسان غير نفسه، أما الشيطان، فهو أضعف من ذلك، لقد ذكر

(١) رواه مسلم.

القرآن الكريم عنه ضعفه الشديد، فقال: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٢)﴾ [إبراهيم].

فالشيطان يتجلى فى هذه الآية بمظهره الحقيقى مظهر الضعيف العاجز الذى نفخ فيه البشر وألبسوه من ثياب العظمة والكبرياء ووهبوه من أسباب التسلط ما يزاحم به الألوهية.

سكت قليلا، ثم قال: أتدرون ما سبب هذه النظرة التى جعلت للشيطان كل تلك السلطات؟

سكتوا، فقال: التصور الوثنى..

قالوا: التصور الوثنى؟!

قال عبد الحكيم: أجل.. فهو الذى يجعل من الشيطان إلها قائما بذاته يتحدى الله سبحانه وتعالى.. ولهذا اعتبر القرآن الكريم من أعطوا الجن من السلطات ما ليس لهم أو وضعوهم كمدبرين ومؤثرين بذواتهم فى الكون مشركين بذلك التعظيم، قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ (١٠٠)﴾ [الأنعام].

وقد أخبرت الملائكة ـ عليهم السلام ـ أن أكثر البشر كانوا يعبدون الجن ويشركونهم بالله، ومن أساليب العبودية التعظيم والخوف والذى لا يقتصر على المشركين من عرب الجاهلية فقط، قال تعالى: ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ (٤١)﴾ [سبأ].

وقد كان هذا التصور هو فهم السلف الصالح رضى الله عنهم من حقيقة العلاقة بين الجن والبشر، قال الحسن البصرى رحمه الله عن الشيطان: (والله ما ضربهم بعصا ولا أكرههم على شىء وما كان إلا غرورا وأمانى دعاهم إليها فأجابوه).

ولهذا ورد النهى عن تعظيم الشيطان والجن بنسبة المصائب والنكبات إليها، لأن ذلك مما يعظمها فى نفس الإنسان، وكلما عظم الإنسان شيئا كلما أزال من نفسه من الشعور بعظمة الله بحسبه فنهى النبى ﷺ عن كل مظهر ينم عن هذا التعظيم ولو كان فى صيغة سب، قال بعض الصحابة رضى الله عنهم: (كنت رديف النبى ﷺ فعثرت دابة فقلت: تعس الشيطان، فقال: لا تقل تعس الشيطان، فإنك إذا قلت ذلك تعاظم حتى يكون مثل البيت ويقول: بقوتى، ولكن قل: بسم الله، فإنك إذا قلت ذلك تصاغر حتى يكون مثل الذباب)(١).

فالنبى ﷺ نهاه أن يعظم الشيطان ولو بنسبة تعثر الدابة إليه، فكيف بمن يجعله متصرفا كليا وحيدا فى حياة الناس.

التفت عبد الحكيم إلى أجير بولس، وقال: لا ينبغى ـ يا أخى ـ أن تنساق وراء الخرافات فى علاج دائك..

إن هذا مرض من الأمراض التى يسير الطب الحديث نحو معرفة الكثير من أسرارها، ويوشك أن يجد لها العلاج الذى يقمع مادتها، فاتصل بالأطباء، فهذا اختصاصهم لا اختصاص رجال الدين.

قال أجير بولس: أنت تقول هذا، لأن دينكم خال من هذا الجانب.

قال عبد الحكيم: لا.. نحن نرتبط بالله.. وإذا مرضنا علمنا نبينا أن نلجأ إلى الله، وندعوه، وفى نفس الوقت نمارس ما أمرنا الله به من أسباب الشفاء التى قدر لها فى عالم الحكمة قوانينها.

وهنا لم يجد أجير بولس إلا أن ينطق بما تعود أن ينطق به، وهو ما يفسد الغرض الذى جاء

---

(١) أبو داود وغيره.

من أجله بولس، فقال: لكن المسيح حصلت منه معجزات الشفاء الكثيرة الدالة على ألوهيته، أما نبيكم فلم يحصل على يديه شيء، فكيف تقبلونه نبيا.

ابتسم عبد الحكيم، وقال: النبي يأتي ليشفي أرواحنا، ويعلمنا كيف نسير إلى ربنا.. أما الطب، فقد خلق الله له الأطباء، وخلق لهم من الأدوية في أرضه ما يمكنهم أن يعالجوا به جميع العلل التي تعتري البشر، فلذلك نحن نحتاج إلى الهداة لا إلى الأطباء.

قال أجير بولس، بإلحاحه المعهود: أنت تتهرب من سؤالي.. فكل من لم يطق شيئا قال ما قلت.

هنا تدخل عبد القادر، وقال: ما دمت قد رغبت في أن نحدثك عن هذا.. فسنحدثك بما ورد في الأسانيد الكثيرة الدالة على أن نبينا كان مستجاب الدعوة، فكان لا يدعو لشيء أو على شيء إلا حصل ما دعا به.

وذلك ليس خاصا بالأمراض فقط.. وإنما قد عم أشياء كثيرة، لو صبرتم علي، فسأعد لكم منها ما تقر به أعينكم، وتعلمون أن الله أقرب إليكم من أنفسكم، ويمكنكم إذا اعتمدتم عليه، وتوجهتم إليه أن يحقق كل رغباتكم بالشفاء، وبغير الشفاء.

***

## أ - شفاء

قال رجل من الجمع: وكيف لا نصبر.. فحدثنا، وابدأ بحديثك عن الشفاء، فلا يحب المرضى حديثا كما يحبون من يبشرهم بالشفاء.

قال عبد القادر: لقد وردت النصوص الكثيرة الدالة على ما حصل من نبينا محمد ﷺ من شفاء المرضى ببركات دعائه، بأسانيد كثيرة، تفيد فى مجموعها حصول التواتر القطعى الذى لا يشكك فيه إلا جاحد.

وسأذكر لكم منها ما تقر به أعينكم:

ومن ذلك ما روى فى إبراء الأعمى والأرمد ومن فقئت عينه، وقد رويت فى ذلك الروايات الكثيرة:

فمن ذلك ما روى أنه يوم خيبر، سأل النبى ﷺ، فقال: (أين على؟)، فقيل: يا رسول الله، يشتكى عينيه، قال: (فأرسلوا إليه)، فأتى به فبصق رسول الله ﷺ فى عينيه ودعا له فبرئ، حتى كأنه لم يكن به وجع، فأعطاه الراية[1].

ومن ذلك ما روى عن حبيب بن فديك أن أباه خرج به إلى رسول الله ﷺ وعيناه مبيضتان لا يبصر بهما شيئا، فسأله: (ما أصابك؟) فقال: وقعت رجلى على بيضة حية فأصيب بصرى، فنفث رسول الله ﷺ فى عينيه فأبصر، فرأيته وهو يدخل الخيط فى الإبرة، وإنه لابن الثمانين سنة، وإن عينيه لمبيضتان[2].

ومن ذلك ما روى أن قتادة بن النعمان أصيبت عينه يوم أحد، فسالت حدقته على وجنته، فأرادوا أن يقطعوها، فقالوا: حتى تستأمر رسول الله ﷺ، فاستأمروه، فقال: (لا)، فدعى به فرفع حدقته ثم غمزها براحته، وقال: (اللهم اكسبه جمالا، ويزق فيها)، فكانت أصح عينيه وأحسنها[3].

وفى رواية: فكان لا يدرى أى عينيه أصيبت، وقال السهيلى: وكانت لا ترمد إذا رمدت الأخرى.

ومن ذلك ما روى عن رفاعة بن رافع بن مالك قال: رميت بسهم يوم بدر، ففقئت عينى فبصق فيها رسول الله ﷺ ودعا لى، فما آذانى منها شىء[4].

ومن ذلك ما روى أنه أصيبت عين أبى ذر يوم أحد، فبزق فيها رسول الله ﷺ فكانت أصح عينيه[5].

ومن ذلك ما روى فى إبراء الأبكم والرتة، وقد رويت فى ذلك الروايات الكثيرة:

ومنها ما روى عن شمر بن عطية عن بعض أشياخه أن النبى ﷺ جاءته امرأة بصبى قد شب، فقالت: يا رسول الله ان ابنى هذا لم يتكلم منذ ولد، فقال: (من أنا؟) قال: أنت رسول الله[6].

---

(1) رواه البخارى ومسلم.

(2) رواه ابن أبى شيبة والبيهقى وأبو نعيم.

(3) رواه أبو يعلى والبيهقى وابن سعد وأبو نعيم، وقد روى أن رجلا من ولد قتادة وفد إلى عمر بن عبد العزيز، فلما قدم عليه، قال: ممن الرجل؟ فقال:

أنا ابن الذى سالت على الخد عينه ... فردت بكف المصطفى أحسن الرد

فعادت كما كانت لأول أمرها فيا ... حسنها عينا ويا حسنه من خد

فقال عمر بن عبد العزيز:

تلك المكارم لا قعبان من لبن ... شيبا بماء فعادا بعد أبوالا

ووصله وأحسن جائزته.

(4) رواه الحاكم والبيهقى وأبو نعيم بسند جيد.

(5) رواه أبو نعيم.

(6) رواه البيهقى.

ومن ذلك ما روى عن معرض بن معيقب اليمامي قال: حججت حجة الوداع، فدخلت دارا بمكة، فرأيت فيها رسول الله ﷺ ورأيت منه عجبا جاءه رجل من أهل اليمامة بغلام يوم ولد، فقال له رسول الله ﷺ:(من أنا؟) قال: أنت رسول الله، قال: (صدقت، بارك الله فيك)، ثم إن الغلام لم يتكلم بعد ذلك حتى شب، فكنا نسميه مبارك اليمامة[1].

ومن ذلك ما روى عن بشير بن عقربة الجهني قال: أتى عقربة رسول الله ﷺ فقال: (من هذا معك، يا عقربة؟) قال: ابني بحير قال:(ادن) فدنوت حتى قعدت عن يمينه، فمسح على رأسي بيده، فقال:(ما اسمك؟) قلت: بحير يا رسول الله، قال: (لا، ولكن اسمك بشير) وكانت في لساني عقدة، فنفث النبي ﷺ في في، فانحلت من لساني وابيض كل شيء من رأسي ما خلا ما وضع يده عليه فكان أسود[2].

ومن ذلك ما روى أن مخوس بن معدى كرب، قال: يا رسول الله، ادع الله أن يذهب عنى الرتة، فدعا له، فذهبت[3].

ومن ذلك ما روى في إبرائه ﷺ للقرحة والسلعة والحرارة:

ومما يروى في ذلك أن رسول الله ﷺ أتى برجل في رجله قرحة قد أعيت الأطباء، فوضع أصبعه على ريقه، ثم رفع طرف الخنصر، فوضعها على التراب، ثم رفعها، فوضعها على القرحة، ثم قال: (باسمك اللهم ريق بعضنا بتربة أرضنا ليشفى سقيمنا بإذن ربنا)[4].

ومن ذلك ما روى عن شرحبيل الجحفي قال: أتيت رسول الله ﷺ وبكفي سلعة[5] فقلت: يا رسول الله هذه السلعة قد آذتني وتحول بيني وبين قائم السيف أن أقبض عليه، وعنان الدابة، فنفث في كفي ووضع كفه على السلعة، فما زال يطحنها بكفه حتى رفعها عنها، وما أرى أثرها[6].

ومن ذلك ما روى أن أبا سبرة قال: يا رسول الله، إن بظهر كفي سلعة، قد منعتني من خطام راحلتي، فدعا رسول الله ﷺ بقدح، فجعل يضرب به إلى السلعة يمسحها فذهبت[7].

ومن ذلك ما روى عن أبيض بن حمال أنه كان بوجهه جدرة، وفي لفظ حذارة، وهي قد التقمت وجهه.

وفي لفظ: التقمت أنفه، فدعاه رسول الله ﷺ فمسح وجهه، فلم يمس من ذلك اليوم منها أثر[8].

ومن ذلك ما روى عن عروة أن ملاعب الأسنة أرسل إلى رسول الله ﷺ يستشفيه من وجع كان به الدبيلة، فتناول النبي ﷺ مدرة من الأرض، فتفل فيها ثم ناولها لرسوله، فقال:(دفها بماء ثم اسقها إياه)، ففعل فبرأ[9].

---

(1) رواه البيهقي، قال ابن كثير: وهذا الحديث مما تكلم به الناس في محمد بن يونس بسببه، وأنكروه عليه واستغربوا شيخه، وليس هذا مما ينكر عقلا بل شرعا، على أنه قد ورد هذا الحديث من غير طريق محمد بن يونس، فرواه البيهقي من طريق أبي الحسين محمد أحمد بن جميع.

(2) رواه إسحاق بن إبراهيم الرملي في فوائده.

(3) رواه ابن سعد عن عكرمة والزهري وعاصم بن عمرو بن قتادة مرسلا.

(4) رواه البيهقي.

(5) السلعة: الغدة تكون في العنق.

(6) رواه البخاري في التاريخ والطبراني والبيهقي.

(7) رواه البيهقي وابن سعد.

(8) رواه الطبراني برجال ثقات وأبو نعيم والبيهقي وأبو داود والترمذي والنسائي في الكبرى وابن ماجه وابن حبان.

(9) رواه أبو نعيم والواقدي.

**ومن ذلك ما روى فى إبرائه ﷺ للحرق:**

ومما يروى فى ذلك عن محمد بن حاطب عن أمه أم جميل، قالت: أقبلت بك من أرض الحبشة حتى إذا كنت من المدينة بليلة طبخت طبيخا، ففنى الحطب، فخرجت أطلب الحطب، فتناولت القدر، فانكفأت على ذراعك، فأتيت بك رسول الله ﷺ فجعل يتفل على يدك وهو يقول: (أذهب البأس رب الناس، اشف أنت الشافى، لا شفاء لا شفاؤك شفاء لا يغادر سقما)، فما قمت بك من عنده حتى برأت يدك[1].

**ومن ذلك ما روى فى إبرائه ﷺ وجع الضرس والرأس:**

ومما يروى فى ذلك عن يزيد بن ذكوان أن عبد الله بن رواحة قال: يا رسول الله، أشتكى ضرسا آذانى، واشتد على، فوضع رسول الله ﷺ يده على الخد الذى فيه الوجع فقال: (اللهم أذهب عنه سوء ما يجد وفحشه بدعوة نبيك المبارك المكين عندك) سبع مرات، فشفاه الله تعالى قبل أن يبرح[2].

ومن ذلك ما يروى عن أسماء بنت أبى بكر أنها أصابها ورم فى رأسها ووجهها، فوضع رسول الله ﷺ يده على رأسها ووجهها من فوق الثياب، فقال: (باسم الله، أذهب عنها سوءه وفحشه بدعوة نبيك الطيب المبارك المكين عندك)، ففعل ذلك ثلاث مرات، فذهب الورم[3].

ومن ذلك ما روى أن رجلا من ليث ـ يقال له فراس بن عمرو ـ أصابه صداع شديد، فذهب به أبوه إلى النبى ﷺ فأخذ رسول الله ﷺ بجلدة ما بين عينيه فجذبها، فنبتت فى موضع أصابع رسول الله ﷺ من جبينه شعرة فذهب عنه الصداع، فلم يصدع[4].

**ومن ذلك ما روى فى إبرائه ﷺ الجراحة والكسر:**

ومما يروى فى ذلك ما روى عن عبد الله بن أنيس قال: ضرب المستير ابن رزام اليهودى وجهى فشجنى منقلة أو مأمومة، فأتيت بها رسول الله ﷺ فكشف عنها ونفث فيها فما آذانى منها شىء[5].

ومن ذلك ما روى عن معاوية بن الحكم، قال: كنا مع رسول الله ﷺ فأنزى أخى على بن الحكم فرسه خندقا فقصر الفرس فدق جدار الخندق ساقه، فأتيت النبى ﷺ على فرسه، فمسح ساقه فما نزل عنها حتى برأت[6].

وفى رواية: فأصاب رجل أخى على بن الحكم جدار الخندق فدقتها فأتى النبى ﷺ فمسحها وقال: (باسم الله) فما آذاه منها شىء[7].

ومن ذلك ما روى عن البراء بن عبد الله بن عتيكة أنه لما قتل أبو رافع ونزل من درجة بيته سقط إلى الأرض فانكسرت ساقه، قال: فحدثت النبى ﷺ فقال: (ابسط رجلك)، فبسطتها فمسحها فكأنما لم أشكها قط[8].

---

(1) رواه البخارى فى التاريخ والنسائى والطيالسى وابن أبى شيبة ومسدد وأبو يعلى وابن حبان والحاكم والبيهقى.
(2) رواه البيهقى.
(3) رواه البيهقى.
(4) رواه البيهقى.
(5) رواه البغوى والطبرانى.
(6) رواه ابن أبى السكن وأبو نعيم.
(7) رواه البغوى.
(8) رواه البخارى.

ومن ذلك ما روى عن أبى أزهر أن خالد بن الوليد أثقل بالجراحة يوم حنين، فرأيت النبى ﷺ بعد أن هزم الله الكفار ورجع المسلمون إلى رحالهم يمشى، يقول: (من يدل على رحل خالد بن الوليد)، قال: فمشيت أو قال سعيت بين يديه، وأنا محتلم أقول: من يدل على رحل خالد بن الوليد، حتى دللنا على رحله، فإذا بخالد بن الوليد مستند الى مؤخرة رحله، فأتاه رسول الله ﷺ فنظر إلى جرحه فنفث فيه فبرأ[1].

ومن ذلك ما روى عن عبد الله بن الحارث بن أوس أن الحارث بن أوس أصابه في قتل كعب بن الأشرف بعض أسيافهم، فجرح فى رأسه وفى رجله فاحتملوه فجاؤوا به النبى ﷺ فتفل على جرحه فلم يؤذه[2].

ومن ذلك ماروى أن أبا جهل قطع يوم بدر يد معوذ بن عفراء، فجاء النبى ﷺ يحمل يده، فبصق رسول الله ﷺ عليها، وألصقها فلصقت[3].

ومن ذلك ما روى عن يزيد بن أبى عبيد، قال: رأيت أثر ضربة فى ساق سلمة ابن الاكوع، فقلت: يا أبا مسلم، ما هذه الضربة؟ قال: هذه ضربة أصابتها يوم خيبر، فقال الناس: أصيب سلمة، فأتيت النبى ﷺ، فنفث فيها ثلاث نفثات، فما اشتكيتها حتى الساعة[4].

ومن ذلك ما روى عن حبيب بن يساف قال: شهدت مع رسول الله ﷺ مشهدا فأصابتنى ضربة على عاتقى، فتعلقت يدى فأتيت النبى ﷺ فتفل فيها وألزقها فالتأمت وبرأت وقتلت الذى ضربنى[5].

ومن ذلك ما روى عن عروة وابن شهاب قالا: بعث رسول الله ﷺ ثلاثين رجلا، فأقبل المستير بن رزام اليهودى، فضرب المستير وجه عبد الله بن أنيس فشجه مأمومة، فقدم على رسول الله ﷺ فبصق فى شجته، فلم يؤذه حتى مات[6].

ومن ذلك ما روى عن عائذ بن عمرو ـ رضى الله عنه ـ قال: أصابتنى رمية يوم حنين فى وجهى فسال الدم على وجهى وصدرى فتناول النبى ﷺ الدم بيده عن وجهى وصدرى إلى ثندوتى، ثم دعا لى. قال: جئت مع والد عبد الله فرأيت أثر يد رسول الله ﷺ إلى منتهى م' مسح صدره، فإذا غرة سائلة كغرة الفرس[7].

ومن ذلك ما روى من حصول القوة لمن دعا له رسول الله ﷺ:

ومن ذلك ما روى عن سفينة أنه قيل: له ما اسمك؟ قال: سمانى رسول الله ﷺ سفينة. قيل: ولم؟ قال: خرج رسول الله ﷺ ومعه أصحابه فثقل عليهم متاعهم فحملوه على ظهرى، فقال رسول الله ﷺ: (احمل، فإنما أنت سفينة)، فلو حملت يوم' ،قر بعير أو بعيرين أو ثلاثة أو أربعة أو خمسة أو ستة أو سبعة ما ثقل على[8].

ومن ذلك ما روى عن سلمة بن الاكوع أن رسول الله ﷺ مر على الناس يتضلون فقال: (ما

---

(1) رواه أحمد وعبيد بن حميد.
(2) رواه البيهقى.
(3) رواه ابن وهب فيما ذكره السهيلى.
(4) رواه البخارى.
(5) رواه البيهقى.
(6) رواه أبو نعيم والبيهقى.
(7) رواه الحاكم وأبو نعيم وابن عساكر.
(8) رواه أحمد وابن سعد والبيهقى.

أحسن هذا اللهو! ارموا وأنا معكم جميعا)، فلقد رموا عامة يومهم ذلك، ثم تفرقوا على السواء ما نضل بعضهم بعضا[1].

ومن ذلك ما روى فى حصول شفاء أمراض شتى على يد النبى ﷺ:

ومما يروى من ذلك ما روى عن رفاعة بن رافع قال: أخذت شحمة فازدردتها، فاشتكيت منها سنة ثم إنى ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فمسح بطنى فألقيتها خضراء، فوالذى بعثه بالحق، ما اشتكيت بطنى حتى الساعة[2].

ومن ذلك ما روى عن جرهد بن خويلد أنه أكل بيده الشمال، فقال له رسول الله ﷺ: (كل باليمين)، فقال: إنها مصابة، فنفث فيها رسول الله ﷺ فما اشتكى حتى مات[3].

ومن ذلك ما روى عن جابر قال: عادنى رسول الله ﷺ وأبو بكر فى بنى سلمة فوجدنى لا أعقل فدعا بماء فتوضأ فرش منه على فأفقت[4].

ومن ذلك ما روى عن على رضي الله عنه قال: مرضت فعادنى رسول الله ﷺ وأنا أقول: اللهم إن كان أجلى قد حضر، فأرحنى وإن كان متأخرا فارفعنى، وإن كان بلاء فصبرنى، فقال: (اللهم اشفه اللهم عافه) ثم قال: فقمت فما عاد ذلك الوجع بعد[5].

وفى حديث آخر عن على رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ دعا له، فقال: (اللهم أذهب عنه الحر والبرد)، فكان يلبس فى الشتاء ثياب الصيف، ويلبس فى الصيف ثياب الشتاء، ولا يصيبه حر ولا برد[6].

وفى حديث آخر عن عبد الرحمن بن أبى ليلى رضي الله عنه قال: كان على رضى الله عنه يلبس فى الحر الشديد العباء المحشو الثخين وما يبالى الحر، ويلبس فى البرد الشديد الثوبين الخفيفين وما يبالى البرد، وسئل عن ذلك فقال: إن النبى ﷺ قال فى خيبر: (لأعطين الراية رجلا يحبه الله ورسوله يفتح الله عليه غير فرار) فدعانى فأعطانى الراية ثم قال: (اللهم اكفه الحر والبرد) فما وجدت بعد ذلك حرا ولا بردا[7].

وفى حديث آخر عن شبرمة بن الطفيل ـ رضى الله عنه ـ قال: رأيت عليا بذى قار عليه إزار ورداء فى يوم شديد البرد وإن جبهته لترشح عرقا[8].

ومن ذلك ما روى عن بلال ـ رضى الله عنه ـ قال: أذنت فى غداة باردة، فخرج رسول الله ﷺ فلم ير فى المسجد أحدا، قال: (أين الناس يا بلال؟) قال: منعهم البرد، فقال: (اللهم أذهب عنهم البرد) قال بلال: فرأيتهم يتروحون[9].

ومن ذلك ما روى عن ابن عائذ قال: قال ثابت بن يزيد: يا رسول الله، إن رجلى عرجاء لا تمس الأرض، قال: فدعا لى، فبرأت حتى استوت مثل الأخرى[10].

ومن ذلك ما ورد من إجابة دعائه ﷺ للوليد بن قيس رضي الله عنه، فعنه قال: كان بى برص فدعا لى رسول الله ﷺ فبرأت منه[11].

---

(1) رواه البيهقى.
(2) رواه أبو نعيم والبيهقى.
(3) رواه الطبرانى.
(4) رواه البخارى ومسلم.
(5) رواه البيهقى.
(6) رواه ابن ماجة والبيهقى.
(7) رواه الطبرانى والبيهقى.
(8) رواه أبو نعيم.
(9) رواه البيهقى وأبو نعيم والطبرانى.
(10) رواه الطبرانى فى (مسند الشاميين) وابن منده والباوردى فى (المعرفة).
(11) رواه الطبرانى.

## 2 - حاجات

قال رجل من الجمع: إن للإنسان حاجات كثيرة، غير حاجته إلى الشفاء، فهل روى عن نبيكم من استجابة ربه له منها شيء.

قال عبد القادر: بل رويت عنه الأحاديث الكثيرة الدالة على ذلك، فقد كان رسول الله ﷺ كما وصفه ربه تعالى: ﴿... بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة].

فلذلك كان ينظر إلى أصحابه نظرة الرحمة والشفقة، فكلما ألم بأصحابه مكروه أو تفكير فى أمر يشغل بالهم أسرع رسول الله ﷺ بالدعاء لهم للتخفيف عنهم، ولكى ينالوا بركة دعوته ﷺ.

وسأذكر لكم منها ما يبث اليقين فى نفوسكم وتعلموا أن من أجيبت له هذه الدعوات يستحيل أن يكون كاذبا أو مدعيا:

**استسقاء**

فمن الحاجات التى تلم بالإنسان حاجته إلى الماء، فالماء هو المادة الأساسية للحياة، ولذلك كان ﷺ كثيرا ما يستسقى لأصحابه، فى حال حاجتهم إلى المياه:

ومن ذلك ما حدث به أنس بن مالك رضي الله عنه: أن رجلاً دخل المسجد يوم جمعة، ورسول الله ﷺ قائم يخطب، فاستقبل رسول الله ﷺ قائمًا، ثم قال: يا رسول الله هلكت الأموال[1]، وانقطعت السبل[2]، فادع الله يغثنا. قال: فرفع رسول الله ﷺ يديه، ثم قال: (اللهم أغثنا اللهم أغثنا اللهم أغثنا).

قال أنس: ولا والله ما نرى فى السماء من سحاب ولا قزعة[3]، وما بيننا وبين سلع[4] من بيت ولا دار، قال: فطلعت من ورائه سحابة مثل الترس[5]، فلما توسطت السماء انتشرت ثم أمطرت، قال: فلا والله ما رأينا الشمس سبتًا.

قال: ثم دخل رجل من ذلك الباب فى الجمعة المقبلة ورسول الله ﷺ قائم يخطب، فاستقبله قائمًا، فقال: يا رسول الله هلكت الأموال وانقطعت السبل، فادع الله يمسكها عنا.

فرفع رسول الله ﷺ يديه ثم قال: (اللهم حوالينا ولا علينا اللهم على الأكام[6]، والظراب[7] ومنابت الشجر، فانقلعت وخرجنا نمشى فى الشمس[8].

ومن ذلك ما ورى من نزول مطر شديد يوم تبوك بدعاء النبى ﷺ، فعن عبد الله بن عباس - رضى الله عنهما - أنه قيل لعمر بن الخطاب، حدثنا عن شأن ساعة العسرة، فقال عمر: خرجنا إلى تبوك فى قيظ شديد، فنزلنا منزلاً وأصابنا فيه عطش حتى ظننا أن رقابنا ستنقطع، حتى إن كان أحدنا ليذهب، فيلتمس الرجل، فلا يجده حتى يظن أن رقبته ستنقطع، حتى إن الرجل لينحر بعيره فيعصر فرثه[9] فيشربه، ثم يجعل ما بقى على كبده، فقال أبو بكر الصديق: يا رسول الله، إن الله قد عودك فى الدعاء خيراً، فادع الله لنا، فقال ﷺ: (أو تحب ذلك؟)، قال: نعم، فرفع يديه نحو السماء، فلم

---

(1) المراد هنا المواشى خصوصًا الإبل وهلاكها من قلة الأقوات، بسبب عدم المطر والنبات.
(2) أى انقطعت الطرق فلم تسلكها الإبل إما لخوف الهلاك أو الضعف بسبب قلة الكلأ أو عدمه.
(3) القطعة من الغيم.
(4) جبل قرب المدينة.
(5) هو ما يتقى به السيف ووجه الشبه الاستدارة والكثافة، لا القدر.
(6) جمع أكمة وهى الرابية المرتفعة من الأرض.
(7) جمع ظرب وهى صغار الجبال والتلال.
(8) رواه البخارى ومسلم.
(9) أى روثه وفضلاته.

يرجعهما، حتى قالت السماء فأطلت، ثم سكبت، فملأوا ما معهم، ثم ذهبنا ننظر، فلم نجدها جاوزت العسكر[1].

ومن ذلك ما روى عن ابن عمر ـ رضى الله عنه ـ أنه قال: ربما ذكرت قول الشاعر وأنا أنظر إلى وجه رسول الله ﷺ يستسقى فما ينزل حتى يجيش كل ميزاب:

**وأبيض يستسقى الغمام بوجهه  ثمال اليتامى عصمة للأرامل[2]**

ومن ذلك ما حدث به أنس ـ رضى الله عنه ـ قال: جاء أعرابى إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، لقد أتيناك وما لنا بعير يئط، ولا صبى يصيح وأنشد:

**أتيناك والعذراء يدمى لبانها  وقد شغلت أم الصبى عن الطفل**
**وألقى بكفيه الصبى استكانة  من الجوع ضعفا ما يمر وما يحلى**
**ولا شيء مما يأكل الناس عندنا  سوى الحنظل القامى والعلهز الفسل**
**وليس لنا إلا إليك فرارنا  وأين فرار الناس إلا إلى الرسل**

فقام رسول الله ﷺ حتى صعد المنبر، ثم رفع يديه فقال: (اللهم اسقنا غيثا مغيثا مريئا مريعا غدقا طبقا عاجلا غير رائث نافعا غير ضار تملأ به الضرع وتنبت به الزرع وتحيى به الأرض بعد موتها وكذلك تخرجون).

قال الراوى: فوالله ما رد يديه إلى نحره حتى ألقت السماء بأردافها، وجاء أهل الوطابة يضجون: (يا رسول الله الغرق)، فرفع يديه إلى السماء وقال: (اللهم حوالينا ولا علينا)، فانجاب السحاب من المدينة، فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه، ثم قال: لله در أبى طالب لو كان حيا قرت عيناه، فقال على: كأنك أردت يا رسول الله قوله:

**وأبيض يستسقى الغمام بوجهه  ثمال اليتامى عصمة للأرامل**

وقام رجل من كنانة فقال:

**لك الحمد والحمد لمن شكر  سقينا بوجه النبى المطر**
**دعا الله خالقه دعوة إليه  وأشخص منه البصر**
**أغاث به الله عليا مضر  وهذا العيان لذاك الخبر**
**فلم تك إلا ككف الردا  وأسرع حتى رأينا الدرر**
**وكان كما قال عمه أبو  طالب: أبيض ذو غرر**
**به الله يسقى صوب الغمام  ومن يكفر الله يلقى الغير**

فقال النبى ﷺ: (إن يك شاعرا يحسن، فقد أحسنت)[3].

ومن ذلك ما حدث به أبو أمامة - رضى الله عنه - قال: قام رسول الله ﷺ ضحى فى المسجد، فكبر ثلاث تكبيرات، ثم قال: (اللهم ارزقنا سمنا ولبنا وشحما ولحما)، وما نرى فى السماء من سحاب، فثارت ريح وغبرة، ثم اجتمع السحاب، فصبت السماء فصاح أهل الأسواق ورسول الله ﷺ قائم، فسالت فى الطرق، فما رأيت عاما كان أكثر لبنا وسمنا وشحما ولحما منه، إن هو إلا فى الطرق ما يشتريه أحد[4].

ومن ذلك ما حدثت به الربيع بنت معوذ بن عفراء، قالت: بينا نحن عند رسول الله ﷺ فى

---

(1) رواه البيهقى فى الدلائل، ورواه البزار، والطبرانى فى الأوسط، ورجال البزار ثقات.
(2) رواه البخارى وابن ماجة.
(3) رواه البيهقى وابن عساكر.
(4) رواه أبو نعيم والبيهقى.

بعض أسفاره إذ احتاج الناس إلى الماء، فالتمسوا فى الركب ماء، فلم يجدوا، فدعا رسول الله ﷺ فأمطرت حتى استقى الناس وسقوا[1].

ومن ذلك ما حدثت به عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت: شكا الناس إلى رسول الله ﷺ قحوط المطر، فخرج إلى المصلى وقعد على المنبر ورفع يديه حتى رُؤى بياض إبطيه، فأنشأ الله سبحانه وتعالى سحابة فرعدت وبرقت ثم أمطرت، فلم يأت المسجد حتى سالت السيول فقال: (أشهد أن الله على كل شىء قدير وأنى عبد الله ورسوله)[2].

ومن ذلك ما حدث به كعب بن مرة البهزى، قال: دعا رسول الله ﷺ على مضر، فأتاه أبو سفيان، فقال: إن قومك قد هلكوا فادع الله لهم فقال: (اللهم اسقنا غيثا مغيثا غدقا طبقا مريعا نافعا غير ضار، عاجلا غير رائث)، فما لبثنا إلا جمعة حتى مُطرنا، فأتوه فشكوا إليه المطر، فقالوا: لقد تهدمت البيوت. فقال: اللهم حوالينا ولا علينا فجعل السحاب يتقطع يمينا وشمالا[3].

ومن ذلك ما حدث به ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال: جاء أعرابى إلى النبى ﷺ فقال: يا رسول الله لقد جئتك من عند قوم ما يتزود لهم راع ولا يحصد لهم فحل، فصعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: (اللهم اسقنا غيثا مغيثا مريئا طبقا مريعا غدقا عاجلا غير رائث)، ثم نزل فما يأتيه أحد من وجه من الوجوه إلا قالوا أحيينا[4].

ومن ذلك ما روى أن وفد سلامان قدموا فى شوال سنة عشر، فقال لهم رسول الله ﷺ: (كيف البلاد عندكم؟) قالوا: مجدبة، فادع الله أن يسقينا فى أوطاننا، فقال ﷺ: (اللهم اسقهم الغيث فى بلادهم) فقالوا: يا رسول الله ارفع يديك، فإنه أكثر وأطيب.

فتبسم، ورفع يديه حتى بدا بياض إبطيه، ثم رجعوا إلى بلادهم، فوجدوها قد مُطرت فى اليوم الذى دعا فيه رسول الله ﷺ فى تلك الساعة[5].

**رزق:**

ومن الحاجات التى كانت تعرض أحيانا لأصحاب النبى ﷺ، وخصوصا الفقراء منهم، حاجتهم إلى المطعم، وقد توجه رسول الله ﷺ إلى الله طالبا رزقهم:

ومما يروى من ذلك، ما حدث به واثلة بن الأسقع ـ رضى الله عنه ـ قال: حضر رمضان ونحن فى أهل الصفة فصمنا، فكنا إذا أفطرنا أتى كل رجل منا رجل من أهل البيعة فانطلق به فعشاه، فأتت علينا لم يأتنا أحد، وأصبحنا صياماً، وأتت علينا القابلة فلم يأتنا أحد، فانطلقنا إلى رسول الله ﷺ، فأخبرناه بالذى كان من أمرنا، فأرسل إلى كل امرأة من نسائه يسألها هل عندها شىء، فما بقيت منهن امرأة إلا أرسلت تقسم: ما أمسى فى بيتها ما يأكل ذو كبد، فقال لهم رسول الله ﷺ: (فاجتمعوا)، فدعا وقال: (اللهم إنى أسألك من فضلك ورحمتك، فإنها بيدك لا يملكها أحد غيرك).

فلم يكن إلا ومستأذن يستأذن، فإذا بشاة مصلية ورغف، فأمر بها رسول الله ﷺ، فوضعت بين أيدينا، فأكلنا حتى شبعنا، فقال لنا رسول الله ﷺ: (إنا سألنا الله من فضله ورحمته، فهذا فضله، وقد ادخر لنا عنده رحمته)[6].

---

(1) رواه أبو نعيم.
(2) رواه أبو نعيم.
(3) رواه ابن ماجة والبيهقى.
(4) رواه ابن ماجه.
(5) رواه أبو نعيم.
(6) رواه البيهقى فى الدلائل، ورواه الطبرانى وإسناده حسن.

ولكن النبي ﷺ لزهده في الدنيا، كان يدعو، فيقول: (اللهم اجعل رزق آل محمد قوتا)[1].

وقد حصل ما دعا به النبي ﷺ، فقد كان رزقه ﷺ ورزق أهله القوت في أكثر الأحيان لا يجاوزونه، وقد وصفت عائشة ـ رضى الله عنها ـ حياتها معه ﷺ، وكيف كانوا يعيشون، فقالت: (توفى رَسُول الله ﷺ وما في بيتي شيء يأكله ذو كبد إلا شطر شعير[2] في رف لي فأكلت منه حتى طال على فكلْته فَفنى)[3]، وقالت: (ما شبع آل محمد ﷺ من خبز شعير يومين متتابعين حتى قبض)[4]، وفي رواية: (ما شبع آل محمد ﷺ منذ قدم المدينة من طعام البر ثلاث ليال تباعًا حتى قبض).

وكانت تقول لابن أختها عروة: (والله يا ابن أختي إن كنا لننظر إلى الهلال ثم الهلال ثم الهلال: ثلاثة أهلة في شهرين وما أوقد في أبيات رَسُول الله (نار)، قال: يا خالة فما كان يعيشكم؟ قالت: (الأسودان: التمر والماء، إلا أنه قد كان لرَسُول الله ﷺ جيران من الأنصار وكانت لهم منائح وكانوا يرسلون إلى رَسُول الله ﷺ من ألبانها فيسقينا)[5].

وكان ﷺ يعلل ذلك بقوله:(ما لي وللدنيا! ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها)[6].

حفظهم

ومن الحاجات التي عرضت لأصحاب النبي ﷺ فدعا النبي ﷺ لهم، وتحقق ما دعا به، تأمينهم من بعض المخاوف التي كانت تعتريهم:

ومن ذلك ما حدّث به خالد بن الوليد رضي الله عنه أنه شكى إلى رسول الله ﷺ فقال: إني أجد فزعا بالليل، فقال: (ألا أعلمك كلمات علمنيهن جبريل عليه السلام، وزعم أن عفريتا من الليل يكيدني، أعوذ بكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر من شر ما ينزل من السماء، ومن شر ما يعرج فيها، ومن شر ما ذرأ في الأرض ومن شر ما يخرج فيها، ومن شر فتن الليل والنهار ومن شر طوارق الليل والنهار،إلا طارقا يطرق بخير يا رحمن)،قال خالد:ففعلت فأذهب الله عني[7].

وفي رواية أخرى، قالت عائشة ـ رضى الله عنها ـ: فلم ألبث إلا ليالى حتى جاء خالد بن الوليد فقال: يا رسول الله بأبي أنت وأمي، والذي بعثك بالحق ما أتممت الكلمات التي علمتني ثلاث مرات، حتى أذهب الله عني ما كنت أجد، ما أبالي لو دخلت على أسد في حبسته بليل[8].

ومن ذلك ما حدّث به عبد الله بن عمرو رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يعلمهم من الفزع: (أعوذ بكلمات الله التامات من غضبه وعقابه وشر عباده، ومن همزات الشياطين، وأن يحضرون).

قال الراوي: فكان عبد الله بن عمرو رضي الله عنه يعلمها من بلغ من ولده ومن لم يبلغ منهم كتبها في صك ثم علقها في عنقه[9].

---

(1) رواه مسلم.

(2) أي شيء من شعير. كذا فسره الترمذي.

(3) البخاري ومسلم.

(4) البخاري ومسلم.

(5) البخاري ومسلم.

(6) الترمذي وقال: حديثٌ حسنٌ صحيح.

(7) رواه عبد الرزاق والبيهقي في الشعب، والطبراني في الكبير، وابن سعد.

(8) رواه الطبراني.

(9) رواه أبو داود والنسائي، ورواه الترمذي وقال: حسن ولفظه: قال رسول الله ﷺ: «إذا فزع أحدكم في النوم فليقل وذكره، وقال فيه: ومن لم يعقل كتبها في صك، ثم علقها في عنقه»، ورواه الحاكم وقال صحيح الإسناد.

ومن ذلك ما روى عن البراء بن عازب ﷺ قال: أتى رسول الله ﷺ رجل يشكو الوحشة، فقال: (أكثر من أن تقول: سبحان الملك القدوس رب الملائكة والروح جلّلت السموات والأرض بالعزة والجبروت)، فقالها الرجل، فذهبت عنه الوحشة[1].

**تأليف:**

ومن الحاجات التي دعا ﷺ لأصحابها، أنه دعا لتأليف القلوب بين الأزواج وزوجاتهم:

ومما يروى في ذلك ما حدّث به ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ أن امرأة شكت زوجها إلى النبي ﷺ فقال: (أتبغضينه؟) قالت: نعم، قال: (أدنيا رؤوسكما)، فوضع جبهتها على جبهة زوجها ثم قال: (اللهم ألف بينهما، وحبب أحدهما إلى صاحبه)، ثم لقيته المرأة بعدُ فقبلت رجليه فقال: (كيف أنت؟ وكيف زوجك؟) قالت: ما طارق ولا تالد ولا ولد أحب إلى منه فقال: (أشهد أنى رسول الله)، قال عمر: وأنا أشهد أنك رسول الله[2].

ومن ذلك ما حدّث به جابر ـ رضى الله عنه ـ أن امرأة كان بينها وبين زوجها خصومة، فأتيا رسول الله ﷺ فقالت المرأة: هذا زوجي، والذي بعثك بالحق، ما في الأرض أبغض إلى منه، وقال الآخر: هذه امرأتي، والذي بعثك بالحق ما في الأرض أبغض إلى منها، فأمرهما رسول الله ﷺ أن يدنوا إليه، ثم دعا لهما، فلم يفترقا من عنده حتى قالت المرأة: والذي بعثك بالحق ما خلق الله شيئا أحب إلى منه، وقال الرجل: والذي بعثك بالحق، ما خلق الله شيئا أحب إلى منها[3].

**هداية:**

ومن الحاجات المهمة التي دعا فيها النبي ﷺ دعوته بالهداية والإيمان، وهي أعظم الدعوات:

ومما يروى في ذلك دعوته ﷺ لأم أبي هريرة، فعن أبي هريرة ﷺ قال: كنت أدعو أمي إلى الإسلام، وهي مشركة، فدعوتها يومًا، فأسمعتني في رسول الله ﷺ ما أكره، فأتيت رسول الله ﷺ وأنا أبكي قلت: يا رسول الله إني كنت أدعو أمي إلى الإسلام، فتأبى على، فدعوتها اليوم، فأسمعتني فيك ما أكره، فادع الله أن يهدي أم أبي هريرة، فقال رسول الله ﷺ: (اللهم اهد أم أبي هريرة).

فخرجت مستبشراً بدعوة نبي الله ﷺ، فلما جئت فصرت إلى الباب، فإذا هو مجاف، فسمعت أمي خشف قدمي، فقالت: مكانك يا أبا هريرة، وسمعتُ خضخضة الماء.

قال: فاغتسلَتْ، ولبسَتْ درعها، وعجلت عن خمارها، ففتحت الباب، ثم قالت: يا أبا هريرة أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

قال: فرجعت إلى رسول الله ﷺ فأتيته، وأنا أبكي من الفرح، فقلت: يا رسول الله أبشر، قد استجاب الله دعوتك، وهدى أم أبي هريرة، فحمد الله وأثنى عليه، وقال خيراً، فقلت: (يا رسول الله ادع الله أن يحببني أنا وأمي إلى عباده المؤمنين ويحببهم إلينا)، فقال رسول الله ﷺ: (اللهم حبب عُبيدك هذا ـ يعني أبا هريرة ـ وأمه إلى عبادك المؤمنين، وحبب إليهم المؤمنين).

قال أبو هريرة: (فما خلق مؤمن يسمع بي ولا يراني إلا أحبني)[4].

ومن ذلك ما ورد من دعائه ﷺ لعمر بن الخطاب ﷺ، فعن ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ

---

(1) رواه ابن السني.

(2) رواه البيهقي.

(3) رواه الطبراني برجال الصحيح غير مقداد بن داود.

(4) رواه مسلم.

أن رسول الله ﷺ ضرب صدر عمر بيده حين أسلم ثلاث مرات، وهو يقول: (اللهم اخرج ما فى صدر عمر من غل وأبدله إيمانا)[1].

ومن ذلك ما ورد من دعائه ﷺ لشيبة بن عثمان بالهداية، فعنه قال: خرجت مع النبى ﷺ يوم حنين، والله، ما خرجت إسلاما، ولكنى خرجت اتقاءَ أن تظهر هوازن على قريش، فوالله، إنى لواقف مع رسول الله ﷺ إذ قلت: يا رسول الله، إنى لأرى خيلا بلقا قال: (يا شيبة، إنه لا يراها إلا كافر)، قال: فضرب بيده فى صدرى، فقال: (اللهم اهد شيبة)، ففعل ذلك ثلاثا، فما رفع النبى ﷺ يده عن صدرى حتى ما أجد من خلق الله أحب إلى منه[2].

ومن ذلك ما ورد من إجابة دعائه ﷺ لأبى كعب رضي الله عنه، فعن سليمان ابن صرد أن أبى بن كعب أتى النبى ﷺ برجلين قد اختلفا فى القراءة كل واحد منهما يقول: أقرأنى رسول الله ﷺ، فاستقرأهما، فقال: (أحسنتما) قال أبى فدخل فى قلبى من الشك أشد مما كنت عليه فى الجاهلية، فضرب رسول الله ﷺ فى صدرى وقال: (اللهم أذهب عنه الشيطان) فارفضضت عرقا، وكأنى أنظر إلى الله فرقا[3].

ومن ذلك ما ورد من دعائه ﷺ بإقبال أهل اليمن وأهل الشام على الاسلام، فعن زيد بن ثابت ـ رضى الله عنه ـ قال: نظر رسول الله ﷺ قبل اليمن فقال: (اللهم أقبل بقلوبهم)، ثم نظر إلى العراق فقال: (اللهم أقبل بقلوبهم)[4].

**أدعية مجربة:**

والنبى ﷺ لم يكتف بهذه الدعوات الخاصة، بل علمنا من الأدعية ما يفى بحاجاتنا المختلفة:

ومن ذلك ما علمه ﷺ لرجل من أصحابه أدبرت عنه الدنيا، فعن ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ أن رجلا قال: يا رسول الله، إن الدنيا أدبرت عنى وتولت، قال له: (فأين أنت من صلاة الملائكة، وتسبيح الخلائق، وبه يرزقون، قل عند طلوع الفجر: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم، أستغفر الله، مائة مرة، تأتيك الدنيا صاغرة).

قال الراوى: فمكث الرجل ثم عاد، فقال: يا رسول الله، لقد أقبلت على الدنيا، فما أدرى أين أضعها[5].

ومن ذلك ما روى من أن أنس بن مالك رضي الله عنه كلم الحجاج، فقال له الحجاج: لولا خدمتك لرسول الله ﷺ وكتاب أمير المؤمنين فيك، كان لى ولك شأن، فقال أنس: أيهات أيهات لما غلظت أرنبتى، وأنكر رسول الله ﷺ صوتى، علمنى كلمات لم يضرنى معهن عتو جبار، ولا عنوته مع تيسير الحوائج، ولقاء المؤمنين بالمحبة فقال الحجاج: لو علمتيهن، فقال: لست لذلك بأهل، فدس إليه الحجاج ابنيه ومعهما مائتا ألف درهم، وقال لهما: الطفا بالشيخ عسى أن تظفرا بالكلمات، فلم يظفرا بها، فلما كان قبل أن يهلك بثلاث، قال لى: دونك هذه الكلمات، ولا تضعها إلا فى موضعها.

فذكر أبان ما أعطاه الله تعالى مما أعطى أنسا من ذهاب ما أذهبه الله عنى مما كنت أجد – الله أكبر الله أكبر، بسم الله على نفسى ودينى، بسم الله على أهلى ومالى، بسم الله على كل شىء

(1) رواه الطبرانى فى الأوسط والحاكم بسند حسن.
(2) رواه البيهقى وابن عساكر.
(3) رواه البيهقى.
(4) رواه البيهقى.
(5) رواه الخطيب فى (رواة مالك).

أعطانى، بسم الله خير الأسماء، بسم الله رب الأرض والسماء، بسم الله الذى لا يضر مع اسمه داء، بسم الله افتتحت وعلى الله توكلت، الله ربى، لا أشرك به أحدا، أسألك اللهم بخيرك من خيرك الذى لا يعطيه غيرك، عز جارك، جل ثناؤك، ولا إله إلا أنت اجعلنى فى عياذك وجوارك من كل سوء، ومن الشيطان الرجيم، اللهم إنى أستجيرك من كل شىء خلقت، وأحترس بك منهن، وأقدم بين يدى، بسم الله الرحمن الرحيم، قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد، ومن خلفى، وعن يمينى، وعن شمالى، ومن فوقى ومن تحتى يقرأ فى هذه الست قل هو الله أحد الى آخر السورة[1].

ومن ذلك ما روى عن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه قال: جاء أعرابى إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، علمنى كلاما أقوله، قال: (قل لا إله إلا الله وحده لا شريك له، الله أكبر كبيرا، والحمد لله كثيرا، وسبحان الله رب العالمين، لا حول ولا قوة إلا بالله العزيز الحكيم)، قال: فهؤلاء لربى، فما لى؟ قال: (قل: اللهم اغفر لى وارحمنى، وارزقنى، وعافنى)[2].

ومن ذلك ما روى عن عمران بن حصين ـ رضى الله عنهما ـ أن رسول الله ﷺ علم أبا حصين كلمتين يدعو بهما: اللهم ألهمنى رشدى وأعذنى من شر نفسى[3].

ومن ذلك ما روى عن عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ قال: علمنى رسول الله ﷺ قال: (اللهم اجعل سريرتى خيرا من علانيتى، واجعل علانيتى صالحة، اللهم إنى أسألك من صالح ما تؤتى الناس من المال والأهل والولد غير الضال ولا المضل)[4].

ومن ذلك ما روى عن العباس ـ رضى الله عنه ـ قال: قلت: يا رسول الله، علمنى شيئا أسأل الله تعالى، قال: (سل الله العافية)، فمكثت أياما، ثم جئت فقلت: يا رسول الله علمنى شيئا أسأل الله تعالى، قال: (يا عباس، يا عم رسول الله، سلوا الله العافية فى الدنيا والآخرة)[5].

ومن ذلك ما روى عن بريدة ـ رضى الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: (ألا أعلمك كلمات، من يرد الله به خيرا يعلمهن إياه)، ثم علمه إياهن (اللهم إنى ضعيف فقو فى رضاك ضعفى، وخذ إلى الخير بناصيتى، واجعل الإسلام منتهى رضاى، اللهم إنى ضعيف فقونى، وإنى ذليل فأعزنى، وإنى فقير فارزقنى)[6].

ومن ذلك ما علمه ﷺ لفاطمة الزهراء ـ رضى الله عنها ـ فعن أنس ـ رضى الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ لفاطمة ـ رضى الله عنها ـ:(ما يمنعك أن تسمعى ما أوصيك به أن تقولى إذا أمسيت: يا حى يا قيوم برحمتك أستغيث، أصلح لى شأنى كله، ولا تكلنى إلى نفسى طرفة عين)[7].

ومن ذلك ما علمه ﷺ لأبى بكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ، فعن عبد الله بن عمرو ـ رضى الله عنه ـ أن أبا بكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ قال: يا رسول الله، علمنى كلمات أقولهن إذا أصبحت وإذا أمسيت، قال:(قل: اللهم فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، رب كل

---

(1) رواه ابن سعد.
(2) رواه مسلم.
(3) رواه الترمذى.
(4) رواه الترمذى وقال: غريب.
(5) رواه الترمذى وقال: حديث صحيح.
(6) رواه ابن أبى شيبة والحاكم، وصححه.
(7) رواه النسائى والطبرانى برجال الصحيح.

شيء ومليكه، أشهد أن لا إله إلا أنت، أعوذ بك من شر نفسي، ومن شر الشيطان وشركه، وأن أقترف على نفسي سوءا، أو أجره إلى مسلم، إذا أصبحت، وإذا أمسيت، وإذا أخذت مضجعك)[1].

ومن ذلك ما روى عن أبي بكر - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: (قل: اللهم إني ظلمت نفسي ظلما كثيرا، وإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغفر لي مغفرة من عندك، وارحمني، إنك أنت الغفور الرحيم)[2].

ومن ذلك ما علمه ﷺ لبعض بناته - رضي الله عنهن - فقد روى عن بعض بنات النبي ﷺ - رضي الله عنهن - أن النبي ﷺ كان يعلمها فيقول: (قولي حين تصبحين وحين تمسين: سبحان الله وبحمده، لا قوة إلا بالله، ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، أعلم أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علما، فإنه من قالها حين يصبح حفظ حتى يمسي، ومن قالها حين يمسي حفظ حتى يصبح)[3].

***

(1) رواه أحمد والبخاري في الأدب وأبو داود والترمذي والنسائي والحاكم وصححه.

(2) رواه البخاري ومسلم.

(3) رواه أبو داود والنسائي.

## 3 - بركات

قال رجل من الجمع: إن كل ما ذكرته من حاجات له قيمته، ولكن أكثره مرتبط بأحوال معينة، فهل ورد عن محمد أدعية شاملة جامعة يمتد تأثيرها؟

قال عبد القادر: أنت تريد الأدعية المرتبطة بالبركة إذن؟

قال الرجل: وما هذه الأدعية؟

قال عبد القادر: هذه الأدعية تجعل كل ما دعى له بها مباركا ذا خير كثير.

قال الرجل: فهل روى عن محمد شيء منها؟

قال عبد القادر: أجل.. وقد أكدت الأيام استجابة الله تعالى لما دعا به نبيه، وسأذكر لكم منها ما تقر به أعينكم، وتعلمون القيمة العظمى التي تحملها دعوات النبي ﷺ:

فممن دعا لهم النبي ﷺ بالبركة عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه، فقد روى أن رسول الله ﷺ قال له: (بارك الله لك)[1].

وقد ذكر عبد الرحمن إجابة دعوة رسول الله ﷺ، فقال: فلقد رأيتني، ولو رفعت حجراً لرجوت أن أصيب تحته ذهبًا أو فضة[2].

وقد فتح الله له أبواب الرزق، ومنّ عليه ببركات من السماء والأرض، وكان حين قدم المدينة فقيراً لا يملك شيئًا، فآخى رسول الله ﷺ بينه وبين سعد بن الربيع الأنصاري ـ رضي الله عنه ـ، فقال سعد لعبد الرحمن: إن لي زوجتين فاختر أجملهما أطلقها، ثم تعتد ثم تتزوجها، وإن لي من المال كذا وكذا فخذ منه ما شئت. فقال عبد الرحمن: لا حاجة لي في ذلك، بارك الله لك في زوجتيك ومالك، ثم قال: دلوني على السوق[3].

فصار يتعاطى التجارة، وقد رزقه الله في زمن قريب مالاً كثيراً، ببركة دعائه ﷺ، حتى إنه لما توفي بالمدينة ـ سنة إحدى وثلاثين أو اثنتين وثلاثين ـ أخذت كل زوجة من زوجاته الأربع ربع الثمن ثمانين ألفًا، وقيل: إن نصيب كل واحدة كان مائة ألف، وقيل: بل صولحت إحداهن على نيف وثمانين ألف دينار، وأوصى بألف فرس وخمسين ألف دينار في سبيل الله، وأوصى بحديقة لأمهات المؤمنين ـ رضي الله عنهن ـ بيعت بأربعمائة ألف، وأوصى لمن بقي من أهل بدر لكل رجل بأربعمائة دينار، وكانوا مائة، فأخذوها، وهذا كله غير صدقاته الفاشية في حياته، وعطاءاته الكثيرة، وصلاته الوفيرة؛ فقد أعتق في يوم واحد ثلاثين عبداً، وتصدق مرة بعير[4]، وكانت سبعمائة بعير، وردت عليه، وكان أرسلها للتجارة، فجاءت تحمل من كل شيء، فتصدق بها وبما عليها من طعام وغيره بأحلاسها وأقتابها.

بل ورد أنه تصدق مرة بشطر ماله، وكان الشطر أربعة آلاف، ثم تصدق بأربعين ألفًا، ثم تصدق بأربعين ألف دينار، ثم تصدق بخمسمائة فرس في سبيل الله، ثم بخمسمائة راحلة.

وممن شملتهم دعوات النبي ﷺ بالبركة أنس بن مالك رضي الله عنه، فقد كان دعاؤه ﷺ لأنس بن مالك سببا في أن زاد أولاده عن المائة، وزاد عمره عن المائة، وزاد ماله عن المائة ألف.

وقد حدثنا أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ عن قصة ذلك، فقال: جاءت أم سليم، وهي أم

---

(1) رواه البخاري.

(2) رواه ابن سعد والبيهقي.

(3) رواه البخاري.

(4) وهي الجمال التي تحمل الميرة.

أنس، رضى الله عنهما، إلى رسول الله ﷺ وقد أزرتني بخمارها، وردَّتني ببعضه، فقالت: يا رسول الله هذا أُنيس أتيتك به يخدمك فادع الله له، قال: اللهم أكثر ماله وولده. . وفي لفظ: اللهم أكثر ماله وولده وأطِل عمره واغفر له[1].

وقد ذكر أنس ـ رضى الله عنه ـ استجابة الله لدعاء نبيه ﷺ له، فقال: فوالله إن مالى لكثير، وإن ولدى وولد ولدى يتعادون على نحو المائة. . وحدثتني ابنتي أُمَيْنة أنه قد دفن من صلبي إلى مقدم الحجاج البصرة تسعة وعشرين ومائة.

وفي رواية قال: دفنت من صلبي مائة واثنتين، وإن ثمرتي لتحمل في السنة مرتين، ولقد بقيت حتى سئمت الحياة، وأرجو الرابعة.

وكان له بستان يحمل في السنة الفاكهة مرتين، وكان فيها ريحان يجيء منها ريح المسك[2].

وقريب من هذا دعاؤه ﷺ لبهية بنت عبد الله البكرية ـ رضى الله عنها ـ فعنها قالت: وفدت مع أبي إلى النبي ﷺ فبايع الرجال وصافحهم، وبايع النساء ولم يصافحهن، قالت: فنظر إلىّ، فدعاني ومسح برأسي، ودعا لي ولولدى فولد لها ستون ولدا أربعون رجلا وعشرون امرأة[3].

ومنهم السائب بن يزيد، فقد روى أنه ﷺ دعا للسائب بن يزيد، ومسح بيده على رأسه، فطال عمره حتى بلغ أربعًا وتسعين سنة، وهو تام القامة معتدل، ولم يشب منه موضع أصابت يد رسول الله ﷺ، ومتّع بحراسه قواه[4].

وقد ذكر الجعد بن عبد الرحمن بن عوف ـ رضى الله عنه ـ أثر هذه الدعوة، فقال: مات السائب بن يزيد ـ رضى الله عنه ـ وهو ابن أربع وتسعين سنة، وكان جلدا معتدلا، وقال: لقد علمت ما متعت بسمعي وبصرى إلا بدعاء النبي ﷺ[5].

ومنهم النابغة الجعدى، فعن عاصم الليثى ـ رضى الله عنه ـ قال: سمعت النابغة ـ يعنى عبد الله بن قيس الجعدى ـ يقول: أتيت رسول الله ﷺ فأنشدته حتى أتيت إلى قولي:

أتيت رسول الله إذ جاء بالهدى ... ويتلو كتابا واضح الحق نيرا
بلغنا السماء مجدنا وثراؤنا ... وإنا لنرجو فوق ذلك مظهرا

فقال لي: (إلى أين المظهر يا أبا ليلى؟) قال: قلت: إلى الجنة. قال: (كذلك إن شاء الله)، ثم قال:

ولا خير في حلم إذا لم تكن له ... بوادر تحمي صفوه أن يكدرا
ولا خير في جهل إذا لم يكن له ... حليم إذا ما أورد الأمر أصدرا

فقال النبي ﷺ: (أجدت)، وفي لفظ: (صدقت لا يفضض[6] الله فاك)، قال: فبقي عمره أحسن الناس ثغرا، كلما سقطت سنة عادت أخرى مكانها، وكان معمرا[7].

---

(1) رواه البخارى في الدعوات.

(2) رواه الترمذى وغيره، وقال: حديث حسن.

(3) رواه الباوردى.

(4) رواه البخارى كتاب المناقب، ومسلم في الفضائل.

(5) رواه البخارى.

(6) يفضض: أى لا يسقط الله أسنانك وأصله الكسر أى لا يكسر أسنان فيك.

(7) رواه الحافظ السلفى، روى البيهقى عن أبي أمامة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال للنابغة إذ أنشده قصيدته: (لا يفضض الله فاك)، فما سقطت سن.

وفي رواية فكان أحسن الناس ثغرا إذا سقطت له سنة نبتت له أخرى، وعاش عشرين ومائة سنة وما ذهب له سن.

ومنهم جعيل الأشجعي ـ رضى الله عنه ـ فقد قال: غزوت مع رسول الله ﷺ فى بعض غزواته، وأنا على فرس لى عجفاء ضعيفة، قال: فكنت فى أخريات الناس، فلحقنى رسول الله ﷺ وقال: سر يا صاحب الفرس، فقلت: يا رسول الله، عجفاء ضعيفة، قال: فرفع رسول الله ﷺ مخفقة معه، فضربها بها، وقال: (اللهم بارك له).

وقد ذكر إجابة دعوة رسول الله ﷺ، فقال: فلقد رأيتنى أمسك برأسها أن تقدم الناس، ولقد بعت من بطنها باثنى عشر ألفًا[1].

ومنهم عروة بن أبى الجعد المازنى ـ رضى الله عنه ـ فقد أعطاه رسول الله ﷺ ديناراً ليشترى له به شاة، فاشترى به شاتين، وباع إحداهما بدينار، وأتاه بشاة ودينار، فقال له: بارك الله لك فى صفقة يمينك.

وفى رواية: فدعا له بالبركة فى البيع، فكان لو اشترى التراب لربح فيه[2].

ومنهم عروة بن البارقى ـ رضى الله عنه ـ فقد روى أن رسول الله ﷺ دعا له بالبركة فى بيعه، فكان لو اشترى التراب لربح فيه[3].

وقد روى عنه قوله: قال لى رسول الله ﷺ:(بارك الله لك فى صفقة يمينك)، فكنت أقوم بالكناسة[4] فما أرجع الى أهلى حتى اربح أربعين ألفا[5].

ومنهم المقداد بن الأسود ـ رضى الله عنه ـ، فقد حدثت ضباعة بنت الزبير قالت: دعا رسول الله ﷺ للمقداد بن الأسود ـ رضى الله عنه ـ بالبركة، فكانت له غرائر من الورق فى بيت المقداد[6].

ومنهم عمرو بن الحمق، فعنه أنه سقى رسول الله ﷺ لبنا فقال:(اللهم أمتعه بشبابه)، فمرت به ثمانون سنة لم ير الشعرة البيضاء[7].

ومنهم أولاد أبى سبرة ـ رضى الله عنه ـ فعن سبرة أن أباه أتى النبى ﷺ فدعا لولده، فلم يزالوا فى شرف إلى اليوم[8].

ومنهم أم قيس ـ رضى الله عنها ـ، فعنها أنها قالت: توفى ابنى فجزعت، فقلت للذى يغسله: لا تغسل ابنى بالماء البارد فيقتله، فانطلق عكاشة بن محصن إلى رسول الله ﷺ فأخبره بقولها ثم قال:(طال عمرها، فلا تعلم امرأة عمرت ما عمرت)[9].

ومنهم أبو زيد عمرو بن أخطب الأنصارى ـ رضى الله عنه ـ فقد روى عنه أنه قال: استسقى رسول الله ﷺ فأتيته بقدح، فكانت فيه شعرة، فأخذتها، فقال ﷺ:(اللهم جمله).

قال الراوى: فرأيته وهو ابن أربع وتسعين سنة ليس فى لحيته شعرة بيضاء[10].

وفى رواية: قال رسول الله ﷺ:(ادن منى)، فدنوت، فمسح بيده على رأسى ولحيتى، وقال: (اللهم جمله، وأدم جماله)، فبلغ بضعا ومائة سنة، وما فى لحيته بياض إلا نبذة يسيرة، ولقد كان منبسط الوجه حتى مات.

---

(1) رواه البخارى فى التاريخ، والنسائى فى السنن الكبرى، والبيهقى فى الدلائل.

(2) رواه البهقى فى الدلائل.

(3) رواه البيهقى.

(4) الكناسة: مكان بالكوفة.

(5) رواه أبو نعيم.

(6) رواه أبو نعيم فى الدلائل.

(7) رواه ابن أبى شيبة فى (مسنده) وأبو نعيم وابن عساكر.

(8) رواه الطبرانى.

(9) رواه البخارى فى (الأدب) والنسائى.

(10) رواه أحمد وأبو يعلى وابن حبان والطبرانى بسند حسن.

ومنهم حمل أم سليم ـ رضى الله عنها ـ فعن أنس ـ رضى الله عنه ـ قال: اشتكى ابن لأبى طلحة، فمات، وأبو طلحة خارج، فلما رأت امرأته أنه قد مات هيأت شيئا، ونحته من جانب البيت، فلما جاء أبو طلحة فقال: كيف الغلام قالت: هدأت نفسه، وأرجو أن قد استراح.

فظن أبو طلحة أنها صادقة، فلما أصبح اغتسل وكان قد أصابها، فلما أراد أن يخرج قالت: أرأيت أن رجلا أعارك عارية، ثم أخذها منك أجزعت؟ قال: لا، قالت: فإن الله قد أعارك ابنك وقد أخذه منك، فصلى مع النبى ﷺ ثم أخبره لما كان منهما، فقال النبى ﷺ:(بارك الله لكما فى ليلتكما!)، قال: فولدت غلاما فجئت به إلى النبى ﷺ فحنكه ثم مسح بناصيته، وسماه عبد الله، فكانت تلك المسحة غرة فى وجهه، وما كان فى الأنصار ناشئ أفضل منه[1].

ومنهم عبد الله بن هشام ـ رضى الله عنه ـ فعن أبى عقيل أنه كان يخرج به جده عبد الله بن هشام إلى السوق ليشترى الطعام فيتلقاه ابن الزبير وابن عمر فيقولان له: أشركنا، فإن رسول الله ﷺ قد دعا لك بالبركة فيشركهم، فربما أصاب الراحلة كما هى فيبعث بها إلى المنزل[2].

ومنهم حكيم بن حزام ـ رضى الله عنه ـ فقد بعث رسول الله ﷺ حكيم بن حزام بدينار يبتاع له به أضحية فمر بها، فباعها بدينارين فابتاع له أضحية بدينار، وجاء له بدينار، فدعا له أن يبارك له فى تجارته[3].

وروى عن حكيم أنه كان رجلا مجدودا فى التجارة ما باع شيئا قط إلا ربح فيه.

ومنهم حنظلة بن حذيم ـ رضى الله عنه ـ، فعنه قال: وفدت مع جدى حذيم، فقال: يا رسول الله، إن لى بنين ذوى لحى وهذا أصغرهم، فأدنانى رسول الله ﷺ، ومسح على رأسى، وقال:(بارك الله فيك).

قال الذيال: فلقد رأيت حنظلة يؤتى بالرجل الوارم وجهه أو الشاة الوارم ضرعها، فيقول: بسم الله على موضع كف رسول الله ﷺ فيمسحه فيذهب الورم[4].

ومنهم فاطمة بنت رسول الله ﷺ ورضى الله عنها، فعن عمران بن حصين، قال: كنت مع رسول الله ﷺ إذ أقبلت فاطمة ـ رضى الله عنها ـ وقفت بين يديه، فنظر إليها، وقد ذهب الدم من وجهها، وغلبت الصفرة على وجهها من شدة الجوع، فنظر إليها رسول الله ﷺ، فقال:(ادنى يا فاطمة، ثم ادنى يا فاطمة)، فدنت حتى قامت بين يديه، فرفع يده فوضعها على صدرها فى موضع القلادة، وفرج بين أصابعه، ثم قال:(اللهم مشبع الجاعة، ورافع الوضيعة، ارفع فاطمة بنت محمد).

وقد ذكر عمران بعض ما حصل من إجابة، فقال: فنظرت إليها، وقد ذهبت الصفرة من وجهها، وغلب الدم كما كانت الصفرة غلبت على الدم، فلقيتها بعد فسألتها، فقالت: ما جعت بعد ذلك يا عمران[5].

أما رفعة قدرها، فيكفى ما ورد فى فضلها من أنها سيدة نساء العالمين، وما ورد فى الأحاديث من الثناء عليها.

ومنهم سعد بن أبى وقاص ـ رضى الله عنه ـ فقد صار مُجاب الدعوة بسبب دعاء الرسول له، فعنه أن النبى ﷺ قال: اللهم استجب لسعد إذا دعاك، فكان لا يدعو إلا استجيب[6].

---

(1) رواه البخارى ومسلم.

(2) رواه البخارى.

(3) رواه ابن سعد من طريق أبى حصين عن شيخ من أهل المدينة.

(4) رواه الطبرانى وأحمد برجال ثقات.

(5) رواه البيهقى فى الدلائل.

(6) الترمذى، والحاكم صححه.

وقد روى فى هذا عن جابر بن سمرة ـ رضى الله عنـه ـ قال: شكا أهل الكوفة سعداً بن أبى قاص، إلى عمر بن الخطاب فعـزله، واستعمل عليهم عماراً، فشكوا سـعداً حتى ذكروا أنه لا يحسن يصلى، فأرسل إليه فـقال: يا أبا إسحاق، إن هؤلاء يزعمون أنك لا تحسـن تصلى! فقال: أما والله، فإنى كنت أصلى بهم صلاة رسـول الله ﷺ لا أخرم عنها؛ أصلى صلاة العشاء، فـأركد فى الأوليين وأخف فى الأخريـين، قال: ذاك الظن بك يا أبا إسـحاق، وأرسل معـه رجلاً أو رجالاً إلـى الكوفة يسأل عنه أهل الكوفة، فلم يدع مسجداً إلا سأل عنه ويثنون معروفًا، حتى دخل مسجدًا لبنى عبس، فقام رجل منهم يقال له: أسامة بن قتادة يكنى أبا سعدة، فقال: أما إذا نشدتنا فإن سعداً كان لا يـسير بالـسرية ولا يقسم بالسوية، ولا يعدل فى القضيـة. قال سعد: أما والله لأدعون بثلاث: اللهم إن كان عبدك هذا كاذبًا، قام رياءً وسمعة، فأطل عمره وأطل فقره، وعرضه للفتن.

قال عبد الملك بن عمير الراوى عن جابر بن سمرة: فأنا رأيته بعد قد سقط حاجباه على عينيه من الكِبَر، وإنه ليتـعرض للجوارى فى الطرق فيغمـزهن، وكان بعد ذلك إذا سُئل يقول: شيـخ كبير مفتون، أصابتنى دعوة سعد[1].

ومنهم عبد الله بن عـباس ـ رضى الله عنهما ـ الذى صار حبر الأمـة بسبب دعاء النبى ﷺ، فعنه قال: أتى رسول الله ﷺ الخلاء، فوضع له وضـوءاً، فلما خرج قال: من صنع هذا؟ قالوا: ابن عباس، قال: (اللهم فقهه فى الدين)[2].

وعنه قال: إن رسـول الله ﷺ وضع يده على كتفى، ثم قـال: (اللهم فقهـه فى الدين وعلمه التأويل)[3].

وقد استجاب الله لـرسوله ﷺ هذه الدعوة؛ فكان ابن عباس إمامًا يُهتـدى بهداه، ويُقتدى به فى الشريعة والتـفسير؛ بل انتهت إليه علوم الصـحابة قبله حتى قال عبـد الله بن مسعود ـ رضى الله عنه ـ: (لو أن ابن عـباس أدرك أسناننا مـا عاشره أحـد منا)، وكان يقـول: (نعم ترجمـان القرآن ابن عباس)[4].

وقد قيل: خطب الناس ابن عباس فى عـشية عرفة، ففسر لهم سورة البقرة تفـسيراً لو سمعه الروم والترك والديلم لأسلموا.

بالإضافة إلى ذلك كله فقد دعا ﷺ لمن فعل أشيـاء معينة، وقد جرب تأثير دعواته فى ذلك، ومن ذلك ما ورد من إجابة دعائه ﷺ لأمته فى بكورها، فقد حـدث صخر الغامدى قال: قال رسول الله ﷺ: (اللهم بارك لأمتى فى بكورها).

وقد حدث الرواة عن أثر هذه الدعـوة فيه لما التزم ما فـيها، فقالوا: كان صـخر رجلا تاجرا يبعث غلمانه أول النهار فأثرى وكثر ماله، حتى لم يدر أين يضعه[5].

***

ما وصل عبد القادر من حديثه إلى هذا الموضع حتى رأيت النشاط يدب فى المرضى المحيطين حوله، وكلهم يطلب منه أن يدعو الله له، أو يدله كيف يدعو الله، ليخلصه من دائه.

أما بولس، وأنا، فلم نجد إلا أن نخرج.. ومعى بصيص جديد من النور اهتديت به بعد ذلك إلى شمس محمد.

---

(1) رواه البخارى ومسلم.

(2) رواه البخارى مسلم.

(3) رواه الحاكم، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه، وقال الذهبى: صحيح، ورواه البيهقى فى الدلائل.

(4) رواه الحاكم فى المستدرك.

(5) رواه البخارى ومسلم.

■■■■■■■■

# رابعا - نبوءات

■■■■■■■■

فى اليوم الرابع..

اصبح بولس نشيطا غاية النشاط، فقد جاءنى، وهو يحمل محفظته، وقبل أن يحيينى تحية الصباح كعادته، قال لى: اليوم سترى العجب العجاب.. سنستدرك كل ما فاتنا فى الأيام السابقة.

قلت: هل أعددت شيئا جديدا لهؤلاء؟

قال: أجل.. أتيتهم بشيء يكاد يشبه القنبلة النووية.. ولن يقف فى وجهه أحد.

قلت: أين سنذهب اليوم؟

قال: إلى حى راق.. ليس كالأحياء التى ذهبنا إليها فى الأيام السابقة.. فى هذا الحى رجال مثقفون، وسنخاطبهم بالحقائق التاريخية والعلمية التى تجعلهم يسلمون لنا.

قلت: أنت تريد أن تلقى عليهم محاضرة إذن؟

قال: يمكنك أن تقول ذلك.. ولكنى سأسمع منهم أيضا.. لقد شرطوا علينا هذا الشرط، ولا مناص لنا من قبوله.

قلت: ألا تخشى أن يظهر من بينهم مثل ذينك الرجلين؟

قال: عبد القادر وعبد الحكيم!؟

قلت: أجل.. أخاف أن يفعلا بنا ما فعلاه فى الأيام السابقة.

قال بكل ثقة: بل أتمنى أن يحضرا.. ولو كان لدى عنوانهما لدعوتهما للحضور.

قلت: فأنت واثق إذن مما ستقوله؟

قال: كل الثقة.. ولذلك سترى من العجائب اليوم ما فاتك أن تراه فى الأيام السابقة.

نظر إلى عينى، فرأى فيهما بعض الشك، فقال: أنت محتار فى هذه الثقة العجيبة التى أبديها لك.

قلت: أجل.. أخاف أن تكون نوعا من الغرور.

قال: لا تخف.. لقد جربت هذا النوع من الأسلحة سابقا.. وقد كان له مفعوله السحرى.

قلت: أنا لا أحب تعابيرك هذه.. فنحن مبشرون لا محاربون.

قال: أحيانا يختلط التبشير بالحرب.. عندما تجد من يقف فى وجه تبشيرك تضطر إلى أن تستعمل معه أساليب المحاربين.

قلت: ولكن المسيح جاء بالسلام.

قال: السلام فى عرفنا ليس كالسلام المتعارف عليه.. إنه سلام قد يستخدم الحرب، وقد يتسلح بالعداوة.. حتى لو كانت العداوة بين الولد ووالده، والأخ وأخيه.. لاشك أنك تحفظ ما قال المسيح فى هذا.. لقد قال: (لاَ تَظُنُّوا أَنِّي جِئْتُ لأُرْسِيَ سَلاَمًا عَلَى الأَرْضِ. مَا جِئْتُ لأُرْسِيَ سَلاَمًا، بَلْ سَيْفًا فَإِنِّي جِئْتُ لأَجْعَلَ الإِنْسَانَ عَلَى خِلاَفٍ مَعَ أَبِيهِ، وَالْبِنْتَ مَعَ أُمِّهَا، وَالْكَنَّةَ مَعَ حَمَاتِهَا، وهكَذَا يَصِيرُ أَعْدَاءَ الإِنْسَانِ أَهْلُ بَيْتِهِ) (إنجيل متى:10).

قال ذلك، ثم أخذ بيدى، وقال: هيا بنا.. فالحضور ينتظرون قدومنا على أحر من الجمر.

امتطينا سيارتنا الفخمة، وسرنا نحو ذلك الحى الراقى..

كان الجمع جالسا ينتظر القس بلهفة وشوق.. فما إن دخل، ودخلت معه حتى امتلأت القاعة بالتصفيق الحار.

جلسنا على المنصة، وراح صاحبي بولس يلقى قنبلته الموعودة، والتى بدأها بقوله: أنا لا أحب المحاضرة الجافة التى تلقن العقول دون أن تدع لها فرصة للحوار.. كما يفعله الأئمة فى المساجد حين يستأثرون بالمنابر ليلقوا ما شاءت لهم عقولهم أو أهواؤهم أن يلقوه.

لذلك سيكون حديثى مفتوحا.. وإن شئتم فاعتبروا جلستنا هذه جلسة مذاكرة لا جلسة محاضرة..

سر الحضور لقوله هذا.. وسر أكثر لما رآه من سرورهم.

بدأ حديثه بقوله: لا شك أنكم تعلمون بأن الغيب لا يعلمه إلا الله.. القرآن يقول هذا.. فهو يصرح كل مرة بقوله: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ ... (٥٩)﴾ [الأنعام]، وبقوله: ﴿قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (٦٥)﴾ [النمل]، وبقوله: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦)﴾ [الجن].

حتى محمد.. القرآن يأمره بأن يقول: ﴿قُل لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلا تَتَفَكَّرُونَ (٥٠)﴾ [الأنعام].

بل إنه يأمره بأن يردد بكل تواضع قوله: ﴿قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلا ضَرًّا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١٨٨)﴾ [الأعراف]

ويأمره أن يرد على المخالفين المكذبين له بقوله: ﴿وَيَقُولُونَ لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ (٢٠)﴾ [يونس].

ثم أفاض يتحدث عن هذا بإطناب طويل، وقد تعجبت كثيرا من طرح بولس هذه الطروحات فى هذا المقام.. إنها طروحات عقلانية صحيحة..وقد سرت الجمع الحاضر، ولم أر من يرفع يده ليخالفها.

لكنى لم أع ما يريد من خلالها إلا بعد أن قال: فالتنبؤ بالغيب إذن معجزة.. ومحمد ـ كما ينص القرآن ـ ينفيها عن نفسه، بل ينفيها عنه قرآنه.

هذا هو الشق الأول من المعادلة التى نريد طرحها عليكم.. احفظوها، فسنعود إليها.

***

# 1 - نبوءات من الكتاب المقدس

ألقى بولس نظرة إلى الحضور، ثم ابتسم ابتسامة عريضة، وقال: لاشك أنكم تتساءلون عن الشق الثانى..

الشق الثانى يعتمد على الكتاب المقدس.. نحن قوم نحب العدل.. لقد رجعنا إلى القرآن.. ولكنا لا ينبغى أن ننسى الكتاب المقدس، فهو أيضا كلمة الله.

لنسمع ما يقول الكتاب المقدس، وقبل ذلك نتساءل: كيف عرف أهل القرن المسيحى الأول فى فلسطين المسيح؟.. وهل تحققت فى المسيح نبوات سابقة لمجيئه لعالمنا؟.. وهل تنبأ نبوءات تمّ تحقيقها؟

سأل هذه الأسئلة، ثم راح بمنهجه الذى تعودت عليه، والذى تقترن فيه لغة الكتاب المقدس بلغة العصر يقول: لاشك أنكم تعرفون الرياضيات.. بمبادئها البسيطة والعقلية.

قال بعض الحضور: أجل.. ونحب أن يقترن حديثك بها، فهى منطق عقلى لا شك فى قبوله.

قال بولس: سأستعمل الرياضيات إذن لأحلل بعض النبوءات التى وردت فى الكتاب المقدس بخصوص المسيح بطريقة حسابية.

لنتأمل هذه النبوءات، ثم ندرس إمكانية تحقيق هذه النبوءات بالصدفة.

توجه إلى الحضور بكل ثقة، وقال: سأضرب لكم مثالا لنرى فيه علاقة لغة الرياضيات بما نريد إثباته.

فلنفرض أن أحدكم يملك عشرة قمصان من ألوان مختلفة، أعرفها أنا وأصدقائى، ولنفترض أنى سأقول للأصحاب: إنك غداً سترتدى القميص الأحمر.. فى اليوم التالى تجىء وقد لبست قميصًا أحمر، فأهتف بفرح: (انظروا! إنى نبى!)، لاشك أنكم ستقولون:(كان هذا صدفة، فلديك فرصة نجاح واحدة من عشرة، وقد أفلحتَ هذه المرة).

ولأفترض أن لديك خمس قبعات مختلفة، وأنك تمتلك ثلاثة أزواج من الأحذية من ألوان مختلفة.

إن لغة الرياضيات تعطينى فرصة من عشر فرص، لأتنبأ بصواب لون قميصك، وعندى فرصة من خمس لأتنبأ بصواب لون قبعتك، وعندى فرصة من ثلاث لأتنبأ بصواب لون حذائك، ولكن فرص صوابى فى التنبؤ بهذه كلها معًا يكون واحداً من عشرة فى واحد من خمسة فى واحد من ثلاثة بمعنى فرصة بين 150 فرصة.

قال ذلك، ثم توجه إلى الحضور قائلا: لاشك أنكم تستوعبون ما أقول.. فهذا ما تنص عليه الرياضيات.

قال أحدهم: أجل.. فأنت بين جمهور مثقف يعى كل ما تذكره.. إنك تشير إلى فرع من الرياضيات يسمى (الاحتمالات)، وله قوانينه التى نصصت أنت هنا على بعضها.

قال بولس: سأنطلق من هذه المقدمة لأبرهن لكم عن مدى الصدق الذى تحمله النبوءات التى وردت فى الكتاب المقدس.. وسأستبق الأحداث لأقول: إن فرصة انطباق تلك النبوءات كان فرصة واحدة فى 2.78 فى 10 أس 28.. أو بتعبير مبسط فرصة واحدة فى 10 آلاف مليون مليون مليون مليون فرصة.

ألا ترون هذا العدد كافيا لإثبات معجزة نبوءات الكتاب المقدس!؟

قال رجل من الحاضرين: لا شك فى ذلك.. ولكن كيف ذلك؟

**نبوءات عن المسيح:**

قال بولس: سأبرهن لكم على ذلك.. نحن نؤمن بالعقل، ولا نستعمل غير العقل.

أنتم تعلمون أن نسخ الكتاب المقدس وجدت قبل المسيح.

قالوا: أجل..

قال بولس: وكلها تتحدث عن المسيح.. اصبروا.. وسأبرهن لكم على ذلك.

أول نبوءة سأقرأها عليكم يعود تاريخها إلى عام 750 ق. م، تتحدث هذه النبوءة عن عذراء ستلد وليداً يكون عجيباً حتى إنه يُدعَى (عمانوئيل) ومعناه (الله معنا).. اسمعوا ما تقول نبوة إشعياء (7:14)

فتح الكتاب المقدس، وراح يقرأ: (وَلَكِنْ يُعْطِيكُمُ السَّيِّدُ نَفْسُهُ آيَةً: هَا الْعَذْرَاءُ تَحْبَلُ وَتَلِدُ ابْنًا وَتَدْعُو اسْمَهُ عِمَّانُوئِيل).

وتخبر نبوءة ثانية أن المسيح سيكون من نسل داود، تقول نبوءة إرميا (23:5 و6): (هَا أَيَّامٌ تَأْتِي يَقُولُ الرَّبُّ وَأُقِيمُ لِدَاوُدَ غُصْنَ بِرٍّ، فَيَمْلِكُ مَلِكٌ وَيَنْجَحُ، وَيُجْرِي حَقًّا وَعَدْلاً فِي الأَرْضِ فِي أَيَّامِهِ يُخَلَّصُ يَهُوذَا وَيَسْكُنُ إِسْرَائِيلُ آمِنًا، وَهذَا هُوَ اسْمُهُ الَّذِي يَدْعُونَهُ بِهِ: الرَّبُّ بِرُّنَا).

أتدرون ما تاريخ هذه النبوءة؟

قال ذلك، ثم أجاب نفسه بنفسه: إن تاريخها يعود إلى عام 600 ق.م.

ثم توجه إلى الحضور قائلا: لا شك أنكم تتساءلون عن مدى تحقق هذه النبوءة.. إنه مائة بالمائة.

اسمعوا لما ورد فى تحقيق النبوءتين من لوقا (1:26-38): (وَفِي الشَّهْرِ السَّادِسِ أُرْسِلَ جِبْرَائِيلُ الْمَلاَكُ مِنَ اللهِ إِلَى مَدِينَةٍ مِنَ الْجَلِيلِ اسْمُهَا نَاصِرَةُ، إِلَى عَذْرَاءَ مَخْطُوبَةٍ لِرَجُل مِنْ بَيْتِ دَاوُدَ اسْمُهُ يُوسُفُ وَاسْمُ الْعَذْرَاءِ مَرْيَمُ فَقَالَ لَهَا الْمَلاَكُ: (لا تَخَافِي يَا مَرْيَمُ، لأَنَّكِ قَدْ وَجَدْتِ نِعْمَةً عِنْدَ اللهِ وَهَا أَنْتِ سَتَحْبَلِينَ وَتَلِدِينَ ابْنًا وَتُسَمِّينَهُ يَسُوعَ هذَا يَكُونُ عَظِيمًا، وَابْنَ الْعَلِيِّ يُدْعَى، وَيُعْطِيهِ الرَّبُّ الإِلهُ كُرْسِيَّ دَاوُدَ أَبِيهِ، وَيَمْلِكُ عَلَى بَيْتِ يَعْقُوبَ إِلَى الأَبَدِ، وَلَا يَكُونُ لِمُلْكِهِ نِهَايَةٌ).

فَقَالَتْ مَرْيَمُ لِلْمَلاَكِ: (كَيْفَ يَكُونُ هذَا وَأَنَا لَسْتُ أَعْرِفُ رَجُلاً؟) فَأَجَابَ الْمَلاَكُ: (اَلرُّوحُ الْقُدُسُ يَحِلُّ عَلَيْكِ، وَقُوَّةُ الْعَلِيِّ تُظَلِّلُكِ، فَلِذلِكَ أَيْضًا الْقُدُّوسُ الْمَوْلُودُ مِنْكِ يُدْعَى ابْنَ اللهِ) فَقَالَتْ مَرْيَمُ: (هُوَذَا أَنَا أَمَةُ الرَّبِّ لِيَكُنْ لِي كَقَوْلِكَ) فَمَضَى مِنْ عِنْدِهَا الْمَلاَكُ.

لتدركوا قيمة هذه النبوءة يجب أن نعرف كم عدد اليهود الذين ينتمون لعائلة الملك داود وقتها..

والجواب بسيط: لقد كانت عائلة داود واحدة من مئات عائلات سبط يهوذا، ولكن لا بد أن العائلة.. وهى عائلة مَلَكِيَّة.. قد صاهرت بقية عائلات سائر الأسباط، واختلطت بها، وافتخر هؤلاء أنهم من نسل داود، لأسباب سياسية.

لا بأس نحن هنا سنقتصر على 200.. سنفرض أن فرصة تحقيق هذه النبوءة هى واحد فى 200 فقط.. أى 2 فى 10 أس 2.

هذه نبوءة واحدة استنتجنا منها هذا العدد الضخم..

اصبروا.. فهناك نبوءات أخرى.. ولكن احفظوا هذا الرقم، أو سجلوه، سنحتاج إليه..

سكت قليلا، ثم قال: هناك نبوءة أخرى تخبر أنه يولد فى بيت لحم حاكمٌ أبدى، لقد جاء هذا فى نبوءة ميخا (5:2).

فتح الكتاب المقدس، وراح يقرأ: (أَمَّا أَنْتِ يَا بَيْتَ لَحْمَ أَفْرَاتَةَ، وَأَنْتِ صَغِيرَةٌ أَنْ تَكُونِي بَيْنَ أُلُوفِ يَهُوذَا، فَمِنْكِ يَخْرُجُ لِي الَّذِي يَكُونُ مُتَسَلِّطًا عَلَى إِسْرَائِيلَ، وَمَخَارِجُهُ مُنْذُ الْقَدِيمِ مُنْذُ أَيَّامِ الأَزَلِ).

ثم توجه إلى الحضور قائلا: أتدرون ما تاريخ هذه النبوءة.. إن تاريخها يعود إلى عام 750 ق. م.

لا شك أنكم تتساءلون عن نسبة تحققها..

لقد تحققت هذه النبوة بالرغم من أن يوسف ومريم كانا يسكنان فى الناصرة فى شمال البلاد، لأن أغسطس قيصر أمر بإحصاء السكان، كل واحد فى مدينته الأصلية، فكان لا بد أن يسافر يوسف ومريم خطيبته إلى بيت لحم فى جنوب البلاد.

لقد جاء فى (لوقا 2:1-7): (وَفِي تِلْكَ الأَيَّامِ صَدَرَ أَمْرٌ مِنْ أُوغُسْطُسَ قَيْصَرَ بِأَنْ يُكْتَتَبَ كُلُّ الْمَسْكُونَةِ فَذَهَبَ الْجَمِيعُ لِيُكْتَتَبُوا، كُلُّ وَاحِدٍ إِلَى مَدِينَتِهِ فَصَعِدَ يُوسُفُ أَيْضًا مِنَ الْجَلِيلِ مِنْ مَدِينَةِ النَّاصِرَةِ إِلَى الْيَهُودِيَّةِ، إِلَى مَدِينَةِ دَاوُدَ الَّتِي تُدْعَى بَيْتَ لَحْمٍ، لِكَوْنِهِ مِنْ بَيْتِ دَاوُدَ وَعَشِيرَتِهِ وَبَيْنَمَا هُمَا هُنَاكَ تَمَّتْ أَيَّامُهَا لِتَلِدَ فَوَلَدَتِ ابْنَهَا الْبِكْرَ).

أغلق الكتاب المقدس، ثم قال: إن هذه النبوءة تذكر أن المسيح سيولد فى بيت لحم، وهذا يجعلنا نتساءل: كم طفلاً، من بين كل أطفال العالم، وُلد فى بيت لحم؟ فى وقت إعلان النبى ميخا لهذه النبوءة.

لقد كان عدد سكان العالم حينها بليونين، ومتوسط عدد سكان بيت لحم 7 آلاف فتكون فرصة تحقيق النبوة واحداً من 280 ألف فرصة.. أو بعبارة أخرى: واحد فى 2.8 فى 10 أُس 5.

هذا عدد ضخم.. ولكنا مع ذلك لا نكتفى به..

هناك نبوءة أخرى تخبر عن رسول يهيئ طريق المسيح..

فتح الكتاب المقدس وراح يقرأ من (ملاخى 3:1): (هَا أَنَذَا أُرْسِلُ مَلاَكِي فَيُهَيِّئُ الطَّرِيقَ أَمَامِي وَيَأْتِي بَغْتَةً إِلَى هَيْكَلِهِ السَّيِّدُ الَّذِي تَطْلُبُونَهُ وَمَلاَكُ الْعَهْدِ الَّذِي تُسَرُّونَ بِهِ هُوَ ذَا يَأْتِي قَالَ رَبُّ الْجُنُودِ).

ثم توجه إلى الحضور قائلا: أتدرون ما تاريخ هذه النبوءة؟

ثم أجاب نفسه بنفسه: إن تاريخها يعود إلى عام 400 ق م.

وفي نبوءة أخرى تؤكد هذه النبوءة يقول إشعياء (40:3): (صَوْتُ صَارِخٍ فِي الْبَرِّيَّةِ: أَعِدُّوا طَرِيقَ الرَّبِّ قَوِّمُوا فِي الْقَفْرِ سَبِيلاً لإِلَهِنَا).

لقد تحققت هذه النبوءة مائة فى المائة..

اسمعوا ما ورد فى (يوحنا 1:19-30): (وَهذِهِ هِيَ شَهَادَةُ يُوحَنَّا، حِينَ أَرْسَلَ الْيَهُودُ مِنْ أُورُشَلِيمَ كَهَنَةً وَلاَوِيِّينَ لِيَسْأَلُوهُ: (مَنْ أَنْتَ؟) فَاعْتَرَفَ وَلَمْ يُنْكِرْ، وَأَقَرَّ أَنِّي لَسْتُ أَنَا الْمَسِيحَ فَقَالُوا لَهُ: (مَنْ أَنْتَ، لِنُعْطِيَ جَوَابًا لِلَّذِينَ أَرْسَلُونَا؟ مَاذَا تَقُولُ عَنْ نَفْسِكَ؟) قَالَ: (أَنَا صَوْتُ صَارِخٍ فِي الْبَرِّيَّةِ: قَوِّمُوا طَرِيقَ الرَّبِّ، كَمَا قَالَ إِشَعْيَاءُ النَّبِيُّ) وَفِي الْغَدِ نَظَرَ يُوحَنَّا يَسُوعَ مُقْبِلاً إِلَيْهِ، فَقَالَ: (هُوَذَا حَمَلُ اللهِ الَّذِي يَرْفَعُ خَطِيَّةَ الْعَالَمِ هذَا هُوَ الَّذِي قُلْتُ عَنْهُ يَأْتِي بَعْدِي، رَجُلٌ صَارَ قُدَّامِي، لأَنَّهُ كَانَ قَبْلِي).

طبعا.. أنتم تتساءلون عن مدى تحقق هذه النبوءة.

يحق لكم ذلك.. فنحن لا نتعامل إلا بالمنطق الرياضى..

ولنعرف ذلك نسأل: بين المولودين فى العالم، كم شخصاً كان مسبوقاً بآخر يهيئ له الطريق؟.. يمكننا أن نقترح ـ من باب التواضع ـ أن واحداً بين ألف كان قائداً مسبوقاً بمن يهيئ له الطريق، فتكون فرصة تحقيق هذه النبوة واحداً فى 10 أُس 3.

ثم تساءل بينه وبين نفسه.. أليس هذا عجيبا؟

ثم يجيب نفسه بنفسه: بلى.. إنه عجيب غاية العجب.

ثم توجه إلى الحضور قائلا: ولكن مع ذلك هناك نبوءات أخرى..

فتح الكتاب المقدس، وقال: هناك نبوءة أخرى تخبر أن المسيح سيجرى معجزات كثيرة.. لقد جاء فى نبوة إشعياء (35:4-6) أن المسيح سيجري معجزات كثيرة.. اسمعوا..

راح يقرأ:(قُولُوا لِخَائِفِي الْقُلُوبِ: (تَشَدَّدُوا لا تَخَافُوا هُوَ ذَا إِلَهُكُمُ الانْتِقَامُ يَأْتِي جَزَاءُ اللهِ هُوَ يَأْتِي وَيُخَلِّصُكُمْ) حِينَئِذٍ تَتَفَتَّحُ عُيُونُ الْعُمْيِ، وَآذَانُ الصُّمِّ تَتَفَتَّحُ حِينَئِذٍ يَقْفِزُ الأَعْرَجُ كَالإِيَّلِ وَيَتَرَنَّمُ لِسَانُ الأَخْرَسِ).

أنتم تتساءلون عن مدى تحقق هذه النبوءة.. يحق لكم ذلك.

طبعا من الصعب معرفة الرقم بدقة.. ففى الكتاب المقدس الحديث عن أربعة أنبياء أجروا الكثير من المعجزات، هم موسى وإيليا وأليشع والمسيح، ولو أن المسيح أجرى معجزات أكثر من الثلاثة الآخرين مجتمعين معًا.. فمعجزات المسيح بأكثر من ألف معجزة..

ولكن مع ذلك سنرجع إلى الإسلام لنعرف الرقم بدقة.. فالمسلمون يعتقدون بوجود 124 ألف نبى، ولهذا سنستخدم هذا الرقم، ونقول: إن المسيح كان واحداً من 124 ألفًا.. إذاً ففرصة تحقيق هذه النبوة هى 1,24 فى 10 أسّ 5.

هذا عدد ضخم.. ولكن مع ذلك.. هناك نبوءات أخرى.

اسمعوا هذه النبوءة التى تتحدث عن وقوف إخوته ضده بالرغم من المعجزات الكثيرة التى جرت على يده.

فتح الكتاب المقدس، وراح يقرأ من (مزمور 69:8):(صِرْتُ أَجْنَبِيًّا عِنْدَ إِخْوَتِي وَغَرِيبًا عِنْدَ بَنِي أُمِّي).

إن تاريخ هذا المزمور يعود إلى عام 1000 ق م.

توجه إلى الحضور قائلا: لا شك أنكم تتساءلون عن صحة تحقق هذه النبوءة فى المسيح..

ثم أجاب نفسه: بلى.. لقد تحققت.. اسمعوا ما جاء في (يوحنا 7:3-5): (قَالَ لَهُ إِخْوَتُهُ: (انْتَقِلْ مِنْ هُنَا وَاذْهَبْ إِلَى الْيَهُودِيَّةِ إِنْ كُنْتَ تَعْمَلُ هذِهِ الأَشْيَاءَ فَأَظْهِرْ نَفْسَكَ لِلْعَالَمِ) لأَنَّ إِخْوَتَهُ أَيْضًا لَمْ يَكُونُوا يُؤْمِنُونَ بِهِ).

ثم توجه إلى الحضور قائلا: لا شك أنكم تتساءلون عن نسبة تحقق هذه النبوءة.

وذلك يجعلنا نتساءل: كم رئيس يجد عائلته تقف ضده؟ رؤساء كثيرون يضعون أعضاء عائلتهم فى أماكن القيادة، ورؤساء كثيرون قتلهم أفراد عائلاتهم، ولذلك سنكتفى بأن نقول إن فرصة تحقيق هذه النبوة هو 2 فى 10 أسّ 1.

فتح الكتاب المقدس، وقال: هناك نبوءة تخبر أن المسيح الملك يدخل عاصمته راكبًا حماراً.. لقد جاء في نبوة زكريا (9:9):(ابْتَهِجِي جِداً يَا ابْنَةَ صِهْيَوْنَ، اهْتِفِي يَا بِنْتَ أُورُشَلِيمَ هُوَذَا مَلِكُكِ يَأْتِي إِلَيْكِ هُوَ عَادِلٌ وَمَنْصُورٌ وَدِيعٌ، وَرَاكِبٌ عَلَى حِمَارٍ وَعَلَى جَحْشٍ ابْنِ أَتَانٍ).

ثم توجه إلى الحضور قائلا: أتدرون ما تاريخ هذه النبوءة؟

ثم أجاب نفسه بنفسه: إن تاريخها يعود إلى عام 520 ق م.

لا شك أنكم تتساءلون عن صحة تحقق هذه النبوءة فى المسيح..

يحق لكم ذلك.. والجواب العلمى يحملنا إلى سفر يوحنا (12:12-14)

فتح الكتاب المقدس، وراح يقرأ: (وَفِي الْغَدِ سَمِعَ الْجَمْعُ الْكَثِيرُ الَّذِي جَاءَ إِلَى الْعِيدِ أَنَّ يَسُوعَ آتٍ إِلَى أُورُشَلِيمَ، فَأَخَذُوا سُعُوفَ النَّخْلِ وَخَرَجُوا لِلِقَائِهِ، وَكَانُوا يَصْرُخُونَ: (أُوصَنَّا! مُبَارَكٌ الآتِي بِاسْمِ الرَّبِّ، مَلِكُ إِسْرَائِيلَ!) وَوَجَدَ يَسُوعُ جَحْشًا فَجَلَسَ عَلَيْهِ كَمَا هُوَ مَكْتُوبٌ).

انظروا مدى انطباق هذه النبوءة العظيمة على المسيح..

لقد اختار المسيح أن يركب حماراً، وتحققت الجموع من النبوءة بأن هتفوا له وعاملوه كملك يدخل عاصمته زمن السلام.

ولتعرفوا مدى عمق النبوءة وخطرها يجب أن تعلموا أن الملك داود كان يركب البغال كما في (1 ملوك 1:33).

وهذا يجعلنا نتساءل: كم شخصاً دخل أورشليم كملك راكبًا جحشًا.

سنفترض بكل تواضع: أن نسبة تحقيق النبوءة واحد في 10 أس 2.

ليس ذلك فقط.. هناك نبوءة أخرى تخبر أن الرؤساء والملوك سيدبرون مكيدة للمسيح.. لقد جاء في مزمور (2:1 و2): (لِمَاذَا ارْتَجَّتِ الأُمَمُ وَتَفَكَّرَ الشُّعُوبُ فِي الْبَاطِلِ؟ قَامَ مُلُوكُ الأَرْضِ وَتَآمَرَ الرُّؤَسَاءُ مَعًا عَلَى الرَّبِّ وَعَلَى مَسِيحِهِ).

لا شك أنكم تتساءلون عن مدى تحقق هذه النبوءة في المسيح.. يحق لكم ذلك.

والجوب بسيط: لقد تحققت هذه النبوة مائة بالمائة.. لقد قام ملوك ضد المسيح، كما نقرأ في (لوقا 23: 7 و11): (وَحِينَ عَلِمَ (بيلاطس) أَنَّهُ (المسيح) مِنْ سَلْطَنَةِ هِيرُودُسَ (الملك)، أَرْسَلَهُ إِلَى هِيرُودُسَ فَاحْتَقَرَهُ هِيرُودُسُ مَعَ عَسْكَرِهِ وَاسْتَهْزَأَ بِهِ، وَأَلْبَسَهُ لِبَاسًا لاَمِعًا، وَرَدَّهُ إِلَى بِيلاَطُسَ-(والي القيصر)).

وجاء في (يوحنا 11:47 و53): (فَجَمَعَ رُؤَسَاءُ الْكَهَنَةِ وَالْفَرِّيسِيُّونَ مَجْمَعًا وَقَالُوا: (مَاذَا نَصْنَعُ؟ فَإِنَّ هذَا الإِنْسَانَ يَعْمَلُ آيَاتٍ كَثِيرَةً فَمِنْ ذلِكَ الْيَوْمِ تَشَاوَرُوا لِيَقْتُلُوهُ)).

أغلق الكتاب المقدس، وتوجه للحضور قائلا: لاشك أنكم تتساءلون عن مدى دقة هذه النبوءة وعمقها.. ولمعرفة ذلك نتساءل: كم شخصاً أقام موتى، ثم حكم عليه بالموت؟

والجواب بسيط: ثلاثة فقط يذكرهم الكتاب المقدس هم من أقاموا موتى.

إن هذا يجعلنا نتساءل من جديد: كم شخصاً لم يعملوا إلا خيراً، ومع ذلك قام كل الحكام ضدهم؟

سنكتفي بكل تواضع بتقدير هذه النسبة البسيطة.. 2 في 10 أس 1.

ابتسمت لقوله هذا.. فقد كانت الأرقام تجري في فمه بسهولة ويسر.. وكان يلقيها كما يشاء.. يختار منها ما يشاء، ويدع ما يشاء.

نظرت إليه، فقال: طبعا أنتم تتعجبون من هذه الدقة العجيبة.. ومع ذلك فهناك نبوءات أخرى..

اسمعوا هذه النبوءة التي تخبر أن المسيح سيُصلب.. لقد جاء في (مزمور 22:16): (جَمَاعَةٌ مِنَ الأَشْرَارِ اكْتَنَفَتْنِي ثَقَبُوا يَدَيَّ وَرِجْلَيَّ).

أتدرون ما تاريخ هذه النبوءة؟.. إن هذا المزمور كتبه داود نحو عام 1000 ق.م.

توجه إلى الحضور قائلا: طبعا.. أنتم تتساءلون عن مدى تحقق هذه النبوءة في المسيح..

والجواب العلمي بسيط.. اسمعوا ما جاء في (لوقا 23:33): (وَلَمَّا مَضَوْا بِهِ إِلَى الْمَوْضِعِ الَّذِي يُدْعَى (جُمْجُمَةَ) صَلَبُوهُ هُنَاكَ مَعَ الْمُذْنِبَيْنِ، وَاحِدًا عَنْ يَمِينِهِ وَالآخَرَ عَنْ يَسَارِهِ)،

هذه نبوءة خطيرة.. وهي تجعلنا نتساءل: كم شخصاً صُلب منذ أيام داود إلى يومنا هذا؟

طبعا أنتم تتعجبون من استمرار العد إلى يومنا هذا.. والجواب ببساطة هو أن اليهود لا زالوا إلى اليوم يتطلعون إلى مجيء المسيح.

بالإضافة إلى هذا، فقد كان هناك وسائل إعدام كثيرة.. منها السيف والمقصلة والشنق والرجم، ولم يكن اليهود يستخدمون الصَّلب، بل الرجم، مما يجعل للنبوءة مغزاها الخاص.

ولهذا يمكن أن نقول بكل تواضع كذلك: إن فرصة تحقيق هذه النبوءة هي واحد من 10 آلاف (أو 1 في 10 أسّ 4).

طبعا.. إن هذا عجيب.. ولكن مع ذلك، فإن العجب لا ينتهي..

لقد جاء في نبوءة أخرى أنهم يقتسمون ثيابه، ويلقون قُرعةً على قميصه، كما جاء في (مزمور 22:18): (يَقْسِمُونَ ثِيَابِي بَيْنَهُمْ، وَعَلَى لِبَاسِي يَقْتَرِعُونَ).

لقد تحققت هذه النبوءة مائة في المائة.. لقد جاء في (يوحنا19:23 و24): (ثُمَّ إِنَّ الْعَسْكَرَ لَمَّا كَانُوا قَدْ صَلَبُوا يَسُوعَ، أَخَذُوا ثِيَابَهُ وَجَعَلُوهَا أَرْبَعَةَ أَقْسَامٍ، لِكُلِّ عَسْكَرِيٍّ قِسْمًا، وَأَخَذُوا الْقَمِيصَ أَيْضًا، وَكَانَ الْقَمِيصُ بِغَيْرِ خِيَاطَةٍ، مَنْسُوجًا كُلُّهُ مِنْ فَوْقُ فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: (لاَ نَشُقُّهُ، بَلْ نَقْتَرِعُ عَلَيْهِ لِمَنْ يَكُونُ)).

توجه إلى الحضور قائلا: لاشك أنكم تتساءلون عن مدى دقة هذه النبوءة.

يحق لكم ذلك.. ولمعرفة ذلك يجب أن نقر بأن قسمة ثياب المصلوب كانت عادةً متَّبعة عند العسكر، ولكن وجود قميص منسوج بغير خياطة ليلقوا عليه قرعة لم يكن أمراً معتاداً.. فلهذا نحسب فرصة تحقيق هذه النبوة واحداً في مائة أو 1 في 10 أسّ 2.

لا تتعجبوا.. فهناك نبوءة أخرى تذكر أن المسيح كان باراً إلا أنه حُسب مع الأشرار، وجُعل مع غني عند موته، كما جاء في نبوءة إشعياء (53:9 و12): (وَجُعِلَ مَعَ الأَشْرَارِ قَبْرُهُ، وَمَعَ غَنِيٍّ عِنْدَ مَوْتِهِ عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَعْمَلْ ظُلْمًا، وَلَمْ يَكُنْ فِي فَمِهِ غِشٌّ وَأُحْصِيَ مَعَ أَثَمَةٍ).

لاشك أنكم تتساءلون عن مدى انطباق هذه النبوءة على المسيح.. يحق لكم ذلك.

فتح الكتاب المقدس، وراح يقرأ من (مرقس 15:27): (وَصَلَبُوا مَعَهُ لِصَّيْنِ، وَاحِدًا عَنْ يَمِينِهِ وَآخَرَ عَنْ يَسَارِهِ).

ثم ألقى نظرة على الحضور، ثم راح يقرأ من (متى 27:57-60): (فَصَرَخَ يَسُوعُ أَيْضًا بِصَوْتٍ عَظِيمٍ، وَأَسْلَمَ الرُّوحَ وَلَمَّا كَانَ الْمَسَاءُ، جَاءَ رَجُلٌ غَنِيٌّ مِنَ الرَّامَةِ اسْمُهُ يُوسُفُ - وَكَانَ هُوَ أَيْضًا تِلْمِيذًا لِيَسُوعَ فَهذَا تَقَدَّمَ إِلَى بِيلاَطُسَ وَطَلَبَ جَسَدَ يَسُوعَ فَأَمَرَ بِيلاَطُسُ حِينَئِذٍ أَنْ يُعْطَى الْجَسَدُ فَأَخَذَ يُوسُفُ الْجَسَدَ وَلَفَّهُ بِكَتَّانٍ نَقِيٍّ، وَوَضَعَهُ فِي قَبْرِهِ الْجَدِيدِ الَّذِي كَانَ قَدْ نَحَتَهُ فِي الصَّخْرَةِ).

ثم توجه إلى الحضور قائلا: إن هذه النبوءة تجعلنا نتساءل: كم نسبة من يُصلبون وهم أبرياء؟.. أتمنى أن تكون نسبة قليلة، واحداً من كل 10.

والسؤال الثاني: كم نسبة من يُصلبون ويُدفنون مع الأغنياء؟

ثم أجاب نفسه: لا شك أن نسبة اللصوص الأغنياء الذين يصلبون قليلة، فلهم أصدقاء ومحامون يدافعون عنهم.. ولهذا سنفترض أن النسبة واحد من ألف (أو 1 في 10 أسّ 3).

لا تتعجبوا.. فهناك نبوءة أخرى تخبر أن المسيح بعد موته يقوم. لقد جاء في إشعياء (53:8-10): (قُطِعَ مِنْ أَرْضِ الأَحْيَاءِ أَمَّا الرَّبُّ فَسُرَّ بِأَنْ يَسْحَقَهُ بِالْحَزَنِ إِنْ جَعَلَ نَفْسَهُ ذَبِيحَةَ إِثْمٍ يَرَى نَسْلاً تَطُولُ أَيَّامُهُ).

ثم توجه إلى الحضور قائلا: طبعا أنتم تتساءلون عن مدى تحقق هذه النبوءة فى المسيح.. يحق لكم ذلك.. اسمعوا.

فتح الكتاب المقدس وراح يقرأ من (لوقا 36:24-43): (وَفِيمَا هُمْ يَتَكَلَّمُونَ بِهذَا وَقَفَ يَسُوعُ نَفْسُهُ فِي وَسَطِهِمْ، وَقَالَ لَهُمْ: (سَلامٌ لَكُمْ!) اُنْظُرُوا يَدَيَّ وَرِجْلَيَّ: إِنِّي أَنَا هُوَ جُسُّونِي وَانْظُرُوا، فَإِنَّ الرُّوحَ لَيْسَ لَهُ لَحْمٌ وَعِظَامٌ كَمَا تَرَوْنَ لِي) فَنَاوَلُوهُ جُزْءًا مِنْ سَمَكٍ مَشْوِيٍّ، وَشَيْئًا مِنْ شَهْدِ عَسَلٍ فَأَخَذَ وَأَكَلَ قُدَّامَهُمْ).

نظر إلى الحضور.. والابتسامة تملأ فمه، وهو يقول: لنكتفى بهذه النبوءات.. ولنعد الآن إلى الحساب.. لاشك أن الكثير منكم سجل حساب الاحتمالات..

نهض واحد من الجمع، وقال: لقد سجلت أنا جميع الاحتمالات، وهى: واحد من 2 فى 10 أس 2 فى 2.8 فى 10 أس 5 فى 10 أس 3 فى 1.24 فى 10 أس 5 فى 2 فى 10 أس 1 فى 10 أس 2 فى 2 فى 10 أس 1 فى 10 أس 4 فى10 أس 1 فى10 أس 3.

نهض آخر، وقال إن مجموع هذا الرقم يعطينا فرصة واحدة فى 2.78 فى 10 أس 28.. أو بعبارة أخرى: إنها فرصة واحدة فى 10 آلاف مليون مليون مليون مليون فرصة.

سكت قليلا، ثم نظر إلى الحضور بخشوع، وقال: هل رأيتم؟.. هل يمكن أن تتحقق هذه النبوءات بالصدفة وحدها؟.. كيف يتفق لرجل، أى رجل، يكون قد عاش منذ كُتبت هذه النبوءات إلى عصرنا الحاضر أن يحقق هذه النبوءات العشر بالصدفة وحدها؟

سنحصل على الإجابة لو أننا قسمنا 10 أس 28 على عدد البشر الذين عاشوا منذ كُتبت تلك النبوات والعدد الذى نعرفه هو 88 بليون إنسان (أو 8,8 فى 10 أسّ 10 الذى سنبسّطه بقولنا 1 فى 10 أسّ 11) وبقسمة هذين العددين يتضح لنا أن الفرصة هى واحد فى عشرة أسّ 17!

طبعاً.. هذه أرقام ضخمة قد يصعب على الخيال تصورها.. ولهذا سأقربها لكم..

لنفترض أننا نأخذ 10 أسّ 17 قطعة عملة من فئة العشرة قروش ونضعها متجاورة على مساحة 700 ألف كيلومتر مربع (وهى مساحة الأردن وسوريا والعراق مجتمعة) إنها ستغطى كل هذه المساحة بعمق متر واحد.

ولندرك قيمة تلك النبوءات، ومدى الإعجاز الذى تحمله نضع علامة على إحدى هذه العملات، ثم نخلطها بالبقية، ثم نطلب من شخص أن يُخرج العملة ذات العلامة من أول مرة.

تخيَّلوا حجم المشكلة التى يعانيها من يكلف بهذا..

إنه لاشك سيحتار من أين يبدأ بالبحث؟.. وما هو احتمال استخراجه قطعة العملة المطلوبة؟ هذه بالضبط مشكلة من يريد تحقيق هذه النبوءات العشر بضربة حظ واحدة! إذًا لا يمكن أن يكون هؤلاء الأنبياء قد تكلموا بحكمتهم الذاتية.

هدأ بولس قليلا من انفعالاته، ثم جلس، وهو يقول بخشوع: لن أذكر لكم أى استنتاج.. ولكنى أقول: إن تحقيق هذه النبوءات دليل على أن الله ألهم هؤلاء الأنبياء فى ما كتبوا، ففرصة الصدفة عندهم هى فرصة واحدة فى 10 أس 17 فرصة.

هذا مع أننا لم نورد كل النبوءات.. فنحن لم نذكر مثلاً النبوءات عن ميلاد المسيح العذراوى وقد جاءت 16 نبوءة عن صلب المسيح اخترنا منها أربعًا فقط.

لقد ألهم الله أنبياء التوراة فى ما كتبوا، ثم حقق ما كتبوه لنتأكد أن موت المسيح وقيامته ليفدينا من خطايانا أمرٌ صحيح.

بعد هذا كله نفهم قول المسيح: (صَدِّقُونى أَنّى فى الآبِ وَالآبَ فِىَّ) (يوحنا 14:11) وقوله: (لِهذَا يُحِبُّنِى الآبُ، لأَنّى أَضَعُ نَفْسِى لآخُذَهَا أَيْضًا) (يوحنا 10:17).

قَال ذَلِكَ، ثم توجه إلى الحضور قائلا: هذا ما لدى.. وسأترك لكم المجال للتعقيب والمناقشة.. فنحن هنا لسنا أئمة مساجد.. بل نحن نعتمد روح العلم.. ونعتمد المنطق الرياضى.. ونعتمد فوق ذلك كله الموضوعية العلمية التى تجعلنا نسلم للمحق مهما كنا نخالفه.

نهض الرجل المستأجر كعادته، وقال: حيوا أبانا القس.. لقد لبس اليوم لباس فيثاغورس والخوارزمى ليقربنا من المسيح.. ثم صفق ما شاءت له يداه أن تصفقا، وصفق الحضور لتصفيقه.

وفجأة ارتفعت يد تريد التعقيب، التفتُ إلى صاحبها، فإذا به عبد الحكيم.

رآه بولس، فكست وجهه حمرة لست أدرى ما سرها، لكنه أذن له..

صعد عبد الحكيم إلى المنصة، وقال: بورك فى أبينا القس.. ونحن نشكره على هذا الجهد الذى بذله فى هذه المحاضرة القيمة.. وبما أن صدره اتسع ليسمع أسئلتنا وتعقيباتنا، فيسرنا أن نطرح عليه بعض التساؤلات..

وقبل أن أقدم هذه التساؤلات أحب أن أذكر بأن القرآن نفسه يخبر بأن الأنبياء تنبأوا بظهور المسيح عليه السلام، فالله تعالى يخبر عن يحيى عليه السلام أنه مصدق للمسيح، قال تعالى: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ۝٣٩﴾ [آل عمران].

انتفض بولس فرحا، وقال: انظروا.. حتى القرآن يسجل نبوءة أخرى، فيخبر أن يحيى (المعمدان) سيهيئ الطريق للمسيح.. أليس هذا عجيبا!؟

قال عبد الحكيم: نحن لا نختلف فى إيماننا بالمسيح.. بل إن من كفر بالمسيح ـ عندنا ـ كفر بمحمد..

ولكن مع ذلك.. ووفقا للمنهج الذى ارتضيته.. المنهج العلمى الموضوعى.. بل المنطق الرياضى.. أريد أن أناقش بعض ما ذكرته لا لأنفى كون الأنبياء بشروا بالمسيح، ولكن لأنفى بعض التعسف فى تحميل النصوص ما لا تحتمل(1).

تغير وجه بولس، لكنه تمالك نفسه، وقال: اذكر ما بدا لك.. فلن تجد عندى غير الحق.. ولا شيء غير الحق.

**نبوءات ملفقة:**

قال عبد الحكيم: أولا.. أرى أنك وقومك ترجعون كثيرا إلى متى فى ذكر انطباق النبوءات على المسيح.. ويحق لك ذلك، لأنه دائما يقول: (وهذا كله لكى يتم ما قيل..) ثم يذكر نص العهد القديم.

(1) انظر تفاصيل أخرى مرتبطة بهذا فى الرسالة الأولى (أنبياء يبشرون بمحمد).

التفت إلى بولس، وقال: ألا ترى أن هذه العبارة مقحمة فى إنجيل متى؟

لم يجد بولس إلا أن يقول: نعم.. ربما تكون هذه الصيغ إسهاما خاصا من كاتب إنجيل متى[1].. ولكنها مع ذلك تعبر عن الحقيقة.

قال عبد الحكيم: ولهذا، فأنتم تذكرون أن متى يكتب لليهود، ولوقا لليونانيين، ومرقص للرومان، ويوحنا للكنيسة.

قال بولس: أجل.. نحن نقول ذلك.

قال عبد الحكيم: فهذا اعتراف ضمنى منكم بأن كل واحد يكتب على هوى الفئة التى يكتب لها لمحاولة إقناعها حسب معتقداتها.

ولهذا، فإن متى أو من كتب إنجيل متى[2] يحاول بأى طريقة أن يربط بين القصص التى يكتبها، وبين العهد القديم لإقناع اليهود.

قال بولس: لا جناح عليه فى أن يفعل ذلك ما دام يتحرى الحق.

قال عبد الحكيم: نعم.. لا حرج عليه فى ذلك.. ولكن العجيب أن يكون متى هو الوحيد الذى اكتشف هذه النبوءات، مع أنكم تكادون تجمعون على أن إنجيل متى كتب بعد سنة 80 ميلادية، وليس قبل ذلك.

إن هذا يستدعى تساؤلات كثيرة، لعل أهمها يرجع إلى عدم ذكر المسيح لها، فما الفائدة أن يذكر كاتب إنجيل متى هذا التشابة بعد رفع المسيح.. أليس من الأفضل إذا كانت هذه نبوءة صحيحة أن تذكر فى وقتها ويؤمن بها الجميع أو البعض بسهولة؟

لا بأس.. فلندع هذا التساؤل..

ولنبحث فى النبوءات نفسها، ومدى انطباقها على المسيح..

لنبدأ بالنبوءة الأولى.. وهى نبوءة إشعيا المشهورة عن العذراء التى تحبل وتلد ابنا يدعى عمانويل.

فهذه النبوءة لا تنطبق على المسيح من وجوه كثيرة، منها أن المسيح لم يدع بهذا الاسم طول حياته.. ومنها أن كلمة (عذراء) مترجمة بصورة خاطئة، وكاتب إنجيل متى وجد كلمة عذراء المترجمة خطأ، فربطها بميلاد المسيح [3].

ثم إن قصة بشارة الملاك فى (لوقا:1 / 31: 31): (وها أنت ستحبلين وتلدين ابنا وتسمينه يسوع) تتعارض مع قصة متى، ولا ندرى هل نسميه يسوع أم عمانويل، وبما أن يسوع هو الاسم المنتشر فى الإنجيل عكس عمانويل الذى لم يذكر مطلقا، فهذا يرجح صيغة لوقا.

ثم إن قصة النبوءة ـ باختصار ـ هى أن أرام وفاقاح ملك إسرائيل جاءا إلى أورشليم لمحاربة آحاز بن يوثان ملك يهوذا، فخاف خوفًا شديداً من اتفاقهما، فأوحى الله إلى إشعياء أن تقول للتخفيف عن آحاز وتسليته: (لا تخف فإنهما لا يقدران عليك وستزول مملكتهما)، ثم بين علامة

---

(1) الكثير من المسيحيين يعترفون بأن عبارات متى محشورة بطريقة مصطنعة غير مقنعة، انظر على سبيل المثال: التفسير الحديث إنجيل متى صفحة 31 (طبع بموافقة الكنيسة المصرية).

(2) انظر حقيقة سفر متى فى (الكلمات المقدسة) من هذه السلسلة.

(3) فاللفظ فى النسخة الأصلية، والتى ترجم منها إلى العربية لا يعنى أبدًا عذراء، وإنما اللفظ وارد بمعنى المرأة الصغيرة، وليس فيه أى إشارة لعذريتها.

وفى التراجم اليونانية الثلاث ترجمة أبكونلا سنة 129م، وترجمة تهيودشن سنة 175م، وترجمة سميكس سنة 200م، جاءت ترجمتها بالامرأة الشابة، ولا إشارة أبدًا كونها عذراء أو غير عذراء..

خراب ملكهمـا، وهى أن امرأة شابة تحبل وتلد ابنًا، وتصير أرض هذين الملكين خـرابًا قبل أن يعرف ويميز هذا الصبي المولود الخير من الشر.

وقد ثبت أن أرض فاقاح قد خربت فى مدة إحـدى وعشرين عامًا من هذه النبوءة، فلا بد أن يولد ابن قبل هذه المدة، وتخرب الأرض قبل أن يميز، والمسيح ﷺ ولد بعد هذه النبوءة بمدة 721سنة من خرابها.

احمـر وجه بولس فـقال عبـد الحكيم: لا عليكم. . لا تشـقوا فى. . ها هو الكتـاب المقدس أمامكم. . اقرأوه، فـسترون مدى صدق ما ذكرته لكم. . وسأبادر، فأقرأ لكم بعض ما ورد فيه.

فتح كتابا مقدسا كان يحمله، وراح يقرأ من (إشعياء: 8 /3-4): (فاقتربت إلى النبية فحبلت وولدت ابنا. فقال لى الرب ادعو اسمه مهير شلال حاش بز لأنه قبل أن يعرف الصبى أن يدعو يا أبى ويا أمى تحمل ثروة دمشق وغنيمة السامرة قدام ملك أشور).

التفت إلي بولس، وقال: أجبنى ما معنى (مهير شلال حاش بز) والتى سمى بها المولود الذى سيولد من المرأة الصغيرة؟

احمر وجه بولس، ولكنه تمالك نفسه، وقال: هي (أسرع إلى السلب. . أسرع إلى النهب).

امتلأت القاعـة بالضحك، فقال عبـد الحكيم: لهذا هم لم يترجموا هذه العبـارة فى النسخة العربية. . إن هذه النبوءة لا يمكن أن تنطبق على المسيح.

هذا نموذج عن تحميل النصوص ما لا تحتمل. .

هناك نموذج آخر لهذا التكلف. . إنه مـا ذكره سعادة القس من قصة قـتل هيرودس للأطفال، وهروب السيدة مريم بالمسيح إلى مصر.

إن هذه نبوءة مخترعـة اخترعها كاتب الإنجيل. . ليقول فى النهاية: (فـقام وأخذ الصبى وأمه ليلا وانصـرف إلى مصر وكان هناك إلى وفـاة هيرودس. لكى يتم ما قـيل من الرب بالنبى القائل من مصر دعوت ابنى).

وسر ذلك أنه قرأ المكتـوب فى سفر (هوشع: 11 /1): (لَمَّا كَانَ إِسْرَائِيلُ غُلاَمًـا أَحْبَبْتُهُ وَمِنْ مِصْـرَ دَعَوْتُ ابْنِي) مع أن الـنص فى هوشع لا علاقـة له بالمسيح على الإطلاق، بل هو ليـس نبوءة أصلا حتى نبحث تحقيقها، بل هو يتحدث عن خروج بنى إسرائيل من مصر وما فعلوه بعد ذلك.

هناك نموذج آخر يدل على ذلك التكلف. . منهـا - مثلا - قصة المجوس، فهى كلهـا ملفقة، فلا يوجد أى سند تاريخى لها باعترافهم هم، ولم تسجل فى أى كتاب تاريخ. .

وطبعا - حضرة القس - يعلم أن متى انفرد بها دون الإنجيـليين جميعا ليربطها بعد ذلك بما فى (أرميـا: 31 / 15): (هكَذَا قَـالَ الرَّبُّ: (صَوْتٌ سُـمِعَ فِي الرَّامَةِ نَـوْحٌ بُكَاءٌ مُرٌّ. رَاحِـيلُ تَبْكِي عَلَى أَوْلاَدِهَا وَتَأْبَى أَنْ تَتَعَزَّى عَنْ أَوْلاَدِهَا لأَنَّهُمْ لَيْسُوا بِمَوْجُودِينَ).

النص فى أرميـا، والذى انتزعه كاتب مـتى من سياقه، ليس نبـوءة أصلا، بل هو وصف لما حدث فى إحدى غـارات نبوخذ نصر، ولا عـلاقة لها بالمسيح، ولم تخطر على بال أحـد حتى لفق الكاتب هذه القصص.

**نبوءات خاطئة:**

قال عـبد الحكيم: سأكتـفى بهذه النماذج فـقط. . لأطلب من حضرة القس أن يجـيبنى عن بعض التـساؤلات.

لم يجد بولس إلا أن يجيب بالإيجاب، فقد كان يحب أن يظهر بمظهر الودود واسع الصدر،

فقال عبد الحكيم: لقد جاء في (مرقص: 16 / 17-18): (وهذه الآيات تتبع المؤمنين يخرجون الشياطين باسمي ويتكلمون بألسنة جديدة يحملون حيّات وإن شربوا شيئا مميتا لا يضرهم ويضعون أيديهم على المرضى فيبرأون).

لقد ذكر المسيح هنا خمسة أمور تحصل للمؤمنين به.. ونحن واثقون من كونك تابعا مخلصا للمسيح، فهل تستطيع أن تجرب أحدها.. نريد واحدا فقط.. نريد أن تشرب شيئا مميتا، ثم تقوم بيننا صحيحا معافى لا يضرك شيء؟

احمر وجه بولس، وارتفعت ضحكات في القاعة.

قال عبد الحكيم: لا بأس.. هذا اختبار خطير.. لننتقل إلى نبوءة أخرى من نبوءات المسيح، ونرى مدى انطباقها.. لقد جاء في (متى: 10/ 23): (وَمَتَى طَرَدُوكُمْ فِي هَذِهِ الْمَدِينَةِ فَاهْرُبُوا إِلَى الأُخْرَى، فَإِنِّي الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ لاَ تُكَمِّلُونَ مُدُنَ إِسْرَائِيلَ حَتَّى يَأْتِيَ ابْنُ الإِنْسَانِ).

توجه إلى بولس، وقال: لقد حدد لهم المسيح أجلا.. فقال: (حتى يأتي ابن الإنسان).. فهل أتى؟

سكت بولس، فقال عبد الحكيم: لقد ورد في (متى 16 / 28): (فَإِنَّ ابْنَ الإِنْسَانِ سَوْفَ يَعُودُ فِي مَجْدِ أَبِيهِ مَعَ مَلاَئِكَتِهِ، فَيُجَازِي كُلَّ وَاحِد حَسَبَ أَعْمَالِه. الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ إِنَّ مِنَ الْقِيَامِ هَهُنَا قَوْمًا لاَ يَذُوقُونَ الْمَوْتَ حَتَّى يَرَوُا ابْنَ الإِنْسَانِ آتِيًا فِي مَلَكُوتِه).

التفت إلى بولس، وقال: لقد ذكر المسيح أنهم لا يذوقون الموت حتى يروا المسيح.. ولكنهم ماتوا وشبعوا موتا، ومع ذلك لم يأت.

سكت بولس، فقال عبد الحكيم: لقد ورد في (متى 19 / 28): (فَقَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: (الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الَّذِينَ تَبِعْتُمُونِي فِي التَّجْدِيدِ مَتَى جَلَسَ ابْنُ الإِنْسَانِ عَلَى كُرْسِيِّ مَجْدِهِ تَجْلِسُونَ أَنْتُمْ أَيْضًا عَلَى اثْنَيْ عَشَرَ كُرْسِيًّا تَدِينُونَ أَسْبَاطَ إِسْرَائِيلَ الاثْنَيْ عَشَرَ).

إن هذا النص يشرف اثنى عشر من حواريي المسيح بالجلوس لدينونة بني إسرائيل، وذلك شرف عظيم.. وهي نبوءة عظيمة.. أجبني: ألم يكن يهوذا من هؤلاء؟

أجاب بولس بالإيجاب، فقال عبد الحكيم: فلم يكن المسيح يعلم إذن بأن يهوذا سيخونه.. وبذلك لا يمكن أن تكون هذه النبوءة صحيحة.. فالخائن لا يستحق هذا الشرف الرفيع.

سكت بولس، فقال عبد الحكيم: لقد ورد في (متى: 24 / 28-33): (لأنه حيثما تكون الجثة فهناك تجتمع النسور، وللوقت بعد ضيق تلك الأيام تظلم الشمس، والقمر لا يعطي ضوءه، والنجوم تسقط من السماء، وقوات السموات تتزعزع، وحينئذ تظهر علامة ابن الانسان في السماء، وحينئذ تنوح جميع قبائل الأرض ويبصرون ابن الانسان آتيا على سحاب السماء بقوة ومجد كثير، فيرسل ملائكته ببوق عظيم الصوت فيجمعون مختاريه من الأربع الرياح من أقصاء السموات إلى أقصائها، فمن شجرة التين تعلّموا المثل متى صار غصنها رخصا وأخرجت أوراقها تعلمون أن الصيف قريب، هكذا أنتم أيضا متى رأيتم هذا كله فاعلموا أنه قريب على الأبواب).

لقد ذكر المسيح هذا كله، ثم قال لهم مبينا موعده: (الحق أقول لكم لا يمضي هذا الجيل حتى يكون هذا كله السماء والأرض تزولان ولكن كلامي لا يزول) (متى: 24 / 35-34).

التفت عبد الحكيم إلى بولس، وقال: كل هذه الأعداد نبوءات، فهل حدث كل ما تحدث عنه!؟.. هل أظلمت الشمس، وهل القمر لم يعط ضوءه، وهل تساقطت نجوم السماء على الأرض قبل أن يمضي هذا الجيل الذي يقصد به جيل تلاميذ المسيح!؟

سكت بولس، فقال عبد الحكيم: لقد وعد المسيح أتباعه بأنهم سيقومون بمعجزات كمعجزات المسيح، أو ما هو أعظم منها، فقال كما فى (يوحنا: 14 / 12): (الحق الحق أقول لكم من يؤمن بى، فالأعمال التى أنا أعملها يعملها هو أيضا، ويعمل أعظم منها لأنى ماض إلى أبى).

هذا ما وعدكم به المسيح.. فليحيى أحدكم ميتا.. أو يعمل أيًّا من أعمال المسيح التى ذكرت فى الأناجيل.

***

## 2- نبوءات من القرآن الكريم

لم يدر بولس بما يجيب به اعتراضات عبد الحكيم، ولكنه مع ذلك، لم يرد أن يظهر بمظهر الضعف، فقال: نعم.. ربما تكون بعض النبوءات لم تكتمل لها عوامل الصدق، ولعل ذلك يرجع لبعض ما مس النسخ على أيدى الكتبة من تغييرات..

أو لعل ذلك يرجع إلى أن المراد الظاهر من تلك النصوص غير مقصود؟

أو لعل ذلك يرجع إلى أسباب أخرى نجهلها.

ولكن يكفينا النصوص الأخرى التى ذكرنا قيمتها، والتى لا تنطبق إلا على المسيح.

جلس عبد الحكيم، واستأذن عبد القادر للقيام، فتظاهر بولس بأنه لا يراه، ولكن الجمهور المحيط بعبد القادر أخذ يصيح لينبه بولس إلى عبد القادر الذى يرفع يده، مما اضطر بولس للإذن له.

صعد عبد القادر إلى المنصة، وأخذ مكبر الصوت، وقال: أولا.. نشكر حضرة القس المحترم الذى أتاح لنا هذه الفرصة، نحن نشكره من كل قلوبنا.. ونحن مثله نبحث عن الحق، ولا شيء غير الحق.

وأول ما أبدأ به حديثى هو ما بدأ به حديثه.. وهو القرآن الكريم.

لست أدرى هل يصح فى العرف أن ننتقى من الكلام ما نريده أم لا يصح؟

فإذا صح، فإن هذا يعنى أنه إذا قال لك أخوك مثلا: لن أعطيك.. تعتبرها أنت وعدا بأن يعطيك.. ثم تلح عليه فى أن ينفذ وعده.

تظاهر الجمهور بالاستغراب، فقال: لن تحتاج لتحقيق ذلك إلا للأسلوب الذى استعمله حضرة القس، ويستعمله الكثير من إخوانه، وهو أسلوب القص.. قص ما لا ترغب فيه.. ولن تحتاج فى تلك الجملة إلا أن تقص كلمة (لن) لتصبح الجملة (أعطيك).

هذا ما فعله حضرة القس مع القرآن الكريم، ليبرهن أنه ليس فى القرآن الكريم، ولا فى السنة المطهرة أى نبوءات غيبية، بل فوق ذلك ليبرهن على موقف القرآن السلبى من هذا النوع من المعجزات.

سأضرب لكم مثالا على ما قرأه حضرة القس.

لقد قرأ قوله تعالى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾﴾ [الجن] وسكت، مع أن الآية التى بعدها تقول: ﴿إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴿٢٧﴾﴾ [الجن].

فالله ـ حسب هاتين الآيتين ـ استأثر بعلم الغيب، ولكنه يعلمه لمن شاء من خلقه.

أما سائر الآيات التى تتحدث عن استئثار الله بعلم الغيب، فهذا من مقررات التوحيد وأصوله، فنحن لا نقول فى نبينا إلا أنه بشر شرُف بوحى الله، وأنه لذلك لا يعلم إلا ما علمه الله سواء كان من علم الغيب أو من علم الشهادة.

هل ترون فى ذلك ـ حضرة الجمهور ـ أى حرج؟

هل هذا هو المنطق العلمى.. أم أن المنطق العلمى هو أن يزعم محمد ﷺ أنه يعلم الغيب.. ليبرهن لهؤلاء أنه مرسل من الله؟

أو أن المنطق العلمى هو أن لا يذكر الله بأنه العالم الوحيد بالغيب ليدع الفرصة لكل الكهنة والمشعوذين والخرافيين ليملأوا الدنيا بتكهناتهم.

لقد قاوم الإسلام الدجل والخرافة.. ولذلك ابتدأ تلك المقاومة ببيان استئثار الله بالضر والنفع والعلم بالغيب.. وهذه هى الأدوات التى يلعب بها المشعوذون.

قاطعه الرجل المستأجر، وقال: هذا كلام نظرى بحت.. ونحن هنا نريد أفعالا لا أقوالا.. نريد ما يبين المعجزة.. نريد بيانا يكشف الغيب قبل حصوله.

ابتسم عبد القادر، وقال: ذلك يطول.. ولا أظن حضرة القس يسمح لى.. فإن وقته من العزة بحيث لا يمنحه لمثلى..

صاح رجل من الحاضرين، عرفت بعد ذلك أنه مكلف من طرف عبد الحكيم بأن يقول هذا القول: أنت لا تعرف أبانا القس.. إنه رجل واسع الصدر.. يسمع لك، ولو ظللت تحدثه ليل نهار.. إنه جم الأدب.. عظيم الخلق.. لا يبحث إلا عن الحق.

تسمر بولس فى مكانه، ولم يدر ما يقول، وتسمرت مثله فى مكانى، وقد سرنى ما سمعت، لأن ذلك سيمنحنى فرصة لأسمع ما ورد فى النصوص المقدسة من أنباء الغيب المعجزة.

قال عبد القادر: ما دام حضرة القس قد أذن لى فى الحديث، فسأذكر لكم بعض ما ورد فى النصوص من أنباء الغيب.. ولا شك أن فيكم المؤرخين والعلماء الذين يعون ما أقول، ويصححون ما قد أخطئ فيه.

أخرج عبد القادر مصحفا من جيبه، وقال: فلنبدأ بالقرآن الكريم.. وحتى يكون كلامنا علميا، فسنقسم أنباء القرآن الكريم الغيبية إلى ثلاثة أقسام تحيط بالزمان من جميع جوانبه: الماضى، والحاضر، والمستقبل.

**1 - أنباء من الماضى:**

ولنبدأ بالحديث عن الماضى.. فلا شك أن الماضى غيب كالمستقبل تماما إلا لمن أوتى من الأدوات ما يعرف به ذلك الماضى..

وقد كان محمد ﷺ أميا.. ومع ذلك ورد فى القرآن الكريم أنباء كثيرة عن الغيب الماضى..

ولذلك، فإن الله تعالى يقول لنبيه ﷺ بعد أن قص عليه قصة مريم ـ عليها السلام ـ: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ (٤٤)﴾ [آل عمران].

ويقول له بعد أن قص عليه قصة يوسف ﷺ: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ (١٠٢)﴾ [يوسف]

ويقول له بعد أن قص عليه قصة موسى عليه السلام: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ (٤٤) وَلَكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (٤٥) وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٤٦)﴾ [القصص].

**قوم لوط:**

سأضرب لكم مثالا على ما ورد فى القرآن الكريم من أخبار الماضى..

لقد ذكر الله تعالى هلاك كثير من القرى، ومن بينها قوم لوط ﷺ[1]. لقد ذكر ذلك فى مواضع من القرآن الكريم، ومنها قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ (٣٣) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلاَّ آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ (٣٤) نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ (٣٥) وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ (٣٦)﴾ [القمر].

لقد عاش لوط ﷺ فى نفس زمن إبراهيم عليه السلام مرسلاً إلى بعض الأقوام المجاورة

---

(1) انظر: القرآن الكريم ودمار قوم لوط، الكاتب التركى هارون يحيى.

لإبراهيم، كان هؤلاء القوم كما يخبرنا القرآن الكريم يمارسون نوعًا من الشذوذ لم تعرفه البشرية قبلهم، وهو اللواط، وعندما نصحهم لوط بأن يقلعوا عن ممارسة هذا الشذوذ وأنذرهم بطش الله وعقابه، كذبوه وأنكروا نبوته ورسالته، وتمادوا في شذوذهم وغيهم، وفي النهاية هلك القوم بما وقع عليهم من كارثة مريعة.

لقد أشار العهد القديم إلى هذا، وذكر أن المنطقة التي أقام فيها لوط هي منطقة سدوم، وحيث إن هذه المنطقة تقع إلى الشمال من البحر الأحمر، فقد كشفت الأبحاث أن الدمار قد لحق بها تمامًا، وتدل الدراسات الأثرية على أن تلك المدينة كانت في منطقة البحر الميت التي تمتد على طول الحدود الأردنية الفلسطينية.

لقد وصف القرآن الكريم العذاب الذي حاق بها، فقال: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾ [هود].

وفي آية أخرى قال تعالى: ﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾﴾[الشعراء].

إن هذه الآيات تشير إلى نوع العذاب الذي نزل بتلك القرية..

إن جملة ﴿جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا﴾ تشير إلى أن المنطقة قد أصابتها هزة أرضية قوية، ولهذا نجد أن بحيرة لوط، المكان الذي وقع فيه العذاب، تحمل دلائل واضحة عن كارثة كهذه.

يقول عالم الآثار الألماني وورنر كيلر: (غاص وادي سديم الذي يتضمن سدوم وغوموراه مع الشق العظيم، الذي يمر تمامًا في هذه المنطقة، في يوم واحد إلى أعماق سحيقة، حدث هذا الدمار بفعل هزة أرضية عنيفة صاحبتها عدة انفجارات، وأضواء نتج عنها غاز طبيعي وحريق شامل)[1].

أما الجملة الأخيرة من الآية: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ﴾ فربما تعني حدوث انفجار بركاني على ضفتي بحيرة لوط، وعن ذلك يقول وورنر كيلر: (تحررت القوى البركانية التي كانت هامدة في الأعماق على طول الصدع من ذلك الغور، ولا تزال فوهات البراكين الخامدة تبدو ظاهرة في الوادي العلوي من الضفة الغربية، بينما تترسب هنا الحمم البركانية وتتوضع طبقات عميقة من البازلت على مساحة واسعة من السطح الكلسي).

وتدل هذه الحمم المتحجرة وطبقات البازلت على تعرض هذه المنطقة إلى هزة عنيفة وبركان ثائر في زمن من الأزمنة، وتبدو هذه الكارثة بالسياق القرآني ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ﴾.

قال بولس: إن ما ذكرته صحيح.. ولكن الإعجاز في هذا يرجع للكتاب المقدس، لا للقرآن.. فالكتاب المقدس هو الذي نص على هلاك قوم لوط قبل أن ينص عليه القرآن.. ولا يستبعد أن يكون القرآن قد تأثر في هذا بما ورد في الكتاب المقدس.

**ملوك مصر:**

قال عبد القادر: لا بأس.. لن أجادلك في هذا.. ولكن سأذكر لك شيئا بسيطا اختلف فيه القرآن الكريم مع الكتاب المقدس، ومع ذلك كان الحق مع القرآن الكريم، فلو كان القرآن يسير تبعا للكتاب المقدس لوقع في نفس الخطأ.

لقد لقب القرآن الكريم حكام مصر القدامى بلقب (فرعون) في حوالي ستين آية كريمة.. ولكنه في سورة واحدة ذكر حاكم مصر بلقب (ملك)، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا

---

(1) وورنر كيلر، الإنجيل كتاريخ، إثبات كتاب الكتب، نيويورك: ويليام مورو، 1964، الصفحات 57-76..

تعبُرُون ﴿٤٣﴾ [يوسف]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ ... ﴿٥٠﴾ [يوسف]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي ... ﴿٥٤﴾ [يوسف]، وقال تعالى: ﴿قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ [يوسف]، وقال تعالى: ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ [يوسف].

ففى هذه السورة كما سمعت لم يذكر لقب فرعون مع أن يوسف ﷺ عاش فى مصر.

وهذا بخلاف التوراة التى تسمى ملك مصر فى وقت يوسف ﷺ بفرعون[1].

والتاريخ يدل على صحة ما ورد فى القرآن الكريم، وهذا ما يدل على دقته العلمية[2].. فمن خلال حجر رشيد وتعرفنا على الكتابة الهيروغليفية فى أواخر القرن التاسع عشر، وتعرفنا على تاريخ مصر فى مطلع القرن الحالى بشكل دقيق عرفنا أن حياة يوسف فى مصر كانت أيام الملوك الرعاة (الهكسوس) الذين تغلبوا على جيوش الفراعنة، وظلوا فى مصر من 1730 ق.م إلى 1580 ق.م حتى أخرجهم أحمس الأول، وشكل الدولة الحديثة (الإمبراطورية).

لذلك كان القرآن دقيقًا جداً فى اختيار كلماته، فلم يقع فى الخطأ الذى وقعت فيه التوراة[3].

**قوم سباء**

قال عبد القادر: ومن النبوءات الغيبية المرتبطة بالزمن الماضى، والتى وردت في القرآن الكريم، والتي دل التاريخ على صدقها ما نص عليه قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ [سبأ].

فالله تعالى يحكى فى هذه الآيات خبرا من الزمن الماضى بدقة عالية[4]:

فهو يذكر ـ من باب العبرة، لا من باب التاريخ ـ مجتمع سبأ الذى كان واحدًا من أكبر أربع حضارات عاشت فى جنوبى الجزيرة العربية، فقد أسس السبأيون مجتمعهم ما بين 1000-750 قبل الميلاد، وانهارت حضارتهم حوالى 550 بعد الميلاد، بسبب الهجمات التى دامت قرنين والتى كانوا يتعرضون لها من جانب الفرس والعرب.

وقد عرف السبئيون خلال التاريخ كقوم متحضرين، ويعتبر سد مأرب الذى كان أحد أهم معالم هذه الحضارة، دليلاً واضحًا على المستوى الفنى المتقدم الذى وصل إليه هؤلاء القوم.

وقد كان الجيش السبئى من أقوى جيوش ذلك الزمان، وقد ضمن لحكامه امتدادًا توسعيًا

---

(1) ففى (تكوين: 41/1-10): «وحدث من بعد سنتين من الزمان أن فرعون رأى حلما. واذا هو واقف عند النهر وهوذا سبع بقرات طالعة من النهر حسنة المنظر وسمينة اللحم. فارتعت فى روضة. ثم هوذا سبع بقرات أخرى طالعة وراءها من النهر قبيحة المنظر ورقيقة اللحم. فوقفت بجانب البقرات الأولى على شاطئ النهر. فأكلت البقرات القبيحة المنظر والرقيقة اللحم البقرات السبع الحسنة المنظر والسمينة. واستيقظ فرعون ثم نام فحلم ثانية. وهوذا سبع سنابل طالعة فى ساق واحد سمينة وحسنة. ثم هوذا سبع سنابل رقيقة وملفوحة بالريح الشرقية نابتة وراءها. فابتلعت السنابل الرقيقة السنابل السبع السمينة الممتلئة. واستيقظ فرعون واذا هو حلم. وكان فى الصباح أن نفسه انزعجت. فأرسل ودعا جميع سحرة مصر وجميع حكمائها وقصّ عليهم فرعون حلمه. فلم يكن من يعبّره لفرعون ثم كلم رئيس السقاة فرعون قائلا أنا اتذكر اليوم خطاياى. فرعون سخط على عبديه فجعلنى فى حبس بيت رئيس الشرط أنا ورئيس الخبازين».

(2) انظر: الإنسان بين العلم والدين: د. شوقى أبو خليل، ص112.

(3) انظر تفاصيل أخرى ترتبط بهذا فى الرسالتين السابقتين (الكلمات المقدسة) و(معجزات علمية).

(4) انظر: قوم سبأ وسيل العَرِم: بقلم الكاتب التركى هارون يحيى، موسوعة الإعجاز العلمى فى القرآن والسنة.

جيداً، فقد اجتـاحت سبأ منطقة القتبيين، وتمكنت من السيطرة على عـدة مناطق فى القارة الإفريقية، وفى عام 24 قبل الميـلاد وأثناء إحدى الحـملات على المغـرب، هزم الجيش السبـئى جيش مـاركوس إيليوس غالوس الرومانى الذى كان يحكم مصر كجزء من الإمبراطورية الرومانية التى كانت أعظم قوة فى ذلك الزمن دون منازع.

وبذلك كانت سبأ بجيشها وحضارتها المتقدمة من القوى العظيمة فى ذلك الزمان.

لقد أشار القرآن الكريم إلى القوة التى يتمتع بها جيش سبأ من خلال كلام قواد الجيش السبئى مع ملكتهم فى قوله تعالى: ﴿قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [النمل].

وقد كانت مأرب هى عاصـمة سبأ، وكانت غنية جداً، والفضل يعود إلى موقـعها الجغرافى، كانت العاصمة قريبة جداً من نهر الدهنا الذى كـانت نقطة التقائه مع جبل بلق مناسبة جداً لبناء سد، واستغل السبئيون هذه الميزة وبنوا سـداً فى تلك المنطقة حيث نشأت حضارتهم، وبدأوا يمارسون الرى والزراعة، وهكذا وصلوا إلى مستوى عال جداً من الازدهار.

وقد بلغ ارتفـاع سد مأرب 16 متراً وعرضه60 متراً وطوله 620 متراً، وهذا يعنى حـسابيًا أنه يمكن أن يروى 9600 هكتاراً من الأراضى، منها 5300 فى السهل الجنوبى، والباقى للسـهل الشمالى، وقد كان يشار إلى هذين السـهلين فى النقوش السبئية (مـأرب والسـهلان)، وهذا ما يشير إليه التـعبير القرآنى بكل دقة ﴿جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾، فهى تشير إلى وجود حدائق وكروم فى هذين الواديين أو السهلين.

لقد تم إصلاح هذا السـد خلال القرنين الخامس والسادس للميـلاد، إلا أن هذه الإصلاحات لم تمنع السد من الانهـيار عام 542 للميـلاد.. وقد انهار السد بسـبب سَيْل العَرِمِ الذى ذكـره القرآن الكريم، والذى سَبَّبَ أضراراً بالغـة، فقد هلكت كل البساتين والكروم والحدائق ـ التى بقى السـبئيون يرعونها لعدة قرون ـ على بَكْرَةِ أبيـها، وبعد انهيار السد عانى السبـئيون من فترة ركود طويلة لم تقم لهم قائمة بعدها.

وهذه كانت نهاية القوم التى بدأت مع انهيار السد.

وقد ذكـر القرآن الكريم أن العقاب الإلهى كـان بإرسال (سَيْلَ العَـرِمِ). وهذا التعبيـر القرآنى يخبرنا كيف وقعت الواقعة، فكلمة (عَرِم) تعنى الحاجز أو السد.

وقد أقـر الكاتب وعالم الآثار المـسيحى وورنر كـيلر Werner Keller صاحـب كتاب (الكـتاب المقدس كان صحيحًا) أن سيل العـرم قد حدث كما ورد وصفه فى القرآن الكريم، وأنه وقع فى تلك المنطقة، وأن هلاك المنطقة بكاملها بسبب انهياره، إنما يبرهن على أن المثال الذى ورد فى القرآن الكريم عن قوم الجنتين قد وقع فعلاً.

بعد وقـوع كارثة السد، بدأت أراضى المنطقة بالتـصحر، وفقـد قوم سبأ أهم مـصادر الدخل لديهم مع اختفاء أراضيهم الزراعـية، وبدأ السبئيون يهجرون أراضيهم مـهاجرين إلى شمالى الجزيرة، مكة وسوريا.

لقد ذكر القرآن الكريم كل هذه التفاصيل التاريخية بدقة معجزة..

التفت إلى بولس، وقال: أليس ذلك ـ حضرة القس ـ نبوءة غيبية؟

**قوم ثمود:**

سكت بولس، فقال عـبد القادر: ومن النبوءات الغيبـية المرتبطة بالزمن الماضى، والتى وردت

فى القرآن الكريم، ولم ترد فى الكتاب المقدس، والتى دل التاريخ على صدقها ما نص عليه قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ (23) فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ (24) أَؤُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ (25) سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ (26)﴾ [القمر].

ففى هذه الآيات القرآنية حديث عن قوم كذبوا واستهتروا بالنذر التى أرسلها الله إليهم، وقد سماهم (ثمود)[1].

وهم لم يذكروا فى الكتاب المقدس، ولذلك جاء من يشكك فى وجودهم، ويعتبر ذكر القرآن الكريم لهم ذكرا للأساطير.

ولكن الأبحاث والدراسات التاريخية والجيولوجية أظهرت أشياء كثيرة لم تكن معروفة قبل، مثل المنطقة التى أقام بها قوم ثمود، والبيوت التى بنوها، ونمط الحياة التى كانوا يعيشونها، بحيث أصبح التأريخ المرتبط بهم حقيقة تاريخية مؤيدة بالعديد من الكشوف الأثرية.

وقد كان أقدم المصادر القديمة التى تشير إلى ثمود هى سجلات النصر التاريخية للملك البابلى (سيرجيون الثانى) فى القرن الثامن قبل الميلاد، والذى هزم هؤلاء القوم فى إحدى حملاته على شمالى الجزيرة العربية.

كما يشير الإغريق إليهم على أنهم (تامودى) أى ثمود فى كتابات أرسطو وبتولمى وبلينى، وقد اختفى هؤلاء القوم قبل محمد ﷺ بشكل كامل حوالى 400 -600 ميلادية.

وكثيرا ما يذكر القرآن الكريم عاداً وثَمُوداً مقترنتين، بل إنه يُذَكِّر ثَمُوداً بعاد ويأمرهم أن يتعظوا منهم، وهذا يعنى أن ثَمُوداً كان لديها الكثير من المعلومات عن عاد، كما قال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (74)﴾ [الأعراف].

وقد كشفت المصادر التاريخية أنه على الرغم من أن المسافة الجغرافية بين القومين مسافة هائلة إلا أن هناك اتصالا وثيقا بينهما.

وتحت عنوان (ثمود) كتبت الموسوعة البريطانية المصغرة: (قبيلة أو قبائل فى الجزيرة العربية القديمة يبدو أنها كانت من القبائل المشهورة، وبالرغم من أن منشأ ثمود هو جنوب الجزيرة العربية، إلا أن مجموعة كبيرة منها انتقلت إلى الشمال فى تاريخ مبكر واستقرت على منحدرات جبل أثلب. إن قوم ثمود الذين عاشوا بين الشام والحجاز يعرفون تحت اسم (أصحاب الحجر)، لقد كشفت الحفريات الأثرية عن كتابات حجرية وصور ثمودية ضخمة ليس عند جبل أثلب فحسب، بل عبر وسط الجزيرة العربية أيضاً)[2].

**2 - أنباء الحاضر:**

قال عبد القادر: ومن النبوءات الغيبية التى ورد ذكرها فى القرآن الكريم نبوءات الحاضر..

استغربت كثيرا لبولس عندما ارتفع صوته بالضحك، وأراد أن يضحك الحضور، فقال، والقهقهة ملء فمه: غيب الحاضر!؟.. إن هذا لعجيب.. متى كان الحاضر غيبا، ونحن نراه ونلمسه ونعيشه.. وقد يكون رائحة طيبة، فنشمها!؟

أبدى الحضور استغرابا لضحكات بولس، ولم يبادلوه ما طلبه منهم غير مستأجره الذى راح يضحك فى هستيرية متكلفة.

---

(1) انظر: كذبت ثمود بالنذر، الكاتب التركى هارون يحيى، موسوعة الإعجاز العلمى فى القرآن والسنة.
(2) (ثمود) دائرة المعارف البريطانية المصغرة.

قال عبد القادر: ما دام الأمر كذلك، فأخبرني ما الذى أخبئه فى جيبى هذا.

سكت بولس، ولم يحر جوابا، وامتلأت أفواه الحاضرين بالضحك.

قال عبد القادر: لقد ذكر القرآن الكريم هذا النوع من الغيب عن المسيح ﷺ، فقال تعالى: ﴿ورَسُولاً إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٤٩)﴾ [آل عمران]، فقد أخبر المسيح ﷺ أن من دلائل نبوته إخبارهم بما يأكلون، وما يدخرون فى بيوتهم.

وقبل ذلك ذكر الله تعالى هذا النوع من الإعجاز عن يوسف ﷺ، فقد ذكر على لسانه قوله: ﴿... لا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي... (٣٧)﴾ [يوسف].

وعلى مثال هذين النبيين الكريمين وردت نبوءات قرآنية عن الحاضر.. سأقتصر عن ذكر بعض النماذج عنها هنا:

منها أن النبى ﷺ أسر إلى بعض أزواجه أنه قد حرم على نفسه شرب العسل الذى عند بعض نسائه لما ظن أن فيه رائحة غير مستحسنة، وأمرها أن لا تخبر بذلك أحدًا، فأخبرت بعض نسائه بذلك، فأطلعه الله على ذلك وأخبرها به، فسألته عمن أخبره بذلك الغيب فأخبرها أنه الله سبحانه. قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ (٣)﴾ [التحريم].

ومنها ما كان يخفيه المنافقون من بغضهم للإسلام وطعنهم فيه، فيطلع الله عليه نبيه، وكان المنافقون يعلمون ذلك، ويخشون أن ينزل القرآن ببيان ما أسروا فى قلوبهم، كما قال تعالى: ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ (٦٤)﴾ [التوبة].

ومما حكاه الله تعالى عن كذب المنافقين فى اعتذارهم فى التخلف عن الجهاد: ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لاَّ تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٤)﴾ [التوبة].

وقد روى أن أحدهم قال فى النبى ﷺ كلمةً كفر بها، حيث كان النبى يخطب، فقال المنافق: (إن كان هذا صادقًا لنحن شر من الحمير)، فقال زيد ابن أرقم: هو والله صادق وأنت شر من الحمار، ولما نقلت كلمته إلى النبى ﷺ جحدها، فنزل القرآن الكريم بإثبات تلك الكلمة عليه، قال تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلامِهِمْ ... (٧٤)﴾ [التوبة].

بل كان الوحى يكشف للرسول ﷺ ما يدور بعيداً عنه مما يحاك حوله وما يدور فى خفايا النفوس.

**3- أنباء المستقبل:**

قال عبد القادر: نكتفى بهذه الأمثلة.. ولننتقل إلى غيب المستقبل، فهو المقصود عند الإطلاق، وسأذكر بعض الأمثلة عنه من باب الاختصار.

**انتصار الروم:**

ولنبدأ بالروم.. وقبل أن أقرأ عليكم الآيات الواردة فى هذه النبوءة، أطلب من مؤرخ جالس معنا هنا أن يقوم إلى المنصة، ويحدثنا عن الفرس والرومان فى عهد محمد ﷺ.. لاشك أنكم تعرفونه جميعا، فلا ينبغى أن تتحدث عن التاريخ، والمؤرخ معنا.

قام رجل من القاعة، وقال: أنا لا علاقة لى بأى دين من الأديان.. ولكنى سأجيبك على ضوء التاريخ.. والتاريخ وحده[1].

كانت الإمبراطورية الفارسية تقع شرقى الجزيرة العربية، على الساحل الآخر للخليج العربى، على حين كانت الإمبراطورية الرومانية تمتد من غربى الجزيرة على ساحل البحر الأحمر إلى ما فوق البحر الأسود.

وقد سميت الأولى ـ أيضا ـ بالإمبراطورية الساسانية، والأخرى بالبيزنطية، وكانت الإمبراطوريتان تصلان إلى الفرات ودجلة، فى شمال الجزيرة العربية، وكانتا أقوى حكومتين شهدهما ذلك العصر.

ويبدأ تاريخ الإمبراطورية الرومانية فى القرن الثانى بعد الميلاد، وكانت تتمتع حينئذ بمكانتها كأرقى دولة حضارية فى العالم.

وقد شغل المؤرخين تاريخ زوال الروم، كما لم يشغلهم زوال أية حضارة أخرى، وليس يغنى كتاب من الكتب التى ألفت حول هذا الموضوع عن الكتب الأخرى، ولكن يمكن اعتبار كتاب المؤرخ: إدوارد جبن (تاريخ سقوط واندحار الإمبراطورية الرومانية) أكثرها تفصيلا وثقة، وقد ذكر المؤرخ فى الجزء الخامس من كتابه الوقائع المتعلقة بهذا الموضوع، فذكر أن الملك (قسطنطين) اعتنق الدين المسيحى عام 325م، وجعله ديانة البلاد الرسمية، فآمنت بها أكثرية رعايا الروم، وعلى الجانب الآخر، رفض الفرس هذه الدعوة.

وكان الملك الذى تولى الإمبراطورية الرومانية فى أواخر القرن السادس الميلادى هو (موريس)، وكان ملكا غافلا عن شئون البلاد والسياسة، ولذلك قاد جيشه ثورة ضده، بقيادة (فوكاس Phocas) وأصبح فوكاس ملك الروم، بعد نجاح الثورة والقضاء على العائلة الملكية بطريقة وحشية؛ وأرسل سفيرا له إلى إمبراطور إيران (كسرى أبرويز الثانى)، وهو ابن (أنو شيروان) العادل.

وكان (كسرى) هذا مخلصا للملك (موريس) إذ كان قد لجأ إليه عام590-591م، بسبب مؤامرة داخلية فى الإمبراطورية الفارسية، وقد عاونه (موريس) بجنوده لاستعادة العرش.

ومما يروى أيضا أن (كسرى) تزوج بنت (موريس)، أثناء إقامته ببلاد الروم، ولذلك كان يدعوه (بالأب).

ولما عرف بأخبار انقلاب الروم، غضب غضبا شديدا، وأمر بسجن السفير الرومى وأعلن عدم اعترافه بشرعية حكومة الروم الجديدة.

وأغار (كسرى أبرويز) على بلاد الروم وزحفت جحافله عابرة نهر الفرات إلى الشام، ولم يتمكن (فوكاس) من مقاومة جيوش الفرس التى استولت على مدينتى (أنطاكية والقدس) فاتسعت حدود الإمبراطورية الفارسية فجأة إلى وادى النيل، وكانت بعض الفرق المسيحية كالنسطورية واليعقوبية حاقدة على النظام الجديد فى روما فناصرت الفاتحين الجدد، وتبعها اليهود مما سهل غلبة الفرس.

وأرسل بعض أعيان الروم رسالة سرية إلى الحاكم الرومى فى المستعمرات الإفريقية، يناشدونه إنقاذ الإمبراطورية، فأرسل الحاكم جيشا كبيرا بقيادة ابنه الشاب (هرقل)، فسار بجيشه فى الطريق البحرية، بسرية تامة حتى أن (فوكاس) لم يدر بمجيئهم إلا عندما شاهد الأساطيل، وهى تقترب من السواحل الرومانية، واستطاع هرقل ـ دون مقاومة تذكر ـ أن يستولى على الإمبراطورية، وقتل (فوكاس) الخائن.

---

(1) انظر هذه التفاصيل وغيرها فى كتاب (الإسلام يتحدى) لوحيد الدين خان.

بيد أن هرقل لم يتمكن ـ برغم استيلائه على الإمبراطورية وقتله (فوكاس) ـ من إيقاف طوفان الفرس، فضاع من الروم كل ما ملكوا من البلاد فى شرقى العاصمة وجنوبيها، ولم يعد العلم الصليبى يرفرف على العراق والشام وفلسطين ومصر وآسيا الصغرى، بل علتها راية الفرس.

وتقلصت الإمبراطورية الرومانية فى عاصمتها، وسدت جميع الطرق فى حصار اقتصادى قاس؛ وعم القحط؛ وفشت الأمراض الوبائية؛ ولم يبق من الإمبراطورية غير جذور شجرها العملاق.

وكان الشعب فى العاصمة خائفا يترقب ضرب الفرس للعاصمة، ودخولهم فيها؛ وترتب على ذلك أن أغلقت جميع الأسواق، وكسدت التجارة، وتحولت معاهد العلم والثقافة إلى مقابر موحشة مهجورة.

وبدأ الفرس يستبدون بالرعايا الروم للقضاء على المسيحية، بل بدأوا يسخرون علانية من الشعائر الدينية المقدسة، ودمروا الكنائس، وأراقوا دماء ما يقرب من 100,000 من المسيحين، وأقاموا بيوت عبادة النار فى كل مكان، وأرغموا الناس على عبادة الشمس والنار واغتصبوا الصليب، وأرسلوه إلى (المدائن)

يتحدث المؤرخ (جبن) عن كل هذا، ثم يقول:(ولو كانت نوايا (كسرى) طيبة فى حقيقة الأمر لكان اصطلح مع الروم بعد قتلهم (فوكاس) ولاستقبل (هرقل) كخير صديق أخذ بثأر حليفه وصاحب نعمته (موريس)، بأحسن طريقة؛ ولكنه أبان عن نواياه الحقيقية عندما قرر مواصلة الحرب).

ويمكن قياس الهوة الكبرى التى حدثت بين الروم والفرس من خطاب وجهه (كسرى) إلى (هرقل) من بيت المقدس قائلا: (من لدن الإله كسرى الذى هو أكبر الآلهة وملك الأرض كلها، إلى عبده اللئيم الغافل: هرقل: إنك تقول: إنك تثق فى إلهك! فلماذا لا ينقذ إلهك القدس من يدى!؟).

واستبد اليأس والقنوط بهرقل من هذه الأحوال السيئة وقرر العودة إلى قصره الواقع فى (قرطاجنة) على الساحل الإفريقى، فلم يعد يهمه أن يدافع عن الإمبراطورية، بل كان شغله الشاغل إنقاذ نفسه، وأرسلت السفن الملكية إلى البحر، وخرج (هرقل) فى طريقه ليستقل إحدى هذه السفن إلى منفاه الاختيارى.

وفى هذه الساعة الحرجة تحايل كبير أساقفة الروم باسم الدين والمسيح، ونجح فى إقناع (هرقل) بالبقاء وذهب (هرقل) مع الأسقف إلى قربان (سانت صوفيا) يعاهد الله تعالى على أنه لن يعيش أو يموت إلا مع الشعب الذى اختاره الله له.

وبإشارة من الجنرال الإيرانى سين(Sain) أرسل (هرقل) سفيرا إلى (كسرى) طالبا منه الصلح؛ ولكن لم يكد القاصد الرومى يصل إلى القصر، حتى صاح (كسرى) فى غضب شديد:(لا أريد هذا القاصد.. وإنما أريد (هرقل) مكبلا بالأغلال تحت عرشى؛ ولن أصالح (الرومى) حتى يهجر إلهه الصليبى ويعبد الشمس إلهتا).

وبعد مضى ستة أعوام على الحرب، رضى الإمبراطور الإيرانى أن يصالح (هرقل) على شروط معينة هى أن يدفع ملك الروم ألف تالنت من الذهب، وألف تالنت من الفضة، وألف ثوب من الحرير، وألف جواد، وألف فتاة عذراء.

ويصف (جبن) هذه الشروط بأنها (مخزية) دون شك، وكان من الممكن أن يقبلها (هرقل)، لولا المدة القصيرة التى أتيحت له لدفعها من المملكة المنهوبة، والمحدودة الأرجاء، ولذلك آثر أن يستعمل هذه الثروة كمحاولة أخيرة ضد أعدائه.

قاطع عبد القادر المؤرخ قائلا: اسمح لى بأن أقاطعك بكلمة موجزة، ثم أدعك تواصل حديثك..

فى ذلك الوقت الذى سيطرت فيه على العاصمتين الفارسية والرومية هذه الأحداث سيطرت على شعب العاصمة المركزية فى شبه الجزيرة العربية، وهى مكة المكرمة مشكلة مماثلة، فقد كان الفرس مجوسا من عباد الشمس والنار، وكان الروم من المؤمنين بالمسيح، وبالوحى، وبالرسالة، وبالله تعالى.

وكان المسلمون ـ نفسيا ـ مع الروم يرجون غلبتهم على الكفار والمشركين كما كان كفار مكة مع الفرس، لكونهم من عباد المظاهر المادية، وأصبح الصراع بين الفرس والروم رمزا خارجيا للصراع الذى كان يدور بين أهل الإسلام وأهل الشرك فى (مكة).

وبطريقة نفسية كانت كل من الجماعتين تشعر بأن نتيجة هذا الصراع الخارجى هى نفس مآل صراعهما الداخلى، فلما انتصر الفرس على الروم عام 616م، واستولوا على جميع المناطق الشرقية من دولة الروم انتهزها المشركون فرصة للسخرية من المسلمين، قائلين: لقد غلب إخواننا على إخوانكم، وكذلك سوف نقضى عليكم، إذا لم تصطلحوا معنا تاركين دينكم الجديد، وكان المسلمون بمكة فى أضعف وأسوأ أحوالهم المادية، وفى تلك الحالة البائسة نزل القرآن الكريم بتلك النبوءة العجيبة ليقول: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ الرُّومُ ﴿٢﴾ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٥﴾﴾ [الروم].

التفت عبد القادر إلى المؤرخ، وقال: اسمح لى حضرة المؤرخ على هذه المقاطعة، واسمح لى ـ كذلك ـ أن أسألك هذا السؤال: لو كنت فى عهد محمد، وفى ذلك الوقت.. هل كنت تستطيع أن تتنبأ كما تنبأ القرآن بهذه النبوءة، مع أنك لست مضطرا إليها.

قال المؤرخ: لا.. فلم تكن أية نبوءة أبعد منها وقوعا، لأن السنين الاثنتى عشرة الأولى من حكومة (هرقل) كانت تؤذن بانتهاء الإمبراطورية الرومانية.

إن التنبؤ بها كالتنبؤ بقيام الدولة الألمانية بعد الحرب العالمية الثانية فى سنوات محدودة لتتغلب على جميع أعدائها.

قال عبد القادر: فكيف قامت الإمبراطورية الرومانية بعد ذلك السقوط؟

قال المؤرخ: لقد حدث (جبن) عن ذلك، فقال: (إنها من أبرز البطولات التاريخية، تلك التى نراها فى (هرقل)، فقد ظهر هذا الإمبراطور غاية فى الكسل والتمتع بالملذات وعبادة الأوهام فى السنين الأولى والأخيرة من حكومته، كان يبدو كما لو كان متفرجا أبله، استسلم لمصائب شعبه، ولكن الضباب الذى يسود السماء ساعتى الصباح والمساء، يغيب حينا من الوقت لشدة شمس الظهيرة، هذا هو ما حدث بالنسبة إلى هرقل، فقد تحول (أرقاديوس القصور) إلى (قيصر ميدان الحرب) فجأة، واستطاع أن يستعيد مجد الروم خلال ست حروب شجاعة شنها ضد الفرس.

وكان من واجب المؤرخين الروم أن يزيحوا الستار عن الحقيقة، تبيانا لأسرار هذه اليقظة والنوم، وبعد هذه القرون التى مضت يمكننا الحكم بأنه لم تكن هناك دوافع سياسية وراء هذه البطولة، بل كانت نتيجة غريزة هرقل الذاتية، فقد انقطع عن كافة الملذات، حتى إنه هجر ابنة أخته (مارتينا) التى تزوجها لشدة هيامه بها، رغم أنها كانت محرمة عليه.

إن هرقل ـ ذلك الملك الغافل الفاقد العزيمة ـ وضع خطة عظيمة لقهر الفرس، وبدأ فى تجهيز العدة والعتاد، ولكن رغم ذلك كله، عندما خرج هرقل مع جنوده بدا لكثيرين من سكان (القسطنطينية) أنهم يرون آخر جيش فى تاريخ الإمبراطورية البيزنطية.

وكان هرقل يعرف أن قوة الفرس البحرية ضعيفة، ولذلك أعد بحريته للإغارة على الفرس من الخلف، وسار بجيوشه عن طريق البحر الأسود إلى (أرمينيا)، وشن على الفرس هجوما مفاجئا فى نفس الميدان الذى هزم فيه الإسكندر جيوش الفرس، لما زحف على أراضى مصر والشام. ولم يستطع الفرس مقاومة هذه الغارة المفاجئة فلاذوا بالفرار.

وكان الفرس يملكون جيشا كبيرا فى (آسيا الصغرى)، ولكن (هرقل) فاجأهم بأساطيله مرة أخرى، وأنزل بهم هزيمة فادحة، وبعد إحراز هذا النصر الكبير عاد (هرقل) إلى عاصمته (القسطنطينية) عن طريق البحر، وعقد معاهدة مع الأفاريين (Avars) واستطاع بنصرتهم أن يسد سيل الفرس عند عاصمتهم.

وبعد تينك الحربين قامت ثلاثة حروب أخرى ضد الفرس فى سنوات 623، 624، 625 م، واستطاع أن ينفذ إلى أراضى العراق القديم (ميسو بوتانيا) عن طريق البحر الأسود، واضطر الفرس إلى الانسحاب من جميع الأراضى الرومية، نتيجة هذه الحروب، وأصبح (هرقل) فى مركز يسمح له بالتوغل فى قلب الإمبراطورية الفارسية، وكانت آخر هذه الحروب المصيرية، تلك الحرب التى خاضها الفريقان فى (نينوى) على ضفاف (دجلة) فى ديسمبر عام627م.

ولما لم يستطع (كسرى أبرويز) مقاومة سيل الروم، حاول الفرار من قصره الحبيب (دستكرد). ولكن ثورة داخلية نشبت فى الإمبراطورية، واعتقله ابنه (شيرويه)، وزج به فى سجن داخل القصر الملكى حيث لقى حتفه لسوء الأحوال فى اليوم الخامس من اعتقاله، وقد قتل ابنه (شيرويه) ثمانى عشرة من أبناء أبيه (كسرى) أمام عينيه.

ولكن (شيرويه) هو الآخر لم يستطع أن يجلس على العرش أكثر من ثمانية أشهر، حيث قتله أحد أشقائه، وهكذا بدأ القتال داخل البيت الملكى، وتولى تسعة ملوك زمام الحكم فى غضون أربعة أعوام.

ولم يكن من الممكن أو المعقول فى هذه الأحوال السيئة، أن يواصل الفرس حربهم ضد الروم، فأرسل (قباد الثانى) ابن كسرى أبرويز الثانى يرجو الصلح، وأعلن تنازله عن الأراضى الرومية، كما أعاد الصليب، ورجع (هرقل) إلى عاصمته (القسطنطينية) فى مارس عام 628م فى احتفال رائع، حيث كان يجر مركبته أربعة أفيال، واستقبله آلاف مؤلفة من الجماهير خارج العاصمة وفى أيديهم المشاعل وأغصان الزيتون.

قال عبد القادر: وهكذا صدق القرآن الكريم عن غلبة الروم فى مدته المقررة، أى فى أقل من عشر سنين، كما هو المراد فى لغة العرب من كلمة: (بضع).

قال المؤرخ: لقد ذكر جبن هذا، وقد أبدى حيرته وإعجابه بهذه النبوءة ولكنه كى يقلل من أهميتها ربطها برسالة النبى ﷺ إلى (كسرى).. لقد قال: (وعندما أتم الإمبراطور الفارسى نصره على الروم وصلته رسالة من مواطن خامل الذكر، من (مكة) دعاه إلى الإيمان بمحمد، رسول الله، ولكنه رفض هذه الدعوة ومزق الرسالة وعندما بلغ هذا الخبر رسول العرب، قال: سوف يمزق الله دولته تمزيقا وسوف يقضى على قوته)[1].

ويقول: (ومحمد الذى جلس فى الشرق على حاشية الإمبراطورتين العظيمتين طار فرحا مما سمع عن تصارع الإمبراطوريتين وقتالهما، وجرؤ فى إبان الفتوحات الفارسية وبلوغها القمة أن يتنبأ بأن الغلبة تكون لراية الروم بعد بضع سنين، وفى ذلك الوقت، حين ساق الرجل هذه النبوءة، لم

(1) وهى نبوءة أخرى من النبوءات الواردة عن طريق السنة.

تكن أية نبوءة أبعد منها وقوعا لأن الأعوام الاثنى عشر الأولى من حكومة هرقل كانت تشى بنهاية الإمبراطورية الرومانية).

لكن مع ذلك، فإن جميع مؤرخى الإسلام يعرفون معرفة تامة أن هذه النبوءة لا علاقة لها بالرسالة التى وجهها محمد إلى (كسرى أبرويز)، لأن تلك الرسالة إنما أرسلت فى العام السابع من الهجرة، بعد صلح الحديبية، أى عام 628م، فى حين أن آية النبوءة المذكورة نزلت بمكة عام616م، أى قبل الهجرة بوقت طويل، فبين الحدثين فاصل يبلغ اثنى عشر عاما.

قال عبد القادر: وفوق هذا، فقد ورد فى الآيات التى تحدثت عن هذه النبوءة نبوءة علمية أخرى لا تقل شأنا، وهى الإشارة إلى أن أدنى بقعة فى الأرض هو تلك المنطقة التى حصلت فيها تلك الحرب.

فقد أكدت الدراسات الحديثة أن منطقة حوض البحر الميت، بالإضافة إلى كونها أقرب الأراضى التى كان الروم يحتلونها إلى الجزيرة العربية هى أيضا أكثر أجزاء اليابسة انخفاضًا، حيث يصل منسوب سطح الأرض فيها إلى حوالى أربعمائة متر تحت متوسط مستوى سطح البحر.

فقد ثبت علميًا بقياسات عديدة أن أكثر أجزاء اليابسة انخفاضًا هو غور البحر الميت، ويقع البحر الميت فى أكثر أجزاء الغورّ انخفاضًا، حيث يصل مستوى منسوب سطحه إلى حوالى أربعمائة متر تحت مستوى سطح البحر، ويصل منسوب قاعه فى أعمق أجزائه الثمانمائة متر تحت مستوى سطح البحر.

**انتصار الإسلام:**

قال عبد القادر: لو توقف الأمر عند هذه النبوءة لاعتبرنا الأمر مجرد صدفة.. ولكن النبوءات تتوالى لتحيل هذا الاحتمال..

وقد ذكر لكم حضرة القس الفاضل الحسابات المرتبطة بذلك.. ولن أعيدها هنا، فأنا مثله أقر بالمنطق الرياضى الذى يقر به.

سأذكر لكم الآن شيئا يعتبر فى حد ذاته نوعا خطيرا من الإعجاز يتمثل فى نبوءة خطيرة من النبوءات القرآنية.

أنتم تعلمون أن النبى ﷺ مكث عشر سنوات من عمر دعوته ـ هو وأصحابه الذين آمنوا معه ـ فى اضطهاد وتعذيب، وتنفير للناس عنه، ومقاطعته هو وعشيرته، ثم محاصرتهم لعدة سنوات الحصار المعروف فى السيرة بحصار الشعب، بل ومحاولة قتله...

لقد ذكر القرآن الكريم كل تلك المعاناة التى كان يعانيها النبى ﷺ وأصحابه، فالله تعالى يقول: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾﴾ [يونس]، ويقول: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾﴾ [هود]، ويقول: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴿٤٣﴾﴾ [الرعد]، ويقول: ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾﴾ [الحجر]، ويقول: ﴿وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾﴾ [القلم].

فى هذه الأوضاع، ومع كل التضييق والمعاناة التى كان يجدها النبى ﷺ وأصحابه، كانت تنزل الآيات الكريمة على النبى ﷺ بأن هذا الدين سيظهر على سائر الأديان وسيمكن لأتباعه، وسيبقى هذا القرآن محفوظًا من العاديات أبد الدهر، فقد كتب الله لهذا الدين البقاء والخلود، ولهذا الكتاب الحفظ والصيانة رغم كيد الأعداء ومكرهم.

اسمعوا هذه النبوءات العظيمة التى لم تزدها الأيام إلا تأكيدا:

يقول الله تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ (١٧)﴾ [الرعد]، ويقول: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩)﴾ [الحجر].

ويقول هذه الآية العظيمة التى تندك لهولها الجبال: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (٣٣)﴾ [التوبة].

بل إنه فى ذلك الواقع الخطير يتنزل القرآن يعد تلك الطائفة المؤمنة بالتمكين فى الأرض، فالله تعالى يقول: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ... (٥٥)﴾ [النور].

لتعرف قيمة هذه النبوءة، اقرأ كتب التاريخ لترى كيف كان محمد ﷺ، وكيف كانت الثلة المؤمنة التى معه، وما هى الظروف التى كانوا يعانونها، وهل يمكن لشخص فى ظل تلك الظروف أن يجازف بمثل هذه الوعود، ثم يذكر لها آجالا قريبة لا تتعدى الجيل الأول الذى تنزلت عليه تلك الآيات.

**عصمة الله لنبيه**

قال عبد القادر: ليس ذلك فقط.. بل إن الله تعالى يتحدى كل تلك الأساطيل المعدة لرسول الله ﷺ من اليهود والمشركين والمنافقين من أن تقوم بشىء يقضى على حياته، أو يسد أبواب دعوته.

لقد أنزل الله تعالى على نبيه ﷺ يطمئنه فى ذلك الوقت من أنه سيعصمه من الناس، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٦٧)﴾ [المائدة].

وقد أخبرت عائشة - رضى الله عنها - عن مدى التأثير الذى أحدثته هذه الآية، فقالت: كان النبى ﷺ يُحرس حتى نزلت ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾، فأخرج رسول الله ﷺ رأسه من القبة، فقال: (يا أيها الناس انصرفوا فقد عصمنى الله).

وقد ذكرت كتب السيرة الشواهد الكثيرة على عصمة الله لنبيه ﷺ فى مواطن كثيرة كان خطر الموت فيها أقرب إليه من شراك نعله، ولم يكن له فيها عاصم إلا الله وحده.

ومن ذلك ما رواه جابر رضي الله عنه قال: كنا إذا أتينا فى سفرنا على شجرة ظليلة تركناها لرسول الله ﷺ، فلما كنا بذات الرقاع نزل نبى الله تحت شجرة وعلق سيفه فيها، فجاء رجل من المشركين، فأخذ السيف فاخترطه، وقال للنبى ﷺ: أتخافنى؟ قال: لا، قال: فمن يمنعك منى؟ قال: الله يمنعنى منك، ضع السيف، فوضعه.

**غزوة بدر**

قال عبد القادر: ليس ذلك فقط، بل إن القرآن الكريم، وفى ظل الظروف الشديدة التى كان يعيشها المسلمون فى مكة المكرمة يتنزل على رسول الله ﷺ ليخبر بهزيمة المشركين المناوئين لرسول الله ﷺ، وأنهم سيولون الدبر، قال تعالى: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥)﴾ [القمر].

فهذه الآية من سورة القمر، وهى سورة مكية، وقد نزلت فى وقت كان أذى المشركين يزداد يومًا بعد يوم على النبى ﷺ وأصحابه.

يقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: كنت أقرأ قوله تعالى: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥)﴾

[القمر]، فأقول: أي جمع هذا وأية هزيمة إلى أن كان يوم بدر، رأيت رسول الله ﷺ يثب في الدرع وهو يقول: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾، فعرفت تأويلها يومئذ[1].

فقد تحققت تلك النبوءة القرآنية بعد سنوات من نزول الآية، يوم بدر أي في السنة الثانية من الهجرة.

**فتح مكة:**

قال عبد القادر: ليس ذلك فقط.. بل إن القرآن الكريم يعد المسلمين بفتح مكة ـ وهي المدينة العاصمة التي أخرجت رسول الله ﷺ والثلة التي معه ـ على إثر صلح الحديبية، فقد كان ظاهر الصلح إجحافا بحق المسلمين، حتى تساءل المسلمون: أليس رسول الله حقًّا!؟.. علام نعطي الدنية في ديننا إذن!؟

وفي طريق رجوعهم من مكة نزلت عليه سورة الفتح تبشره بهذا الفتح: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾﴾ [الفتح]، وفيها قوله تعالى: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾﴾ [الفتح].

**الفتوحات الإسلامية:**

قال عبد القادر: ليس ذلك فقط.. بل إن القرآن الكريم يخبر المسلمين بما سيلاقونه من حروب، وبما سيتنزل عليهم من فتوحات، فقال تعالى: ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾﴾ [الفتح].

فهذه الآية الكريمة تخاطب الأعراب من حول المدينة الذين تخلف كثير منهم، ولما رجع رسول الله ﷺ جاءوا يعتذرون إليه، فنزلت الآية تخبرهم بما ينتظرهم من حروب تتطلب أن يفوا بما يعدون به من عدم الخلف.

وقد حصل ذلك مباشرة بعد وفاة النبي ﷺ، حيث انطلقت جيوش الإسلام في عهد أبي بكر وعمر – رضي الله عنهما – ففتحت الشام ومصر والعراق، وغيرها من بلاد الإسلام.

**الثبات على الكفر:**

قال عبد القادر: ليس ذلك فقط.. بل إن القرآن الكريم يقرر أن أشخاصًا معينين بأسمائهم لن يسلموا، وأنهم سيموتون على الكفر، وكان بإمكانهم أن يكذبوا القرآن، ولو تظاهروا بالإسلام تظاهرًا، ولكنهم لم يخرجوا عما قرره القرآن في حقهم، بالرغم من إسلام الأعداد الكثيرة ممن كانوا أشد الناس عداوةً له.

ومن ذلك ما ذكره القرآن الكريم عن أبي لهب من أنه من أهل النار، قال تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾﴾ [المسد].

ومثل ذلك إخباره عن الوليد بن المغيرة أنه سيصلى النار، قال تعالى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾﴾ [المدثر].

---

(1) رواه عبد الرزاق في تفسيره (2/ 209) من طريق معمر عن أيوب به.

فقد نزلت هذه الآيات فى الوليد بن المغيرة، فقد روى أنه جاء إلى النبى ﷺ، فقرأ عليه القرآن، فكأنه رق له، فبلغ ذلك أبا جهل بن هشام، فأتاه فقال: أى عم، إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالا. قال: لم؟ قال: يعطونكه، فإنك أتيت محمداً تتعرض لما قبله. قال: قد علمت قريش أنى أكثرها مالا. قال: فقل فيه قولا يعلم قومك أنك منكر لما قال، وأنك كاره له. قال: فماذا أقول فيه؟ فوالله ما منكم رجل أعلم بالأشعار منى، ولا أعلم برجزه ولا بقصيده ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه الذى يقوله شيئًا من ذلك. والله إن لقوله الذى يقول لحلاوة، وإنه ليحطم ما تحته، وإنه ليعلو وما يعلى. وقال: والله لا يرضى قومك حتى تقول فيه. قال: فدعنى حتى أفكر فيه. فلما فكر قال: إن هذا سحر يأثره عن غيره. فنزلت: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ حتى بلغ ﴿تِسْعَةَ عَشَرَ﴾[1].

وغيرهم من رؤوس الكفر والنفاق، ولكن أحدا منهم لم يفطن لأن يخالف ما ورد فى القرآن الكريم من الوعيد المرتبط به.

والقرآن الكريم يذكر سر ذلك، فيقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الأنفال]، ويقول: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [القصص].

**إذلال اليهود وإفسادهم:**

قال عبد القادر: ليس ذلك فقط.. بل إن القرآن الكريم يقرر سننا ترتبط بالتاريخ جميعا، كان يمكن لمن أراد أن يكذب القرآن الكريم أن يتحداها، ولكنه لا يملك إلا أن ينصاع لها، ومن ذلك ما ورد فى شأن اليهود، فقد قال تعالى فى تحد معجز: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٦٧﴾﴾ [الأعراف]

فقد تعرض اليهود ـ نتيجة لفسادهم وكفرهم وصدهم عن سبيل الله ـ إلى نكبات وقتل وتشريد فى جميع الفترات التاريخية إلى عصرنا الحاضر.

فمن يطالع تاريخ اليهود يجد أنهم قد جرت عليهم أكثر من مقتلة على يد الرومان، والإنجليز والألمان.

هنا وجد بولس الفرصة، وقال: لقد كذب القرآن فى هذه النبوءة، فأنتم ترون اليهود اليوم، وما يتمتعون به من سلطان وعزة فى العالم أجمع.

ابتسم عبد القادر، وقال: لقد ذكر القرآن الكريم ذلك أيضا، وبين سره، فقال تعالى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [آل عمران].

فقد ذكر الله تعالى فى هذه الآية أن اليهود لا يخرجون عن بعض الذلة التى طبعوا عليها بسبب ذنوبهم إلا بسند يحميهم.

قام رجل من الجمع، وقال: صدق القرآن فى هذا.. وقد تتبعت تاريخ اليهود، فلم أر الذلة رفعت عنهم إلا بسند يستندون إليه.. فهم قوم انتهازيون وصوليون، يتملقون الأقوياء ويتحالفون معهم من أجل خدمة أهدافهم.

وسأذكر لكم خلاصة ما ذكرته التواريخ[2]:

عندما ظهر قورش الفارسى فى بلاد فارس، وأصبح قوة جبارة، ساعده اليهود واعتبروه

---

(1) تفسير الطبرى (29/ 98).

(2) انظر: اليهود والتحالف مع الأقوى، تأليف: نعمان عبد الرزاق السامرائى.

مخلصاً ربانيًا لهم، بل وصفوه بالمسيح المنتظر، كما جاء فى سفر أشعيا: (هكذا يقول الرب لمسيحه، لقورش الذى أمسكت بيمينه لأدوس أمامه أممًا، وأحل أحزمة ملوك، لأفتح أمامه المصراعين، فلا تغلق الأبواب، إننى أمشى أمامك، وأمهد الهضاب، وأحطم مصراعى النحاس، وأكسر مزاليج الحديد، وأعطيك مكنونات الكنوز وذخائر المخابئ، حتى تعرف أنى أنا الرب الذى يدعوك باسمك. لقبتك وأنت لا تعرفنى).

وقد قدم قورش هذا وعداً لليهود بالعودة إلى فلسطين، على نفس الطريقة التى صدر بها وعد بلفور.

وعندما كانت العلاقات بين الكلدانيين والمصريين متوترة، ومرشحة للاصطدام، قدر اليهود أن النصر سيكون حليف المصريين، لذلك سارعوا للتحالف معهم، وخالفهم فى ذلك النبى (أرميا)، فقد كان اعتقاده أن النصر سيكون من نصيب بختنصر وجيشه.

ولما انتصر جيش بختنصر، اقتحم بختنصر القدس وساق اليهود أسرى إلى بابل، وقَدَّر للنبى (أرميا) موقفه فترك له الحرية فى البقاء أو الهجرة.

وحين برز المسلمون كقوة عالمية سارع اليهود للتحالف معهم وكسب ودهم، بل راحوا يتجسسون لهم على الروم وغيرهم.

وفى الأندلس استقبلوا المسلمين، فلما خرجوا منها كانوا معهم، واستقروا فى أقطار المغرب وتركيا، فلما أفل نجم المسلمين، راحوا يتجسسون عليهم لمصلحة الاستعمار الغربى، بل راحوا يغرونه بالغزو.

وحين سطع نجم هولاكو فى المشرق كاتبه يهود بغداد وحالفوه وقدموا له المال والمشورة، قبل أن يصل إلى بغداد، فلما دخلها وقتل الخليفة ومليونًا من المسلمين سلم اليهود، فلم يقتل منهم أحد، كما سلمت أموالهم من النهب والسلب.

وفى العصر الحديث ابتدأ رهانهم على فرنسا فحالفوها، وراحوا يتعلمون الفرنسية، ويعملون فى خدمة النفوذ الفرنسى، فلما برزت إنجلترا قوة جديدة، تحولوا إليها وربطوا مصيرهم بها، وراحوا يغرون الإنكليز باستعمار فلسطين وغيرها، واتخذوا من لندن مقراً لحركتهم ونشاطهم، فلما توحدت ألمانيا وبرزت كقوة سياسية، تركوا لندن، وتوجهوا إلى برلين، وقام بعضهم بترجمة التوراة للألمانية، كما راحوا يتعلمون الألمانية، ويعقدون المؤتمرات هناك، ويكتبون بالألمانية كافة القرارات، وبقى الحال هكذا حتى بعد ظهور هتلر، حيث ظلوا على صلة به، يحاولون استثمار كرهه للمساعدة فى الهجرة إلى فلسطين.

وقد كشف مؤلف كتاب (الصهيونية فى زمن الدكتاتورية) ـ وهو اليهودى لينى برينر ـ عن وثيقة باسم (أنقرة)، وفيها أدلة على اتصال الإرهابى (شتيرن) صاحب العصابة التى حملت اسمه، وقد قام بالاتصال أولاً بالفاشيين الإيطاليين ثم جانبهم، بشرط المساعدة على قيام دولة إسرائيل، وكان هذا عام 1940 حين كان نجم (المحور) فى صعود وانتصاراتهم تدوى فى العالم، وخسارتهم للحرب تبدو بعيدة جداً.

ويوم أن قام هتلر بإغلاق النوادى اليهودية، ومصادرة صحفها، استثنى الصحف الصهيونية، حيث استمرت على الكتابة والنشر، وهذه الصلة صار البحث فيها من المحرمات، ومن يبحث فلن يجد داراً تنشر له، لأن سيف الإرهاب الصهيونى مسلط فوق الرؤوس فى الغرب.

ثم تحولوا بعد ذلك إلى لندن وحالفوا الإنجليز.

وبعد الحرب العالمية الثانية أدركوا أن مركز القوة قد تحول إلى أمريكا، فتوجهوا إلى هناك، رامين بثقلهم المالى والإعلامى والتنظيمى.

قال عبد القادر: وزيادة على ذلك، فقد ذكر القرآن الكريم هذا العلو الذى يتنعم اليهود به اليوم، وأخبر أنه علو مؤقت، فقال: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾﴾ [الاسراء]

فهذه الآية ذات نبوءات عظيمة..

فكثير من الأقوام والحضارات والأديان اندثرت وذهب سلطانها، ولكن اليهود لا يزالون هم هم.. بل صار لهم من السلطان ما يحركون به سياسة العالم أجمع.

بل إن القرآن الكريم فوق ذلك أخبر أن اليهود سيجتمعون بعد فرقة، قال تعالى: ﴿وَقُلْنَا مِن بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾﴾ [الإسراء].

فهذه الآية تدل على اجتماع اليهود فى مكان واحد[1]، ولم يجتمع اليهود فى التاريخ فى مكان واحد عبر التاريخ إلا مؤخراً فى فلسطين[2].

**العداوة بين المسيحيين:**

قال عبد القادر: ومن ذلك ما أخبر به القرآن الكريم عن ألوان العداوة التى تقع كل حين بين الطوائف المسيحية[3]، قال تعالى: ﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾﴾ [مريم]، وقال تعالى: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾﴾ [المائدة].

فالآية الأولى تبين أن المسيحيين انقسموا أحزابًا، بعض هذه الأحزاب أقرب إلى الحق من البعض الآخر.

والآية الثانية تبين أن فريقًا من المسيحيين قد نسوا كثيراً من تعاليم دينهم مما كان سببًا فى أن أصبح بعضهم لبعض عدواً.

وأن هذه العداوة لن تزول، ولكنها ستستمر حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

ولكى نرى مدى صدق هذه النبوءة فى مجال حقائق التاريخ يجب علينا أن نتتبع سيرة المسيحية من بدء ظهورها حتى الآن وسنجد حينئذ أن هذا التاريخ لم يحد يوماً عن منطوق هاتين الآيتين، بل سار على نهجهما وتَرَسَّم خطاهما.

فقد بدأت النصرانية فى فلسطين واحتكت أول الأمر باليهودية التى اضطهدت دعاتها، فرحل بعضهم إلى الإسكندرية ورحل آخرون إلى روما.

وقد أخذت المسيحية تنتشر فى الإمبراطورية الرومانية انتشاراً سريعًا وأخذ الأباطرة فى بادئ الأمر يضطهدون معتنقيها، ولكن الاضطهاد لم يزد المسيحية إلا انتشاراً وقوة حتى أصبح عدد المسيحيين أكثر من الوثنيين فجعلها (قسطنطين) دين الدولة الرسمى، ولما تولى (ثيودوسيوس) أخذ يحارب الوثنية، فأغلق معابدها وجعل الناس يعمّدُون قسراً.

---

(1) فكلمة لفيف تعنى الشىء المجتمع، والملتف من كل مكان، واللفيف: القوم يجتمعون من قبائل شتى ليس أصلهم واحدا، واللفيف ما اجتمع من الناس من قبائل شتى، واللفيف الجمع العظيم من أخلاط شتى فيهم الشريف والدنىء والمطيع والعاصى والقوى والضعيف.

(2) انظر: كتاب نهاية إسرائيل والولايات المتحدة الأمريكية، خالد عبد الواحد.

(3) انظر: كتاب القرآن والعلم، تأليف أحمد محمد سليمان، دار العودة بيروت.

ومع ذلك، فلم يلبث المسيحيون أن انقسموا فرقًا اشتد الخلاف بينها اشتدادًا صحبه اضطراب فى الأمن مما اضطر الأباطرة إلى التدخل بينها ومناصرة بعضها عل البعض الآخر، وانقسموا إلى ثلاثة فرق: الملكانية والنسطورية واليعاقبة.

والملكانيون هم أتباع أريوس الذى قال بأن المسيح مخلوق، وليس مولودًا من الآب، ولذا لا يساويه فى الجوهر.

أما النسطوريون، وهم أتباع نسطور، فقد قالوا إن للمسيح طبيعتين إحدهما إلهية والثانية بشرية، فهو بالأولى ابن الله وبالثانية ابن مريم، وإلى ذلك يشير قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (٣٠)﴾ [التوبة]، ويعنى القرآن الكريم بهذا أنهم قلدوا الديانات الوثنية القديمة فى هذه العقيدة مثل (الزردشتية والبراهمية والهندستانية والبوذية والرومانية والمصرية).

فقد كان المصريون يعتقدون أن (حوريس) ولد من الإله الأعظم (أوزوريس) والعذراء (إيزيس).. كما أن الرومان كانوا يعتقدون أن الإله (جوبيتر) أنجب (بريسيوس) من العذراء (داناى) وأنجب (ديونيسيس) من العذراء (سيميل) وأنجب (هرقل) من العذراء (ألكمين).. أما فى الهند فقد ولد كرشنا فى كهف بينما كانت أمه العذراء وخطيبها هاربين من غضب الملك(1).

أما الحزب الثالث، وهو حزب اليعاقبة فيعتقدون أن المسيح هو الله نزل إلى الأرض، وإلى ذلك يشير القرآن الكريم فى قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ (٧٢)﴾ [المائدة].

ولم يكتفوا بهذا الانقسام الذى نص عليه القرآن الكريم، بل إن الخلاف بينهم أخذ يزداد اتساعًا وتعددًا كلما تقدمت الأيام، كما ذكر القرآن الكريم.

ففى القرن الحادى عشر انقسمت الكنيسة إلى فرعين: الكنيسة الغربية والكنيسة الشرقية، ثم أخذ الخلاف يتسع ويتشعب، وأخذت الفرق تتوالد فتنشأ منها فرق جديدة وأحزاب جديدة رغمًا من الجهود العديدة التى بذلت لتوحيد الكنيسة.

ولم يقتصر الخلاف بينها على خلاف فى النظريات والعقائد والطقوس، بل تعداه إلى فتن دموية قامت بين تلك الطوائف، امتلأت بها كتب التاريخ.

ومن أمثلتها ما ارتكبه الرومان مع أقباط مصر، فقد كان الرومان على المذهب الملكانى، والمصريون معظمهم من اليعاقبة.. وعقب استرداد هرقل لمصر حاول أن يوفق بين المذهبين، فأبى القبط ذلك، فلجأ الرومان إلى القوة، وكان جزاء من يرفض تغيير عقيدته أن يجلد أو يضرب أو يلقى فى السجن حتى يلقى حتفه، وكان القساوسة من القبط يقتلون أو يشردون.

أما بطرقهم بنيامين، فقد اختفى وطلبه الرومان، فلم يعثروا له على أثر.. وقد استمر هذا الإرهاب عشر سنين فتن فيها الناس عن عقيدتهم، وأخذ الباقون يظهرون غير ما يبطنون تفاديًا للعقاب.

ونستطيع أن نتصور ما كان فى قلوب الفريقين من حقد إذا تأملنا قليلاً هذه الحادثة التى يرويها التاريخ، فقد ذكر المؤرخون أن الروم حينما اتفقوا مع المسلمين على تسليم حصن بابليون أعطاهم المسلمون مهلة ثلاثة أيام لإخلاء الحصن، وكان آخر أيامهم فى ذلك اليوم هو يوم عيد الفصح، ولكن

(1) انظر رسالة (الله جل جلاله) من هذه السلسلة.

نكبتهم هذه وحرمة ذلك اليوم لم تمنعهم من إرواء غليلهم والتنكيل بأسرى الأقباط الذين سجنوهم من قبل فى الحصن، فسحبوهم من سجونهم، وضربوهم بالسياط، وقطَّع الجند أيديهم.

ولم يقتصر الأمر على مصر، بل إن أباطرة الدولة الرومانية الشرقية اضطهدوا النسطوريين أيضًا فى آسيا الصغرى والشام وفلسطين مما كان سببًا فى التجاء علمائهم إلى العراق وفارس.

وتظهر البغضاء الكامنة فى قلوب المسيحيين بعضهم لبعض بوضوح فى أيام الحروب الصليبية، فعلى الرغم من وحدة غرضهم، وهو القضاء على المسلمين، وعلى الرغم من موجة الحماس الدينى التى سادت أوروبا فى ذلك الوقت، فإن سيرتها من أولها إلى آخرها تدل على انعدام الإخلاص.

وأول مظهر يدل على ذلك هو تغرير إمبراطور القسطنطينية بحملة بطرس الناسك، وعمله على التخلص منها لما كانت تتطلبه من تموينات، وما كان سيلازم بقاء ثلاثمائة ألف محارب من اختلال فى الأمن فى عاصمة ملكه، فسهل لهم العبور إلى الضفة الأخرى من البسفور، فكانوا لقمة سائغة ابتلعها السلجوقيون بدون مشقة، إذ أبادوا الحملة عن آخرها، فكيف تفسرون عمل الإمبراطور الذى أخذ يستغيث بمسيحيى أوربا لإنقاذه من السلاجقة حتى إذا هبوا لنجدته عمل إلى التخلص منهم.

ومن أظهر الأمثلة على انعدام الإخلاص بين المسيحيين بعضهم مع بعض قصة الحروب الصليبية الثالثة، فقد أدى الخلاف بين ريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا، وبين فيليب أغسطس ملك فرنسا إلى عودة ملك فرنسا إلى بلاده وترك ريتشارد وحيدًا ليحارب صلاح الدين، وزاد الطين بلة أن فيليب أخذ يدس الدسائس لريتشارد بالاستعانة ببعض ملوك أوربا، كما أخذ أخو ريتشارد فى إنجلترا يعمل على اغتصاب العرش منه، وكان من جراء ذلك أن حرم ريتشارد ثمن انتصاراته، واضطر إلى العودة وإلى عقد صلح مع صلاح الدين.

بالإضافة إلى هذا كله، فقد كانت حركة الإصلاح الدينى فيما بين القرن الخامس عشر والسابع عشر أعنف حركة دينية شهدها التاريخ، فقد أدت الخلافات الدينية إلى مشاحنات ومطاحنات واضطهادات كانت أشد ما عرف تاريخ الأديان.

فقد كان منها حرب الثلاثين عامًا، والتى استمرت من 1618 إلى 1648، وكان تأثيرها على ألمانيا تأثيرًا سيئًا، إذ ظلت ميدانًا للحرب وفريسة للنهب مدة ثلاثين سنة، هلك فيها نصف سكانها تقريبًا، واندثرت فيها معالم الصناعة والتجارة والفنون.

وكان منها ما حصل من اضطهادات لبروتستانت فرنسا، والذين يدعون (الهيجونوت)، وقد كانوا أقلية ضئيلة فى وسط أغلبية كاثوليكية عظيمة، ولذلك كان تاريخهم فيها حافلاً بالاضطهادات والحروب والمذابح التى من أشهرها (سان برثلميوا) فى 24 أغسطس سنة 1572.

إذ بينما كان (كوليني) زعيم الهيجونوت وأحد وزراء الملك شارل التاسع فى ذلك الوقت مارًا أطلق عليه رجل الرصاص، فأصابه إصابة غير قاتلة، فعزم الملك على الانتقام فخاف الكاثوليك عاقبة التحقيق وانفضاح أمرهم فبيتوا يوم (عيد القديس - ثلميو) مذبحة هائلة، ووضعوا علامات على بيوت الهيجونوت، وانتقل الخبر من باريس إلى الأقاليم، فقلدوها وكانت النتيجة أن قتل من الهيجونوت ألفا نفس فى باريس وثمانية آلاف فى الأقاليم، وحينما تولى رشيليو مقاليد الأمور فى فرنسا عمل على إخضاع الهيجونوت، وكانوا إذ ذاك يقيمون فى مدن محصنة فاستلزم إخضاعهم حروبًا طويلة الأمد.

والأخطر من ذلك كله محاكم التفتيش.. وهى محاكم لم ير التاريخ لها مثيلاً، فقد كان

شعارها القسوة التي لا رحمة فيها، والاضطهاد الذي لا هوادة فيه لأعداء الكاثوليك، وكانت تستمد سلطتها من البابا مباشرة، ولا دخل للحكومات في تصرفاتها، اللهم إلا القيام بتنفيذ أحكامها.

وقد كانت تستعمل كل الطرق، وتقبض على من تشاء، وتعذب المقبوض عليهم بما تراه حتى تكرهم على الاعتراف بإلحاد وحينئذ توقع عليهم عقوبة الإحراق أو السجن المؤبد ومصادرة الأملاك. حتى التائبون منهم يسجنون طول حياتهم تطهيراً لهم من جريمة الإلحاد، وكانت هذه المحاكم تراقب المطبوعات وتحرق ما لا يتفق منها مع المذهب الكاثوليكي.

هذا قليل من كثير.. ولو أنك أردت أن تتخذ القرن التاسع مقياساً نقيس به مقدار ما يكنه المسيحيون بعضهم لبعض من عداوة، كما دل عليه القرآن الكريم، لوجدت فيه من الحروب والثورات ما يصعب تتبعه وحصره.

فأبرز حروب هذا القرن الحروب النابليونية التي شملت أوروبا كلها من الشرق إلى الغرب، ومن الشمال إلى الجنوب.

**الكشوف العلمية:**

قال عبد القادر: ليس ذلك فقط.. بل إن القرآن الكريم يخبر عن كشف الله لآياته في الآفاق، وفي الأنفس، وهو ما يشير إلى الكشوف العلمية الكثيرة، والتي لم تزد المؤمنين إلا إيماناً، قال تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ ﴾ [فصلت].

فقد أخبر القرآن الكريم أن الله تعالى سيُري الناس جميعًا على اختلاف أجناسهم وألوانهم ومذاهبهم آياته في هذا الكون، وفي أنفسهم.

وقد استعمل القرآن الكريم حرف (السين) للدلالة على المستقبل، وعلى أن عطاء القرآن متجدد مستمر في كل زمن دون انقطاع ولا توقف عند حد، أو مع جيل بعينه.

**4 - نبوءات لم تحدث بعد:**

قال عبد القادر: وفوق ذلك لا يزال القرآن الكريم مصدرا للنبوءات، فقد أخبر بأشياء كثيرة لا تزال في طي الغيب:

ومن ذلك ذكره لخروج دابة الأرض، فقد قال تعالى: ﴿ وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [النمل].

ومن ذلك حديثه عن يأجوج ومأجوج، قال تعالى: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٩٧﴾ ﴾ [الأنبياء].

ومن ذلك حديثه عن نزول المسيح ﷺ، قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ ﴾ [الزخرف]، وقال تعالى: ﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾ ﴾ [النساء].

ومن ذلك حديثه عن الآيات التي تدل على قيام الساعة، واختلال النظام الكوني، وغيرها من الآيات التي لم يأذن الله في حدوثها بعد.

## 3 - نبوءات من السنة المطهرة

بعد هذه النماذج التى ذكرها عبد القادر عن نبـوءات القرآن الكريم هم بالجلوس، لكن ذلك المستأجر الناصح قام بأدب، وقال: لو أذنت ـ يا حـضرة القس ـ لهذا الرجل أن يحدثنا عن النبوءات التى ذكرها محمد، فلا أراه ترك الحديث عنها إلا لخشيته من أخطائها وتلفيقها وكذبها.

خـشى بولس من أن يكون فى كـلام رسول الله ﷺ من النبـوءات المعـجزة مـا كان للقـرآن الكريم، فلذلك قال: لا بأس.. نكتفى بما سمعناه.. ولا يهـمنا أأخطأ محمد أم أصاب.. فلم تأت لديتونة أحد هنا.

قام مستأجر بولس بكل غباء، وقد تصور أن بولس يتظاهر بما يقول من غير أن يقصد، فقال: لا.. لابد أن نسمـع.. لا يجوز أن يسمع الـقاضى بعض الأدلة، ويتـغافل عن غيـرها.. إنه إن لم يسمعنا ما قال محمد، فإنا نعتبر ذلك هروبا.

تغيـر وجه بولس، لكنه لم يجد إلا أن يأذن له، فـقام عبد القـادر.. وقلبه يكاد يطير فـرحا للفرصة العظيمة التى واتته، فراح يقول: ما دام ـ حضرة القس ـ قد أذن لى فى الحديث، فسأحدثكم عن نبوءات محـمد ﷺ.. وهى نبوءات لا تختلف فى دقـتها عن نبواءت القـرآن الكريم، وإن شئتم الحقيقة، فهى تفصيلات لما ورد فى القرآن الكريم من النبوءات.

وقبل أن أحـدثكم عن ذلك أحب أن أنبـهكم إلى أن محمـدا ﷺ لم يكن ملزما بـذكر تلك النبوءات، فلم يلزمه أحد بذلك، ولا الشريعة تستلزم ذلك.

ولكن النبى ﷺ قال هذه النبـوءات بإلهام إلهى ليتـرك لكل زمان آية تعرفـهم بالمصدر الإلهى للإسلام.. بالإضافة إلى أن بعض هذه النبوءات تحتوى نصـائح قيمة وجه بها النبى ﷺ أمته فى تلك الأوقات التى ستمر بها.

وقبل أن أبدأ فى عرض بعض هذه النبـوءات، أخبركم بأن عددا كبيـرا من أذكياء الناس ومن العباقرة جرؤوا فى فـترة من فترات حماستهم على أن يتنبأوا عن أنفـسهم أو عن غيرهم، لكن الزمن لم يصدق هذه النبوءات مطلقا، بل جاء يكذبها بكل قسوة.

لقد كان نابليون بـونابرت من أعظم قواد الجيوش فى عصره، وقد دلت فـتوحاته الأولى على أنه سوف يكون ندا لقيصر، والإسكندر المقـدونى. وترتب على ذلك أن وجد الغرور منفذه إلى رأس نابليون، فـأصبح يتوهم أنه هو مـالك القدر.. وازداد هذا الشعور لـديه، حتى إنه ترك مستـشاريه، وادعى أنه لم يكتب فى قدره غير الغلبة الكاملة على من فى الأرض، ولكنا جميعا نعرف النهاية التى كتبت له فى لوح القدر.

لقد سـار نابليون من باريس يوم 12 من يونية سنة 1815، مع جحـفله العظيم ليقـضى على أعدائه وهم فى الطريق، ولم تمض غير ستة أيام حتى الحق (دوق ولنجتون) شر هزيمة بجيش نابليون الجبـار، فى (ووترلو) بأراضى بلجيكا. وكـان (الدوق) يقود جنود إنجلترا وألمانيـا وهولندا. ولما يئس نابليون وأيقن من مصيره المحتوم فر هاربا من القيادة الفرنسية متوجها إلى أمريكا، ولم يكد يصل إلى الشاطىء، حتى ألقت شرطة الـسواحل القبض علـيه وأرغمـته على ركـوب سفيـنة تابعة للبـحرية البريطانـية، وانتهى به القـدر إلى أن أرسل إلى جزيرة غـير مـعمورة بجنوب الأطلنـطى، هى جزيرة (سـانت هيلينا)، ومات القـائد العـسكرى فى هذه الجزيرة بعـد سنوات طويلة من البـؤس والشقـاء والوحدة، فى 5 مايو سنة1821.

والبيـان الشيـوعى المعروف الذى صـدر سنة 1848، تنبـأ بأن أول البلاد التى ستـقـود الثورة

الشيوعية هى (ألمانيا)، ولكن ألمانيا على الرغم من مضى مائة وعشرين عاما من هذه النبوءة. لا تزال صفحات تاريخها خالية من مثل هذه الثورة..

وقد كتب كارل ماركس فى مايو سنة 1849 قائلا: (إن الجمهورية الحمراء تبزغ فى سماء باريس)، ورغم أنه قد مر على هذه النبوءة أكثر من قرن، فإن شمس الجمهورية الحمراء البازغة لم تشرق على أهالى باريس.

وقد قال أدولف هتلر فى خطابه الشهير الذى ألقاه بميونيخ فى 14 مارس 1931: (إننى سائر فى طريقى، واثقا تمام الثقة بأن الغلبة والنصر قد كتبا لى)، والعالم بأجمعه يعرف ـ اليوم ـ أن الذى كتب فى قدر الجنرال الألمانى العظيم كان هو الهزيمة والانتحار.

وقد شاهدنا وقائع عديدة من هذه النبوءات المضحكة فى (الهند)، فقد أعلن زعيم الشيوعيين: س. ب. جوشى، فى المؤتمر الثالث للحزب الشيوعى الهندى، الذى انعقد فى (مدوراى) بجنوب الهند، فى يناير سنة1954، بأن الحزب الشيوعى سوف يحكم، مستقلا بنفسه، فى الانتخابات العامة القادمة، فى ولايات: تراونكو-كونشين (كيرالا)، ومدارس، وآندهرا، والبنغال الغربية، وآسام.

وقد أجريت ثلاثة انتخابات عامة، وانتخابات تكميلية أخرى، فى هذه المدة الطويلة، ولم يستطع الحزب الشيوعى تأليف وزارة مستقلة فى أية ولاية من ولايات الهند.

وهكذا..

هذه نبوءاتهم، وذلك موقف التاريخ منها، فتعالوا بنا نسمع نبوءات محمد ﷺ لنعرضها على الواقع.

## أحداث معاصرة

أصاخ الجمهور بآذانه ينتظر حديث عبد القادر عن نبوءات محمد ﷺ الغيبية، وكنت من أشد الحضور شوقا لسماعها، ولو أنى كنت أحاول إخفاء ذلك أمام بولس، وأمام الجمهور.

بعد برهة وجيزة، قال عبد القادر: أول مظهر يتجلى فيه هذا النوع من الخوارق إخباره ﷺ بكثير من الأحداث المعاصرة له من خير وشر، بل إخباره ﷺ لمن حوله بما فى نفوسهم مما يضمرونه من الخير والشر.

وقد كثرت الروايات المخبرة بذلك حتى بلغت مبلغ التواتر، وسأنتقى لكم منها ما تقر به أعينكم، وتعلمون أن من يخبر بمثل هذا يستحيل أن يكون كاذبا أو مدعيا:

**الشر الخفى:**

فمن ذلك إخباره ﷺ بما تستبطنه النفوس من نوازع الشر الآثمة:

ومما روى فى ذلك إخباره ﷺ من حدث نفسه بالفتك به ﷺ، فعن سلمة بن الأكوع ـ رضى الله عنه ـ أنه كان مع رسول الله ﷺ إذ جاءه رجل فقال: من أنت؟ قال: (أنا نبى)، قال: وما نبى؟ قال: (رسول الله)، قال: متى تقوم الساعة؟ قال: (غيب ولا يعلم الغيب إلا الله)، قال: أرنى سيفك، فأعطاه النبى ﷺ سيفه، فهزه الرجل، ثم رده عليه، فقال رسول الله ﷺ: (أما إنك لم تكن تستطيع ذلك الذى أردت)، قال: وقد كان[1].

وفى رواية: ثم قال رسول الله ﷺ: (إن هذا أقبل، فقال: آتيه، فأسأله ثم آخذ السيف، فأقتله ثم أغمد السيف)[2].

(1) رواه الحاكم وصححه والطبرانى.

(2) رواه الطبرانى.

ومن ذلك إخباره ﷺ من حدث نفسه بأنه ليس فى القوم أحد خير منه، فعن أنس ـ رضى الله عنه ـ قال: ذكروا رجلا عند النبى ﷺ فذكروا قوته فى الجهاد واجتهاده فى العبادة، فإذا هم بالرجل مقبل، فقال له رسول الله ﷺ: (إنى أرى على وجهه سفعة من الشيطان)، فلما دنا سلم فقال له رسول الله ﷺ: (هل حدثت نفسك بأنه ليس فى القوم أحد خير منك؟) قال: نعم.

ثم ذهب فاختط مسجدا، ووقف يصلى فقال رسول الله ﷺ: (من يقوم إليه فيقتله؟)، فقام أبو بكر، فانطلق فوجده يصلى، فرجع، فقال: وجدته يصلى فهبت أن أقتله، فقال رسول الله ﷺ:(أيكم يقوم إليه فيقتله؟).

فقام عمر، فصنع كما صنع أبو بكر، فقال رسول الله ﷺ: (أيكم يقوم إليه فيقتله؟) فقال على: أنا، قال:(أنت إن أدركته)، فذهب فوجده قد انصرف، فرجع، فقال رسول الله ﷺ: (هذا أول قرن خرج من أمتى لو قتلته ما اختلف اثنان بعده من أمتى)(1).

ومن ذلك إخباره ﷺ من قاتل الكفار قتالا شديدا أنه من أهل النار، فقتل نفسه، فعن سهل بن سعد الساعدى ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ التقى هو والمشركون، فاقتتلوا، فلما مال رسول الله ﷺ إلى عسكره، ومال الآخرون إلى عسكرهم، وفى أصحاب رسول الله ﷺ رجل لا يدع لهم شاذة ولا فاذة إلا تبعها يضربها بالسيف، فقالوا: ما أجزأ منا اليوم أحد كما أجزأ فلان.

فقال رسول الله ﷺ: (أما أنه من أهل النار)، فقال رجل من القوم: أنا صاحبه، قال: فخرج معه فكلما وقف وقف معه، وإذا أسرع أسرع معه، قال: فجرح الرجل جرحا شديدا، فاستعجل الموت، فوضع نصل سيفه بالأرض وذبابه بين ثدييه، ثم تحامل على سيفه، فقتل نفسه فخرج الرجل إلى رسول الله ﷺ قال: أشهد أنك رسول الله، قال:(وما ذاك؟) قال: الرجل الذى ذكرت آنفا أنه من أهل النار، فأعظم الناس ذلك، فقلت: أنا لكم به، فخرجت فى طلبه، ثم جرح جرحا شديدا، فاستعجل الموت فوضع نصل سيفه فى الأرض وذبابه بين ثدييه، ثم تحامل عليه فقتل نفسه، فقال رسول الله ﷺ عند ذلك: (إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس، وهو من أهل النار، وإن الرجل ليعمل عمل أهل النار، فيما يبدو للناس، وهو من أهل الجنة)(2).

وفى رواية أخرى عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال: شهدنا مع رسول الله ﷺ خيبر، فقال لرجل ممن يدعى الإسلام:(هذا من أهل النار) فلما حضر القتال، قاتل الرجل قتالا شديدا فأصابته جراحة، فقيل: يا رسول الله، إن الذى قلت إنه من أهل النار، فإنه قد قاتل اليوم قتالا شديدا وقد مات، فقال النبى ﷺ:(إلى النار).

وفى رواية أخرى: فكاد بعض الناس أن يرتاب، فبينما هو على ذلك إذ وجد الرجل ألم الجراح، فأهوى بيده إلى كنانته، فانتزع منها سهما فانتحر بها، فاشتد رجال من المسلمين إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله، صدق الله حديثك، قد انتحر فلان فقتل نفسه فقال رسول الله ﷺ:(يا بلال، قم فأذن: لا يدخل الجنة إلا مؤمن، وإن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر).

ومن ذلك إخباره ﷺ عيينة بن حصين بما قاله لأهل الطائف، فعن عروة قال: استأذن عيينة بن حصين رسول الله ﷺ أن يأتى أهل الطائف يكلمهم، لعل الله تعالى أن يهديهم فأذن له، فأتاهم، فقال: تمسكوا بمكانكم، فوالله لنحن أذل من العبيد، وأقسم بالله لو حدث به حدث لتمسن العرب عز ومنعة، فتمسكوا بحصنكم، وإياكم أن تعطوا بأيديكم، ولا يتكاثرن عليكم قطع هذا الشجر، ثم رجع فقال له رسول الله ﷺ: (ماذا قلت لهم؟) قال: قلت لهم، وأمرتهم بالإسلام ودعوتهم إليه،

(1) رواه ابن أبى شيبة وأبو يعلى والبزار والبيهقى.
(2) رواه البخارى.

وحذرتهم من النار، ودللتهم إلى الجنة، قال: (كذبت، بل قلت لهم: كذا وكذا)، فقال: صدقت، يا رسول الله، أتوب إلى الله تعالى وإليك من ذلك)[1].

ومن ذلك إخباره ﷺ بكتاب حاطب إلى أهل مكة، فقد روى عن عروة ـ رضى الله عنه ـ قال: لما أجمع رسول الله ﷺ على المسير إلى مكة كتب حاطب بن أبى بلتعة إلى قريش يخبرهم بالذى أجمع رسول الله ﷺ عليه من المسير إليهم، ثم أعطاه امرأة من مزينة، وجعل لها جعلا على أن تبلغه قريشا، فجعلته فى رأسها، ثم فتلت عليه قرونها، وخرجت به، فأتى رسول الله ﷺ الخبر من السماء بما صنع حاطب، فبعث على بن أبى طالب والزبير بن العوام، فقال: (أدركا امرأة قد كتب معها حاطب كتابا إلى قريش يحذرهم)[2].

وعن على ـ رضى الله عنه ـ قال: بعثنى رسول الله ﷺ أنا والزبير والمقداد، فقال: (انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ، فإن بها ظعينة معها كتاب، فخذوه منها)، قال: فانطلقنا تعادى بنا خيلنا حتى أتينا الروضة، فإذا نحن بالظعينة، قلنا لها: أخرجى الكتاب، قالت: ما معى كتاب، فقلنا: لتخرجن الكتاب أو لنلقين الثياب، قال: فأخرجته من عقاصها، فأتينا به رسول الله ﷺ فإذا فيه (من حاطب بن أبى بلتعة إلى أناس بمكة من المشركين يخبرهم ببعض أمر رسول الله ﷺ)، فقال رسول الله ﷺ:(يا حاطب، ما هذا!؟) قال: يا رسول الله، لا تعجل على، إنى كنت امرؤا ملصقا فى قريش، وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون أهليهم وأموالهم؟ فأحببت أن تكون إذ فاتنى ذاك من النسب فيهم أن أتخذ عندهم يدا يحمون قرابتى، ولم أفعله ارتدادا عن دينى، ولا رضى بالكفر بعد الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: (أما إنه قد صدقكم)، فقال عمر: يا رسول الله، دعنى أضرب عنق هذا المنافق، فقال:(إنه شهد بدرا، وما يدريك، لعل الله اطلع على من شهد بدرا، فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم!) فأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (1) ﴾ [الممتحنة].

**أحاديث خفية:**

ومن النبوءات الغيبية التى وردت بها الأسانيد الكثيرة ما أخبر عنه ﷺ من الأحاديث الخفية التى تختزنها النفس فى نفسها، أو تسر بها لأقرب الناس إليها:

ومما روى فى ذلك إخباره ﷺ من قال فى نفسه شعرا به، فعن جابر بن عبد الله ـ رضى الله عنه ـ قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إن أبى يريد أن يأخذ مالى، فدعا أباه فهبط جبريل، فقال: إن الشيخ قد قال فى نفسه شيئا لم تسمعه أذناه! فقال رسول الله ﷺ: (قلت فى نفسك شيئا لم تسمعه أذناك؟) قال: لا يزال يزيدنا الله تعالى بك بصيرة ويقينا، نعم، قال: هات، فأنشأ يقول:

غذوتك مولودا ومنتك يافعا ... تعل بما أجنى عليك وتنهل
إذا ليلة ضاقتك بالسقم لم أبت ... لسقمك إلا ساهرا أتململ
تخاف الردى نفسى عليك وإنها ... لتعلم أن الموت حتم موكل
كأنى أنا المطروق دونك بالذى ... طرقت به دونى فعيناى تهمل

---

(1) رواه البيهقى وأبو نعيم.

(2) رواه ابن إسحاق والبيهقى.

فلما بلغت السن والغاية التى إليك مدى ما كنت فيك أؤمل
جعلت جزائى غلظة وفظاظة كأنك أنت المنعم المتفضل
فليتك إذ لم ترع حق مودتى فعلت كما الجار المجاور يفعل

فبكى رسول الله ﷺ وأخذ بتأنيب ابنه وقال: (أنت ومالك لأبيك)[1].

ومن ذلك إخباره ﷺ وابصة بن معبد بأنه جاء يسأل عن البر والإثم، فعن وابصة بن معبد ـ رضى الله عنه ـ قال: جئت رسول الله ﷺ وأنا لا أريد أن أدع من البر والإثم شيئا إلا سألته عنه. فأتيته، وهو فى عصابة من المسلمين حوله، فجعلت أتخطاهم لأدنو منه، فانتهرنى بعضهم، فقال: إليك يا وابصة عن رسول الله ﷺ؟ فقلت: إنى أحب أن أدنو منه، فقال رسول الله ﷺ: (دعوا وابصة، ادن منى وابصة)، فأدنانى حتى كنت بين يديه، فقال: (أتسألنى أم أخبرك؟) فقلت: لا، بل تخبرنى، قال: (جئت تسأل عن البر والإثم؟) قلت: نعم، فجمع أنامله فجعل ينكت بهن فى صدرى وقال: (البر ما اطمأنت إليه النفس واطمأن إليه القلب، والإثم ما حاك فى نفسك، وتردد فى الصدر وإن أفتاك الناس وأفتوك).

ومن ذلك إخباره ﷺ الثقفي والأنصارى بما جاءا يسألان عنه، فعن أنس ـ رضى الله عنه ـ قال: كنت جالسا مع رسول الله ﷺ فى مسجد الخيف، فأتاه رجل من الأنصار، ورجل من ثقيف فلما سلما، قالا: جئناك، يا رسول الله، لنسألك، قال: (إن شئتما أخبرتكما بما تسألانى عنه فعلت، وان شئتما أن أسكت وتسألانى فعلت)، قالا: لا، أخبرنا يا رسول الله، نزدد إيمانا أو نزدد يقينا، فقال الأنصارى للثقفى: سل رسول الله ﷺ قال: بل أنت فسله، فإنى أعرف حقك، فسأله، فقال: أخبرنا يا رسول الله، قال: (جئت تسألنى عن مخرجك من بيتك تؤم البيت الحرام وما لك فيه، وعن طوافك بالبيت، وما لك فيه، وركعتيك بعد الطواف، وما لك فيهما، وعن طوافك بالصفا والمروة، وعن وقوفك بعرفة، وما لك فيه، وعن رميك الجمار وما لك فيه، وعن نحرك ومالك فيه، وعن حلاقك رأسك، وما لك فيه، وعن طوافك، وما لك فيه) - يعنى الافاضة -.

فقال الرجل: والذى بعثك بالحق عن هذا جئت أسألك! قال: (فإنك إذا خرجت من بيتك تؤم البيت الحرام، لم تضع ناقتك خفا ولن ترفعه إلا كتب الله لك به حسنة ومحا به عنك خطيئة، ويرفع لك بها ردجة، وأما ركعتاك بعد الطواف فإنهما كعتق رقبة من ولد إسماعيل، وأما طوافك بالصفا والمروة فكعتقك سبعين رقبة، وأما وقوفك عشية عرفة، فإن الله تعالى يهبط إلى السماء الدنيا، فيباهى بكم الملائكة يقول: هؤلاء عبادى جاؤونى شعثا غبرا من كل فج عميق، يرجون رحمتى ومغفرتى، فلو كانت ذنوبكم عدد الرمل وكزبد البحر لغفرتها، أفيضوا مغفورا لكم، ولمن شفعتم له، وأما رميك الجمار فلك بكل حصاة رميتها تكفير كبيرة من الكبائر الموبقات الموجبات، وأما نحرك فمدخور لك عند ربك، وأما حلاق راسك فبكل شعرة حلقتها حسنة ويمحى عنك بها خطيئة).

قال: يا رسول الله، فإن كانت الذنوب أقل من ذلك؟ قال: (يدخر لك فى حسناتك، وأما طوافك بالبيت بعد ذلك، فإنك تطوف ولا ذنب لك، يأتى ملك حتى يده بين كتفيك، ثم يقول: اعمل لما تستقبل فقد غفر لك ما مضى).

قال الثقفى: أخبرنى يا رسول الله، قال: (جئت تسألنى عن الصلاة!) قال: (إذا غسلت وجهك انتثرت الذنوب من أشفار عينيك، وإذا غسلت يديك انتثرت الذنوب من أظفار يديك، وإذا

(١) رواه البيهقى.

مسحت برأسك انتثرت الذنوب عن رأسك، وإذا غسلت رجليك انتثرت الذنوب من أظفار قدميك) إلى آخر الحديث[1].

ومن ذلك أمره ﷺ أبا سعيد الخدرى ـ رضى الله عنه ـ بالاستعفاف لما أراد أن يسأله شيئا من الدنيا، فعن أبى سعيد الخدرى قال: أصابنا جوع ما أصابنا مثله قط فقالت لى أختى: اذهب إلى رسول الله ﷺ فاسأله فجئت، فإذا هو يخطب، فقال: (من يستعفف، يعفه الله، ومن يستغن يغنه الله)، فقلت فى نفسى: والله لكأنما أردت بهذا.. لا جرم لا أسأله شيئا، فرجعت إلى أختى فأخبرتها، فقالت: أحسنت، فلما كان من الغد، فإنى والله لأتعب نفسى تحت الأجم، إذ وجدت من دراهم يهود فابتعنا به، وأكلنا منه وجاءت الدنيا، فما من أهل بيت من الأنصار أكثر أموالا منا[2].

ومن ذلك إخباره ﷺ الأنصار بما قالوه فى غزوة الفتح، فعن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال: قالت الأنصار يوم فتح مكة: أما الرجل فقد أدركته رغبة فى قريته ورأفة بعشيرته، وكان الوحى إذا جاء لم يخف علينا، فإذا جاء فليس أحد يرفع طرفه إلى رسول الله ﷺ حتى ينقضى الوحى، فلما رفع الوحى قال: (يا معشر الأنصار، قلتم: أما الرجل فأدركته رغبة فى قريته، ورأفة بعشيرته، كلا فما أسمى إذن كلا، إنى عبد الله ورسوله المحيا محياكم، والممات مماتكم)، فأقبلوا يبكون، وقالوا: والله، ما قلنا إلا للضن بالله ورسوله، فقال: (إن الله ورسوله يصدقانكم ويعذرانكم)[3].

ومن ذلك إخباره ﷺ نوفل بن الحارث بماله الذى خبأه بجدة، فعن العباس بن عبد المطلب أنه قال: يا رسول الله، إنى قد كنت مسلما فقال رسول الله ﷺ: (أعلم بإسلامك فإن يكن كما تقول فالله يجزيك بذلك، فأما ظاهر منك فكان علينا، فافد نفسك وابنى أخيك نوفل بن الحارث بن عبد المطلب وعقيل بن أبى طالب بن عبد المطلب وحليفك عتبة بن عمرو أخى بنى الحارث بن فهر)، قال: ما أخال ذاك عندى يا رسول الله، فقال ﷺ: (فأين المال الذى دفنته أنت وأم الفضل، فقلت لها: إن أصبت فى سفرى فهذا المال لبنى الفضل بن العباس وعبد الله بن العباس وقثم بن العباس؟)، فقال لرسول الله ﷺ: والله يا رسول الله ما أصبتم منى عشرين أوقية من مال كان معى، فقال رسول الله ﷺ: (لا ذاك شئ أعطاناه الله تعالى منك) ففدى نفسه وابنى أخويه وحليفه، وأنزل الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الْأَسْرَىٰ إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾﴾ [الأنفال][4].

ومن ذلك إخباره ﷺ شيبة بن عثمان بما حدث به نفسه من قتله ﷺ، فعنه قال: لما فتح رسول الله ﷺ مكة عنوة، قلت: أسير مع قريش إلى هوازن بحنين، فعسى إن اختلطوا أن أصيب غرة من محمد فأكون أنا الذى قمت بثأر قريش كلها، وأقول: لو لم يبق من العرب والعجم أحد إلا اتبع محمدا ما أتبعه أبدا، فكنت مرصدا لما خرجت له لا يزداد الأمر فى نفسى إلا قوة.

فلما اختلط الناس، اقتحم رسول الله ﷺ عن بغلته، فدنوت منه، ورفعت سيفى حتى كدت أسوره، فرفع لى شواظ من نار كالبرق كاد يمحشنى فوضعت يدى على بصرى خوفا عليه فالتفت إلى رسول الله ﷺ وقال: (ادن منى)، فدنوت فمسح صدرى، وقال: (اللهم أعذه من الشيطان) فوالله لهو من حينئذ أحب إلى من سمعى وبصرى ونفسى، وأذهب الله ما كان بى، فقال: (يا شيبة،

---

(1) رواه مسدد والبزار والأصبهانى البيهقى.

(2) رواه البيهقى، وأخرجه ابن سعد بلفظ: فكان أول ما واجهنى به. وبلفظ: «فقلت ما قال هذا القول إلا من أجلى وبلفظ: فأتاح الله لى رزقا ما كنت أحتسبه».

(3) رواه مسلم والطيالسى والبيهقى.

(4) رواه البيهقى.

الذى أراد الله بك خيرا مما أردت بنفسك؟) ثم حدثنى بما أضمرت فى نفسى! فقلت. بأبى أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله، استغفر لى يا رسول الله، قال: (غفر الله لك)[1].

**أحداث خفية:**

ومن النبوءات الغيبية المرتبطة بهذا، إخباره ﷺ عن الكثير من الأحداث المعاصرة وقت حدوثها مع كونه كان غائبا عن محل الحدث:

ومما يروى فى ذلك ما ورد من إخباره ﷺ من أرسله إلى ابنته بما حبسه، فقد روى أن رسول الله ﷺ بعث إلى عثمان بهدية، فاحتبس الرسول، ثم جاء، فقال له رسول الله ﷺ: (ما حبسك؟) ثم قال: إن شئت أخبرتك بما حبسك، كنت تنظر إلى عثمان مرة، وإلى رقية مرة، أيهما أحسن؟ قال: أى والذى بعثك بالحق، إنه الذى حبسنى[2].

ومن ذلك إخباره ﷺ بالشاة التى أخذت بغير إذن أهلها، فعن جابر - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ مر وأصحابه بامرأة، فذبحت لهم شاة واتخذت لهم طعاما فلما رجع، قالت: يا رسول الله إنا ذبحنا لكم شاة، واتخذنا لكم طعاما، فادخلوا فكلوا.

فدخل رسول الله ﷺ وأصحابه، وكانوا لا يبدأون حتى يبدأ النبى ﷺ فأخذ النبى ﷺ لقمة، فلم يستطع أن يسيغها، فقال النبى ﷺ: (هذه ذبحت بغير إذن أهلها)، فقالت المرأة: يا رسول الله، إنا لا نحتشم من آل معاذ، نأخذ منهم، ويأخذون منا[3].

ومن ذلك ما روى عن أبى موسى - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ زار قوما من الأنصار فى دارهم فذبحوا له شاة، فأخذ رسول الله ﷺ من اللحم شيئا ليأكله، فمضغه ساعة لا يسيغه فقال: (ما شأن هذا اللحم؟) قالوا: شاة لفلان ذبحناها حتى يجيء نرضيه من ثمنها، فقال: (أعطوها الأسارى)[4].

ومن ذلك ما أخبر به ﷺ من نزول قوم بالجابية، وأخذ الطاعون إياهم، فعن معاذ - رضى الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: (تنزلون منزلا يقال له الجابية أو الجويبية فيصيبكم فيه داء مثل غدتى الجمل يستشهد الله تعالى به أنفسكم وذراريكم، ويزكى به أعمالكم)[5].

ومن ذلك إخباره ﷺ معاذا بأن ناقته تبرك بالجند، فعن معاذ - رضى الله عنه - أن النبى ﷺ يوم بعثه إلى اليمن، حمل على ناقته وقال: (يا معاذ، انطلق، حتى تأتى الجند، فحينما بركت بك هذه الناقة، فأذن وصل وابتن مسجدا)، فانطلق معاذ - رضى الله عنه - حتى انتهى إلى الجند، دارت به الناقة وأبت أن تبرك، فقال: هل من جند غير هذا؟ قالوا: نعم، جند ركامة، فلما أتاه دارت، وبركت، فنزل معاذ بها، فنادى بالصلاة، ثم قام يصلى الجند[6].

ومن ذلك إخباره ﷺ بقتل مجذر بن زياد، فقد روى أن جبريل أتى النبى ﷺ فأخبره أن الحارث بن سويد قتل المجذر بن زياد غيلة وأمره أن يقتله به فقتل رسول الله ﷺ الحارث بن سويد بالمجذر بن زياد وكان الذى ضرب عنقه بأمر رسول الله ﷺ عويم بن ساعدة على باب مسجد قباء[7].

---

(1) رواه ابن سعد وابن عساكر.
(2) رواه ابن عساكر.
(3) رواه أحمد برجال الصحيح.
(4) رواه الطبرانى.
(5) رواه الطبرانى.
(6) رواه ابن عبد الحكم فى فتوح مصر.
(7) رواه ابن سعد.

ومن ذلك إخباره ﷺ بسبب اللحم الذى صار حجرا، فعن أم سلمة ـ رضى الله عنها ـ قالت: أهدى إلى بضعة من لحم، فقلت للخادم: ارفعها إلى رسول الله ﷺ، وجاء سائل فقام على الباب، فقال: تصدقوا بارك الله فيكم، وذهب السائل، وجاء النبى ﷺ فقلت للخادم: أقربى إليه اللحم، فجاءت بها فإذا هى قد صارت مروة حجر، فقال النبى ﷺ: (أتاكم اليوم سائل فرددتموه؟) قلت: نعم، قال: (فإن ذاك لذاك)، فما زالت حجرا فى ناحية بيتها تدق حتى ماتت[1].

ومن ذلك إخباره ﷺ بقتل كسرى يوم قتل، فعن عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال لرسول صاحب صنعاء: (اذهبوا إلى صاحبكم، فقولوا: إن ربى قد قتل ربكم الليلة)[2].

وفى رواية: (انطلقا إلى باذان فأعلماه أن ربى قد قتل كسرى فى هذه الليلة).

وفى رواية: (أبلغا صاحبكما أن ربى قد قتل ربه كسرى فى هذه الليلة، لسبع ساعات مضت منها وإن الله سلط عليه ابنه شيرويه قتله)، فرجعا إلى باذان بذلك، فأسلم هو والأبناء الذين باليمن.

وفى رواية: فأخبرهما رسول الله ﷺ بأن الله قد قتل كسرى وسلط عليه ابنه شيرويه فى ليلة كذا من شهر كذا بعد ما مضى من الليل، وقولا له: (إن دينى وسلطانى سيبلغ ما بلغ ملك كسرى، وقولا له: إن أسلمت أعطيتك ما تحت يدك)، فقدما على باذان فأخبراه، فقال دحية: ثم جاء الخبر بأن كسرى قد قتل تلك الليلة.

وفى رواية: فقال باذان: فوالله، ما هذا بكلام ملك، ولننظر ما قال، فلم يلبث أن قدم عليه كتاب شيرويه، أما بعد، فإنى قتلت كسرى، فلا كسرى بعد اليوم، وقد قتل قيصر، فلا قيصر بعد اليوم، فكتب قوله فى الساعة التى تحدث بها واليوم والشهر، فإذا كسرى قد قتل وإذا قيصر قد مات.

**تحديات غيبية:**

ومن النبوءات الغيبية المرتبطة بهذا ما حصل منه ﷺ فى بعض مواقف الشدة من تحدى المشركين بمثل هذه النبوءات الغيبية، مع كونها فى مواقف حرجة غاية الحرج، ولا يقدم على التحدى حينها إلا من يثق فى صدقه:

ومما يروى فى ذلك إخباره ﷺ بأن الأرضة أكلت الصحيفة الظالمة التى كتبتها قريش، فقد روى أن المشركين اشتدوا على المسلمين كأشد ما كانوا حتى بلغ المسلمين الجهد، واشتد عليهم البلاء، حين هاجر المسلمون إلى النجاشى وبلغهم كرمه إياهم، وأجمعت قريش أن يقتلوا رسول الله ﷺ علانية، فلما رأى أبو طالب عمل القوم جمع بنى عبد المطلب، وأمرهم أن يدخلوا رسول الله ﷺ شعبهم ويمنعوه ممن أرادوا قتله، فاجتمعوا على ذلك مسلمهم وكافرهم، فلما عرفت قريش أن القوم منعوا رسول الله ﷺ فأجمعوا أمرهم أن لا يجالسوهم ولا يبايعوهم، ولا يدخلوا بيوتهم، حتى يسلموا رسول الله ﷺ للقتل وكتبوا صحيفة وعهودا ومواثيق، لا يقبلوا من بنى هاشم أبدا صلحا حتى يسلموه للقتل.

فلبث بنو هاشم فى شعبهم ثلاث سنين، واشتد عليهم البلاء والجهد ـ وفى لفظ: فحصروا بنى هاشم فى شعب أبى طالب ليلة هلال المحرم سنة سبع من نبوة رسول الله ﷺ ـ، فلما كان رأس ثلاث سنين تلاوم رجال من بنى عبد مناف ومن بنى قصى ورجال سواهم من قريش قد ولدتهم نساء من بنى هاشم، ورأوا أنهم قد قطعوا الرحم، وأجمعوا أمرهم من ليلتهم على نقض ما تعاهدوا عليه من الغدر والبراءة منه.

---

(1) رواه البيهقى وأبو نعيم.

(2) رواه البزار والبيهقى وأبو نعيم وأحمد والبزار والطبرانى والديلمى.

وبعث الله تعالى على صحيفتهم الأرضة، فأكلت كل ما كان فيها من عهد وميثاق، وكانت معلقة فى سقف البيت، فلحست كل ما كان فيها من عهد وميثاق، فلم تترك فيها اسما لله إلا لحسته، وبقى ما كان فيها من شرك أو ظلم أو قطيعة رحم.

ثم أطلع الله تعالى رسوله على أمر صحيفتهم، وأن الأرضة قد أكلت ما فيها من جور وظلم وبغى، وبقى ما كان فيها من ذكر الله تعالى، فذكر ذلك رسول الله ﷺ لأبى طالب، فقال أبو طالب: لا والثواقب، ما كذبنى، فانطلق يمشى بعصابة من بنى عبد المطلب حتى أتى المسجد، وهو حافل من قريش، فلما رأوهم عامرين بجماعتهم أنكروا ذلك، وظنوا أنهم خرجوا من شدة البلاء. فأتوا ليعطوهم رسول الله ﷺ فتكلم أبو طالب، فقال: قد حدثت أمور بينكم لم نذكرها لكم، فأتوا بصحيفتكم التى تعاهدتم عليها، فلعله أن يكون بيننا وبينكم صلح، وإنما قال ذلك خشية أن ينظروا فى الصحيفة قبل أن يأتوا بها، فأتوا بصحيفتهم معجبين بها لا يشكون أن رسول الله ﷺ مدفوعا إليهم، فوضعوها بينهم. قال أبو طالب: إنما أتيتكم لأعطيكم أمرا لكم فيه نصف، أن ابن أخى قد أخبرنى أن الله تعالى برئ من هذه الصحيفة التى فى أيديكم، ومحا منها كل اسم هو له فيها وترك فيها غدركم، وقطيعتكم إيانا، وتظاهركم علينا بالظلم، فإن كان ما قال ابن أخى كما قال فأفيقوا، فوالله، لا يسلم أبدا حتى نموت من عند آخرنا، وإن كان باطلا رفعناه إليكم، فقتلتم أو استحييتم. قالوا: قد رضينا بالذى تقول، ففتحوا الصحيفة فوجدوا الصادق المصدوق ﷺ قد أخبر خبرها، فلما رأتها قريش كالذى قال: قالوا: والله إن كان هذا قط إلا سحر من صاحبكم! فقال أولئك النفر: إن الأولى بالكذب والسحر غيرنا فإنا نعلم أن الذى اجتمعتم عليه من قطيعتنا أقرب إلى الجبت والسحر، ولولا أنكم اجتمعتم على السحر لم تفسد صحيفتكم، وهى بأيديكم طمس الله تعالى ما كان فيها من اسم له وما كان من بغى تركه، أفنحن السحرة أم أنتم؟ فقال عند ذلك النفر من بنى عبد مناف ومن قصى: نحن براء من هذه الصحيفة.

وخرج النبى ﷺ وأصحابه فعاشوا، وخالطوا الناس، وقال أبو طالب فى الصحيفة:

**ألم يأتكم أن الصحيفة مزقت    وأن كل ما لم يرضه الله يفسد**[1]

ومن ذلك إخباره ﷺ قريشا ليلة الإسراء بصفة بيت المقدس ولم يكن رآه قبل ليلة الإسراء، فقد روى أن النبى ﷺ بعد أن أسرى به مر عليه أبو جهل، فجاء حتى جلس إليه، فقال له كالمستهزئ: هل كان من شيء؟ قال: نعم، قال: ما هو؟ قال: أسرى بى الليلة، قال: إلى أين؟ قال: إلى بيت المقدس. قال: ثم أصبحت بين ظهرانينا؟ قال: نعم.

فلم ير أنه يكذبه مخافة أن يجحده الحديث إن دعا قومه إليه، قال: أرأيت إن دعوت قومك تحدثهم ما حدثتنى؟ قال: نعم، قال: يا معشر بنى كعب بن لؤى.

فانفضت إليه المجالس، وجاءوا حتى جلسوا إليهما.

فقال: حدث قومك بما حدثتنى. فقال النبى ﷺ: (إنى أسرى الليلة بى)، قالوا: إلى أين؟ قال: إلى بيت المقدس، قالوا: ثم أصبحت بين ظهرانينا؟ قال: نعم. فمن بين مصفق ومن بين واضع يده على رأسه متعجبا، وضجوا وأعظموا ذلك.

فقال المطعم بن عدى: كل أمرك قبل اليوم كان أمما غير قولك اليوم، أنا أشهد أنك كاذب،

---

(1) رواه البيهقى وأبو نعيم وابن سعد وابن عساكر، وكان كاتب الصحيفة منصور بن عكرمة العبدرى، فشلت يده حتى يبست فما كان ينتفع بها، فكانت قريش تقول بينها: إن الذى صنعنا إلى بنى هاشم لظلم، انظروا ما أصاب منصور بن عكرمة.

نحن نضرب أكباد الإبل إلى البيت المقدس مصعدا شهرا ومنحدرا شهرا، أتدعى أنت أتيته فى ليلة؟ واللات والعزى لا أصدقك.

فقال أبو بكر لمطعم: بئس ما قلت لابن أخيك، جبهته وكذبته، أما أنا فأشهد أنه صديق صادق.

فقالوا: يا محمد صف لنا بيت المقدس، كيف بناؤه وكيف هيئته؟ وكيف قربه من الجبل؟ وفى القوم من سافر إليه.

فذهب ينعت لهم بناءه كذا وهيئته كذا، وقربه من الجبل كذا، فما زال ينعته لهم حتى التبس عليه النعت، فكرب كربا ما كرب مثله، فجيء بالمسجد وهو ينظر إليه حتى وضع دون دار عقيل أو عقال، فقالوا: كم للمسجد من باب؟ ولم يكن عدها، فجعل ينظر إليه ويعدها بابا بابا، ويعلمهم، وأبو بكر يقول: صدقت صدقت، أشهد أنك رسول الله.

فقال القوم: أما النعت فوالله لقد أصاب.

ثم قالوا لأبى بكر: أفتصدقه أنه ذهب الليلة إلى بيت المقدس وجاء قبل أن يصبح؟ قال: نعم إنى لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك، أصدقه بخبر السماء فى غدوة أو روحة، فبذلك سمى أبو بكر الصديق.

ثم قالوا: يا محمد أخبرنا عن عيرنا.

فقال: (أتيت على عير بنى فلان بالروحاء قد ضلوا ناقة لهم، فانطلقوا فى طلبها، فانتهيت إلى رحالهم، فليس بها منهم أحد، وإذا قدح ماء فشربت منه، ثم انتهيت إلى عير بنى فلان فى التنعيم يقدمها جمل أورق عليه مسح أسود وغرارتان سوداوان وها هى ذه تطلع عليكم من الثنية).

وقد حصل كل ما أخبر عنه ﷺ، لكن ذلك لم يزدهم إلا جحودا وعتوا.

**شهداء وانتصارات:**

ومن النبوءات الغيبية المرتبطة بهذا ما أخبر عنه ﷺ من قتل بعض أصحابه وموتهم شهداء، أو من انتصاراتهم وفتح الله عليهم:

ومما يروى فى ذلك إخباره ﷺ بقتل أصحابه يوم الرجيع، أن خبيبا لما قال: اللهم إنى لا أجد من يبلغ رسولك عنى السلام، فقال النبى ﷺ حينئذ: (وعليك السلام) قال أصحابه: يا رسول الله، من قال؟ قال: (خبيب يقتل)، وفى لفظ: قال رسول الله ﷺ وهو جالس فى ذلك اليوم الذى قتل فيه خبيب: (عليك السلام خبيب قتلته قريش)[1].

ومن ذلك إخباره ﷺ بقتل أصحابه يوم بئر معونة، عن أنس ـ رضى الله عنه ـ أن أناسا جاؤوا إلى النبى ﷺ فقالوا: ابعث معنا رجالا يعلموننا القرآن والسنة، فبعث إليهم سبعين رجلا من الأنصار يقال لهم: القراء، فتعرضوا لهم فقتلوهم قبل أن يبلغوا المكان فقالوا: اللهم بلغ عنا نبينا أنا قد لقيناك، فرضينا عنك ورضيت عنا، فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: (إن إخوانكم قتلوا، فقالوا: اللهم بلغ عنا نبينا أن قد لقيناك فرضينا عنك، ورضيت عنا)[2].

ومن ذلك ما رواه ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ قال: بعث رسول الله ﷺ سرية، فلم نلبث إلا قليلا، حتى قام فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: (إن إخوانكم قد لقوا المشركين واقتطعوهم فلم يبق منهم أحد، وإنهم قالوا: ربنا بلغ قومنا أنا قد رضينا ورضى عنا ربنا، فأنا رسولهم إليكم، إنهم قد رضوا ورضى عنهم)[3].

(1) رواه البخارى والبيهقى وأبو نعيم.

(2) رواه مسلم والبيهقى.

(3) رواه البيهقى.

ومن ذلك إخباره ﷺ بقتل من قتل فى غزوة مؤتة يوم أصيبوا، فقد روى أن يعلى بن منبه قدم على رسول الله ﷺ بخبر أهل مؤتة، فقال له رسول الله ﷺ: (إن شئت فأخبرنى، وإن شئت أخبرتك)، قال: أخبرنى يا رسول الله به، فأخبره رسول الله ﷺ خبرهم كلهم ووصفه لهم، فقال: والذى بعثك بالحق، ما تركت من حديثه حرفا لم تذكره، وإن أمرهم لكما ذكرت، فقال: (إن الله رفع لى الأرض حتى رأيت معتركهم)[1].

وعن أنس ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ بعث زيدا وجعفر وعبد الله بن رواحة ودفع الراية إلى زيد فأصيبوا جميعا، فنعاهم رسول الله ﷺ قبل أن يجىء الخبر، فقال: (أخذ الراية زيد فأصيب، ثم أخذها جعفر فأصيب، ثم أخذها عبد الله بن رواحة فأصيب)، ثم أخذها خالد بن الوليد من غير أمره ففتح عليه[2].

ومن ذلك إخباره ﷺ بأن خيبر تفتح على يد على بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ فعن سهل بن سعد أن رسول الله ﷺ قال يوم فتح خيبر: (لأعطين هذه الراية غدا رجلا يفتح الله على يديه)، فلما أصبح قال: (أين على بن أبى طالب؟) قالوا: يشتكى عينيه، قال: (فأرسلوا إليه)، فأتى به، فبصق رسول الله ﷺ فى عينيه ودعا له فبرأ حتى كأن لم يكن به وجع[3].

وفى رواية أخرى عن سلمة بن الأكوع ـ رضى الله عنه ـ قال: كان على ـ رضى الله عنه ـ تخلف عن النبى ﷺ فى خيبر وكان رمدا، فقال: أنا أتخلف عن رسول الله ﷺ، فخرج فلحق به، فلما كان مساء الليلة التى فتح الله فى صباحها، قال رسول الله ﷺ: (لأعطين الراية غدا رجلا يحبه الله ورسوله، يفتح الله عليه)، فإذا نحن بعلى وما نرجوه، فقالوا: هذا على، فأعطاه الراية ففتح الله عليه.

ومن ذلك إخباره ﷺ شداد بن أوس ـ رضى الله عنه ـ بأنه يعافى من مرضه، وأنه يسكن الشام، فكان كذلك، فعنه أنه كان عند رسول الله ﷺ وهو يجود بنفسه، فقال: (مالك يا شداد؟) قال: ضاقت بى الدنيا، قال: (عليك، الشام تفتح ويفتح بيت المقدس، فتكون أنت وولدك أئمة فيهم)[4].

ومن ذلك إخباره ﷺ عثمان بن طلحة بأنه سيصير إليه مفتاح البيت يضعه حيث شاء، فعنه قال: لقينى رسول الله ﷺ بمكة قبل الهجرة، فدعانى إلى الاسلام، فقلت: يا محمد، العجب لك حيث تطمع أن أتبعك، وقد خالفت دين قومك، وجئت بدين محدث.

وكنا نفتح الكعبة فى الجاهلية يوم الاثنين والخميس، فأقبل يوما يريد الكعبة أن يدخلها مع الناس، فغلظت عليه، ونلت منه وحلم عنى، ثم قال: (يا عثمان، لعلك سترى هذا المفتاح بيدى، أضعه حيث شئت)، فقلت: لقد هلكت قريش، وذلت، فقال: (بل عمرت يومئذ وعزت).

فدخل الكعبة، فوقعت كلمته منى موقعا، ظننت أن الأمر سيصير إلى ما قال، فأردت الإسلام، فإذا قومى يزبروننى زبرا شديدا، فلما كان يوم فتح مكة، قال لى: (يا عثمان، ائت بالمفتاح) فأتيته به فأخذه منى ثم دفعه إلى، وقال: (خذها خالدة تالدة لا ينزعها منكم إلا ظالم)، فلما وليت نادانى، فرجعت إليه، فقال: (ألم تكن الذى قلت لك؟) فذكرت قوله لى بمكة قبل الهجرة، لعلك سترى هذا المفتاح يوما بيدى، أضعه حيث شئت، فقلت: بل أشهد أنك رسول الله حقا[5].

---

(1) رواه البيهقى وأبو نعيم.

(2) رواه البخارى.

(3) رواه البخارى ومسلم.

(4) رواه الطبرانى.

(5) رواه ابن سعد.

## أخبار الصحابة

قام رجل من الجمع بأدب، وقال: قد يعتبر البعض كل ما ذكرته من نبوءات غيبية معاصرة لمحمد نوعا من الفراسة الصادقة، فالمتوسم الذكى قد يقرأ فى عيون الناس، وفى وجوههم، وفى الأحداث المختلفة ما يجعله لا يصيب إلا الحق.

أنا لا أقول هذا.. ولكنى أدعوك من خلال هذه الشبهة إلى أن تذكر لنا ما ذكر محمد من النبوءات الغيبية المرتبطة بغير زمانه.

نظر عبد القادر إلى الرجل، وقال: إن ذكر هذه النبوءات يستدعى بعض الصبر، فإن كتب الحديث تمتلئ بها.. وهى من الكثرة والشمول بحيث لا يملك العقل الناصح إلا التسليم لها.

وقد حدث الصحابة رضى الله عنهم عن اهتمام رسول الله ﷺ بذكر ما يحصل بعده إلى قيام الساعة، فعن أبى زيد الأنصارى قال: صلى بنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح، ثم صعد المنبر، فخطبنا حتى حضرت الظهر، ثم نزل فصلى العصر، ثم صعد المنبر، فخطبنا حتى غابت الشمس، فحدثنا بما كان وما هو كائن، فأعلمنا أحفظنا)[1].

وفى حديث آخر عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قام فينا رسول الله ﷺ مقامًا فأَخْبَرَنَا عَنْ بدء الْخَلْقِ حَتَّى دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ مَنَازِلَهُمْ وأَهْلُ النَّارِ مَنَازِلَهُم، حَفِظَ ذَلِكَ مَنْ حَفِظَهُ ونَسِيَهُ مَنْ نَسِيَه[2].

وفى حديث آخر عن حذيفة قال: قام فينا رسول الله ﷺ قائمًا، فما ترك شيئًا يكون فى مقامه ذلك إلى قيام الساعة إلا حدثه حفظه من حفظه ونسيه من نسيه، قد علمه أصحابى هؤلاء وإنه ليكون الشىء فأذكره كما يذكر الرجلُ وجهَ الرجل إذا غاب عنه ثم إذا رآه عرفه)[3].

قام رجل من الجمع، وقال: ما سر حرص رسول الله ﷺ على ذلك؟

قال عبد القادر: أسباب كثيرة.. لعل أهمها ما يرجع إلى نصحه لأمته، فرسول الله ﷺ رسول للبشر جميعا، وفى جميع الأوقات إلى قيام الساعة.

لهذا، فإنه لم يترك شيئا تحتاج إليه الأمة فى الظروف المختلفة التى تمر بها إلا دل عليه.

وسأذكر لكم بعض ما يدل على هذا المقصد الشريف فى كل مناسبة تستدعى ذلك.

قالوا: فاذكرنا من هذه النبوءات ما نتيقن به صدق ما تقول.

قال عبد القادر: أول ذلك إخباره ﷺ صحابته الذين كانوا معه، والذين تربوا على يديه بما يحصل لهم من بعده.

**1 - أعمار ووفيات:**

ومن ذلك إخباره ﷺ عن أعمار الجيل الذى عاصره ﷺ، وقد ورد فى ذلك أحاديث كثيرة لم تزدها الأيام إلا تصديقا:

ومما يروى فى ذلك قوله ﷺ: (لا تأتى مائة سنة وعلى وجه الأرض نفس منفوسة اليوم)[4].

وحدث ابن عمر - رضى الله عنهما - عن ذلك، فقال: صلى بنا رسول الله ﷺ العشاء ليلة فى آخر حياته، فلما قام فقال: (أرأيتكم ليلتكم هذه؟) قال: (فإن رأس مائة سنة منها لا يبقى اليوم ممن هو على ظهر الأرض أحد)، يريد بذلك انخرام القرن[5].

---

(1) رواه مسلم.

(2) ذكره البخارى تعليقًا بصيغة التمريض.

(3) رواه أبو داود.

(4) رواه مسلم.

(5) رواه البخارى ومسلم.

وحدث جابر بن عبد الله - رضى الله عنهما - عن ذلك، فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول قبل موته بشهر: (تسألون عن الساعة وإنما علمها عند الله، فأقسم بالله ما على ظهر الأرض من نفس منفوسة اليوم يأتي عليها مائة سنة)[1].

وحدث أبو الطفيل - رضى الله عنه - عن تصديق ذلك، فقال: (لم يبق أحد ممن لقى رسول الله ﷺ غيرى)[2]، وقد مات أبو الطفيل على رأس المائة.

وفوق هذا، فقد أخبر ﷺ عن أعمار بعض الناس الذين عاصروه:

ومن ذلك ما حدث به عبد الله بن بسر - رضى الله عنه - حين ذكر أن النبي ﷺ وضع يده على رأسه وقال: (يعيش هذا الغلام قرنا) فعاش مائة سنة، وكان في وجهه ثؤلول، فقال: (لا يموت حتى يذهب الثؤلول من وجهه)، فلم يمت حتى ذهب[3].

ومن ذلك ما حدث به حبيب بن مسلمة الفهرى أنه أتى إلى النبي ﷺ وهو بالمدينة ليراه، فأدركه أبوه، فقال: يا رسول الله يدى ورجلي، فقال: (ارجع معه، فإنه يوشك أن يهلك)، فهلك في تلك السنة[4].

وفي رواية أخرى أن حبيب بن مسلمة - رضى الله عنه - قدم على النبي ﷺ المدينة غازيا، وأن أباه أدركه بالمدينة، فقال مسلمة: يا رسول الله، إنه ليس لى ولد غيره، فيقوم فى مالى، وضيعتى، وعلى أهل بيتى وأن النبي ﷺ رده معه، وقال: (لعلك أن يخلو لك وجهك فى عامك، فارجع يا حبيب مع أبيك)، فرجع فمات مسلمة فى ذلك العام، وغزا حبيب فيه[5].

ومن ذلك إخباره ﷺ عن موت الكثير من أتباعه على الإسلام، والإخبار بأنهم من أهل الجنة، فماتوا كما ذكر رسول الله ﷺ لم يغيروا، ولم يبدلوا، مع أن الردة حصلت بعد وفاة رسول الله ﷺ، بل حصلت فتن كثيرة كان يمكنها أن تؤثر فيهم.

فقد شهد للعشرة بالجنة، فعن أبى هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ كان على حراء هو وأبو بكر وعمر وعثمان وعلى وطلحة والزبير وسعد بن أبى وقاص، فتحركت الصخرة، فقال رسول الله ﷺ: (اهدأ، فما عليك إلا نبيٌّ، أو صديقٌ، أو شهيدٌ)[6].

وشهد ﷺ لجميع من شهد بيعة الرضوان عام الحديبية، وكانوا ألفا وأربعمائة[7]، وكلهم استمر على السداد والاستقامة حتى مات.

وأخبر ﷺ عكاشة بأنه من أهل الجنة، فقتل شهيدا يوم اليمامة، ففى الحديث عن أبى هريرة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: يدخل الجنة من أمتى سبعون ألفا بغير حساب، تضيء وجوههم إضاءة القمر ليلة البدر، فقام عكاشة ابن محصن الأسدى يجر نمرة عليه، فقال: يا رسول الله ادع الله أن يجعلنى منهم، فقال النبي ﷺ: اللهم اجعله منهم، ثم قام رجل من الأنصار فقال: يا رسول الله ادع الله أن يجعلنى منهم، فقال: سبقك بها عكاشة)[8].

وقد حصل ما أخبر عنه النبي ﷺ حيث قتل طلحة الأسدى عكاشة بن محصن شهيدا.

---

(1) رواه البخارى ومسلم.
(2) رواه مسلم.
(3) رواه الحاكم والبيهقى وأبو نعيم.
(4) رواه ابن سعد والبغوى وأبو نعيم فى الصحابة، والبيهقى.
(5) رواه أبو نعيم وابن عساكر.
(6) رواه مسلم.
(7) وقيل: وثلثمائة، وقيل: وخمسمائة.
(8) البخارى.

ومنهم النعمان بن بشير ـ رضى الله عنه ـ، فقد حدث قتادة قال: جاءت عمرة بنت رواحة تحمل ولدها النعمان بن بشير فى ليفة إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله، ادع الله أن يكثر ماله وولده، فقال: (أما ترضين أن يعيش كما عاش خاله، عاش حميدا، وقتل شهيدا، ودخل الجنة)(1).

وفى حديث آخر أن بشير بن سعد جاء بالنعمان بن بشير ـ رضى الله عنه ـ إلى النبى ﷺ فقال: يا رسول الله، ادع الله لابنى هذا، قال: (أما ترضى أن يبلغ ما بلغت؟ ثم يأتى الشام، فيقتله منافق من أهل الشام)(2).

وقد حدث مسلمة بن محارب وغيره عن تحقيق هذه النبوءة، فقال: لما قتل الضحاك بن قيس بمرج راهط فى خلافة مروان، أراد النعمان بن بشير ـ رضى الله عنه ـ أن يهرب من حمص، وكان عاملا عليها، فخالف، ودعا لابن الزبير فطلبه أمير حمص، فقتلوه، واحتزوا رأسه.

ومن ذلك إخباره ﷺ عن زمن موت بعض أهله:

وأولهم سيدة نساء العالمين فاطمة الزهراء بنت رسول الله ﷺ، فقد أخبر ﷺ بأنها أول أهل بيته لحوقا به، فعن عائشة ـ رضى الله عنها ـ فى قصة مسارة النبى ﷺ ابنته فاطمة، وإخباره إياها بأن جبريل كان يعارضه بالقرآن فى كل عام مرة، وأنه عارضنى العام مرتين، وما أرى ذلك إلا لاقتراب أجلى، فبكت، ثم سارها فأخبرها بأنها سيدة نساء أهل الجنة، وأنها أول أهله لحوقا به(3).

وقد حصل ما أخبر عنه النبى ﷺ، فلم تمكث فاطمة بعد رسول الله ﷺ إلا فترة قصيرة، فعن عائشة قالت: مكثت فاطمة بعد وفاة رسول الله ﷺ ستة أشهر(4).

ومنهم زينب بنت جحش ـ رضى الله عنها ـ، فعن عائشة ـ رضى الله عنها ـ أن نساء النبى ﷺ اجتمعن عنده، فقلن يوما: يا رسول الله أيتنا أسرع بك لحوقا؟ فقال: أطولكن يدا، وكانت سودة أطولنا ذراعا، فكانت أسرعنا به لحوقا(5).

وقد حصل ما أخبر عنه النبى ﷺ فعن عائشة ـ رضى الله عنها ـ أنها ذكرت الحديث وفيه: فكانت زينب أطولنا يدا، لأنها كانت تعمل بيدها وتصدق.

ومن ذلك إخباره ﷺ بموت بعض أصحابه قبل الفتنة.

ومنهم أبو الدرداء ـ رضى الله عنه ـ فقد أخبر ﷺ أنه يموت قبل الفتنة، فعن أبى الدرداء ـ رضى الله عنه ـ قال: قلت يا رسول الله بلغنى أنك تقول: (ليرتدن أقوام بعد إيمانهم)، قال: (أجل ولست منهم)، فتوفى أبو الدرداء قبل أن يقتل عثمان ـ رضى الله عنه ـ(6).

ومن ذلك إخباره ﷺ عن مكان موت بعض أصحابه:

ومنهم الأقرع بن شفى ـ رضى الله عنه ـ فقد أخبر ﷺ بأنه يدفن بالربوة من أرض فلسطين. فعنه قال: دخل على رسول الله ﷺ فى مرضى، فقلت: يا رسول الله، لا أحب إلا أنى ميت من مرضى، قال: (كلا لتبقين ولتهاجرن إلى أرض الشام وتموت، وتدفن بالربوة من أرض فلسطين)، فمات فى خلافة عمر، ودفن بالرملة(7).

---

(1) رواه ابن سعد.
(2) رواه ابن سعد.
(3) رواه البخارى ومسلم.
(4) رواه البخارى ومسلم.
(5) البخارى ومسلم.
(6) رواه البيهقى وأبو نعيم.
(7) رواه الطبرانى وابن السكن وصححه وابن منده وأبو نعيم كلاهما فى المعرفة، وابن عساكر.

ومن ذلك إشارته ﷺ إلى طاعون عمواس من بلاد الشام، وقد عبر ﷺ عن ذلك بحصول الموت الكثير، فعن عوف بن مالك ـ رضى الله عنه ـ قال: أتيتُ النبى ﷺ فى غزوة تبوك، وهو فى قبة من أدمٍ، فقال: (أعدد ستًا بين يدى الساعة، موتى، ثم فتحُ بيت المقدس، ثم مُوتان يأخذ فيكم كقعاص الغنم).

ويلاحظ قول النبى ﷺ (فيكم)، ففيه إشارة إلى أن هذا الموت سيكون فى جيل الصحابة، وقد حصل ذلك فعلاً، وقد حصل ذلك فى بلاد الشام، والذى عُرف بطاعون (عمواس)[1] نسبة إلى البلد الذى بدأ فيه، ثم انتشر منه.

وقد كان الطاعون قد ابتدأ بها، فى زمن عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ ثم فشا فى بلاد الشام.

وقد وقع هذا الطاعون فى سنة (17)[2] فى العام الذى ذهب عمر رضى الله عنه إلى الشام، وسمع به قد وقع، فلما أخبره عبد الرحمن بن عوف ـ رضى الله عنه ـ بالحديث رجع.

وقد مات فى هذا الطاعون خمسة وعشرون ألفًا من الصحابة وغيرهم.

وممن مات من كبار الصحابة فيه: أبو عبيدة بن الجراح، ومعاذ بن جبل، وشرحبيل بن حسنة، والحارث بن هشام، والفضل بن العباس ابن عم النبى ﷺ وأبو مالك الأشعرى، وسهيل بن عمرو، وابنه أبو جندل، وعتبة ابن سهيل، وعامر بن غيلان الثقفى، وغيرهم.

**2 ـ بلايا ومحن:**

بالإضافة إلى كل ذلك، فقد أخبر ﷺ الكثير من الصحابة عن البلاء الذى ينتظرهم:

ومن ذلك إخباره عن قتل عمر ـ رضى الله عنه ـ وعن فتح أبواب الفتن بموته، فعن حذيفة رضي الله عنه قال: كنا جلوسًا عند عمر، فقال: أيكم يحفظ حديث رسول الله ﷺ فى الفتنة؟ قلت: أنا، قال: هات إنك لجرىء، فقلت: ذكر فتنة الرجل فى أهله وماله ونفسه وولده وجاره تكفرها الصلاة والصدقة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، فقال: ليس هذا أعنى، إنما أعنى التى تموج موج البحر، فقلت: يا أمير المؤمنين إن بينك وبينها بابًا مغلقًا فقال: (ويْحَك أيفتح الباب أمْ يكسر؟ فقلت: بل يكسر، قال: إذًا لا يغلقُ أبدًا، قلت: أجَلْ، فقلنا لحذيفة: فكَانَّ عمرَ يعلم مَنِ الباب، قال: نعم إنى حدثته حديثًا ليس بالأغاليط، فقال: فهبنا أن نسأل حذيفة من الباب، فقلنا لمسروق، فسأله، فقال: عمر[3].

وقد وقع ما أخبر به ﷺ، حيث إنه بعد مقتل عمر رضي الله عنه فى سنة ثلاث وعشرين وقعت الفتن بين الناس، وكان قتله سبب انتشارها بينهم.

ومن النبوءات الغيبية المرتبطة بهذا أن رسول الله ﷺ أخبر عن عثمان ابن عفان رضى الله عنه أنه من أهل الجنة على بلوى تصيبه، فعن أبى موسى قال: دخل رسول الله ﷺ حائطا فدلى رجليه فى القف، فقلت: لأكونن اليوم بواب رسول الله ﷺ، فجلست خلف الباب فجاء رجل فقال: افتح، فقلت: من أنت؟ قال: أبو بكر، فأخبرت رسول الله ﷺ، فقال: افتح له وبشره بالجنة، ثم

---

(1) عمواس: قرية من قرى الشام ـ فى فلسطين ـ بين الرملة وبيت المقدس، على ستة أميال من الرملة على طريق بيت المقدس.

(2) وهذا ما صححه ابن حجر، وقيل: (سنة 18) وهذا ما ذكره عامة المؤرخين، كخليفة والطبرى وابن زبر وابن الأثير وابن كثير..

(3) رواه البخارى ومسلم.

جاء عمر فقال كذلك، ثم جاء عثمان فقال: ائذن له وبشره بالجنة على بلوى تصيبه، فدخل وهو يقول: الله المستعان)[1].

وعن حذيفة بن اليمان ـ رضى الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: (والذى نفسى بيده لا تقوم الساعة حتى تقتلوا إمامكم، وتجتلدوا بأسيافكم، ويرث دنياكم شراركم)[2].

وقد بين رسول الله ﷺ أن عثمان رضى الله عنه يقتل ـ حين يقتل ـ وهو مظلوم، فعن عبد الله بن عمر رضى الله تعالى عنهما، أن رسول الله ﷺ ذكر فتنة، فمر رجلٌ، فقال: (يقتل فيها هذا المقنع يومئذ مظلومًا)، قال: فنظرت فإذا هو عثمان بن عفان[3].

وقدّ كان النبى ﷺ قد عهد إلى عثمان رضى الله عنه، بأن الله تعالى سيقمّصه قميصًا ـ يعنى: الخلافة ـ فلا ينزعه، ولا يتنازل عنه، إذا ما نوزع من قبل الظلمة، فعن عثمان ـ رضى الله عنه ـ قال: (إن رسول الله ﷺ عهد إلىّ عهدًا، وأنا صابرٌ عليه)[4].

وقد وقع كل ذلك كما ذكر رسول الله ﷺ، حيث حصر فى داره، وقتل صابرًا محتسبًا شهيدًا.

ومن النبوءات الغيبية المرتبطة بهذا ما أخبر به ﷺ عن شهادة على بن أبى طالب ﷺ، بعد توليه إمرة المؤمنين، وقد تحقق ذلك، فلم يقتل، ولم يمت حتى ولى إمرة المؤمنين، ثم قتل، على حسب الوصف الذى أخبر عنه رسول الله ﷺ، وهو أن تخضب لحيته من جبهته ـ رضى الله عنه ـ

فعن أبى سنان الدؤلى، عن على ﷺ قال: قال لى عبد الله بن سلام ـ وقد وضعت رجلى فى الغرز، وأنا أريد العراق ـ: أين تريد؟ قلت: العراق قال: لا تأت أهل العراق، فإنك إن أتيتهم، أصابك ذباب السيف، قال علىٌّ: وأيم الله، لقد قالها لى رسول الله ﷺ.

قال أبو الأسود: فقلت فى نفسى: ما رأيت كاليوم، رجلاً محاربًا يحدث الناس بمثل هذا[5].

ولما مرض ﷺ وهو فى ينبع عاده بعض الصحابة والتابعين، وطلبوا منه أن ينتقل إلى المدينة، حتى إذا حضر أجله وليه الصحابة ـ رضى الله عنهم ـ وصلّوا عليه، أما إذا مات فى مكانه فلا يحضره إلا أعراب جهينة، فأجابهم ﷺ بهذا الحديث.

فعن أبى سنان الدؤلى، أنه عاد عليًا ﷺ فى شكوى له شكاها، قال: فقلت له: لقد تخوّفنا عليك يا أمير المؤمنين فى شكواك هذه، فقال: لكنى ـ والله ـ ما تخوّفت على نفسى منه، لأنى سمعت رسول الله ﷺ الصادق المصدوق يقول: (إنك ستُضرب ضربةً ههنا، ويكون صاحبها أشقاها، كما كان عاقرُ الناقة أشقى ثمود)[6].

وفى حديث آخر قال على ﷺ: (إن رسول الله ﷺ عهد إلىَّ أنى لا أموت حتى أؤمَّر، تخضب هذه ـ يعنى: لحيته ـ من هذه ـ يعنى: هامته)[7].

وقد ورد هذا عن عدد من الصحابة، رضى الله عنهم، كأنس وصهيب وجابر بن سمرة

---

(1) البخارى فى فضائل أصحاب النبى صلى الله عليه وآله باب (5) ومسلم فى فضائل الصحابة باب (3).

(2) رواه الطيالسى والترمذى ـ وحسنه ـ وابن ماجه والبيهقى.

(3) رواه أحمد، والترمذى وحسنه.

(4) رواه أحمد وإسحاق وابن أبى شيبة وابن سعد، والترمذى والحاكم وابن حبان وصححوه، وابن ماجه.

(5) رواه الحميدى وأبو يعلى والبزار وأبو نعيم وصححه ابن حبان والحاكم، وقال الهيثمى: رجال أبى يعلى رجال الصحيح، غير إسحاق بن أبى إسرائيل وهو ثقة مأمون.

(6) رواه عبد بن حُميد والبخارى فى تاريخه وابن أبى عاصم والطبرانى وأبو يعلى، والحاكم وصححه، وحسنه الهيثمى.

(7) رواه أحمد والبزار وابن أبى عاصم وأبو نعيم والحاكم وابن أبى شيبة والحارث، عن فضالة بن أبى فضالة، عن علىٍّ رضى الله عنه.

وعمار، ففى رواية عمار ﷺ قال: كنت أنا وعلىٌّ رفيقين فى غزوة ذى العُشيرة، فلما نزلها رسول الله ﷺ. وأقام بها، رأينا ناساً من بنى مدلج، يعملون فى عين لهم فى نخل، فقال لى علىٌّ: يا أبا اليقظان، هل لك أن نأتى هؤلاء، فننظر كيف يعملون؟ فجئناهم، فنظرنا إلى عملهم ساعة، ثم غشينا النوم، فانطلقت أنا وعلىٌّ فاضطجعنا فى صور من النخل، فى دقعاء من التراب، فنمنا، فوالله ما أهبَّنا إلا رسول الله ﷺ يحركنا برجله، وقد تتربّنا من تلك الدّقعاء، فيومئذ قال رسول الله ﷺ لعلىٍّ: (يا أبا تراب) لما يرى عليه من التراب، قال: (ألا أحدثكما بأشقى الناس رجلين؟) قلنا: بلى يا رسول الله، قال: (أحيمرُ ثمود الذى عقر الناقة، والذى يضربك يا على على هذه - يعنى: قرنه - حتى تُبلَّ منه هذه - يعنى: لحيته -)[1].

ومن النبوءات الغيبية المرتبطة بهذا إخباره ﷺ عائشة - رضى الله عنها - بأنها ستقع فى فتنة خروجها فى معركة الجمل، فعن أبى رافع، أن رسول الله ﷺ قال لعلى بن أبى طالب ﷺ: (إنه سيكون بينك وبين عائشة أمرٌ)، قال: أنا يا رسول الله؟ قال: نعم. قال: أنا؟ قال: نعم. قال: فأنا أشقاهم يا رسول الله؟ قال: لا ولكن إذا كان ذلك، فارددها إلى مأمنها[2].

بل إنه ﷺ ذكر العلامة التى ستكون عند ظهور هذا الخلاف، كما أشار إلى الظرف الذى ستكون عليه الأحوال، فعن عائشة - رضى الله عنها - أنها لما أتت على الحوأب، وسمعت نباح الكلاب، قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول لنا: (أيتكن تنبح عليها كلاب الحوأب[3])[4].

وأخبر ﷺ عما يحصل فى تلك المعركة، فعن ابن عباس رضى الله عنهما، عن النبى ﷺ أنه قال لنسائه: (ليت شعرىَ أيتكن صاحبة الجمل الأدبب، تخرج فينبحها كلاب الحوأب، يقتل عن يمينها وعن يسارها قتلى كثير، ثم تنجو بعدما كادت)[5].

وقد حصل ما أخبر عنه رسول الله ﷺ، فعن قيس بن أبى حازم قال: لما أقبلت عائشة فنزلت بعض مياه بنى عامر نبحت عليها الكلاب فقالت: أى ماء هذا؟ قالوا: الحَوْأب، قالت: ما أظننى إلا راجعة، فقال لها بعض من كان معها: بل تقدمين فيراك المسلمون، فيصلح الله ذات بينهم، فقالت: إن النبى ﷺ قال لنا ذات يوم: كيف بإحداكن تنبح عليها كلاب الحوأب[6].

وقد حدث حذيفة - رضى الله عنه - عن هذا مع أنه مات قبل مسير عائشة - رضى الله عنها - فقد روى أنه قيل له: حدثنا ما سمعت من رسول الله ﷺ قال: (لو فعلت لرجمتمونى)، قلنا: سبحان الله! قال: (لو حدثتكم أن بعض أمهاتكم تغزوكم فى كتيبة تضربكم بالسيف ما صدقتمونى)، قالوا: سبحان الله، ومن يصدقك بهذا قال: (أتتكم الحمراء فى كتيبة تسوق بها أعلاجها)[7]، قال البيهقى، أخبر بهذا حذيفة ومات قبل مسير عائشة.

بل إنه ﷺ أخبر بعض من سار مع عائشة - رضى الله عنها - على أنه سيقاتل عليا - رضى الله عنه - ظالما له، فعن أبى الأسود قال: شهدت الزبير خرج يريد عليا، فقال له على: أنشدك الله هل سمعت رسول الله ﷺ يقول: (تقاتله وأنت له ظالم)، فقال: لم أذكر، ثم مضى الزبير منصرفا[8].

---

(1) رواه أحمد والنسائى فى فضائل على والبخارى فى تاريخه والبزار والطحاوى وابن أبى عاصم وأبو نعيم والدولابى، وصححه الحاكم وأقره الذهبى، وقال الهيثمى: رجاله موثقون، فالحديث بمجموع طرقه صحيح.

(2) رواه أحمد الطحاوى والبزار والطبرانى، ورجاله ثقات، كما قال الحافظ الهيثمى، وحسنه الحافظ ابن حجر.

(3) الحوأب: موضع فى طريق البصرة.

(4) رواه أحمد وابن شيبة وأبو يعلى والبزار، وصححه ابن حبان والحاكم.

(5) رواه البزار والطحاوى، برجال ثقات، كما قال الحافظان الهيثمى وابن حجر.

(6) رواه أحمد وأبو يعلى والبزار وصححه ابن حبان والحاكم وسنده على شرط الصحيح.

(7) رواه الحاكم وصححه والبيهقى وأبو نعيم.

(8) رواه الحاكم وصححه والبيهقى.

وفي حديث آخر عن أبي جروة المازني قال: سمعت عليا يقول للزبير: نشدتك بالله أما سمعت رسول الله ﷺ يقول: إنك تقاتلني وأنت ظالم لي؟ قال: بلى، ولكن نسيت[1].

وفي حديث آخر عن قيس قال: قال علي للزبير: أما تذكر يوم كنت أنا وأنت، فقال لك رسول الله ﷺ: (أتحبه)، فقلت: وما يمنعني، فقال: (أما إنك ستخرج عليه وتقاتله وأنت ظالم)، قال: فرجع الزبير[2].

وفي حديث آخر أن عليا قال للزبير يوم الجمل: أنشدك الله هل سمعت رسول الله ﷺ يقول: (لتقاتلنه وأنت ظالم له ثم لينصرن عليك)، قال: قد سمعته، لا جرم لا أقاتلك[3].

ومن النبوءات الغيبية المرتبطة بهذا إخباره ﷺ بمقتل عمار رضي الله عنه شهيدا تقتله الفئة الباغية، فعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: إذا اختلف الناس كان ابن سمية مع الحق[4].

وعن حنظلة بن خويلد العنزي قال: بينا أنا عند معاوية إذ جاءه رجلان يختصمان في رأس عمار، يقول كل واحد منهما: أنا قتلته، فقال عبد الله بن عمرو: ليطب به أحدكما لصاحبه نفسا، فإني سمعت النبي ﷺ يقول: تقتله الفئة الباغية، فقال معاوية: ألا نح عنا مجنونك يا عمرو، فما بالك معنا، قال: إن أبي شكاني إلى رسول الله ﷺ فقال: أطع أباك ما دام حيا ولا تعصه، فأنا معكم ولست أقاتل[5].

بل إن النبي ﷺ أخبر عمارا عن آخر طعام يتناوله، فعن أبي البختري، أن عمار بن ياسر أتي بشربة لبن فضحك، وقال: إن رسول الله ﷺ قال لي: آخر شراب أشربه لبن حين أموت[6].

وقد حصل ما أخبر عنه النبي ﷺ فقد كان عمارا ـ رضي الله عنه ـ في جيش علي ـ رضي الله عنه ـ يوم صفين، وقتله معاوية وجيشه من أهل الشام الذين خرجوا بغاة على الخليفة الراشد.

ومن النبوءات الغيبية المرتبطة بهذا إخباره ﷺ أبا ذر الغفاري بالبلاء الذي ينتظره، فعن إبراهيم بن الأشتر، أنه لما حضره الموت، وهو بالربذة فبكت امرأته، فقال: ما يبكيك؟ فقالت: أبكي أنه لا يد لي بنفسك، وليس عندي ثوب يسع لك كفنًا، قال: لا تبكي، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: (ليموتن رجل منكم بفلاة من الأرض تشهده عصابة من المؤمنين)، قال: فكل من كان معي في ذلك المجلس مات في جماعة وقرية، ولم يبق منهم غيري، وقد أصبحت بالفلاة أموت، فراقبي الطريق فإنك سوف ترين ما أقول، فإني والله ما كَذبت ولا كُذبت، قالت: وأنى ذلك وقد انقطع الحاج، قال: راقبي الطريق، قال: فبينا هي كذلك إذا هي بالقوم تخب بهم رواحلهم كأنهم الرخم، فأقبل القوم حتى وقفوا عليها فقالوا: ما لك؟ فقالت: امرؤ من المسلمين تكفنوه وتؤجرون فيه، قالوا: ومن هو؟ قالت: أبو ذر، ففدوه بآبائهم وأمهاتهم ووضعوا سياطهم في محورها يبتدرونه، فقال: أبشروا، فأنتم النفر الذين قال رسول الله ﷺ فيكم ما قال، ثم أصبحت اليوم حيث ترون، ولو أن لي ثوبًا من أثوابي يسع لأكفن فيه، فأنشدكم بالله لا يكفني رجل منكم كان عريفًا أو أميراً أو بريداً، فكل القوم قد نال من ذلك شيئًا إلا فتى من الأنصار كان مع القوم، قال: أنا صاحبك، ثوبان

---

(1) رواه أبو يعلى والحاكم والبيهقي وأبو نعيم.

(2) رواه الحاكم.

(3) رواه أبو نعيم.

(4) رواه البيهقي في الدلائل.

(5) رواه أحمد.

(6) رواه أحمد، والحاكم.

فى عيبتى من غزل أمى وأحد ثوبى هذين الذين على، قال: أنت صاحبى، فكفنه الأنصارى فى النفر الذين شهدوه منهم حجر بن الأدبر ومالك الأشتر فى نفر كلهم يمان[1].

فقد حصل ما أخبر عنه رسول الله ﷺ بدقة كما أخبر.

وفى حديث آخر عن أبى ذر - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال له: (يا أبا ذر، كيف تصنع، إن أخرجت من المدينة؟)، قال: للسعة والدعة إلى مكة فأكون حمامة من حمام مكة، قال: (فكيف تصنع إذا أخرجت من مكة؟)، قال: للسعة والدعة، إلى الشام والأرض المقدسة، قال: (فكيف تصنع إذا أخرجت من الشام؟)، قال: قلت: والذى بعثك بالحق أضع سيفى على عاتقى، وأقاتل حتى أموت قال: (أو خير من ذلك؟ تسمع وتطيع وإن كان عبدا حبشيا)[2].

وعن القرظى، قال: خرج أبو ذر - رضى الله عنه - إلى الربذة فأصابه قدره، فأوصاهم أن غسلونى وكفنونى، ثم ضعونى على قارعة الطريق، فأول ركب يمرون بكم فقولوا: هذا أبو ذر صاحب رسول الله ﷺ فأعينونا على غسله ودفنه ففعلوا.

فأقبل عبد الله بن مسعود - رضى الله عنه - فى ركب من العراق، وقد وضعت الجنازة على قارعة الطريق، فقام عليه غلام، فقال: هذا أبو ذر صاحب رسول الله ﷺ قال: فبكى عبد الله بن مسعود - رضى الله عنه - وقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (تمشى وحدك، وتموت وحدك، وتبعث وحدك)[3].

وفى حديث آخر عن أبى ذر - رضى الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: (يا أبا ذر، إنى أراك منفيا، وإنى أحب لك ما أحب لنفسى، لا تأمرن على اثنين ولا تولين مال يتيم)[4].

ومن النبوءات الغيبية القريبة من هذا ما روى عن أنيسة بنت زيد بن أرقم عن أبيها، أن رسول الله ﷺ دخل على زيد يعوده فى مرض كان به، فقال: ليس عليك من مرضك بأس، ولكن كيف بك إذا عمرت بعدى فعميت؟ قال: إذًا أحتسب وأصبر، قال: إذًا تدخل الجنة بغير حساب، قال: فعمى بعد ما مات رسول الله، ثم رد الله عليه بصره، ثم مات[5].

ومن النبوءات الغيبية القريبة من هذا ما أخبر به ﷺ عن حال عبد الله ابن عباس من بعده، فقد روى أن العباس بن عبد المطلب بعث ابنه عبد الله إلى رسول الله ﷺ فى حاجة، فوجد عنده رجلا فرجع ولم يكلمه من أجل مكان الرجل، فلقى العباس رسول الله ﷺ، فأخبره بذلك، فقال: ورآه؟ قال: نعم، قال: أتدرى من ذلك الرجل؟ ذاك جبريل، ولن يموت حتى يذهب بصره ويؤتى علما[6].

وقد حصل ما أخبر عنه النبى ﷺ، فقد مات ابن عباس سنة ثمان وستين بعد ما عمى.

**3 - عطايا وامتحانات:**

بالإضافة إلى ذلك كله، فقد أخبر ﷺ عن الفتوح المادية الكثيرة التى ستفتح على الصحابة، وخطورتها على بعضهم، وخشيته ﷺ من ذلك، وقد حصل كل ما أخبر عنه ﷺ:

---

(1) رواه أحمد من طريقتين أحدهما هذه، والأخرى مختصرة عن إبراهيم بن الأشتر عن أم ذر، ورجال الطريق الأولى رجال الصحيح ورواه البزار بنحوه باختصار.

(2) رواه أحمد بن منيع وابن حبان، والنسائى فى الكبرى وابن ماجه.

(3) رواه أحمد وإسحاق.

(4) رواه أحمد وأبو داود والنسائى وابن حبان والحاكم.

(5) رواه البزار.

(6) رواه البيهقى فى الدلائل 6 / 478، وذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد 9 / 276 وعزاه للطبرانى، وقال: فيه من لم أعرفه.

فعن أبى سعيد الخدرى ـ رضى الله عنه ـ قال: جلس رسول الله ﷺ على المنبر ذات يوم. فقال: (إن مما أتخوف عليكم ما يفتح الله عليكم من زهرة الدنيا وزينتها)، فقال رجل: يا رسول الله. ويأتى الخير بالشر؟ فلم يرد عليه. قلنا: يافلان، ما شأنك سألت رسول الله ﷺ، فلم يرد عليك. فرأيت أنه ينزل عليه الوحى، قال: فمسح الرحضاء[1] عن ظهره، فقال: (أين السائل؟) كأنه حمده، وقال: (إنه لا يأتى الخير بالشر، وإنه مما ينبت الربيع ما يقتل أو يلم[2] إلا آكلة الخضر، أكلت حتى إذا امتلأت خاصرتها[3] استقبلت مطلع الشمس، فثلطت[4] وبالت ورتعت[5]، وإن هذا المال حلو خضر، فمن أخذه بحقه بورك له فيه، ونعم صاحب المال من أعطى منه المسكين واليتيم وابن السبيل ـ أو كما قال رسول الله ﷺ ـ والذى يأخذ بإشراف[6] نفس كان كالذى يأكل ولا يشبع، فيكون عليه حسرة يوم القيامة، ورب متخوض فى مال الله ومال رسوله له النار يوم القيامة)[7].

ففى هذا الحديث نبوءتان، بعضهما يرتبط ببعض:

أما الأولى، فإخباره ﷺ عن الفتوحات المادية التى سيفتح بها على هذه الأمة، وهو ما حصل طيلة تاريخها.

وأما الثانية، فما تحدثه تلك الفتوح من آثار خطيرة على سلوك بعض المسلمين ودينهم، مما جعل رسول الله ﷺ يتخوف عليهم من ذلك، وقد حصل ما تخوف منه رسول الله ﷺ فى كل فترات التاريخ.. ولا نزال نشهد آثار ذلك إلى اليوم.

ومما يروى فى ذلك ما حدث به عقبة بن عامر ـ رضى الله عنه ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (ستفتح عليكم الأرضون، ويكفيكم الله، فلا يعجز أحدكم أن يلهو بأسهمه)[8].

وفى حديث آخر عن أبى سعيد الخدرى ـ رضى الله عنه ـ أن النبى ﷺ قال: (إن الدنيا خضرة حلوة، وإن الله مستخلفكم فيها، لينظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء، فإن أول فتنة بنى إسرائيل كانت فى النساء)[9].

وفى حديث آخر عن عمرو بن عوف ـ رضى الله عنه ـ أن النبى ﷺ قال: (والله، ما أخشى عليكم الفقر، ولكن أخشى أن تبسط عليكم الدنيا، كما بسطت على من كان قبلكم، فتنافسوا كما تنافسوا وتهلككم كما أهلكتهم)[10].

وفى حديث آخر عن جابر ـ رضى الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: (هل لكم من أنماط[11]؟) قلنا: يا رسول الله، وأنى لنا أنماط؟ قال: (إنها ستكون لكم أنماط، فأنا أقول اليوم لامرأتى نحى عنى أنماطك، فتقول: ألم يقل رسول الله ﷺ إنها ستكون لكم أنماط بعدى)[12].

---

(1) الرحضاء: العرق الكثير.
(2) يلم: يدنو من الهلاك.
(3) الخاصرة: ما بين رأس الورك وأسفل الأضلاع وهما خاصرتان.
(4) الثلط: الرَّجيع الرَّقيق، وأكثر ما يُقال للإبل والبَقَر والفيلَة.
(5) رتعت: رعت كيف شاءت.
(6) الإشراف: اللهفة والطمع والحرص الشديد على تحصيل الشيء.
(7) رواه البخارى ومسلم.
(8) رواه مسلم.
(9) رواه مسلم.
(10) رواه البخارى ومسلم.
(11) الأنماط: نوع من البسط له خمل رقيق يغشى به الفرش والهوادج واحدها نمط.
(12) رواه البخارى ومسلم.

وفى حديث آخر عن طلحة النضرى أن رسول الله ﷺ قال: (عسى أن تدركوا زمانا حتى يغدى على أحدكم بجفنة، ويراح عليه بأخرى، وتلبسون أمثال أستار الكعبة)، قالوا: يا رسول الله، أنحن اليوم خير أم ذاك اليوم؟ قال: (بل أنتم اليوم خير، أنتم اليوم متحابون، وأنتم يومئذ متباغضون، يضرب بعضكم رقاب بعض)[1].

وفى حديث آخر أن رسول الله ﷺ قال: (ستفتح مشارق الأرض ومغاربها على أمتى، ألا وعمالها فى النار، إلا من اتقى الله، وأدى الأمانة)[2].

وفى حديث آخر عن وحشى ـ رضى الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: (لعلكم ستفتحون بعدى مدائن عظاما، وتتخذون فى أسواقها مجالس، فإذا كان ذلك فردوا السلام، وغضوا من أبصاركم، واهدوا الأعمى، وأعينوا المظلوم)[3].

وفى حديث آخر عن طلحة بن عبد الله البصرى، قال: قال رسول الله ﷺ: (إنكم ستدركون زمانا من أدركه منكم يلبسون فيه مثل أستار الكعبة، ويغدى ويراح عليه بالجفان)[4].

وفى حديث آخر عن ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: (إذا مشت أمتى بالمطيطاء وخدمها أبناء فارس والروم، رد الله بأسهم بينهم، وسلط شرارهم على خيارهم)[5].

* * *

## أخبار التابعين

قام رجل من الجمع، وقال: لقد ذكرت لنا النبوءات الكثيرة عن محمد، والتى شملت جمعا كثيرا من أصحابه. . فهل تحدث نبيكم عمن تلا الصحابة من التابعين وغيرهم؟

قال عبد القادر: أجل، وقد وردت بذلك نصوص كثيرة، وهى ـ بكل المقاييس ـ معجزة لا يمكن لأى شخص أن يتنبأ بمثلها إلا إذا كان له من العلم الإلهى ما يدله على ذلك:

ومن النبوءات الغيبية المرتبطة بهذا ما ورد من ذكره ﷺ لأويس القرنى، مع كونه لم يره، ولم يره أحد فى ذلك الحين، فقد قال ﷺ: (إن خير التابعين رجل يقال له أويس القرنى، وله والدة، وكان به بياض، فدعا ربه، فأذهبه عنه إلا موضع الدرهم فى سرته)[6].

وقد كان عمر رضي الله عنه منذ سمع هذا من رسول الله ﷺ حريصا على أن يلقاه، فكان إذا أتت عليه أمداد أهل اليمن سألهم: أفيكم أويس بن عامر؟ حتى أتى على أويس، فقال: أنت أويس بن عامر؟ قال: نعم، قال: من مراد ثم من قرن؟ قال: نعم، قال: كان بك برص، فبرئت منه إلا موضع درهم؟ قال: نعم، قال: ألك والدة؟ قال: نعم، فقال عمر: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (يأتى عليكم أويس بن عامر مع أمداد أهل اليمن من مراد ثم من قرن، كان به برص فبرأ منه إلا موضع درهم، له والدة هو بها بر، لو أقسم على الله لأبره، فإن استطعت أن يستغفر لك فافعل)، فاستغفر لى، فاستغفر له.

ثم قال له عمر: أين تريد؟ قال: الكوفة، قال: ألا أكتب لك إلى عاملها، فيستوصوا بك خيرا؟ فقال: لأن أكون فى غمار الناس أحب إلى.

---

(1) رواه أحمد، والحاكم وصححه، والبيهقى.

(2) رواه أبو نعيم فى الحلية.

(3) رواه الطبرانى فى الكبير.

(4) رواه البغوى.

(5) رواه الترمذى.

(6) رواه مسلم.

فلما كان فى العام المقبل حج رجل من أشرافهم فسأل عمر عن أويس، كيف تركته قال: تركته رث البيت قليل المتاع، فذكر له عمر الحديث الذى سمعه من رسول الله ﷺ، فلما قدم الرجل أتى أويسا فقال: استغفر لى، قال: أنت أحدث عهدا بسفر صالح، فاستغفر لى وقال: لقيت عمر بن الخطاب؟ فقال: نعم، قال: فاستغفر له، قال: ففطن له الناس فانطلق على وجهه[1].

فقد حصل ما أخبر عنه النبى ﷺ، وكان سلوك أويس دليلا على ذلك الفضل الذى أخبر عنه ﷺ.

ومن ذلك إخباره ﷺ عن صلة بن أشيم ـ رضى الله عنه ـ مع أنه لم يكن فى عصره، فعن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر، قال: بلغنا أن النبى ﷺ قال: (يكون فى أمتى رجل يقال له: صلة بن أشيم يدخل الجنة بشفاعته كذا وكذا)[2].

ومن ذلك إشارته ﷺ إلى محمد بن كعب القرظى ـ رضى الله عنه ـ مع أنه لم يكن فى عصره، فعن أبى بردة الظفرى ـ رضى الله عنه ـ، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (يخرج فى أحد الكاهنين رجل يدرس القرآن دراسة لا يدرسها أحد يكون من بعده) قال نافع بن يزيد: فكنا نقول هو محمد بن كعب القرظى والكاهنان قريظة والنضير[3].

وقد قال عون بن عبد الله ـ رضى الله عنه ـ يبين صدق هذه النبوءة فى محمد بن كعب: (ما رأيت أحدا أعلم بتأويل القرآن من القرظى)[4].

ومن ذلك إخباره ﷺ عن زيد بن صوحان ـ رضى الله عنه ـ مع أنه لم يكن فى عصره، فعن على ـ رضى الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: (من سره أن ينظر إلى رجل يسبقه بعض أعضائه إلى الجنة فلينظر إلى زيد بن صوحان)[5].

وفى حديث آخر عن الحارث الأعور، قال: كان مما ذكره رسول الله ﷺ زيد الخير وهو زيد بن صوحان، قال: قال رسول الله ﷺ: (سيكون بعدى رجل من التابعين وهو زيد الخير يسبقه بعض أعضائه إلى الجنة بعشرين سنة)، فقطعت يده اليسرى بنهاوند وعاش بعد ذلك عشرين سنة، ثم قتل يوم الجمل بين يدى على ـ رضى الله عنه ـ وقال قبل أن يقتل: إنى رأيت يدى خرجت من السماء تشير إلى أن تعال، وأنا لاحق بها[6].

ومن ذلك إخباره ﷺ عن جندب بن كعب ـ رضى الله عنه ـ مع أنه لم يكن فى عصره، فعن بريدة قال: ساق رسول الله ﷺ بأصحابه، فجعل يقول: (جندب وما جندب والأقطع الخير زيد)، فسئل عن ذلك فقال: (أما جندب فيضرب ضربة يكون فيها أمة وحده، وأما زيد فرجل من أمتى تدخل الجنة يده قبل بدنه ببرهة).

فلما ولى الوليد بن عقبة الكوفة فى زمن عثمان أجلس رجل يسحر، يريهم أنه يحيى ويميت، فأتى جندب بسيف فضرب به عنق الساحر، وقال: أحيى نفسك الآن، وأما زيد بن صوحان، فقطعت يده يوم القادسية وقتل يوم الجمل[7].

---

(1) رواه مسلم.

(2) رواه ابن سعد والبيهقى وأبو نعيم فى الحلية.

(3) رواه ابن سعد والبيهقى، ورواه البيهقى مرسلا بلفظ: يكون فى أحد الكاهنين رجل يدرس القرآن دراسة لا يدرسها أحد غيره قال: فكانوا يرون أنه محمد بن كعب القرظى، والكاهنان قريظة والنضير.

(4) رواه البيهقى.

(5) رواه أبو يعلى.

(6) رواه ابن عساكر.

(7) رواه ابن منده وابن عساكر، وأخرجه ابن عساكر من حديث على ومن حديث ابن عباس وابن عمرو من طريق أبى مجلز مرسلا.

ومن ذلك إخباره ﷺ بكلام الميت بعده، فعن حذيفة ـ رضى الله عنه ـ قال: سمعت النبى ﷺ يقول: (يكون فى أمتى رجل يتكلم بعد الموت)[1].

وقد حدث ربعى بن حراش عن صدق نبوءة النبى ﷺ، فقال: مات أخى الربيع، وكان أصومنا فى اليوم الحار، وأقومنا فى الليلة الباردة، فسجيته، فضحك، فقلت: يا أخى، أحياة بعد الموت؟ قال: لا، ولكنى لقيت ربى، فلقينى بروح وريحان، ووجه غير غضبان، فقلت: كيف رأيت الأمر؟ قال: أيسر مما تظنون.

فذكر لعائشة ـ رضى الله عنها ـ فقالت: صدق ربعى، سمعت رسول الله ﷺ يقول: (يتكلم رجل من أمتى بعد الموت من خير التابعين)[2].

ومن ذلك إشارته ﷺ إلى العلماء والربانيين الكثيرين الذين ظهروا من بلاد فارس، مع أن أهل فارس فى ذلك الحين كانوا مجوسا، فعن ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: (لو كان الإيمان عند الثريا ـ وفى لفظ: لو كان العلم معلقا بالثريا ـ لناله رجال من فارس)[3].

ومن ذلك إخباره ﷺ بعالم المدينة، والذى تواطأ الكثيرون على أن المراد به الإمام مالك بن أنس ـ رضى الله عنه ـ فعن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: (يوشك الناس أن يضربوا أكباد الإبل، فلا يجدوا عالما أعلم من عالم المدينة)، قال سفيان بن عيينة ـ رضى الله عنه ـ نرى هذا العالم مالك بن أنس، ولم يعرف بهذا الاسم غيره، ولا ضربت أكباد الإبل إلى أحد مثل ما ضربت إليه[4].

وقال أبو مصعب: كان الناس يزدحمون على باب مالك ويقتتلون عليه من الزحام، يعنى لطلب العلم.

ومن ذلك إخباره ﷺ بعالم قريش، والذى تواطأ الكثيرون على أن المراد به الإمام الشافعى، فعن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: (اللهم اهد قريشا، فإن علم العالم يسع طباق الأرض)[5].

وفى رواية: (فإن عالمها يملأ طباق الأرض علما)[6].

وفوق ذلك كله، فقد أخبر ﷺ عن المحبين المخلصين الذين امتلأت قلوبهم أشواقا لنبيهم ﷺ، فعن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: (إن أناسا من أمتى يأتون بعدى يود أحدهم لو اشترى رؤيتى بأهله وماله)[7].

ومن النبوءات الغيبية المرتبطة بهذا إخباره ﷺ عن نار تخرج بالمدينة، فعن أبى ذر، قال: أقبلنا مع رسول الله ﷺ فرأينا ذا الحُليفة، فتعجل رجالٌ إلى المدينة، وبات رسول الله ﷺ وبتنا معه، فلما أصبح سأل عنهم، فقالوا إلى المدينة، فقال: (تعجلوا إلى المدينة والنساء، أما إنهم سيدعونها أحسن ما كانت)[8].

---

(1) رواه الطبرانى فى الأوسط بسند جيد.
(2) رواه البيهقى وصححه وأبو نعيم.
(3) رواه البخارى ومسلم، وغيرهما.
(4) رواه الحاكم وصححه.
(5) رواه أحمد والترمذى وقال: حسن.
(6) رواه الخطيب وابن عساكر عن أبى هريرة والبيهقى فى المدخل عن على وابن عباس وأبو داود الطيالسى فى مسنده وفيه الجارود مجهول.
(7) رواه الحاكم.
(8) مسند أحمد 5/ 189 برجال ثقات.

وفي حديث آخر قال ﷺ: (لا تقوم الساعة حتى تخرج نارٌ من رومان أو ركوبة (وهي ثنية بين مكة والمدينة) تضيء منها أعناق الإبل ببصرى)[1].

وقد سماها ﷺ نار الحجاز، فقال: (لا تقوم الساعة حتى تظهر نار بالحجاز)[2]، وفي رواية (تخرج نار من أرض الحجاز تضيء أعناق الإبل ببصرى)[3].

وقد حصل ما أخبر عنه رسول الله ﷺ، فظهور هذه النار بالمدينة المنورة اشتهر اشتهاراً بلغ حدَّ التواتر عند أهل الأخبار.

وكان ابتداء الزلزلة بالمدينة الشريفة مستهل جمادي الآخرة، أو آخر جمادى الآخر، أو آخر جمادى الأول سنة أربعة وخمسين وست مئة، لكنها كانت خفيفة لم يدركها بعضهم مع تكررها بعد ذلك، واشتدت في يوم الثلاثاء ـ على ما حكاه القطب القسطلاني ـ وظهرت ظهوراً عظيمًا، اشترك في إدراكه العام والخاص، ثم لما كان ليلة الأربع ثالث الشهر أو رابعه، في الثلث الأخير من الليل حدث بالمدينة زلزلة عظيمة أشفق الناس منها، وانزعجت القلوب لهيبتها، واستمرت تزلزل بقية الليل، واستمرت إلى يوم الجمعة، ولها دوى أعظم من الرعد، فتموج الأرض وتتحرك الجدران، حتى وقع في يوم واحد دون ليلة ثماني عشرة حركة، على ما حكاه القسطلاني.

وقال القرطبي: قد خرجت نار الحجاز بالمدينة، وكان بدؤها زلزلة عظيمة في ليلة الأربعاء بعد العتمة، الثالث من جمادي الآخرة سنة أربع وخمسين وست مئة، واستمرت إلى ضحى النهار يوم الجمعة فسكنت، وظهرت بقريظة، بطرف الحرة ترى في صفة البلد العظيم.

وقال النووي: تواتر العلم بخروج هذه النار عند جميع أهل الشام.

ونقل أبو شامة عن مشاهدة كتاب الشريف سنان قاضي المدينة الشريفة وغيره أنَّه في ليلة الأربعاء ثالثة جمادى الآخرة حدث بالمدينة في الثلث الأخير من الليل زلزلة عظيمة أشفقنا منها، وباتت في تلك الليلة تزلزل، ثم استمرت تزلزل كل يوم وليلة مقدار عشر مرات.

قال: والله لقد زلزلت مرة ونحن حول الحجرة فاضطرب لها المنبر إلى أن سمعنا منه صوتًا للحديد الذي فيه واضطربت قناديل الحرم الشريف.

وقال القطب القسطلاني: فما كان يوم الجمعة نصف النهار ظهرت تلك النار، فثار من محل ظهورها في الجو دخان متراكم غشى الأفق سواده، فلما تراكمت الظلمات وأقبل الليل سطع شعاع النار، وظهرت مثل المدينة العظيمة في جهة الشرق.

قال القاضي سنان: وطلعت إلى الأمير ـ وكان عز الدين منيف بن شيحة ـ وقلت له: قد أحاط بنا العذاب، ارجع إلى الله، فأعتق كل مماليكه، وردَّ على الناس مظالمهم، وأبطل المكس.

ثم هبط الأمير إلى مسجد النبي ﷺ وبات في المسجد ليلة الجمعة وليلة السبت، ومعه جميع أهل المدينة حتى النساء والصغار، ولم يبق أحد في النخل إلا جاء إلى الحرم الشريف وبات الناس يتضرعون ويبكون، وأحاطوا بالحجرة الشريفة كاشفين رؤوسهم مُقرين بذنوبهم مبتهلين مستجيرين بنبيهم ﷺ.

وقال القطب: ولما عاين أمير المدينة ذلك أقلع عن المخالفة واعتبر، ورجع عما كان عليه من المظالم وانزجر، وأظهر التوبة والإنابة، وأعتق جميع مماليكه، وشرع في ردِّ المظالم وعزم أهل المدينة على الإقلاع عن الإصرار وارتكاب الأوزار، وفزعوا إلى التضرع والاستغفار، وهبط أميرهم من

---

(1) الطبراني.
(2) البخاري ومسلم.
(3) البخاري.

القلعة مع قاضيهم الشريف سنان وأعيان البلد، والتجأوا إلى الحجرة الشريفة، وباتوا بالمسجد الشريف بأجمعهم حتى النساء والأطفال، فصرف الله تعالى تلك النار العظيمة ذات الشمال، ونجوا من الأهوال، فسارت تلك النار من مخرجها وسالت ببحر عظيم من النار، وأخذت فى وادى أُحيليين وأهل المدينة يشاهدونها من دورهم كأنها عندهم ومالت من مخرجها إلى جهة الشمال، واستمرت مدة ثلاثة أشهر على ما ذكره المؤرخون.

وقد ذكر القطب القسطلانى فى كتاب أفرده لهذه النار، وهو ممن أدركها لكنه كان بمكة فلم يشاهدها: إن ابتداءها يوم الجمعة السادس من شهر جمادى الآخرة، وأنها دامت إلى يوم الأحد السابع والعشرين من رجب، ثم خمدت ـ فجملة ما أقامت اثنين وخمسين يومًا، لكنه ذكر بعد ذلك أنها أقامت منطفئة أيامًا ثم ظهرت، قال: وهى كذلك تسكن مرة وتظهر أخرى، فهى لا يؤمن عودها وإن طفئ وقودها.

وقد ذكر ابن كثير أنه أضاءت من هذه النار أعناق الإبل ببصرى، فقال: أخبرنى قاضى القضاة صدر الدين الحنفى قال: أخبرنى والدى الشيخ صفى الدين مدرس مدرسة بصرى أنه أخبره غير واحد من الأعراب صبيحة الليلة التى ظهرت فيها هذه النار ممن كان بحاضرة بلد بصرى أنهم رأوا صفحات أعناق إبلهم فى ضوء تلك النار، فقد تحقق بذلك أنها الموعودة بها، والحكمة فى إنارتها بالأماكن البعيدة من هذا المظهر الشريف حصول الإنذار، ليتم به الانزجار.

## أخبار الفتن

قام بعض القوم، فقال: لقد حصلت فتن كثيرة بعد مدة وجيزة من وفاة محمد، كان لها تأثيرها الخطير فى حركة أمته وتوجهاتها، فهل أشار إليها، أو نبه عليها؟

قال عبد القادر: أجل.. بل نبه إلى ما هو أبعد منها، وسأحدثكم من ذلك ما تعلمون به كيف بين ﷺ وجه الحق الذى اختلفت فيه الأمة.

ولو أن الأمة راجعت ما نقل عنه من ذلك وحققت فيه، لاهتدت إلى الحق، ورفعت الخلاف بينها.

قالوا: فاذكر لنا من ذلك ما نعلم به صدق ما ادعيته.

قال عبد القادر: لقد ذكر رسول الله ﷺ المراحل التى تمر بها الأمة من خيرها وشرها، فحدث حذيفة بن اليمان ـ رضى الله عنه ـ عن ذلك، فقال: كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركنى، فقلت: يا رسول الله، إنا كنا فى جاهلية وشر فجاءنا الله بهذا الخير، فهل بعد الخير من شر؟ قال: نعم. قلت: فهل بعد الشر من خير؟ قال: نعم. وفيه دخن. قلت: وما دخنه؟ قال: قوم تعرف منهم وتنكر. قلت: فهل بعد ذلك الخير من شر؟ قال: نعم، دعاة على أبواب جهنم، من أجابهم إليها قذفوه فيها. قلت: يا رسول الله، فما تأمرنى إن أدركنى ذلك؟ قال: تلزم جماعة المسلمين وإمامهم. قلت: فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام؟ قال: فاعتزل تلك الفرق كلها ولو أن تعض بأصل شجرة حتى يدركك الموت، وأنت كذلك. قلت: يا رسول الله صفهم لنا. قال: هم قوم من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا)[1].

فقد اختصر ﷺ فى هذا الحديث كل الأطوار التى تمر بها أمته، ثم بين نواحى الخلل فيها، وكيفية تداركه..

---

(1) البخارى ومسلم.

إن هذا الحديث ـ أيها الجمع المبارك ـ يحمل فى حد ذاته رسالة نصح للأمة لا ينتهى مددها.

ومن النبوءات الغيبية المرتبطة بهذا ما أخبر به ﷺ عن أنواع الحكم التى ستمر بها الأمة، وكأنه ﷺ يضع منحنى بيانيا لاستقامته وانحرافه.

فقد جاء فى الحديث قوله ﷺ: (تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة، فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء الله أن يرفعها، ثم تكون ملكا عاضًا، فيكون ما شاء الله أن يكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون ملكا جبريًا فتكون ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة)[1].

**1 - الفتنة الأولى:**

وكل ذلك قد تحقق كما أخبر رسول الله ﷺ. بل إنه ﷺ حدد بدقة بعض تلك الفترات، فذكر أن مدة الخلافة التى على منهاج النبوية ثلاثون عامًا، فكانت كما أخبر ﷺ، فعن سفينة، قال: قال رسول الله ﷺ: (خلافة النبوة ثلاثون سنة، ثم يؤتى الملك من يشاء)، قال سعيد: قال لى سفينة أمسك: أبو بكر سنتين، وعمر عشرا، وعثمان اثنتى عشرة، وعلى ستا[2].

وفوق ذلك، فقد أخبر ﷺ عن سنة من سنن الاجتماع، وهو ذلك الانحدار الذى تمر به الحضارات، فقال: (ما كان نبى إلا كان له حواريون يهدون بهديه، ويستنون بسنته، ثم يكون من بعده خلوف يقولون ما لا يفعلون، ويعملون ما تنكرون)[3].

وفى حديث آخر قال ﷺ: (يكون بعد الأنبياء خلفاء يعملون بكتاب الله، ويعدلون فى عباد الله، ثم يكون بعد الخلفاء ملوك يأخذون بالثأر، ويقتلون الرجال، ويصطفون الأموال، فمغير بيده، ومغير بلسانه، ومغير بقلبه، ليس وراء ذلك من الإيمان شىء).

وقد أخبر ﷺ عن افتراق القرآن والسلطان، وفى ذلك إشارة إلى الحكم بغير ما أنزل الله، وإلى الاستبداد السياسى الذى حصل بعد الخلفاء الراشدين:

فعن معاذ ـ رضى الله عنه ـ عن رسول الله ﷺ قال: (خذوا العطاء ما دام عطاءً، فإذا صار رشوة على الدين فلا تأخذوه ولستم بتاركيه، يمنعكم من ذلك المخافة والفقر، ألا وإن رحى الايمان دائرة، وإن رحى الإسلام دائرة، فدوروا مع الكتاب حيث يدور، ألا وإن السلطان والكتاب سيفترقان ألا فلا تفارقوا الكتاب، ألا إنه سيكون عليكم أمراء إن أطعتموهم أضلوكم، وإن عصيتموهم قتلوكم)، قالوا: فكيف نصنع يا رسول الله؟ قال: (كما صنع أصحاب عيسى ابن مريم حملوا على الخشب ونشروا بالمناشير، موت فى طاعة الله، خير من حياة فى معصية الله)[4].

وقد أخبر فى حديث آخر ما يبين قرب ذلك، فعن أبى سعيد ـ رضى الله عنه ـ قال: خطبنا رسول الله ﷺ فقال فى خطبته: (ألا إنى أوشك أن أدعى فأجيب، فيليكم عمال من بعدى يعملون بما تعلمون ويعملون ما تعرفون، وطاعة أولئك طاعة، فتلبثون كذلك زمانا، ثم يليكم عمال من بعدهم يعملون بما لا تعلمون، ويعملون بما لا تعرفون فمن قادهم، وناصحهم، فأولئك قد هلكوا

---

(1) رواه أحمد والطيالسى والبزار، وعزاه البوصيرى لابن أبى شيبة وللطبرانى فى الأوسط مختصرًا، وقال الحافظ الهيثمى: رجاله ثقات، وقد ورد بنحوه عن بعض الصحابة أيضًا.

(2) رواه أحمد والطيالسى وأبو داود والترمذى والنسائى والطحاوى وغيرهم، وصححه أحمد بن حنبل وابن حبان والحاكم.

(3) رواه مسلم.

(4) رواه أحمد بن منيع برجال ثقات وإسحاق.

وأهلكوا، خالطوهم بأجسادكم، وذايلوهم بأعمالكم، واشهدوا على المحسن أنه محسن وعلى المسيء أنه مسيء)[1].

وفى حديث آخر قريب من هذا عن عبد الله بن بسر ـ رضى الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: (كيف أنتم إذا جاءت عليكم الولاة؟)[2].

وفى حديث آخر، عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: (ستكون بعدى أئمة يعطون الحكمة على منابرهم، فإذا نزلوا نزعت منهم، وأجسادهم شر من الجيف)[3].

وفى حديث آخر، عن معاذ بن جبل ـ رضى الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: (ألا إنه سيكون عليكم أمراء يقضون لأنفسهم ما لا يقضون لكم، فإذا عصيتموهم قتلوكم، وإن أطعتموهم أضلوكم)، قالوا: يا رسول الله، كيف نصنع؟ قال: (كما صنع أصحاب عيسى ابن مريم نشروا بالمناشير وحملوا على الخشب، موت فى طاعة، خير من حياة فى معصية الله)[4].

وفى حديث آخر، عن عبادة بن الصامت ـ رضى الله عنه ـ قال: ذكر رسول الله ﷺ الأمراء فقال: (يكون عليكم أمراء إن أطعتموهم أدخلوكم النار، وإن عصيتموهم قتلوكم)، فقال رجل منهم: يا رسول الله، سمهم لنا، لعلنا نحثوا فى وجوههم التراب، فقال رسول الله ﷺ: (لعلهم يحثون فى وجهك ويفقئون عينيك)[5].

وفى حديث آخر، عن كعب بن عجرة ـ رضى الله عنه ـ قال: خرج علينا رسول الله ﷺ، فقال: (إنها ستكون عليكم أمراء من بعدى يعظون بالحكمة على منابر، فإذا نزلوا اختلست منهم، وقلوبهم أنتن من الجيف)[6].

وقد ذكر ﷺ خوفه على ما يحصل بعده من تسلط الأئمة الظلمة، ومن يعينهم من علماء السلاطين، فعن ثوبان ـ رضى الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: (إنما أخاف على أمتى الأئمة المضلون)[7].

وقد نبه ﷺ الصحابة إلى كيفية التعامل مع هؤلاء الأمراء المستبدين، فقال: (اسمعوا، إنه سيكون عليكم أمراء، فلا تعينوهم على ظلمهم، ولا تصدقوهم بكذبهم، فإنه من أعانهم على ظلمهم وصدقهم بكذبهم، فلن يرد على الحوض)[8].

وفى حديث آخر، قال رسول الله ﷺ: (اسمعوا، هل سمعتم أنه سيكون بعدى أمراء فمن دخل عليهم فصدقهم بكذبهم، وأعانهم على ظلمهم فليس منى ولست منه، وليس بوارد على الحوض، ومن لم يدخل عليهم ولم يعنهم على ظلمهم ولم يصدقهم بكذبهم، فهو منى وأنا منه، وهو وارد على الحوض)[9].

قال رجل من القوم: لكأن هذه الأحاديث تشير إلى بنى أمية، وما حصل بسببهم من انحراف خطير لأمة محمد عن نهج نبيها.

---

(1) رواه الطبرانى.
(2) رواه الطبرانى.
(3) رواه الطبرانى.
(4) رواه الطبرانى.
(5) رواه الطبرانى.
(6) رواه الطبرانى.
(7) رواه أحمد برجال ثقات.
(8) رواه أحمد وابن حبان وأبو يعلى والطبرانى فى الكبير والضياء.
(9) رواه الترمذى وقال: صحيح غريب وابن حبان والنسائى.

قال عـبد القادر: أجل، وليس ذلك فـقط، بل هناك أحاديث تصـرح بذلك، أو تكاد تصرح به، وهي نبوءات تحمل نصحا عظيما للأمـة بأن لا يحتيروا هؤلاء الذين حرفوا منهج الحكم الإسلامي قدوة تتبع.

ومن ذلك إشارته ﷺ إلى ما سيكون من تولي بعض الصبـية لأمر المسلمين، وما سيكون في ذلك من فساد وإفـساد، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسـول الله ﷺ يقول: (هلكة أمتي على يدي غلمة)، فـقال مروان ـ وما معنا في الحـلقة أحد، قبل أن يلي شيـئًا ـ: فلعنة الله عليهم غلمة. قال: وأنا والله لو شـئت أن أقول بني فلان وبني فـلان لفعلت، قال: فكـنت أخرج مع أبي إلى بني مروان بعـد ما ملكوا، فإذا هم يبـايعون الصبـيان، ومنهم من يبايع له وهو في حـزامه، فقلت: هل عسى أصحابـكم هؤلاء أن يكونوا الذين سمعت أبا هريرة، قال لنا عنهم إن هذه الملوك يشبـه بعضها بعضًا[1].

فقد وقع في هذا الحديث مـا أخبر عنه ﷺ، والذي لم يقتصر على تلـك الفترة، بل تعداها إلى فترات كثيرة من التاريخ الإسلامي أصبح الأمر فيها يسند إلى صبية يكون على أيديهم فساد كبير.

بل إن رسول الله ﷺ لم يكتف بالإشارة إلى هؤلاء الحكام الظلمة، بل أشار إلى معينيهم من الكذابين والهالكين:

فمن النبوءات الغـيبية المرتبطة بهذا مـا روى عن أسماء بنت أبي بكر أنها قـالت للحجاج بن يوسف: أما إن رسول الله ﷺ حدثنا أن في ثقيف كذابا ومبيرا، فأما الكذاب فقـد رأيناه، وأما المبير فلا إخالك إلا إياه[2].

ولما قتل الحجاج عبد الله بن الزبير دخل الحـجاج على أسماء بنت أبي بكر فقال: يا أمه، إن أميـر المؤمنين أوصاني بك، فـهل لك من حاجـة؟ فقالـت: لست لك بأم، ولكني أم المصلوب على رأس الثنية، ومـا لي من حاجة، ولكن انتظر حتى أحـدثك ما سمعت من رسـول الله ﷺ، يقول: يخرج من ثقيف كذاب ومبير، فأما الكذاب فقد رأيناه، وأما المبير فأنت[3].

وقد حصل مـا أخبر عنه رسول الله ﷺ، فقـد تواتر خبر المختار بن أبي عـبيد الكذاب الذي كان نائبا على العراق، وكان يزعم أنه نبي، وأن جبريل كـان يأتيه بالوحي، وقد قيل لابن عمر وكان زوج أخت المختار وصفيه، إن المختار يزعم أن الوحي يأتيه.

قال: صدق، قال الله تعالى: ﴿...وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾﴾ [الأنعام].

وقد روى عن رفاعة بن شداد، قال: كنت ألصق شيء بـالمختار الكذاب، قال: فدخلت عليه ذات يوم فقال: دخلت وقد قام جبريل قبل من هذا الكرسي، قال: فأهويت إلى قائم السيف لأضربه حتى ذكرت حديثـا حدثنيه عمرو بن الحمق الخـزاعي، أن رسول الله ﷺ قال: إذا أمن الرجل الرجل على دمه ثم قتله رفع له لواء الغدر يوم القيامة، فكففت عنه[4].

ومما يؤكد هذه الإشارات أن الوليد بن عقبة، قال: لما فتح رسول الله ﷺ مكة جعل أهل مكة

---

(1) رواه أحمد، ورواه البـخاري بنحوه عن أبي هريرة، والأحاديث في هذا كـثيرة جداً وهي موجـودة في كتب دلائل النبوة.

(2) رواه البيهقي في الدلائل 6 / 481 ومسلم في فضائل الصحابة باب (58) ح (229).

(3) البيهقي.

(4) رواه البيهقي في الدلائل 6 / 482.

يأتون بصبيانهم، فيمسح على رؤوسهم ويدعو لهم، فخرجت بى أمى إليه وأنا مطيب بالخلوق، فلم يمسح على رأسى ولم يمسنى[1].

قال البيهقى: هذا لسابق علم الله تعالى فى الوليد، فمنع بركة رسول الله ﷺ، وأخبار الوليد حين استعمله عثمان ـ رضى الله عنه ـ معروفة، من شربه الخمر وتأخيره الصلاة، وهو من جملة الأسباب التى نقموا بها على عثمان حتى قتلوه.

بل إن رسول الله ﷺ فوق هذا كله جعل علامات كثيرة لأهل الحق فى تلك الفتنة، وكأنه يحض الناس على موالاتهم ونصرتهم، لأنه لا نصر للدين الخالص إلا بنصرتهم.

ومما يروى من ذلك عن الحارث قال: كنت مع على بصفين، فرأيت بعيرا من إبل الشام جاء عليه راكبه ونقله، فألقى ما عليه وجعل يتخلل الصفوف على على، فجعل مشفره فيما بين رأس على ومنكبه وجعل يحركها بجرانه، فقال على: والله إنها للعلامة التى بينى وبين رسول الله ﷺ[2].

وفى حديث آخر عن أبى سعيد قال: كنا مع رسول الله ﷺ فانقطعت نعله، فتخلف على يخصفها، فمشى قليلا ثم قال: (إن منكم من يقاتل علي تأويل القرآن كما قاتلت على تنزيله)، فقال أبو بكر: أنا، قال: (لا)، قال عمر: أنا، قال: (لا ولكن خاصف النعل)[3].

وفى حديث آخر عن أبى أيوب قال: (أمر رسول الله ﷺ عليا بقتال الناكثين والقاسطين والمارقين)[4].

وفى حديث آخر عن على ـ رضى الله عنه ـ قال: (إن مما عهد إلى النبى ﷺ أن الأمة ستغدر بى بعده)[5].

وفى حديث آخر عن ابن عباس ـ رضى الله عنه ـ أن النبى ﷺ قال لعلى: (أما إنك ستلقى بعدى جهدا) قال: فى سلامة من دينى؟ قال: (نعم)[6].

ومن الإشارات الجلية التى تركها ﷺ لتبين أهل الحق إخباره ﷺ بقتل عمار بن ياسر ـ رضى الله عنهما ـ وأن الذى يتولى قتله الفئة الباغية، فعن مولاة لعمار بن ياسر ـ رضى الله عنهما ـ قالت: اشتكى عمار بن ياسر شكوى ثقل منها، فغشى عليه، فأفاق، ونحن نبكى حوله قال: ما يبكيكم؟ أتحسبون أنى أموت على فراشى، أخبرنى حبيبى رسول الله ﷺ أنه تقتلنى الفئة الباغية، وأن آخر زادى مذقة من لبن[7].

وفى حديث آخر، قال: (إن رسول الله ﷺ أخبرنى أنى أقتل يوم صفين)[8].

وفى حديث آخر أن رسول الله ﷺ قال، وهو يبنى المسجد، لعمار بن ياسر ـ رضى الله عنه ـ: (تقتلك الفئة الباغية)، وقد روى هذا الحديث بروايات كثيرة تبلغ حد التواتر[9].

---

(1) رواه الحاكم والبيهقى.

(2) رواه أبو نعيم.

(3) رواه الحاكم وصححه والبيهقى.

(4) رواه الحاكم.

(5) رواه أبو يعلى والحاكم وصححه والبيهقى وأبو نعيم.

(6) رواه أبو يعلى والحاكم وصححه.

(7) وفى رواية: ضياح لبن، وفى لفظ: إن آخر زادك من الدنيا ضياح من لبن، رواه الطبرانى والبزار بإسناد حسن.

(8) رواه أبو يعلى والطبرانى.

(9) فقد رواه مسلم وابن عساكر وابن أبى شيبة عن أم سلمة، والإمام أحمد وابن عساكر والطبرانى فى الكبير، وأبو يعلى، والخطيب عن عثمان، والإمام أحمد وابن سعد وابن أبى شيبة وأبو يعلى والطبرانى فى الكبير والحاكم عن عمرو بن العاص، وابن عساكر وابن أبى شيبة وأبو يعلى وأبو عوانة والطبرانى فى الكبير عن أبى رافع، وأبو يعلى وابن سعد فى كتاب الموالاة والطبرانى فى الكبير والدارقطنى فى الأفراد عن عمار بن ياسر وابن عساكر=

وفى حديث آخر عن أبى سعيد ـ رضى الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: (ويح عمار، تقتله الفئة الباغية، ويدعوهم إلى الله ويدعونه إلى النار)[1].

بل إن الرسول ﷺ بين عظم البشارة التى يحملها هذا النوع من القتل الذى أصاب عمارا، فقد قال ﷺ لعمار: (أبشر عمار، تقتلك الفئة الباغية)[2].

وفى ذلك تنبيه للقاعدين الذين قعدوا عن نصرة على ـ رضى الله عنه ـ ونصرة الخلافة الراشدة بحجة الهرب من الفتنة، مع أن الفتنة فى تحريف الدين، وتمكين المستبدين.

**ظلم آل البيت:**

قام رجل من الجمع، فقال: فهل أشار محمد إلى مظاهر هذه الفتنة التى تولى كبرها بنو أمية، ومن شايعهم؟

قال عبد القادر: أجل، وأول ذلك ما أخبر عنه ﷺ من المظالم العظيمة التى قام بها أهل البيت الأموى تجاه آل بيت رسول الله ﷺ بغيا وحسدا ورثوه من جاهليتهم، ومن آبائهم الذين كانوا أول من حارب الإسلام.

فعن أبى سعيد ـ رضى الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: (إن أهل بيتى سيلقون من بعدى من أمتى قتلا وتشريدا، وإن أشد قومنا لنا بغضا بنو أمية وبنو المغيرة وبنو مخزوم)[3].

وعن ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ قال: بينا نحن عند رسول الله ﷺ إذ أقبل فتية من بنى هاشم، فلما رآهم رسول الله ﷺ اغرورقت عينه[4].

ومن ضمن ذلك إخباره ﷺ عن قتل الحسين بن على ـ رضى الله عنهما ـ، فعن عائشة وأم سلمة ـ رضى الله عنهما ـ أن رسول الله ﷺ قال: (إن جبريل أخبرنى أن ابنى الحسين يقتل، وهذه تربة تلك الأرض)[5].

وعن أم سلمة ـ رضى الله عنها ـ قالت: قال رسول الله ﷺ: (إن جبريل كان معنا فى البيت، فقال: أتحبه؟، فقلت: أما فى الدنيا فنعم؟ قال: إن أمتك ستقتل هذا بأرض، يقال لها: كربلاء، فتناول جبريل من تربتها، فأرانيه)[6].

وعنها ـ رضى الله عنها ـ قالت: قال رسول الله ﷺ: (إن جبريل أخبرنى أن ابنى هذا ـ يعنى الحسين ـ يقتل، وأنه اشتد غضب الله على من يقتله)[7].

---

=عن ابن عباس وعن حذيفة وعن أبى هريرة وعن جابر بن عبد الله وعن جابر بن سمرة وعن أنس عن أبى أمامة وعن عبد الله بن كعب بن مالك عن أبيه وعن عمرو بن العاص، وابن أبى شيبة، والإمام أحمد وابن سعد والبغوى وأبو نعيم والطبرانى فى الكبير، والحاكم عن عمرو بن حزام، والإمام أحمد وأبو يعلى والطبرانى فى الكبير وابن عساكر عن ابن عمرو وأبو يعلى والطبرانى فى الكبير عن معاوية بن عتبة، والطبرانى عن أبى رافع والطبرانى عن أبى أيوب، والطبرانى فى الكبير، والباوردى وابن قانع، والدارقطنى فى الأفراد عن أبى البشير بن عمرو عن زياد بن الجرد، والبزار برجال الصحيح عن أبى سعيد الخدرى، وأبو يعلى برجال الصحيح عن أبى هريرة والطبرانى برجال ثقات عن عبد الله بن عمرو وأبيه عمرو ومعاوية والبزار عن أبى مسعود، وحذيفة والطبرانى بإسناد حسن.

(1) رواه أحمد والبخارى وابن حبان.

(2) رواه الترمذى وقال: حسن صحيح غريب عن أبى هريرة والباوردى عن اسماعيل بن عبد الرحمن الانصارى.

(3) رواه ابن عساكر ونعيم بن حماد فى الفتن، والحاكم.

(4) رواه البيهقى.

(5) رواه الخليل فى الإرشاد.

(6) رواه الطبرانى.

(7) رواه ابن عساكر.

وعن عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت: قال رسول الله ﷺ: (إن جبريل أرانى التربة التى يقتل عليها الحسين، فاشتد غضب الله على من يسفك دمه، فيا عائشة، والذى نفسى بيده، إنه ليحزننى فمن هذا من أمتى يقتل حسينا بعدى)[1].

وعن زينب بنت جحش ـ رضى الله عنها ـ قالت: قال رسول الله ﷺ: (إن جبريل أتانى فأخبرنى أن ابنى تقتله أمتى قلت: فأرنى تربته، فأتانى بتربة حمراء)[2].

وعن أم الفضل بنت الحارث ـ رضى الله عنها ـ أن رسول الله ﷺ قال: (أتانى جبريل فأخبرنى أن أمتى ستقتل ابنى هذا يعنى الحسين، وأتانى بتراب من تربته حمراء)[3].

وعن أم سلمة ـ رضى الله عنها ـ أن رسول الله ﷺ قال: (أخبرنى جبريل أن ابنى الحسين يقتل بأرض العراق، فقلت لجبريل: أرنى تربة الأرض التى يقتل بها، فجاء بها فهذه تربتها)[4].

وعن على ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: (أخبرنى جبريل أن حسينا يقتل بشاطئ الفرات)[5].

وعن أنس ـ رضى الله عنه ـ قال: استأذن ملك المطر ربه أن يزور النبى ﷺ فأذن له، وكان فى يوم أم سلمة فقال النبى ﷺ: (يا أم سلمة، احفظى علينا الباب، لا يدخل علينا أحد)، فبينا هى على الباب إذ دخل الحسين، فاقتحم فوثب على رسول الله ﷺ فجعل يقع على منكب رسول الله ﷺ، فقال الملك: أتحبه؟ قال: (نعم)، قال: فإن أمتك ستقتله، وان شئت أريتك المكان الذى يقتل به، فأراه فجاءه بشهلة[6] أو بتراب أحمر فأخذته أم سلمة، فجعلته فى ثوبها، قال ثابت: كنا نقول: إنه كربلاء)[7].

وفى رواية: قالت: ثم ناولنى كفا من تراب أحمر، وقال: إن هذه من تربة الأرض التى يقتل بها، فمتى صار دما، فاعلمى أنه قد قتل، قالت أم سلمة: فوضعته فى قارورة عندى، وكنت أقول إن يوما يتحول فيه دما ليوم عظيم.

وقد أخبر ﷺ عن سبب هذه الفتن جميعا، وهذه المظالم التى تعرضت لها الأمة، وأولهم آل بيته ﷺ الكرام، فعن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: (هلاك أمتى على يدى أغيلمة[8] من قريش)[9].

وفى حديث آخر عنه ـ رضى الله عنه ـ قال: (يجرى هلاك أمتى على يدى أغيلمة سفهاء من قريش)، قال أبو هريرة ـ رضى الله عنه ـ: (لو شئت سميتهم بنو فلان وبنو فلان)[10].

قال رجل من القوم: فمن الذى منعه من تسميتهم؟

قال عبد القادر: ذلك الحكم المتجبر الذى قاوم الخلافة الراشدة قمع الناس، ومنع أحاديث رسول الله ﷺ المرتبطة بهذا الباب من أن تنشر خشية على ملكهم.

---

(1) رواه ابن سعد.
(2) رواه العقيلى والطبرانى.
(3) رواه الحاكم.
(4) رواه ابن سعد.
(5) رواه ابن سعد.
(6) الشهلة: رمل خشن ليس بالدقاق الناعم.
(7) رواه البغوى فى معجمه والحاكم فى صحيحه ورواه أحمد بنحوه.
(8) أغيلمة: تصغير أغلم: جمع غلام أى أحداث.
(9) رواه أحمد والبخارى.
(10) رواه الطيالسى برجال ثقات، وابن أبى شيبة، وأحمد.

ولكن مع ذلك وردت نصوص كثيرة تشير إلى ذلك، بل تكاد تصرح به، فعن حذيفة ـ رضى الله عنه ـ وغيره من الصحابة أن رسول الله ﷺ قال: (إن هذا الحى من مضر لا يدع عبدا لله صالحا فى الأرض إلا فتنه وأهلكته حتى يدركها الله عز وجل بجنود من عنده أو من السماء، فيذلها حتى لا تمنع ذنب تلعة[1])[2].

**قتل الصالحين**

ومن المظالم التى أخبر ﷺ عن ارتكاب أهل الملك العضوض لها قتلهم للكثير من الصالحين من الصحابة والتابعين وآل البيت الكرام.

ومن ذلك إخباره ﷺ عن المقتولين ظلما بعذراء من أرض دمشق، فعن أبى الأسود، قال: دخل معاوية على عائشة ـ رضى الله عنها ـ فقالت: ما حملك على قتل أهل عذراء حجر وأصحابه؟ فقال: يا أم المؤمنين، إنى رأيت قتلهم صلاحا للأمة، وبقاءهم فسادا للأمة، فقالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (سيقتل بعذراء ناس يغضب الله لهم، وأهل السماء)[3].

وعن سعيد بن أبى هلال أن معاوية حج فدخل على عائشة ـ رضى الله عنها ـ فقالت: يا معاوية قتلت حجر بن الأدبر وأصحابه؟ أما والله، لقد بلغنى أنه سيقتل بعذراء سبعة نفر يغضب الله لهم وأهل السماء[4].

وقد أخبر الحسن البصرى ـ رضى الله عنه ـ عن الظلم العظيم الذى ارتكبه معاوية بقتله حجرا وأصحابه، فقال: (أربع خصال كن فى معاوية، لو لم تكن فيه إلا واحدة لكانت موبقة: انتزاؤه على هذه الأمة بالسيف حتى أخذ الأمر من غير مشورة وفيهم بقايا الصحابة وذوو الفضيلة، واستخلافه بعده ابنه سكيرا خميرا يلبس الحرير ويضرب بالطنابير، وادعاؤه زيادا، وقد قال رسول الله ﷺ: (الولد للفراش وللعاهر الحجر)، وقتله حجرا وأصحاب حجر، فيا ويلا له من حجر! ويا ويلا له من حجر وأصحاب حجر!).

ومن ذلك إخباره ﷺ عن قتل عمرو بن الحمق ـ رضى الله عنه ـ على أيدى هؤلاء الطغاة، فعن رفاعة بن شداد البجلى أنه خرج مع عمرو بن الحمق حين طلبه معاوية قال: فقال لى: يا فارعة إن القوم قاتلىّ، إن رسول الله ﷺ أخبرنى أن الجن والإنس تشترك فى دمى، قال رفاعة: فما تم حديثه حتى رأيت أعنة الخيل فودعته وواثبته حية، فلسعته وأدركوه فاحتزوا رأسه، وكان أول رأس أهدى فى الإسلام[5].

وفى حديث آخر عنه ـ رضى الله عنه ـ قال: بعث رسول الله ﷺ سرية، فقالوا: يا رسول الله، إنك تبعثنا، ولا لنا زاد ولا طعام، ولا علم لنا بالطريق، فقال: (إنكم ستمرون برجل صبيح الوجه يطعمكم من الطعام ويسقيكم من الشراب، ويدلكم على الطريق، وهو من أهل الجنة).

فلم يزل القوم على جعل يشير بعضهم إلى بعض، وينظرون إلى فقلت: ما لكم يشير بعضكم إلى بعض وتنظرون إلى، فقالوا: أبشر ببشرى الله ورسوله ﷺ فإنا نعرف فيك نعت رسول

---

(1) التلعة: واحدة التلاع وهى مسايل الماء من علو إلى سفل، وقيل: هو من الأضداد يقع على ما انحدر من الأرض وأشرف منها.

(2) رواه ابن أبى شيبة وأحمد عن أبى سعيد والطيالسى برجال ثقات وابن أبى شيبة وأحمد عن حذيفة، والطبرانى والإمام أحمد والحاكم والضياء.

(3) رواه يعقوب بن سفيان وابن عساكر.

(4) رواه ابن عساكر.

(5) رواه ابن عساكر.

الله ﷺ، فأخبروني بما قال لهم، فأطعمتهم وسقيتهم وزودتهم وخرجت معهم حتى دللتهم على الطريق.

ثم رجعت إلى أهلى وأوصيتهم بإبلى ثم خرجت إلى رسول الله ﷺ فقلت: ما الذى تدعو إليه؟ قال: (أدعو إلى شهادة أن لا إله إلا الله، وأنى رسول الله وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وحج البيت، وصوم رمضان)، فقلت: إذا أجبناك إلى هذا فنحن آمنون على أهلنا ودمائنا وأموالنا؟ قال: (نعم).

فأسلمت، ثم رجعت إلى أهلى، فأعلمتهم بإسلامى، فأسلم على يدى بشر كثير منهم، ثم هاجرت إلى رسول الله ﷺ فبينا أنا عنده ذات يوم فقال: (يا عمرو، هل لك أن أريك آية الجنة، تأكل الطعام، وتشرب الشراب وتمشى فى الأسواق؟)، قلت: بلى، بأبى أنت وأمى، قال: (هذا وقومه)، وأشار إلى على بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ.

وقال لى: (يا عمرو، هل لك أن أريك آية النار تأكل الطعام، وتشرب الشراب، وتمشى فى الأسواق؟)، قلت: بلى، بأبى أنت وأمى، قال: (هذا) وأشار إلى رجل.

فلما وقعت الفتنة ذكرت قول رسول الله ﷺ ففررت من آية النار إلى آية الجنة، ويرى بنى أمية قاتلى بعد هذا، قلت: الله ورسوله أعلم، قال: والله، لو كنت حجرا فى جوف حجر لاستخرجنى بنو أمية حتى يقتلونى، حدثنى به حبيبى رسول الله ﷺ أن رأسى أول رأس تحز، ويحتز فى الإسلام، وينقل من بلد إلى بلد.

ومن ذلك إخباره ﷺ عما يكون من أمر قيس بن خرشة ـ رضى الله عنه ـ ومحاولة هؤلاء المجرمين التعرض له، وحماية الله له منهم، فعن محمد ابن يزيد بن أبى زياد الثقفى قال: إن قيس بن خرشة قدم على النبى ﷺ، قال: أبايعك على ما جاء من الله تعالى وعلى أن أقول بالحق، فقال النبى ﷺ: (يا قيس، عسى أن يمدك الدهر، أن يلقاك بعدى من لا تستطيع أن تقول بالحق معهم)، قال قيس: والله لا أبايعك على شيء إلا وفيت لك به، فقال النبى ﷺ: (إذاً لا يضرك بشر).

وكان قيس يعيب زياد بن أبى سفيان، وابنه عبيد الله، فبلغ ذلك عبيد الله، فأرسل إليه فقال: أنت الذى تفترى على الله تعالى وعلى رسوله؟ قال: لا، ولكن إن شئت أخبرتك بمن يفترى على الله وعلى رسوله؟ قال: من ذاك؟ قال: أنت وأبوك الذى أمركما، قال قيس: وما الذى افتريت على الله ورسوله؟ فقال: (تزعم أنه لا يضرك بشر!) قال: نعم، قال: (لتعلمن اليوم أنك قد كذبت، ائتونى بصاحب العذاب وبالعذاب)، قال: فمال قيس عند ذلك، فمات[1].

ومن ذلك إخباره ﷺ عن قتل هؤلاء الطواغيت لأهل الحرة، فعن أيوب بن بشير المعاوى أن رسول الله ﷺ خرج فى سفر، فلما مر بحرة زهرة وقف، فاسترجع، فسألوه فقال: (يقتل بهذه الحرة خيار أمتى بعد أصحابى)[2].

وعن ابن عباس ـ رضى الله عنه ـ قال: جاء تأويل هذه الآية على رأس ستين سنة: ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾﴾ [الأحزاب] قال: لأعطوها، يعنى إدخال بنى حارثة أهل الشام على المدينة[3].

---

(1) رواه الطبرانى والبيهقى.

(2) رواه البيهقى.

(3) رواه البيهقى.

وعن الحسن ـ رضى الله عنه ـ قال: لما كان يوم الحرة قتل أهل المدينة حتى كاد لا ينفلت منهم أحد[1].

وعن مالك بن أنس قال: قتل يوم الحرة سبعمائة رجل من حملة القرآن منهم ثلاثمائة من الصحابة، وذلك في ملك يزيد.

وقد أخبر ﷺ عن هذه الحادثة، وعن بعض الأحداث التى ستحدث فى المدينة المنورة بعده، فعن أبى ذرٍّ الغفارىِّ ﷺ قال: ركب رسول الله ﷺ حماراً، وأردفنى خلفه، وقال: (يا أبا ذر، أرأيت إن أصاب الناس جوعٌ شديد، لا تستطيع أن تقوم من فراشك إلى مسجدك، كيف تصنع؟) قال: الله ورسوله أعلم، قال: (تعفّف)، قال: (يا أبا ذر، أرأيت إن أصاب الناس موتٌ شديدٌ، يكون البيت فيه بالعبد، (يعنى: القبر) ـ كيف تصنع؟) قلت: الله ورسوله أعلم، قال: (اصبر)، قال: (يا أبا ذر، أرأيت إن قتل الناس بعضهم بعضاً حتى تغرق حجارة الزيت من الدماء كيف تصنع؟)، قلت: الله ورسوله أعلم، قال: (اقعد فى بيتك، وأغلق عليك بابك)، قال: فإن لم أترك؟ قال: (فأت من أنت منهم فكن فيهم)، قال: فآخذ سلاحى؟ قال: (إذاً تشاركهم فيما هم فيه، ولكن إن خشيت أن يروعك شعاع السيف، فألق طرف ردائك على وجهك حتى يبوء بإثمه وإثمك)[2].

ففى هذا الحديث أخبر ﷺ عن أمور كثيرة حصلت فى المدينة المنورة، وكلها حصل كما أخبر ﷺ بكل دقة[3].

فأولها إخباره ﷺ عن الجوع الشديد فى المدينة، وقد وقع ذلك فى عام الرمادة، سنة ثمانى عشرة من الهجرة، فى زمن عمر ـ رضى الله عنه ـ واستمر تسعة أشهر، ومات فيه خلق كثير، حتى استسقى عمر ـ رضى الله عنه ـ بالناس.

وثانيها إخباره ﷺ عن الموت الشديد، وقد حصل هذا فى طاعون عمواس.

وقد أدرك أبو ذر ـ رضى الله عنه ـ هذين الأمرين، لأنه توفى سنة اثنتين وثلاثين، فى خلافة عثمان.

وثالثها إخباره ﷺ عن القتال الذى يقع فى المدينة، حتى تغرق حجارة الزيت من الدماء التى ستراق فيها، وقد حصل هذا كما أخبر ﷺ فى كلا الموضعين اللذين بهما أحجار الزيت فى المدينة.

فالموضع الأول الذى هو عند الزوراء[4]، وقد حصل فيه استشهاد محمد ابن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على ـ رضى الله عنهم ـ المعروف بالنفس الزكية، وقد قال الإمام الذهبى عن ذلك: (كان مصرع محمد عند أحجار الزيت، فى رابع عشر رمضان، سنة خمس. قلت: يعنى وأربعين ومائة، زمن المنصور، وقد قتل خلق كثير)[5].

وأما الموضع الثانى، فهو فى الحرة الشرقية من المدينة، عند منازل بنى عبد الأشهل، وقد كان عندها معركة الحرة المشؤومة المشهورة، وكان ذلك لثلاث بقين من ذى الحجة سنة ثلاث وستين من الهجرة، فى زمن يزيد بن معاوية، وبقيادة مسلم بن عقبة المرى، وقد قتل فيها عدد كبير من الصحابة والتابعين ـ رضى الله عنهم ـ وقد كتب عنها الكثير.

(1) رواه البيهقى.

(2) رواه أحمد والترمذى والحاكم وابن حبان.

(3) انظر: كتاب مختصر أشراط الساعة، بقلم الدكتور خليل إبراهيم ملاّ خاطر العزّاوى أستاذ الحديث وعلومه بجامعة طيبة بالمدينة المنورة.

(4) والذى يقع بجوار مشهد مالك بن سنان ـ رضى الله عنه ـ، وهو موضع استسقاء النبى ﷺ كما ورد فى حديث عُمير مولى أبى اللحم رضى الله تعالى عنهما، الذى رواه أحمد والثلاثة، وصححه ابن حبان والحاكم.. وقد دخل هذا الموضع فى توسعة المسجد النبوى الشريف، من الجهة الغربية.

(5) سير أعلام النبلاء (6: 218).

**عزل الأنصار:**

ومن المظالم التى أخبر ﷺ عن ارتكاب أهل الملك العضوض لها عزلهم للأنصار الذين نصروا الدين، واحتقارهم لهم، واستئثارهم بالسلطة دونهم.

ومن ذلك ما روى عن أسيد بن حضير وأنس - رضى الله عنهما - أن رسول الله ﷺ قال للأنصار حين أفاء الله عليه أموال هوازن: (إنكم ستلقون بعدى أثرة فاصبروا حتى تلقونى على الحوض)(1).

وحدث أنس - رضى الله عنه - عن ذلك، فذكر أن رسول الله ﷺ قال للأنصار: (ستلقون بعدى أثرة فى القسم، والأمر، فاصبروا حتى تلقونى على الحوض)(2).

وقد حدث مقسم يذكر وقوع ما أخبر عنه رسول الله ﷺ، فذكر أن أبا أيوب أتى معاوية فذكر حاجة له، فجفاه ولم يرفع به رأسا، فقال أبو ايوب: أما إن رسول الله ﷺ قد أخبرنا أنه ستصيبنا بعده أثرة قال: فبم أمركم؟ قال: أمرنا أن نصبر حتى نرد عليه الحوض، قال: فاصبروا إذًا، فغضب أبو أيوب، وحلف أن لا يكلمه أبدا(3).

بل إن هذه الأثرة شملت سائر الصحابة الذين تربوا على يدى رسول الله ﷺ واستقوا من هديه، فعن ابن مسعود - رضى الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: (ستكون بعدى أثرة وأمور تنكرونها)، قالوا: يا رسول الله، ما تأمرنا؟ قال: (تؤدون الحق الذى عليكم، وتسألون الله الذى لكم)(4).

**تفريق صف الأمة:**

ومن أعظم المظالم التى ارتكبها أهل الملك العضوض ما أخبر عنه ﷺ من تفريقهم شأن الأمة بما ينشرونه من مكايد:

ففى الحديث عن عن أبى بصرة الغفارى - رضى الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: (سألت ربى أربعا، فأعطانى ثلاثا، ومنعنى واحدة، سألته ألا يجمع أمتى على ضلالة فأعطانيها، وسألته أن لا يهلكهم بالسنين كما أهلكت الأمم قبلهم فأعطانيها، وسألته أن لا يلبسهم شيعا ويذيق بعضهم بأس بعض فمنعنيها)(5).

وفى حديث آخر قال رسول الله ﷺ: (سألت ربى ثلاثا فأعطانى اثنتين ومنعنى واحدة، سألته أن لا يهلك أمتى بالسنة فأعطانيها، وسألته أن لا يهلك أمتى بالغرق فأعطانيها، وسألته الا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها)(6).

وقد أشار ﷺ إلى مكيدة التحكيم التى حصلت فى صفين، وهى تشير إلى غيرها من المكايد التى يمارسها المستبدون ليفرقوا صفوف الأمة، فعن على - رضى الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: (إن بنى إسرائيل اختلفوا فلم يزل اختلافهم بينهم حتى بعثوا حكمين فضلاً وأضلاً، وإن هذه الأمة ستختلف، فلا يزال اختلافهم بينهم حتى يبعثوا حكمين ضلاً وضلّ من اتبعهما)(7).

---

(1) رواه البخارى ومسلم وأحمد والبيهقى والترمذى والنسائى.
(2) رواه الحاكم وأبو نعيم.
(3) رواه الحاكم.
(4) رواه الحاكم.
(5) رواه أحمد والطبرانى فى الكبير.
(6) رواه ابن أبى شيبة والإمام أحمد ومسلم وابن خذيمة وابن حبان.
(7) رواه البيهقى.

وفى حديث آخر عن أبى موسى الأشعرى - رضى الله عنه - وهو أحد الحكمين، قال: قال رسول الله ﷺ: (يكون فى هذه الأمة حكمان ضالان، ضال من تبعهما)، قال سويد بن غفلة، فقلت: يا أبا موسى أنشدك الله أليس إنما عناك رسول الله ﷺ، فقال: (إنها ستكون فتنة فى أمتى انت فيها يا أبا موسى نائما خير منك قاعدا وقاعدا خير منك قائما وقائما خير منك ماشيا)، فخصك رسول الله ﷺ ولم يعم الناس[1].

**2 - الفتنة الأخرة:**

قام رجل من الجمع، وقال: لقد عرفنا الفتنة الأولى، وعلمنا صدق ما أخبر عنه محمد من جرائم أهل الملك العضوض، فحدثنا عن الفتنة الآخرة، فتنة الملك الجبرى.

قال عبد القادر: تلك فتنة أخطر وأعظم، وهى ليست فتنة واحدة، بل فتن كثيرة جدا، وردت النصوص الكثيرة بتفاصيلها، وسأذكر لكم منها ما تعلمون به أن نبوءة محمد ﷺ لم تقتصر على فترة رسالته، بل هى ممتدة لكل الأجيال، فكل جيل يجد من التوجيهات الخاصة ما يقيم عليه الحجة.

فقد أخبر ﷺ عن كثرة الفتن فى زمن الفتنة الآخرة، فقال: (إن بين يدى الساعة فتنًا كقطع الليل المظلم، فتن كقطع الدخان، يموت فيها قلب الرجل كما يموت بدنه، يمسى الرجل مؤمنًا ويصبح كافراً، يبيع أقوام أخلاقهم ودينهم بعرض من الدنيا)[2].

وفى حديث آخر، قال ﷺ: (ستكون فتن يفارق الرجل فيها أخاه وأباه تطير الفتنة فى قلوب الرجال منهم إلى يوم القيامة، حتى يعير الرجل فيها بصلاته كما تعير الزانية بزناها)[3].

وفى حديث آخر قال ﷺ: (إن الناس دخلوا فى دين الله أفواجًا، وسيخرجون منه أفواجًا)[4].

وفى حديث آخر قال ﷺ: (إنها ستكون فتنة الْمُضْطَجِعُ فيها خير من الجالس والجالسُ خير من القائم، والقائم خير من الماشى والماشى خير من الساعي. قال: يا رسول الله مَا تَأْمُرُنِي؟ قَالَ: من كانت له إِبِلٌ فَلْيَلْحَقْ بإبله، ومن كانت لَه غَنَمٌ فَلْيَلْحَقْ بِغَنَمِه، وَمَنْ كَانَتْ لَه أرض فَلْيَلْحَقْ بأرْضه. قال: فمن لَمْ يَكُن له شَيْءٌ من ذلك فَلْيَعْمَدْ إِلى سَيْفِهِ فَيدُقَّ عَلَى حَدِّهِ بِحَجَرٍ ثم لِيَنْجُ مَا اسْتَطَاعَ النَّجَاءَ)[5].

وقد ذكر ﷺ بعض هذه الفتن، ومنها فتنة الأحلاس، فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: كنا قعوداً عند رسول الله ﷺ، فذكر الفتن، فأكثر فى ذكرها حتى ذكر فتنة الأحلاس. فقال قائل: يا رسول الله وما فتنة الأحلاس؟ قال: (هى حرب وهرب، ثم فتنة السراء دخلها أو دخنها من تحت قدمى رجل من أهل بيتى يزعم أنه ابنى وليس منى إنما أوليائى المتقون، ثم يصطلح الناس على رجل كورك على ضلع، ثمّ فتنة الدهيماء لا تدع أحداً من هذه الأمة إلا لطمته حتى إذا قيل انقضت عادت يصبح الرجل فيها مؤمنًا ويمسى كافراً حتى يصير الناس إلى فسطاطين فسطاط إيمان لا نفاق فيه وفسطاط نفاق لا إيمان فيه، فإذا كان ذاكم فانتظروا الدجال من يومه أو من غده)[6].

قال رجل من الحاضرين: لقد سمعنا من بعض الخطباء من يتحدث عن تحديد نزول الفتن بما

---

(1) رواه الطبرانى.

(2) رواه الطبرانى عن الضحاك بن قيس وعن النعمان بن بشير ونحوه عند الحاكم من حديث أنس.

(3) رواه أبو نعيم بن حماد فى الفتن والطبرانى فى الكبير.

(4) رواه أحمد.

(5) رواه مسلم.

(6) تفرد به أبو داود، وقد رواه أحمد فى مسنده عن أبى المغيرة بمثله.

بعد المائتين، فقد رووا أن الآيات تبدأ بعد المائتين، وأن خير المسلمين بعد المائتين من لا أهل له ولا ولد[1].

قال عبد القادر: كل ذلك لا يصح.. والخير في الأمة إلى يوم القيامة.. والفتن لا تزيد الصالحين إلا صلاحا، بل إنه لولا الفتن ما ظهر المفسد من المصلح، وقد قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ [آل عمران]، وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [التوبة].

قال الرجل: فهل ذكر محمد مظاهر الفتنة الآخرة كما ذكر مظاهر الفتنة الأولى؟

قال عبد القادر: أجل.. وسأذكر لكم منها ما تقر به أعينكم، وتعلمون صدق نبوءاته ﷺ.

**ظهور الدجالين:**

أول مظهر من مظاهر هذه الفتنة ظهور الدجالين، لأن الفتنة لا ينفخ نارها إلا الدجالون، فقد أخبر ﷺ عن خروج الدجالين الكذابين، الذين يثيرون الفتنة بأباطيلهم، وقد أخبر النبي ﷺ أن عدد هؤلاء قريب من ثلاثين فقال ﷺ: (لا تقوم الساعة حتى يبعث دجالون كذابون قريب من ثلاثين كلهم يزعم أنه رسول الله)[2].

وقد ورد في حديث آخر بعض التفاصيل المرتبطة بهذا، فقال رسول الله ﷺ: (لا تقوم الساعة حتى تلحق قبائل من أمتي بالمشركين، وحتى يعبدوا الأوثان، وإنه سيكون في أمتي ثلاثون كذابون، كلهم يزعم أنه نبي، وأنا خاتم النبيين لا نبي بعدي)[3].

وقد حصل ما أخبر عنه النبي ﷺ، فخرج كثير من أدعياء النبوة قديما وحديثا، ولا يستبعد أن يظهر دجالون آخرون إلى أن يظهر الدجال الأعور الكذاب، كما قال ﷺ: (إنه والله لا تقوم الساعة حتى يخرج ثلاثون كذابا آخرهم الأعور الكذاب)[4].

وقد ابتدأ ذلك بأول مدع للنبوة في آخر حياة الرسول ﷺ، وهو الأسود العنسي، الذي تنبأ في اليمن، وقد كانت ردته أول ردة في الإسلام، فقد تحرك بمن معه من المقاتلين، واستولى على جميع أجزاء اليمن، ودامت فترة ملك هذا الكذاب من حين ظهوره إلى أن قتل ثلاثة أشهر[5].

ومنهم مسيلمة الكذاب، الذي وفد على رسول الله ﷺ في العام التاسع الهجري مع جماعة من بني حنيفة، وبعد عودة الوفد إلى اليمامة، ارتد وتنبأ وقال: إني قد أشركت في الأمر معه - أي مع رسول الله ﷺ - وكان يزعم أن الوحي يأتيه في الظلام[6].

---

(1) ومن ذلك ما روى عن أبي قتادة قال: قال رسول الله ﷺ: «الآيات بعد المائتين»، قال ابن كثير: وقد أورده ابن ماجه من وجهين آخرين عن أنس عن النبي ﷺ بنحوه ولا يصح.. وروى رواد بن الجراح وهو منكر الرواية عن سفيان الثوري عن ربعي عن حذيفة مرفوعًا: «خيركم بعد المائتين خفيف الحاذ»، قالوا: وما خفيف الحاذ يا رسول الله؟ قال: «من لا أهل له ولا ولد» وهذا منكر.

(2) رواه البخاري.

(3) رواه أبو داود في سننه (11 / 324) والترمذي في سننه (6 / 466) وقال: هذا حديث صحيح.

(4) رواه أحمد (5 / 16) بسند صحيح.

(5) وقيل أربعة أشهر انظر: تاريخ ابن جرير الطبري (3 / 231)

(6) من النبوءات الغيبية المرتبطة بهذا أن رسول الله ﷺ قال: بينا أنا نائم رأيت كأنه وضع في يدي سواران فقطعتهما، فأوحي إلي في المنام: أن انفخهما، فنفختهما فطارا، فأولتهما كذابين يخرجان، صاحب صنعاء، وصاحب اليمامة.

بل إنه ﷺ قال لمسيلمة حين قدم مع قومه، وجعل يقول: إن جعل لي محمد الأمر من بعده اتبعته، فوقف عليه رسول الله ﷺ وقال له: والله لو سألتني هذا العسيب ما أعطيتكه، ولئن أدبرت ليعقرنك الله، وإني لأراك الذي أريت فيه ما أريت.

=

ومنهم سجاح بنت الحارث التغلبية، وكانت من نصارى العرب، وقد ادعت النبوة بعد موت الرسول ﷺ فالتف حولها أناس كثير من قومها ومن غيرهم وغزت بهم القبائل المجاورة حتى وصلت إلى بنى تميم، فاصطلحوا معها، وسارت حتى وصلت اليمامة والتقت بمسيلمة وصدقته وتزوجها، ولما قتل مسيلمة رجعت إلى بلادها وأقامت فى قومها بنى تغلب، ثم أسلمت وحسن إسلامها.

وقد استمر سيل الدجالين فى كل العصور.. ولا تزال الأيام تلدهم إلى أن يكتمل ما أخبر عنه ﷺ من الثلاثين دجالا.

**الحكام المستبدون:**

ومن مظاهر الفتنة الثانية ما عبر عنه ﷺ بالملك الجبرى، وهم الحكام المستبدون الذين ظهروا فى هذه الأمة فى قرونها الأخيرة:

ومما روى فى ذلك عن معاذ بن جبل ـ رضى الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: (لا تقوم الساعة حتى يبعث الله أمراء كذبة، ووزراء فجرة، وأمناء خونة، وقراء فسقة، سمتهم سمت الرهبان وليس لهم رغبة ـ أو قال: رعية أو قال: رعة ـ فيلبسهم الله فتنة غبراء مظلمة يتهوكون فيها تهوك اليهود فى الظلم)[1].

وفى حديث آخر عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: (يكون عليكم أمراء هم شر من المجوس)[2].

وفى حديث آخر أن أبى أمامة ـ رضى الله عنه ـ ذكر أن رسول الله ﷺ قال: (يخرج رجال من هذه الأمة فى آخر الزمان معهم سياط كأذناب البقر، يغدون فى سخط الله ويروحون فى غضبه)[3].

وفى حديث آخر عن أبى سعيد وأبى هريرة ـ رضى الله عنهما ـ أن رسول الله ﷺ قال: (ليأتين على الناس زمان يكون عليهم أمراء سفهاء، يقدمون شرار الناس، ويظهرون بخيارهم، ويؤخرون الصلاة عن مواقيتها، فمن أدرك ذلك منكم، فلا يكونن عريفا ولا شرطيا ولا جابيا ولا خازنا)[4].

وأخبر ﷺ عن الجو الذى يهيئ لهؤلاء الحكام استبدادهم، فقال: (يوشك أن يأتى زمان يغربل الناس فيه غربلة، وتبقى حثالة من الناس، قد مرجت عهودهم وأماناتهم واختلفوا هكذا وهكذا، وشبك بين أصابعه)، قالوا: يا رسول الله، فكيف تأمرنا؟ قال: (تأخذون ما تعرفون وتدعون ما تنكرون، وتقبلون على أمر خاصتكم، وتدعون أمر عامتكم)[5].

**القتال بين المسلمين:**

ومن مظاهر الفتنة الآخرة القتال الشديد بين المسلمين، والذى يتسبب فيه الطغاة المستبدون بأمور المسلمين، ومن يعينهم من الدجالين الذين ينفخون نيران الفتن.

---

=وقد حصل ما أخبر عنه النبى ﷺ، فقد عقره الله وأهانه وكسره وغلبه يوم اليمامة، كما قتل الأسود العنسى بصنعاء.

وفى حديث آخر عن أنس، قال: لقى رسول الله ﷺ مسيلمة فقال له مسيلمة: أتشهد أنى رسول الله؟ فقال النبى ﷺ: آمنت بالله وبرسله، ثم قال رسول الله ﷺ: «إن هذا رجل أخر لهلكة قومه».

(1) رواه البزار برجال الصحيح إلا حبيب بن عمران الكلاعى.

(2) رواه الطبرانى برجال الصحيح خلا مؤمل بن إهاب وهو ثقة.

(3) رواه أحمد والطبرانى.

(4) رواه أبو يعلى وابن حبان.

(5) رواه الحاكم واللفظ له والحارث وأحمد وأبو داود وابن ماجة.

ومما يروى فى ذلك ما حدث به أبو موسى الأشعرى ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: (بين يدى الساعة الهرج)، قالوا: يا رسول الله، وما الهرج؟ قال: (القتل)، قالوا: أكثر مما نقتل، إنا لنقتل فى العام الواحد أكثر من كذا ألفا؟ قال: (إنه ليس بقتلكم المشركين، ولكن قتل بعضكم بعضا)، قالوا: ومعنا يومئذ عقولنا؟ قال: (إنه ينتزع عقول أكثر ذلك الزمان، ويخلف له هباء[1] من الناس، يحسب أكثرهم أنه على شىء، وليسوا على شىء)، قال أبو موسى: والذى نفسى بيده، لا أجد لى ولكم إن أدركتها - وقال يونس: إن أدركتنا - إلا أن نخرج منها كما دخلناها، لم نصب فيها دما ولا مالا[2].

وحدث كرز بن علقمة الخزاعى قال: بينا أنا جالس عند رسول الله ﷺ جاءه رجل من أعراب نجد، فقال: يا رسول الله، هل للإسلام من منتهى؟ قال رسول الله ﷺ: (نعم، أيما أهل بيت من العرب أو العجم أراد الله بهم خيرا أدخل عليهم الإسلام)، قال الأعرابى: ثم ماذا يا رسول الله؟ قال رسول الله ﷺ: (ثم تقع الفتن كأنها الظلل[3]) قال الأعرابى: كلا يا رسول الله، قال رسول الله ﷺ: (والذى نفس محمد بيده، تعودون فيها أساود[4] صبا[5]، يضرب بعضكم رقاب بعض)[6].

وفى حديث آخر، قال ﷺ: (لا تقوم الساعة حتى يكثر الهرج)، قالوا: وما الهرج يا رسول الله؟ قال: (القتل القتل)[7].

وفى حديث آخر، قال ﷺ: (والذى نفسى بيده لا تذهب الدنيا حتى يأتى على الناس يوم لا يدرى القاتل فيم قتل ولا المقتول فيم قتل، فقيل: كيف يكون ذلك؟ فقال: (القاتل والمقتول فى النار)[8].

وقد حصل ما أخبر عنه النبى ﷺ فلا نزال نرى القتال بين المسلمين كل حين، كلٌ يدعى أنه على الحق.

**فتن المتطرفين:**

ومن مظاهر الفتنة الآخرة ظهور المتطرفين المتشددين، وقد ورد فى ذلك أحاديث كثيرة تصل إلى حد التواتر، تصفهم وتصف حالهم وعبادتهم وعلامتهم، ووقت ومكان خروجهم، والظرف التى يخرجون فيها، ومآلهم، فوقع ذلك كله طبق كما أخبر به ﷺ.

ومنها ما رواه أبو سعيد الخدرى ـ رضى الله عنه ـ قال: بينا نحن عند رسول الله ﷺ، وهو يقسم قسمًا ـ أتاه ذو الخُويصرة ـ وهو رجل من بنى تميم ـ فقال: يا رسول الله اعدل، قال رسول الله ﷺ: (ويلك، ومن يعدل إن لم أعدل؟ قد خبت وخسرت إن لم أعدل).

فقال عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ: يا رسول الله ائذن لى فيه أضرب عنقه، فقال رسول الله ﷺ: (دعه، فإن له أصحابًا يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم، يقرؤون القرآن، لا يجاوز تراقيهم، يمرقون[9] من الإسلام كما يمرق السهم من الرَّميَّة، ينظر إلى نصل[10] فلا

---

(1) الهباء فى الأصل: ما ارتفع من تَحْت سَنابِك الخَيْل، والشَّىءُ المُنْبَثُّ الَّذى تَراه فى ضَوْء الشمسِ.
(2) رواه البيهقى فى الدلائل.
(3) الظلل: جمع ظلة وهى كل ما أظلَّ من الشمس، والمراد كأنها الجبال أو السُّحب.
(4) الأساود: الحيات مأخوذة من الأسود وهو أخبث الحيات وقيل: الجماعات من الناس مأخوذة من سواد الناس.
(5) صبًّا: من الصَّبِّ وذلك أنَّ الأسود أى الحية إذا أراد أن يَنْهش ارْتفع ثم انْصَبَّ على الملدوغ.
(6) رواه البيهقى فى الدلائل.
(7) رواه البخارى ومسلم.
(8) رواه أحمد.
(9) مرق السهم من الرمية: اخترقها وخرج من الجانب الآخر فى سرعة.
(10) النصل: هو حديدة السهم والرمح.

يوجد فيه شيء، ثم ينظر إلى رصافه، فلا يوجد فيه شيء، ثم ينظر إلى نضيّه فلا يوجد فيه شيء. ثم ينظر إلى قذذه فلا يوجد فيه شيء سبق الفرث والدم[1] آيتهم رجل أسود، إحدى عضديه مثل ثدي المرأة، تدردر، يخرجون على حين فرقة من الناس).

قال أبو سعيد ـ رضي الله عنه ـ: فأشهد أني سمعت هذا الحديث من رسول الله ﷺ وأشهد أن عليًّ بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ قاتلهم وأنا معه، فأمر بذلك الرجل فالتمس، فوجد، فأُتي به، حتى نظرت إليه على نعت رسول الله ﷺ الذي نعت[2].

قام رجل من الجمع، وقال: هذا مرتبط بالفتنة الأولى، لا بالفتنة الآخرة.

قال عبد القادر: لكل فتنة متطرفوها، ولا يثير الفتن إلا المتطرفون، وليس المراد بالحديث تلك الطائفة وحدها، وإنما المراد بها كل من أخبر عنه ﷺ من التطرف في الدين.

وقد ورد في حديث آخر قريب من هذا ما يدل على هذا، فقد أتى ذو الخويصرة التميمي رسول الله ﷺ وهو يقسم المقاسم بحنين فقال: يا محمد، قد رأيت ما صنعت، قال: (وكيف رأيت؟)، قال: لم أرك عدلت، فغضب رسول الله ﷺ وقال: (إذا لم يكن العدل عندي فعند من يكون) فقال عمر: يا رسول الله، ألا أقوم إليه فأضرب عنقه؟ فقال رسول الله ﷺ: (دعه عنك، فإنه سيكون لهذا شيعة يتعمقون في الدين، حتى يمرقوا كما يمرق السهم من الرمية تنظر في النصل فلا تجد شيئا، وتنظر في القدح فلا تجد شيئا، ثم تنظر في الفوق فلا تجد شيئا سبق الفرث والدم)[3].

وفي حديث آخر قال ﷺ: (إن بعدي من أمتي ـ أو سيكون بعدي من أمتي ـ قومٌ يقرؤون القرآن، لا يجاوز حلاقيمهم يخرجون من الدِّين كما يخرج السهم من الرميَّة، ثم لا يعودون فيه، هم شرُّ الخلق والخليقة)[4].

وكان ابن عمر رضي الله عنهما يراهم شرار خلق الله، وقال: إنهم انطلقوا إلى آيات الله نزلت في الكفار، فجعلوها على المؤمنين[5].

بل إنه ﷺ حدَّد مكان خروجهم، وهو من المشرق، فكان كما قال ﷺ، فعن سهل بن حُنيف ـ رضي الله عنه ـ لما سئل: هل سمع النبيَّ ﷺ يذكر الخوارج ـ قال: سمعته ـ وأشار بيده نحو المشرق ـ وقال: (قوم يقرؤون القرآن بألسنتهم، لا يعدو تراقيهم، يمرقون من الدِّين كما يمرق السهم من الرمية)، وفي رواية عنه ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: (يتيه قومٌ قبل المشرق محلَّقة رؤوسهم)[6].

وقد حصل كل ما أخبر عنه ﷺ من ذلك في جميع التاريخ الإسلامي، وخاصة في عصرنا هذا.

**غربة الدين:**

ومن مظاهر الفتنة الآخرة ما أخبر عنه ﷺ من عودة الإسلام غريبًا كما بدأ، فقد قال رسول الله ﷺ: (إنَّ الإِسْلَامَ بَدَأَ غَرِيبًا، وَسَيَعُودُ غَرِيبًا، كما بَدَأَ فَطُوبَى لِلغُرَبَاءِ قِيلَ: وَمَن الغُرَبَاءُ؟ قَالَ: النزائع مِنَ القَبَائِلِ)[7].

---

(1) وما ذكره من حالات السهم، من النصل والرصافة والنضي والقذذ فكلها كناية عن سرعة اختراق السهم للجسد، بحيث لا يعلق به دم ولا فرث، وكذلك حال هؤلاء يمرقون بسرعة من الإسلام، فلا يعلقون منه بشيء.

(2) رواه البخاري ومسلم.

(3) رواه البيهقي في الدلائل.

(4) رواه مسلم.

(5) رواه البخاري.

(6) رواه مسلم.

(7) الترمذي.

وقد أخبر ﷺ عن الفتن الكثيرة التى ستتعرض لها الأمة، وعن غربة الإسلام بسببها، حتى إنها تبلغ درجة يصبح الحل فيها هو الفرار، فقد قال ﷺ: (يُوشِكُ أن يكُونَ خَيرَ مال المسلم غنمٌ يَتبَعُ بهَا شَعَفَ الجبالِ ومواضعَ القَطْرِ ناجيًا بدينه من الفِتَن)[1].

بل أخبر ﷺ بجواز سؤال الموت فى ذلك الوقت، فقال فى حديث المنام الطويل، وفيه: (اللَّهُمَّ إنى أسأَلُك فعلَ الخَيرات وأنْ تَغْفِرَ لي وتَرْحَمَني وإذا أرَدْتَ بقوم فتنةً فَتَوَفَّني إلَيْكَ غَيرَمَفْتُون، اللهمَّ إني أسْأَلُكَ حُبَّكَ وحبَّ مَن يُحِبُّكَ وحُبَّ كُلِّ عَمَل يقربُني إلى حُبِّك).

فهذه الأحاديث وغيرها، تدل على أنه يأتى على الناس زمان شديد لا يكون للمسلمين جماعة قائمة بالحق إما فى جميع الأرض وإما فى بعضها.

ولكن البشرى تأتى بالإخبار ببقاء طائفة من الأمة على الحق حتى تقوم الساعة، قال ﷺ: (لا تَزَال طائفةٌ مِنْ أمَّتِي ظَاهِرين على الحَقِّ لا يَضُرهُمْ من خَذَلَهُم ولَا مَنْ خالفهُم حتّى يأتِي أمرُ اللهِ وهُم كذلك)[2].

وزيادة على ذلك، فقد أخبر ﷺ على ما منّ الله به على هذه الأمة من ظهور المجددين فى كل مائة سنة، فقال رسول الله ﷺ: (إن اللهَ يَبْعَثُ لهذه الأمةِ على رأس كُل مائة سَنَةٍ من يُجدِّدَ لَهَا أمرَ دِينِها)[3].

وقد حصل ما أخبر عنه ﷺ، فلم تزل الأمة تجد من يقوِّم سبيلها، ويعيدها إلى نهج نبيها إلى اليوم.

**وهن الأمة**

ومن مظاهر الفتنة الآخرة كما أخبر رسول الله ﷺ وهن الأمة وضعفها وتكالب الأعداء عليها، وأسباب كل ذلك، وقد رويت فى ذلك نصوص كثيرة لها دلالتها القطعية:

ومن ذلك ما روى عن ثوبان ـ رضى الله عنه ـ قال، قال رسول الله ﷺ: (يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها قيل: من قلة؟ قال: لا، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، يجعل الوهن فى قلوبكم، وينزع الرعب من قلوب عدوكم بحبكم الدنيا وكراهيتكم الموت)[4].

ومن النبوءات الغيبية المرتبطة بهذا إخباره ﷺ عن الحصار الاقتصادى الذى يطبق على بعض بلاد الإسلام، وهو ما لم يحصل إلى فى هذا الزمان[5]، فعن أبى نضرة ـ رضى الله عنه ـ قال: كنا عند جابر بن عبد الله ـ رضى الله عنه ـ فقال: (يوشك أهل العراق ألا يجبى إليهم قفيز ولا درهم)، قلنا: من أين ذلك؟، قال: العجم يمنعون ذلك، ثم قال: يوشك أهل الشام ألا يجبى إليهم دينار ولا مدى، قلنا: من أين ذاك؟ قال: من قبل الروم؟ ثم سكت هُنيهة، ثم قال: قال رسول الله ﷺ: (يكون فى آخر أمتى خليفة يحثى المال حثيًا لا يعده عدًا)، قلت لأبى نضرة: أترى أنه عمر بن العزيز؟ قال: لا[6].

قال رجل من الحاضرين: هذا حديث موقوف على الصحابي، فكيف تستدل به هنا.

قال عبد القادر: لقد ذكر العلماء أن الصحابي إذا روى خبراً من أخبار الغيب موقوفًا، أى لم

---

(1) رواه أبو داود والنسائى وابن ماجه.

(2) البخارى.

(3) أبو داود.

(4) رواه الطيالسى.

(5) انظر: كتاب زلزال الأرض العظيم، تأليف بشير محمد عبد الله.

(6) رواه مسلم.

يرفعه أو ينسبه إلى النبى ﷺ، فإنه يكون فى حكم المرفوع إليه، إذ لا يحتمل أن يحدث الصحابى بخبر من أخبار الغيب، إلا إذا كان قد سمعه من رسول الله ﷺ.

بعد هذا . . فإن هذا الحديث يتضمن ثلاثة أخبار من أنباء الغيب:

أما أولها، فينبئ عن حصار العراق.

وأما الثانى، فيتحدث عن حصار الشام.

وأما الثالث، فيتحدث عن خليفة فى آخر الزمان يحثى المال حثيًا، ولا يعده عدًا.

وفى هذا الحديث ـ بهذا الترتيب ـ إشارة إلى أن هذا الخليفة الكريم سيسبق ظهوره وتأسيسه للخلافة الإسلامية حدثان هما: حصار العراق وحصار الشام.

ويؤكد هذا فهم التابعى أبى نضرة الذى نفى أن يكون هذا الخليفة هو عمر بن عبد العزيز، بالرغم مما عرف عن عهده من كثرة المال، ولكن عهد عمر بن عبد العزيز لم يسبقه حصار العراق، ولا حصار للشام.

بالإضافة إلى هذا، فإن حصار العراق الوارد فى الحديث تضمن منع الطعام والمال عن العراق، وكنى عن الطعام بالقفيز الذى هو مكيال أهل العراق للحبوب، وكذلك ذكر منع جباية المال إلى العراق مع الطعام.

وهذا مما يؤكد هذه النبوءة، إذ البلد المحاصر قديمًا كان يدفع المال فى مقابل الطعام، ولم يكن يتصور منع المال عنه، لكن دلَّ منع المال عن أهل العراق مع منع الطعام عنهم فى نفس الوقت أن مصدر الأموال عندهم من التصدير، وأن الحصار يمنع عنهم الاستيراد كما يمنع عنهم التصدير.

وقد عبر جابر ـ رضى الله عنه ـ عن الحصار بعبارة أخرى، وهى قوله (يوشك أهل العراق ألا يجبى إليهم)، وهو تعبير دقيق ينطبق على ما يسمى بالحصار العالمى للعراق الذى عاشه أهل العراق فترة طويلة من الزمن، وهو أدق وأصوب لغة ومعنى من تعبير الحصار، لأن الحصار يقتضى حصر البلد المحاصر داخل حدود لا يستطيعون الخروج منها كما يمنع غيرهم من دخولها، فهكذا كان حصار المدن قديمًا، إذ كان يحيط جيش العدو بأسوارها وأبوابها، أو حتى بحدودها، إذا لم يكن لها أسوار، ويمنعون دخول البضائع إليها بهذه الكيفية القديمة.

أما الآن فالأمر مختلف تمامًا، وإن استخدامنا لفظ الحصار القديم، إذ ليس للعراق الممتدة شرقًا وغربًا وشمالاً وجنوبًا، أسوار وليس لها بوابات وليس حول حدودها الشاسعة جيوش متراصة كما فى القديم، ومع هذا فقد منع عنهم الكيل والدواء والسلاح والدراهم حيث توقف تصدير البترول، وجاء المنع بقرار من مجلس الأمن الظالم بالمقاطعة الاقتصادية والتجارية والعسكرية، وبامتثال الدول الخاضعة لهذا المجلس لهذه القرارات.

بالإضافة إلى هذا كله، فقد ورد فى الحديث ذكر مصدر المنع وأصل الحصار، حيث قال جابر ـ رضى الله عنه ـ: (العجم يمنعون ذاك)، وهذا ما حصل بكل دقة فى ذلك الحصار الجائر الذى أصاب العراق.

فهو منع وليس حصارا من ناحية، ومصدره، وأساسه كل شعوب وأمم ودول الأرض ماعدا العرب، فهم إذن العجم.

ولم يحدث منذ بدء تاريخ الإسلام ومنذ أن أسلم شعب العراق وأصبح جزءًا من الأمة الإسلامية أن حصل حصار عدا هذا الحصار.

هذا عن الجزء الأول من الخبر . . أما الثانى . . فسيحدث كما ورد فى الحديث: (يوشك أهل الشام ألا يُجبى إليهم دينار ولا مُدى)، وكل الدلائل تشير إلى ذلك.

وسيتلوه ما ورد فى الحديث من الخلافة الصالحة، والخليفة الكريم.

وقد ذكر فى الحديث مصدر حصار الشام، فلما سألوا جابراً ـ رضى الله عنه ـ عن مصدر هذا المنع، قال: (من قبل الروم)، والمراد بالروم فى التراث الإسلامى هم أهل أوروبا، ويدخل فيهم كل من هاجر منها كالأمريكيين والأستراليين وغيرهم.

## فتوحات وبشائر

ما إن انتهى عبد القادر من حديثه عن أخبار الفتن حتى قام بعض القوم، وقال: لقد حصل فى الأمة خير كثير من فتوحات للأرض، وتمكين فى البلاد، ودخول للناس فى الإسلام أفواجا، فهل أشار نبيكم إلى ذلك؟

قال عبد القادر: أنت تريد الحديث إذن عن نبوءاته ﷺ عما فتح الله لدينه من قلوب فى جميع بلاد الدنيا.

قال الرجل: أجل.. هذا ما أريده، ولا أرى الجمهور الحاضر إلا متشوقا لسماع مثل هذا.

قال عبد القادر: سأذكر لكم بعض ما ورد فى ذلك بعد استئذان حضرة القس المحترم.

أشار بولس بالإيجاب.. ولست أدرى لم.. هل كان ذلك غلبة وحياء من الجمهور الحاضر، أم كان هو نفسه، كالجمهور متشوقا لسماع ذلك.

قال عبد القادر: بناء على رغبتكم سأذكر لكم ما أخبر به ﷺ عما سيفتح الله به على أمته من بلاد، وقبل أن أخبركم بذلك أعلمكم أنه ﷺ قال تلك النبوءات فى ظروف خطيرة جدا، كان لأعدائه من السلطان ما يقدرون به فى أى لحظة على محو دينه من أساسه.

وسأذكر لكم ما يشير إلى هذا من زمنين مر بهما كلاهما عصيب:

أما الأول.. ففى مكة المكرمة، وفى ظل الاضطهاد الذى عاناه ﷺ مع أتباعه، فعن خباب بن الأرت قال: شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو يومئذ متوسد بردة فى ظل الكعبة، فقلنا: ألا تستنصر لنا الله تبارك وتعالى، أو ألا تستنصر لنا؟ فقال ﷺ: (قد كان الرجل فيمن كان قبلكم يؤخذ فيحفر له فى الأرض، فيجاء بالمنشار على رأسه فيجعل بنصفين فما يصده ذلك عن دينه، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون عظمه من لحم وعصب فما يصده ذلك، والله ليتمنّ الله عز وجل هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله تعالى، والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون)[1].

وأما الثانى.. ففى المدينة.. حين اتفقت الجزيرة العربية مع اليهود على حربه فى غزوة الأحزاب التى بلغت فيها مخاوف المؤمنين غايتها حتى قال تعالى فى وصفها: ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً ﴿١١﴾﴾ [الأحزاب].

فى ظل تلك الظروف العصيبة بشر بهذه النبوءات الصادقة.. حدث سلمان الفارسى قال: ضربت فى ناحية من الخندق، فغلظت علىّ صخرة، ورسول الله ﷺ قريب منى؛ فلما رآنى أضرب ورأى شدة المكان على، نزل فأخذ المعول من يدى، فضرب به ضربة لمعت تحت المعول برقة؛ قال: ثم ضرب به ضربة أخرى، فلمعت تحته برقة أخرى؛ قال: ثم ضرب به الثالثة، فلمعت تحته برقة أخرى. قال: قلت: بأبى أنت وأمى يا رسول الله! ما هذا الذى رأيت لمع تحت المعول وأنت تضرب؟

---

(1) رواه البخارى.

قال: أو قد رأيت ذلك يا سلمان؟ قال: قلت: نعم. قال: أما الأولى فإن الله فتح على بها اليمن؛ وأما الثانية فإن الله فتح على بها الشام والمغرب؛ وأما الثالثة فإن الله فتح على بها المشرق.

ولهذا كله كان أبو هريرة يقول، حين فتحت هذه الأمصار في زمان عمر وزمان عثمان وما بعده: (افتتحوا ما بدا لكم، فوالذي نفس أبي هريرة بيده، ما افتتحتم من مدينة ولا تفتتحونها إلى يوم القيامة إلا وقد أعطى الله سبحانه محمداً ﷺ مفاتيحها قبل ذلك)[1].

وقد أخبر ﷺ عما يفتح من بلاد على سبيل الإجمال مرتبا كل ذلك بحسب حصوله، فقال: (تفتح اليمن، فيأتي قوم فيبسون فيتحملون بأهليهم ومن أطاعهم، والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون، ثم يفتح الشام فيأتي قوم فيبسون فيتحملون بأهليهم ومن أطاعهم، والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون، ثم تفتح العراق فيأتي قوم فيبسون فيتحملون بأهليهم ومن أطاعهم والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون)[2].

وقد فصل ﷺ بعض ما يحصل من ذلك، ففي حديث عبد الله بن حوالة، قال: كنا عند رسول الله ﷺ، فشكونا إليه العرى والفقر وقلة الشيء، فقال: (أبشروا، فوالله لأنا بكثرة الشيء أخوفني عليكم من قلته، والله لا يزال هذا الأمر فيكم حتى يفتح الله أرض فارس وأرض الروم وأرض حمير، وحتى تكونوا أجنادا ثلاثة: جندا بالشام، وجندا بالعراق، وجندا باليمن، وحتى يعطى الرجل المائة فيسخطها)، قال ابن حوالة: قلت: يا رسول الله، ومن يستطيع الشام وبه الروم ذوات القرون؟ قال: (والله ليفتحنها الله عليكم، وليستخلفنكم فيها حتى تظل العصابة البيض منكم قمصهم الملحمة أقفاؤهم قياما على الرويجل الأسود منكم المحلوق، ما أمرهم من شيء فعلوه) وذكر الحديث.

وقد عبر عبد الرحمن بن جبير عن وقوع هذا الحديث كما أخبر ﷺ، فقال: فعرف أصحاب رسول الله ﷺ نعت هذا الحديث في جزء ابن سهيل السلمي، وكان على الأعاجم في ذلك الزمان، فكان إذا راحوا إلى مسجد نظروا إليه وإليهم قياما حوله فعجبوا لنعت رسول الله ﷺ فيه وفيهم[3].

**فتح الجزيرة العربية:**

قال رجل من الجمع: أخبرتنا بالجملة، فهات التفاصيل.

قال عبد القادر: أولها تبشيره ﷺ بفتح جزيرة العرب، وقد ذكرنا الحديث الدال على ذلك.. وقد وقع هذا الأمر في حياته ﷺ فدانت الجزيرة العربية كلها بالإسلام، وآمن الناس فيها من أقصاها إلى أقصاها.. وكان تصور هذا ضرب من الخيال، فقد كان القتل وقطع الطريق، والإغارة والنهب والسلب في كل ركن من أركانها إلا المسجد الحرام فقط.

وليس ذلك فقط، بل أخبر ﷺ بترتيب الفتوحات التي ستقع، فقد أخبر بفتح جزيرة العرب أولا، ثم فارس، ثم الروم، فعن نافع بن عتبة قال: كنا مع رسول الله ﷺ في غزوة قال: فأتى النبي ﷺ قوم من قبل المغرب عليهم ثياب الصرف، فوافقوه عند أكمة، فإنهم لقيام ورسول الله ﷺ قاعد قال: فقالت لي نفسي ائتهم فقم بينهم وبينه لا يغتالونه، قال: ثم قلت لعله نجي معهم، فأتيتهم، فقمت بينهم وبينه، فحفظت منه أربع كلمات أعدهن في يدي قال: (تغزون جزيرة العرب فيفتحها الله، ثم فارس فيفتحها الله، ثم تغزون الروم فيفتحها الله، ثم تغزون الدجال فيفتحه الله).

---

(1) رواه ابن إسحق.

(2) رواه البخاري ومسلم.

(3) رواه البيهقي في الدلائل.

وفوق ذلك، فقد أخبر ﷺ بأن جزيرة العرب لا تعبد فيها الأصنام أبدا، فعن جابر بن عبد الله - رضى الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: (إن الشيطان قد أيس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب، ولكن فى التحريش بينهم)[1].

وفى حديث آخر عن ابن عباس - رضى الله عنهما -، قال: خرجت مع رسول الله ﷺ من المدينة فالتفت إليها وقال: (إن الله برأ هذه الجزيرة من الشرك)[2].

**فتح مصر:**

ومن النبوءات الغيبية المرتبطة بهذا، ما ورد فى الحديث من التبشير بفتح مصر، بل والوصية بأهلها، فقد قال رسول الله ﷺ: (إنكم ستفتحون أرضا يذكر فيها القيراط[3] فاستوصوا بأهلها خيرا فإن لهم ذمة[4] ورحما[5]، فإذا رأيتم رجلين يقتتلان على موضع لبنة[6] فاخرج منها)[7].

وقد وقع الأمر كما أخبر رسول الله ﷺ، فقد افتتحها عمرو بن العاص فى سنة عشرين أيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه. وقد مر راوى الحديث بربيعة وعبد الرحمن بن شرحبيل بن حسنة يتنازعان فى موضع لبنة فخرج منها.

وفى حديث آخر بيان لدور المصريين فى نصرة الدين، فعن أم سلمة - رضى الله عنها - أن رسول الله ﷺ أوصى عند وفاته فقال: (الله الله، فى قبط مصر إنكم ستظهرون عليهم، ويكونون لكم عدة، وأعوانا فى سبيل الله)[8].

وفى حديث آخر عن أبى عبد الرحمن الحبلى وعمرو بن حريث وغيرهما أن رسول الله ﷺ قال: (إنكم ستقدمون على قوم جعد رؤوسهم فاستوصوا بهم خيرا، فإنهم قوة لكم وإبلاغ إلى عدوكم، بإذن الله) يعنى قبط مصر[9].

وفى حديث آخر قال رسول الله ﷺ: (إذا فتح الله عليكم مصر، فاتخذوا منها جندا كثيفا فذاك الجند خير أجناد أهل الأرض)، فقال أبو بكر - رضى الله عنه -: ولم يا رسول الله؟ قال: (لأنهم فى رباط إلى يوم القيامة)[10].

**فتح العراق وفارس:**

ومن النبوءات الغيبية المرتبطة بهذا إخبار النبى ﷺ - وهو فى المدينة - أن أمته ستفتح كنوز كسرى، فعن عدى بن حاتم قال: بينا أنا عند النبى ﷺ إذ أتاه رجل فشكا إليه الفاقة، ثم أتاه آخر فشكا إليه قطع السبيل، فقال: يا عدى، هل رأيت الحيرة؟ قلت: لم أرها، وقد أنبئت عنها، قال:

---

(1) رواه مسلم.
(2) رواه أبو يعلى والبزار والطبرانى.
(3) القيراط: عشر الدينار ومقياس للأرض.
(4) الذمة والذمام: العَهْد، والأمَان، والضمان، والحُرمَة، والحقّ.
(5) وقد روى البغوى والطبرانى والحاكم وابن عبد الحكم فى فتوح مصر من طريق مالك عن ابن شهاب، ما يبين معنى الرحم المرادة فى الحديث: قال الليث: قلت لابن شهاب: ما رحمهم؟ قال: إن أم اسماعيل منهم.
(6) اللَّبِنَة: واحدة اللَّبِن وهى التى يُبْنَى بها الجِدَار.
(7) رواه مسلم.
(8) رواه الطبرانى فى الكبير، وأبو نعيم فى دلائل النبوة بسند صحيح.
(9) رواه أبو يعلى فى مسنده، وابن عبد الحكم بسند صحيح.
(10) رواه ابن عبد الحكم وأبو يعلى فى تاريخ مصر، ونحب أن ننبه هنا إلى أن ما رواه الطبرانى عن رباح اللخمى أن رسول الله ﷺ قال: «إن مصر ستفتح عليكم فانتجعوا خيرها ولا تتخذوها دارا فإنه يساق إليها أقل الناس أعمارا»، موضوع مكذوب لا يصح روايته، ففى إسناده مطهر بن الهيثم قال فيه أبو سعيد بن يونس: إنه متروك الحديث، قال: والحديث منكر جدا، قد أورده ابن الجوزى فى الموضوعات.

(فإن طالت بك حياة لترين الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف أحداً إلا الله).
قلت فيما بيني وبين نفسي فأين دعار[1] طيء الذين قد سعروا البلاد؟

قال ﷺ: (ولئن طالت بك حياة لتفتحن كنوز كسرى)، قلت: كسرى ابن هرمز؟ قال (كسرى بن هرمز، ولئن طالت بك حياة لترين الرجل يخرج ملء كفه من ذهب أو فضة يطلب من يقبله منه، فلا يجد أحداً يقبله منه، وليلقين الله أحدكم يوم يلقاه وليس بينه وبينه ترجمان يترجم له. فيقولن ألم أبعث إليك رسولاً، فيبلغك فيقول: بلى،فيقول: ألم أعطك مالاً وأفضل عليك؟ فيقول: بلى فينظر عن يمينه فلا يرى إلا جهنم، وينظر عن يساره فلا يرى إلا جهنم، قال عدى: سمعت النبى ﷺ يقول: (اتقوا النار ولو بشق تمرة، فمن لم يجد شق تمرة فبكلمة طيبة).

وقد وقع كل ما أخبر عنه ﷺ، قال عدى يذكر ذلك: فرأيت الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف إلا الله، وكنت فيمن افتتح كنوز كسرى بن هرمز، ولئن طالت بكم حياة لترون ما قال النبى أبو القاسم ﷺ: يخرج ملء كفه[2].

وقد أخبر ﷺ بعد هذا بحسن إسلام الفرس بعد الفتح، فعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: كنا جلوساً عند النبي ﷺ فأنزلت عليه سورة الجمعة: ﴿وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣﴾﴾ [الجمعة]، قال: قلت: من هم يا رسول الله؟ فلم يراجعه حتى سأل ثلاثاً، وفينا سلمان الفارسي، فوضع رسول الله ﷺ يده على سلمان، ثم قال: لو كان الإيمان عند الثريا لناله رجال أو رجل من هؤلاء[3].

ومن النبوءات الغيبية المرتبطة بهذا، ما أخبر به ﷺ سراقة بن مالك من امتلاكه لسوارى كسرى..

وقصة ذلك تشير إلى أن هذا لا يمكن أن يقوله إنسان بناء على استكناه بشرى للمستقبل:

وقصة ذلك هى أنه لما هاجر النبى ﷺ هو وصاحبه أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ فى قصة الهجرة المشهورة، وتبعتهم قريش بفرسانها، أدركهم سراقة بن مالك المدلجى، وكاد يمسك بهم، فلما رآه أبو بكر قال: أتينا يا رسول الله، فقال له النبى ﷺ: (لا تحزن إن الله معنا)، فدعا النبى ﷺ على سراقة، فساخت يدا فرسه فى الرمل، فقال سراقة: إنى أراكما قد دعوتما على، فادعوا لى، فالله لكما أن أرد عنكما الطلب، فدعا له النبى ﷺ، وقال له: (كيف بك إذا لبست سوارى كسرى وتاجه).

فلما فتحت فارس والمدائن، وغنم المسلمون كنوز كسرى أتى أصحاب رسول الله ﷺ بها بين يدى عمر بن الخطاب، فأمر عمر بأن يأتوا له بسراقة، وقد كان وقتها شيخاً كبيراً قد جاوز الثمانين من العمر، وكان قد مضى على وعد رسول الله ﷺ له أكثر من خمس عشرة سنة، فألبسه سوارى كسرى وتاجه، وكان رجلاً كثير شعر الساعدين، فقال له: ارفع يديك، وقل الحمد لله الذى سلبهما كسرى بن هرمز، وألبسهما سراقة الأعرابى[4].

وقد مات سراقة فى خلافة عثمان سنة أربع وعشرين وقيل بعد عثمان.

فمن أخبر محمداً ﷺ وهو هارب بدينه بهذه الغنيمة العظيمة، والتى لن تحصل إلا بعد غلبة المسلمين على الفرس، وقد كان ذلك أبعد محال يمكن أن يفكر فيه بشر.

---

(1) الدعار هو الخبث الشديد.

(2) البخارى.

(3) البخارى 8/ 641.

(4) رواه البيهقى فى الدلائل.

ومن النبوءات الغيبية المرتبطة بهذا ما أخبر عنه ﷺ من هلاك كسرى وقيصر، وزوال دولة الفرس والروم في تلك المنطقة بعد هلاك قيصر وكسرى، ففي الحديث قال ﷺ: (هلك كسرى، ثم لا يكون كسرى بعده، وقيصر ليهلكن ثم لا يكون قيصر بعده، ولتنفقن كنوزهما في سبيل الله عز وجل)[1].

والمراد بهلاك قيصر في هذا الحديث قيصر الذي كان ملك الشام، وتنحية ملك الأقاصرة عنها، وقد تحقق ذلك وزال عن الشام ملك الأقاصرة، ومثل ذلك زال ملك الأكاسرة.

ومن النبوءات الغيبية المرتبطة بهذا ما أخبر به ﷺ عن غزو المسلمين في البحر، وذلك لم يكن من عادة العرب، بل أخبر عن قرب ذلك، واستشهاد أم حرام بنت ملحان في ذلك الغزو.

فقد روى أن رسول الله ﷺ ذكر أن غزواته في البحر تكون فرقتين، وتكون أم حرام مع الأولين، وقد كان ذلك في سنة سبع وعشرين في غزو قبرص، وتوفيت أم حرام في هذه الغزوة في البحر.

وأما الثانية فكانت في سنة اثنتين وخمسين، وذلك في جيش سار إلى غزو القسطنطينية، وكان فيه سادات الصحابة، منهم أبو أيوب الأنصاري، فمات هنالك وأوصى أن يدفن تحت سنابك الخيل وأن يوغل به إلى أقصى ما يمكن أن ينتهي به إلى جهة نهر العدو ففعل به ذلك[2].

فعن أم حرام أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول: (أول جيش من أمتي يغزون البحر قد أوجبوا)، قالت أم حرام: يا رسول الله أنا فيهم؟ قال: إنك فيهم، ثم قال رسول الله ﷺ: (أول جيش من أمتي يغزون مدينة قيصر مغفور لهم) قلت: أنا منهم يا رسول الله قال: (لا)[3].

ففي هذا الحديث ثلاث نبوءات غيبية:

أولها الإخبار عن الغزوة الأولى في البحر، وقد كانت في سنة سبع وعشرين، وكان معهم أم حرام بنت ملحان هذه بصحبة زوجها عبادة بن الصامت، فتوفيت مرجعهم من الغزو قبل بالشام.

والغزوة الثانية، غزوة القسطنطينية مع أول جيش غزاها، وذلك سنة ثنتين وخمسين، وكان معهم أبو أيوب، خالد بن زيد الأنصاري، فمات هناك، ولم تكن هذه المرأة معهم، لأنها كانت قد توفيت قبل ذلك في الغزوة الأولى.

وأما الثالثة، فإخبار المرأة بأنها من الأولين، وليست من الآخرين.

وكل ذلك وقع كما أخبر رسول الله ﷺ.

**فتح القسطنطينية:**

قال عبد القادر: ومن النبوءات الغيبية المرتبطة بهذا ما أخبر عنه ﷺ من فتح القسطنطينية مع أنها كانت من أعتى مدن العالم، فقد قال ﷺ: (لتفتحن القسطنطينية، فلنعم الأمير أميرها، ولنعم الجيش ذلك الجيش)[4].

وقد حصل ما أخبر عنه النبي ﷺ بكل دقة، أما أميرها الذي بشره رسول الله ﷺ بقوله: (نعم الأمير أميرها)، فيدل عليها سيرة السلطان محمد الفاتح الذي شرفه الله بفتح القسطنطينية[5].

---

(1) رواه مسلم.

(2) رواه البخاري.

(3) رواه البخاري.

(4) رواه الإمام أحمد.

(5) انظر: فتح القسطنطينية وسيرة السلطان محمد الفاتح، د. محمد مصطفى.

فهو السلطان محمد الثانى(431 هـ- 1481م)، وهو السابع فى سلسلة آل عثمان، وقد حكم ما يقرب من ثلاثين عامًا كانت خيراً وعزة للمسلمين.

وقد امتاز بشخصية فذة جمعت بين القوة والعدل، كما أنه فاق أقرانه منذ حداثته فى كثير من العلوم التى كان يتلقاها فى مدرسة الأمراء، وخاصة معرفته لكثير من لغات عصره وميله الشديد لدراسة كتب التاريخ، مما ساعده فيما بعد على إبراز شخصيته فى الإدارة وميادين القتال.

وقد برز بعد توليه السلطة فى الدولة العثمانية بقيامه بإعادة تنظيم إدارات الدولة المختلفة، واهتم كثيراً بالأمور المالية فعمل على تحديد موارد الدولة وطرق الصرف منها بشكل يمنع الإسراف والبذخ أو الترف، وركز على تطوير كتائب الجيش وأعاد تنظيمها ووضع سجلات خاصة بالجند، وزاد من مرتباتهم وأمدهم بأحدث الأسلحة المتوفرة فى ذلك العصر.

وعمل على تطوير إدارة الأقاليم وأقر بعض الولاة السابقين فى أقاليمهم وعزل من ظهر منه تقصير أو إهمال، وطور البلاط السلطانى وأمدهم بالخبرات الإدارية والعسكرية الجيدة مما ساهم فى استقرار الدولة والتقدم.

وقد تأثر محمد الفاتح بالعلماء الربانيين منذ طفولته ومن أخصهم العالم الربانى (أحمد بن إسماعيل الكورانى) الذى شهد له بالفضيلة التامة، وكان مدرسه.

أما الجيش الذى أثنى عليه رسول الله ﷺ، فقد بذل السلطان محمد الفاتح جهودًا كبيرة فى إمداده بالقوى البشرية حتى وصل تعداده إلى قرابة ربع مليون مجاهد.. وهذا عدد كبير مقارنة بجيوش الدول فى تلك الفترة.

كما عنى عناية خاصة بتدريب تلك الجموع على فنون القتال المختلفة وبمختلف أنواع الأسلحة التى تؤهلهم للعملية الجهادية المنتظرة، كما اعتنى الفاتح بإعدادهم إعداداً معنويًا قويًا وغرس روح الجهاد فيهم، وتذكيرهم بثناء الرسول ﷺ على الجيش الذى يفتح القسطنطينية، مما أعطاهم قوة معنوية وشجاعة منقطعة النظير، كما كان لانتشار العلماء بين الجنود أثر كبير فى تقوية عزائم الجنود وربطهم بالجهاد الحقيقى وفق أوامر الله.

وكان الفاتح كلما مر بجمع من جنده خطبهم وأثار فيهم الحمية والحماس، وأبان لهم أنهم بفتح القسطنطينية سينالون الشرف العظيم والمجد الخالد، والثواب الجزيل من الله تعالى وستسد دسائس هذه المدينة التى طالما مالأت عليهم الأعداء والمتآمرين.

وكان علماء المسلمين وشيوخهم يتجولون بين الجنود، ويقرأون على المجاهدين آيات الجهاد والقتال وسورة الأنفال، ويذكرونهم بفضل الشهادة فى سبيل الله وبالشهداء السابقين حول القسطنطينية، وعلى رأسهم أبو أيوب الأنصارى ويقولون للمجاهدين: لقد نزل سيدنا محمد ﷺ عند هجرته إلى المدينة فى دار أبى أيوب الأنصارى، وقد قصد أبو أيوب إلى هذه البقعة ونزل هنا، وكان هذا القول يلهب الجند ويبعث فى نفوسهم أشد الحماس والحمية.

وبعد أن عاد الفاتح إلى خيمته ودعا إليه كبار رجال جيشه أصدر إليهم التعليمات الأخيرة، ثم ألقى عليهم الخطبة التالية: (إذا تم لنا فتح القسطنطينية تحقق فينا حديث من أحاديث رسول الله ومعجزة من معجزاته وسيكون من حظنا ما أشاد به هذا الحديث من التمجيد والتقدير، فأبلغوا أبناءنا العساكر فردا فردا، أن الظفر العظيم الذى سنحرزه سيزيد الإسلام قدرا وشرفا، ويجب على كل جندى أن يجعل تعاليم شريعتنا الغراء نصب عينيه فلا يصدر عن أحد منهم ما يجافى هذه التعاليم، وليتجنبوا الكنائس والمعابد ولا يمسوها بأذى، ويدعوا القسس والضعفاء والعجزة الذين لا يقاتلون..)

وقد عامل السلطان محمد الفاتح أهل القسطنطينية معاملة رحيمة وأمر جنوده بحسن معاملة الأسرى والرفق بهم، وافتدى عدداً كبيراً من الأسرى من ماله الخاص وخاصة أمراء اليونان، ورجال الدين، واجتمع مع الأساقفة وهدأ من روعهم، وطمأنهم إلى المحافظة على عقائدهم وشرائعهم وبيوت عبادتهم، وأمرهم بتنصيب بطريرك جديد فانتخبوا أجناديوس بطريركا، وتوجه هذا بعد انتخابه فى موكب حافل من الأساقفة إلى مقر السلطان، فاستقبله السلطان محمد الفاتح بحفاوة بالغة وأكرمه أيما تكريم، وتناول معه الطعام، وخرج البطريرك من لقاء السلطان، وقد تغيرت فكرته تمامًا على السلاطين العثمانيين وعن الأتراك، بل والمسلمين عامة، وشعر أنه أمام سلطان مثقف صاحب رسالة وعقيدة دينية راسخة وإنسانية رفيعة، ورجولة مكتملة، ولم يكن الروم أنفسهم أقل تأثراً ودهشة من بطريركهم، فقد كانوا يتصورون أن القتل العام لابد لاحقهم، فلم تمض أيام قليلة حتى كان الناس يستأنفون حياتهم المدنية العادية فى اطمئنان وسلام.

لقد كان العثمانيون حريصين على الالتزام بقواعد الإسلام، ولذلك كان العدل بين الناس من أهم الأمور التى حرصوا عليها، وكانت معاملتهم للنصارى خالية من أى شكل من أشكال التعصب والظلم، ولم يخطر ببال العثمانيين أن يضطهدوا النصارى بسبب دينهم.

**بشائر مرتقبة:**

ومن النبوءات الغيبية المرتبطة بهذا، ما أخبر عنه ﷺ من قتال اليهود والانتصار عليهم، فقد جاء فى الحديث قوله ﷺ: (تقاتلكم اليهود، فتسلطون عليهم حتى يقول الحجر: يا مسلم هذا يهودى ورائى، فاقتله)[1].

وفى حديث آخر، قال ﷺ: (تقاتلون اليهود حتى يختبئ أحدهم وراء الحجر، فيقول: يا عبدالله هذا يهودى ورائى فاقتله)[2].

فهذه الأحاديث تشير إلى أنه سيكون لليهود دولة، وذلك ما كان يعتبر مستحيلاً إلى أوائل هذا القرن، فجاءت الأيام مصدقة لقول رسول الله ﷺ.

ولكن هذه الدولة ما وجدت لتبقى، بل جاءت البشارة فى هذه الأحاديث بنصر المسلمين على اليهود نصراً يشارك فيه كل شيء حتى الحجارة.

ومن تلك البشائر ما أخبر عنه ﷺ من ظهور المهدى وظهور الإسلام على الدين كله، وذلك فى أحاديث كثيرة تبلغ مبلغ التواتر:

ومما روى فى ذلك ما حدث به ثوبان ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: (إذا رأيتم الرايات السود قد جاءت من قبل خراسان فائتوها، فإن فيها خليفة الله المهدى)[3].

وفى حديث آخر عن أبى سعيد ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: (إن فى أمتى المهدى يخرج يعيش خمسا أو سبعا أو تسعا ـ شك زيد ـ فيجيء إليه الرجل، فيقول: يا مهدى أعطنى أعطنى، فيحثى له فى ثوبه ما استطاع أن يحمله)[4].

وفى حديث آخر عن أبى سعيد ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: (يخرج المهدى فى أمتى خمسا أو سبعا أو تسعا)، قال: قلت: أى شيء قال: سنين، ثم يرسل عليهم السماء مدرارا،

---

(1) رواه البيهقى فى الدلائل.

(2) رواه البخارى.

(3) رواه أحمد والحاكم.

(4) رواه الترمذى وقال: حسن.

ولا تدخر الأرض من نباتها شيئا، ويكون المال كدوسا، وقال: (يجيء الرجل إليه، فيقول يا مهدى، أعطنى أعطنى، فيحثى له فى ثوبه ما استطاع أن يحمل)[1].

وفى حديث آخر عنه أن رسول الله ﷺ قال: (يخرج فى أمتى المهدى، يسقيه الله الغيث، وتخرج الأرض نباتها، ويعطى المال صحاحا، وتكثر الماشية، وتعظم الأمة، يعيش سبعا أو ثمانيا) يعنى حججا[2].

وفى حديث آخر عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (أبشروا بالمهدى، رجل من قريش من عترتى يخرج فى اختلاف من الناس، فيملأ الأرض قسطا وعدلا كما ملئت ظلما وجورا، ويرضى عنه ساكن السماء وساكن الأرض ويقسم المال صحاحا)، قالوا: وما صحاحا يا رسول الله؟ قال: (بالسوية، ويملأ قلوب أمة محمد غنى، ويسعهم عدله، حتى إنه يأمر مناديا فينادى فيقول، من كان له حاجة إلى فليأتينى؟ فما يأتيه أحد إلا رجل واحد يأتيه فيسأله، فيقول: ائت السدان حتى نعطيك. فيأتيه، فيقول: أنا رسول المهدى إليك أرسلنى لتعطينى مالا، فيقول: احث، فيحثى ولا يستطيع أن يحمله، فيلقى حتى يكون قدر ما يستطيع أن يحمله، فيخرج فيندم، فيقول: إنا لا نأخذ شيئا أعطيناه فلبث فى ذلك ستا أو سبعا أو ثمانيا أو تسع سنين والخير فى الحياة بعده)[3].

وفى حديث آخر عن عبد الله بن الحارث بن جزء الزبيدى - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: (يخرج قوم من قبل المشرق فيوطئون للمهدى سلطانه)[4].

وفى حديث آخر عن أبى سعيد - رضى الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: (لا تقوم الساعة حتى تمتلئ الأرض ظلما وعدوانا، ثم يخرج رجل من أهل بيتى فيملأها قسطا وعدلا كما ملئت ظلما وعدوانا)[5].

وفى حديث آخر عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: (لا تقوم الساعة حتى يملك رجل من أهل بيتى يفتح القسطنطينية، وجبل الديلم، ولو لم يبق من الدنيا إلا يوم لطول الله ذلك اليوم حتى يفتحها)[6] وفى لفظ: (لطول الله ذلك اليوم حتى يملك رجل من أهل بيتى جبل الديلم والقسطنطينية).

وفى حديث آخر عن أبى سعيد - رضى الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: (لا تقوم الساعة حتى يملك رجل من أهل بيتى أجلى أقنى، يملأ الأرض عدلا كما ملئت قبله ظلما، يكون سبع سنين)[7].

وفى حديث آخر عن ابن مسعود - رضى الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: (لو لم يبق من الدنيا إلا يوم لملك فيها رجل من أهل بيتى)[8]، وفى رواية: (لو لم يبق من الدنيا إلا يوم لطول الله ذلك اليوم حتى يبعث فيه رجل).

وفى حديث آخر عن ابن مسعود - رضى الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: (لا تذهب

---

(1) رواه أحمد.
(2) رواه الحاكم.
(3) رواه أحمد والباوردى.
(4) رواه ابن ماجة والطبرانى فى الكبير.
(5) رواه أبو يعلى وابن خزيمة وابن حبان والحاكم.
(6) رواه الرافعى - فى تاريخ قزوين - وابن ماجة.
(7) رواه أحمد وأبو يعلى وسمويه والضياء فى المختارة بسند ضعيف.
(8) رواه الطبرانى فى الكبير والدارقطنى فى الإفراد والحاكم وأبو داود.

الدنيا ولا تنقضى حتى يملك العرب رجل من أهل بيتى يواطئ اسمه اسمى)[1] وفى لفظ: (لا تقوم الساعة حتى يلى رجل من أهل بيتى يواطئ اسمه اسمى).

وفى حديث آخر عن على بن الحسين عن أبيه، قال: قال رسول الله ﷺ: (أبشرى يا فاطمة، المهدى منك)[2].

وفى حديث آخر عن على - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: (ألا أخبرك أن الله فتح هذا الأمر بى ويختمه بولدك)[3].

## ظواهر وسنن

بعد أن ذكر عبد القادر جميع هذه النبوءات امتلأت القاعة بالعجب.. ولم يستطع بولس أن يخفى الكثير من تعجبه، ولكنه لم يقل شيئا..

قام رجل من القاعة، وقال: أرى أن محمدا قد ذكر الكثير من الأنباء المرتبطة بالتواريخ، والفتن والفتوح.. فهل ذكر شيئا يرتبط بواقعنا نحن.. بظواهره المختلفة؟

قال عبد القادر: أجل.. فرسول الله ﷺ هو رسول كل الأزمان، ولذلك اقتضت رسالته أن يحدثنا بالظواهر المختلفة التى ستحدث فى المجتمعات المختلفة، لينبهنا بذلك، ويعلمنا.

وقد كان الصحابة رضى الله عنهم يعلمون هذا الدور الرسالى المنوط به ﷺ، ولذلك كانوا يسألونه، ويدققون فى السؤال حرصا على أن لا يفوتهم تعليمه ونصحه.

لقد أشار ﷺ فى أحاديث كثيرة جدا إلى ظهور أنواع من الانحراف: الانحراف الدينى والانحراف الخلقى والانحراف الاجتماعى والانحراف السياسى.. وغيرها كثير.

وبما أنى ذكرت لكم الانحراف السياسى عند حديثى عن الفتن، فسأذكر لكم هنا الأنواع الثلاثة من الانحراف.

### 1 - الانحراف الدينى:

وأولها، وأخطرها الانحراف الدينى بمظاهره المختلفة:

#### التطرف والغرور:

وأول مظهر أشارت إليه النصوص، وشددت التنبيه إليه التطرف والغلو فى الدين، وما ينتج عنه من غرور قاتل، وقد ورد ذلك فى أحاديث كثيرة مستفيضة، وجدت للأسف من ينحرف بها عن فهمها الصحيح، فيحملها على طائفة من الأمة يقصرها عليها، وينفى اتصاف غيرها بها.

ومما يروى فى ذلك قوله ﷺ: (يأتى فى آخر الزمان حدثاء الأسنان سفهاء الأحلام يقرأون القرآن لا يتجاوز تراقيهم، يقولون: من قول خير البرية لا يتجاوز حناجرهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، فإذا رأيتموهم، فاقتلوهم فإن قتلهم أجر لمن قتلهم يوم القيامة)[4].

وفى حديث آخر عن على - رضى الله عنه - قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (يخرج قوم من أمتى يقرءون القرآن ليست قراءتكم إلى قراءتهم شيئا، ولا صلاتكم إلى صلاتهم شيئا ولا

---

(1) رواه أحمد وأبو داود والترمذى - وقال: حسن صحيح - والطبرانى فى الكبير.

(2) رواه ابن عساكر.

(3) رواه الخطيب وابن عساكر.

(4) رواه البخارى ومسلم وأحمد والنسائى وابن جرير وأبو داود الطيالسى وابن ماجه وأبو عوانة وأبو يعلى وابن حبان عن على، وابن أبى شيبة والإمام أحمد والترمذى وقال: حسن صحيح وابن ماجه وابن جرير عن ابن مسعود رضى الله عنه.

صيامكم إلى صيامهم شيئا، يقرأون القرآن يحسبون أنه لهم وهو عليهم لا تجاوز صلاتهم تراقيهم، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية)(1).

وفي حديث آخر عن ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: (يرث هذا القرآن قوم يشربونه شرب اللبن، لا يجاوز تراقيهم)(2).

وفي حديث آخر عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: (يخرج في آخر الزمان قوم يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم سيماهم التحليق إذا لقيتموهم فاقتلوهم)(3).

وفي حديث آخر عن أبي برزة أن رسول الله ﷺ قال: (يخرج في آخر الزمان قوم كأن هذا منهم يقرأون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية سيماهم التحليق لا يزالون يخرجون حتى يخرج آخرهم مع المسيح الدجال فإذا لقيتموهم فاقتلوهم، هم شر الخلق والخليقة)(4).

وفي حديث آخر عن أبي بكرة قال: قال رسول الله ﷺ: (يخرج قوم أحداء أشداء ذليقة ألسنتهم بالقرآن يقرأونه ينثرونه نثر الدقل لا يجاوز تراقيهم فإذا رأيتموهم فأنيموهم فاقتلوهم فالمأجور من قتل هؤلاء)(5).

وفي حديث آخر أن رسول الله ﷺ قال: (يخرج ناس من المشرق، أقوام محلقة رؤوسهم. يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم ـ يقرأون القرآن بألسنتهم لا يعدو تراقيهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية ـ، وفي لفظ: ثم لا يعودون فيه حتى يعود السهم إلى فوقه، سيماهم التلحيق)(6).

وفي حديث آخر عن أبي سعيد ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: (يخرج فيكم قوم تحقرون صلاتكم مع صلاتهم، وصيامكم مع صيامهم، وعلمكم مع علمهم، ويقرأون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم الذى يصونهم من الرمية، ينظر في النصل فلا يرى شيئا، وينظر في القدح فلا يرى شيئا، وينظر في الريش فلا يرى شيئا، ويتمارى في الفوق هل علق به من الدم شيء)(7).

وفي حديث آخر عن عن ابن عباس ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: (يأتى على الناس زمان يتعلمون القرآن فيجمعون حروفه، ويضيعون حدوده، ويل لهم مما جمعوا وويل لهم مما صنعوا، إن أولى الناس بهذا القرآن من جمعه لم ير عليه أثره)(8).

وفي حديث آخر أن رسول الله ﷺ قال: (سيكون بعدي من أمتى قوم يقرأون القرآن، لا يجاوز حلاقيمهم، يخرجون من الدين كما يخرج السهم من الرمية ثم لا يعودون فيه، هم شر الخلق والخليقة سيماهم التحليق)(9).

---

(1) رواه مسلم وأبو داود وأبو عوانة.

(2) رواه أبو نصر السجزي في الإبانة والديلمي.

(3) رواه ابن ماجه.

(4) رواه ابن أبي شيبة وأحمد والنسائي والطبراني في الكبير والحاكم.

(5) رواه أحمد والبخاري والطبراني في الكبير، والبيهقي.

(6) رواه أحمد والبخاري وأبو يعلى عن أبي سعيد، وابن ابي شيبة والإمام أحمد والبخاري ومسلم عن سهل بن حنيف.

(7) رواه البخاري ومسلم، والنسائي.

(8) رواه أبو نعيم.

(9) رواه أحمد ومسلم وابن ماجه والطبراني في الكبير.

وفى حـديث آخر عن أنس بن مـالك ـ رضى الله عنه ـ قـال: بينا نحن نقـرأ، فينا العـربى والعجمى والأسود إذ خرج علينا رسول الله ﷺ فقال: (أنـتم بخير تقرؤون كتاب الله، وفيكم رسول الله ﷺ، وسيأتى قوم يثقفونه كما يثقفون القدح يتعجلون أجورهم ولا يتأجلونها)[1].

وفى حديث آخـر أن رسول الله ﷺ قال: يظهر الدين حـتى يجاوز التجار، وتخـاض البحار بالخيل فـى سبيل الله، حـتى يرد الكفر إلى مـوطنه، وليأتين على الناس زمـان يتعلمـون فيـه القرآن يتعلمونه ويقرأونه، ثم يقولون: قد قـرأنا القرآن، فمن أقرأ منا؟ ومن أفقه منا، ومن أعلم منا؟)، ثم التـفت إلى أصحـابه، فقـال: (هل فى أولئك من خيـر؟)، قالوا: لا، قـال: (أولئك منكم من هذه الأمة، وأولئك هم وقود النار)[2].

وفى حديث آخـر عن جابر ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ رأى قـوما يقـرأون القرآن، فقال: (اقرأوا القرآن قبل أن يأتى قوم يقيمونه إقامة القدح يتعجلونه ولا يتأجلونه)[3].

**الاهتمام بالمظاهر:**

ومن مظاهر الانحـراف الدينى التى أشارت إليـها النصوص، الاهـتمام بالجـانب الشكلى من الدين، أو ببعض مظاهر الدين وطقوسه مع الغفلة عن التحقق الكامل به:

ومن ذلك ما أخبر عنه ﷺ من المبـاهاة بالمساجد والتفاخر بها والانشغـال عن حقيقة دورها، فعن أنس ـ رضى الله عنه ـ قـال: قال رسـول الله ﷺ: (لا تقوم السـاعة حـتى يتبـاهى الناس فى المساجد)[4].

وفى حديث آخـر عن ابن عباس ـ رضى الله عنهمـا ـ قال: قال رسول الله ﷺ: (مـا أمرت بتشييد المسـاجد) قال ابن عباس: لتزخرفنها كما زخرفت اليهود والنصارى[5].

وفى حـديث آخر عن ابن عـباس ـ رضى الله عنهـما ـ قـال: قال رسـول الله ﷺ: (أراكم ستشرفون مساجدكم بعدى كما شرفت اليهود كنائسها وكما شرفت النصارى بيعها)[6].

وفى حديث آخر عن ابن عـباس ـ رضى الله عنهما ـ عن رسـول الله ﷺ قال: (سيكون فى آخر أمتى أقوام يزخرفون مساجـدهم ويخربون قلوبهم، يتقى أحدهم على ثوبه ما لا يتقى على دينه، لا يبالى أحدهم إذا سلمت له دنياه ما كان من أمر دينه)[7].

ومما يدخل فى هذا الباب ما أخبر عنه ﷺ من الاهتمام بالقول دون العمل، فقال: (إنه يكون فى أمتى اختلاف وفرقة، قوم يحسنون القول ويسيئون العمل)[8].

وفى حديث آخـر، قال ﷺ: (إذا ظهر القول وخـزن العمل، واختلفت الألسن، وتباغضت القلوب وقطع كل ذى رحم رحمه، فعند ذلك لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم)[9].

---

(1) رواه أحمد بسند جيد.

(2) رواه أبو يعلى والبزار والطبرانى عن العباس بن عبد المطـلب، والبزار برجال ثقات والطبرانى عن عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ والطبرانى برجال ثقات عن أم الفضل بنت العباس رضى الله عنهم..

(3) رواه أحمد بن منيع بإسناد حسن.

(4) رواه أحمد وأبو داود والنسائى والبيهقى.

(5) رواه أبو داود.

(6) رواه ابن ماجه.

(7) رواه الحاكم فى تاريخه.

(8) رواه أبو شعـيب الحرانى فى فوائده، وأبو داود، والحـاكم فى المستدرك من حـديث قتادة وأنس وأبى سعـيد، ورواه أحمد وأبو داود وابن ماجه والحاكم من حديث أنس وحده.

(9) رواه الطبرانى فى الأوسط عن سلمان.

**التجارة بالدين:**

ومن مظاهر الانحراف الدينى التى أشارت إليها النصوص، التجارة بالدين، وخصوصا بالقرآن الكريم، وهو ما نراه اليوم من التجارة بالرقية وقراءة القرآن على الموتى وغير ذلك من أنواع التجارة بالقرآن الكريم.

ومما يروى فى ذلك ما ذكر عن عمران بن حصين ـ رضى الله عنه ـ أنه مر على قارئ يقرأ القرآن يسأل الناس به، فاسترجع عمران وقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (من قرأ القرآن فليسأل به الله، فإنه ستجيء أقوام يقرأون القرآن، ويسألون به الناس)[1].

وفى حديث آخر عنه ـ رضى الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: (اقرؤوا القرآن، وسلوا الله به قبل أن يأتى قوم يقرأون القرآن فيسألون الناس به)[2].

وفى حديث آخر عن جابر ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: (اقرأوا القرآن، وابتغوا به الله من قبل أن يأتى قوم يقيمونه إقامة القدح يتعجلونه ولا يتأجلونه)[3].

ومن هذا الباب إخباره ﷺ عن أقوام يأكلون بألسنتهم كما تأكل البقر، فعن عمر بن سعد قال: كانت لى حاجة إلى أبى، فقدمت بين يدى حاجتى كلاما، مما يحدث الناس يتوصلون به لم يكن سعد يسمعه، فلما فرغت قال: يا بنى فرغت من كلامك؟ قلت: نعم، قال: ما كنت من حاجتك أبعد ولا كنت فيك أزهد منى منذ سمعت كلامك، سمعت رسول الله ﷺ يقول: (سيكون قوم ـ وفى لفظ: لا تقوم الساعة حتى يخرج قوم ـ يأكلون بألسنتهم كما يأكل البقر بألسنتهم من الأرض)[4].

**رفع العلم:**

ومن المظاهر الكبرى التى هى أساس كل الانحرافات السابقة، ما أخبر عنه ﷺ من رفع العلم الشرعى، واتخاذ الناس بدلهم رؤساء جهالا يفتون بأهوائهم:

ومما يروى فى ذلك، وفى صفة رفعه قوله ﷺ: (إن الله لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يبق عالما، اتخذ الناس رؤوسا جهالا، فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا)[5].

وفى حديث آخر عن أبى أمامة ـ رضى الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: (يا أيها الناس خذوا من العلم قبل أن يقبض العلم، وقبل أن يرفع العلم)، قيل: يا رسول الله، كيف يرفع العلم وهذا القرآن بين أظهرنا؟ فقال: (ثكلتك أمك، وهذه اليهود والنصارى أو ليست بين أظهرهم المصاحف لم يصبحوا يتعلقوا بالحرف مما جاءتهم به أنبياؤهم. ألا وإن ذهاب العلم أن تذهب حملَته)[6].

والعلم الذى يقصده ﷺ فى هذا الحديث هو العلم بالدين، أما العلم الآخر المرتبط بمرافق الحياة، فقد أشار ﷺ إلى انتشاره والاهتمام به، وهذا ما يشير إليه قوله ﷺ: (إن من أشراط الساعة أن يظهر القلم)[7].

---

(1) رواه أحمد وابن منده.

(2) رواه أحمد والطبرانى فى الكبير، والبيهقى فى الشعب.

(3) رواه أحمد وأبو داود وابن منيع والبيهقى فى الشعب والضياء.

(4) رواه مسدد وابن أبى شيبة وأحمد، والضياء فى المختارة والنسائى وابن حبان والخرائطى فى مكارم الاخلاق.

(5) رواه البخارى ومسلم.

(6) رواه أحمد والدارمى والطبرانى فى الكبير وأبو الشيخ فى تفسيره، وابن مردويه.

(7) رواه أحمد، والبزار، والطبرانى، وغيرهم عن ابن مسعود.

ومما يؤكد الإشارة إلى أنه العلم الديني قوله ﷺ: (من اقتراب الساعة كثرة القراء، وقلة الفقهاء وكثرة الأمراء وقلة الأمناء)(1)، وقوله ﷺ: (سيأتي على أمتي زمان يكثر فيه القراء ويقل فيه الفقهاء، ويقبض العلم ويكثر الهرج)(2).

وأخبر ﷺ عن آثار قبض هذا النوع من العلم، فقال: (من أشراط الساعة أن يتدافع أهل المسجد لا يجدون إمامًا يصلي بهم)(3).

وقد ذكر ﷺ أن أول العلوم الشرعية ارتفاعا علم الفرائض، فعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: (تعلموا الفرائض وعلموها الناس، فإنه نصف العلم، وإنه ينسى، وهو أول شيء ينتزع من أمتي)(4).

وفي حديث آخر عن ابن مسعود – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ: (تعلموا الفرائض، وعلموا الناس، فإني امرؤ مقبوض، وإن العلم سيقبض وتظهر الفتن حتى يختلف اثنان في الفريضة، فلا يجدان من يفصل بينهما)(5).

ومن المظاهر الخطيرة لرفع العلم ما أخبر عنه ﷺ من ظهور من يرد سنته، ويدعو إلى عدم العمل بها، ومما يروى في ذلك ما حدث به المقدام بن معدي كرب، عن رسول الله ﷺ قال: (ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه ألا يوشك رجل شبعان على أريكته، يقول: عليكم بهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه، وما وجدتم فيه من حرام فحرموه)(6).

وفي حديث آخر عن أبي رافع ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: (لا ألفين أحدكم متكئا على أريكته يأتيه الأمر من أمري، فما أمرت به، أو نهيت عنه، فيقول: لا ندري، ما وجدنا في كتاب الله تعالى اتبعناه)(7).

ومن المظاهر الخطيرة لرفع العلم ما أخبر عنه ﷺ من ظهور الاهتمام بالمتشابهات، والغفلة عن المحكمات، فعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: تلا رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ ۝٧﴾ [آل عمران]، فقال: (إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين رمى الله فاحذروهم)(8).

وقد حصل ما أخبر عنه ﷺ فنحن نرى في عصرنا طوائف من هؤلاء لا همَّ لها إلا البحث في النصوص المتشابهة فيما يتعلق بالله وصفاته، فيغفلون عن أسماء الله الحسنى التي هي محل اتفاق الأمة جميعا، فلا يكادون يعرجون عليها، بينما نراهم يتهالكون على الساق واليد والهرولة والجري يصفون الله بها، ولا يكادون يصفون بغيرها.

**2 - الانحراف الاجتماعي:**

ومن مظاهر الانحراف التي تحدثت عنها النصوص الانحراف الاجتماعي الذي يتجلى في مظاهر مختلفة.

---

(1) رواه الطبراني عن عبد الرحمن الأنصاري.

(2) رواه الحاكم والطبراني عن أبي هريرة.

(3) رواه أحمد وأبو داود عن سلامة بنت الحران.

(4) رواه ابن ماجه والدار قطني والحاكم والشيرازي في الألقاب والبيهقي.

(5) رواه أحمد والترمذي والنسائي والبيهقي والحاكم، واللفظ له.

(6) رواه البيهقي.

(7) رواه أبو داود والبيهقي.

(8) رواه البخاري ومسلم.

**فشو التقليد:**

منها ما أخبر به ﷺ من فشو التقليد في هذه الأمة، وأخذها بما أخذت سائر الأمم.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (لا تقوم الساعة حتى تأخذ أمتي مأخذ القرون قبلها، شبراً بشبر، وذراعاً بذراع)، فقيل له: يا رسول الله، كفارس والروم؟ قال: (ومن الناس إلا أولئك)[1].

وفي حديث آخر عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (لتتبعن سنن من قبلكم شبراً بشبر، وذراعاً بذراع، حتى لو دخلوا في جحر ضبٍّ لاتبعتموهم)، قلنا: يا رسول الله، آليهود والنصارى؟ قال: (فمن)[2].

ومن الاتباع والاقتفاء، أن يفعل أفراد من هذه الأمة ما حصل في الأمة السابقة، حتى لو كان غاية القبح والرذيلة، كما روى عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: (لتركبن سنن من كان قبلكم، شبراً بشبر، وذراعاً بذراع، وباعاً بباع، حتى لو أن أحدهم دخل جحر ضبٍّ لدخلتم، وحتى لو أن أحدهم جامع امرأته بالطريق لفعلتموه)[3].

وأنتم تلاحظون دقة الرسول ﷺ في الإخبار عن الأمم التي سيقع المسلمون في تقليدها، وحصرهم في اليهود والنصارى، وهو ما نلاحظه في جميع فترات التاريخ الإسلامي، خاصة في عصرنا.

**تخلخل العلاقات:**

ومنها ما أخبر عنه ﷺ من تخلخل العلاقات الاجتماعية، وهو ما عبر عنه ﷺ في حديث جبريل الطويل وسؤاله عن الإسلام والإيمان والإحسان والساعة، (قال له جبريل: فأخبرني عن الساعة؟ فقال رسول الله ﷺ: (ما المسؤول عنها بأعلم من السائل)، قال: فأخبرني عن أماراتها؟، قال: (أن تلد الأمة ربتها، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان)[4].

فولادة الأمة لربتها يشير إلى انقلاب الموازين، وفساد العلاقات الاجتماعية، فيكثر العقوق في الأولاد، حتى يعامل الولد أمه معاملة السيد أمته من الإهانة بالسب والضرب والاستخدام[5].

قال عبد الحكيم: وربما يشير هذا إلى ما يسمى بالأرحام المستأجرة، والصورة العلمية لذلك[6] هي شفط البويضة من مبيضها خلال منظار يخترق جدار البطن، وقد تمت هذه الخطوة، ثم تلقيح هذه البويضة بمني من الزوج يلتحم بها ليكونا بيضة تشرع في الانقسام إلى عديد من الخلايا، وقد تمت هذه الخطوة أيضا، ثم إيداع هذه الكتلة من الخلايا أي الجنين الباكر رحم امرأة أخرى بعد إعداده هرمونيا لاستقبال جنين.. فيكمل الجنين نماءه في رحم هذه السيدة المضيفة حتى تلده وتسلمه لوالديه اللذين منهما تكون.

وهذه الخطوة لم تتم بعد، ولكنها بلغت درجة الممكن، وقد تمت بنجاح في الحيوانات بل وعلى درجتين، إذ تم استخراج أجنة نعاج في بريطانيا وإيداعها رحم أرنبة حملت بالطائرة لجنوب أفريقيا حيث استخرجت مرة أخرى وأودعت أرحام نعاج من فصيلة أخرى حضنتها حتى ولدتها على هيئة سلالتها الأصلية.

---

(1) رواه البخاري.

(2) رواه البخاري ومسلم.

(3) رواه الحاكم وصححه وأقره الذهبي، ورواه البزار برجال ثقات.

(4) رواه مسلم.

(5) فتح الباري (1 / 122).

(6) كما ذكرها الدكتور حسان حتحوت في مجلة العربي.

فهذا لو نجح فى المستقبل، فسيجعل من النساء الراقيات يبحثن عن مستأجرات يحملن أولادهن، وقد تكن خادمات عندهن، ويكون الولد بذلك سيدا على والدته، وهو ما عبر عنه ﷺ بالولادة.

ومن النبوءات الغيبية المرتبطة بهذا ما أخبر عنه ﷺ من قطيعة الرحم وسوء الجوار وظهور الفساد والفحش، فقد قال ﷺ: (لا تقوم الساعة حتى يظهر الفحش والتفاحش وقطيعة الرحم وسوء المجاورة)(1).

وقد حصل ما أخبر عنه النبى ﷺ فقد انحلت العلاقات الاجتماعية، فنحن نرى التقاطع وسوء الجوار حاصلا بين الناس، حتى إن الجار لا يعرف جاره، والقريب لا يعرف عن بعض أرحامه، هل هم من الأموات أم من الأحياء.

**سلام الخاصة:**

ومن النبوءات الغيبية المرتبطة بهذا أن يكون السلام على المعرفة، يعنى ألا يسلّم الإنسان إلا على من يعرف، فلو دخل داخل على مجلس فيه عدد من الناس يعرف بعضهم، ولا يعرف الآخرين، فإنه يتوجه إلى من يعرف، ويدع الآخرين.

فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (إن من أشراط الساعة أن يسلّم الرجل على الرجل، لا يسلّم عليه إلا للمعرفة)(2).

وحدث طارق بن شهاب قال: كنا عند عبد الله بن مسعود جلوسًا، فجاء آذنه فقال: قد قامت الصلاةُ، فقام وقمنا معه، فدخلنا المسجد، فرأينا الناس ركوعًا فى مقدم المسجد، فكبّر وركع ومشى، وفعلنا مثل ما فعل، قال: فمر رجلٌ مسرع، فقال: السلام عليكم يا أبا عبد الرحمن، فقال: صدق الله وبلّغ رسوله ﷺ، فلما صلينا رجع، فولج أهله، وجلسنا فى مكانه ننتظره حتى يخرج، فقال بعضنا لبعض: أيكم يسأله؟ قال طارق: أنا أسأله. فسأله طارق فقال: سلّم عليك الرجل فرددت عليه، صدق الله وبلّغ رسوله ﷺ. فقال عبد الله: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إن بين يدى الساعة تسليم الخاصة، وفشو التجارة، حتى تعين المرأة زوجها على التجارة، وقطع الأرحام، وظهور شهادة الزور، وكتمان شهادة الحق، وحتى يخرج الرجل بماله إلى أطراف الأرض، فيرجع فيقول: لم أربح شيئًا، وحتى تغلو الخيل والنساء، ثم ترخص، فلا تغلو إلى يوم القيامة)(3).

وقد حصل ما أخبر عنه النبى ﷺ، فنحن نرى هذا فى عصرنا ينتشر انتشارا عظيما، مع أن المطلوب إفشاء السلام، كما قال ﷺ: (لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابّوا، ألا أدلكم على شىء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم)(4).

ومما يدخل فى هذا الباب ما أخبر عنه ﷺ من وقوع التناكر بين الناس، فعن حذيفة ـ رضى الله عنه ـ قال: سئل رسول الله ﷺ عن الساعة فقال: (علمها عند ربى لا يجليها لوقتها إلا هو، ولكن أخبركم بمشاريطها وما يكون بين يديها ـ وذكر منها ـ ويلقى بين الناس التناكر، فلا يكاد أحد يعرف أحدا)(5).

---

(1) رواه أحمد (10 / 26 - 31) وقال أحمد شاكر: إسناده صحيح، وأخرجه الحاكم فى المستدرك (1 / 75) وقال: هذا حديث صحيح.

(2) رواه أحمد وابن خزيمة والطحاوى والبزار والطبرانى.

(3) رواه أحمد والبخارى فى الأدب المفرد والطحاوى بإسناد صحيح، وصححه الحاكم وأقره الذهبى.

(4) رواه مسلم.

(5) رواه أحمد وقال الهيثمى: رجاله رجال الصحيح.

### 3 - الانحراف الخلقى:

ومن مظاهر الانحراف التى أخبر عنها رسول الله ﷺ الانحراف الخلقى، وما يجره من ويلات وخراب للنفوس والمجتمعات:

#### رفع الأمانة:

ومنها ضياع الأمانة وارتفاعها، فعن حذيفة - رضى الله عنه - قال: حدثنا رسول الله ﷺ حديثين، قد رأينا أحدهما وأنا أنتظر الآخر، حدثنا أن الأمانة نزلت فى جذر قلوب الرجال، ثم نزل القرآن، فعلموا من القرآن وعلموا من السنة، ثم حدثنا عن رفع الأمانة، قال: (ينام الرجل النومة فتقبض الأمانة من قلبه، فيظل أثرها مثل أثر الوكت[1]، ثم ينام النومة فتقبض الأمانة من قلبه فيظل أثرها مثل المجل، كجمر دحرجته على رجلك فنفط[2] فتراه منتبرا[3]، وليس فيه شيء فيصبح الناس يتبايعون، فلا يكاد أحدهم يؤدى الأمانة، حتى يقال: إن فى بنى فلان رجلا أمينا، حتى يقال للرجل: ما أجلده، ما أكرمه ما أظرفه ما أعقله وما فى قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان)[4].

ومعنى هذا الحديث أن الأمانة تزول عن القلوب شيئا فشيئا، فإذا زال أول جزء منها، زال نورها وخلفته ظلمة كالوكت وهو اعتراض لون مخالف للون الذى قبله، فإذا زال شيء آخر صار كالمجل وهو أثر محكم لا يكاد يزول إلا بعد مدة، وهذه الظلمة فوق التى قبلها.

ثم شبه زوال ذلك النور بعد وقوعه فى القلب وخروجه بعد استقراره فيه واعتقاب الظلمة إياه بجمر يدحرجه على رجله حتى يؤثر فيها، ثم يزول الجمر ويبقى التنقط، وأخذه الحصاة ودحرجته إياها أراد بها زيادة البيان وإيضاح المذكور.

وفى حديث آخر عن شداد بن أوس - رضى الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: (أول ما تفقدون من دينكم الأمانة)[5].

وفى حديث آخر عن زيد بن ثابت - رضى الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: (أول ما يرفع من الناس الأمانة، وآخر ما يبقى من دينهم الصلاة، ورب مصل لا خلاق له عند الله)[6].

#### رفع الحياء:

ومن مظاهر الانحراف الخلقى رفع الحياء الذى جمع بينه ﷺ وبين رفع الأمانة، فقال: (أول ما يرفع من هذه الأمة الحياء والأمانة)[7].

#### التبرج:

ومنها التبرج الذى وصفه ﷺ بقوله: (صنفان من أهل النار لم أرهما، قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس، ونساء كاسيات عاريات مميلات مائلات رؤوسهن كأسنمة البخت لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها، وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا)[8].

ففى هذا الحديث وصف للتبرج الذى نراه بأعيننا فى عصرنا، فقد وصف النساء بكونهن كاسيات عاريات، وذلك لم يتحقق إلا فى الألبسة المعاصرة الشفافة أو المجسمة.

---

(1) الوكت: الأثر اليسير، وقيل: سواد يسير، وقيل: لون يحدث يخالف اللون الذى كان قبله.

(2) النفط: هو التنفط الذى يصير فى اليد من العمل بفأس أو نحوها، ويصير كالقبة فيه ماء قليل، وذكره مع أن الرجلة مؤنث لإرادة العضو.

(3) منتبرا: مرتفعا ومنه المنبر لارتفاعه، وارتفاع الخطيب عليه.

(4) رواه مسلم.

(5) رواه الطبرانى فى الكبير.

(6) رواه الحكيم الترمذى.

(7) رواه الطبرانى.

(8) رواه مسلم.

بل إنه ﷺ وصف تصفيفات الشعر، والتى تشبه كثيرا التصفيفات المعاصرة.

وقد ربط ﷺ هذا بالرجال الذين معهم كأذناب البقر يضربون الناس، وفى ذلك إشارة إلى الحكومات المستبدة، وقمعها لشعوبها.

**4 - التطور المادي:**

قال عبد القادر: ومن النبوءات الغيبية التى أخبر عنها رسول الله ﷺ ما يرتبط بهذه الحياة المادية المترفة التى توفرت لأهل هذا الزمان، فقد أشار ﷺ إلى مجامع كل ذلك.

لقد أشار إلى الاهتمام العمرانى، ووسائل الاتصال والنقل.. وغيرها بأحاديث صريحة لا مجال فيها للتأويل.

قال بعض الجمهور: هل يمكن هذا؟.. إن هذا لعجيب.

قال عبد القادر: من شك فى هذا، فليذهب إلى مخطوطات كتب الحديث القديمة ليرى هذه النصوص المعجزة التى تتنبأ بكل دقة عن كثير من المكتشفات والمخترعات الحديثة، وسيرى فيها الشروح المتكلفة لبعض الشراح الذين لم يدركوا المقاصد الحقيقية التى توحى بها ظواهر النصوص.

قالوا: فحدثنا عن بعض ذلك.

**الاهتمام بالعمران:**

قال عبد القادر: من النبوءات الغيبية المرتبطة بهذا ما أخبر عنه ﷺ من اهتمام المتأخرين بالعمران، وبالتطاول به، فقال: (إذا رأيت الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون فى البنيان فانتظر الساعة)[1].

وفى حديث آخر قال ﷺ: (لا تقوم الساعة حتى يقبض العلم وتكثر الزلازل ويتقارب الزمان، وتظهر الفتن وحتى يتطاول الناس فى البنيان)[2].

وفى حديث آخر قال ﷺ: (ما أنتم إذا مرج الدين، وسفك الدماء، وظهرت الزينة وشرف البنيان)[3].

وفى حديث آخر قال ﷺ:(لا تقوم الساعة حتى يبنى الناس بيوتًا يوشونها وشى المراجيل)[4]، والمراجيل: هى الثياب المخططة.

وفى حديث آخر قال ﷺ: (من أعلام الساعة وأشراطها أن يعمر خراب الدنيا ويخرب عمرانها)[5].

وقد وقع كل ما أخبر به ﷺ، ولا شك أنكم ترون كل ذلك رأى العين.. حتى ما ذكره ﷺ من تخريب العمران، وعمران الخراب، والذى قد صعب على السابقين فهمه، فإنا نراه اليوم رأى العين، حيث نجد المدن الجديدة تنشأ فى الأماكن الخربة غير المعمورة، والمدن المعمورة تهدم لإعادة تخطيطها.

والنبى ﷺ بهذا الحديث يشير إلى تغلب الاهتمام بالعمران على حساب الاهتمام بالإنسان، وقد جاء فى الحديث ما يؤكد هذا، فقد قال ﷺ: (إن من أعلام الساعة وأشراطها أن تزخرف المحاريب وتخرب القلوب)[6].

---

(1) البخارى ومسلم.

(2) البخارى.

(3) رواه الطبرانى فى الكبير.

(4) رواه البخارى فى الأدب المفرد عن أبى هريرة.

(5) رواه الطبرانى عن أبى مسعود وابن عساكر عن محمد بن عطية.

(6) رواه الطبرانى فى الكبير.

ومن النبوءات الغيبية المرتبطة بهذا ما قاله ﷺ في تقارب الزمان، وطي الأرض، فقد قال ﷺ: لا تقوم الساعة حتى يتقارب الزمان وتزوى الأرض زياً)[1]، أي تطوى ويضم بعضها إلى بعض.

ونحن نرى هذا في الواقع، بل صار الناس يسمون العالم نتيجة تقاربه الشديد بالقرية الصغيرة، حيث يستطيع أي شخص في أي مكان من العالم أن يتكلم ويرى العالم أجمع، ويتحدث مع من يشاء ويراه.

**وسائل النقل:**

ومن النبوءات الغيبية المرتبطة بهذا ما ورد من ذكر تطور وسائل النقل، وهو ما أشار إليه قوله تعالى: ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ ۝٨﴾ [النحل].

فقد ذكر الله تعالى في هذه الآية الوسائل التي كانت مستعملة في ذلك الزمان، ثم أخبر بأنه سيخلق ما لا يعلمه أهل ذلك العصر.

وقد أشار ﷺ إلى بعض ذلك، فقد ذكر بأن زمنًا سيأتي لا تستخدم فيه الإبل للتنقل وحمل الأمتعة، ومعلوم أن عدم استخدام الجمال مع وجودها إنما يكون بسبب وجود وسيلة أحسن، وليس هناك من الحيوانات ما هو أقدر من الجمال على السفر في الصحراء.

ولم يحصل ما أخبر ﷺ به إلا في هذا الزمان الذي نرى فيه تعطل الجمال عن حمل الأمتعة، وهي ظاهرة في ازدياد كل يوم، قال ﷺ: (ولتتركن القلاص فلا يسعى عليها)[2].

وفي حديث آخر، قال ﷺ: (يكون في آخر الزمان رجال يركبون على المياثر حتى يأتون أبواب المساجد)[3]، وقد فسر عمر بن الخطاب المياثر بالسروج العظام.

وهو ما أشار إليه الحديث الآخر الذي يقول فيه ﷺ: (سيكون في آخر أمتي رجال يركبون على السروج كأشباه الرحال ينزلون على أبواب المساجد)[4].

أتعلمون شيئا يمكن أن ينطبق عليه هذا الوصف غير السيارات ذات المقاعد التي تشبه السروج العظيمة، والتي يركب الناس عليها إلى أبواب المساجد؟

فلم يعرف من المسلمين أنهم شدوا البغال والجمال أو الخيول ووضعوا عليها السروج العظيمة، ليذهبوا بها إلى المساجد، فلا شك أن هذه الوسيلة للمواصلات غير هذه، فالحديث يصف أن الركوب على السروج لا على الخيول أو الجمال أو غيرها من الحيوانات.

ومما يؤكد هذه الإشارات أن النبي ﷺ سئل عن سرعة سير الدجال في الأرض، فقال: (كالغيث استدبره الريح)، أي كسرعة سير السحب[5].

**المعادن الجديدة:**

ومن النبوءات الغيبية المرتبطة بهذا إخباره ﷺ عن اكتشاف البشر لمعادن جديدة لم يكونوا يعرفونها من قبل.

وقد أخبر ﷺ أن هذه المعادن سيستغلها أراذل الناس، فقال: (ستكون معادن يحضرها شرار

(1) رواه الطبراني في الكبير.
(2) رواه مسلم.
(3) رواه أحمد والحاكم عن ابن عمر.
(4) رواه أحمد والحاكم.
(5) رواه مسلم.

الناس)[1]، بل أخبر أنها معادن كثيرة، فقال ﷺ: (لا تقـوم الساعة حتى تظهر معادن كثيرة لا يسكنها إلا أراذل الناس)[2].

فهذه نصوص صريحة تنطق بأهمية المعادن المكتشفة من البترول وغيره.

قالوا: فكيف ذكر محمد بأن الذى يحضرها أراذل الناس؟

قال: لولا أن أراذل الناس هم الذى فـتحت لهم لما رأيت العـالم يتصارع من أجلهـا، ويقتل بعضهم بعضا لأجل السيطرة عليها، ولا يكتفون بذلك بل يستخرجون منها من السموم ما يهلكون به الحياة فى البر والبحر.

قال مستأجر بولس: ولكن القرآن ذكر أن بركـات الله يفتحها على القـرى إذا آمنت، فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الأعراف]، فكيف تجمع هذا بهذا؟

قال عبد القادر: إن الذى قال هذا هو الذى قال: ﴿وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [الزخرف].

والجمع بينهما يسير، فالله تعالى ذكر فى تلك الآية البركات، ولم يذكر المتاع والزخارف.

قالوا: فما الفرق بينهما؟

قال: كالفرق بين الطيب والخبيث.. فالبركات هى الفتوحات الطيبة، وغيرها من الفتوحات الخبيثة التى لا تزيد أهلها إلا ضلالا وفسادا.

قالوا: فهذه النصوص تنهانا عن التمتع بهذه الفتوح.

قال: لا.. هذه النصوص تخبرنا بالواقع.. وهى لا تأمر، ولا تنهى.. وإن شئنا أن نفهم منها أمرا.. فهو التحذير من أن نكون مثل هؤلاء الذين وردت عنهم هذه الأخبار.

**نطق الكائنات:**

ومن النبوءات الغيبية المرتبطة بهذا ما ورد فى الحـديث من حديث السباع، ونطق الجماد، فقد قال ﷺ: (والذى نفسى بيده! لا تقوم الساعـة حتى تكلم السباع الإنس، وحتى يكلم الرجل عذبة سوطه وشراك نعله، ويخبره فخذه بما يحدث أهله بعده)[3].

وقـد بدأت أمارات هذا الحـديث بالظهور، فـأنتم ترون حيوانات السيرك تأتى بالغـرائب، والكلاب (البوليسية) تدل الشرط على معلومات، فقـد تكون هذه طرفًا من تفسير الحديث، والمستقبل متسع لما هو أكبر من هذا.

أما حديث السوط والنعلين عـما أحدث الأهل فى البيت، ففيه إنباء بنطق الجماد وقد نطق، وفيه إنباء بأجهزة الاستقبال التى تمكن صاحب البيت من الاطلاع على معلومات من داخل بيته بواسطة مراسلات معينة تستقبلها أجهزة استقبال توضع فـى النعلين، أو فى سوط يحمل باليد، وقد نطق الجماد اليوم، والمستقبل يتسع لتفسير باقى الحديث.

***

(1) رواه أحمد.

(2) رواه الطبرانى فى الأوسط.

(3) رواه أحمد والترمذى والحاكم وابن حبان.

قام رجل من الجمع، وقال: إن كل ما ذكرته من هذا يدل على أن الله آتى محمدا من العلم ما استطاع أن يصور به صورة للعالم والمجتمعات من بعده..

قاطعه عبد الحكيم، وقال: ولم يذكر محمد ﷺ ذلك إلا من باب الشفقة على أمته من بعده، فهو حريص عليها فى حياته وبعد مماته.

قال عبد القادر: وهو كذلك برهان ودليل على نبوته، فلولا الاقتناع بنبوته ما يتم الاندراج ضمن أمته.

قال الرجل: لقد أيقنا ذلك.. وهذا ما دعانى لأن أسألك هذا السؤال الذى يحير البشر جميعا.

قال عبد القادر: تريد أن تسأل عن أخبار نهاية الدنيا، ونهاية البشر على الأرض.

قال الرجل: أجل.. ما عدوت ما أقصده.. فكما أن فى البشر شوقا لمعرفة أصولهم، فإن لهم شوقا فى معرفة النهاية التى ينتهون إليها.

وقد ذكرت عن محمد ﷺ أنه أخبر الكثير من الصحابة رضى الله عنهم عن الحوادث المرتبطة بوفاتهم.. فهل اقتصر حديثه على الأفراد، ولم يتعد إلى البشر؟

قال عبد القادر: كلا.. بل إن الله تعالى أوحى لمحمد ﷺ من علوم ذلك علوما كثيرة نافعة مفصلة تمتلئ نصحا ومودة.

**تاريخ الساعة:**

قال الرجل: فأخبرنا عن ذلك.. وابدأ حديثك بالمدة التى بقيت للبشر على الأرض، فقد سمعنا بعض الوعاظ يخبرنا من تفاصيل ذلك ما يكاد يحدد لها تاريخا معينا[1].

انتفض عبد الحكيم، وقال بغضب: كذب أولئك الدجالون، فقد انفرد الله بعلم الساعة، فلا يعلمه غيره، وقد قال تعالى: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (١٨٧) ﴾ [الأعراف].

وقال تعالى: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا (٤٢) فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا (٤٣) إِلَى رَبِّكَ مُنتَهَاهَا (٤٤) إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا (٤٥) كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا (٤٦) ﴾ [النازعات].

ففى هذه الآيات وغيرها إخبار من الله تعالى بأنه لا يعلم أحد متى الساعة إلى الله، وأنها ستأتى بغتة من حيث لا يشعر الناس، وأنها فى ذلك كالأجل الذى يتوفى عنده الإنسان، وقد قال

---

(١) هناك شبهات كثيرة ترتبط بهذا الباب يثيرها بعض الوعاظ الجهلة، وهى تحديد عمر الأمة بعمر معين، وذلك مما يستنتج منه موعد الساعة بالضبط.

وكل ما ورد فى ذلك من الحديث لا يصح، ومنها ما روى من قوله ﷺ: «إنى لأرجو أن تنجو أمتى عند ربها من أن يؤخرها نصف يوم، قيل لسعد: وكم نصف يوم؟ قال: خمسمائة سنة»، وقد تفرد به أبو داود.

ولم يصح عن الرسول ﷺ أنه لا يمكث فى الأرض قبل الساعة ألف سنة، ولم يحدد الرسول مدة معينة لقيام الساعة.

قال ابن كثير: فأما ما يورده كثير من العامة من أن النبى ﷺ لا يؤلف تحت الأرض فليس له أصل، ولا ذكر فى كتب الحديث المعتمدة ولا سمعناه فى شيء من المبسوطات ولا شيء من المختصرات، ولا ثبت فى حديث عن النبى ﷺ أنه حدد وقت الساعة بمدة محصورة وإنما ذكر شيئًا من أشراطها وأماراتها وعلاماتها.

ﷺ: (إن الساعة تهيج بالناس، والرجل يصلح حوضه، والرجل يسقى ماشيته، والرجل يقيم سلعته فى السوق ويخفض ميزانه ويرفعه)[1].

وقال ﷺ: (تقوم الساعة والرجل يحلب اللَّقْحَةَ، فما يصل الإناء إلى فيه حتى تقوم الساعة. والرجلان يتبايعان الثوب فما يتبايعانه حتى تقوم. والرجل يلوط حوضه فما يصدر حتى تقوم)[2].

وقال ﷺ: (لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت فرآها الناس آمنوا أجمعون، فذلك حين لا ينفع نفسًا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى إيمانها خيرا، ولتقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما، فلا يتبايعانه ولا يطويانه. ولتقومَنّ الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقْحَته فلا يَطْعَمُه. ولتقومَنّ الساعة وهو يَلِيط حوضه فلا يسقى فيه. ولتقومَنّ الساعة والرجل قد رفع أكلته إلى فيه فلا يطعمها)[3].

ولهذا لما جاء جبريل عليه السلام فى صورة أعرابى، يعلم الناس أمر دينهم، فجلس من رسول الله ﷺ مجلس السائل المسترشد، وسأله عن الإسلام، ثم عن الإيمان، ثم عن الإحسان، ثم قال: فمتى الساعة؟ قال له رسول الله ﷺ: (ما المسئول عنها بأعلم من السائل)[4] أى: لست أعلم بها منك، ولا أحد أعلم بها من أحد، ثم قرأ النبى ﷺ: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (34)﴾ [لقمان].

ولما سأله ذلك الأعرابى وناداه بصوت جهورى فقال: يا محمد، قال له رسول الله ﷺ: (هاء - نحوا من صوته - قال: يا محمد، متى الساعة؟ قال له رسول الله ﷺ: (ويحك إن الساعة آتية، فما أعددت لها؟) قال: ما أعددت لها كبير صلاة ولا صيام، ولكنى أحب الله ورسوله. فقال له رسول الله ﷺ: (المرء مع من أحب)، فما فرح المسلمون بشىء فرحهم بهذا الحديث[5].

فها أنت ترى النبى ﷺ يوجه السائل إلى ما ينبغى أن يفعله، وهو الإعداد للساعة، لا ما يبحث عنه الغافلون من البحث عن مواقيتها، وقد حكاه الله تعالى عن الكفار، فقال: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلالٍ بَعِيدٍ (18)﴾ [الشورى].

قام رجل من الحاضرين، وقال: إن عقلى يكاد يستعصى على ما يذكره الناس من شأن الساعة، وأنا رجل لا يؤمن إلا بالعلم.. فهل فى العلم ما يدل على إمكان وجود شىء اسمه الساعة.. فهو أهم عندى من زمان وجودها؟

قال عبد الحكيم: العلم لا يدل إلا على ذلك.. أجبنى: لقد كانت هناك حيوانات تعيش قبل (65) مليون سنة على وجه الأرض تسمى الديناصورات، فهل تعرفها؟

قال الرجل: أجل.. لقد كانت المخلوقات فى ذلك الحين تختلف عما نعرفه الآن عن الحيوانات الموجودة فى زماننا هذا، لقد كانت أمة كاملة تعيش على وجه الأرض وكان لها حشراتها وطيورها وأسماكها الخاصة بها، وهو عالم يختلف تماما عن عالمنا.

قال عبد الحكيم: فأين ذلك العالم الآن؟

---

(1) رواه الطبرى فى تفسيره (13/ 297) والثعلبى فى تفسيره كما فى تخريج أحاديث الكشاف للزيلعى (1/ 475) وهو مرسل.

(2) رواه مسلم.

(3) رواه البخارى.

(4) رواه البخارى ومسلم.

(5) رواه مسلم.

قال الرجل: هناك نظريات كثيرة فى سر اختفائه.. لعل أهمها عندى أن جرما سماويا نزل إلى الأرض، فصعقت كل الأحياء الموجودة على وجه الأرض، ودمرت تدميراً وانتهت بذلك فئة الديناصورات عن وجه الأرض.

قال عبد الحكيم: فقد قامت ساعة الديناصورات إذن؟

سكت الرجل، فقال عبد الحكيم: أنت تعلم أن الكون بدأ بانفجار كبير (Big Bang) حصل منذ ملايين السنين، وما زال يتمدد حتى الآن.. فهل ذكر العلماء نهاية لهذا الامتداد؟

قال الرجل: أجل.. هناك نظريتان علميتان: الأولى تقول بأن الكون سوف يكون له نهاية، إما أن يستمر الكون بالتمدد حتى تتفقد الجاذبية بين الكواكب، ويصبح كل شيء عشوائيا، وعند ذلك تخرج الأرض من مدارها حول الشمس وتنتهى الحياة عليها.

والنظرية الثانية تقول بأن الكون سوف يرجع وينطبق على نفسه كما كان قبل أن يبدأ الانفجار، وبذلك سوف ينعدم الكون، وبانعدام الكون ستنعدم الأرض وما عليها.

قال عبد الحكيم: فها هو العلم إذن يثبت لزوم الساعة، بل إن النظرية الثانية تنطبق تماما على ما ذكره القرآن الكريم من كيفية نهاية هذا العالم الذى نعيش فيه، فقد قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ (١٠٤)﴾ [الأنبياء].

لست أدرى كيف نطقت قائلا: لقد ذكرت بأن محمدا لم يذكر موعدا للساعة.

قال عبد الحكيم: أجل.. وقد ذكرت لك من النصوص القطعية من القرآن الكريم والسنة المطهرة ما يدل على ذلك.

قلت: ولكنه قد جاء فى الحديث الصحيح عن عائشة قالت: كانت الأعراب إذا قدموا على رسول الله ﷺ، سألوه عن الساعة: متى الساعة؟ فنظر إلى أحدث إنسان منهم فقال قال: (إن يعش هذا لم يدركه الهرم حتى قامت عليكم ساعتكم)[1].

قال عبد الحكيم: صدق رسول الله ﷺ، والساعة المرادة هنا هى الموت، ولهذا قال النبى ﷺ (ساعتكم)، فمن مات فقد قامت قيامته.

ويشير إلى هذا ما ورد فى الحديث عن جابر بن عبد الله قال: سمعت رسول الله ﷺ قبل أن يموت بشهر، قال: (تسألونى عن الساعة، وإنما علمها عند الله. وأقسم بالله ما على ظهر الأرض اليوم من نفس منفوسة، تأتى عليها مائة سنة)[2].

وقد فسر ابن عمر ذلك، فقال: وإنما أراد رسول الله ﷺ انخرام ذلك القرن[3].

**أشراط الساعة:**

قال الرجل: ما دام موعد الساعة مجهولا، فما علاماتها؟.. لقد ذكرت أن للساعة علامات؟

قال عبد القادر: أجل.. وقد وردت بتلك العلامات النصوص، وهى من النبوءات الغيبية التى لا شك فى أنها ستحصل، فلم تعودنا النصوص المقدسة إلا على الصدق.

لقد أشار القرآن الكريم إلى أن علامات الساعة قد بدأت، فقال تعالى: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ (١٨)﴾ [محمد].

وهذا المعنى ورد فى آيات أخرى كثيرة، فقد قال تعالى: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ (١)﴾

---

(1) رواه مسلم.

(2) رواه مسلم.

(3) رواه البخارى ومسلم.

[القمر]، وقال تعالى: ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝١﴾ [النحل]، وقال تعالى: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ ۝١﴾ [الأنبياء].

بل إنه ورد فى الأحاديث ما يدل على أن بعثة رسول الله ﷺ من أشراط الساعة؛ لأنه خاتم الرسل الذى أكمل الله به الدين، وأقام به الحجة على العالمين.

وقد ورد فى الحديث عن سهل بن سعد قال: رأيت رسول الله ﷺ قال بأصبعيه هكذا، بالوسطى والتى تليها: (بعثت أنا والساعة كهاتين)[1].

هنا انتفض بولس، وكأنه وجد غنيمته، فقال: اسمعوا يا قوم لما يقول هذا الرجل.. أليست هذه نبوءة كاذبة!؟.. إن روائح الكذب المنتنة تفوح منها.. لقد مر على محمد أكثر من ألف وأربعمائة سنة، ومع ذلك لم تقم القيامة، فكيف بالمدة القصيرة التى ذكرها؟

نهض عبد الحكيم، وقال: أتعلم كم عمر الكون؟

قال رجل من الجمع: لقد علم ذلك، فقد توصلت وكالة الفضاء الأمريكية ناسا مؤخراً، وذلك باستخدام مكوك فضائى مزود بمجسات متطورة جداً لدراسة الكون، حيث قدرت عمر الكون بـ 7,13 مليار سنة[2].

قال عبد الحكيم: فهل يمكن اعتبار 1400 سنة أمام هذه السنين الطوال؟

سكت الرجل، فقال عبد القادر: فهذا يدل على أن كل ما يحصل الآن من علامات الساعة، ولهذا رأينا رسول الله ﷺ يعبر فى الكثير من النبوءات السابقة، والتى رأيناها بعيوننا، بأنها من علامات الساعة.

قال الرجل: لم نرد هذا.. بل أردنا علامات الساعة القريبة.

قال عبد القادر: لقد ذكر القرآن الكريم بعض علامات الساعة الكبرى، كيأجوج ومأجوج، والدابة، وظهور المسيح ﷺ:

لقد قال الله تعالى يذكر يأجوج ومأجوج: ﴿حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ۝٩٦ وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ ۝٩٧﴾ [الأنبياء].

وقال تعالى يذكر الدابة: ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ ۝٨٢﴾ [النمل].

وقال تعالى عن المسيح ﷺ: ﴿وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ۝٦١﴾ [الزخرف]، وقال عنه: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ۝١٥٩﴾ [النساء]، ومن المعلوم أن المسيح ﷺ لم يمت بل رفعه الله إليه حيًا، وقد فسر المفسرون هاتين الآيتين بنزول عيسى مرة ثانية كما تواترت بذلك الأحاديث ولم يشذ عن هذا التفسير إلا القليل.

وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد ذكر بعض هذه العلامات قبل قيام الساعة فإن السنة النبوية تفيض بذكر العلامات المختلفة الصغرى والكبرى.

وبما أنه سبق وأن ذكرنا الكثير من العلامات الصغيرة، والتى رأينا انطباقها التام على واقعنا، فسأذكر لكم بعض الأحاديث التى تصور نهاية الدنيا، بناء على رغبتكم فى ذلك.

فقد ذكر رسول الله ﷺ عشر آيات كبرى، فقال: (لا تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات:

(1) رواه البخارى.

(2) انظر: موقع قناة الجزيرة (ناسا تعلن تمكنها من كشف عمر الكون) الأربعاء 11/ 12/ 1423هـ الموافق 12/ 2/ 2003م)

طلوع الشمس من مغربها، والدخان، والدابة، وخروج يأجوج ومأجوج، وخروج عيسى ابن مريم عليه السلام، والدجال، وثلاثة خسوف: خسف بالمغرب، وخسف بالمشرق، وخسف بجزيرة العرب، ونار تخرج من قعر عدن[1] تسوق أو تحشر الناس، تبيت معهم حيث باتوا، وتقيل معهم حيث قالوا)[2].

وقد أخبر رسول الله ﷺ أن أخطر هذه العلامات هو ظهور الدجال، قال ﷺ: (بادروا بالأعمال سبعًا، هل تنتظرون إلا فقرًا منسيًا، أو غنىً مطغيًا، أو مرضًا مفسدًا، أو هرمًا مفندًا أو موتًا مجهزًا أو الدجال فشر غائب ينتظر، أو الساعة فالساعة أدهى وأمر)[3].

ولهذه الخطورة التي يمثلها الدجال على الإيمان ذكر النبي ﷺ الكثير من التفاصيل المرتبطة به، بل أعطى المؤمنين الطرق التي يتوقون بها من الدجال، فعن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال: كنا نتحدث عن حجة الوداع، والنبي ﷺ بين أظهرنا، ولا ندري ما حجة الوداع، حتى حمد الله رسول الله ﷺ، وأثنى عليه، ثم ذكر المسيح الدجال فأطنب في ذكره، وقال: ما بعث الله من نبيٍ إلا أنذره أمته: أنذره نوح والنبيون من بعده، وإنه إن يخرج فيكم فما خفي عليكم من شأنه فليس يخفى عليكم، إن ربكم ليس بأعور، وإنه أعور عين اليمنى، كأن عينه عنبةٌ طافيةٌ. ألا إن الله حرم عليكم دماءكم وأموالكم، كحرمة يومكم هذا، في بلدكم هذا، في شهركم هذا، ألا هل بلغت؟ قالوا: نعم، قال: اللهم اشهد - ثلاثًا - ويلكم، أو: ويحكم، انظروا: لا ترجعوا بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض)[4].

ومن التفاصيل التي وردت في شأنه ما ورد في الحديث من قوله ﷺ: (إن الدجال يخرج، وإن معه ماءً ونارًا؛ فأما الذي يراه الناس ماءً، فنارٌ تحرق، وأما الذي يراه الناس نارًا، فماءٌ باردٌ عذبٌ، فمن أدركه منكم، فليقع في الذي يراه نارًا، فإنه ماءٌ عذبٌ طيبٌ)[5].

بل إن النبي ﷺ ذكر مدة لبثه، وما يحصل بعدها، فقال: (يخرج الدجال في أمتي فيمكث أربعين، لا أدري أربعين يومًا، أو أربعين شهرًا، أو أربعين عامًا، فيبعث الله تعالى عيسى ابن مريم ﷺ، فيطلبه فيهلكه، ثم يمكث الناس سبع سنين ليس بين اثنين عداوةٌ، ثم يرسل الله، عز وجل، ريحًا باردةً من قبل الشام، فلا يبقى على وجه الأرض أحدٌ في قلبه مثقال ذرة من خيرٍ أو إيمانٍ إلا قبضته، حتى لو أن أحدكم دخل في كبد جبلٍ، لدخلته عليه حتى تقبضه، فيبقى شرار الناس في خفة الطير، وأحلام السباع لا يعرفون معروفًا، ولا ينكرون منكرًا، فيتمثل لهم الشيطان، فيقول: ألا تستجيبون؟ فيقولون: فما تأمرنا؟ فيأمرهم بعبادة الأوثان، وهم في ذلك دارٌ رزقهم، حسنٌ عيشهم، ثم ينفخ في الصور، فلا يسمعه أحدٌ إلا أصغى ليتًا[6] ورفع ليتًا، وأول من يسمعه رجلٌ يلوط حوض إبله فيصعق ويصعق الناس، ثم يرسل الله - أو قال: ينزل الله - مطرًا كأنه الطل أو الظل، فتنبت منه أجساد الناس، ثم ينفخ فيه أخرى فإذا هم قيامٌ ينظرون، ثم يقال: يا أيها الناس هلم إلى ربكم، وقفوهم إنهم مسؤولون، ثم يقال: أخرجوا بعث النار فيقال: من كم؟ فيقال: من كل ألفٍ تسعمائةً وتسعةً وتسعين؛ فذلك يوم يجعل الولدان شيبًا، وذلك يوم يكشف عن ساقٍ)[7].

---

(1) ذكر الشيخ عبد المجيد الزنداني أن عدن تقع على فوهة بركان.

(2) رواه مسلم.

(3) رواه الترمذي وقال: حديثٌ حسنٌ.

(4) رواه البخاري ومسلم.

(5) رواه البخاري ومسلم.

(6) الليت: صفحة العنق، ومعناه: يضع صفحة عنقه ويرفع صفحته الأخرى.

(7) رواه مسلم.

وأخبر ﷺ عن المؤمنين الذين يقفون في وجه الدجال، مستنيرين في ذلك بوصية رسول الله ﷺ، فقال: (يخرج الدجال فيتوجه قبله رجلٌ من المؤمنين فيتلقاه المسالح[1]، مسالح الدجال، فيقولون له: إلى أين تعمد؟ فيقول: أعمد إلى هذا الذي خرج، فيقولون له: أو ما تؤمن بربنا؟ فيقول: ما بربنا خفاءٌ! فيقولون: اقتلوه، فيقول بعضهم لبعض: أليس قد نهاكم ربكم أن تقتلوا أحداً دونه، فينطلقون به إلى الدجال، فإذا رآه المؤمن قال: يا أيها الناس إن هذا الدجال الذي ذكر رسول الله ﷺ، فيأمر الدجال به فيشبح؛ فيقول: خذوه وشجوه، فيوسع ظهره وبطنه ضربًا، فيقول: أو ما تؤمن بي؟ فيقول: أنت المسيح الكذاب! فيؤمر به، فيؤشر بالمنشار من مفرقه حتى يفرق بين رجليه، ثم يمشي الدجال بين القطعتين، ثم يقول له: قم، فيستوي قائمًا. ثم يقول له: أتؤمن بي؟ فيقول: ما ازددت فيك إلا بصيرةً. ثم يقول: يا أيها الناس إنه لا يفعل بعدي بأحد من الناس، فيأخذه الدجال ليذبحه، فيجعل الله ما بين رقبته إلى ترقوته نحاسًا، فلا يستطيع إليه سبيلاً، فيأخذ بيديه ورجليه فيقذف به، فيحسب الناس أنما قذفه إلى النار، وإنما ألقى في الجنة فقال رسول الله ﷺ: (هذا أعظم الناس شهادةً عند رب العالمين)[2].

وقد ذكر ﷺ في حديث طويل سير الأحداث التي تبدأ من ظهور الدجال، وتنتهي بالقيامة، فقال ـ وقد رأى خوف الصحابة الشديد من فتنة الدجال ـ: (غير الدجال أخوفني عليكم؛ إن يخرج وأنا فيكم، فأنا حجيجه دونكم؛ وإن يخرج ولست فيكم، فامرؤٌ حجيج نفسه، والله خليفتي على كل مسلم. إنه شابٌ قططٌ عينه طافيةٌ، كأني أشبهه بعبد العزى بن قطن، فمن أدركه منكم، فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف؛ إنه خارجٌ خلةً بين الشام والعراق، فعاث يمينًا وعاث شمالاً، يا عباد الله فاثبتوا قلنا: يا رسول الله وما لبثه في الأرض؟ قال: أربعون يومًا: يومٌ كسنة، ويومٌ كشهر، ويومٌ كجمعة، وسائر أيام كأيامكم. قلنا: يا رسول الله، فذلك اليوم الذي كسنة أتكفينا فيه صلاة يوم؟ قال: لا، اقدروا له قدره قلنا: يا رسول الله وما إسراعه في الأرض؟ قال: كالغيث استدبرته الريح، فيأتي على القوم، فيدعوهم، فيؤمنون به، ويستجيبون له فيأمر السماء فتمطر، والأرض فتنبت، فتروح عليهم سارحتهم أطول ما كانت ذرىً، وأسبغه ضروعًا، وأمده خواصر، ثم يأتي القوم فيدعوهم، فيردون عليه قوله، فينصرف عنهم، فيصبحون ممحلين ليس بأيديهم شيءٌ من أموالهم، ويمر بالخربة فيقول لها: أخرجي كنوزك، فتتبعه كنوزها كيعاسيب النحل، ثم يدعو رجلاً ممتلئًا شبابًا فيضربه بالسيف، فيقطعه جزلتين رمية الغرض، ثم يدعوه، فيقبل، ويتهلل وجهه ويضحك، فبينما هو كذلك إذ بعث الله تعالى المسيح ابن مريم عليه السلام، فينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق بين مهرودتين، واضعًا كفيه على أجنحة ملكين، إذا طأطأ رأسه، قطر وإذا رفعه تحدر منه جمانٌ كاللؤلؤ، فلا يحل لكافر يجد ريح نفسه إلا مات، ونفسه ينتهي إلى حيث ينتهي طرفه، فيطلبه حتى يدركه بباب لدٍّ فيقتله، ثم يأتي عيسى عليه السلام قومًا قد عصمهم الله منه، فيمسح عن وجوههم، ويحدثهم بدرجاتهم في الجنة، فبينما هو كذلك إذ أوحى الله تعالى إلى عيسى عليه السلام إني قد أخرجت عبادًا لي لا يدان لأحد بقتالهم، فحرز عبادي إلى الطور. ويبعث الله يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون، فيمرّ أوائلهم على بحيرة طبرية فيشربون ما فيها، ويمر آخرهم فيقولون: لقد كان بهذه مرةً ماءٌ، ويحصر نبي الله عيسى عليه السلام، وأصحابه حتى يكون رأس الثور لأحدهم خيراً من مائة دينار لأحدكم اليوم، فيرغب نبي الله عيسى عليه السلام، وأصحابه، رضي الله عنهم، إلى الله تعالى، فيرسل

---

(1) المسالح: هم الخفراء والطلائع.

(2) رواه مسلم. وروى البخاري بعضه بمعناه.

الله تعالى عليهم النغف فى رقابهم، فيصبحون فرسى كموت نفسٍ واحدةٍ ثم يهبط نبى الله عيسى ﷺ، وأصحابه رضى الله عنهم، إلى الأرض، فلا يجدون فى الأرض موضع شبرٍ إلا ملأه زهمهم ونتنهم، فيرغب نبى الله عيسى ﷺ، وأصحابه رضى الله عنهم إلى الله تعالى، فيرسل الله تعالى طيراً كأعناق البخت، فتحملهم، فتطرحهم حيث شاء الله، ثم يرسل الله عز وجل مطرًا لا يكن منه بيت مدرٍ ولا وبرٍ، فيغسل الأرض حتى يتركها كالزلقة، ثم يقال للأرض: أنبتى ثمرتك، وردى بركتك، فيومئذ تأكل العصابة من الرمانة، ويستظلون بقحفها، ويبارك فى الرسل حتى إن اللقحة من الإبل لتكفى الفئام من الناس، واللقحة من البقر لتكفى القبيلة من الناس، واللقحة من الغنم لتكفى الفخذ من الناس، فبينما هم كذلك إذ بعث الله تعالى ريحًا طيبةً، فتأخذهم تحت آباطهم، فتقبض روح كل مؤمنٍ وكل مسلمٍ؛ ويبقى شرار الناس يتهارجون فيها تهارج الحمر فعليهم تقوم الساعة)[1].

***

ما إن وصل عبد القادر من حديثه إلى هذا الموضع حتى صاح بعض الحاضرين: آمنت بالله ورسوله.. وصدق الله ورسوله.. فلا يقول كل ما ذكرت إلا نبى.

قال آخر: صدقت.. فمن له القدرة على ذكر كل هذه التفاصيل والعلوم؟

قال آخر: لو طبقنا المقاييس التى ذكرها القس على هذه النبوءات، فإن ذرات الأرض جميعا لا تستطيع أن تتحمل دقة الصدق الذى تحمله.

وقال آخرون كلاما كثيرا قريبا من هذا.

لم يملك بولس إلا أن يطأطئ رأسه، ثم يتسلل خارجا دون أن يلتفت له أحد.

أما الجمهور، فقد سار نحو عبد القادر وعبد الحكيم يصافحهما بحرارة.

وأما أنا.. فقد سرت خلف بولس مطأطئ الرأس.. ولكن بصيصا جديدا من النور نزل على، ملأت أشعته جوانح قلبى، اهتديت به بعد ذلك إلى شمس محمد.

***

(1) رواه مسلم.

## خامسا - تحديات

في اليوم الخامس.. جاءني بولس - كعادته - ممتلئا نشاطا، وكأن ما حصل له أمس، وفي الأيام السابقة لم يزده إلا إصرارا على استكمال التداريب الفاشلة التي راح يدربني عليها.

قلت: أراك عظيم النشاط هذا اليوم.. كعهدي بك.. ألم يؤثر فيك ما حصل أمس؟

قال: الرجل القوي لا يؤثر فيه شيء.. والنصر لمن صبر، وثبت، لا لمن استعجل وانتكس.

قلت: فأنت لا تزال تصمم على التحدي إذن؟

قال: ما دامت لي أسلحة فتاكة لا يمكنني أن أرفع الراية البيضاء.

قلت: فما بقي لديك من الأسلحة.

قال: لدي اليوم سلاح لا يغلب.. وصواريخ لا تصد.. وقنابل لا تقهر.

قلت: والدبابة.. هل لديك دبابة تتحصن فيها؟

قال: لا احتاج إلى دبابة.. فليس عند خصمي أي سلاح يمكن أن يواجهني به.

قلت: لا ينبغي أن تغتر لهذه الدرجة، وتستهين بقدرات خصمك.. لقد ذهبنا أمس بسلاحنا النووي، فلم يفعل شيئا..

قال: ذاك سلاح يعتمد الكلام.. أما هذا السلاح، فهو سلاح أفعال.

قلت: ما هذا السلاح الفعال؟

قال: التحدي.

قلت: تحدى عبد القادر وعبد الحكيم.

قال: لا.. هما أضعف شأنا.. بل هو سلاح التحدي الذي شهره المسيح في وجه من شكوا فيه، أو انكروا ألوهيته.

قلت: فعلمني كيف أشحن هذا السلاح؟

قال: أنسيت طريقتي في التعليم.. أنا لا أعلم إلا في وسط الجماهير.. فذلك التعليم هو الأجدى والأعظم أثرا.

قلت: فأين نذهب اليوم؟

قال: إلى مدرسة من مدراس الخوارق.. نحن في الهند.. وفي الهند يهتمون بالخوارق.. ولا ينبغي أن ندفن ما لدينا من أسلحة الخوارق.

سرت معه إلى المدرسة التي حدثني عنها، وهناك رأينا جماهير من الناس تجتمع حول رجال يمارسون أساليب مختلفة من العجائب.

***

## 1- الخوارق والألوهية

كان مستأجر بولس معهم، وكان يحفظ بكل دقة ما كلف بأن يقوله ذلك اليوم.. وربما يكون قد كلف من رفاقه من يعينه على التمثيلية التى يريد إخراجها، لإقناع من يريد بولس إقناعهم.

ولذلك ما إن رأى بولس حتى صاح فى الجمع: من منكم أيها المتلاعبون بقوانين الأسباب يستطيع أن يحيى ميتا؟

ضحك الجميع، وقال أحدهم: ما هذا الجنون الذى تتحدث عنه؟.. نحن نمارس ما يسمى فى منطق الناس بالخوارق.. ولكن ليس من الخوارق إعادة الحياة للموتى.. إن هذا مستحيل.

قال المستأجر: ألكونك عاجزا عنه رميته بالاستحالة؟

قال الرجل: بل لكونه مستحيلا رميته بالاستحالة.

قال المستأجر: فإذا حصل، وأحيا شخص ميتا؟

قال الرجل: سيكون بذلك إلها أو أقنوما من إله.. الإله وحده هو الذى يستطيع أن يحيى الموتى.

هنا انتهز بولس الفرصة، فاخترق الجمع، وقال: أنا أعرف من أحيا الموتى.. وما دمتم ترون أن من أحيا الموتى إله أو أقنوم من إله، فإنى أدعوكم لهذا الإله العظيم.

قالوا: فمن هو؟

قال: إنه النور الذى نزل إلى الأرض ليحييها، ويكفر خطايا أهلها.

قالوا: ما اسمه؟

قال: المسيح.

قالوا: فهل حصل وأن أحيا الموتى؟

قال: أجل.. لقد روى ذلك فى كتابنا المقدس.. وهو لم يحيى ميتا واحدا، بل أحيا موتى كثيرين.. وهو لم يحيى الموتى فقط، بل أتى بعجائب كثيرة لا تملكون معها إلا الإقرار بطبيعته الإلهية.

سأذكر لكم بعض ما نص عليه الكتاب المقدس من ذلك.

فتح الكتاب المقدس، وراح يقرأ من (لوقا 7: 19-23): (فَدَعَا يُوحَنَّا اثْنَيْنِ مِنْ تَلاَمِيذِهِ، وَأَرْسَلَ إِلَى يَسُوعَ قَائِلاً: (أَنْتَ هُوَ الآتِي أَمْ نَنْتَظِرُ آخَرَ؟) فَلَمَّا جَاءَ إِلَيْهِ الرَّجُلاَنِ قَالاَ: (يُوحَنَّا الْمَعْمَدَانُ قَدْ أَرْسَلَنَا إِلَيْكَ قَائِلاً: أَنْتَ هُوَ الآتِي أَمْ نَنْتَظِرُ آخَرَ؟) وَفِي تِلْكَ السَّاعَةِ شَفَى كَثِيرِينَ مِنْ أَمْرَاضٍ وَأَدْوَاءٍ وَأَرْوَاحٍ شِرِّيرَةٍ، وَوَهَبَ الْبَصَرَ لِعُمْيَانٍ كَثِيرِينَ. فَأَجَابَ يَسُوعُ: (اذْهَبَا وَأَخْبِرَا يُوحَنَّا بِمَا رَأَيْتُمَا وَسَمِعْتُمَا: إِنَّ الْعُمْيَ يُبْصِرُونَ، وَالْعُرْجَ يَمْشُونَ، وَالْبُرْصَ يُطَهَّرُونَ، وَالصُّمَّ يَسْمَعُونَ، وَالْمَوْتَى يَقُومُونَ، وَالْمَسَاكِينَ يُبَشَّرُونَ. وَطُوبَى لِمَنْ لاَ يَعْثُرُ فِيَّ).

أنتم ترون كيف فضل المسيح أن يجيب على سؤال المعمدان بالأفعال قبل الأقوال (ففى تلك الساعة شفى كثيرين من أمراض وأدواء وأرواح شريرة، ووهب البصر لعميان كثيرين).

وبعد هذا البرهان النظرى الوافى بأنه المسيح، أفهم الرسولين أن يبلغا مرسلهما الكريم خبر ما رأيا وسمعا من معجزاته وتعاليمه، وخص بالذكر علامة روحية، هى أن شخصا قد أحرز شهرة وأظهر سلطانًا بهذا المقدار، ثم يعتنى بتبشير المساكين، لا يمكن إلا أن يكون المسيح.

ليس ذلك فقط..

لقد أحيا المسيح ابنة يايرس، والتى وردت قصتها فى (مرقس 5: 21-43)، فقد ذهب المسيح

إلى كفر ناحوم، بعد أن طرده أهل جدرة التى شفى فيها المجنون، وأهلك خنازيرهم، وكان فى كفر ناحوم رجل اسمه يايرس، وهو رئيس المجمع هناك، وكانت له ابنة توشك على الموت، لم تنجح معها معالجات الأطباء، ولا خدمة الأقرباء ولا تضرعات الأحباء، ولم يبق رجاءً إلا فى الالتجاء إلى الناصرى الشهير.

لا بد أن يايرس قرر الذهاب إلى المسيح ليطلب مجيئه إلى بيته، لكنه استصعب مفارقة وحيدته فى حالتها هذه. كما أنه لم يكن ينتظر أن يأتى المسيح إلى بيته لو أرسل له آخر، ولا يمكن أن يأخذ ابنته إلى المسيح وهى فى هذه الدرجة من الخطر، فأسرع يايرس بنفسه إلى الشاطئ، ووقع عند قدمى المسيح وسجد له.

وكم كانت دهشة الحاضرين عند رؤيتهم رئيسهم متذللاً بهذا المقدار أمام النجار الناصرى الفقير، الذى هو رفيق للعشارين والخطاة، غير أن ما عرفه يايرس وأهل كفر ناحوم عن فضائل المسيح وفضله، يفسّر شيئًا من هذا الاحترام غير المنتظر. لقد ذللت المصيبة الشديدة يايرس، وساقته إلى المسيح، فانفتح له باب الفرج، وتحولت مصيبته إلى بركة أعظم.

صبر المسيح على يايرس إلى أن (طلب إليه كثيرًا) ووصف حالة ابنته، وأظهر كامل الإيمان بالمسيح، لأنه قال: (ابنتى الصغيرة على آخر نسمة. ليتك تأتى وتضع يدك عليها لتُشفى. تعال وضَعْ يدك عليها فتحيا). يستحيل أن يتغاضى المسيح عن طلب كهذا مقرون بإيمان، لأن الإيمان هو الدلو الوحيد الذى يسحب به الإنسان ماء الحياة من آبار الخلاص. وهو العين الوحيدة التى بها يرى الإنسان طريق السماء ليسير فيه، وهو اليد الوحيدة التى بها يتناول الإنسان خبز الحياة ليحيا به.

ربما تتساءلون: لماذا لم يأمر المسيح بالشفاء عن بُعد كما فعل مرتين قبلاً؟ ألا يكون فى ذلك معجزة أبهج، وموجبًا أقوى لإيمان الجمهور وأهل المدينة به؟

ربما كان ذلك لأن المسيح علم ما لم يعرفه يايرس أو غيره من الحاضرين، وذلك أن الابنة قد ماتت فعلاً بعد خروج أبيها من البيت. وبما أن رئيس المجمع عدو للمسيح، ففى ذهاب المسيح معه يظهر له محبة تكون لنا مثالاً فى محبة العدو. وبما أن يايرس أتمّ الشروط الأربعة اللازمة لنوال بركات المخلِّص، فقد نال طلبه، وذهب المسيح معه إلى بيته.

قال مستأجر بولس: ما هذه الشروط الأربعة التى ننال بها بركات المسيح؟

قال بولس: تبدأ بالإتيان إلى المسيح.. ثم الاتضاع أمامه.. ثم الحرارة فى الطلب منه.. ثم الإيمان الحى به.

هذه هى الشروط.. يمكن لأى شخص أن يفعلها فى أى لحظة لينال بركات المسيح.

قال الجمع: واصل حديثك.. ماذا فعل المسيح؟

قال بولس: فيما كان المسيح منطلقًا زحمته الجموع، وبما أنه لا يمكن للمُحاط بازدحام كهذا أن يسرع فى السير، فلا ريب أن يايرس استاء من هذا البطء، لأن الدقائق كانت عنده كالساعات، لا بل كالأيام.

وزاده استياءً وقوف المسيح فى الطريق، ووقوف الجمهور معه بسبب امرأة مسكينة، كانت مريضة بنزف دم، غير أن هذا التأخير عاد على يايرس بالبركة فى تقوية إيمانه وإحياء رجائه.

فقد اقتربت من المسيح امرأة مريضة بنزف دم منذ اثنتى عشرة سنة، هدَّ قُواها، وضيَّع مالها على الأدوية بغير فائدة، كما أنه كان يُعتبر نجاسة بحسب طقوس شريعة موسى، لم تكن نازفة الدم تقدر أن تلتقى بالمسيح منفردة لتحكى له عن مرضها، ولم تكن تقدر أن تحكى عن مرضها جهارًا، فماذا تعمل؟

اجتمعت قوة إيمانها بالمسيح، مع شدة حاجتها إليه، فقالت في نفسها: (يكفيني لمس ثيابه فقط، ولي ملء اليقين أن ذلك يُنيلني الشفاء، دون إزعاج المعلِّم والتعرُّض لملاحظة الجمهور). ولأنها لم تتوقف كالكثيرين عند الفكر الحسن والقول الصائب، نالت أمنيتها. ولم يكن الازدحام مانعًا لها، بل اقتربت إلى وراء هذا الشافي ولمست هدب ثوبه، وللحال علمت بشفائها الفجائي على صورة لم تكن تتوقعها.

جاءت هذه المرأة وراء المسيح، فلم يرها ولم تلمس جسمه. فتوهمت أنه لا يحس بما فعلته. لكن لأنه عالم الخفايا، أوقف السير وسأل: (من لمس ثيابي؟) فظن الجميع حتى رسله أنه سأل استعلامًا. وناب بطرس المتسرع في الكلام عن زملائه في تلويم المسيح، وقال إن الازدحام جعل الكثيرين يلمسون ثيابك. لكن المسيح لم يسأل عن اللمس البسيط، بل عن لمس الإيمان، إذ لا شيء كالإيمان، فإيمان هذه المريضة هو الذي ميزها عن الكثيرين غيرها، الذين كانوا مثلها يطلبون الشفاء. ومجرد لمس هُدْب ثوب المسيح مقرونًا بالإيمان، كان باب الخلاص لها، بينما معاشرة المسيح ومساكنته ثلاث سنين دون إيمان لم تأت بهذه النتيجة الجوهرية للإسخريوطي، بل زادته دينونة.

قصد المسيح بهذه المعجزة شفاءً جسديًا وروحيًا، كما قصد تقوية إيمان تلاميذه ويايرس.

نظر المسيح إلى الوراء وتطلع في نازفة الدم مبيِّنًا أنه عرفها، فارتعبت لأنها لا تعرف لطفه وحبه للناس، وخافت من القصاص على عمل لا حقَّ لها فيه، أو على الأقل من توبيخ صارم أمام الجمهور، وإذْ لم يعد يمكنها إلا الاعتراف العلني، تقدمت وسجدت له واعترفت بعلتها المخجلة أولاً: ثم بما فعلته خفية، وبالشفاء العجيب الذي نالته.

فكلمها حالاً بكلام كله عطف ورحمة قائلاً: (ثقي يا ابنة، إيمانك قد شفاك. اذهبي بسلام وكوني صحيحة من دائك).

ثم تابع المسيح مسيرته نحو بيت يايرس، وإذا برسولٍ من بيت يايرس يقول له: (ابنتك ماتت. لماذا تتعب المعلم بعد؟).

تُرى هل أسف يايرس على تذلله للمسيح، أو هل ندم على خروجه من بيته وغيابه ساعة احتضار وحيدته؟ أوَلا يتوقع شماتة زملائه الفريسيين الذين يكرهون هذا الناصري الذي لا يخضع لهم؟ ولكن المسيح استدرك هذا التأثير السيئ، وطيَّب خاطره بقوله: (لا تخف. آمن فقط، فهي تُشفَى).

فلما وصل المسيح والأب والجمع إلى البيت، أمر أن يبقى تلاميذه مع الجمهور خارجًا، ما عدا بطرس ويعقوب ويوحنا، الذين ابتدأ يميِّزهم فوق رفقائهم، فأدخلهم معه ليكونوا شهودًا للمعجزة العظيمة، وترك التسعة خارجًا إيناسًا للجمع الذي لم يسمح له بالدخول، وعند دخوله الدار تكدر من الضجيج والبكاء والنوح، ووبَّخ القائمين بها، وسعى ليزيل أوهامهم في أمر الموت الجسدي، بإرجاعه روحًا إلى جسدها بعد الموت. وشبَّه الموت بالنوم بالنظر إلى القيامة الآتية، فقال للمجتمعين: (لماذا تضجون وتبكون؟ تنحوا. لا تبكوا. فإن الصبية لم تمت لكنها نائمة). فاستهزأ الجميع به ولا سيما النائحون المأجورون، وضحكوا عليه لعدم معرفته الفرق بين النائم والمائت.

فأخرجهم من الغرفة – ولم يشهد هذه المعركة التي فيها يقهر المسيح الموت – إلا الوالد والوالدة والرسل الثلاثة. قيل عنه في الأنبياء إنه (يَبْلَعُ الْمَوْتَ إِلَى الأَبَدِ، وَيَمْسَحُ السَّيِّدُ الرَّبُّ الدُّمُوعَ عَنْ كُلِّ الْوُجُوهِ) (إشعيا: 25: 8). (مِنْ يَدِ الْهَاوِيَةِ أَفْدِيهِمْ. مِنَ الْمَوْتِ أُخَلِّصُهُمْ. أَيْنَ أَوْبَاؤُكَ يَا مَوْتُ؟ أَيْنَ شَوْكَتُكِ يَا هَاوِيَةُ؟) (هوشع 13: 14) ووصف الرسول عمله أنه (أَبْطَلَ الْمَوْتَ وَأَنَارَ الْحَيَاةَ وَالْخُلُودَ)(2 تيموثاوس 1: 10)

نرى الذى قال عن حياته: (لى سلطان أن أضعها ولى سلطان أن آخذها أيضًا) يدخل مع هؤلاء الخمسة غرفة الموت، وبهذا السلطان يمسك يد الجثة، ويكلم الروح التى فارقت الجسد، ويرجعها إليه بقوله: (يا صبية قومى). وللوقت قامت الصبية ومشت، ثم أمر أبويها أن يقدّما لها طعامًا، فأحدثت هذه المعجزة دهشة عظيمة.

امتلأ الجميع بالدهشة، فقال بولس: هل يمكن لمن يفعل هذا أن يكون بشرا عاديا؟

فجأة سمعنا صوت عبد القادر، وهو يقول: لا.. لا يمكن أن يكون هذا بشرا عاديا، بل هو بشر فوق العادة، وإن شئت قلت: هو بشر مؤيد بمدد ربانى يثبت رسالته إلى البشر.

انتفض بولس، الذى دهش للمفاجأة، وقال: لا.. بل هذا إله، أو أقنوم من إله، فالإله وحده هو الذى يتصرف فى الطبيعة كما يشاء.

الإله وحده هو الذى يحيى الموتى، ألم تقرأ ما ورد فى قرآنكم عن هذا، لقد جاء فيه فى محاجة إبراهيم للنمروذ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِى حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِى رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّىَ الَّذِى يُحْيِى وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِى وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِى بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِى كَفَرَ وَاللَّهُ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥٨﴾﴾ [البقرة]

قال عبد القادر: صدقت.. الإله هو الذى يحيى، ولكنه قد يهب لمن يشاء هذه القدرة، فيحيى بإذن الله.

لقد نص القرآن الكريم على هذا عند ذكره لمعجزات المسيح، يقول الله تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولاً إِلَى بَنِى إِسْرَائِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّى أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَأُحْيِى الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [آل عمران].

وفى آية أخرى قال الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِى الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِى وَتُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ بِإِذْنِى وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِى وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِى إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾﴾ [المائدة].

فأنت ترى القرآن الكريم يذكر كل المعجزات التى وردت عن المسيح مجتمعة فى محل واحد، بل يضيف إليها ما لم تذكروه[1]، ولكنه فى نفس الوقت ينسب كل ذلك لله، فالله هو المتصرف فى ملكه كما يشاء، وهو يهب بعض ذلك التصرف من يشاء من خلقه كبرهان له على أنه مرسل من عنده.

---

(1) ما لم يذكروه من المعجزات الواردة فى القرآن يوجد نظيرها فى الأناجيل الأبوكريفية التى لا تعترف بها الكنيسة، فقد جاء فى كتاب (شبيه متى: ف 27): «أخذ يسوع طين صلصال من الأحواض التى صنعها ومنها صنع اثنى عشر عصفورا. وكان السبت حينما فعل يسوع ذلك... وعندما سمع يوسف ذلك انتهره قائلا: «لماذا تفعل أنت فى السبت، تلك الأمور التى لا يحل لنا فعلها؟» وعندما سمع يسوع يوسف خبط يديه سويا وقال لعصافيره: «طيرى!»، وعلى صوت أمره بدأت فى الطيران، وعلى مرأى ومسمع من جميع الواقفين جانبا، قال للطيور: «اذهبى وطيرى خلال الأرض وخلال كل العالم وعيشى».

وجاء فى كتاب (إنجيل الطفولة): «وصنع أشكالا من الطيور والعصافير، التى طارت حينما أخبرها أن تطير، ووقفت ساكتة عندما أمرها أن تقف وأكلت وشربت عندما أعطاها طعاما وشرابا».

نقول هذا ردا على ما قد يعترض به من يتصور أن سيرة المسيح هى ـ فقط ـ ما كتبته الأناجيل الأربعة التى أرخت بعض حياة المسيح.

قال بولس: للقرآن أن يقول ما يشاء.. فنحن لا نفهم الحقائق من القرآن، بل نفهمها من كتابنا المقدس.. وكتابنا المقدس هو الذى علمنا أن ألوهية المسيح هى التى جعلته يأتى بالمعجزات..

ثم التفت للجمع الملتف حوله، وقال ـ وكأنه يتجاهل ما قال له عبد القادر ـ: اسمعوا.. ليس ذلك فقط ما يدل على لاهوت المسيح.. إن معجزات السيد المسيح له المجد لا تعد من الكثرة، بل كانت حياته كلها معجزات.

فقد بدأ حياته بولادته من عذراء (أشعيا:7: 14)، وهو الأمر الفريد فى تاريخ العالم كله، فلا هو حدث قبله ولا بعده، وكذلك بشر بميلاده نجم غير عادى (متى:2: 2-10)، وسجد له المجوس فى طفولته، وأذهل شيوخ اليهود (لوقا:2: 47)، كذلك كان المسيح معجزة فى عماده (متى:3) وفى التجلى على جبل طابور (مرقس:9: 1-8)، وفى قيامته والقبر مغلق، دون أن يشعر به أحد (متى:28)، وفى ظهوره لكثيرين بعد القيامة (مرقس:16) ودخوله على تلاميذه والأبواب مغلقة (يوحنا:20: 19)، وكان معجزة فى صعوده إلى السماء وجلوسه عن يمين الآب (مرقس:16: 19)

لقد كانت حياته كلها سلسلة من المعجزات تدل على لاهوته، الذى كان متحداً بناسوته، طوال الفترة التى ظهر فيها فى الجسد، وإلى الأبد أيضاً.

ويكفى أن تسمعوا قول القديس يوحنا فى خاتمة إنجيله: (وآيات أخر كثيرة صنع يسوع قدام تلاميذه لم تكتب فى هذا الكتاب)(يوحنا:20: 30)، وقوله: (أشياء أخر كثيرة صنعها يسوع، إن كتبت واحدة واحدة، فلست أظن أن العالم نفسه يسع الكتب المكتوبة)(يوحنا:21: 25).

وكمثال على ذلك يقول القديس لوقا الإنجيلى: (وعند غروب الشمس، جميع الذين كان عندهم سقماء بأمراض مختلفة قدموهم إليه، فوضع يديه على كل واحد منهم وشفاهم) (لوقا:4: 40)، فهنا ذكر معجزات بالجملة لا تحصى:

وورد عن ذلك فى إنجيل مرقس: (ولما صار المساء إذ غربت الشمس، قدموا إليه جميع السقماء والمجانين، وكانت المدينة كلها مجتمعة على الباب، فشفى كثيرين كانوا مرضى بأمراض مختلفة، وأخرج شياطين كثيرة)(مرقس:1: 32-34)

وقال القديس متى الإنجيلى: (كان يسوع يطوف كل الجليل، يعلم فى مجامعهم ويكرز ببشارة الملكوت، ويشفى كل مرض وكل ضعف فى الشعب) (متى:4: 23)، ويواصل بقوله: (فأحضروا إليه جميع السقماء المصابين بأمراض وأوجاع مختلفة، والمجانين والمصروعين والمفلوجين، فشفاهم) (متى:4: 24).

هل يستطيع أحد منكم ـ أيها الجمع المبارك ـ أن يحصى ما تنطوى تحت هذه العبارات (كل مرض)، و(جميع السقماء) وغيرها..

انطلاقا من هذا.. نحن هنا نقتصرعلى إثبات لاهوت المسيح من المعجزات القليلة التى دونت فى الأناجيل.. أما الحقيقة، ففوق ذلك كله.. الحقيقة فوق كل تصور.

إضافة إلى هذا، فقد كانت معجزات المسيح تشمل أنواعًا عديدة، كلها مما لا يمكن لبشر أن يفعلها:

فمنها معجزات الخلق، وإقامة الموتى، والمشى على الماء، وانتهار الرياح والأمواج والبحر والصعود إلى السماء والنزول منها، والدخول من الأبواب المغلقة، والولادة من عذراء، واخراج الشياطين، وتفتيح أعين العميان، وشفاء الأمراض المستعصية كالبرص والفلج (الشلل)، وشفاء العرج والصم والبكم والخرس، والأمراض التى مرت عليها 38 سنة أو 18 سنة وفشل فيها الطب.. وباختصار كما قال متى الإنجيلى: (كل مرض وكل ضعف، فى جميع السقماء والمجانين)

أجيبونى أيها الجمع المبارك.. من ذا الذى يقدر أن يشفى كل مرض، ويكون له سلطان على الطبيعة والشياطين بهذا التنوع وبهذا القدر، إلا الإله الذى خلق هذه الطبيعة!؟

إن نصوص الأناجيل تدل على أن معجزات المسيح كانت تتم عن تصرفات إله، لقد كانت معجزات المسيح بمجرد الأمر، أو الانتهار للمرض، ففى شفاء حماة بطرس من الحمى الشديدة نص لوقا على ذلك بقوله: (انتهر الحمى فتركتها، وفى الحال قامت وصارت تخدمهم) (لوقا: 4: 39). فأنتم ترون هنا المرض ينتهى بمجرد أمره أو انتهاره.

وفى شفاء المفلوج، قال له: (قم احمل سريرك واذهب إلى بيتك) (مرقس:2: 11)، وبمجرد الأمر، عادت إلى الرجل صحته كاملة، حتى إنه قام، وحمل سريره أيضاً.

وفى شفاء صاحب اليد اليابسة، قال للرجل: (مد يدك ففعل هكذا، فعادت يده صحيحة) (لوقا: 6: 10)، فبمجرد الأمر تمت معجزة يعجز الطب كله أمامها.

وفى إخراج الأرواح النجسة، كان يستخدم أيضاً الأمر والانتهار فيخرجون، ولذلك قيل عنه إنه: (بسلطان يأمر حتى الأرواح النجسة فتطيعه) (مرقس:1: 27)

وكذلك فى إسكات الأمواج وتهدئة البحر، استخدم الأمر أيضاً: (انتهر الريح وقال للبحر: اسكت ابكم، فسكنت الريح وصار هدوء عظيم) (مرقس:4: 39)

والأمر بالنسبة إلى الطبيعة والأمراض والعاهات، لا يمكن أن يصدر من إنسان، فهذا سلطان إلهى، كثيراً ما كان يجعل المشاهدين يعترفون بلاهوته.

وأحياناً كانت المعجزة تتم بمجرد اللمس أو وضع يده، كما قيل: (فكان يضع يده على أحد فيشفيهم) (لوقا:4: 40).

وملخس عبد رئيس الكهنة لما قطعت أذنه (لمس أذنه وأبرأها) (لوقا:22: 51).

وفى شفاء الأعميين (لمس أعينهما، فللوقت أبصرت أعينهما فتبعاه) (متى:20: 34).

ولما وضع يديه على أعمى بيت صيدا أبصر (مرقس:8: 25).

ونازفة الدم التى أنفقت كل أموالها على الأطباء بلا فائدة، مجرد أن لمست هدب ثوبه (جف ينبوع دمها وبرئت) (مرقس:5: 29)

حتى فى إقامة الموتى، نجد عنصر الأمر أيضاً.. ففى إقامة ابنة يايرس ـ كما سمعتم ـ قال لها: (طليثا قومى الذى تفسيره يا صبية قومى، وللوقت قامت الصبية ومشت) (مرقس:5: 41، 42) فأبطل الموت بأمره، وأعاد الحياة بأمره.

وكذلك فى إقامة ابن أرملة نايين، قال: (أيها الشاب لك أقول قم، فجلس الميت وابتدأ يتكلم) (لوقا: 7: 14، 15)

وفى إقامة لعازر، قال له بصوت عظيم: (لعازر هلم خارجاً، فخرج الميت ويداه ورجلاه مربوطات بأقمطة) (يوحنا:11: 43، 44).

التفت إلى عبد القادر، وقال: ملاحظة مهمة أوجهها لك، ولكل معترض على سلطان المسيح.

إن الملاحظة التى نستشفها من جميع معجزات المسيح أنها كانت تتم دون صلاة، فقد كان يعملها بقوته الذاتية، بقوة لاهوته.

والمعجزة الوحيدة التى سبقتها مخاطبة الآب، كانت إقامة لعازر من الموت، ولعل السبب فى ذلك، أنه أراد إخفاء لاهوته عن الشيطان، وكان بينه وبين الصليب أيام قلائل، كما أنه إن وجدت فى كل معجزاته العديد جداً معجزة وحيدة فيها صلاة، فلعلها لتعليمنا أن نصلى، ولعل فيها رداً على

أعدائه الذين كانوا يتهمونه باستخدام قوة الشياطين فى معجزاته. ومع ذلك فإنه فى إقامة لعازر استخدم الأمر أيضًا، فقال لعازر: (هلم خارجًا) (يوحنا: 11: 43).

فى معجزة إشباع الجموع قيل إنه نظر إلى فوق، وأنه شكر وبارك، كما فى (مرقس: 6: 41)، و(متى: 15: 36)، ولم يذكر فى إحدى هاتين المعجزتين أنه صلى، أما النظر إلى فوق ومباركة الطعام قبل الأكل منه، حتى يعلمنا الصلاة.

ابتسم ـ وكأنه يريد أن يلقى بالقنبلة الأخيرة التى فى جعبته ـ وقال: مما يؤكد لك ـ أيها المعترض ـ على أن معجزات المسيح تدل على إله أن كل المعجزات التى كانت تحدث، ولا زالت تحدث لا تحدث إلا باسمه فى العهد الجديد، كما حدث فى شفاء الأعرج الذى يستعطى على باب الجميل، إذ قال له القديس بطرس: (ليس لى فضة ولا ذهب، ولكن الذى لى فإياه أعطيك، باسم يسوع المسيح الناصرى قم وامشى..) (أعمال الرسل: 3: 6).

بل إن المسيح نفسه ذكر ذلك، فقد قال المسيح: (وهذه الآيات تتبع المؤمنين: يخرجون الشياطين باسمى) (مرقس: 16: 17).

سكت قليلا، ثم قال، وقد أعجب بذلك الجو الهادئ الذى وفر له: نعم أيها الجمع المبارك.. هذا هو الفارق بين معجزات السيد المسيح ومعجزات رسله وقديسيه.. هو يجرى المعجزة بقوته الذاتية، أما التلاميذ فكانت معجزاتهم باسم المسيح، أو بالقوة التى أخذوها منه، بسلطانه هو، فالقوة ترجع إليه.

لقد قال بولس الرسول معبرا عن هذا: (أستطيع كل شيء فى المسيح الذى يقوينى) (فى 4: 13).

وهذا السلطان ـ أيها الأحباب الطيبون ـ هو الذى منحه الرب لتلاميذه إذ (أعطاهم سلطانًا على أرواح نجسة حتى يخرجوها، ويشفوا كل مرض وكل ضعف) (متى: 10: 1)، وقال للإثنى عشر: (اشفوا مرضى، طهروا برصًا، أقيموا موتى، أخرجوا شياطين) (متى: 10: 8)، وقال للسبعين أيضًا: (ها أنا أعطيكم سلطانًا لتدوسوا الحيات والعقارب وكل قوة العدو) (لوقا: 10: 19).

انتهز عبد القادر فرصة استجماع بولس لأنفاسه، ليتدخل قائلا: إن قولك هذا ـ حضرة القس الفاضل ـ يستدعى أن نؤمن بآلهة كثيرة غير المسيح يمتلئ بتمجيدها الكتاب المقدس.

قال بولس: ليس فى الكتاب المقدس إله غير المسيح.. وغير الآب.. وغير روح القدس.

قال عبد القادر: بمنطقك ـ حضرة القس ـ هناك آلهة أخرى كثيرة يعج بها الكتاب المقدس. هناك إله اسمه حزقيال..

ألم يحيى حزقيال جيشا كاملاً، كما هو وراد فى سفر حزقيال (37/ 1-14): (وَكَانَتْ يَدُ الرَّبِّ عَلَيَّ فَأَحْضَرَنِي بِالرُّوحِ إِلَى وَسَطِ وَادٍ مَلِيءٍ بِعِظَامٍ، وَجَعَلَنِي أَجْتَازُ بَيْنَهَا وَحَوْلَهَا، وَإِذَا بِهَا كَثِيرَةٌ جِداً، تُغَطِّي سَطْحَ أَرْضِ الْوَادِي، كَمَا كَانَتْ شَدِيدَةَ الْيُبُوسَةِ. فَقَالَ لِي (يَاابْنَ آدَمَ، أَيُمْكِنُ أَنْ تَحْيَا هَذِهِ الْعِظَامُ؟) فَأَجَبْتُ: (يَاسَيِّدُ الرَّبُّ، أَنْتَ أَعْلَمُ). فَقَالَ لِي: (تَنَبَّأْ عَلَى هَذِهِ الْعِظَامِ وَقُلْ لَهَا: اسْمَعِي أَيَّتُهَا الْعِظَامُ الْيَابِسَةُ كَلِمَةَ الرَّبِّ: هَا أَنَا أَجْعَلُ رُوحاً يَدْخُلُ فِيكِ فَتَحْيَيْنَ. وَأَكْسُوكِ بِالْعَصَبِ وَاللَّحْمِ، وَأَبْسُطُ عَلَيْكِ جِلْداً وَأَجْعَلُ فِيكِ رُوحاً فَتَحْيَيْنَ وَتُدْرِكِينَ أَنِّي أَنَا الرَّبُّ).

وَفِيمَا كُنْتُ أَتَنَبَّأُ كَمَا أُمِرْتُ، حَدَثَ صَوْتُ جَلَبَةٍ وَزَلْزَلَةٍ، فَتَقَارَبَتِ الْعِظَامُ كُلُّ عَظْمٍ إِلَى عَظْمِهِ، وَاكْتَسَتْ بِالْعَصَبِ وَاللَّحْمِ وَبُسِطَ عَلَيْهَا الْجِلْدُ. إِنَّمَا لَمْ يَكُنْ فِيهَا رُوحٌ فَقَالَ لِي: (تَنَبَّأْ لِلرُّوحِ يَاابْنَ آدَمَ، وَقُلْ: هَذَا مَا يَأْمُرُ بِهِ السَّيِّدُ الرَّبُّ: هَيَّا يَارُوحُ أَقْبِلْ مِنَ الرِّيَاحِ الأَرْبَعِ وَهُبَّ عَلَى هَؤُلاَءِ

الْقَتْلَى لِيَحْيَوْا). فَتَنَبَّأْتُ كَمَا أَمَرَنِي الرَّبُّ، فَدَخَلَ فِيهِمِ الرُّوحُ فَدَبَّتْ فِيهِمِ الْحَيَاةُ، وَانْتَصَبُوا عَلَى أَقْدَامِهِمْ جَيْشًا عَظِيمًا جِدًا جِدًا.

ثُمَّ قَالَ لِي: (يَاابْنَ آدَمَ، هَذِهِ الْعِظَامُ هِيَ جُمْلَةُ شَعْبِ إِسْرَائِيلَ. هَا هُمْ يَقُولُونَ قَدْ يَبِسَتْ عِظَامُنَا وَمَاتَ رَجَاؤُنَا وَانْقَطَعْنَا. لِذَلِكَ تَنَبَّأْ وَقُلْ لَهُمْ هَذَا مَا يُعْلِنُهُ السَّيِّدُ الرَّبُّ: هَا أَنَا أَفْتَحُ قُبُورَكُمْ وَأُخْرِجُكُمْ مِنْهَا يَاشَعْبِي وَأُحْضِرُكُمْ إِلَى أَرْضِ إِسْرَائِيلَ، فَتُدْرِكُونَ أَنِّي أَنَا الرَّبُّ حِينَ أَفْتَحُ قُبُورَكُمْ وَأُخْرِجُكُمْ مِنْهَا يَاشَعْبِي. وَأَضَعُ رُوحِي فِيكُمْ فَتَحْيَوْنَ، وَأَرُدُّكُمْ إِلَى أَرْضِكُمْ فَتُدْرِكُونَ أَنِّي أَنَا الرَّبُّ قَدْ تَكَلَّمْتُ وَأَنْجَزْتُ مَا وَعَدْتُ بِهِ، يَقُولُ الرَّبُّ).

قرأ هذا النص، ثم توجه للحاضرين قائلا: ألا ترون ـ حضرة الفضلاء ـ أن حزقيال قد فعل في هذه المعجزة ما لم يفعل المسيح طيلة حياته.

إن كل من أحياهم المسيح حسب الكتاب المقدس هم ثلاثة[1]، ولعل أعظم معجزة فعلها المسيح بينها وهي إحياء صديقه ليعازر من الموت بعد أربعة أيام.

سأنقل لكم القصة كما هي واردة في إنجيل يوحنا لتحكموا بأنفسكم.

أخذ يقرأ من (يوحنا: 11/ 41-43): (فرفعوا الحجر حيث كان الميت موضوعا ورفع يسوع عينيه إلى فوق وقال أيها الآب أشكرك لأنك سمعت لي. وأنا علمت أنك في كل حين تسمع لي. ولكن لأجل هذا الجمع الواقف قلت: ليؤمنوا أنك أرسلتني. ولما قال هذا صرخ بصوت عظيم لعازر هلم خارجا).

هل سمعتم ـ أيها الجمع المبارك ـ هذه الكلمات؟

هل ترون المسيح يدعي فيها الألوهية؟

إن المسيح رفع عينيه إلى السماء ودعا إلهه، تضرع لرب العالمين الذي بأمره كن فيكون، وتوسل إلى الله في أدب ومناجاة أن يستجيب إلى دعائه بإحياء هذا الميت، غير طالب المجد لنفسه ولا تخليص نفسه، ولكن فقط ليؤمن الناس أن الله قادر على كل شيء، وأن الله هو من أرسله إلى الناس، يقول يسوع (ليؤمنوا أنك أرسلتني).

فبالله عليكم ـ أيها الجمع المبارك ـ لو أن المسيح هو الله، هل سيقول (ليؤمنوا أنك أرسلتني)؟.. هل هناك إله يرسل نفسه؟

سكت قليلا، ثم قال: ليس حزقيال فقط من أحيا الموتى في الكتاب المقدس.

هناك إيليا الذي أحيا طفلا بإذن الله كما في (الملوك الأول: 17/ 17-24)، فقد جاء فيه: (وبعد هذه الأمور مرض ابن المرأة صاحبة البيت واشتدّ مرضه جدا حتى لم تبق فيه نسمة. فقالت لإيليا ما لي ولك يا رجل الله. هل جئت إليّ لتذكير إثمي وإماتة ابني. فقال لها أعطيني ابنك. وأخذه من حضنها وصعد به إلى العلية التي كان مقيما بها وأضجعه على سريره وصرخ إلى الرب وقال أيها الرب إلهي أيضا الى الأرملة التي أنا نازل عندها قد أسأت بإماتتك ابنها. فتمدد على الولد ثلاث مرات وصرخ إلى الرب وقال يا رب إلهي لترجع نفس هذا الولد إلى جوفه. فسمع الرب لصوت إيليا

---

(1) ومنهم فتاة التي اسمها (طليثا) ابنة الرئيس، اعتقد الناس أنها ميتة، ولكنها لم تكن ميتة، بل كانت نائمة أو فاقدة للوعي، كما قال لهم يسوع وكما هو وارد في ثلاثة مواضع من الأناجيل. ففي (متى: 9/ 24): «قال لهم تنحوا. فإن الصبية لم تمت لكنها نائمة. فضحكوا عليه»، وفي (مرقس: 5/ 39): «فدخل وقال لهم لماذا تضجون وتبكون. لم تمت الصبية لكنها نائمة»، وفي (لوقا: 8/ 52): «وكان الجميع يبكون عليها ويلطمون. فقال لا تبكوا. لم تمت لكنها نائمة».

وبذلك، فإن الذين أحياهم المسيح ـ حسب الأناجيل ـ لا يتجاوزون اثنين.

فرجعت نفس الولد إلى جوفه فعاش. فأخذ إيليا الولد ونزل به من العلية إلى البيت ودفعه لأمه. وقال إيليا انظرى. ابنك حيّ. فقالت المرأة لإيليا هذا الوقت علمت أنك رجل الله وأن كلام الرب فى فمك حق).

انظروا دقة فهم هذه المرأة.. إنها أذكى من كل الأحبار والرهبان الذين يستدلون بمعجزات المسيح على ألوهية المسيح.. إنها لم تفهم من إحياء إيليا لابنها أكثر من الحقيقة، لقد قالت: (هذا الوقت علمت أنك رجل الله وأن كلام الرب فى فمك حق).

سكت قليلا، ثم قال: إيليا لم يفعل ذلك فقط.. لقد ذكر الكتاب المقدس أنه شق البحر برداته.. وهى معجزة عظيمة لم يفعلها المسيح نفسه، اسمعوا ما جاء فى (الملوك الثانى: 2/ 8): (وأخذ إيليا رداءه ولفه وضرب الماء فانفلق إلى هنا وهناك فعبرا كلاهما فى اليبس).

توجه إلى بولس قائلا: هل فى كل معجزات المسيح معجزة مثل هذه؟

ثم قال: ليس حزقيال وإيليا وحدهما ممن يمكن أن تعتبروهم آلهة..

يمكنكم أن تتخذوا اليشع إلهًا هو الآخر، فقد ذكر الكتاب المقدس فى سفر الملوك الثانى (4: 32) أن (اليشع) قد أحيا طفلاً ميتًا.. بل قد جاء فيه ما هو أعظم من ذلك، فقد ورد عنه فى سفر الملوك الثانى (13: 20) أنه أحيا ميتًا بعد موته، فقد ورد فيه: (وَمَاتَ أَلِيشَعُ فَدَفَنُوهُ. وَحَدَثَ أَنَّ غُزَاةَ الْمُوآبِيِّينَ أَغَارُوا عَلَى أَرْضِ إِسْرَائِيلَ عِنْدَ مَطْلَعِ السَّنَةِ الْجَدِيدَةِ، فِيمَا كَانَ قَوْمٌ يَقُومُونَ بِدَفْنِ رَجُلٍ مَيْتٍ. فَمَا إِنْ رَأَوْا الْغُزَاةَ قَادِمِينَ حَتَّى طَرَحُوا الْجُثْمَانَ فِي قَبْرِ أَلِيشَعَ، وَمَا كَادَ جُثْمَانُ الْمَيْتِ يَمَسُّ عِظَامَ أَلِيشَعَ حَتَّى ارْتَدَّتْ إِلَيْهِ الْحَيَاةُ، فَعَاشَ وَنَهَضَ عَلَى رِجْلَيْهِ).

هل سمعتم هذه المعجزة العجيبة بعد أن مات إليشع، ودفن فى قبره، وتحللت جثته، وبقت العظام، ألقى الناس ميتا فى قبره، فعادت الحياة للميت الذى ألقوه فى قبره بمجرد أن مست جثة الميت عظام إليشع.

إن هذه المعجزة العجيبة انفرد بها إليشع دون غيره من البشر، فهل ترون أحدا من الناس يعبده من أجلها؟

أما خضوع عناصر الطبيعة.. فإن الطبيعة ـ حسب الكتاب المقدس ـ قد خضعت لكثيرين، وكان منهم أليشع وإيليا ويسوع، فالذى يقرأ ما جاء فى سفر الملوك الثانى (1: 7، 14) سيجد أن إيليا أمر عنصر النار التى هى سيدة العناصر، فأخضعها وأطاعته بمجرد أمره فنزلت من السماء، فلم يكن من إيليا إلا إنه أمر فكان.

وجاء فى سفر الملوك الثانى (2: 7، 8) عن إيليا واليشع: (ووقف كلاهما بجانب الأردن، وأخذ إيليا رداءه ولفه وضرب الماء، فانفلق إلى هنا وهناك فعبر كلاهما فى اليبس).

أليس انفلاق الماء الذى وقع معجزة لإيليا واليشع أعظم من هدوئه الذى وقع معجزة للمسيح.. ومع ذلك لم تقولوا أنتم.. ولم يقل أحد إن فى إيليا طبيعة لاهوتية.

أما شفاء العمى والبرصى.. فقد نص الكتاب المقدس على أن هذه المعجزة قد حدثت على يد اليشع، كما فى سفر الملوك الثانى (6: 14 – 20): (فأرسل إلى هناك خيلا ومركبات وجيشا ثقيلا وجاءوا ليلا واحاطوا بالمدينة. فبكر خادم رجل الله وقام وخرج وإذا جيش محيط بالمدينة وخيل ومركبات. فقال غلامه له آه يا سيدى كيف نعمل. فقال لا تخف لأن الذين معنا أكثر من الذين معهم. وصلى اليشع وقال يا رب افتح عينيه فيبصر. ففتح الرب عينى الغلام فابصر وإذا الجبل مملوء خيلا ومركبات نار حول اليشع. ولما نزلوا إليه صلى اليشع إلى الرب وقال اضرب هؤلاء الأمم بالعمى. فضربهم بالعمى كقول اليشع. فقال لهم اليشع ليست هذه هى الطريق ولا هذه هى المدينة.

اتبعوني فأسير بكم إلى الرجل الذى تفتشون عليه. فسار بهم إلى السامرة. فلما دخلوا السامرة قال اليشع يا رب افتح أعين هؤلاء فيبصروا. ففتح الرب أعينهم فأبصروا وإذا هم فى وسط السامرة).

هل سمعتم.. إن ما فعله اليشع لم يكن بفرد واحد أو باثنين أو بثلاثة، بل كان بجيش كبير.. ومع ذلك لم تقولوا أنتم.. ولم يقل أحد إن فى اليشع طبيعة لاهوتية.

أما التنبؤ بأحداث المستقبل.. فاليشع قد تم له ذلك.. وذلك عندما وعد المرأة الشونمية التى لم يكن لها ابن ورجلها قد شاخ (فَقَالَ لَهَا أَلِيشَعُ: (فِى مِثْلِ هَذَا الْوَقْتِ مِنَ السَّنَةِ الْقَادِمَةِ سَتَحْضُنِينَ ابْنًا بَيْنَ ذِرَاعَيْكِ. فَقَالَتْ: (لاَ يَاسَيِّدِى رَجُلَ اللهِ. لاَ تَخْدَعْ أَمَتَكَ) لَكِنَّهَا حَمَلَتْ وَأَنْجَبَتِ ابْنًا فِى الزَّمَنِ الَّذِى أَنْبَأَ بِهِ أَلِيشَعُ) (سفر الملوك الثانى:4: 16).

بالإضافة إلى هذا.. فإن الكثير من الأنبياء تنبؤوا بالغيب والأحداث المستقبلية ممن وردت أسماؤهم فى الكتاب المقدس.. بل قاموا بصنع الآيات والمعجزات كالمسيح تماما.. ومع هذا لم يقل أحد منكم ولا من غيركم أن فيهم طبيعة لاهوتية.

التفت إلى بولس، فرآه مستغرقا مثل الجميع فى السماع، فقال: أأنتم أعلم بالمسيح من تلاميذ المسيح؟

قال بولس: لا.. هم أعلم بالمسيح منا.

قال عبد القادر: فقد حصلت كل هذه المعجزات أمام أعينهم، ومع ذلك كان أقصى ما قالوا: (قد قام فينا نبى عظيم) كما جاء فى (لوقا: 7: 16)، ولم يكن من المسيح إلا أن أقرهم ولم ينكر عليهم وصفهم له بالنبوة.

بل إن المسيح نفسه لم يقصد من المعجزة إلا إقناعهم بنبوته كما جاء فى إنجيل يوحنا (11: 41): (وَرَفَعَ يَسُوعُ عَيْنَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ وَقَالَ: (أَيُّهَا الآبُ، أَشْكُرُكَ لأَنَّكَ سَمِعْتَ لِى، وَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّكَ دَوْمًا تَسْمَعُ لِى. وَلَكِنِّى قُلْتُ هَذَا لأَجْلِ الْجَمْعِ الْوَاقِفِ حَوْلِى لِيُؤْمِنُوا أَنَّكَ أَنْتَ أَرْسَلْتَنِى).

فهل يمكن لمخلص للمسيح بعد هذا أن يتخذ من قيام المسيح بإحياء الموتى دليلاً على ألوهيته؟

سكت قليلا، ثم قال: ليس رجال الله وحدهم هم الذين حصلت على أيديهم الخوارق.. الشيطان أيضا يصنع المعجزات.. وبمنطقكم الذى تفكرون به، فإن الشيطان أيضا يستحق أن يعبد.

لقد ورد فى (تسالونيكى2: 2/9): (الذى مجيئه بعمل الشيطان بكل قوة وبآيات وعجائب كاذبة).

ليس الشيطان وحده يستحق أن يعبد.. بل كل الناس.. فكل الناس يمكن أن يتنبأوا، وتحصل على أيديهم الخوارق، لقد قال بطرس فى أعمال الرسل (2/ 13-24): (وكان آخرون يستهزئون قائلين إنهم قد امتلأوا سلافة فوقف بطرس مع الأحد عشر ورفع صوته وقال لهم أيها الرجال اليهود والساكنون فى أورشليم أجمعون ليكن هذا معلوما عندكم واصغوا إلى كلامى. لأن هؤلاء ليسوا سكارى كما أنتم تظنون. لأنها الساعة الثالثة من النهار. بل هذا ما قيل بيوئيل النبى. يقول الله ويكون فى الأيام الأخيرة إنى أسكب من روحى على كل بشر فيتنبأ بنوكم وبناتكم ويرى شبابكم رؤى ويحلم شيوخكم أحلاما. وعلى عبيدى أيضا وإمائى أسكب من روحى فى تلك الأيام فيتنبأون. وأعطى عجائب فى السماء من فوق وآيات على الأرض من أسفل دما ونارا وبخار دخان. تتحول الشمس إلى ظلمة والقمر إلى دم قبل أن يجىء يوم الرب العظيم الشهير. ويكون كل من يدعو باسم الرب يخلص أيها الرجال الإسرائيليون اسمعوا هذه الأقوال. يسوع الناصرى رجل قد تبرهن لكم من قبل الله بقوات وعجائب وآيات صنعها الله بيده فى وسطكم كما أنتم أيضا تعلمون. هذا أخذتموه

مسلّمـا بمشورة الله المحتومـة وعلمه السابق وبأيدى آثمة صلبـتموه وقتلتـموه. الذى أقامه الله نـاقضا أوجاع الموت).

إن هذه الكلمات التى أطلقها بطرس تدل قطعا على أن المعـجزات ليست بشىء، وأنهم مهما حاولوا أن يثبتوا ألوهية يـسوع عن طريق المعجزات، فهو طريق مسـدود لا محالة، فذلك بطرس يعترف أن كل الناس سيتنبأون وسيفعلون المعجزات بل معجزات أعظم من التى فعلها المسيح.

سكت قليلا، ثم قال: إن ما اعتقدتموه فى المسيح بسـبب معجزاته، هو نفس ما اعتقده الناس فى بولس لما جرت منه من معجزات..

لقد حدث الكتـاب المقدس عن بولس حينما كان يبشر هو وبرنابا، فشفى رجلا مـريضا كان مقعدًا، فـاعتقد الناس فيه أنه إله، ليس هذا فـقط، ولكن اعتقدوا فيه أنه إله تجسـد، ونزل فى جسد بشرى.

اسمـعوا مـا جاء فى (أعـمال الرسل: 14/ 8- 12): (وكان يجلس فى لـسترة رجل عـاجز الرجلين مقعد من بطن أمه ولم يمش قط. هذا كان يسمع بولس يتكلم. فشخص إليه وإذ رأى أن له إيمانا ليشفى قال بصوت عظيم قم على رجليك منتصبا. فوثب وصار يمشى. فالجموع لما رأوا ما فعل بولس رفعوا صوتهم بلـغة ليكأونية قائلين إن الآلهة تشبهـوا بالناس ونزلوا إلينا. فكانوا يدعون برنابا زفس وبولس هرمس إذ كان هو المتقدم فى الكلام)

توجه لبـولس قائلا: هذا هو نفس ما حـدث لكم عندما اعتـقدتم فى المسيح أنه إله، حـينما رأيتم منه المعجزات.

قال بولس: ولكن هناك فرق عظيم بينهما، فبولس أنكر كونه إلها وأعلن أنه بشر، ولكن هل المسيح لم يفعل ذلك؟

قال عبـد القادر: كلا.. لقد فـعل ذلك.. لقد نطق بكل جوارحـه على أنه بشر، وعلى أن الآيات التى حصلت منه آيات على نبوته، لا على ألوهيته.

لقد قال فى إنجيل متى (11: 27): (كل شىء قد دفع إلى من أبى) فالرب هو الدافع والمسيح هو المدفوع له.. ولا شك أن هناك فرقا عظيمًا بين الدافع والمدفوع له.

ليس هذا فقط.. بل قد ورد التصريح بهذه الحقيقة العظيمة فى مواضع كثيرة من الأناجيل:

فقد جاء فى إنجيل يوحنا (5: 19): (فأجاب يسوع، وقال لهم: الحق الحق أقول لكم لا يقدر الابن أن يعمل من نفسه شيئا إلا ما ينظر الآب يعمل).

وفيه أيضا، وفى نفس الإصحاح (5: 30): (أنا لا أقدر أن أفعل من نفسى شيئا. كما أسمع أدين ودينونتى عادلة لأنى لا أطلب مشيئتى بل مشيئة الآب الذى أرسلنى).

وفى نفس الإنجيل (5: 36): (وأما أنا فلى شهادة أعظم من يوحنًا. لأن الأعمال التى أعطانى الآب لأعملها، هذه الأعمال بعينها التى أنا أعملها هى تشهد لى أن الآب قد أرسلنى).

وفى نفس الإنجيل (4: 35): (الآبُ يحبُ الابنَ وقد دفع كلَ شىء فى يده).

وفى إنجيل متى (28: 18): (فتقدَّم يسوع وتمهّـل قائلاً: دُفِعَ إلىَّ كل سلطان فى السماء وعلى الأرض).

وفى إنجيل لوقا (10: 21 ـ 22): (والتفت (أى المسيح) إلى تلامـيذه وقال: كل شىء قد دُفِعَ إلىَّ من أبى).

وفى نفس الإنجيل(11: 20) يقول المسيح: (ولكن إن كنت أنا بإصبع الله أخـرج الشياطين فقد أقبل عليكم ملكوت الله).

وقـد كان الحـاضرون يعـلمون ذلك.. يدل لذلك مـا ورد في إنجـيل يوحنا(11: 21 - 22): (فَقَالَتْ مَرْثَا لِيَسُوعَ: (يَا سَيِّدُ لَوْ كُنْتَ هَهُنَا لَمْ يَمُتْ أَخِي. لَكِنِّي الآنَ أَيْضًا أَعْلَمُ أَنَّ كُلَّ مَا تَطْلُبُ مِنَ اللهِ يُعْطِيكَ اللهُ إِيَّاه).

ولهذا كان المسـيح قبل أن يقوم بالمعجزه يتوجـه ببصره نحو السمـاء ويطلب الله ويشكره كما جاء في إنجـيل يوحنا (11: 41): (وَرَفَعَ يَسُوع عَـيْنَيْهِ إِلَى السَّمَاء وَقَالَ: (أَيُّهَا الآبُ، أَشْكُرُكَ لأَنَّكَ سَمِعْتَ لِي، وَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّكَ دَوْمًا تَسْمَعُ لِي. وَلَكِنِّي قُلْتُ هَذَا لأَجْلِ الْجَمْعِ الْوَاقِفِ حَوْلِي لِيُؤْمِنُوا أَنَّكَ أَنْتَ أَرْسَلْتَنِي).

وقد تكرر منه هذا الفعل كـما في إنجيل متى (14: 15 -21): (وَأَمَرَ الْجُمُوعَ أَنْ يَجْلِسُوا عَلَى الْعُشْبِ. ثُمَّ أَخَـذَ الأَرْغِفَةَ الْخَمْسَةَ وَالسَّمَكَتَيْنِ، وَرَفَعَ نَظَرَهُ إِلَى السَّمَاءِ، وَبَارَكَ وَكَسَّرَ الأَرْغِفَةَ، وَأَعْطَاهَا لِلتَّلاَمِيذِ، فَوَزَّعُوهَا عَلَى الْجُمُوعِ. فَأَكَلَ الْجَمِيعُ وَشَبِعُوا).

لقد قام المسيح برفع نظره نحو السماء قبل أن يقوم بالمعجزة وقبل أن يبارك، وكأنه يدعو خالق السموات والأرض ليمنحه ما يطلبه من معجزات.

***

## 2 - الخوارق والنبوة

لم يجد بولس ـ بعد كل تلك الأدلة التي ساقها له عبد القادر ـ سبيلا للخروج من ذلك المأزق إلا أن يغير الموضوع، فقال: فلنقر بأن الخوارق لا تدل على الألوهية، بل تدل على النبوة.

قال عبد القادر: وقد تدل على غيرها.

**دلالة الخوارق على النبوة:**

قال بولس: لا بأس.. ولكنها مع ذلك لا بد أن تدل على شيء.. فيستحيل أن يكون هناك نبي غير مؤيد بأدلة تدل على نبوته.

الكتاب المقدس ينص على هذا..

فابتداء من التوراة، جعل الله المعجزة دليل النبوة، ولما تجلى الله لموسى في سيناء ليرسله إلى بني إسرائيل وإلى فرعون وملئه، ثبت له وللناس رسالته بمعجزة العصا ومعجزة اليد البرصاء كما في (الخروج 3 - 4: 2)، ثم أرسله والمعجزة بيده: (خذ بيدك العصا تصنع بها المعجزات.. وصنع موسى المعجزات على عيون الشعب فآمن الشعب)(الخروج 4: 18 - 31)

والقرآن نفسه يشهد بأن المعجزات كانت عند موسى دلائل النبوة، لقد جاء في القرآن: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾﴾ [هود]، وفيه: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾﴾ [الإسراء].

لقد ذكر القرآن كل هذه الآيات، وفصل في ذكرها حتى عجز سحرة مصر عن المعارضة، وسلم فرعون وآمن عند غرقه، فالمعجزة بذلك هي السلطان المبين الذي به يشهد الله لنبيه أنه أرسله ليبلغ كلام الله، فلا نبوة بدون معجزة.

ليست التوراة وحدها هي من تقول هذا.. قرآنكم يقول هذا.. فالقرآن يرى ضرورة المعجزة لصحة النبوة.. فالمعجزة، على أنواعها، دليل النبوة الأوحد، فلا تصح النبوة بدون معجزة.

هذا مبدأ إلهي مقرر، متواتر بالإجماع عند الأنبياء والمرسلين، حتى سماه القرآن (سنة الأولين) لقد جاء فيه: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾﴾ [الحجر]، وفيه: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾﴾ [الكهف].

وسنة الله ـ كما يذكر القرآن ـ لا تبديل لها ولا تحويل، لقد ورد في القرآن: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾﴾ [الأحزاب]، وورد فيه: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفتح].

وبدون معجزة لا يوجب الله على الناس الإيمان.. لقد جاء في القرآن: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾﴾ [الكهف].

ولهذا امتنع مشركو مكة عن الإيمان بالدعوة القرآنية التي استعملت أساليب الحكمة والموعظة الحسنة، كما جاء في القرآن: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ [النحل]، لأنها لم تقترن بالمعجزة المطلوبة.. هذا كان في مكة.

أما في المدينة، فقد رضحوا لها بالجهاد، أو بالحديد، كما يذكر القرآن: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾﴾ [الحديد].

فأنتم تلاحظون في فلسفة القرآن، وفي عرف الناس جميعا، أن المعجزة سنة النبوة: ﴿... لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ ... ﴿١٢٤﴾﴾ [الأنعام].

لذلك، فإن من يقول من المسلمين بأن (حكمة الله اقتضت أن لا تكون الخوارق دعامة لنبوة محمد، وبرهانا على صحة رسالته وصدق دعوته) إنما ينتقدون حكمة القرآن فى ضرورة المعجزة للنبوة، وسنة الله فى أنبيائه.

قال عبد القادر: إن كل ما ذكرته صحيح.. ونحن نتفق فيه جميعا.

قال بولس: فأنت معى فى أن المعجزة شرط للنبوة؟

قال عبد القادر: أجل.. لقد صرح القرآن بذلك، ولذلك أمد الله أنبياءه بالبراهين الدالة على نبوتهم.

بل اعتبر بعض المتكلمين أن المعجزة هى الدليل الأوحد على صدق النبوة، وقد عبر عن ذلك أحدهم، فقال: (لا دليل على صدق النبى غير المعجزة، فإن قيل: هل فى المقدور نصب دليل على صدق النبى غير المعجزة؟ قلنا: ذلك غير ممكن! فإن ما يقدر دليلا على الصدق لا يخلو إما أن يكون معتادا، وإما أن يكون خارقا للعادة: فإن كان معتادا يستوى فيه البر والفاجر، فيستحيل كونه دليلا، وإن كان خارقا للعادة يجوز تقدير وجوده ابتداء من فعل الله تعالى، فإذا لم يكن بد من تعلقه بالدعوى، فهو المعجزة بعينها)[1].

قال بولس: لقد اتفقنا إذن.. فأنا وأنت كلانا نتفق على أن المعجزة هى دليل النبوة.. وما دام الأمر كذلك، فمحمد ليس نبيا.

قال عبد القادر: لم؟

قال بولس: لهذا الدليل الذى نتفق نحن جميعا على القول به.

وهو بتعبير بسيط يتكون من مقدمتين:

الأولى: هى أن كل نبى لا بد له من معجزة تدل عليه، وقد اتفقنا جميعا على هذا.

وأما الثانية، فهى أن محمدا ليس له أى دليل حسى على نبوته.. وهذا ما ذكره القرآن والعلماء.. ولا يكابر فى إنكاره أحد.

فهذا السيوطى يقسم المعجزة الى نوعين، فيقول: (المعجزة إما حسية، وإما عقلية، وكثرة معجزات بنى إسرائيل كانت حسية لبلادتهم وقلة بصيرتهم، وكثرة معجزات هذه الأمة عقلية لفرط ذكائهم وكمال أفهامهم، ولأن هذه الشريعة لما كانت باقية على صفحات الدهر إلى يوم القيامة خصت بالمعجزة العقلية الباقية ليراها ذوو البصائر)[2].

والعلماء يجمعون من قديم على أن القرآن وحده معجزة محمد، لذلك، فى باب معجزة النبى العربى اقتصروا على كتب الإعجاز.. وهذا إقرار منهم بأنه ليس لمحمد معجزة حسية تشهد له، كما سترى ذلك من القرآن نفسه.

قال عبد القادر: ولكن العلماء الذين ترجع لهم كلهم يثبت معجزات حسية لمحمد ﷺ ابتداء من السيوطى الذى خصص كتابا لذلك.

قال بولس: دعنا من ذلك.. إن شئت التحقيق فى هذا، فقد افترق المسلمون ثلاث فرق فى تقدير معجزة محمد: فئة التقليديين الذين لم يزالوا غائصين فى رواسب الماضى، وفئة العلماء الذين يجعلون القرآن وحده معجزة محمد، وفئة المتحررين الذين ينادون بأنه لا ضرورة للمعجزة لصحة النبوة.

---

(1) الإرشاد، ص 331.

(2) الاتقان 2: 116.

أما فئة التقليديين البسطاء.. فلا ينبغي لعالم أن يلتفت لما يذكرون من خرافات.

أما العلماء.. فهذا العالم العلامة الذى لم يوجد له نظير فى التحقيق العلمى[1] الدكتور محمد حسين هيكل ينص ـ بعد تحقيق طويل وجهد جهيد فى كتابه العظيم (حياة محمد) ـ على هذا، فيقول: (لم يرد فى كتاب الله ذكر لمعجزة أراد الله بها أن يؤمن الناس كافة على اختلاف عصورهم برسالة محمد إلا القرآن).

وقال بعد بحث طويل: (لقد كان ﷺ حريصا على أن يقدر المسلمون أنه بشر مثلهم يوحى إليه، حتى كان لا يرضى أن تنسب إليه معجزة غير القرآن، ويصارح أصحابه بذلك.. ولم يرد فى كتاب الله ذكر لمعجزة أراد الله بها أن يؤمن الناس كافة، على اختلاف عصورهم، برسالة محمد، إلا القرآن.. هذا مع أنه ذكر المعجزات التى جرت بإذن الله على أيدى من سبق محمدا من الرسل)[2].

ومثله الأستاذ عبد الله السمان الذى قال: (لقد أغرم كثير من المسلمين بأن يحوطوا شخصية الرسول بهالة كبرى من الخوارق، منذ أن حملت به أمه إلى أن لقى ربه، وبلغ الغلو بهم درجة لا تطاق، ومن المتأكد أنه ليس لهم سند من قرآن صريح أو حديث صحيح)[3].

وقال: (إن الكثيرين ـ حين يحاولون دراسة شخصية الرسول ـ يعمدون إلى كتب السيرة ليأخذوا جزافا بكل ما ورد فيها، وهذه الكتب على كثرتها لا يجوز أن تكون مرجعا أصيلا فى هذا الصدد، لأنها كتبت فى عصور لم يكن النقد مباحا تماما فيها، ومعظمها كان يدون لغاية تعبدية، والخلافات الكثيرة فى رواياتها تحتم على الباحث أن يقف منها موقف الحذر والحيطة).

وقال: (وقد استوعبت كتب السيرة سيلا من أنباء الخوارق والمعجزات، التى تزيد وتنقص تبعا لاختلاف الأزمان التى دونت فيها، فبينما نجد سيرة ابن هشام لا تعنى كثيرا بأنباء الخوارق والمعجزات، نجد أن سيرة ابن أبى الفداء، و(الشفاء) للقاضى عياض، وغيرهما، قد عنيت العناية الكبرى بها، وكتب السيرة مزدحمة بالرواة القصاصين الذين عرفوا بالصناعة القصصية فى ما يروون، وهؤلاء لا يتحرون الدقة فى سند الرواية أو متنها، لأنهم يعنيهم ـ فحسب ـ صياغة الأسلوب وعنصر التشويق).

ثم قال: (وإذا تركنا السيرة إلى كتب الحديث ألفينا أنفسنا إزاء مشكلة معقدة تجعل الباحث فى حيرة لا تنتهى ولا تقف عند حد.. وظهر وضع آلاف الأحاديث ونسبتها إلى النبى لتكون مؤيدا لحزب سياسى، أو ناقضا لحزب آخر، وانتهز اليهود والزنادقة فرصة هذه الخلافات التى تدثرت بالدماء فى معظم الأحايين، وراحوا يختلقون الأحاديث ليهدموا بها الإسلام، ويشغلوا العامة عن أصوله

---

(1) هذه هى عادة المبشرين والمستشرقين فى الرفع من شأن من يريدون استغلال أقواله لموجهة الإسلام، وهم ـ فى نفس الوقت ـ قد يحولونه قزما فى موضع آخر إذا ما رأوا منه أى خطر عليهم.

وقد أنكر هيكل عددا من المعجزات الثابتة بصريح القرآن ومتواتر السنة، كنزول الملائكة فى بدر، وطير الأبابيل، وشق الصدر والإسراء وأن (اقرأ) كانت مناما.

وذلك كله إرضاء للمنهج العلمى الغربى الذى أعلنه وأعلن التزامه به فاعتبر الإسراء سياحة الروح فى عالم الرؤى، ووصف الملائكة الذين أمد الله بهم المسلمين فى غزوة بدر بالدعم المعنوى، ووصف طير الأبابيل بداء الجدرى، واعتبر شق الصدر شيئا معنويا، واعتبر لقاء جبريل بالنبى فى حراء مناما، وبذلك عمد إلى تفريغ تاريخ النبى ﷺ من الحقائق الغيبية والمعجزات وقصر موقفه على أن للنبى معجزة واحدة هى القرآن الكريم.

وقد علل الدكتور هيكل إنكاره جميع المعجزات المحمدية (غير القرآن) بأنها مخالفة للسنة الإلهية، وزعم أن روايات معجزاته ﷺ موضوعة، قصد واضعها إما أن يجعل لنبينا مثل ما لموسى وعيسى عليهما السلام، وإما أن يشكك الناس فى صحة آية ﴿...وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾﴾ [الأحزاب].

(2) حياة محمد، ص 44 – 55.

(3) محمد، الرسول البشر، ص 10 – 18.

لتنصرف إلى شكلياته، كما تطوع كثير من السذج والبسطاء فوضعوا أحاديث فى الترغيب والترهيب، ظنا منهم أن فى هذا خدمة للدين، ولو عقلوا لأدركوا أنهم إنما أساؤوا إلى الدين أكبر إساءة).

ثم قال: (وبعض تفاسير القرآن نفسها محشو بآلاف الأحاديث المنسوبة إلى الرسول، دون أن يكلف أصحاب التفاسير أنفسهم مشقة توضيح درجتها من الصحة والضعف.. والذين يتشدقون بأحاديث دخيلة، ويصرون على نسبتها إلى رسول الله، ولو قبلناها، لكان معنى هذا أن محمدا نطق بما يفسد ذوق الحياة، ويتنكر لسنتها، ويهدم بمعول هذه الشريعة التى قامت أصولها على المنطق القوى السليم).

وختم بقوله: (ولسائل أن يتساءل: ألم تحدث للرسول معجزات؟.. ونحن نقول له: إن كتب الأحاديث، وكتب السيرة، قد استوعبت آلاف المعجزات، ومنها ما بلغ إلى درجة التطرف الذى يفرض علينا الضحك، وحسبك أن تقرأ (دلائل النبوة) للبيهقى، وأبى نعيم، و(الشفاء) للقاضى عياض، وشرح الزرقانى على (المواهب)، والأحاديث المعتمدة معدودة على الأصابع، وكلها أحادية لا تقطع بخبر)[1].

وهكذا، فالأستاذ السمان ينقض كل معجزات الحديث والسيرة والشمائل والمغازى وينقض معها كل ما يتوهمونه من معجزات فى بعض آيات القرآن.

ومثلهما قال الأستاذ دروزة الذى كان أصرح منه فى قوله: (إن حكمة الله اقتضت أن لا تكون الخوارق دعامة لنبوة سيدنا محمد عليه السلام، وبرهانا على صحة رسالته، وصدق دعوته)[2].

فالواقع التاريخى والقرآنى يدل على أن محمدا غير مؤيد بالخوارق فى نبوته ورسالته.

قال عبد القادر: لقد ذكرت كلاما كثيرا، والمنهج العلمى الذى تعرضه على يحتم أن نناقش كل ذلك نقطة نقطة.. فإن أذنت لى، وكنت حريصا على معرفة الحق، ناقشتك، وإلا فأنت حر فيما اخترت.

هنا تدخل مستأجر عبد القادر بطريقته اللبقة، وقال: إن حضرة القس عالم جليل، وهو لا تهمه إلا الحقيقة، وما عرض هنا ما عرضه إلا لنناقشه فيه.. فتحدث كما شاء، فلن تجد منه، ولن تجد منا إلا آذانا صاغية.

**القرآن ومعجزات محمد:**

كتم بولس بعض الضيق فى نفسه، وأخرج ابتسامة مصطنعة دفعت عبد القادر ليقول: ما دام الأمر كذلك، وما دام حضرة القس الفاضل قد أذن لى.. فسأبين لكم وجه الحق فيما استدل به واحدا واحدا.

أما الأول، وهو استدلاله بالقرآن، وأن القرآن نفى أن تكون لمحمد ﷺ أى خارقة للعادة.. فإن المنهج العلمى يستدعى أن أطرح على حضرة القس هذا السؤال: اقرأ لى الآيات التى نفى القرآن فيها أى معجزة لمحمد ﷺ.

قال بولس: لقد جاء فى القرآن فى سورة الأنعام: ﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [الأنعام]، ومعنى ذلك أن محمدا لم تكن عنده المعجزات التى طلبها منه الكفار.

وقال فى نفس السورة: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ

---

(1) عبد الله السمان: محمد، الرسول البشر، ص 86 - 88 و113.

(2) سيرة الرسول 2: 226.

وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ ﴾ [الأنعام]، ومعنى ذلك أنه لو أعطاهم آية واحدة لآمنوا، ولكن يبدو أنه لم يحقق طلبهم ولو في آية واحدة.

وفي سورة الإسراء قال هكذا: ﴿ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ ﴾ [الإسراء].

وفي نفس السورة وردت هذه الآية: ﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾ ﴾ [الإسراء].

وفي سورة الأنعام: ﴿ وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يُنَزِّلَ آيَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [الأنعام].

قال عبد القادر: فلنبدأ بالآية الأولى.. والتي يأمر الله تعالى فيها نبيه ﷺ بأن يقول: ﴿ قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [الأنعام].

إن فهم هذه الآية يستدعي معرفة المراد من جملة (مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ) فهي الجملة المحورية في الآية.

إن حضرة القس الفاضل فهمها على أن المراد منها هو الآيات ودلائل النبوة، وهو ما لا يستقيم مع اللفظ، فالاستعجال هو طلب تقدم شيء وعدوا به أو هددوا.

وبالرجوع إلى القرآن الكريم الذي يرجع له حضرة القس ومن معه، فإنا نجد الكفار الذين قاموا بفعل الاستعجال، استعجلوا النبي ﷺ في أمرين:

أما الأول، فهو القيامة، فقد كانوا يكذبون بها أشد تكذيب، ولذلك كانوا يستعجلون حضورها، كما قال تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٧١﴾ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾ [النمل]، وقال تعالى: ﴿ قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾ يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٢﴾ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [الذاريات].

وأما الثاني، فهو نزول العذاب بهم في الدنيا قبل القيامة، وهو ما تشير إليه هذه الآية بدليل قوله: ﴿ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾ [الأنعام]، أي: لو كان مرجع ما تستعجلون به إلي، لأوقعت بكم ما تستحقونه من ذلك.

وقد أشار إلى هذا المعنى آيات كثيرة من القرآن الكريم، فقد كان المشركون لعتوهم يطلبون من محمد ﷺ أن ينزل بهم العذاب الذي يتوعد الله به الكافرين:

فالله تعالى يقول: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنتُم بِهِ آلْآنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ [يونس].

ويحكي الله تعالى عنهم استعجالهم العذاب، فيقول: ﴿ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الأنفال].

وهذا من كثرة جهلهم وعتوهم وعنادهم وشدة تكذيبهم، لقد كان الأولى لهم أن يقولوا:

(اللهم، إن كان هذا هو الحق من عندك، فاهدنا له، ووفقنا لاتباعه)، ولكن الكبر الذى امتلأت به نفوسهم منعهم من ذلك.

وقال تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [العنكبوت].

وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴿١٦﴾﴾ [ص].

وقال تعالى: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾ لِّلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ ﴿٢﴾ مِّنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ ﴿٣﴾﴾ [المعارج].

والله تعالى يحكى هذا عن الأمم السالفة، كما قال قوم شعيب له: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٨٧﴾﴾ [الشعراء]، وقال هؤلاء: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنفال].

هنا انتهز بولس الفرصة، وقال: ولكن قوم شعيب نزل بهم العذاب، وكان ذلك آية لشعيب، أما محمد، فلم يحصل له ذلك.. وبذلك لم تكن له آية.

قال عبد القادر: وما فائدة الآية بعد نزول العذاب بهم وهلاكهم.. لقد كان لمحمد من الرحمة ما منعه أن يسأل الله عذابهم.. بل كان حريصا عليهم حزينا على كفرهم، ولذلك لما عرض عليه تعذيبهم أبى ذلك.

فعن عائشة ـ رضى الله عنها ـ أنها قالت لرسول الله ﷺ: (يا رسول الله، هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد؟)، فقال: (لقد لقيتُ من قومك، وكان أشد ما لقيت منه يوم العقبة؛ إذ عرضت نفسى على ابن عبد ياليل ابن عبد كُلال، فلم يجبنى إلى ما أردتُ، فانطلقت وأنا مهموم على وجهى، فلم أستفق إلا بقرن الثعالب، فرفعت رأسى، فإذا أنا بسحابة قد أظلّتنى، فنظرت فإذا فيها جبريل، عليه السلام، فنادانى، فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك، وما ردوا عليك، وقد بعث إليك مَلَك الجبال لتأمره بما شئت فيهم، فنادانى مَلَك الجبال وسلم علىّ، ثم قال: يا محمد، إن الله قد سمع قول قومك لك، وقد بعثنى ربك إليك، لتأمرنى بأمرك، فما شئت؟ إن شئت أطبقت عليهم الأخشبين[1])، فقال رسول الله ﷺ: (بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله، لا يشرك به شيئا)[2].

فقد عرض عليه عذابهم واستئصالهم، فاستأنى بهم، وسأل لهم التأخير، لعل الله أن يخرج من أصلابهم من لا يشرك به شيئا[3].

أجيبونى ـ حضرة الجمع المبارك ـ: أيهما أكرم خلقا، وأقوم رأيا: أن يستجيب محمد ﷺ

---

(1) وهما جبلا مكة اللذان يكتنفانها جنوبا وشمالا.

(2) رواه البخارى ومسلم.

(3) فإن قيل: ما الجمع بين هذا، وبين قوله تعالى فى هذه الآية الكريمة: ﴿قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [الأنعام].

فالجواب ـ كما ذكر ابن كثير ـ هو أن هذه الآية دلّت على أنه لو كان إليه وقوعُ العذاب الذى يطلبونه حالَ طلبهم له، لأوقعه بهم، وأما الحديث، فليس فيه أنهم سألوه وقوع العذاب بهم، بل عرض عليه مَلَك الجبال أنه إن شاء أطبق عليهم الأخشبين، فلهذا استأنى بهم وسأل الرفق لهم.

ومجمل الآية أن العذاب ينزل عليكم فى الوقت الذى يختاره الله وأن العذاب ليس بيد رسول الله، ولكنه بيد الله عز وجل ولا قدرة لأحد على تقديمه أو تأخيره حتى لو كان الرسول وهذا من أدب الرسول ﷺ مع ربه، وقد نزل عليهم يوم بدر وبعده، فهذه لا دلالة فيها على أن النبى محمد لم تصدر عنه المعجزات كما رأيت، بل هو طلبهم للعذاب وأمر العذاب مفوض لله سبحانه.

لطلبهم فينزل بهم العذاب.. أم يكل ذلك لله، فالله هو الذى يعلم ما ستؤول إليه قلوبهم من الهداية والضلال.

ثم أجيبونى: لو أن مريضا طلب من طبيبه أن يقتله حتى يريحه من العذاب.. هل يستجيب طبيبه له.. أم أنه يستعمل كل الوسائل الطبية ليملأه بالصحة والعافية.

قالوا: بل الثانى هو الأقوم رأيا.

قال عبد القادر: وهذا الثانى هو محمد ﷺ..

التفت إلى بولس، وقال: فلنتنقل لنفهم الآية الثانية، وهى قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ (109)﴾ [الأنعام].

فالآية الكريمة تنص على أن الكفار ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ﴾ من مقترحاتهم أو الآية التى يختارونها ﴿لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا﴾.

وقد أمر الله تعالى نبيه ﷺ بأن يرد عليهم بقوله: ﴿إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ﴾، فهو وحده القادر عليها، والذى يظهر منها ما يشاء.

ثم خاطبهم بقوله: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أى الآية المقترحة إذا جاءت لا يؤمنون بها.

وهذا لا يعنى عدم وجود الآيات، ولكنه يعنى أن هؤلاء اقترحوا معجزات معينة من باب السخرية والاستهزاء لا من باب الاسترشاد والتحقق، والله تعالى لا يجيب المستهزئين أو المنكرين لما يطلبون، فإن أجابهم، ثم لم يؤمنوا أنزل بهم العذاب.

وقد روى فى سبب نزول هذه الآية أن قريشا كلموا رسول الله ﷺ، فقالوا: يا محمد تخبرنا أن موسى كان معه عصا يضرب بها الحجر، فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا، وتخبرنا أن عيسى كان يحيى الموتى، وتخبرنا أن ثمود كان لهم ناقة فأتنا من الآيات حتى نصدقك، فقال رسول الله ﷺ: (أى شىء تحبون أن آتيكم به)، قالوا: تجعل لنا الصفا ذهبا، فقال لهم: (فإن فعلت تصدقونى؟)، قالوا: نعم والله لئن فعلت لنتبعنك أجمعون، فقام رسول الله ﷺ يدعو، فجاءه جبريل ﷺ فقال له: (ما شئت إن شئت أصبح الصفا ذهبا، ولئن أرسل آية فلم يصدقوا عند ذلك ليعذبنهم وإن شئت فاتركهم حتى يتوب تائبهم)، فقال رسول الله ﷺ: (بل أتركهم حتى يتوب تائبهم).

فهذا النص يدل على أن رحمة الله ورحمة رسوله بقومه وبالناس كافة جعلته يمتنع من تلك الآية التى اقترحوها فى ذلك المحل، وهو لا يعنى عدم الآيات، وإنما يعنى ما اقترحوه، لأنهم لم يقترحوه بدوافع الصدق والاسترشاد والتحقق.

فلو نزلت تلك الآية ولم يؤمن هؤلاء وجب هلاكهم لأنها سنته تعالى فيما مضى من القرون والأمم السابقة، فالله تعالى ينزل الآية، فإن لم يؤمنوا بها يهلكهم لكفرهم وعنادهم، كما حدث مع قوم ثمود لما جاءتهم الناقة، كما قال تعالى فى الآية التى هى من الأدلة التى استدللت بها: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا (59)﴾ [الإسراء].

قال بولس: إن عدم إجابة محمد لمقترحاتهم دليل على أنه لم يكن له من السلطان ما يفعل به تلك المقترحات، وهو ما ينفى نبوته.

قال عبد القادر: بهذا المنطق الذى تطبقه على محمد، فإن المسيح نفسه لم يستجب لكل ما اقترح عليه من الآيات:

ففى إنجيل (مرقس:8/ 11-12): (فخرج الفريسيون وابتدأوا يحاورونه طالبين منه آية من السماء لكي يجربوه. فتنهد بروحه وقال لماذا يطلب هذا الجيل آية. الحق أقول لكم لن يعطى هذا الجيل آية).

فقد طلب الفريسيون منه معجزة على سبيل الامتحان، فما أعطاهم معجزة، وما أشار إلى معجزة سابقة، ولا قال: إنه سيعطيهم معجزة فيما بعد، بل إن قوله: (لن يعطى هذا الجيل آية) يدل على أنه لن يفعل أى معجزة فيما بعد.

وفى إنجيل (لوقا:23/ 8-12): (وأما هيرودس فلما رأى يسوع فرح جدا لأنه كان يريد من زمان طويل أن يراه لسماعه عنه أشياء كثيرة وترجى أن يرى آية تصنع منه. وسأله بكلام كثير فلم يجبه بشيء. ووقف رؤساء الكهنة والكتبة يشتكون عليه باشتداد. فاحتقره هيرودس مع عسكره واستهزأ به وألبسه لباسا لامعا ورده إلى بيلاطس).

وهذا النص يظهر هنا للعيان أن المسيح ما أظهر ولو معجزة واحدة مع أنه كان أنسب وقت لظهور معجزة، وقد كان هيرودس يترجى أن يرى منه معجزة واحدة، ولو رأى هيرودس معجزة واحدة لوبخ اليهود، وما احتقر المسيح حينذاك، فهل هذا ينفي ظهور المعجزات من المسيح؟

وقد ورد فى نفس الإنجيل (لوقا: 22/ 63-65): (والرجال الذين كانوا ضابطين يسوع كانوا يستهزئون به وهم يجلدونه. وغطوه وكانوا يضربون وجهه ويسألونه قائلين: تنبأ من هو الذى ضربك. وأشياء أخر كثيرة كانوا يقولون عليه مجدفين).

ومثله فى إنجيل (متى: 26/ 67-68) وفى إنجيل (مرقس: 14/ 65) لم يجبهم المسيح لأن سؤالهم كان مجرد استهزاء.

فهل هذا ينفى وقوع المعجزات منه؟

وفى إنجيل (متى:27/ 39-44): (وكان المجتازون يجدفون عليه وهم يهزون رؤوسهم قائلين: يا ناقض الهيكل وبانيه فى ثلاثة أيام خلص نفسك. إن كنت ابن الله فانزل عن الصليب وكذلك رؤساء الكهنة أيضا وهم يستهزئون مع الكتبة والشيوخ قالوا: خلّص آخرين وأما نفسه فما يقدر أن يخلّصها. إن كان هو ملك إسرائيل فلينزل الآن عن الصليب فنؤمن به. قد اتكل على الله فلينقذه الآن إن أراده. لأنه قال أنا ابن الله. وبذلك أيضا كان اللصّان اللذان صلبا معه يعيّرانه).

فما خلص يسوع نفسه، وما نزل من على الصليب حتى بعد أن عيره اللصوص والجنود والكتبة كما رأيتم.

بل إن رؤساء الكهنة والكتبة والشيوخ كانوا يقولون: لو أنه نزل من على الصليب نؤمن به، فكان عليه لدفع العار وإقامة الحجة عليهم أن ينزل ولو مرة واحدة من على الصليب، ثم يصعد مرة أخرى إن كان مُصِرًّا على أن ينتحر أو يقتل نفسه كما يدعون على الصليب، فهل هذا ينفى وقوع المعجزات على يده؟

وفى إنجيل (متى: 12/ 38-40): (حينئذ أجاب قوم من الكتبة والفريسيين قائلين يا معلّم نريد أن نرى منك آية. فأجاب وقال لهم: جيل شرير وفاسق يطلب آية ولا تعطى له آية إلا آية يونان النبى. لأنه كما كان يونان فى بطن الحوت ثلاثة أيام وثلاث ليال هكذا يكون ابن الإنسان فى قلب الأرض ثلاثة أيام وثلاث ليال).

فها هم الكتبة والفريسيون قد طلبوا منه أن يعطيهم معجزة وما أظهر لهم معجزة، بل شتمهم وسبهم، وأخبر أنهم جيل شرير وفاسق، ولم يشر إلى معجزة سابقة، ولا وعد بلاحقة، فهل هذا ينفى وقوع أى معجزة أخرى على يده؟

وغير هذا كثير..

بل إن عدم تلبية المسيح لطلب المعجزات فى الأوقات المطلوبه تسبب فى ارتداد الكثير من تلاميذه، بل تركوه، ولم يمشوا وراءه فيما بعد، كما جاء فى إنجيل (يوحنا: 6/ 66): (هكذا: من هذا الوقت رجع كثيرون من تلاميذه إلى الوراء ولم يعودوا يمشون معه)[1].

التفت عبد القادر إلى بولس، فوجده لا ينبس ببنت شفة، فقال: أكتفى بهذه الأمثلة من الإنجيل.. وهى تؤكد ما ورد فى القرآن.. وهى تفسر كذلك الآيات التى أسأت فهمها، وحملتها ما لا تحتمل.

أما الموضع الثالث التى استدللت به، فهو قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾﴾ [الإسراء]

فالمشركون ـ كما تدل هذه الآيات الكريمة ـ علقوا إيمانهم بالرسول ﷺ بأن يفجر لهم من الأرض ينبوعًا، أو بأن تكون له جنة من نخيل وعنب يفجر الأنهار خلالها تفجيرًا، أو أن يأخذهم بعذاب من السماء، فيسقطها عليهم قطعًا كما أنذرهم أن يكون ذلك يوم القيامة! أو أن يأتى بالله والملائكة قبيلاً يناصره، ويدفع عنه كما يفعلون هم فى قبائلهم! أو أن يكون له بيت من المعادن الثمينة، أو أن يرقى فى السماء، ولا يكفى أن يعرج إليها وهم ينظرونه، بل لا بد أن يعود إليهم ومعه كتاب محبر يقرأونه.

إنك ترى طفولة الإدراك والتصور فى هؤلاء، كما يبدو التعنت فى هذه المقترحات الساذجة، وهم يسوون بين البيت المزخرف والعروج إلى السماء.. أو بين تفجير الينبوع من الأرض، ومجىء الله سبحانه والملائكة قبيلاً.

والذى يجمع فى تصورهم بين هذه المقترحات كلها هو أنها خوارق، فإذا جاءهم بها نظروا فى الإيمان له والتصديق به!

والقرآن ينبه إلى أن الخارقة ليست من صنع الرسول، ولا هى من شأنه، إنما هى من أمر الله سبحانه وفق تقديره وحكمته.

فليس من شأن الرسول أن يطلبها إذا لم يعطه الله إياها، فأدب الرسالة وإدراك حكمة الله فى تدبيره يمنعان الرسول أن يقترح على ربه ما لم يصرح له به[2].

والقرآن ينص على أن مقصود الكفار بهذه الاقتراحات العناد والتعنت واللجاج، ولو جاءتهم كل آية لقالوا هذا سحر، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾﴾ [الأنعام].

هذا هو معنى الآية الثالثة التى استدللت بها ـ حضرة القس ـ.

أما الآية الرابعة، وهى قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾﴾ [الإسراء].

---

(1) هذا ما فى طبعة سنة 1860م، وفى طبعة سنة 1825م هكذا: «ومن ثم ارتد كثير من تلاميذه على أعقابهم ولم يماشوه بعد ذلك أبدًا»، وكذلك فى طبعة سنة 1826م، وإن كانت هذه الفقرة واردة فى طبعة سنة 1823م، سنة 1844م، وفى طبعة سنة 1882م، برقم (67) وليس (66).

(2) انظر فى تفسير هذه الآيات: فى ظلال القرآن، سيد قطب.

فمعناها: (وما منعنا يا محمد أن نرسل بالآيات التى سألها قومك، إلا أن كان من قبلهم من الأمم المكذّبة، سألوا ذلك مثل سؤالهم فلما أتاهم ما سألوا منه كذّبوا رسلهم، فلم يصدّقوا مع مجيء الآيات، فعوجلوا فلم نرسل إلى قومك بالآيات، لأنّا لو أرسلنا بها إليها، فكذّبوا بها، سلكنا فى تعجيل العذاب لهم مسلك الأمم قبلها).

فالحديث فى هذا عن بعض مقترحات المشركين، كما ذكرنا سابقا، وقد ورد فى سبب نزول الآية ما يوضح ذلك، فعن ابن عباس، قال: سأل أهل مكة النبىّ ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذهبا، وأن ينحى عنهم الجبال، فيزرعوا، فقيل له: إن شئت أن نستأنى بهم لعلنا نجتنى منهم، وإن شئت أن نؤتيهم الذى سألوا، فإن كفروا أهلكوا كما أهلك من قبلهم، قال: (بل تستأنى بهم)، فأنزل الله هذه الآية.

هذا هو معنى الآية الرابعة، أما الآية الخامسة، وهى قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يُنَزِّلَ آيَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٣٧)﴾ [الأنعام].

فلها نفس معانى الآيات السابقة، فهى تخبر عن أولئك المستهزئين الساخرين، وهى لا تعنى أبدا أن الله لم يجعل لنبيه من الآيات ما يدل على نبوته.

التفت إلى بولس، وقال: إن هذه الآيات جميعا تشير إلى هذه الحقيقة العظيمة.. حقيقة أن الأنبياء كان لهم من العقل والحكمة بحيث لا يجعلون أنفسهم لعبة بيد الساخرين والمستهزئين يطلبون منهم كل ما تمليه أهواؤهم.. ثم إن الله أعظم وأجل من أن يكون تحت رغبة كل فاسق مستهزئ من الكافرين المنكرين لنبوة الأنبياء.

ومع ذلك.. فلنرجع للقرآن الذى تستدل به ـ حضرة القس ـ على عدم ورود المعجزات من محمد ﷺ.. لتقرأه بعمق، وترى إثباته لمعجزات محمد ﷺ كإثباته لمعجزات الأنبياء من قبله.

فالله تعالى يقول: ﴿وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ (١٤) وَقَالُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ (١٥)﴾ [الصافات].

فهاتان الآيتان، تشيران إلى وقوع الآيات منه ﷺ، وأنهم كانوا يقابلونها بدعوى أنها من السحر، كما حصل للأنبياء السابقين، كما قال تعالى عن موسى عليه السلام: ﴿قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ ... (٧١)﴾ [طه].

والله تعالى يقول فى سورة القمر بعد ذكره لمعجزة انشقاق القمر: ﴿وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ (٢) وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ (٣) وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّنَ الْأَنبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ (٤) حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ (٥)﴾ [القمر].

والله تعالى يخبر أنهم رأوا الآيات الكثيرة الدالة على صدق رسول الله ﷺ، فهو يقول: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٨٦)﴾ [آل عمران].

وهو يقول: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٢١)﴾ [الأنعام].

وهو يقول: ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِندَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ (١٢٤)﴾ [الأنعام].

التفت إلى القس، وقال: ألم يقرأ قومك هذه الآيات.. أم أنهم ينتقون من القرآن ما يشاءون.. ثم لا يفهمونه إلا كما تملى عليهم أهواؤهم.

إنهم يشبهون ذلك السكير الذى لم يقرأ من القرآن إلى آية واحدة، هى قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ (٤)﴾ [الماعون]، بترها عما قبلها، وعما بعدها، ثم راح يقول:

دَعِ المساجد للعُبَّاد تَسكُنُها ... ومِلْ بِنا إلى خَمَّار لِيَسقِينا
ما قَالَ ربُّكَ وِيلٌ للأُلى سكروا ... بَلْ قَالَ وَيلٌ لِلمُصَلِّينَ

**سند المعجزات:**

التفت عبد القادر إلى بولس، وقال: أظن أن الشبهة الأولى التى أوردتها قد ردها القرآن نفسه، فلننتقل إلى الشبهة الثانية، لاشك أنكم تذكرونها.

قال مستأجر عبد القادر: أجل.. فقد شكك فى الأسانيد التى رويت بها معجزات محمد، مستندا لذلك لأقوال هيكل وغيره.

ابتسم عبد القادر، وقال: إنك ـ يا حضرة القس ـ بهذا التشكيك، لا تشكك فى معجزات محمد ﷺ فقط، بل تشكك فى معجزات المسيح نفسه، بل فى كل الكتاب المقدس.

أنت تعلم أن كل ما نقل من معجزات المسيح لم ينقله تلاميذ المسيح.. بل نقله ناس لا علاقة لهم بالمسيح من قريب أو من بعيد[1].

لن أتحدث معك فى هذا، فأنت تعلم منه أكثر مما أعلم.. ولو شئت لاكتفيت به.. ولكنى سأذكر لك دقة التوثيق الذى اعتمده علماء المسلمين فى نقل كل ما يتصل برسول الله ﷺ.

أولا.. لقد كان أصحاب محمد ﷺ هم الذين نقلوا لنا معجزات محمد ﷺ كما رأوها. كما أنهم هم الذين نقلوا كل ما يتصل بمحمد ﷺ من صغير وكبير[2]..

لقد كانت أعين هؤلاء الصحب الكرام كعدسات الكاميرا، وآذانهم كأجهزة التسجيل الدقيقة التى تلتقط كل شىء، لأنهم يعلمون أنَّ دخولهم الجنة متوقف على تأسيهم بأفعاله وأحواله، وطاعتهم لأقواله، فكانت أعينهم شديدة المراقبة لحركات الرسول ﷺ وسكناته، وكانت آذانهم مرهفة السمع لأقواله، وكانت قلوبهم متلهفة ومتعطشةٌ لسماع الحق والنور والهدى ومعرفته وقبوله.

فلذلك نقلوا لنا فيما نقلوا بينات رسالته، وأحوال عبادته، وحديثه وهديه وسنته، ودقائق أحواله الشخصية وتصرفاته ﷺ، مع أصحابه وأهله وأعدائه، وتفاصيل عادته فى يقظته ونومه وطعامه وشرابه وسائر شؤونه، وتصرفه فى أحرج اللحظات التى مرت به وكذا فى أوج انتصاراته، وحين المكاره، وتفاصيل محاولات الكفار والمنافقين لخداعه ومساوماتهم له، فكانت سيرته العطرة ﷺ نوراً مشاهدًا لمن حوله.

ثم نقل لنا هؤلاء الأصحاب ما رأوه وشاهدوه وسمعوه من معجزات نبيهم ﷺ وأقواله وأفعاله، يحدوهم الشوق للأجر فى تبليغ العلم والدين، كقوله ﷺ: (نَضَّرَ اللهُ امرأً سَمِعَ منا شيئًا فبلّغه كما سمعه)[3]، وتحثهم طاعتهم لرسولهم ﷺ إلى المسارعة فى نشر العلم، فهو القائل: (بَلِّغُوا عنِّى ولَوْ آيَةً)[4].

وقد دفعهم ـ قبل ذلك كله ـ القرآن الكريم الذى حذر من كتمان العلم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾﴾ [البقرة].

---

(1) انظر: تفاصيل ذلك فى الرسالة الثانية من هذه السلسلة (الكلمات المقدسة).

(2) انظر: بينات الرسول ﷺ ومعجزاته، للشيخ عبد المجيد الزندانى.

(3) هذا الحديث من الأحاديث المتواترة، ذكر الحافظ أبو القاسم بن منده أنه رواه عن النبى ﷺ أربعة وعشرون صحابى. ثم سرد أسماءهم. وقد جمع طرقه الشيخ عبدالمحسن العباد فى جزء مفرد مطبوع.

(4) رواه البخارى والترمذى وأحمد.

وحذرهم منه ﷺ، فقال: (من سئل عن علم فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار)[1].

وقد نقلوا ما نقلوه بدقة بـالغة وأمانة عالية، لأنهم يعلمون حرمـة الكذب فى الإسلام عامة، وحرمـته بشكل أشد على الرسـول ﷺ، وقد رووا عنه قوله ﷺ: (من كـذب علىّ متعـمداً فليتـبوأ مقـعده من النار)[2]، حتى كـان بعضهم يتـحرج من الرواية عنه ﷺ خـشية أن يخطئ فـينقل ما لم يسمع، مما يدلنا على مدى التوثيق البالغ لسنة النبى ﷺ.

ولما ظهـر بعد جـيل الصحـابة بعض من لا يوثق بروايتـه، قيض الله أئمـة الحديث والجـرح والتعديل الذين شيدوا علم الرجال والتاريـخ والجرح والتعديل، الذى ضم آلاف الرواة مبينًا حال كل راوٍ من حيث أنه معروف أو مجهول، ومن حيث مدى حفظه وضبطه وإتقانه وشيوخه وتلاميذه وسنة ولادته وسنة موته، وهل بقى حفظه كما هو أم تغير فى آخـر عمره لكِبَر سنِّه، أو لحادث أصابه، وما أشبه ذلك من مقاييـس الجرح والتعديل، بل وصل الأمر إلى جمع رِوَايات الثقات العـدُول ومقارنتها لمعرفة إن كان أحدهم قد وهم فى لفظة أو جملة.

وقد استـقر الأمر عند علماء الحديث والسنة فوضـعوا شروطًا للحديث الصحـيح المقبول عن رسول الله ﷺ، وهى شروط فى منتهى الدقة والموضوعية.

فقد اشترطوا فى الحديث أن يكون منقولاً بنقل العدول الضابطين.. متصل الإسناد بأن يكون كل راوٍ قد سـمع الحديث من شيـخه، فلا يـكون منقطعًا.. وأن يكون سالمًا من الـشذوذ ومن العلة القادحةِ.

فاستبعد علماء الحديث فى الحديث الصحيح من كان مجروحًا من الرواة بأى سببٍ من أسباب الجرح.

ومما يبين صحة منهج المحدثين ومنهجيتهم العلمـية الدقيقة: عدم قبولهم الخبر المكذوب الذى زعم واضعه أنه قصد بوضعه نصرة الدين الإسلامى أو الحث على بعض فضائل الأعمال، بل اعتبروا ذلك ضلالاً من فاعله وابتداعًا فى الدين[3].

وبهذا يظهر لنا تميز منهج النقد والتوثيق فى الحديث النبوى، الذى يشترط الشروط الدقيقة فى الرواية، حـتى يطمئن المحـدث بأن كل من فى سند الرواية عـدل أمين فى روايتـه، ضابط دقـيق فى نقله، كأن عينه آلة تصوير، وأذنه آلة تسجيل، وذاكرته وكتابه شريط صاف سُجلت عليه الكلمات.

وبهذه الطريقة الأمـينة الدقيقة نُقلت إلينا السنة النبـوية، وأخبار المعجزات، ووجـدنا المعجزة تُروى من عدة طرق لرواتها عن الذين حضروها وشاهدوها، فـتتكامل تلك الروايات ويُصدِّق بعضها بعضًا، وتلتقى مع ما ذكره القرآن أو أشار إليه.

وليس هناك شخص فى التاريخ توفرت لأمته تلك الدوافع والحـوافز وقواعد الضبط والتحرى لنقل أقواله وأفعاله غـير محمد ﷺ؛ لأنه خاتم الأنبياء والمرسلين الذى جـعله الله حجة على العالمين وتكفل بحفظ بيناته ومعجزاته فى سجلات صادقة موثوقة لتقوم بها الحجة على من يأتى بعده إلى قيام الساعة.

---

(1) رواه أبو داود والترمذى وحسنه وابن ماجه وابن حبان فى صحيحه والبيهقى ورواه الحاكم بنحوه وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

(2) رواه البخـارى ومـسلم وغيـرهما، قال المنذرى:- هذا الحديـث قد روى عن غير واحـد من الصحابة فى الصـحاح والسنن والمسانيد وغيرها حتى بلغ مبلغ التواتر..

(3) تدريب الراوى 1/ 283 ونزهة النظر ص121-122.

قال ذلك، ثم التفت للقس، وقال: إن كتب الحديث ومخطوطاتها لا تزال موجودة محسوسة، فإن شئت فلنذهب إليها، ولنذهب إلى كتبكم المقدسة لنرى مدى دقة أسانيدنا، ومدى دقة أسانيدكم.

ثم قال: أنتم أنفسكم تعترفون بدقة أسانيدنا؟

قال بولس: كيف ذلك؟

قال عبد القادر: ألستم ترجعون إلى كتب الحديث لتتهموا محمدا ﷺ بما شاء لكم أن تتهموه، فكيف تقبلونها فى التهمة، ثم لا تقبلونها فى البراءة؟

***

# 3 - المعجزة الخالدة

لما سمع الجمع هذا صاحوا فى عبد القادر: لقد اقتنعنا بكل ما ذكرته من مقدمات، فحدثنا الآن عن معجزات محمد.

قال عبد القادر: إن ذلك يطول.. ولهذا سأقتصر لكم على بعض الخوارق التى وقعت من باب التحدى، وأولها القرآن الكريم.

هنا انتفض بولس فرحا، وقال: ها.. لقد قلت لكم: إنهم لا يملكون معجزة غير القرآن.. هذا ما كنت أناضل عنه منذ الصباح.. وهذا ما كان يرده على، وهاهو يبدأ به.

ابتسم عبد القادر، وقال: نعم.. القرآن الكريم هو أول معجزة، وأكبر معجزة، وأخلد معجزة، وهو شاهد محمد ﷺ لكل الأجيال.. وهو أمامكم.. ابحثوا فيه عن أسرار الإعجاز.

ثم نظر إلى بولس، وقال: نحن لدينا معجزة خالدة، يمكننا إشهارها فى كل زمان، فأرنى معجزتكم، ولا تذكر لى إحياء الموتى، ولا إبراء الأكمه والأبرص، ولا إخضاع الطبيعة، فإن كل ذلك أتلقاه منك أخبارا أحسن بها وبك الظن، فأقبلها، ولكنها قد تجد من يردها، وقد وجدت.

قال بولس: والقرآن ماذا فعل.. لقد تحدى مجموعة من البدو.. وطلب منهم أشعارا تضاهى بلاغته.. فلم يقدروا.

قال عبد القادر: لا.. إن هذا كلام من لا يعرف القرآن.. القرآن أعظم من ذلك، وتحدى القرآن أعظم من أن ينحصر فى البلاغة والنظم.. إن كل ما فيه يشير إلى أنه كلام الله.

واسمح لى ـ قبل أن أذكر لك بعض أنواع التحدى التى فى القرآن الكريم ـ أن أقص عليك قصة شاعر مسيحى معاصر قرأ القرآن، فأذهله، فأعلن إيمانه بالقرآن وبالرسول ﷺ، فقال: (قرأت القرآن فأذهلنى، وتعمقت به ففتننى، ثم أعدت القراءة فآمنت.. آمنت بالقرآن الإلهى العظيم، وبالرسول مَنْ حَمَلَه، النبى العربى الكريم).

وقال: (وكيف لا أومن ومعجزة القرآن بين يدىّ أنظرها وأحسها كل حين؟! هى معجزة لا كبقية المعجزات.. معجزة إلهية خالدة تدل بنفسها عن نفسها، وليست بحاجة لمن يحدث عنها أو يبشر بها).

وقال: (وكم احتاجت وتحتاج الأديان السابقة إلى علماء ومبشرين وشواهد وحجج وبراهين لحض الخلق على اعتناقها، إذ ليس لديها ما هو منظور محسوس يثبت أصولها فى القلوب.. أما الإسلام فقد غنى عن كل ذلك بالقرآن فهو أعلم مُعلّم وأهدى مبشر، وهو أصدق شاهدًا وأبلغ حجة وأدمغ برهانًا.. هو المعجزة الخالدة خلود الواحد الأزلى المنظورة المحسوسة فى كل زمان)[1].

وقد نظم قصيدة يبين فيها إعجاز القرآن وعظمته، قال فيها:

يقولون: ما آياته؟ ضلّ سعيهم ... وآياته - ليست تُعَدُّ - عظَامُ
كفى معجزُ الفرقان للناس آيةً ... علا وسما كالنجم ليس يُرامُ
فكلّ بليغ عنده ظل صامتًا ... كأنّ على الأفواه صر كمَامُ
وشاء إله العرش بالناس رحمةً ... وأن يتلاشى حقدهم وخصامُ
ففرّق ما بين الضلالة والهدى ... بفرقان نور لم يَشُبْهُ قَتَامُ

قال بولس: لقد طلب منك الجمع أن تحدثهم عن خوارق محمد الحسية، لا عن الخوارق التى تسمونها معنوية.. فحدثنا عن غير القرآن.

---

(1) علوم القرآن الكريم د. نور الدين عتر ص201-202.

قال عبد القادر: ومن ذكـر لك أن القرآن معجزة معنوية. . إنه معجـزة حسية. . يمكنكم أن تسمعوها، وأن تقرؤوها كل حين لتروا ما فيها من العجائب التى لا تفنى مع الأيام.

لقـد تنوعت البـينات والمعـجزات بتنـوع الأقوام والأمم، فـجـعل الله لكل قـوم بينة تناسب مستواهم الثقافى والفكرى ليكون ذلك أبلغ فى إقامة الحـجة على الناس، ولما كان محمد ﷺ مرسلاً إلى الناس كافة، وإلى كل الأزمـان فقد أيده الله سبحانه ببـينات متنوعة تتناسب مع جميع من أرسل إليهم من الأقوام، ومع جميع الأجيال إلى قيام الساعة على اختلاف ثقافاتهم ومداركهم:

فكانت الفصاحة والبلاغة من بيناته المناسبة للعرب الفصحاء البلغاء.

ومن بيناته ما يتناسب مع أهل الأديان كالبشارات به فى الكتب السـابقة.

ومن بيناته مـا عجـز أهل الأنظمة والقـوانين عن المجىء بمثله من تشريعـات حكيمـة تناسب جميع البيئات والعصور.

ومن بيناته الخـوارق المشاهدة كخـارقة انشقـاق القمر التى سـجلت عند بعض الأمم ولاتزال آثارها ظاهرة إلى اليوم.

ومنها معـجزة الإخبار بالغـيب الماضى والحاضر والمستـقبل، والتى لا تزال تنكشف إلى يومنا هذا.

ومنها ما يتناسب مع أهل الكشوف العلمية فى عصرنا.

ومنها نواح كثيرة ستظهر، ولاشك أنها ستظهر، فى مستقبل الأيام[1].

قال بولس: إن كل هذا تمجيد لكتابك، ويمكننى أن أقول أضعافه عن كتابى. .

قال عبد القادر: لا يمكنك أن تقـول مثل هذا عن كتابك. . إن هذا الكلام لا ينطبق إلا على كتاب واحد فى الدنيا هو القرآن الكريم.

فهو الكتاب الذى جاء يتحدى الكل عن الإتيان بمثله، بل الإتيان بجزء قليل من مثله.

لقد جعل الله سبحانه القرآن المتضمن لكثير من أنواع هذه المعجزات أكبر بينة لمحمد ﷺ، قال تعالى: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَىٰ قُل لَّا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (١٩)﴾ [الأنعام].

وأخبر ﷺ عن هذه المعجزة الخالدة، فقـال: (مَا مِنْ الأَنْبِيَاءِ نَبِيٌّ إِلاَّ أُعْطِيَ مِنَ الآيَاتِ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَـانَ الَّذِي أُوتِيتُـه وَحْيًـا أَوْحَاهُ اللهُ إِلَيَّ فَأَرْجُـو أَنْ أَكُونَ أَكْثَـرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ)[2].

قال بولس: فهذا الحديث يشير إلى أن معجزة محمد الوحيدة هى القرآن.

قال عبد القادر: لا. . هذا الحديث يشيـر إلى المعجزة الخالدة. . لا إلى سائر المعجزات، وهو ما تميز به الإسلام عن سائر الأديان، باعتباره الدين الخالد.

فالحديث يشير إلى طبيعة المعجزة فى الوحى الذى أنزله الله على محمد ﷺ، حيث يبقى بعد موته، ويتجدد إعجازه على مرّ العصور.

قال بولس: حدثنا عن شىء ملمـوس فى هذه المعجزة، فإن كل ما ذكرته مـجرد مديح تكيله لكتابه من غير حساب.

قال عبد القادر: أجيبونى قبل أن أسألكم: لو أن رجلا قبل أربعة عشر قرنا فى صحراء قاحلة

---

(1) انظر: بينات الرسول ﷺ ومعجزاته، للشيخ عبد المجيد الزندانى.

(2) رواه البخارى ومسلم.

بعيدة عن كل حضارة وعلم، أخبر عن عشرات النظريات العلمية التي لم يكتشفها العلماء إلا فى عصرنا، وبأجهزة متطورة، وبأبحاث مجهدة.. وكان كل ما ذكره موافقا لما ذكروه.. أليس ذلك معجزة؟

قالوا: بل هو قمة الإعجاز.. بل يكفى هذا أن لا يقع فيما وقع فيه أهل تلك القرون من خرافات وأخطاء.

قال عبد القادر: وهكذا القرآن.. لقد جاء بآخر الحقائق، ووصفها وصفا دقيقا.. ولم يقتصر على مجال واحد، بل تحدث عن المجالات المختلفة، المرتبطة بالحاجات المختلفة للبشرية.

قالوا: إن هذا لعجيب.. ولكن هل حدث هذا حقا؟

قال عبد القادر: أجل..

قال ذلك، ثم حدثهم عن بعض معجزات القرآن العلمية، والتى قد تعرفت على الكثير منها فى رحلتى السابقة[1].

سكت عبد القادر قليلا، ثم قال: ربما لم يفهم بعضكم ما ذكرنا من هذه النواحي المعجزة فى القرآن الكريم.. ولذلك سأذكر لكم دليلا آخر، نطبقه فى حياتنا كثيرا، وقبل أن أورده عليكم.. أجيبونى: كيف نعرف أن رجلا ما مصارع لا ينافس، ولا تناظر قوته؟

قالوا: عندما يتحدى المصارعين، فإذا برزوا إليه صرعهم.

قال عبد القادر: فهل ترون فى الواقع مصارعا يصرع كل من يتحداه فى كل حين، وفى كل مكان، بل يتحدى جموع المصارعين.. فلا يستطيعون تحديه؟

قالوا: هذا مستحيل.. فكل مصارع من هذا القبيل يكون بطلا للمصارعين فى زمان محدود، محدود جدا، ثم لا يلبث أن يقهر هذا المصارع، لينال الغلبة غيره، وهكذا.

قال عبد القادر: ولكن القرآن الكريم تحدى الكل، وفى كل الأزمنة، ولكنه لم يجد من يقف فى وجهه إلى الآن..

فالله تعالى يقول ـ مبينًا عجز الإنس والجن مجتمعين أن يأتوا بمثل القرآن الكريم ـ: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا (٨٨)﴾ [الإسراء].

بل إن القرآن الكريم تحداهم بأن يأتوا بعشر سور مثله، فقال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٣)﴾ [هود].

ثم تحداهم الله أن يأتوا بسورة من مثله، فلم يقدروا، وأخبرهم أنهم لن يفعلوا، فقال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٣) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (٢٤)﴾ [البقرة].

ولو كان القرآن من كلام الرسول ﷺ لما جزم بعدم استطاعة أحد أن يأتى بمثله، وتحقق هذا الجزم بعد ذلك دليلٌ على أن القرآن كلام الله المعجز.

لقد كان بإمكان الكفار أن يكذبوا القرآن لو استجابوا للتحدى، وأتوا بسورة مثل القرآن، ولمآ رأينا أنهم تركوا الاستجابة للتحدى مع أنه أمر لا يكلفهم كثيراً من التبعات، واختاروا الطريق الوعر لمواجهة الرسول وهو الحرب وإزهاق الأنفس وإهدار الأموال علمنا علمًا يقينيًا عجزهم عن الإتيان بمثله مع كونهم أساطين الفصاحة والبلاغة.

ولو قدّرنا أن رجلاً ألف كتابًا، أو قال شعراً ثم تحدى الكتاب والشعراء، فقال: عارضونى،

---

(1) انظر الرسالة السابقة من هذه السلسلة (معجزات علمية).

وإن لم تعارضوني، فأنتم كفار مأواكم النار، فمن المستحيل أن يحجم الجميع عن معارضته لدفع وعيده لهم بدخول النار، فإذا لم يعارضوه رغم توافر الدواعي لمعارضته كان ذلك من أبلغ العجائب الخارقة للعادة الدالة على صدقه في تحديه.

قالوا: فكيف نعرف حصول العجز لمن حاول تحدى القرآن؟

قال عبد القادر: لقد ذكرت لكم أن القرآن الكريم لا يزال يتحدى، فهو معجزة حسية لا تزال قائمة، وتحديه لا زال قائما. ومع أن هناك منظمات كثيرة تحارب القرآن وتحارب المسلمين، ولديهم من القدرات المادية ما يمكنهم من أن يغروا من شاءوا من الأدباء والعلماء على أن يأتوا بمثل القرآن. . . ولكنهم لم يفعلوا، ولن يستطيعوا أن يفعلوا[1].

هذا في الحاضر المشاهد. . . أما في الماضي، فقد اعترف العرب الذين بدأ بهم التحدى بعظيم نظم القرآن وبلاغته وأسلوبه من خلال تأثرهم به، حتى كانوا يحذّرون من قدم إلى مكة من سماع القرآن خشية أن يتأثر به فيسلم، بل تواصوا فيما بينهم باللغو عند سماع القرآن حتى لا يتأثر به السامع. قال تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [فصلت].

ولما جاء الطُّفَيل بن عمرو إلى مكة لم يزل به الكفار يحذرونه من سماع القرآن حتى وضع في أذنيه قُطنًا خشية أن يسمع شيئًا من القرآن، وأبى الله سبحانه إلا أن يسمعه شيئًا منه مع وجود ذلك القطن، فهدى الله قلبه لسماع القرآن ومن ثَمّ شرح الله صدره للإسلام[2].

ولما سمع الوليد بن المغيرة القرآن فكأنّه رَقّ له، فبلغ ذلك أبا جهل فأتاه فقال: يا عم إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالاً ليعطوه لك، فإنك أتيت محمداً لتَعرض لما قبَله، قال: قد علمت قريش أني من أكثرها مالاً! قال: فقل فيه قولاً يبلغ قومك أنك منكرٌ له، قال: وماذا أقول؟! فوالله ما فيكم رجل أعلم بالشعر مني ولا أعلم برجَزه ولا بقصيده مني، ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه الذى يقول شيئًا من هذا، ووالله إن لقوله لحلاوة وإن عليه لطلاوة، وإنه لمُثمر أعلاه مُغْدق أسفله، وإنه ليَعْلو وما يعلى، وإنه ليَحْطِمُ ما تحته.

قال: لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه. قال: فدعني حتى أفكر فيه، فلما فكر قال: هذا سحر يؤثر، يؤثره عن غيره، فنزلت الآيات في الوليد قال تعالى: ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلاَّ إِنَّهُ كَانَ لآيَاتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَذَا إِلاَّ قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [المدثر][3].

---

(1) أما ما ينشر في المواقع التبشيرية من كتابات تحاول أن تضاهي القرآن الكريم، فلاشك في كونها أضحوكة يراد بها السخرية لا حقيقة التحدى، وقد ذكرنا بعض النماذج عنها في رسالة (الكلمات المقدسة) من هذه السلسلة.

ومن ذلك سورة حملت اسم (سورة الضّالين)، وهي: «وألبس الشيطان الباطلَ ثوب الحقّ وأضفى على الظلم جلباب العدل، وقال لأوليائه أنا ربكم الأحد لم ألد ولم أولد ولم يكن لي منكم كفواً أحد فأنا الملك الجبار المتكبر القهار القابض المذل المميت المنتقم الضّار المغني فإياي تعبدون وإياي تستعينون (2) مهيمن يحطم سيف الظلم بكف العدل ويهدى الظالمين (3) ويهدم صرح الكفر بيد الإيمان ويشيد موئلاً للتائبين (4) وينزع غلّ الصدر بشذى المحبة ويشفى نفوس الحاقدين (5) ويطهّر نجس الزنى بماء العفة ويبرئ المسافحين (6) ويفضح قول الإفك بصوت الحق ويكشف مكر المفترين(7) فيأيها الذين ضلّوا من عبادنا توبوا وآمنوا فأبواب الجنة مفتوحة للتائبين».

فبهذه الآيات السبعة التي تتفق مع سورة الفاتحة في عددها تنتهي هذه السورة العجيبة التي تصور صاحبها أنه يعارض بها القرآن.

(2) السيرة النبوية لابن هشام 2/ 226-227.

(3) أخرج هذه الحادثة الحاكم في المستدرك 2/ 550 وقال صحيح الإسناد على شرط البخاري ولم يخرجاه ووافقه الذهبي، وعن الحاكم أخرجها البيهقي في شعب الإيمان 1/ 156-157.

فقول الوليد: إن القرآن سحر، يبين عميق التأثير الذى أحدثه القرآن فى نفسه.

وقال الزهرى: حُدِّثْتُ أن أبا جهل وأبا سفيان والأخنس بن شريق خرجوا ليلة ليسمعوا من رسول الله ﷺ، وهو يصلى بالليل فى بيته، وأخذ كل رجل منهم مجلسًا ليستمع فيه، وكل لا يعلم بمكان صاحبه، فلما طلع الفجر تفرقوا فجمعتهم الطريق فتلاوموا، وقال بعضهم لبعض: لا تعودوا. فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم فى نفسه شيئًا، ثم انصرفوا.

حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، فجمعهم الطريق فقال بعضهم لبعض مثل ما قالوا أول مرة، ثم انصرفوا. حتى إذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل منهم مجلسه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، فجمعهم الطريق، فقال بعضهم لبعض: لا نبرح حتى نتعاهد ألاّ نعود، فتعاهدوا على ذلك، ثم تفرقوا. فلما أصبح الأخنس بن شريق أخذ عصاه، ثم خرج حتى أتى أبا سفيان فى بيته فقال: أخبرنى يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد، فقال: يا أبا ثعلبة، والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها، وسمعت أشياء ما عرفت معناها، ولا ما يراد بها، قال الأخنس: وأنا والذى حلفت به كذلك.

قال: ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل فدخل عليه بيته فقال: يا أبا الحكم، ما رأيك فيما سمعت من محمد؟ فقال ماذا سمعت! تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف، أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تجاذينا[1] على الركب، وكنا كفرسى رهان، قالوا: منّا نبى يأتيه الوحى من السماء، فمتى ندرك مثل هذه! والله لا نؤمن به أبدًا ولا نصدقه. قال: فقام عنه الأخنس وتركه[2].

فحرصهم على الحضور ليلاً لسماعه مما يدُلُّ على تأثرهم به وتعجبهم منه لكونه ليس ككلام البشر، ولكن العناد والمكابرة حملهم على تركه.

ومما يدل على تميز القرآن الذاتى عن كلام العرب ما شهد به أُنَيس بن جنادة الغفارى قبل إسلامه، حيث سأله أخوه أبو ذرّ عما يقول الناس فى النبى ﷺ، فقال: يقولون: شاعر، كاهن، ساحر ـ وكان أنيس أحد الشعراء ـ قال أنيس: لقد سمعت قول الكهنة فما هو بقولهم، ولقد وضعت قوله على أقراء الشعر[3] فما يلتئم على لسان أحد أنه شعر، والله إنه لصادق وإنهم لكاذبون)[4].

وقدم جُبير بن مُطْعَم إلى المدينة قبل إسلامه فى فداء أُسارى بدر فسمع النبى ﷺ يقرأ فى صلاة المغرب بسورة الطور، قال: (فكأنما صدع قلبى حين سمعت القرآن)[5]، وفى رواية: (وذلك أول ما وقر الإيمان فى قلبى).

فهؤلاء من قريش أفصح العرب يشهدون ببلاغة القرآن وفصاحته من خلال تأثرهم به.

ولم يقتصر الأمر على قريش أو غيرهم من العرب، بل إن كل من تعرف على العربية، أو تذوق أدبها يحكم للقرآن الكريم بالإعجاز فى هذا الجانب، ولهذا لم يؤلف فى إعجاز القرآنى النظمى أو البلاغى إلا الأدباء الفحول.

---

(1) تجاذينا: مأخوذ من قولهم: جذا الرجل إذا جلس على ركبتيه.

(2) سيرة ابن هشام 1/ 337-338.

(3) أقراء الشعر: طرائقه وأنواعه.

(4) رواه مسلم.

(5) أحمد، والبيهقى فى السنن الكبرى: 2/ 444، والطحاوى فى شرح معانى الآثار 1/ 211-212، والطبرانى فى المعجم الكبير: 2/ 116 والصغير 2/ 265 وغيرهم.

بالإضافة إلى هذا، فهناك آلاف من الشهادات لهذا القرآن من ناس لم يعرفوا العربية، ولم يدخلوا الإسلام، لكنهم يشعرون أن القرآن أعظم من أن يكون كلام بشر:

يقول المستشرق آرثر آدبرى: (عندما أستمع إلى القرآن يتلى بالعربية، فكأنما أستمع إلى نبضات قلبى)[1].

ويقول غوته: (إن أسلوب القرآن محكم سام مثير للدهشة... فالقرآن كتاب الكتب، وإنى أعتقد هذا كما يعتقده كل مسلم... وأنا كلما قرأت القرآن شعرت أن روحى تهتز داخل جسمى).

ولما بلغ غوته السبعين من عمره أعلن على الملأ أنه يعتزم أن يحتفل فى خشوع بليلة القدر التى أنزل فيها القرآن على النبى محمد، ولما أبصر غوته ريشة طاووس بين صفحات القرآن هتف: (مرحبًا بك فى هذا المكان المقدس، أغلى كنز فى الأرض)[2].

وفى كتابه (الديوان الشرقى للشاعر الغربى) يقول غوته: (هاجر إلى الشرق فى طهره وصفائه، حيث الطهر والصدق والنقاء، ولتتلقى كلمة الحق منزلة من الله بلسان أهل الأرض)، ويقول: (القرآن ليس كلام البشر، فإذا أنكرنا كونه من الله، فمعناه أننا اعتبرنا محمداً هو الإله)[3].

وتقول المستشرقة الألمانية أنا ماريا شميل، فى مقدمتها لكتاب (الإسلام كبديل) لمراد هوفمان: (القرآن هو كلمة الله، موحاة بلسان عربى مبين، وترجمته لن تتجاوز المستوى السطحى، فمن ذا الذى يستطيع تصوير جمال كلمة الله بأى لغة).

ويقول الباحث الأمريكى مايكل هارت فى كتابه المعروف (المائة الأوائل): (لا يوجد فى تاريخ الرسالات كتاب بقى بحروفه كاملاً دون تحوير سوى القرآن).

ويقول المستشرق بودلى: (بين أيدينا كتاب فريد فى أصالته وفى سلامته، لم يُشكّ فى صحته كما أُنزل، وهذا الكتاب هو القرآن)[4].

ويقول بارتلمى هيلر: (لما وعد الله رسوله بالحفظ بقوله: ﴿...وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ... ﴿٦٧﴾﴾ [المائدة]، صرف النبى حراسه، والمرء لا يكذب على نفسه، فلو كان لهذا القرآن مصدر غير السماء لأبقى محمد على حراسته).

ويقول المستشرق (فون هامر) فى مقدمة ترجمته للقرآن: (القرآن ليس دستور الإسلام فحسب، وإنما هو ذروة البيان العربى، وأسلوب القرآن المدهش يشهد على أن القرآن هو وحى من الله، وأن محمداً قد نشر سلطانه بإعجاز الخطاب، فالكلمة لم يكن من الممكن أن تكون ثمرة قريحة بشرية).

ويقول د. بول شفارتسنا فى كتابه (القرآن دليل المسيحيين): (القرآن وحى من الله، لا يحده زمان، ومتضمن للحقيقة المركزة)[5].

ويقول البروفسور يوشيودى كوزان مدير مرصد طوكيو: (إن هذا القرآن يصف الكون من أعلى نقطة فى الوجود... إن الذى قال هذا القرآن يرى كل شىء فى هذا الكون، وكل شىء مكشوف أمامه).

وغير ذلك كثير..

---

(1) نقلاً عن (حتى الملائكة تسأل) د. جيفرى لانغ (206).

(2) نقلاً عن (جوته والعالم العربى) كاتارينا مومزن (177-188-261).

(3) البروفسورة نيبا أيوب، نقلاً عن (كيف نتعامل مع القرآن العظيم) د. يوسف القرضاوى (25).

(4) نقلاً عن (البحث عن الحقيقة) ص(522).

(5) نقلاً عن (يوميات مسلم ألمانى) لمراد هوفمان (122).

## 4 - المعجزة الكونية

قال رجل من الجمع: لقد سمعنا هذا، وأيقنا بما فى القرآن من نواحى الإعجاز الحسى.. فهل هناك غيره؟

قال عبد القادر: لقد كانت حياة رسول الله ﷺ مملوءة بالمعجزات والخوارق التى تبرهن على صدق نبوته.

ولكن هناك معجزة خاصة، ربما تقابل ما أتى به الأنبياء ـ عليهم السلام ـ من معجزات، باعتبارها جاءت لمقصد إثبات النبوة، فهى تقابل ناقة صالح عليه السلام، وعصا موسى عليه السلام، وغيرها من الآيات التى قصد بها إثبات النبوات.

قال رجل من الجمع: وغيرها من الخوارق؟

هنا نطق مستأجر بولس بحماقته المعهودة، وقال: إن صح أن هناك خوارق.

لم يعره عبد القادر أى اهتمام، بل التفت إلى السائل، وقال: أما غيرها من الخوارق، والتى كانت تجرى على يد النبى ﷺ كما تجرى العادات، فهى من إكرامات الله لنبيه ﷺ، أو من بركاته التى جعلها الله له، أو من الطاقات التى وهبها الله إياها لأجل الوظيفة التى كلف بها.

قال الرجل: فما هذه الآية العظيمة التى هى آية التحدى العظمى؟

قال عبد القادر: انشقاق القمر..

قاطعه بولس، وهو يضحك بقوة: ألا تعجبون ـ أيها الأفاضل ـ من قوله بأن من معجزات محمد انشقاق القمر؟ فكيف يحصل هذا، والقمر فى السماء، لا فى الأرض؟

قال عبد القادر: والله رب السماء والأرض، فكما يقيم الخوارق لأنبيائه فى الأرض، يقيمها لمن شاء منهم فى السماء.

قال بولس: فهل تراك تأتينا بالأسانيد الضعاف لإثباتها؟

قال عبد القادر: إن هذه المعجزة ثابتة بأدلة لا تكاد تحصى، فقد تواترت الأخبار بأن كفار مكة سألوا النبى ﷺ أن يريهم علامة تدل على صدق نبوته، فَأَرَاهُمُ الْقَمَرَ شِقَّتَيْنِ، حَتَّى رَأَوْا غار حِرَاءٍ بَيْنَهُمَا، وكان ذلك قبل الهجرة بخمس سنوات، فلما رأى الكفار ذلك قالوا: سحرنا محمد، ثم قالوا: انظروا ما يأتيكم به السفار، فجاء السفار من كل وجه فأخبروهم بذلك..

ففى الحديث عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ وغيره: اجتمع المشركون على عهد رسول الله ﷺ منهم الوليد بن المغيرة وأبو جهل بن هشام والعاصى بن وائل والأسود بن حبر يغوث والأسود بن عبد المطلب والنضر بن الحارث ونظراؤهم فسألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية، وقالوا: إن كنت صادقا فشق لنا القمر فرقتين نصفا على أبى قبيس ونصفا على قعيقعان ـ وفى لفظ: حتى راوحوا من بينهما قدر ما بين العصر إلى الليل ـ فقال رسول الله ﷺ: (اشهدوا)، فنظر الكفار ثم مالوا بأبصارهم فمحوها، ثم أعادوا النظر، فنظروا، ثم مسحوا أعينهم، ثم نظروا فقالوا: سحر محمد أعيننا، فقال بعضهم لبعض: لئن كان سحرنا، فإنه لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم، فانظروا إلى السفار، فإن أخبروكم أنهم رأوا مثل ما رأيتم، فقد صدق، فكانوا يلتقون الركب، فيخبرونهم، أنهم رأوا مثل ما رأوا، فيكذبونهم[1].

(1) رواه أحمد والشيخان والبيهقى وأبو نعيم من طرق عن ابن عمر، ورواه الشيخان والبيهقى عن جبير بن مطعم ورواه أحمد والترمذى وابن جرير والحاكم والبيهقى عن حذيفة بن اليمان ورواه ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وأبو نعيم ببعض هذه القصة عن ابن عباس ورواه أحمد والشيخان وابن جرير وأبو نعيم من طرق وأنس بن مالك ورواه أحمد والشيخان وأبو نعيم من طرق متقاربة المعنى.

بل إن القرآن الكريم ذكر هذه الحادثة العظيمة، فقال: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ① وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ② وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ③﴾ [القمر].

قال ابن عبد البر: قد روى هذا الحديث جماعة كبيرة من الصحابة[1]، وروى ذلك عنهم أمثالهم من التابعين، ثم نقله عنهم الجَمُّ الغفير إلى أن انتهى إلينا، ويؤيد ذلك بالآية الكريمة، فلم يبق لاستبعاد من استبعد وقوعه عذر.

ثم إن ذلك لو لم يحصل لتشكك المسلمون فى دينهم وخرجوا منه، ولقال الكفار: إن محمدًا يكذب علينا، فما انشق القمر، ولا رأينا شيئًا من ذلك، ولكن الذى حدث زاد المؤمنين إيمانًا، وتحير الكافرون أمام هذه المعجزة التى لم يملكوا سوى أن يفسروها بأنها سحر مستمر.

بل إن التاريخ سجل هذه الحادثة، ففى الهند، وفى عهد ملك من ملوكهم، وهو (جاكرواتى فرماس) ورد أنه شاهد حادثة انشقاق القمر، فسجلت إحدى المخطوطات التاريخية الهندية ما يلى: (شاهد ملك ما جبار (مالابار) بالهند (جاكرواتى فرماس) انشقاق القمر؛ الذى وقع لمحمد، وعلم عند استفساره عن انشقاق القمر بأن هناك نبوة عن مجىء رسول من جزيرة العرب، وحينها عين ابنه خليفة له، وانطلق لملاقاته. وقد اعتنق الإسلام على يد النبى، وعندما عاد إلى وطنه - بناءً على توجيهات النبى - وتوفى فى ميناء ظفار) وهذه المعلومات فى مخطوطة هندية محفوظة فى مكتبة دائرة الهند تحتوى على عدة تفصيلات أخرى عن (جاكرواتى فرماس)[2].

وقد جاء فى كتب الحديث ذكر الملك الهندى الذى وصل إلى النبى ﷺ، فعن أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه قال: ثم أهدى ملك الهند إلى رسول الله ﷺ جرة فيها زنجبيل، فأطعم أصحابه قطعة قطعة، وأطعمنى منها قطعة، قال الحاكم: ولم أحفظ فى أكل رسول الله ﷺ الزنجبيل سواه[3].

وقد ذكرت الجرائد الأجنبية مقالة عربتها جريدة الإنسان العربية التى كانت تطبع بالأستانة حاصلها أنه فى ممالك الصين على بناء قديم مكتوب عليه: إنه بنى عام كذا الذى وقع فيه حادث سماوى عظيم، وهو انشقاق القمر نصفين، فحرر الحساب، فوافق سنة انشقاقه لرسول الله ﷺ.

ابتسم بولس ابتسامة سخرية، وقال: هل سمعتم - أيها الجمع المبارك - بهذه الأعجوبة.. إن هذا لو حصل لأطبق أهل الأرض جميعا على ذكره، أم أن أعين أهل الأرض كانت مسدودة ذلك الحين؟

قال عبد القادر: سأرد عليك هذه الشبهة بوجوه من النقل والعقل[4].. من النقل الذى تأخذ به، ومن العقل الذى نتفق جميعا فى العمل بمقتضاه.

**إجابات نقلية:**

ولنبدأ بالنقل.. وأنا لن أنقل إلا من كتابك المقدس الذى تؤمن به، وتسلم له، بل تعتبر مرتدا إن كفرت بشىء ورد فيه.

---

(1) راجع هذه الأحاديث (فتح البارى 6/ 631 باب 27 من كتاب المناقب حديث 3636، 3637، 3638، و7/ 182 باب 36 من كتاب مناقب الأنصار حديث 3868، 3869، 3870 و3871 و8/ 617 باب 1 من كتاب التفسير حديث رقم 4864، 65، 66، 67، 68 وصحيح مسلم 17/ 143-145 فى كتاب صفة القيامة والجنة والنار، وسنن الترمذى 9/ 30 فى أبواب الفتن، ودلائل النبوة للأصبهانى 1/ 367 حديث 207-212، ودلائل النبوة للبيهقى 2/ 262 وحدائق الأنوار للشيبانى والسيرة النبوية للذهبى والبداية والنهاية والشفاء، والوفا. وغيره الكثير.

(2) المخطوطة الهندية موجودة فى مكتبة مكتب دائرة الهند بلندن التى تحمل رقم المرجع: عربى 2807، 152 إلى 173 وقد اقتبسها حميد الله فى كتابه محمد رسول الله.

(3) مستدرك الحاكم، كتاب الأطعمة: ج4 ص150.

(4) انظر هذه الردود فى كتاب (إظهار الحق) لرحمة الله الهندى.

فأول ما يستوقفك في هذا حادثة طوفان نوح ﷺ، فقد امتد ـ بحسب الكتاب المقدس ـ إلى سنة[1]، وفني فيه كل ذي حياة من الطيور والبهائم والحشرات والإنسان غير أهل السفينة، وما نجا من الإنسان غير ثمانية أشخاص على ما هو مصرح به في الإصحاح السابع والثامن من سفر التكوين.

وقد ذكر بطرس في رسالته الأولى (3/20) الطوفان فقال: (في أيام نوح إذ كان الفلك يبنى الذي فيه خلص قليلون أي ثمانية أنفس بالماء).

وفي (الرسالة الثانية:2/5): (ولم يشفق على العالم القديم بل إنما حفظ نوحًا ثامنًا كارزا للبر إذ جلب طوفانًا على عالم الفجار).

وما مضت على هذه الحادثة مدة إلى هذا اليوم ـ على زعمكم[2]ـ إلا أربعة آلاف وبعض مئات من السنين، ولا يوجد هذا الحال في تواريخ الهند وكتبهم، وهم ينكرون هذا الأمر إنكارًا بليغًا، ويستهزئ به علماؤهم كافة، ويقولون: لو قطع النظر عن الزمان السالف، ونظر إلى زمان كرشن الأوتار، الذي كان قبل هذا اليوم بمقدار أربعة آلاف وتسعمائة وستين سنة على شهادة كتبهم، لا مجال لصحة هذه الحادثة العامة لأن الأمصار العظيمة الكثيرة من ذلك العهد إلى هذا الحين مغمورة، وثبت بشهادة تواريخهم أنه يوجد من ذلك العهد إلى هذا الحين في إقليم الهند ملايين كثيرة في كل زمان من الأزمنة، ويدعون أن حال زمان كرشن لوجود كثرة التواريخ كحال أمس.

وقد ذكر ابن خلدون ذلك، فقال: (واعلم أن الفرس والهند لا يعرفون الطوفان وبعض الفرس يقولون كان ببابل فقط).

وقال المقريزي في كتابه (المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار): (الفرس وسائر المجوس والكلدانيون أهل بابل والهند وأهل الصين وأصناف الأمم المشرقية ينكرون الطوفان، وأقر به بعض الفرس لكنهم قالوا لم يكن الطوفان بسوى الشام والمغرب، ولم يعم العمران كله ولا غرق إلا بعض الناس، ولم يجاوز عقبة حلوان، ولا بلغ إلى ممالك المشرق).

هذا حادث من الحوادث الكبرى التي وردت في الكتاب المقدس، ولكن التاريخ يكذبها، والواقع يكذبها.

هناك حادث آخر، عظيم الأهمية، ومع ذلك لم يذكر في التاريخ..

---

(1) وردت هذه القصة في الإصحاحات من السادس إلى التاسع من سفر التكوين، وظاهرة التحريف تبدو فيها ظاهرة للعيان، فقد جاء في (تكوين 6: 1 ـ 22): «رأى الرب أن شر الإنسان قد كثر في الأرض، فحزن أنه عمل الإنسان في الأرض وتأسف في قلبه، وعزم على أن يمحو الإنسان والبهائم والدواب والطيور عن وجه الأرض، وأن يستثني من ذلك نوحًا لأنه كان رجلاً بارًا كاملاً في أجياله، وسار نوح مع الله».

وتزداد شرور الناس، وتمتلئ الأرض ظلمًا، ويقرر الرب نهاية البشرية، ويحيط نوحًا علمًا بما نواه، آمرًا إياه بأن يصنع فلكًا ضخمًا، وأن يكون طلاؤها بالقار والقطران من داخل ومن خارج، حتى لا يتسرب إليها الماء، وأن يدخل فيها اثنين من كل ذي جسد حي، ذكرًا وأنثى، فضلاً عن امرأته وبنيه ونساء بيته، هذا إلى جانب طعام يكفي من في الفلك وما فيه..

ويكرر الرب أوامره في الإصحاح التالي فيأمره أن يدخل الفلك ومن معه ذلك لأن الرب قرر أن يغرق الأرض ومن عليها بعد سبعة أيام ذلك عن طريق مطر يسقط على الأرض أربعين يومًا وأربعين ليلة، ويصدع نوح بأمر ربه فيأوي إلى السفينة ومن معه وأهله، ثم انفجرت كل ينابيع الغمر العظيم وانفتحت طاقات السماء، واستمر الطوفان أربعين يومًا على الأرض.

وتكاثرت المياه ورفعت الفلك عن الأرض وتغطت المياه، ومات كل جد كان يدب على الأرض، من الناس، والطيور والبهائم والوحوش ويبقى نوح والذين معه في الفلك حتى استقرت الفلك على جبل أرارات.

(2) وعلى زعم المفسرين والكاتبين في قصص الأنبياء الناقلين عن اليهود والنصارى، مع أن النصوص القرآنية لم تحدد تاريخا لذلك، ومع أن النبي ﷺ اخبر عن الكذب الواقع في هذا الباب، عندما ذكر كذب النسابين.

إنه ما ورد في (يوشع:10/12-13): (حينئذ كلم يشوع الرب يوم أسلم الرب الأموريين أمام بني إسرائيل وقال أمام عيون إسرائيل: يا شمس دومي على جبعون، ويا قمر على وادي إيلون فدامت الشمس، ووقف القمر حتى انتقم الشعب من أعدائه. أليس هذا مكتوبا في سفر ياشر. فوقفت الشمس في كبد السماء ولم تعجل للغروب نحو يوم كامل).

وهذه الحادثة عظيمة، وقد كانت ـ على زعمكم ـ قبل ميلاد المسيح بألف وأربعمائة وخمسين سنة.. فلو وقعت لظهرت على الكل، ولا يمنع السحاب علمه أيضًا، وهو ظاهر، ولا اختلاف في الآفاق، لأنا لو فرضنا أن بعض الأمكنة كان فيها الليل في هذا الوقت لأجل الاختلاف، فلا بد أن تظهر لامتداد ليلهم بقدر أربع وعشرين ساعة.

وهذه الحادثة العظيمة ليست مكتوبة في كتب تواريخ أهل الهند ولا أهل الصين ولا الفرس، بل إن علماء الهند يجمعون على تكذيبها، وهم يجزمون بأنها غلط يقينًا.

بالإضافة إلى هذا، فإن هناك اعتراضات كثيرة عليها:

أما الاعتراض الأول، فقول يوشع: أيتها الشمس لا تتحركي، وقوله: فوقفت الشمس، يدلان على أن الشمس متحركة والأرض ساكنة، وإلا كان عليه أن يقول أيتها الأرض لا تتحركي، فوقفت الأرض، وهذا الأمر باطل بحكم علم الفلك[1].

---

(1) وقد ورد في هذا حديث يذكر أن الشمس ردت للنبي ﷺ بعد غيابها، ولا نرى صحة كل ما ورد في هذا الباب من الأحاديث، لأن هذا من الآيات العظام التي تستدعي النقل عن طريق التواتر، ولا تكفي فيها أسانيد الآحاد.

قال القاضي عياض: خرج الطحاوي في مشكل الحديث، عن أسماء بنت عميس من طريقين أن النبي ﷺ كان يوحى إليه، ورأسه في حجر علي فلم يصل العصر حتى غربت الشمس، فقال النبي ﷺ: أصليت يا علي؟ قال: لا. فقال: اللهم إنه كان في طاعتك وطاعة رسولك، فاردد عليه الشمس.

قالت أسماء: فرأيتها غربت، ثم طلعت بعد ما غربت، ووقفت على الجبال والأرض، وذلك بالصهباء في خيبر.

قال: وهذان الحديثان ثابتان ورواتهما ثقات.

وحكى الطحاوي أن أحمد بن صالح كان يقول: لا ينبغي لمن يكون سبيله العلم التخلف عن حفظ حديث أسماء، لأنه من علامات النبوة.

وفي حديث آخر عن يونس بن بكير في زيادة المغازي في روايته عن ابن إسحاق: لما أسرى برسول الله ﷺ، وأخبر قومه بالرفقة والعلامة التي في العير قالوا: متى تجيء؟ قال: يوم الأربعاء، فلما كان ذلك اليوم أشرفت قريش ينظرون وقد ولى النهار ولم تجئ؟ فدعا رسول الله ﷺ، فزيد له في النهار ساعة، وحبست عليه الشمس.

وهذا الحديث ذكره ابن الجوزي في الموضوعات وقال: إنه موضوع بلا شك. وفي سنده أحمد بن داود وهو متروك الحديث كذاب، كما قال الدارقطني، وقال ابن حبان: كان يضع الحديث.

قال ابن الجوزي: وقد روى هذا الحديث ابن شاهين فذكره ثم قال: حديث باطل، قال: ومن تغفل واضعه أنه نظر إلى صورة فضيلة، ولم يلمح عدم الفائدة فيها، فإن صلاة العصر بغيبوبة الشمس تصير قضاءً، ورجوع الشمس لا يعيدها أداء.

وقد أفرد ابن تيمية تصنيفًا ذكر فيه الحديث بطرقه ورجاله وأنه موضوع، وقال أحمد: لا أصل له. وتبعه ابن الجوزي فأورده في الموضوعات.. ولكن قد صححه الطحاوي والقاضي عياض، وأخرجه ابن منده وابن شاهين من حديث أسماء بنت عميس، وابن مردويه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ومثل هذه الأحاديث ما ورد في حديث أبي هريرة: «غزا نبي من الأنبياء، فقال لقومه: لا يتبعني رجل ملك بضع امرأة، وهو يريد أن يبني بها ولم يبن بها، ولا أحد بنى بيوتًا ولم يرفع سقوفها، ولا أحد اشترى غنما أو خلفات، وهو ينتظر ولادها، فغزا، فدنا من القرية صلاة العصر، أو قريبًا من ذلك، فقال للشمس: إنك مأمورة وأنا مأمور، اللهم احبسها علينا، فحبست حتى فتح الله عليه، فجمع الغنائم فجاءت - يعني النار - لتأكلها فلم تطعمها، فقال: أن فيكم غلولاً، فليبايعني من كل قبيلة رجل، فلزقت يد رجل بيده، فقال: فيكم الغلول، فلتبايعني قبيلتك، فلزقت يد رجلين أو ثلاثة بيده، فقال: فيكم الغلول، فجاءوا برأس مثل رأس بقرة من الذهب، فوضعوها، فجاءت النار فأكلتها، ثم أحل الله لنا الغنائم، رأى ضعفنا وعجزنا، فأحلها لنا». =

أما الاعتراض الثانى، فإن قوله (فوقفت الشمس فى كبد السماء) يدل على أن هذا الوقت كان نصف النهار، وهو غير صحيح لوجوه:

أولها أن بنى إسرائيل ـ على حسب الكتاب المقدس ـ كانوا قد قتلوا من المخالفين ألوفًا وهزموهم، ولما هربوا أمطر الرب عليهم حجارة كبارًا من السماء، وكان الذين ماتوا بالحجارة أكثرمن الذين قتلهم بنو إسرائيل، وهذه الأمور حصلت قبل نصف النهار على ما هو مصرح به فى الباب، فلا وجه لاضطراب يوشع فى هذا الوقت، لأن المظفرين من بنى إسرائيل كانوا كثيرين جدًا، والباقون من المخالفين قليلين جداً، وكان الباقى من النهار مقدار النصف، فقتلهم قبل الغروب كان فى غاية السهولة.

وثانيها أن الوقت لما كان نصف النهار، فكيف رأوا القمر فى هذا الوقت بالإضافة إلى أن توقيفه لا معنى له.

ثالثها أن الوقت لما كان نصف النهار، وكان بنو إسرائيل مشتغلين بالمحاربة والاضطراب، وما كان لهم شك فى المقدار الباقى من النهار، وما كانت الساعات عندهم فى ذلك الزمان، فكيف علموا أن الشمس قامت على دائرة نصف النهار بمقدار اثنتى عشرة ساعة، وما مالت إلى هذه المدة إلى جانب المغرب!؟

سكت قليلا، ثم قال: هناك حادث آخر لا يقل عن هذين أهمية، ومع ذلك لم يذكره أهل التاريخ.

لقد جاء فى سفر أشعيا ذكر لرجوع الشمس بمعجزة أشعيا، فقد جاء فى (أشعيا: 38/ 8): (فرجعت الشمس عشر درجات فى المراقى التى كانت قد انحدرت).

وهذه الحادثة عظيمة، ولما كانت فى النهار فلا بد أن تظهر لأكثر أهل العالم، وكانت قبل ميلاد المسيح بسبعمائة وثلاث عشرة سنة شمسية، ومع ذلك، فلا نراها مكتوبة فى تواريخ أهل الهند والصين والفرس.

بالإضافة إلى أنه يفهم منها حركة الشمس وسكون الأرض، وهو باطل بحسب الحقائق الفلكية.

ومع ذلك، فلو قطعنا النظر عن هذا، فإن ههنا ثلاثة احتمالات: إما أن النهار رجع فقط بمقدار عشر درجات، أو الشمس رجعت فى السماء بهذا المقدار كما هو الظاهر، أو رجعت حركة الأرض من المشرق إلى المغرب بهذا المقدار، وهذه الاحتمالات الثلاثة باطلة بحسب علم الفلك.

سكت قليلا، ثم قال: لقد كتب متى ومرقس ولوقا فى بيان صلب المسيح، أن الظلمة كانت على الأرض كلها من الساعة السادسة إلى الساعة التاسعة، وهذه الحادثة لما كانت فى النهار على الأرض كلها وممتدة إلى أربع ساعات، فلا بد أن لا تخفى على أكثر أهل العالم، ولكن مع ذلك لا يوجد ذكرها فى تواريخ أهل الهند والصين والفرس.

بالإضافة إلى هذا، فإن متى كتب فى الإصحاح الثانى قصة قتل الأطفال، ولم يكتبها غيره من الإنجيليين والمؤرخين.

---

= فهذا الحديث مع كونه فى الصحيح إلا أنه ـ على الصحيح ـ من روايات أبى هريرة عن كعب الأحبار وغيره من بنى إسرائيل.

ومع ذلك، فلا ينبغى التشدد بالنكير على من رواها أو رأى صحتها، لأنه قد ذهب من علماء الحديث إلى قبول هذه الروايات.

بالإضافة إلى هذا كله، فقد ذكر متى ولوقا ومرقس انشقاق السموات، ففى مرقس: (فساعة طلع من الماء رأى السماوات قد انشقت والروح مثل حمامة نازلاً عليه، وكان صوت من السماوات (أنت ابنى الحبيب الذى به سررت)).

وهذه الحادثة العظيمة لما كانت فى النهار، فلا بد أن لا تخفى على أكثر أهل العالم، ومثلها رؤية الحمامة وسماع الصوت لا يختص بواحد دون واحد من الحاضرين، ولم يكتب أحد هذه الأمور غير الإنجيليين.

وقد قال (جان كلارك) مستهزئًا بهذه الحادثة: (إن متى أبقانا محرومين من الاطلاع العظيم، وهو أنه لم يصرح أن السماوات لما انفتحت هل انفتحت أبوابها الكبيرة؟ أم المتوسطة؟ أم الصغيرة؟ وهل كانت هذه الأبواب فى هذا الجانب من الشمس أو فى ذلك الجانب؟ ولأجل هذا السهو الذى صدر عن متى قسوسنا يضربون الرؤوس متحيرين فى تعيين الجانب).

ثم قال: (وما أخبرنا أيضًا أن هذه الحمامة هل أخذها أحد وحبسها فى القفص، أم رأوها راجعة إلى جانب السماء. ولو رأوها راجعة ففى هذه الصورة لا بد أن تبقى أبواب السماوات مفتوحة إلى هذه المدة، فلا بد أنهم رأوا باطن السماء بوجه حسن لأنه لا يعلم أن بوابًا كان عليها قبل وصول بطرس هناك، لعل هذه الحمامة كانت جنية).

التفت إلى بولس، وقال: لا ينبغى لمن كان كتابه المقدس يحمل كل هذه النصوص أن يعترض على شىء، أم أنك تحمل عقلا إسرائيليا متعصبا يرى أن الله يغير قوانين الفلك جميعا لأجل أنبياء بنى إسرائيل، ولا يفعل شيئا كهذا لنبى المسلمين!؟

**إجابات عقلية:**

ثم التفت إلى الجمع، وقال: ذلك ما ذكرته نصوصهم، أما العقل السليم، فلا يعترض على هذه الحادثة بعدم تسجيلها لوجوه:

**أولها** أن انشقاق القمر كان فى الليل، وهو وقت الغفلة والنوم والسكون عن المشى والتردد فى الطرق سيما فى موسم البرد، فإن الناس يكونون مستريحين فى داخل البيوت وزواياها مغلقين أبوابها، فلا يكادون يعرفون من أمور السماء شيئًا إلا من انتظره واعتنى به، ألا ترون إلى خسوف القمر فإنه يكون كثيراً، وأكثر الناس لا يحصل لهم العلم به حتى يخبرهم أحد به.

**وثانيها** أن هذه الحادثة ما كانت ممتدة إلى زمان كثير، فما كان للناظر أن يذهب إلى الغير الذى هو بعيد عنه وينبهه، أو يوقظ النائم ويريه.

**وثالثها** أنها لم تكن متوقع الحصول لأهل العلم لينظروها فى وقتها ويروها كما أنهم يرون هلال رمضان والعيدين والكسوف والخسوف فى أوقاتها غالبًا لأجل كونها متوقعة الحصول، ولا يكون نظر كل واحد إلى السماء فى كل جزء من أجزاء النهار أيضًا فضلاً عن الليل. فلذلك رأى الذين كانوا طالبين لهذه المعجزة، وكذلك من وقع نظره فى هذا الوقت إلى السماء، كما جاء فى الأحاديث الصحيحة أن الكفار لما رأوها قالوا: سحركم ابن أبى كبشة فقال أبو جهل: هذا سحر فابعثوا إلى أهل الآفاق حتى تنظروا رأوا ذلك أم لا؟ فأخبر أهل آفاق مكة أنهم رأوه منشقًا، وذلك لأن العرب يسافرون فى الليل غالبًا، ويقيمون بالنهار فقالوا: هذا سحر مستمر.

**ورابعها** أنه قد يحول فى بعض الأمكنة وفى بعض الأوقات بين الرائى والقمر، سحاب غليظ أو جبل، حتى إن أهل البلاد الشمالية فى موسم نزول الثلج والمطر لا يرون الشمس إلى أيام، فضلاً عن القمر.

وخامسها أن القمر لاختلاف مطالعه ليس فى حد واحد لجميع أهل الأرض، فقد يطلع على قوم قبل أن يطلع على آخرين، فيظهر فى بعض الآفاق وبعض المنازل على أهل بعض البلاد دون بعض، ولذلك نجد الخسوف فى بعض البلاد دون بعض، ونجده فى بعض البلاد باعتبار بعض أجزاء القمر، وفى بعضها مستوفيًا أطرافه كلها، وفى بعضها لا يعرفها إلا الحاذقون فى علم الفلك، وكثيرًا ما يحدث الثقات من العلماء بعجائب يشاهدونها من أنوار ظاهرة ونجوم طالعة عظام تظهر فى بعض الأوقات أو الساعات من الليل، ولا علم لأحد بها من غيرهم.

وسادسها أنه قلما يقع أن يبلغ عدد ناظرى أمثال هذه الحوادث النادرة الوقوع إلى حد يفيد اليقين، وإخبار بعض العوام لا يكون معتبراً عند المؤرخين فى الوقائع العظيمة، نعم يعتبر إخبارهم فى الحوادث التى يبقى أثرها بعد وقوعها، كالريح الشديدة، ونزول الثلج الكثير، والبرد، فيجوز أن مؤرخى بعض الديار لم يعتبروا أخبار بعض العوام فى هذه الحادثة، وحملوه على تخطئة أبصار المخبرين العوام، وظنوا أنها تكون نحواً من الخسوف.

وسابعها أن المؤرخين كثيراً ما يكتبون الحوادث الأرضية ولا يتعرضون للحوادث السماوية إلا قليلاً سيما المؤرخين الأوائل، بالإضافة إلى انتشار الجهل فى زمن النبى ﷺ فى أكثر مناطق العالم، وخاصة أوروبا.

وثامنها أن المنكر إذا علم أن الأمر الفلانى معجزة أو كرامة للشخص الذى ينكره تصدى لإخفائها، ولا يرضى بذكرها وكتابتها غالبًا.

ما وصل بعبد القادر الحديث إلى هذا الموضع حتى قام رجل من الجمع، وقال ـ مشيرا إلى عبد القادر ـ: لقد تتبعت حديث هذا الرجل من بدايته، وقد سرنى المنطق العلمى الذى يتحدث به، وأريد أن أضيف إلى ما قال شيئا لست متأكدا تمام التأكد منه، ولكنى أحسبه بداية لحقيقة سوف تبرزها الأيام وتؤكدها..

أقول ذلك جازما، بل متحديا، مع أنى لم أكن فى يوم من الأيام من أهل هذا الدين، بل لم يكن لى اعتناء بالدين أصلا.. بل كنت من المناهضين للدين.. ولكنى مع ذلك أشعر أنى خائن إن لم أقل هذا.

نظر إلى بولس، وقال: لا تتسرع بالرد على، ولا على هذا الرجل.. أنا من المهتمين بعلم الفلك، وبأخبار الفضاء، وقد كان لى شغف بتتبع صعود الإنسان إلى القمر.

وقد سمعت ـ فيما سمعت ـ من أن رواد الفضاء رأوا بأعينهم شقا عظيما فى القمر، لا يزال العلم عاجزا عن تفسيره، بل قد حصلت على صورة من ذلك الشق، لو شئتكم لأريتها لكم[1].

---

(1) ذكر الدكتور زغلول النجار فى مقال له عن انشقاق القمر أنه كان يتحدث عن هذه المعجزة فى محاضرة بكلية الطب جامعة كارديف ببريطانيا، وبعد انتهاء حديثه وقف رجل بريطانى من الحضور، واستأذن فى أن يضيف شيئًا إلى إجابتى فأذنت له، ثم بدأ بتعريف نفسه على أن اسمه داود موسى بيدكوك، وأنه مسلم، ويرأس الحزب الإسلامى البريطانى.

ثم حكى (بيدكوك) قصته مع انشقاق القمر فقال: إن هذه الآيات فى مطلع سورة القمر كانت هى السبب فى إسلامه فى أواخر السبعينيات من القرن العشرين؛ لأنه يبحث مستفيض فى الأديان أهداه أحد المسلمين ترجمة لمعانى القرآن الكريم، وأنه عند فتح هذه الترجمة لأول مرة فوجئ بسورة القمر، فقرأ الآيات فى مطلعها، ولم يكد يصدق أن القمر قد انشق ثم التحم فأغلق الترجمة وانصرف عنها، ثم شاء الله تعالى أن يشاهد على شاشة التلفاز البريطانى (B.B.C) برنامجاً عن رحلات الفضاء استضاف فيه المذيع البريطانى المعروف جيمس بيرك (James Burke) ثلاثة من علماء الفضاء الأمريكيين وذلك فى سنة 1978 م، وفى أثناء الحوار كان المذيع ينتقد الإسراف على رحلات الفضاء بإنفاق ملايين الدولارات والأرض يتضور فيها ملايين البشر من الجوع، والمرض، والجهل، =

قال الجمع ـ بصوت واحد ـ: وكيف لا نشاء؟

فأخرج من محفظته صورة كبيرة تمثل شقا عظيما فى القمر..

رآها الجمع، وعلى أعينهم الدهشة، فقال: هذه البداية.. ولو أن البشر صدقوا فى البحث عن الحقيقة، فسيجدونها أقرب إليهم من أنفسهم.. ولكنى لا أحسبهم إلا سيكتمون الحقائق، بل سيحاولون السخرية منها، كما ذكر هذا الرجل الفاضل.

---

=والتخلف، وكان جواب العلماء أنه بفضل هذه الرحلات تم تطوير عدد من التقنيات المهمة التى تطبق فى مجالات التشخيص والعلاج الطبى والصناعة، والزراعة، وغيرها، وفى أثناء هذا الحوار جاء ذكر أول رحلة إنزال رجل على سطح القمر، وقد تكلفت أكثر من مائة مليار دولار، وجلس المذيع يتابع عتابه على هذا الإسراف، قرر العلماء بأن هذه الرحلة قد أثبتت لهم حقيقة لو أنفقوا أضعاف هذا المبلغ لإقناع الناس بها ما صدقهم أحد، فسأل المذيع: ما هى هذه الحقيقة؟ فأجابوا: أن هذا القمر قد سبق له أن انشق ثم التحم، وأن آثار محسوسة تؤيد ذلك الحدث قد وجدت على سطح القمر وامتدت إلى داخله.

ويضيف بيدكوك: حينما سمعت ذلك قفزت من الكرسى الذى كنت أجلس عليه أمام التلفاز، وقلت: معجزة تحدث لمحمد قبل ألف وأربعمائة سنة، ويرويها القرآن بهذا التفصيل العجيب يسخر الله من يثبتها للمسلمين فى عصر العلوم والتقنية الذى نعيه، وينفق هذا المبلغ الكبير، لابد وأن يكون هذا الدين حقًّا، وعدت إلى ترجمة معانى القرآن الكريم أقرؤها بشغف شديد، وكانت آيات افتتاح سورة القمر هى السبب المباشر لقبولى الإسلام دينًا.

# 5- معجزات أرضية

فى ذلك الموقف الحرج الذى وقع فيه بولس، والذى جعله يصمت صمتا مطبقا، بل يكاد يهم بالانصراف تدخل أجيره الأحمق كعادته، وقال: ما لنا وللقمر.. نحن على الأرض.. ونريد معجزات أرضية، وأنت إلى الآن تحلق بنا إما فيما لا نفهمه من معجزات القرآن، أو فيما لا نستطيع الوصول إليه من القضاء.

**إحياء الموتى:**

قال عبد القادر: فنعم تريد أن أحدثك؟

قال الأجير: لقد أحيا المسيح موتى، ولكن محمدا لم يحيى ميتا واحدا.

قال عبد القادر: ألا يكفى إحياؤه لأجيال من الناس كانوا غارقين فى الجاهلية والجهل.

قال الأجير: نحن نريد الخوارق.. ولا نريد غير الخوارق.. فهذه مدرسة الخوارق.

قال عبد القادر: أما إن صممت على ذلك، فسأذكر لك ما روى عن نبينا فى هذا، وهو إن لم يرق فى قوة ثبوته إلى ما رقى إليه انشقاق القمر، فهو لا يقل عما ورد عن المسيح ﷺ من معجزات.

فمما يروى فى ذلك عن أنس ـ رضى الله عنه ـ قال: كنا فى الصفة عند رسول الله ﷺ فأتته عجوز عمياء مهاجرة ومعها ابن لها قد بلغ، فلم يلبث أن أصابه وباء المدينة، فمرض أياما، ثم قبض، فغمضه النبى ﷺ وأمر بجهازه، فلما أردنا أن نغسله، قال: (يا أنس، ائت أمه فأعلمها)، قال: فأعلمتها فجاءت حتى جلست عند قدميه، فأخذت بهما، ثم قالت: اللهم إنى أسلمت لك طوعا، وخلعت الأوثان زهدا، وهاجرت إليك رغبة، اللهم لا تشمت بى عبدة الأوثان، ولا تحملنى من هذه المصيبة ما لا طاقة لى بحملها، قال: فوالله، ما انقضى كلامها حتى حرك قدميه، وألقى الثوب عن وجهه، وطعم وطعمنا معه، وعاش حتى قبض النبى ﷺ وحتى هلكت أمه[1].

وفى رواية قال: عدنا شابا من الأنصار وعنده أم له عجوز، فما برحنا أن فاض يعنى مات ومددنا على وجهه الثوب، وقلنا لأمه: يا هذه، احتسبى مصابك عند الله، قالت: أمات ابنى؟ قلنا: نعم، قالت: اللهم إن كنت تعلم أنى هاجرت إليك، وإلى نبيك رجاء أن تعينني عند كل شدة، فلا تحمل على هذه المصيبة اليوم، قال أنس: فوالله، ما برحت حتى كشف الثوب عن وجهه وطعم وطعمنا معه[2].

وفى حديث آخر عن كعب بن مالك قال: أتى جابر بن عبد الله رسول الله ﷺ فرأى وجهه متغيرا فرجع إلى امرأته، فقال: قد رأيت وجه رسول الله ﷺ متغيرا، وما أحسبه الا متغيرا من الجوع..

فذكر حديثا طويلا فى تكثيره ﷺ الأطعمة، ثم زاد فقال: فكان رسول الله ﷺ يقول: (كلوا ولا تكسروا عظما)، ثم جمع العظام فى وسط الجفنة، فوضع يده عليها، ثم تكلم بكلام لم أسمعه، فإذا الشاة قد قامت تنفض أذنيها، فقال: (خذ شاتك يا جابر بارك الله لك)، قال: فأخذتها ومضيت، وإنها لتنازعنى أذنها حتى أتيت المنزل، فقالت المرأة: ما هذا يا جابر، فقلت: والله، هذه شاتنا التى ذبحناها لرسول الله ﷺ دعا الله تعالى فأحياها لنا، فقالت: أشهد أنه رسول الله ﷺ[3].

---

(1) رواه ابن أبى الدنيا وابو نعيم والبيهقى.

(2) رواه البيهقى.

(3) رواه أبو نعيم، ورواه الإمام الحافظ أبو عبد الرحمن محمد بن المنذر فى كتاب العجائب والغرائب.

وفي حديث آخر عن ضمرة قال: كان لرجل غنم، وكان له ابن يأتي النبي ﷺ بقدح من لبن إذا حلب، ثم إن النبي ﷺ افتقده فجاء أبوه، فـأخبره أن ابنه هلك، فقال النبي ﷺ: (أتريد أن أدعو الله تعالى أن ينشره لك أو تصبر، فـيؤخره لك إلى يوم القيامة، فيأتيك فـيأخذ بيدك فينطلق بك الى الجنة، فتدخل من اى أبواب الجنة شئت؟)، فقال الرجل: من لي بذلك يا رسول الله؟ قال: (هو لك ولكل مؤمن)[1].

وفي حديث آخر عن أبي سـبرة النخعي قال: أقبل رجل من اليمن، فلمـا كان ببعض الطريق نفق حمـاره فقام وتوضـأ وصلى ركعـتين، ثم قال: اللهم إني جـئت مجاهـدا في سبيلك، وابتـغاء مرضاتك، وأنا أشهـد أنك تحيي الموتى، وتبعث من في القبور لا تجـعل لأحد على اليوم منة، أطلب إليك أن تبعث حماري، فقام الحمار ينفض أذنيه[2].

زاد الشعبي: أنا رأيت الحمار يباع في الكناسة، فقال رجل من رهطه أبياتا منها:

ومنا الذي أحيا الإله حـــماره    وقد مات منه كل عضو ومفصل

قال الأجير: فأين ذكر محمد هنا؟

التفت عبـد القادر إلى بولس، وقال: ألستم تعـتبرون كل ما حصل بأيدي تلامـيذ المسيح من خوارق تبعا للمسيح؟

قال بولس: بلى.

قال عبد القادر: فكذلك نحن، نعتبر كل كرامة لولي إثبات جديد لمعجزات محمد ﷺ.

ثم التفت إلى أجير بولس، وقـال: ومع ذلك، فسأذكـر لك ما هو أعظم من إحـياء الميت، وبأسانيد لا شك في صحتها.

فقد روى عن جمع مـن الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ أن خيبر لما فـتحت أهدت يهودية للنبي ﷺ شاة مصلية، فأخذ النبي ﷺ الذراع، فلما بسط القوم أيديهم، قال: (كفوا أيديكم، فإن عضوها يخبرني أنها مسمومة).

ودعا اليهودية، فقال: (أسممت هذه الشـاة؟)، قالت: من أخبرك؟ قال: (هذا العظم لساقها وهو في يده)، قالت: نعم، قال: (فـما حملك على هذا؟) قالت: قلت: إن كان نبـيا، فلا يضره، وأن الله سيطلعه علـيه، وإن لم يكن نبيا استـرحنا منه، فقال رسول الله ﷺ: (مـا كان الله ليسلطك علي)، فعفا عنها، ولم يعاقبها[3].

وفي حديث آخر عن ابن عـباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: أقبلت يوم بدر من قـتال المشركين وأنا جائع، ثم استـقبلتني امرأة يهـودية على رأسها جفنـة فيها جدي مـشوي، فقالت: الحـمد لله يا مـحـمـد، الذي سلمك، كنت نذرت لله إن سلمـك الله وقدمـت المدينة سـالما لأذبحن هذا الجـدي فلأشويـنه ولأحملنه إليك لتأكل منه، فـاستنطق الله تعالى الجدي، فـقال: يا محمـد لا تأكلني فإني مسموم[4].

---

(1) رواه أبو نعيم.

(2) رواه البيهقي وصححه.

(3) رواه البخاري ومسلم والبيـهقي وأبو نعيم عن أبي هريرة، والشيخان عن أنس، والإمام أحـمد وابن سعد وأبو نعيم عن ابن عباس، والدارمي والبيهقي عن جابر بن عبد الله، والبـيهقي بسند صحيح عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك، والطبـراني عن كعب بن مـالك، وابن سعد عن أبي سلمـة، والبزار وأبو نعـيم والحاكم عن أبي سعـيد الخدري.

(4) رواه أبو نعيم.

ففى هذه النصوص معجزات أعظم من معجزة إحياء الموتى من وجوه:

أولها: أنه إحياء جزء من الحيوان دون بقيته، وهذا معجز لو كان متصلا بالبدن.

وثانيها: أنه إحياء وحدة منفصلة عن بقية أجزاء ذلك الحيوان مع موت البقية.

وثالثها: أنه أعاد عليه الحياة مع الإدراك والعقل، ولم يكن هذا الحيوان يعقل فى حياته فصار جزؤه حيا يعقل.

ورابعها: أنه أقدره الله تعالى على النطق والكلام، ولم يكن الحيوان الذى هو جزؤه مما يتكلم.

وقد قال العلماء: وفى حلول الحياة والإدراك والعقل فى الحجر الذى كان يخاطب النبى ﷺ بالسلام ما هو أبلغ من حياة الحيوان فى الجملة، لأنه كان محلا للحياة فى وقت بخلاف هذا حيث لا حياة له بالكلية قبل ذلك، وكذلك تسليم الأحجار والمدر والشجر، وحنين الجذع.

بالإضافة إلى هذا، فقد وردت نصوص كثيرة فى سماع رسول الله ﷺ للموتى، ففى حديث من مرسل عبيد بن مرزوق قال: كانت امرأة بالمدينة تقم المسجد، فماتت، فلم يعلم بها النبى ﷺ فمر على قبرها فقال: (ما هذا القبر؟)، قالوا له: أم محجن. قال النبى ﷺ: (كانت تقم المسجد؟)، قالوا: نعم، فصف الناس، فصلى عليها، ثم قال: (أى العمل وجدت أفضل؟) قالوا: يا رسول الله، أتسمع ما تقول؟ قال: (ما أنتم بأسمع منها)، فذكر أنها أجا... قم[1] المسجد[2].

وفى غزوة بدر خاطب النبى ﷺ جثث المشركين أهل القليب، وأخبر عن سماعهم، ففى الحديث عن أبى طلحة وغيره من الصحابة: فلما كان ببدر اليوم الثالث أمر رسول الله ﷺ براحلته فشد عليها رحلها، ثم مشى وتبعه أصحابه، وقالوا: ما نرى ينطلق إلا لبعض حاجته، حتى قام على شفا البئر، وكان ذلك ليلا، فجعل يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم: يا فلان بن فلان، ويا فلان بن فلان، ويا فلان بن فلان، وفى رواية: (يا أبا جهل بن هشام، يا أمية بن خلف، يا عتبة بن ربيعة، يا شيبة بن ربيعة، أيسركم أنكم أطعتم الله ورسوله؟ هل وجدتم ما وعد الله ورسوله حقا، فإنى قد وجدت ما وعدنى ربى حقا، بئس عشيرة النبى كنتم لنبيكم، كذبتمونى وصدقنى الناس، وأخرجتمونى وآوانى الناس، وقاتلتمونى ونصرنى الناس، فجزاكم الله عنى من عصابة شرا، خونتمونى أمينا، وكذبتمونى صادقا).

فقال عمر: يا رسول الله، أتناديهم بعد ثلاث، كيف تكلم أجسادا لا أرواح فيها؟ - وفى لفظ: كيف يسمعون أو أنى يجيبون وقد جيفوا؟ - فقال ﷺ: (ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، إنهم الآن يسمعون ما أقول لهم، غير أنهم لا يستطيعون أن يردوا علينا شيئا)[3].

قال قتادة: أحياهم الله تعالى حتى أسمعهم قوله، توبيخا لهم، وتصغيرا ونقمة وحسرة وندامة.

وفى حديث آخر عن أبى حميد الساعدى - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال يوم تبوك: (لا يخرجن أحد منكم الا ومعه صاحب له)، ففعل الناس ما أمرهم رسول الله ﷺ به إلا رجلين من بنى ساعدة خرج أحدهما لحاجته، وخرج الآخر فى طلب بعير له، فأما الذى خرج لحاجته فإنه خنق على مذهبه - أى موضعه - ثم دعا له ﷺ فشفى[4].

---

(1) قم المسجد: تنظيفه.
(2) رواه أبو الشيخ وابن حبان.
(3) رواه البخارى ومسلم.
(4) رواه أحمد.

**شهادة الرضيع:**

قال مستأجر بولس: فالمسيح تكلم فى المهد، ومحمد لم يتكلم حتى كبر.

ابتسم عبد القادر، وقال: إن المسيح عليه السلام لم يتكلم في المهد إلا ليبرئ أمه من اتهام اليهود، ويبرئ نفسه من عبوديتكم له، لقد ذكر القرآن الكريم قول المسيح فى مهده، والذى لخص حياته وووظيفته، فقال تعالى على لسانه: ﴿...إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (٣٠) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (٣١) وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا (٣٢) وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا (٣٣)﴾ [مريم].

ومع ذلك، فقد وردت الأسانيد المخبرة بنطق صبى فى المهد يشهد لمحمد ﷺ بالرسالة، فعن معرض بن عبد الله بن معيقيب اليمامى، عن أبيه عن جده ـ رضى الله عنه ـ قال: حججت حجة الوداع، فدخلت دارا بمكة فرأيت فيها رسول الله ﷺ ووجهه مثل دارة القمر، ورأيت منه عجبا، جاءه رجل بغلام يوم ولد فقال له رسول الله ﷺ: يا غلام من أنا؟ فقال: أنت رسول الله. قال: صدقت بارك الله فيك.

قال: ثم إن الغلام لم يتكلم بعد حتى شب فكنا نسميه (مبارك اليمامة)[1].

بل إنه ﷺ أنطق لها البكم ليشهد له بالرسالة، فعن شمر بن عطية عن بعض أشياخه قال جاءت امرأة بابن لها قد شب إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله إن ابنى هذا لم يتكلم منذ ولد، فقال لها رسول الله ﷺ: (أدنيه منى)، فأدنته منه، فقال: (من أنا؟)، فقال: أنت رسول الله.

**انقلاب الأعيان:**

قال مستأجر بولس: لقد روى عن المسيح شىء عظيم لم يفعله نبيكم.

قال عبد القادر: نحن لا نقيم هنا مسابقة بينهما، فكلاهما نبى لله.

قال مستأجر بولس: أنت تتهرب.

قال عبد القادر: فما الذى فعله المسيح، ولم يفعله نبينا؟

قال مستأجر بولس: لقد كان أول معجزة للمسيح تحويله الماء إلى خمر.. ألا تسمعون ـ يا جماعة ـ الماء يتحول بيد المسيح إلى خمر، بل خمر عتيقة.

ابتسم عبد القادر، ثم التفت إلى بولس، وقال: هل ما يقوله هذا الرجل صحيح؟

قال بولس: أجل.. فقد ورد فى (يوحنا:2/ 1-10): (وَفِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ كَانَ عُرْسٌ فِي قَانَا بِمِنْطَقَةِ الْجَلِيلِ، وَكَانَتْ هُنَاكَ أُمُّ يَسُوعَ. وَدُعِيَ إِلَى الْعُرْسِ أَيْضاً يَسُوعُ وَتَلاَمِيذُهُ. فَلَمَّا نَفِدَتِ الْخَمْرُ، قَالَتْ أُمُّ يَسُوعَ لَهُ: (لَمْ يَبْقَ عِنْدَهُمْ خَمْرٌ!) فَأَجَابَهَا: (مَا شَأْنُكِ بِي يَا امْرَأَةُ؟ سَاعَتِي لَمْ تَأْتِ بَعْدُ!) فَقَالَتْ أُمُّهُ لِلْخَدَمِ: (افْعَلُوا كُلَّ مَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ) وَكَانَتْ هُنَاكَ سِتَّةُ أَجْرَانٍ حَجَرِيَّةٍ، يَسْتَعْمِلُ الْيَهُودُ مَاءَهَا لِلتَّطَهُّرِ، يَسَعُ الْوَاحِدُ مِنْهَا مَا بَيْنَ مِكْيَالَيْنِ أَوْ ثَلاَثَةٍ (أَيْ مَا بَيْنَ ثَمَانِينَ إِلَى مِئَةٍ وَعِشْرِينَ لِتْراً). فَقَالَ يَسُوعُ لِلْخَدَمِ: (امْلَأُوا الأَجْرَانَ مَاءً). فَمَلأُوهَا حَتَّى كَادَتْ تَفِيضُ. ثُمَّ قَالَ لَهُمْ: (وَالآنَ اغْرِفُوا مِنْهَا وَقَدِّمُوا إِلَى رَئِيسِ الْوَلِيمَةِ!) فَفَعَلُوا. وَلَمَّا ذَاقَ رَئِيسُ الْوَلِيمَةِ الْمَاءَ الَّذِي كَانَ قَدْ تَحَوَّلَ إِلَى خَمْرٍ، وَلَمْ يَكُنْ يَعْرِفُ مَصْدَرَهُ، أَمَّا الْخَدَمُ الَّذِينَ قَدَّمُوهُ فَكَانُوا يَعْرِفُونَ، اسْتَدْعَى الْعَرِيسَ، وَقَالَ لَهُ: (النَّاسُ جَمِيعاً يُقَدِّمُونَ الْخَمْرَ الْجَيِّدَةَ أَوَّلاً، وَبَعْدَ أَنْ يَسْكَرَ الضُّيُوفُ يُقَدِّمُونَ لَهُمْ مَا كَانَ دُونَهَا جُودَةً. أَمَّا أَنْتَ فَقَدْ أَبْقَيْتَ الْخَمْرَ الْجَيِّدَةَ حَتَّى الآنَ!).

هذه هى المعجزة الأولى التى أجراها المسيح، وقد عقب عليها يوحنا بقوله: (هَذِهِ الْمُعْجِزَةُ هِيَ الآيَةُ الأُولَى الَّتِي أَجْرَاهَا يَسُوعُ فِي قَانَا بِالْجَلِيلِ، وَأَظْهَرَ مَجْدَهُ، فَآمَنَ بِهِ تَلاَمِيذُهُ) (يوحنا:2/ 11)

---

(1) رواه البيهقى.

ابتسم عبد القادر، وقال لبولس: هل كان المسيح يقرأ الكتاب المقدس؟

قال بولس: أجل.. وهل في ذلك الشك؟

قال عبد القادر: ألم يقرأ هذا النص من الكتاب المقدس: (وَقَالَ الرَّبُّ لِهَارُونَ: (خَمْرًا وَمُسْكِرًا لاَ تَشْرَبْ أَنْتَ وَبَنُوكَ مَعَكَ عِنْدَ دُخُولِكُمْ إِلَى خَيْمَةِ الاجْتِمَاعِ لِكَيْ لاَ تَمُوتُوا. فَرْضًا دَهْرِيًّا فِي أَجْيَالِكُمْ وَلِلتَّمْيِيزِ بَيْنَ الْمُقَدَّسِ وَالْمُحَلَّلِ وَبَيْنَ النَّجِسِ وَالطَّاهِرِ وَلِتَعْلِيمِ بَنِي إِسْرَائِيلَ جَمِيعَ الْفَرَائِضِ الَّتِي كَلَّمَهُمُ الرَّبُّ بِهَا بِيَدِ مُوسَى) (لاويين 10: 8-11).

سكت بولس، فقال عبد القادر: ألم يقرأ المسيح هذا النص: (مِنْ كُلِّ مَا يَخْرُجُ مِنْ جَفْنَةِ الْخَمْرِ لاَ تَأْكُلْ، وَخَمْرًا وَمُسْكِرًا لاَ تَشْرَبْ، وَكُلَّ نَجِسٍ لاَ تَأْكُلْ. لِتَحْذَرْ مِنْ كُلِّ مَا أَوْصَيْتُهَا)(قضاة 13: 14).

وهذا النص: (لَيْسَ لِلْمُلُوكِ يَا لَمُوئِيلُ لَيْسَ لِلْمُلُوكِ أَنْ يَشْرَبُوا خَمْرًا وَلاَ لِلْعُظَمَاءِ الْمُسْكِرُ. لِئَلاَّ يَشْرَبُوا وَيَنْسَوْا الْمَفْرُوضَ وَيُغَيِّرُوا حُجَّةَ كُلِّ بَنِي الْمَذَلَّةِ. أَعْطُوا مُسْكِرًا لِهَالِكٍ وَخَمْرًا لِمُرِّي النَّفْسِ. يَشْرَبُ وَيَنْسَى فَقْرَهُ وَلاَ يَذْكُرُ تَعَبَهُ بَعْدُ) (الأمثال31: 4-7).

سكت بولس، فقال عبد القادر: نحن نبرئ المسيح من هذه المعجزة.. لأن المعجزات لا تقدم المحرمات، وإنما تقدم الآيات البينات.

قال مستأجر بولس بحمقه المعهود: أنت تقول هذا لتفر من ذكر معجزات نبيك.

قال عبد القادر: لا بأس.. ما دمت تطلب هذا، فقد روى عن نبينا ـ بأسانيد لا تقل وثوقا من أسانيدكم ـ تحويل الماء إلى لبن وزبد لا إلى خمر، فعن سالم بن أبي الجعد، قال: بعث رسول الله ﷺ رجلين في بعض أمره، فقالا: يا رسول الله، ما معنا ما نتزوده، فقال: (ابتغيا لي سقاء)، فجاءاه بسقاء، قالا: فأمرنا فملأناه ماء، ثم أوكأه وقال: (اذهبا حتى تبلغا مكان كذا وكذا فان الله عز وجل سيرزقكما)، فانطلقا حتى أتيا ذلك المكان الذي أمرهما به رسول الله ﷺ فانحل سقاؤهما فإذا لبن وزبد فأكلا حتى شبعا[1].

ومن هذا الباب ما روى من انقلاب العصا سيفا ببركته ﷺ، فعن عكاشة بن محصن أنه انقطع سيفه يوم بدر، فأعطاه رسول الله ﷺ جذلا من شجرة، فصار في يده سيفا صارما صافي الحديد شديد المتن، فقاتل بها حتى فتح الله عز وجل على رسول الله ﷺ، ثم لم يزل عنده يشهد به المشاهد مع رسول الله ﷺ حتى قتل في الردة، وهو عنده وكان ذلك يسمى القوي[2].

ومن هذا الباب ما روى من انقلاب العرجون سيفا ببركته ﷺ، فعن معمر عن عبد الرحمن الجرشي قال: أخبرنا أشياخنا أن عبد الله بن جحش جاء الى النبي ﷺ وقد ذهب سيفه، فأعطاه النبي ﷺ عسيبا من نخل فرجع في يد عبد الله سيفا[3].

وفي حديث آخر عن عبد الله بن جحش أن سيفه انقطع، فأعطاه رسول الله ﷺ عرجونا، فصار في يده سيفا فكان يسمى العرجون، ولم يزل بعد يتوارث حتى بيع من التركي بمائتي دينار[4].

وفي حديث آخر عن داود بن الحصين عن رجال من بني عبد الأشهل عدة، قالوا: انكسر سيف سلمة بن حريش يوم بدر، فبقي أعزل لا سلاح معه فأعطاه رسول الله ﷺ قضيبا كان في يده من عراجين ابن طاب فقال: (اضرب به)، فإذا هو سيف جيد، فلم يزل عنده حتى قتل يوم جسر أبي عبيد[5].

---

(1) رواه ابن سعد مرسلا.

(2) رواه ابن سعد عن زيد بن أسلم ويزيد بن رومان وغيرهما والبيهقي عن ابن إسحاق.

(3) رواه عبد الرزاق.

(4) رواه الزبير بن بكار في الموافقيات.

(5) رواه البيهقي.

**أضواء معجزة:**

وبمناسبة ذكر العرجون، فقد ورد فيه معجزة أخرى، حدثنا عنها قتادة ابن النعمان - رضى الله عنه - فقال: خرجت ليلة من الليالى مظلمة، فقلت: لو أتيت رسول الله ﷺ وشهدت معه الصلاة، وآنسته بنفسى - وفى لفظ: فقلت: لو أنى اغتنمت شهود العتمة مع رسول الله ﷺ ففعلت - فلما دخلت المسجد برقت السماء، فرآنى رسول الله ﷺ فقال: (يا قتادة، ما هاج عليك؟)، قلت: يا رسول الله، أردت بأبى أنت وأمى أن أؤنسك، فلما انصرف رسول الله ﷺ ومعه عرجون، قال: (خذ هذا العرجون فتحصن به، فإنك إذا خرجت أضاء لك عشرا أمامك، وعشرا خلفك)، ثم قال لى: (إذا دخلت بيتك مثل الحجر الأخشن فى أستار بيتك، فإن ذلك الشيطان)، قال: فخرجت فأضاء لى العرجون مثل الشمعة فاستضأت به، فأتيت البيت فوجدتهم قد رقدوا، فنظرت فى الزاوية، فإذا فيها قنفذ فلم أزل أضربه بالعرجون حتى خرج.

وفى لفظ: ثم ضربت مثل الحجر الأخشن حتى خرج من بيتى[1].

وفى حديث آخر عن أبى عبس بن جبر - رضى الله عنه - أنه كان يصلى مع رسول الله ﷺ الصلوات ثم يرجع إلى بنى حارثة، فخرج فى ليلة مظلمة، فنور له فى عصاه حتى دخل على بنى حارثة[2].

وفى حديث آخر عن أنس - رضى الله عنه - قال: كان عباد بن بشر وأسيد بن حضير عند رسول الله ﷺ فى حاجة حتى ذهب من الليل ساعة، وهى ليلة شديدة الظلمة ثم خرجا، وبيد كل واحد منهما عصا، فأضاءت لهما عصا أحدهما، فمشيا فى ضوئها، حتى إذا افترقت بهم الطريق، أضاءت للآخر عصاه حتى بلغ أهله[3].

وفى حديث آخر عن أنس - رضى الله عنه - أن النبى ﷺ وعمر سمرا عند أبى بكر يتحدثان عنده حتى ذهب الليل، ثم خرجا، وخرج أبو بكر معهما جميعا فى ليلة مظلمة مع أحدهما عصا، فجعلت تضىء لهما، وعليهما نور حتى بلغوا المنزل[4].

وفى حديث آخر ما هو أعجب من ذلك كله، فعن حمزة بن عمرو الأسلمى قال: كنا مع رسول الله ﷺ فى سفر فتفرقنا فى ليلة مظلمة، فأضاءت أصابعى حتى جمعوا عليها ظهرهم وما هلك منهم وإن أصابعى لتنير[5].

وفى حديث آخر عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال: كنا نصلى مع رسول الله ﷺ العشاء، فكان يصلى، فإذا سجد وثب الحسن والحسين على ظهره، فإذا رفع رأسه أخذهما فوضعهما وضعا رقيقا، فإذا عاد عادا، فلما صلى جعل واحدا هاهنا وواحدا هاهنا فجئت فقلت: يا رسول الله، ألا أذهب بهما إلى أمهما؟ قال: (لا)، فبرقت برقة، فقال: (الحقا بأمكما)، فما زالا يمشيان فى ضوئها حتى دخلا[6].

لم يجد بولس ما يقول، فانصرف، وانصرفت خلفه، ومعى بصيص جديد من أنوار شمس محمد.

أما أولئك الجمع، فقد التفوا حول عبد القادر وعبد الحكيم يسألونهما عن محمد، وعن دين محمد.

(1) رواه الطبرانى وأحمد فى حديث طويل، والبزار، ورجال أحمد رجال الصحيح، وأبو نعيم بسند صحيح.

(2) رواه الحاكم وأبو نعيم والبيهقى.

(3) رواه ابن سعد والبيهقى والحاكم وصححه.

(4) رواه أبو نعيم.

(5) رواه البخارى فى التاريخ والبيهقى وأبو نعيم والطبرانى بسند جيد.

(6) رواه الحاكم وصححه والبيهقى وأبو نعيم.

# سادسا - ثبات

فى اليوم السادس..

جاءنى بولس بهيئة لم أره عليها من قبل.. وكأنى به تقمص صورة قديس من القرون الغابرة بصليبه وهيئته وسمته.. وفوق ذلك بفقره وزهده وسمالة ثيابه.

قلت، لما رأيته بتلك الصورة: ما هذا ـ يا حضرة القس الفاضل ـ أتراك تريد الذهاب إلى دير لتعيش مع الرهبان، أم تراك تريد الانعزال فى جبل من الجبال كما فعل القديسون؟

قال بجد صارم: لا هذا، ولا ذاك.. أنا لا أزال أجتهد فى أن أكون رسولا مخلصا للمسيح.. أنا لا أريد أن أكون مسيحيا وحدى.. أريد لهذه الأرض جميعا، ولهؤلاء البشر جميعا أن يثبتوا فى المسيح، وأن ينموا فى المسيح.

قلت: ألم يزعزع همتك هذه ما حصل فى الأيام السابقة؟

قال: بل لم تزدنى تلك المواقف التى وقفناها فى الأيام السابقة إلا همة وعزيمة وثباتا.

لقد كان أهم ما تعلمت من المسيح الثبات فى المسيح..

ثم التفت إلى بجد غير معهود، وقال: إن الثبات فى المسيح هو من الأساسيات التى ركز عليها رب المجد يسوع المسيح فى علاقته بتلاميذه القديسين.. إلى درجة أنه تكلم إحدى عشرة مرة عن الثبات فى ثمانى آيات.

لقد قال فى (يوحنا 15: 1 ـ 11): (أَنَا الْكَرْمَةُ الْحَقِيقِيَّةُ، وَأَبِي هُوَ الْكَرَّامُ. كُلُّ غُصْنٍ فِيَّ لاَ يَأْتِي بِثَمَرٍ يَقْطَعُهُ، وَكُلُّ غُصْنٍ يَأْتِي بِثَمَرٍ يُنَقِّيهِ لِيَأْتِيَ بِثَمَرٍ مَزِيداً مِنَ الثَّمَرِ. أَنْتُمُ الآنَ أَنْقِيَاءُ بِسَبَبِ الْكَلِمَةِ الَّتِي خَاطَبْتُكُمْ بِهَا. فَاثْبُتُوا فِيَّ وَأَنَا فِيكُمْ. كَمَا أَنَّ الْغُصْنَ لاَ يَقْدِرُ أَنْ يُنْتِجَ ثَمَراً إِلاَّ إِذَا ثَبَتَ فِي الْكَرْمَةِ، فَكَذَلِكَ أَنْتُمْ، إِلاَّ إِذَا ثَبَتُّمْ فِيَّ. أَنَا الْكَرْمَةُ وَأَنْتُمُ الأَغْصَانُ. مَنْ يَثْبُتُ فِيَّ وَأَنَا فِيهِ، فَذَاكَ يُنْتِجُ ثَمَراً كَثِيراً. فَإِنَّكُمْ بِمَعْزِلٍ عَنِّي لاَ تَقْدِرُونَ أَنْ تَفْعَلُوا شَيْئاً. إِنْ كَانَ أَحَدٌ لاَ يَثْبُتُ فِيَّ يُطْرَحُ خَارِجاً كَالْغُصْنِ فَيَجِفُّ؛ ثُمَّ تُجْمَعُ الأَغْصَانُ الْجَافَّةُ، وَتُطْرَحُ فِي النَّارِ فَتَحْتَرِقُ. وَلكِنْ، إِنْ ثَبَتُّمْ فِيَّ، وَثَبَتَ كَلاَمِي فِيكُمْ، فَاطْلُبُوا مَا تُرِيدُونَ يَكُنْ لَكُمْ. بِهَذَا يَتَمَجَّدُ أَبِي: أَنْ تُنْتِجُوا ثَمَراً كَثِيراً فَتَكُونُونَ حَقّاً تَلاَمِيذِي. مِثْلَمَا أَحَبَّنِي الآبُ، أَحْبَبْتُكُمْ أَنَا، فَاثْبُتُوا فِي مَحَبَّتِي. إِنْ عَمِلْتُمْ بِوَصَايَايَ، تَثْبُتُونَ فِي مَحَبَّتِي، كَمَا عَمِلْتُ أَنَا بِوَصَايَا أَبِي وَأَثْبُتُ فِي مَحَبَّتِهِ! قُلْتُ لَكُمْ هَذَا لِيَكُونَ فِيكُمْ فَرَحِي، وَيَكُونَ فَرَحُكُمْ كَامِلاً).

قرأ ذلك بخشوع عظيم، ثم قال: مثلما أوصانا رب المجد يسوع المسيح أوصانا معلمنا بولس الرسول قائلاً: (إذاً يا أخوتى الأحباء والمشتاق إليهم يا سرورى وإكليلى اثبتوا هكذا فى الرب أيها الأحباء) (فيلبيس: 4: 1).

ثم التفت إلى، وقال: لقد اعتبر المسيح الثبات علامة التلمذة الحقيقية، لقد قال له المجد: (قال يسوع لليهود الذين آمنوا به إنكم إن ثبتم فى كلامى فبالحقيقة تكونون تلاميذى) (يوحنا: 8: 31).

إن الثبات هو موضوع اهتمام الكنيسة منذ عهد الرسل، لقد قال سفر أعمال الرسل عن القديس برنابا: (الذى لما أتى ورأى نعمة الله فرح ووعظ الجميع أن يثبتوا فى الرب بعزم القلب) (أعمال: 11: 23).

لذا فإن كان المُعَمَّد يقبل المسيح فى سر المعمودية، فإنه يثبت فى سر الميرون بالمسحة المقدسة، أى فى سر التثبيت، ثم يأتى سر الإفخارستيا أى سر التناول، فيثبت أيضاً فى الرب كما قال: (من يأكل جسدى ويشرب دمى يثبت فىَّ وأنا فيه)(يوحنا: 6: 56).

لقد علمنا تاريخ الكنيسة عن القديس مقاريوس ـ أب رهبان برية شيهيت ـ أنه كان يقود المبتدئين فى الحياة الروحية بلطف حتى يثبتوا فى الرب، ويمسكوا بجبل التلمذة الروحية للمسيح..

فالكنيسة كأم تهتم كل الاهتمام بتثبيت أولادها المؤمنين فى بنوتهم لأبيهم السماوى الرب يسوع..

ولهذا، فإن الثبات فى الرب ضرورة حتمية..

قلت: أنا لا أجادلك فى هذا.. فالثبات ضرورة حتمية فى كل دين، لا فى المسيحية وحدها، ولكنى أتعجب من هذا المظهر الذى ظهرت به اليوم.. هل تراك تريد أن تخرج به؟

قال: أجل.. هذا المظهر وحده أعظم دعوة للمسيح.. إنه يمثل المسيح وثبات المسيح.. ولا يثبت الناس فى المسيح غير ثبات المسيح.

أتعلم.. لقد كانت أعظم رسالة نشرت المسيحية فى العالم بين نفوس المستضعفين هى هذه الرسالة التى أحملها بثيابى وصليبى.. وكأننى أقول لمبغضى المسيح: افعلوا بى ما تشاءون.. اشنقونى أو اصلبونى كما صلبتم المسيح.. فلن أتزحزح عن طريقى.

لقد توجه المسيح لتلاميذه فى آخر صحبته لهم، وقال: (إِنْ أَبْغَضَكُمُ الْعَالَمُ، فَاعْلَمُوا أَنَّهُ قَدْ أَبْغَضَنِى مِنْ قَبْلِكُمْ. لَوْ كُنْتُمْ مِنْ أَهْلِ الْعَالَمِ، لَكَانَ الْعَالَمُ يُحِبُّ أَهْلَهُ، وَلَكِنْ لأَنَّكُمْ لَسْتُمْ مِنْ أَهْلِ الْعَالَمِ، بَلْ إِنِّى اخْتَرْتُكُمْ مِنْ وَسَطِ الْعَالَمِ، لِذَلِكَ يُبْغِضُكُمُ الْعَالَمُ. اذْكُرُوا الْكَلِمَةَ الَّتِى قُلْتُهَا لَكُمْ: لَيْسَ عَبْدٌ أَعْظَمَ مِنْ سَيِّدِهِ. فَإِنْ كَانَ أَهْلُ الْعَالَمِ قَدِ اضْطَهَدُونِى، فَسَوْفَ يَضْطَهِدُونَكُمْ؛ وَإِنْ كَانُوا قَدْ عَمِلُوا بِكَلِمَتِى، فَسَوْفَ يَعْمَلُونَ بِكَلِمَتِكُمْ. وَلَكِنَّهُمْ سَيَفْعَلُونَ هَذَا كُلَّهُ بِكُمْ مِنْ أَجْلِ اسْمِى، لأَنَّهُمْ لاَ يَعْرِفُونَ الَّذِى أَرْسَلَنِى. لَوْ لَمْ آتِ وَأُكَلِّمْهُمْ، لَمَا كَانَتْ لَهُمْ خَطِيئَةٌ؛ وَلَكِنْ لاَ عُذْرَ لَهُمُ الآنَ فِى خَطِيئَتِهِمْ. الَّذِى يُبْغِضُنِى، يُبْغِضُ أَبِى أَيْضاً. وَلَوْ لَمْ أَعْمَلْ بَيْنَهُمْ أَعْمَالاً لَمْ يَعْمَلْهَا أَحَدٌ غَيْرِى، لَمَا كَانَتْ لَهُمْ خَطِيئَةٌ. وَلَكِنَّهُمْ أَبْغَضُونِى وَأَبْغَضُوا أَبِى، مَعَ أَنَّهُمْ رَأَوْا تِلْكَ الأَعْمَالَ. وَقَدْ صَارَ ذَلِكَ لِتَتِمَّ الْكَلِمَةُ الْمَكْتُوبَةُ فِى شَرِيعَتِهِمْ: أَبْغَضُونِى بِلاَ سَبَبٍ! وَعِنْدَمَا يَأْتِى الْمُعِينُ، الَّذِى سَأُرْسِلُهُ لَكُمْ مِنْ عِنْدِ الآبِ، رُوحُ الْحَقِّ الَّذِى يَنْبَثِقُ مِنَ الآبِ، فَهُوَ يَشْهَدُ لِى، وَتَشْهَدُونَ لِى أَنْتُمْ أَيْضاً، لأَنَّكُمْ مَعِى مِنَ الْبِدَايَةِ)(يوحنا: 15/ 18- 27).

قلت: لكنى لم أفهم سر هذا المظهر بعد.. لقد كنت تحمل صليبا مذهبا على صدرك، وأراك تحمل اليوم صليبا يكاد يكون حقيقيا، وكأنك اجتثثته من الشجرة التى اجتث منها صليب المسيح.

نظر إلى بأسف، وقال: للأسف.. لقد انحصرت نظرتنا إلى الصليب فى أنه سر الفداء فحسب، فكانت نظرة قاصرة خلقت جيلاً من المؤمنين المترفين المرفهين، جيلاً تعود الأخذ لا البذل، جيلاً يبحث عن الراحة ويهرب من العناء، جيلاً يحمل الصليب زينة على صدره، ولا يحمل الصليب مقصلة فوق ظهره، فضاعت من جيلنا التلمذة الحقيقية التى قصدها السيد المسيح ورسم طريقها بقوله: (من لا يحمل صليبه ويأتى ورائى فلا يقدر أن يكون لى تلميذاً) (لوقا: 27: 14).

لقد حكى لنا التاريخ كيف أن بطرس الرسول هرب من روما خشية الموت، وفوجئ فى الطريق بشخص السيد المسيح، فارتمى عند أقدامه متسائلاً: (إلى أين يارب أنت ذاهب؟)، فجاءته الإجابة التى أخجلته: (أنا ذاهب إلى روما لأُصلب ثانية عوضاً عنك)، فرجع الرسول فى الحال إلى

روما، وعانق الصليب رافضًا أن يُصلب كسيده، بل أن يُصلب منكسًا. رأسه إلى أسفل ورجلاه إلى أعلى، وأثبت أنه تلميذ حقيقى لمعلمه المصلوب.

وهكذا كل قديس فى الرب قد عرف الطريق إلى صليب الإماتة وسمر مشيئته هناك ودفن آماله فى قبر راحيل وقام فى جدة الحياة ليعيش لمشيئة الرب بالكامل ويكمل قول بولس الرسول: (وهو مات لأجل الجميع كى يعيش الأحياء فيما بعد لا لأنفسهم بل للذى مات لأجلهم وقام) (2 كو15:5).

قلت: كل ما تذكره نؤمن به، ونحاول أن نعيشه، لكنى لست أفهم سر ما تريد أن نفعله اليوم.. هل سنذهب للتبشير كما ذهبنا فى الأيام السابقة؟

قال: أجل.. وهذا هو علامة الثبات فى المسيح.. فالمعركة لا ينتصر فيها إلا الثابتون.

قلت: أراك تريد أن تحارب اليوم أيضا؟

قال: إن اضطررت إلى الحرب فعلت.. فما أحلى الحرب لأجل المسيح.

قلت: بأى سلاح تريد أن تحارب اليوم؟

أشار إلى الصليب، وقال: بهذا..

قلت: أتريد أن تشن حربا صليبية جديدة؟

قال: حرب الصليب لا تخاض بالسيوف، بل تخاض بالصليب نفسه.

قلت: الصليب هو أداة إعدام بشعة استخدمها الرومان واليونانيون والفرس منذ أقدم العصور فى إعدام المجرمين.. وهو أشد آلة تعذيب لأن المعلق كان يموت موتًا بطيئا، كما أنه يكون معرّضا لشمس النهار المحرقة وبرودة الليل، كما أن أجساد المصلوبين عرضة لطيور السماء الجارحة.. لقد كان المصلوب يثبت على خشبه الصليب وهو شبه عار لكى يكون محط سخرية واستهزاء الناس.

ولهذا، فإن اليهود كانوا ينظرون للصليب بأنه موت اللعنة حسب الشريعة (تثنية22:21، 23).

قال: ولكن كل رموز العار التى كانت تلصق بالصليب تحولت فى صليب المسيح إلى افتخار.. لقد أصبح الصليب شعار المسيحية فى كل مكان وزمان، فوق كل بناية كنيسة يرفع الصليب عاليًا.

أتدرى لم؟

قلت: لم؟

قال: لأن صليب المسيح أعلن محبة الله للبشرية.. كما جاء فى رسالة (يوحنا1/ 9:4، 10): (بهذا أظهرت محبة الله فينا أن الله أرسل ابنه الوحيد إلى العالم لكى نحيا به. فى هذا هى المحبة ليس أننا أحببنا الله بل أنه هو أحبنا وأرسل ابنه كفارة لخطايانا).

وكما جاء فى الإنجيل: (لأنه هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد لكى لا يهلك كل من يؤمن به بل تكون له الحياة الأبدية)(يوحنا 16:3).

قلت: أنا موقن بكل ما تقول.. ولكنى أسألك عن كيفية التبشير بالصليب؟

قال: بالصليب نخاطب المشاعر لا العقول.. والمشاعر هى التى تسيطر على حياة الناس لا عقولهم.. وبذلك، فإن إظهار صورة المسيح المصلوب الثابت مع صلبه أعظم معجزة.

لقد كان المسيح قادرا على التخلص من صليبه، ولكنه كان يعلم أن ثباته فى صليبه أعظم من كل المعجزات التى جرت على يديه.

ولهذا، فإن الثبات معجزة بحد ذاتها.. معجزة تفوق كل المعجزات.

أردت أن أتحدث، فقاطعني، وقال: هيا.. لقد أعددت مجلسا للتشير بين المستضعفين المضطهدين.. وقد وكلت من تعرفه بأن يهيئ لنا الجو الخاص بهذا اليوم. ولعله قد نضج.

قلت: ألا تخاف أن يظهر ذانك الرجلان؟

ابتسم، وقال: حتى لو ظهرا.. فليس لديهما مثل هذا الصليب، وليس لنبيهم مثل هذا الصليب.

سرنا إلى محل هو أشبه بمحل اعتقال، كانت أرواح الاستضعاف فيه تفوح من بعيد، ولكنه مع ذلك كان يخفى هِمما للنهوض، تبرز في الكلمات المنبعثة، وفي الصيحات المرتفعة.

ما إن وصلنا، حتى سمعنا بعضهم يصيح: يا قوم.. قد تسجنون إذا ذكرتم هذا، وقد يسلط عليكم المستكبرون في السجون من ألوان العذاب ما لا تطيقون.

قال آخر: فليكن ذلك.. فالآمال لا تنبتها إلا الآلام..

قال آخر: إن الثبات على تلك الآلام يستدعي أن نلبس نفوسا خاصة لا نجدها في ذواتنا.. لقد هددنا المستكبرون بألوان من العذاب لا تطيقها أجسادنا الضعيفة.

هنا نطق مستأجر بولس، وقال: فلنضع المسيح، وصليب المسيح بين أعيننا.. وحينذاك سنقاوم العالم أجمع.

التفت إليه الجمع، وقالوا: من المسيح.. وما صليبه؟

هنا تدخل بولس بتلك الهيئة العجيبة، وقال: هذا هو صليب المسيح.. وإن شئتم أن تروا صورته، فقد لبست من اللباس ما يشير إلى صورته.

نظر الجمع إلى بولس بألم، وقالوا: لقد تألم هذا الرجل كثيرا إذن؟

قال بولس: وقد كان في إمكانه أن لا يتألم[1].. لقد كان يحمل طاقات كثيرة، ومع ذلك تخلى عنها جميعا ليصلب من أجلنا.

قالوا: نرى أن حديثه عظيم.. ولعله يبث فينا من القوة ما لا نجده في نفوسنا، فحدثنا عنه.

قال بولس: لقد قضى يسوع المسيح ست ساعات على الصليب، وقد تألم فيها بأنواع عديدة من الآلام لم تزعزعه، ولم تهد كيانه المقدس:

لقد تألم آلاما كثيرة.. آلاما في جسده.. وآلاما في نفسه.

أما في جسده، فهي التي تلقاها من البشر.. من الجنود الرومان.. ومن خدام رؤساء الكهنة.

لقد تفل عليه، وضرب بالسياط، ليتم قول الكتاب: (على ظهري حرث الحراث) (مزمور 3:129)، ويتم ما جاء في إشعياء: (بذلت ظهري للضاربين، وخدي للناتفين وجهي لم أستر عن العار والبصق) (إشعياء 6:50).

ووضعوا إكليل شوك فوق رأسه القدوس، وهو الملك صاحب التيجان الكثيرة.

وطعنوه بحربة في جنبه، وسالت منه ينابيع الغفران من خلال ذلك الدم الذي يطهر من كل خطية، والذي لا يزال يتكلم ويطلب الغفران لأجلنا.

ثقبوا يديه ورجليه بمسامير حديدية غليظة بواسطة أيدي الجنود الرومانيين الذين كانت قلوبهم غليظة.

ليست المسامير الحديدية هي التي ثبتته هناك، بل ثبتته محبته الشديدة، والتي تفوق إدراك العقول.. لقد ثبتته فوق الصليب لأجل غفران معاصينا.. لقد سالت الدماء من يديه المثقوبة، وهو لا يزال يفتح ذراعيه لكي يستقبل بفرح كل من يقبل إليه.

---

(1) هناك رد مفصل على ما يزعمه المسيحيون من صلب المسيح، وما يفهمونه منه في رسالة (الإنسان) من هذه السلسلة.

قال ذلك بخشوع، ثم راح يترنم بصوت شجى:

يده المثقـوبة تنطق بالحـب — تمسح أحـمال الآثم عـن القلب

يده المثقـوبة تحكى عن نعمة — تتراءف تبدى للخـاطى رحـمة

يده المثقـوبة تنـزف تدعـوك — ويقلب الرحمة تصرخ ترجـوك

اسرع أبواب الرحمة مفتوحة — أدخل من كف الابن المجـروحة

فاختبئ الآن بكف المصلوب — سلـم واحـظ بعفـو مطلوب

سالت دموع كثيرة من الجمع الحاضر، بثت فى بولس نشاطا عظيمـا للحديث، فراح يقول: وفوق ذلك.. لقد قاسى الرب يسوع آلامًا نفسية ومعنوية تفوق آلامه الجسدية:

لقد كان متـروكًا من الجميع (فتركـه الجميع وهربوا)(مرقس 50:14) ليتم ما جاء فى الكتاب: (أحبائى وأصحابى يقفون تجاه ضربتى وأقاربى وقفوا بعيدًا) (مزمور 10:38).

لقد خانه تلميذه يهوذا الاسخريوطى.

لقد أنكره بطرس،ليس أمـام قائد فى الجيش، أو حتى جندى، بل أنكر يسـوع أمام جارية.. لقد أنكره ثلاث مرات، ولعن، وحلف أنه لا يعرف يسوع.. ربما نحن نلوم بطرس، ولكننا بتصرفاتنا وأقوالنا ننكر الرب يسوع كل يوم.

لقد هرب التلاميذ، فمزقته آلام الوحدة، فهو متروك من قبل الجميع.

لقد استهزأوا به، سواء الشعب، أم رجال الدين اليهود أو الجنود.

لقد جدفوا عليه، وعيروه، حتى اللصان أيضًا عيروه.

لقد صُلبَ يسوع على صليب العار، فالصليب كان رمز عار ولعنة، وتم ما هو مكتوب عنه: (العار قـد كسر قلـبى فمرضت، انتظرت رقـة فلم تكن، ومعـزين فلم أجد، ويجعـلون فى طعامى علقمًا، وفى عطشى يسقوننى خلاً) (مزمور69: 20-21).

لقد تحمل المسيح لعنة الخطية لكى يكون لنا لا اللعنات بل البركات، وتم قول الكتاب (ملعون كل من علق على خشبة)(رسالة بولس إلى أهل غلاطية 13:3).

فكم كان قاسيًـا على القدوس البار الذى لم يعرف خطية، لذلك قـال للآب فى البستان: إن شئت أن تجيز عنى هذه الكأس، لقد تجرع كأس غضب الله ولعنة الخطيئة.

التفت إلى الجمع، وقال: أتدرون سر هذه الآلام التى تحملها المسيح؟

صمـتوا، فقال: لقـد تحمل المسيح هذه الآلام نيـابية عنى وعنك، لقد تلقـاها من يد العدالة الإلهية.

لقد قـضى الرب يسوع ستة سـاعات على الصليب، والثلاث السـاعات الأخيرة من السـاعة (12-3) ظهراً صـارت ظلمة علـى كل الأرض، وهذه هى السـاعـات التى تمت فيـها الكفـارة، حيث حجب الله وجهه عن يسـوع، وأنزل عليه الدينونة التى كان علينا أن ندفعها لـكنه تحملها، وتم ما هو مكتوب فى إشعياء النبى ﷺ أما الرب فسّر أن يسحقه بالحزن) (إشعياء 10:53).

والكفارة هى الآلام التى بها المسيح كفّر خطايانا وذنوبنا ولا يستطيع أحد أن يصف تلك الآلام لأنها أسمى من إدراك البشـر ولا أحد يعرفها إلا يسوع وحده فقـد نزلت الدينونة عليه وهو الذى قال عن تلك الساعة (الآن دينونة هذا العالم) (يوحنا31:12).

وما هو مكتوب عن هذه الآلام يجعـلنا نركع سجوداً وتعبدًا وخاصة عندمـا نعرف كم اجتاز ربنا المعبود من دينونة فى الصليب جعلته يصرخ: (إلهى إلهى لماذا تركتنى).. (صار قلبى كالشمع قد ذاب فى وسط أمعائى) (مزمور 22).

لما رأى السيف التهب قد صاح من هول الغضب:

إيلى لما تركتنى ووجهك عنى احتجب،

إنك قد ضربتنى بسيف عدلك الرهيب قد ذاب قلبى داخلى كالشمع أمام اللهيب.

لقد صرخ يسوع بصوت عظيم فى نهاية آلامه الكفارية وقال: (قد أكمل) وأصبح الذبيح العظيم الذى يستطيع فيه كل إنسان أن ينال غفران الخطايا، أتم المسيح عمل الفداء فوق الصليب وسفك دمه الطاهر الذى يطهر من كل خطية ودفع الدين وأوفى مطاليب العدالة الإلهية وتم المكتوب (الرحمة والحق التقيا) (مزمور 85:10).

لقد دفع فينا ثمنا غاليا ليس بفضة أو ذهب ولكن (بدم كريم كما من حمل بلا عيب وبلا دنس دم يسوع المسيح المعروف سابقًا قبل تأسيس العالم) (بطرس/1 1: 19-20).

ما إن انتهى بولس من موعظته المؤثرة المؤلمة التى استجمع فيها كل طاقاته الوجدانية حتى فوجئنا بصوت عبد القادر، وهو يقول للجمع: لاشك أنكم تناضلون لأجل قضية تريدون الثبات عليها.

قالوا: أجل..

قال عبد القادر: وتريدون أن تجدوا نموذجا تحقق فيه الثبات فى أعلى درجاته، بحيث صار معجزة فى ثباته؟

قالوا: أجل.. نريد أن نجد المثال الذى نملأ به قلوبنا وعقولنا.

هنا تدخل مستأجر بولس، وقال: لقد أعطانا هذا الراهب الفاضل أعظم مثال.. ونحن نكتفى به.. فمعجزة الثبات لم تتحقق إلا فى المسيح.

قال عبد القادر: إن معجزة الثبات تحققت فى جميع رسل الله.. تحققت فى إبراهيم وإسماعيل وموسى والمسيح ومحمد.

قال مستأجر بولس: ولكن.. ليس هناك من قدم للصلب كما قدم للمسيح.

قال عبد القادر: إن الثبات لا يبرزه الصلب وحده..

لقد ذكر الله تعالى ثبات إسماعيل ﷺ عندما أوحى لأبيه إبراهيم عليه السلام بأن يذبحه، قال تعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٩٩) رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ (١٠٠) فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ (١٠١) فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (١٠٢) فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (١٠٣) وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٠٥) إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ (١٠٦) وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (١٠٧) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (١٠٨) سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (١٠٩) كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١١٠)﴾ [الصافات].

وذكر الله تعالى ثبات إبراهيم عليه السلام أمام تهديد أبيه عندما هدده بقوله: ﴿... أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا (٤٦)﴾ [مريم].

وهكذا كل الأنبياء ـ عليهم السلام ـ لم يستسلموا لكل ما دبره أقوامهم لهم من مكايد.. لقد ذكر الله تعالى ذلك، فقال: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ (١٣)﴾ [إبراهيم].

ففى هذه الآية الكريمة يخبر الله تعالى عما توعدت به الأمم الكافرة رسلها، من الإخراج من أرضهم، والنفى من بين أظهرهم، كما قال قوم شعيب له ولمن آمن به: ﴿... لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ... (٨٨)﴾ [الأعراف]، وقال قوم لوط ﷺ لنبيهم: ﴿...

أخرجوا آل لوط من قريتكم إنهم أناس يتطهرون ﴿٥٦﴾ [النمل]، وقال مخاطبا محمدا ﷺ وما هم قومه به: ﴿وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها وإذا لا يلبثون خلافك إلا قليلا ﴿٧٦﴾﴾ [الإسراء]، وقال يذكر مكايدهم: ﴿وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين ﴿٣٠﴾﴾ [الأنفال].

قال مستأجر بولس: نعم.. ربما يكون محمد قد أخرج من بلده، ولكنه لم يصلب..

قال عبد القادر: أيهما أعظم ثباتا: أن يصلب الشخص ساعة، أو ست ساعات يموت بعدها، ويستريح.. أو يظل طول عمره هدفا للمؤامرات والمكايد؟

قال الجميع: بل الصلب أرحم، وقد مر بعضنا بآلام ود لو صب عليه فيها الموت صبا.

قال عبد القادر: فمثال الثبات إذن لا يتحقق بكماله إلا فى محمد ﷺ.

قالوا: كيف ذلك.. وما أنواع البلاء التى تعرض لها؟

قال عبد القادر: لقد تعرض محمد ﷺ لكل أنواع البلاء.. وابتلى بكل أنواع الفتن: فتن الضراء، وفتن السراء.

قالوا: فحدثنا عنهما.

* * *

## ١ - فتنة الضراء

ألقى عبد القادر نظرة على جموع المستضعفين الملتفين حوله، وقال: أنتم الآن جموع كثيرة. ولكن محمدا ﷺ عندما بدأ بدأ وحده، ثم انضمت إليه فئة قليلة من المستضعفين واجه بهم العالم أجمع.

لقد دبرت له كل المؤامرات لتستأصله، وتجوعه، وتخرجه من أرضه، وفوق ذلك تملأ نفسه آلاما وحسرات، ولكنه لم يرضخ، ولم يتزعزع، ولم يحد عن منهجه الذى رسمه الله له.

وبما أنكم طلبتم منى أن أحدثكم عن أنواع البلاء التى تعرض لها محمد ﷺ، وثباته فى وجهها، فسأذكر لكم ما قال المؤرخون بتوثيقاتهم الدقيقة، لتروا معجزة الثبات بتجليها الكامل فى شخص محمد ﷺ.

**تأليب أهله عليه:**

أول أنواع المضرات التى صبت على محمد ﷺ تأليب أهله عليه، فأخطر ما يقف فى وجه الثابتين تأليب أهلهم عليهم، كما أن أقوى ما يثبت قلوبهم وقوف أهلهم بجانبهم.

وقد وقف أهل محمد ﷺ منه موقفين متناقضين:

أما أحدهما، فكان الحرب الشديدة له ﷺ، ويمثلهم عمه أبو لهب، الذى نزلت فى حقه سورة كاملة تبين الموقف الشديد الذى وقفه من رسول الله ﷺ.

فقد روى بأسانيد مختلفة عن جمع من الصحابة ـ رضى الله عنهم ـ (١) أن رسول الله ﷺ لما أنزل عليه قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ [الشعراء] قام على الصفا، فعلا أعلاها حجرا، ثم نادى: يا صباحاه، فقالوا: من هذا؟

وجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج يرسل رسولا لينظر ما هو، فجاء أبو لهب وقريش، فاجتمعوا إليه، فقال رسول الله ﷺ: (إن أخبرتكم أن خيلا تخرج من سفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقى؟ قالوا: ما جربنا عليك كذبا.

فقال: يا معشر قريش، أنقذوا أنفسكم من النار، فإنى لا أغنى عنكم من الله شيئا، يا بنى عبد مناف، أنقذوا أنفسكم من النار، فإنى لا أغنى عنكم من الله شيئا، يا بنى عبد شمس أنقذوا أنفسكم من النار، فإنى لا أغنى عنكم من الله شيئا، يا بنى كعب بن لؤى أنقذوا أنفسكم من النار، فإنى لا أغنى عنكم من الله شيئا، يا عباس عم رسول الله ﷺ أنقذ نفسك من النار، فإنى لا أغنى عنك من الله شيئا، يا صفية عمة محمد، ويا فاطمة بنت محمد أنقذا أنفسكما من النار، فإنى لا أملك لكما من الله شيئا، غير أن لكما رحما سأبلها ببلالها، إنى لكم نذير بين يدى عذاب شديد).

فى هذا الموقف، وبعد هذه الكلمات المؤثرة الناصحة واجهه عمه أبو لهب بكل قسوة قائلا: تبا لك سائر اليوم، ألهذا جمعتنا؟

تصوروا ذلك الموقف، وشدته على رسول الله ﷺ.

لم يقف أبو لهب ذلك الموقف فقط.. بل ظل خلف محمد ﷺ يتعقبه لينفر الناس عنه:

فعن عبد الرحمن بن أبى الزناد، عن أبيه قال: أخبرنى رجل، يقال له: ربيعة بن عباد، من بنى الديل، وكان جاهليًا فأسلم، قال: رأيت النبى ﷺ فى الجاهلية فى سوق ذى المجاز، وهو يقول: (يا أيها الناس، قولوا لا إله إلا الله تفلحوا)، والناس مجتمعون عليه، ووراءه رجل وضيء الوجه

---

(١) رواه الشيخان والبلاذرى عن ابن عباس، والشيخان عن أبى هريرة، ومسلم عن قبيصة ابن المخارق رضى الله عنهم.

أحولُ ذو غديرتين، يقول: إنه صابئ كاذب. يتبعه حيث ذهب، فسألت عنه فقالوا: هذا عمه أبو لهب[1].

وفي حديث آخر عن ربيعة بن عباد الديلي قال: إني لمع أبي رجل شاب، أنظر إلى رسول الله ﷺ يتبع القبائل - ووراءه رجل أحول وضيء، ذو جُمَّة يقف رسول الله ﷺ على القبيلة فيقول: (يا بني فلان، إني رسول الله إليكم، آمركم أن تعبدوا الله لا تشركوا به شيئا، وأن تصدقوني وتمنعوني حتى أنفِّذ عن الله ما بعثني به).

وإذا فرغ من مقالته قال الآخر من خلفه: يا بني فلان، هذا يريد منكم أن تسلخوا اللات والعزى، وحلفاءكم من الجن من بني مالك بن أُقَيْش، إلى ما جاء به من البدعة والضلالة، فلا تسمعوا له ولا تتبعوه. فقلت لأبي: من هذا؟ قال: عمه أبو لهب[2].

وقد ذكر ابن مسعود - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ لما دعا قومه إلى الإيمان، قال أبو لهب: إذا كان ما يقول ابن أخي حقا، فإني أفتدي نفسي يوم القيامة من العذاب بمالي وولدي، فأنزل الله تعالى: ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۝٢﴾ [المسد].

ومثل أبي لهب زوجته[3] التي سماها الله - حَمَّالَةَ الْحَطَبِ -، فقد كانت عونًا لزوجها على كفره وجحوده وعناده، فقد كانت تضع الشوك في طريق رسول الله ﷺ[4].

قال سعيد بن المسيب: كانت لها قلادة فاخرة، فقالت: لأنفقنها في عداوة محمد، فأعقبها الله بها حبلا في جيدها من مسد النار.

وقالت أسماء بنت أبي بكر - رضي الله عنهما -: لما نزلت: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١﴾ [المسد]، أقبلت العوراء أم جميل بنت حرب، ولها ولولة، وفي يدها فهر، وهي تقول:

مُذَمَّمًا أَبَيْنَا ودينَه قَلَيْنا وأَمْرَه عَصَيْنا

ورسول الله ﷺ جالس في المسجد ومعه أبو بكر، فلما رآها أبو بكر قال: يا رسول الله، قد أقبلت وأنا أخاف عليك أن تراك. فقال رسول الله ﷺ: (إنها لن تراني)، وقرأ قرآنا اعتصم به، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ۝٤٥﴾ [الإسراء]، فأقبلت حتى وقفت على أبي بكر ولم تر رسول الله ﷺ، فقالت: يا أبا بكر، إني أخبرت أن صاحبك هجاني؟ قال: لا ورب هذا البيت ما هجاك. فولت وهي تقول: قد علمت قريش أني ابنة سيدها.

هذا هو الموقف الأول، وهو الموقف الذي أظهر العداوة، وسار فيها إلى أقصى غاياتها، أما الموقف الثاني، فهو موقف عمه أبي طالب، وهو موقف مناقض تماما لموقف أبي لهب.

ولكن أعداء محمد ﷺ لم يرضهم ذلك الموقف، فراحو بمكايدهم المختلفة يؤلبون عمه عليه.

قال ابن إسحاق: فلما بادى رسول الله ﷺ قومه بالإسلام وصدع به كما أمره الله لم يبعد منه قومه ولم يردوا عليه، حتى ذكر آلهتهم وعابها.

فلما فعل ذلك أعظموه وناكروه، وأجمعوا لخلافه وعداوته إلا من عصم الله تعالى منهم بالإسلام وهم قليل مستخفون.

---

(1) رواه أحمد.

(2) رواه أحمد والطبراني.

(3) وهي من سادات نساء قريش، وهي: أم جميل، واسمها أروى بنتُ حرب بن أمية، وهي أخت أبي سفيان.

(4) رواه العوفي عن ابن عباس، وعطية الجدلي، والضحاك، وابن زيد، واختاره ابن جرير.

وحدب على رسـول الله ﷺ أبو طالب، ومنعه وقام دونه، ومضى رسـول الله ﷺ على أمر الله مظهرا لأمره لا يرده عنه شيء.

فلمـا رأت قريش أن رسـول الله ﷺ لا يعتـبهم من شـيء أنكروه عليه من فـراقهم وعـيب آلهتهم، ورأوا أن عمه أبا طالب قد حدب عليـه وقام دونه ولم يـسلمه لهم، مشى رجال من أشرافهم إلى أبى طالب فقـالوا: يا أبا طلب إن ابن أخيك قـد سب آلهتنا وعـاب ديننا وسفه أحـلامنا وضلل آباءنا، فإما أن تكفه وإما أن تخلى بيننا وبينه، فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه فنكفيكه.

فقال لهم أبو طالب قولا رفيقا وردهم ردا جميلا، فانصرفوا عنه.

ومضى رسول الله ﷺ على ما هو عليه يظهر دين الله ويدعو إليه، ثم شرى الأمر بينه وبينهم حتى تباعد الرجال وتضاغنوا وأكثرت قريش من ذكر رسول الله ﷺ بينها فتذامروا فيه وحض بعضهم بعضا عليه.

ثم إنهم مـشوا إلى أبى طالب مـرة أخرى فقـالوا له: يا أبا طالب إن لك سنا وإن لك شـرفا ومنزلة فينا، وإنا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا، وإنا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا وتسفيه أحلامنا وعيب آلهتنا حتى تكفه عنا أو ننازله وإياك فى ذلك حتى يهلك أحد الفريقين، أو كما قالوا له، ثم انصرفوا عنه.

فـعظم على أبى طالب فـراق قومـه وعداوتهم ولم يـطب نفسـا بإسلام رسـول الله ﷺ ولا خذلانه، فأرسل خلفه فقال: يا ابن أخى إن قومك قد جاءونى فقالوا لى كذا وكذا، للذى كانوا قالوا له، فأبق على نفسك وعلىَّ ولا تحملنى من الأمر ما لا أطيق.

فظن رسول الله ﷺ أن قد بدا لعمه فيه بداء وأنه خـاذله ومسلمه، وأنه قد ضعف عن نصرته والقيام معه، فـقال له رسول الله ﷺ: (يا عم والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقـمر فى شمالى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته)، ثم استعبر رسول الله ﷺ.

فلما ولى ناداه أبو طالب، فـقال: اذهب يا ابن أخى فقل ما أحبـبت فوالله لا أسلمك لشيء أبدا، ثم قال أبو طالب:

والله لن يصلوا إليك بجـمعهم     حتى أوسد فى التراب دفينا
فامضى لأمرك ما عليك غضاضة     وأبشـر وقر بذاك منك عيونا
ودعـوتنى وزعمت أنك ناصحى     فلقد صدقت وكنت ثم أمينا

تصوروا شدة هذا الموقف على رسول الله ﷺ مع أن أبا طالب كـان بمثابة أبيه، فقد تربى فى بيته، وكـفله فى صغره بعد موت جـده.. لو أن محمدا ﷺ لم يكن له من الثبـات والصدق ما له، هل سيترك عمه يعانى كل ذلك العناء؟

ليس ذلك فقط.. فلم تيأس قريش من تأليب أهله عليه.

قـال ابن إسحـاق: ثم إن قريشـا حين عـرفوا أن أبا طالب قـد أبى خذلان رسـول الله ﷺ وإسلامه، وإجماعه لفراقهم فى ذلك وعداوتهم مشوا إليه بعمارة بن الوليد بن المغيرة فقالوا له: يا أبا طالب هذا عمارة بن الوليد أنهـد فتى فى قريش وأجمله، فخذه فلك عقله ونصـره واتخذه ولدا فهو لك، وأسلم إلينا ابن أخـيك هذا الذى قد خالف ديننا وديـن آبائك وفرق جمـاعة من قومك وسـفه أحلامهم فنقتله، فإنما هو رجل برجل.

قال: والله لبئس مـا تسـوموننى! أتعطونى ابنكم أغـذوه لكم وأعطيكم ابنى تقتلونه! هذا والله ما لا يكون أبدا، أرأيتم ناقة تحن إلى غير فصـيلها؟ فقال المطعم بن عدى بن نوفل: والله يا أبا طالب لقد أنصفك قومك وجهدوا على التخلص مما تكره، فما أراك تريد أن تقبل منهم شيئا.

فقال أبو طالب للمطعم: والله ما أنصفوني ولكنك قد أجمعت خذلاني ومظاهرة القوم على. فاصنع ما بدا لك ـ أو كما قال ـ فحقب الأمر وحميت الحرب وتنابذ القوم وبادى بعضهم بعضا.

**إيذاء أصحابه:**

لم يكتف أعداء محمد ﷺ بتأليب أهله عنيه، بل راحوا يمارسون كل أساليب الضغط على أصحابه، فيعذبونهم ويؤذونهم بكل ما سولت لهم شياطينهم من أنواع الأذى ليحطوا من عزيمته، ويدكوا جبل ثباته.

عن سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس: أكان المشركون يبلغون من أصحاب رسول الله ﷺ ما يعذرون به فى ترك دينهم؟ قال: نعم، والله إن كانوا ليضربون أحدهم ويجيعونه ويعطشونه حتى ما يقدر يستوى جالسا من شدة الضرّ الذى نزل به حتى يقولوا له: اللات والعزى إلهك من دون الله؟ فيقول: نعم حتى إن الجعل ليمر بهم، فيقولون له: هذا الجعل إلهك من دون الله فيقول: نعم افتداء مما يبلغون من جهدهم.

وكان أبو جهل الخبيث هو الذى يغرى بهم رجال قريش، إذا سمع بالرجل أسلم له شرف ومنعة أنبه وأخزاه، فقال: تركت دين أبيك وهو خير منك، لنسفّهن حلمك ولنفيلن رأيك ولنضعن شرفك.

وإن كان تاجرا قال: والله لنكسدن تجارتك ولنهلكن مالك.

وإن كان ضعيفا ضربه وأغرى به[1].

وقد حفظ لنا التاريخ الكثير من الأسماء التى تعتبر أمثلة سامية للثبات:

فمن المستضعفين بلال ـ رضى الله عنه ـ الذى كان صادق الإسلام طاهر القلب، فقد كان سيده أمية بن خلف يخرجه إذا حميت الظهيرة، فيطرحه على ظهره فى بطحاء مكة، ثم يأمر بالصخرة العظيمة، فتوضع على صدره، ثم يقول له: لا تزال هكذا حتى تموت، أو تكفر بمحمد، وتعبد اللات والعزى، فيقول وهو فى ذلك البلاء: أحد أحد، أنا كافر باللات والعزى.

وقد وصف عمرو بن العاص مشهدا من مشاهد تعذيبه، فقال: مررت ببلال وهو يعذب فى الرمضاء، ولو أن بضعة لحم وضعت عليه لنضجت، وهو يقول: أنا كافر باللات والعزى.

وأمية مغتاظ عليه، فيزيده عذابا، فيقبل عليه فيدغت فى حلقه فيغشى عليه ثم يفيق[2].

ويذكر حسان بن ثابت مشهدا آخر من مشاهد العذاب، فيقول: حججت فرأيت بلالا فى حبل طويل يمده الصبيان، وهو يقول: أحد أحد، أنا أكفر باللات والعزى وهبل ونائلة وبوانة، فأضجعه أمية فى الرمضاء[3].

وعن مجاهد قال: جعلوا فى عنق بلال حبلا، وأمروا صبيانهم أن يشتدوا به بين أخشبى مكة - يعنى جبليها ـ ففعلوا ذلك وهو يقول: أحد أحد[4].

وعن عمير بن إسحاق قال: كان بلال إذا اشتد عليه العذاب قال: أحد أحد، فيقولون له: قل كما نقول فيقول: إن لسانى لا ينطق به ولا يحسنه[5].

---

(1) رواه ابن إسحق.

(2) رواه البلاذرى.

(3) رواه ابن سعد.

(4) رواه البلاذرى.

(5) رواه البلاذرى.

وقد ذكر بلال بعض العذاب الذى صب عليه، فقال. أعطشونى يوما وليلة، ثم أخرجونى فعذبونى فى الرمضاء فى يوم حار[1].

وكان ورقة بن نوفل ـ رضى الله عنه ـ يمر ببلال وهو يعذب، وهو يقول: أحد أحد. فيقول ورقة: أحد أحد، والله يا بلال.

ثم يقبل على أمية بن خلف ومن يصنع ذلك به من بنى جمح، فيقول: أحلف بالله لئن قتلتموه لأتخذنه حنانا.

حتى مر أبو بكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ وهم يصنعون به ذلك، وكانت دار أبى بكر فى بنى جمح فقال أبو بكر لأمية: ألا تتقى الله فى هذا المسكين حتى متى تعذبه؟ قال: أنت أفسدته فأنقذه مما ترى. قال أبو بكر: أفعل عندى غلام أسود أجلد منه وأقوى على دينك أعطيكه به، قال: قبلت، قال: هو لك، فأعطاه أبو بكر غلامه ذلك وأخذ بلالا فأعتقه.

ومنهم خباب بن الأرت، وكان من الثابتين فى البلاء، فعن الشعبى قال: أعطوهم ما أرادوا حين عذبوا إلا خباب بن الأرت،فجعلوا يلصقون ظهره بالأرض على الرضف حتى ذهب ماء متنه[2].

وقد روى أنه جاء إلى عمر ـ رضى الله عنه ـ فقال له عمر: ادنه ادنه، فأجلسه على متكئه وقال: ما أحد أحق بهذا المجلس منك إلا رجل واحد، قال: ومن هو يا أمير المؤمنين؟ قال: بلال ـ وفى رواية عمار بن ياسر ـ قال: ما هو بأحق منى. إن بلالا كان له فى المشركين من يمنعه الله به، ولم يكن لى أحد، لقد رأيتنى يوما وقد أوقدوا لى نارا، ثم سلقونى فيها، ثم وضع رجل رجله على صدرى، فما اتقيت الأرض إلا بظهرى).

ثم كشف خباب عن ظهره، فإذا هو قد برص[3].

وعن أبى صالح قال: كان خباب قينا وكان قد أسلم، فكان رسول الله ﷺ يألفه ويأتيه، فأخبرت بذلك مولاته، فكانت تأخذ الحديدة، وقد أحمتها فتضعها على رأسه، فشكى ذلك إلى رسول الله ﷺ، فقال: اللهم انصر خبابا، فاشتكت مولاته رأسها، وهى أم أنمار، فكانت تعوى مع الكلاب، فقيل لها اكتوى، فكان خباب يأخذ الحديدة قد أحماها فيكوى بها رأسها[4].

ومنهم صهيب بن سنان الرومى، فقد كان من المستضعفين من المؤمنين الذين كانوا يعذبون فى الله.

ومنهم عامر بن فهيرة، فقد كان عامر من المستضعفين، فكان يعذب بمكة ليرجع عن دينه حتى اشتراه أبو بكر وأعتقه[5].

وقد قال محمد بن كعب القرظى: كان عامر بن فهيرة يعذب حتى لا يدرى ما يقول[6].

ومنهم أبو فكيهة، وكان عبدا لصفوان بن أمية، فأسلم حين أسلم بلال، فمر به أبو بكر، وقد أخذه أمية بن خلف، فربط فى رجله حبلا وأمر به فجر، ثم ألقاه فى الرمضاء فمروا بجعل فقال: أليس هذا ربك فقال: الله ربى خلقنى وخلقك وخلق هذا الجعل، فغلظ عليك وجعل يخنقه، ومعه أخوه أبى بن خلف يقول: زده عذابا حتى يأتى محمد فيخلصه بسحره.

---

(1) رواه البلاذرى.
(2) رواه البلاذرى.
(3) رواه البلاذى.
(4) رواه البلاذرى.
(5) رواه البلاذرى.
(6) رواه ابن سعد.

فأخرجه نصف النهار فى شدة الحر مقيدا إلى الرمضاء ووضع على بطنه صخرة فدلع لسانه، فلم يزل على تلك الحال حتى ظنوا أنه قد مات، ثم أفاق فمر به أبو بكر، فاشتراه وأعتقه.

ومنهم عمار بن ياسر وأبوه وأمه سمية وأخوه عبد الله - رضى الله عنهم - فعن مجاهد قال: أول من أظهر الإسلام أبو بكر وبلال وخباب وصهيب وعمار، فأما رسول الله ﷺ فمنعه الله بعمه، وأما أبو بكر فمنعه قومه، وأما الآخرون فألبسوا دروع الحديد، وصهروا فى الشمس حتى بلغ الجهد منهم، وجاء أبو جهل إلى سمية فطعنها فى قلبها فهى أول شهيدة فى الإسلام(1).

وقد ذكره محمد بن كعب القرظى، فقال: أخبرنى من رأى عمار بن ياسر متجردا فى سراويل.

قال: ونظرت إلى ظهره، فإذا فيه حبط فقلت: ما هذا؟ قال: هذا ما كانت قريش تعذبنى فى رمضاء مكة(2).

وعن أم هانئ - رضى الله عنها - أن عمار بن ياسر وأباه ياسرا وأخاه عبد الله وأمه سمية كانوا يعذبون فى الله فمر بهم رسول الله ﷺ، فقال: صبرا آل ياسر فإن موعدكم الجنة.

فمات ياسر فى العذاب وأغلظت سمية لأبى جهل، فطعنها فى قلبها فماتت، ورمى عبد الله فسقط(3).

ومنهم جارية بنى المؤمل بن حبيب، وكان يقال لها لبيبة، أسلمت قبل إسلام عمر بن الخطاب، فكان عمر يعذبها حتى يفتر، فيدعها، ثم يقول: أما إنى أعتذر إليك بأنى لم أدعك إلا سآمة، فتقول: كذلك يعذبك ربك إن لم تسلم(4).

وعن حسان قال: قدمت مكة معتمرا والنبى ﷺ وأصحابه يؤذون ويعذبون، فوقفت على عمر، وهو متوزر يخنق جارية بنى عمرو بن المؤمل حتى تسترخى فى يديه، فأقول قد ماتت، فاشتراها أبو بكر فأعتقها(5).

ومنهم زنيرة الرومية، كان عمر بن الخطاب وأبو جهل يعذبانها، وكان أبو جهل يقول: ألا تعجبون لهؤلاء واتباعهم محمدا؟ فلو كان ما أتى به محمد خيرا وحقا ما سبقونا إليه، أفسبقتنا زنيرة إلى رشد وهى من ترون.

وكانت زنيرة قد عذبت حتى عميت، فقال لها أبو جهل: إن اللات والعزى فعلتا بك ما ترين، فقالت، وهى لا تبصر: وما تدرى اللات والعزى من يعبدهما، ولكن هذا أمر من السماء، وربى قادر على أن يرد بصرى.

فأصبحت تلك الليلة وقد رد الله بصرها، فقالت قريش: هذا من سحر محمد فاشتراها أبو بكر - رضى الله عنه - فأعتقها(6).

ومنهم أم عنيس هى أمة لبنى زهرة، وكان الأسود بن عبد يغوث يعذبها فابتاعها أبو بكر.

ومنهم النهدية وابنتها، وكانت مولدة لبنى نهد بن زيد، فصارت لامرأة من بنى عبد الدار، فكانت تعذبهما وتقول: والله لا أقلعت عنكما أو يعتقكما بعض من صبأ بكما.

---

(1) رواه البلاذرى والبيهقى.

(2) رواه ابن سعد.

(3) رواه البلاذرى والحاكم.

(4) رواه البلاذرى.

(5) رواه ابن سعد.

(6) رواه البلاذرى.

فمر بهما أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ وقد بعثتهما فى طحين لها، وهى تقول: والله لا أعتقكما أبدا، فقال: حل يا أم فلان، فقالت: حل أنت والله أفسدتهما، فأعتقهما، قال: فبكم هما؟ قالت: بكذا وكذا، قال: قد أخذتهما به وهما حرتان، أرجعا إليها طحينها. قالتا: أو نفرغ منه يا أبا بكر، ثم نرده إليها قال: أو ذاكما إن شئتما[1].

ومنهم أم بلال حمامة، فقد كانت ممن كان يعذب فى الله، فاشتراها أبو بكر وأعتقها[2].

وغيرها كثير..

هل يمكن لمدع كاذب أن يرى كل ذلك، وهو فى رحمة محمد ورقته وحسن خلقه، يترك أصحابه لذلك الحال، ثم لا يتراجع قيد أنملة عن مبادئه.

لقد ذكر خباب كيف شكا لرسول الله ﷺ ما يصيبهم من أنواع البلاء، وإجابة رسول الله ﷺ له، وهى تدل بحد ذاتها على الصدق العظيم الذى كان يحمله قلب محمد ﷺ.

قال خباب: أتيت رسول الله ﷺ، وهو متوسد برده فى ظل الكعبة، ولقد لقينا من المشركين شدة شديدة، فقلت: يا رسول الله ألا تدعو الله لنا؟ فقعد محمرا وجهه فقال: إن كان من كان قبلكم ليمشط أحدهم بأمشاط الحديد ما دون عظمه من لحم وعصب ما يصرفه ذلك عن دينه، ويوضع المنشار على مفرق رأس أحدهم، فيشق باثنتين ما يصرفه ذلك عن دينه، وليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضر موت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه[3].

بهذا أجاب رسول الله ﷺ المستضعفين الذين علمهم القرآن الكريم أن يضحوا بكل شىء فى سبيل الله، لقد ذكر الله تعالى لهم قصة أصحاب الأخدود، فقال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ۝١ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ۝٢ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ۝٣ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ۝٤ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ۝٥ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝٦ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝٧ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ۝٨ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝٩ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ۝١٠﴾ [البروج].

ولم يكن للمستضعفين فى ذلك الوقت من أنيس غير القرآن الكريم، وحقائق القرآن الكريم التى كانت أعظم مثبت لهم، وقد ذكر الله تعالى غاية نزول القرآن منجما، فقال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ۝٣٢﴾ [الفرقان].

ولما اشتد الأذى بأصحاب محمد ﷺ أمرهم بالهجرة إلى الحبشة، ولم تدعهم قريش يهاجرون بدينهم، بل تعقبتهم تحاول استئصالهم، فاختاروا رجلين جلدين لبيبين، وهما: عمرو بن العاص، وعبد الله بن أبى ربيعة ـ قبل أن يسلما ـ وأرسلوا معهما الهدايا المستطرفة للنجاشى ولبطارقته، وبعد أن ساق الرجلان تلك الهدايا إلى البطارقة، وزوداهم بالحجج التى يطرد بها أولئك المسلمون، وبعد أن اتفقت البطارقة أن يشيروا على النجاشى بإقصائهم، حضرا إلى النجاشى، وقدما له الهدايا ثم كلماه فقالا له: أيها الملك، إنه قد ضوى إلى بلدك غلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا فى دينك، وجاءوا بدين ابتدعوه، لا نعرفه نحن ولا أنت، وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم؛ لتردهم إليهم، فهم أعلى بهم عينًا، وأعلم بما عابوا عليهم، وعاتبوهم فيه.

---

(1) رواه البلاذرى.

(2) ذكرها أبو عمر فى الدرر، وأهملها أبو عمر فى الاستيعاب واستدركوها على الاستيعاب.

(3) رواه البخارى ومحمد بن عمر الأسلمى والبيهقى.

وقالت البطارقة: صدقا أيها الملك، فأسلمهم إليهما، فليرداهم إلى قومهم وبلادهم.

ولكن رأى النجاشي أنه لا بد من تمحيص القضية، وسماع أطرافها جميعًا، فأرسل إلى المسلمين، ودعاهم، فحضروا، وكانوا قد أجمعوا على الصدق كائنًا ما كان. فقال لهم النجاشي: ما هذا الدين الذى فارقتم فيه قومكم، ولم تدخلوا به فى دينى ولا دين أحد من هذه الملل؟

قال جعفر بن أبى طالب ـ وكان هو المتكلم عن المسلمين ـ: أيها الملك كنا قومًا أهل جاهلية؛ نعبد الأصنام ونأكل الميتة، ونأتى الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسىء الجوار، ويأكل منا القوى الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات، وأمرنا أن نعبد الله وحده، لا نشرك به شيئًا، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام ـ فعدد عليه أمور الإسلام ـ فصدقناه، وآمنا به، واتبعناه على ما جاءنا به من دين الله، فعبدنا الله وحده، فلم نشرك به شيئًا، وحرمنا ما حرم علينا، وأحللنا ما أحل لنا، فعدا علينا قومنا، فعذبونا وفتنونا عن ديننا؛ ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلادك، واخترناك على من سواك، ورغبنا فى جوارك، ورجونا ألا نظلم عندك أيها الملك.

فقال له النجاشي: هل معك مما جاء به عن الله من شىء؟ فقال له جعفر: نعم. فقال له النجاشي: فاقرأه على، فقرأ عليه صدراً من سورة مريم، وهى تذكر قصة ميلاد المسيح، فبكى النجاشي حتى اخضلت لحيته، وبكت أساقفته حتى أخضَلُوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلا عليهم، ثم قال لهم النجاشي: إن هذا والذى جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة، انطلقا، فلا والله لا أسلمهم إليكما، ولا يكادون ـ يخاطب عمرو بن العاص وصاحبه ـ فخرجا.

فلما خرجا قال عمرو بن العاص لعبد الله بن أبى ربيعة: والله لآتينه غداً عنهم بما أستأصل به خضراءهم. فقال له عبد الله بن أبى ربيعة: لا تفعل، فإن لهم أرحامًا وإن كانوا قد خالفونا، ولكن أصر عمرو على رأيه.

فلما كان الغد قال للنجاشي: أيها الملك، إنهم يقولون فى عيسى ابن مريم قولاً عظيمًا، فأرسل إليهم النجاشي يسألهم عن قولهم فى المسيح ففزعوا، ولكن أجمعوا على الصدق، كائنًا ما كان، فلما دخلوا عليه وسألهم، قال له جعفر: نقول فيه الذى جاءنا به نبينا ﷺ: هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البَتُول.

فأخذ النجاشي عوداً من الأرض ثم قال: والله ما عدا عيسى ابن مريم ما قلت هذا العود، فتناخرت بطارقته، فقال: وإن نَخَرْتُم والله.

ثم قال للمسلمين: اذهبوا فأنتم شُيُومٌ بأرضى ـ والشيوم: الآمنون بلسان الحبشة ـ من سبَّكم غَرِم، من سبكم غرم، من سبكم غرم، ما أحب أن لى دَبْراً من ذهب وإنى آذيت رجلاً منكم ـ والدبر: الجبل بلسان الحبشة.

ثم قال لحاشيته: ردّوا عليهما هداياهما فلا حاجة لى بها، فوالله ما أخذ الله منى الرشوة حين رد على ملكى، فآخذ الرشوة فيه، وما أطاع الناس فى فأطيعهم فيه.

قالت أم سلمة التى تروى هذه القصة: فخرجا من عنده مقبوحين مردوداً عليهما ما جاءا به، وأقمنا عنده بخير دار مع خير جار.

ولما أخفق المشركون فى مكيدتهم، وفشلوا فى استرداد المهاجرين استشاطوا غضبًا، وكادوا يتميزون غيظًا، فاشتدت ضراوتهم وانقضوا على بقية المسلمين، ومدوا أيديهم إلى رسول الله ﷺ بالسوء، وظهرت منهم تصرفات تدل على أنهم أرادوا القضاء على رسول الله ﷺ؛ ليستأصلوا جذور الفتنة التى أقضت مضاجعهم، حسب زعمهم.

أما بالنسبة للمسلمين فإن الباقين منهم فى مكة كانوا قليلين جدًا، وكانوا إما ذوى شرف ومنعة، أو محتمين بجوار أحد، ومع ذلك كانوا يخفون إسلامهم ويبتعدون عن أعين الطغاة بقدر الإمكان، ولكنهم مع هذه الحيطة والحذر لم يسلموا كل السلامة من الأذى والخسف والجور[1].

* * *

**الحصار الاقتصادى:**

عندما رأى أعداء محمد ﷺ أن البلاء الذى يعرضونه له لم يزده إلا ثباتا اختاروا أسلوبا جديدا من الأساليب التى لا يزال الطغاة يمارسونها.

إنه أسلوب التجويع الذى تعرفونه، والذى ـ ربما ـ يكون قد مورس عليكم.

قال رجل منهم: أجل.. بل نحن لا نقاد أفرادا أو شعوبا إلا منه.. بل إن كرامتنا تهدر فنقف صامتين بسببه.

قال عبد القادر: ولكن محمدا ﷺ لم يلن، ولم يضعف، ولم يتزلزل أمام ذلك الحصار الذى مورس عليه، وعلى المقربين إليه، وسأحدثكم بقصة ذلك.

لقد ورد بأسانيد مختلفة عن موسى بن عقبة، وعن ابن اسحاق، وعن غيرهما أن كفار قريش أجمعوا أمرهم على قتل رسول الله ﷺ، وكلموا فى ذلك بنى هاشم وبنى المطلب، ولكنهم أبوا تسليمه ﷺ.

فلما عجزت قريش عن قتله أجمعوا على منابذته ومنابذة من معه من المسلمين ومن يحميه من بنى هاشم وبنى المطلب، فكتبوا بذلك كتابًا تعاقدوا فيه على ألا يناكحوهم ولا يبايعوهم، ولا يدعوا سببًا من أسباب الرزق يصل إليهم، ولا يقبلوا منهم صلحًا، ولا تأخذهم بهم رأفة، حتى يسلم بنو عبد المطلب رسول الله ﷺ للقتل، وعلقوا الكتاب فى جوف الكعبة.

والتزم كفار قريش بهذا الكتاب ثلاث سنوات، بدءاً من محرم سنة سبع من البعثة إلى السنة العاشرة منها[2].

فى هذه المدة حوصر بنو هاشم وبنو المطلب ومن معهم من المسلمين، ومعهم رسول الله ﷺ فى شعب بنى المطلب، وقد كانت شعاب مكة متفرقة.

وفى تلك الشعاب اجتمع بنو هاشم وبنو المطلب المسلمون منهم وغير المسلمين[3]، وذلك ما زاد البلاء شدة، فلو كان المسلمون وحدهم لكان لهم من دينهم ما يدعوهم إلى الثبات، ويدعو محمدا ﷺ إلى الطمأنينة، ولكن اشتراك غيرهم معهم فيه مشقة نفسية كبيرة لقلب محمد ﷺ.

فى تلك السنوات جهد النبى ﷺ والمسلمون جهداً شديداً، واشتد عليهم البلاء، حتى كانوا يأكلون الخبط وورق الشجر.

---

(1) انظر: الرحيق المختوم.

(2) وقيل استمر ذلك سنتين فقط، ورواية موسى بن عقبة تدل على أن ذلك كان قبل أمر رسول الله ﷺ أصحابه بالهجرة إلى الحبشة، وإنما أمرهم بها أثناء هذا الحصار، أما رواية ابن إسحاق فتدل على أن كتابة الصحيفة كانت بعد هجرة أصحابه ﷺ إلى الحبشة وبعد إسلام عمر.

(3) إلا ما كان من أبى لهب، عبد العزى بن عبد المطلب، فإنه خرج إلى قريش فظاهر النبى ﷺ وأصحابه.

وكانوا إذا قدمت العير مكة، يأتى أحد أصحاب رسول الله ﷺ إلى السوق ليشترى شيئا من الطعام يقتاته لأهله، فيقوم أبو لهب فيقول: يا معشر التجار غالوا على أصحاب محمد حتى لا يدركوا شيئًا معكم، فيزيدون عليهم فى السلعة قيمتها أضعافا حتى يرجع إلى أطفاله، وهم يتضاغون من الجوع، وليس فى يده شيء يعللهم به.

ولكن الله قدر لهذا الحصار الظالم أن ينقضى.. ولذلك الانقضاء قصة لها علاقة بآية من آيات النبوة.

بعد ثلاث سنوات من بدء هذا الحصار، تلاوم قوم من بنى قصى، فأجمعوا أمرهم على نقض ما تعاهدوا عليه، وأرسل الله على صحيفتهم التى كتب فيها نص المعاهدة الأرضة فأتت على معظم ما فيها من ميثاق وعهد، ولم يسلم من ذلك إلا الكلمات التى فيها ذكر الله عز وجل.

وقد أخبر الرسول ﷺ عمه أبا طالب بذلك، فقال له أبو طالب: أربك أخبرك بذلك؟ قال: نعم، فمضى فى عصابة من قومه إلى قريش، فطلب منهم أن يأتوه بالصحيفة موهمًا إياهم أنه نازل عند شروطهم، فجاءوا بها وهى مطوية، فقال أبو طالب: إن ابن أخى قد أخبرنى ولم يكذبنى قط، أن الله تعالى قد سلط على صحيفتكم التى كتبتم الأرضة، فأتت على كل ما كان فيها من جور وقطيعة رحم، فإن كان الحديث كما يقول، فأفيقوا وارجعوا عن سوء رأيكم، فوالله لا نسلمه حتى نموت من عند آخرنا، وإن كان الذى يقول باطلا دفعنا إليكم صاحبنا، ففعلتم به ما تشاءون، فقالوا: قد رضينا بالذى تقول.

ففتحوا الصحيفة، فوجدوا الأمر كما أخبر الصادق المصدوق ﷺ فقالوا: هذا سحر ابن أخيك، وزادهم ذلك بغيًا وعدوانًا.

ثم إن خمسة من رؤساء المشركين من قريش، مشوا فى نقض الصحيفة، وإنهاء هذا الحصار، وهم: هشام بن عمر بن الحارث، وزهير بن أمية، والمطعم بن عدى، وأبو البخترى بن هشام، وزمعة بن الأسود.

وكان أول من سعى إلى نقضها بصريح الدعوة زهير بن أمية، الذى أقبل على الناس عند الكعبة فقال: يا أهل مكة، أنأكل الطعام ونلبس الثياب وبنو هاشم والمطلب هلكى لا يباعون ولا يبتاع منهم؟ والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة، ثم قال بقية الخمسة نحوًا من هذا الكلام، ثم قام المطعم بن عدى إلى الصحيفة فمزقها، ثم انطلق هؤلاء الخمسة ومعهم جماعة، إلى بنى هاشم وبنى المطلب ومن معهم من المسلمين فأمروهم بالخروج إلى مساكنهم.

**الإذاية النفسية:**

لم يكتف أعداء محمد ﷺ بكل ذلك، بل كانوا منذ بدء الدعوة يستعملون كل ما تملى عليهم شياطينهم من أساليب الإذاية النفسية، حيث وصفوه بالجنون والسحر، وإنشاء الشعر مع إيمانهم وتيقنهم بأنه ﷺ برىء من كل ذلك.

وقد ذكر الله تعالى فى القرآن الكريم بعض أقاويلهم:

ومنها رميهم له بالجنون، كما قال تعالى حاكيًا عنهم: ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾﴾ [الحجر]، وقال تعالى: ﴿وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾﴾ [القلم].

وهو نفس ما رمى به غير رسول الله ﷺ من الأنبياء، كما قال تعالى: ﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾﴾ [الشعراء]، وقال تعالى: ﴿فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾﴾

[الذاريات]، وقال تعالى: ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾﴾ [الذاريات]، وقال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ﴿٩﴾﴾ [القمر].

ومنها رميهم له بالسحر، كما قال تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾﴾ [يونس]، وقال تعالى: ﴿وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَٰذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾﴾ [ص].

وهو نفس ما رمى به غير رسول الله ﷺ من الأنبياء، كما قال تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾﴾ [الأعراف]، وقال تعالى: ﴿قَالَ مُوسَىٰ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [يونس]، وقال تعالى: ﴿قَالُوا إِنْ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾﴾ [طه].

ومنها رميهم له بالشعر، مع علمهم بأن القرآن الكريم ليس له أوزان الشعر ولا طريقته قال تعالى: ﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ ﴿٥﴾﴾ [الأنبياء]، وقال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴿٣٦﴾﴾ [الصافات]، وقال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ ﴿٣٠﴾﴾ [الطور]، وقال تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الحاقة].

ومنها رميهم له بالكهانة، كما قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾﴾ [الطور]، وقال تعالى: ﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [الحاقة].

ومنها احتقاره ورؤية قصوره عن هذه المرتبة الرفيعة، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ [الزخرف].

وغيرها من أصناف الافتراءات التى ووجه بها سائر الأنبياء ـ عليهم السلام ـ.

وقد حدث ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ عن بعض تلك الافتراءات التى قوبل بها رسول الله ﷺ فى مكة المكرمة، فذكر أن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبى ﷺ، فقرأ عليه القرآن، فكأنه رق له فبلغ ذلك أبا جهل فأتاه فقال: يا عم إن قومك يرون أن يجمعوا لك مالاً، فقال: لم؟ قال: ليعطوكه، وإنك آتيت محمداً لتعرض لما قبله. قال: قد علمت قريش أنّى من أكثرها مالاً، قال: فقل فيه قولاً يبلغ قومك إنك منكر له أو إنّك كاره له. قال: وماذا أقول؟، فوالله ما فيكم رجل أعلم بالأشعار منّى ولا أعلم برجز ولا بقصيدة منّى ولا بأشعار الجن والله ما يشبه الذى يقول شيئًا من هذا والله إنّ قوله الذى يقول لحلاوة وإنّ عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه مغدق أسفله، وإنه ليعلو وما يعلى وإنه ليحطم ما تحته، قال: لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه. قال: فدعنى حتى أفكر، ففكر، فلمّا فكر قال: هذا سحر يؤثره عن غيره، فنزلت: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾﴾ [المدثر][1].

ومن ذلك ما قوبل به رسول الله ﷺ من معاملة سيئة فى الطائف عندما ذهب إلى أهلها يعرض عليهم الإسلام، وقد حدث علماء السيرة بأسانيدهم عن ذلك، فذكروا أنه لما مات أبو طالب ونالت قريش من رسول الله ﷺ ما لم تكن تنال منه فى حياته خرج رسول الله ﷺ إلى الطائف ماشيا، وكان زيد بن حارثة معه، فى ليال من شوال سنة عشر، يلتمس النصر من ثقيف والمنعة بهم من قومه، ورجا أن يقبلوا منه ما جاءهم به من الله تعالى.

فلما انتهى إلى الطائف عمد إلى نفر من ثقيف هم يومئذ سادة ثقيف وأشرافهم وهم إخوة ثلاثة عبد ياليل ومسعود وحبيب بنو عمرو بن عمير بن عوف، وعند أحدهم امرأة من قريش من بنى جمح، وهى صفية بنت معمر ابن حبيب بن قدامة بن جمح، وهى أم صفوان بن أمية.

---

(1) رواه الحاكم.

فجلس إليهم رسول الله ﷺ وكلمهم بما جاء به من نصرته على الإسلام والقيام على من خالفه من قومه.

فقال له أحدهم: هو يمرط ثياب الكعبة إن كان الله أرسلك.

وقال الآخر: أما وجد الله أحدا يرسله غيرك.

وقال الثالث: والله لا أكلمك أبدا، لئن كنت رسولا من الله كما تقول لأنت أعظم خطرا من أن أرد عليك الكلام، ولئن كنت تكذب على الله ما ينبغى لى أن أكلمك.

فقام رسول الله ﷺ من عندهم وقد يئس من خير ثقيف، وقد قال لهم: إذ فعلتم فاكتموا على، وكره رسول الله ﷺ أن يبلغ قومه.

فأقام بالطائف عشرة أيام وقيل شهرا لا يدع أحدا من أشرافهم إلا جاء إليه وكلمه، فلم يجيبوه وخافوا على أحداثهم منه فقالوا: يا محمد اخرج من بلدنا.

ولم يكتفوا بكل ذلك.. بل ضموا إلى هذه الإذاية النفسية الشديدة الإذاية الجسدية، فقد أغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبونه ويصيحون به حتى اجتمع عليه الناس.

قال ابن عقبة: وقفوا له صفين على طريقه، فلما مر رسول الله ﷺ بين الصفين جعل لا يرفع رجليه ولا يضعهما إلا رضخوهما بالحجارة حتى أدموا رجليه.

وكان ﷺ إذا أذلقته الحجارة يقعد إلى الأرض، فيأخذون بعضديه ويقيمونه فإذا مشى رجموه بالحجارة وهم يضحكون.

قال ابن سعد: وزيد بن حارثة يقيه بنفسه حتى لقد شج فى رأسه شجاجا.

قال ابن عقبة: فخلص منهم ورجلاه تسيلان دما فعمد إلى حائط من حوائطهم، فاستظل فى ظل حبلة منه وهو مكروب موجع وإذا فى الحائط عتبة وشيبة ابنا ربيعة، فلما رآهما كره مكانهما لما يعلم من عداوتهما لله ورسوله ﷺ.

فلما أتى ظل شجرة صلى ركعتين ثم قال: (اللهم إنى أشكو إليك ضعف قوتى وقلة حيلتى وهوانى على الناس يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين وأنت ربى إلى من تكلنى إلى بعيد يتجهمنى أو إلى عدو ملكته أمرى إن لم يكن بك على غضب فلا أبالى ولكن عافيتك هى أوسع لى، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بى غضبك أو تحل على سخطك لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك).

فلما رآه ابنا ربيعة وما لقى تحركت له رحمهما، فدعوا غلاما لهما يقال له عداس فقالا له: خذ له هذا القطف من هذا العنب فضعه فى هذا الطبق ثم اذهب به إلى ذلك الرجل فقل له يأكل منه.

ففعل عداس ثم أقبل به حتى وضعه بين يدى رسول الله ﷺ ثم قال له: كل، فلما وضع رسول الله ﷺ يده قال: بسم الله، ثم أكل فنظر عداس فى وجهه ثم قال: والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد.

فقال له رسول الله ﷺ: (ومن أى البلاد أنت يا عداس وما دينك؟)، قال: نصرانى وأنا من أهل نينوى.

فقال رسول الله ﷺ: من قرية الرجل الصالح يونس بن متى.

قال له عداس: وما يدريك ما يونس بن متى؟ والله لقد خرجت منها ـ يعنى من أهل نينوى ـ وما فيها عشرة يعرفون ما يونس بن متى، فمن أين عرفت أنت يونس بن متى، وأنت أمى وفى أمة أمية، فقال رسول الله ﷺ: (ذاك أخى كان نبيا وأنا نبى).

فأكب عداس على رسول الله ﷺ يقبل رأسه ويديه وقدميه، فقال ابنا ربيعة أحدهما لصاحبه: أما غلامك فقد أفسده عليك.

فلما جاءهما عداس قالا له: ويلك ما لك تقبل رأس هذا الرجل ويديه وقدميه؟ قال: يا سيدى ما فى الأرض خير من هذا الرجل، لقد أعلمنى بأمر لا يعلمه إلا نبى.

قال: ويحك يا عداس لا يصرفنك عن دينك، فإن دينك خير من دينه.

فانصرف رسول الله ﷺ عنهم، وهو محزون لم يستجب له رجل واحد ولا امرأة[1].

وذكر خالد العدوانى أنه أبصر رسول الله ﷺ فى سوق ثقيف وهو قائم على قوس أو عصا حين أتاهم يبتغى عندهم النصر فسمعته يقرأ: ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ۝١﴾ [الطارق] حتى ختمها، قال فوعيتها فى الجاهلية وأنا مشرك، ثم قرأتها فى الإسلام.

قال فدعتنى ثقيف فقالوا: ماذا سمعت من هذا الرجل فقرأتها عليهم، فقال من معهم من قريش: نحن أعلم بصاحبنا ولو كنا نعلم ما يقوله حقا لاتبعناه[2].

وفى ذلك الموقف الشديد عرضت على رسول الله ﷺ نصرة الله بهلاك الذين يؤذونه، ولكنه أبى رحمة بهم.

وقد حدثت عن ذلك عائشة ـ رضى الله عنها ـ حين قالت للنبى ﷺ: هل أتى عليك يوم كان أشد عليك من يوم أحد؟ فقال: لقد لقيت من قومك وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة، إذ عرضت نفسى على ابن عبد ياليل بن عبد كلال فلم يجبنى إلى ما أردت أحد، فانطلقت على وجهى وأنا مهموم فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب، فرفعت رأسى فإذا أنا بسحابة قد أظلتنى فنظرت فإذا فيها جبريل، فنادانى وقال: إن الله تعالى قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك وقد بعث إليك ملك الجبال فتأمره بما شئت فيهم.

فنادانى ملك الجبال فسلم على ثم قال: يا محمد إن الله قد سمع قول قومك وأنا ملك الجبال قد بعثنى الله عز وجل لتأمرنى بما شئت، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين.

فقال النبى ﷺ: (بل أرجو أن يخرج الله عز وجل من أصلابهم من يعبد الله عز وجل ولا يشرك به شيئا)[3].

وقال عكرمة: قال رسول الله ﷺ: جاءنى جبريل فقال: يا محمد إن ربك يقرئك السلام، وهذا ملك الجبال قد أرسله وأمره ألا يفعل شيئا إلا بأمرك.

فقال له ملك الجبال: إن شئت رمهت عليهم الجبال، وإن شئت خسفت بهم الأرض فقال: يا ملك الجبال: فإنى آتى بهم لعلهم أن يخرج منهم ذرية يقولون لا إله إلا الله، فقال ملك الجبال: أنت كما سماك ربك رؤوف رحيم)[4].

ولم يقتصر الإيذاء على الفترة المكية التى كان المسلمون فيها مستضعفين، بل تعداه إلى الفترة المدنية بعد هجرة النبى ﷺ، بل امتد إلى آخر حياة النبى ﷺ، ففى غزوة تبوك التى حل بالمسلمين فيها من النصب والتعب والجوع والعطش الشىء الكثير، استهزأ برسول الله ﷺ من استهزأ، فنزل الوحى يعلن كفر هؤلاء المستهزئين، قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ۝٦٥﴾ [التوبة].

---

(1) رواه الطبرانى برجال ثقات.
(2) رواه أحمد والبخارى فى تاريخه.
(3) رواه البخارى ومسلم.
(4) رواه ابن أبى حاتم مرسلا.

وقد ورد في سبب نزولها عن محمد بن كعب القرظي وغيره قالوا: قال رجل من المنافقين: ما أرى قراؤنا هؤلاء إلا أرغبنا بطونًا، وأكذبنا ألسنة، وأجبننا عن اللقاء، فرفع ذلك إلى رسول الله ﷺ، وقد ارتحل وركب ناقته فقال: يارسول الله؛ إنما كنا نخوض ونلعب فقال: ﴿... أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [التوبة].

وقال قتادة: بينما رسول الله ﷺ في غزوة تبوك وبين يديه ناس من المنافقين إذ قالوا: أيرجو هذا الرجل أن يفتح قصور الشام وحصونها؟ هيهات هيهات له ذلك، فأطلع الله نبيه على ذلك، فقال نبي الله ﷺ: (احبسوا عليَّ الركب)، فأتاهم فقال: (قلتم كذا وكذا)، فقالوا: يارسول الله إنما كنا نخوض ونلعب، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

قال ابن إسحاق: وقد كان جماعة من المنافقين منهم وديعة بن ثابت أخو بني أمية بن زيد من بني عمرو بن عوف ورجل من أشجع حليف لبني سلمة يقال له مخشن بن حمير يشيرون إلى رسول الله ﷺ وهو منطلق إلى تبوك، فقال بعضهم لبعض: أتحسبون أن جلاد بني الأصفر كقتال العرب بعضهم بعضًا؟ والله لكأنا بكم غدًا مقرنين في الحبال، إرجافًا وترهيبًا للمؤمنين، فقال مخشن بن حمير: والله لوددت أني أقاضى على أن يضرب كل رجل منا مائة جلدة، وإنا ننفلت أن ينزل فينا قرآن لمقالتكم هذه، وقال رسول الله ﷺ لعمار بن ياسر: (أدرك القوم فإنهم قد احترقوا فسلهم عما قالوا، فإن أنكروا فقل: بلى، قلتم كذا وكذا)، فانطلق إليهم عمار، فقال ذلك لهم، فأتوا رسول الله ﷺ يعتذرون إليه، فقال وديعة بن ثابت، ورسول الله ﷺ واقف على راحلته، فجعل يقول ـ وهو آخذ بحقبها ـ: يارسول الله؛ إنما كنا نخوض ونلعب، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [التوبة].

فقال مخشن بن حمير: يا رسول الله؛ قعد بي اسمي واسم أبي فكان الذي عفي عنه في هذه الآية مخشن بن حمير فتسمى عبد الرحمن، وسأل الله أن يُقتل شهيدًا لا يعلم بمكانه، فقتل يوم اليمامة فلم يوجد له أثر.

ومن صور الاستهزاء ما حدث في الطريق إلى تبوك حيث ضلت ناقة الرسول ﷺ، فقال زيد بن اللُّصيت ـ وكان منافقًا ـ: أليس يزعم أنه نبي، ويخبركم عن خبر السماء وهو لا يدري أين ناقته؟ فقال رسول الله ﷺ: إن رجلاً يقول وذكر مقالته، وإني والله لا أعلم إلا ما علمني الله، وقد دلني الله عليها، هي في الوادي في شِعب كذا وكذا، وقد حبستها شجرة بزمامها، فانطلقوا حتى تأتوني بها فذهبوا فأتوه بها.

وقد ذكر القرآن الكريم بعض ما تعرض له ﷺ من أنواع الأذى النفسي في تلك الفترة، فقال: ﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾﴾ [التوبة].

ومع أن الغلبة كانت للمسلمين إلا أن الله تعالى أمر المؤمنين بأن يقابلوا تلك الأنواع من الأذى بالتحمل والصبر والعفو، قال تعالى: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾﴾ [آل عمران].

وقال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾﴾ [البقرة].

وقد حدث كعب بن مالك ـ رضي الله عنه ـ عن بعض ذلك، فقال: كان المشركون واليهود

من أهل المدينة حين قدم رسول الله ﷺ يؤذون رسول الله ﷺ وأصحابه أشد الأذى، فأمرهم الله تعالى بالصبر على ذلك والعفو عنهم[1].

**الإذاية الجسدية:**

ولم يكتف أعداء محمد ﷺ بذلك أيضا، بل راحوا يؤذون جسده الشريف، ويحاولون قتله.

فمن ذلك محاولة قتله، إما بخنقه ﷺ كما فعل عقبة بن أبي معيط، فعن عمرو بن العاص لما سأله عروة بن الزبير عن أشد ما صنع المشركون برسول الله ﷺ قال: بينا رسول الله ﷺ يصلى فى حجر الكعبة إذ أقبل عقبة ابن أبى معيط فأخذ بمنكب رسول الله ﷺ، فوضع ثوبه فى عنقه، فخنقه خنقًا شديدًا، فأقبل أبو بكر حتى أخذ بمنكبه، ودفع عن النبى ﷺ، وقال: ﴿...أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ ... ﴿٢٨﴾﴾ [غافر][2].

أو بإلقاء حجر عليه، كما حاول أبو جهل، فقد روى أنه قال لقريش: يا معشر قريش، إن محمداً قد أبى إلا ما ترون من عيب ديننا، وشتم آبائنا، وتسفيه أحلامنا، وشتم آلهتنا، وأنى أعاهد الله لأجلسن له بحجر ما أطيق حمله، فإذا سجد فى صلاته فضخت به رأسه، فأسلمونى عند ذلك أو امنعونى، فليصنع بعد ذلك بنو عبد مناف ما بدا لهم، قالوا: والله لا نسلمك لشىء أبدًا، فامض لما تريد.

فلما أصبح أبو جهل، أخذ حجراً كما وصف، ثم جلس لرسول الله ﷺ ينتظره، وغدا رسول الله ﷺ كما كان يغدو، فقام يصلى، وقد غدت قريش فجلسوا فى أنديتهم ينتظرون ما أبو جهل فاعل، فلما سجد رسول الله ﷺ احتمل أبو جهل الحجر، ثم أقبل نحوه، حتى إذا دنا منه رجع منهزمًا ممتقعًا لونه، مرعوبًا قد يبست يداه على حجره، حتى قذف الحجر من يده، وقامت إليه رجال قريش فقالوا له: ما لك يا أبا الحكم؟ قال: قمت إليه لأفعل به ما قلت لكم البارحة، فلما دنوت منه عرض لى دونه فَحْلٌ من الإبل، لا والله ما رأيت مثل هَامَتِه، ولا مثل قَصَرَتِه ولا أنيابه لفحل قط، فَهَمَّ بى أن يأكلنى.

قال ابن إسحاق: فذكر لى أن رسول الله ﷺ قال: (ذلك جبريل عليه السلام لو دنا لأخذه).

ومن الإيذاء الجسدى إلقاء القاذورات عليه ﷺ كما فعل عقبة بن معيط، فعن عبد الله بن عمرو بن العاص ـ رضى الله عنه ـ قال: بينا النبى ﷺ ساجد وحوله ناس من قريش جاء عقبة بن أبى معيط بسلا جزور فقذفه على ظهر النبى ﷺ، فلم يرفع رأسه فجاءت فاطمة عليها السلام فأخذته من ظهره ودعت على من صنع فقال النبى ﷺ: (اللهم عليك بالملأ من قريش أبا جهل بن هشام بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأمية بن خلف أو أبى بن خلف)، فرأيتهم قتلوا يوم بدر فألقوا فى بئر إلا أمية أو أبى، تقطعت أوصاله فلم يلق فى البئر[3].

ومن ذلك التآمر على قتله ﷺ، فعن ابن عباس ـ رضى الله عنه ـ أن الملأ من قريش اجتمعوا فى الحجر، فتعاقدوا باللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ونائلة وإساف لو قد رأينا محمداً لقمنا إليه قيام رجل واحد، فلم نفارقه حتى نقتله، فأقبلت ابنته فاطمة تبكى حتى دخلت على النبى ﷺ، فقالت: هؤلاء الملأ من قومك قد تعاقدوا عليك لو قد رأوك لقاموا إليك فقتلوك فليس منهم رجل إلا قد عرف نصيبه من دمك.

وقد أشار القرآن إلى تلك الحادثة بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنفال].

وغير ذلك كثير..

---

(1) رواه أبو داود وابن المنذر والبيهقى.

(2) رواه البخارى.

(3) رواه البخارى.

## 2 - فتنة السراء

نظر عبد القادر إلى الجموع المحدقة إليه، وقال: لم يكتف أعداء محمد ﷺ بما واجهوه به من فتنة الضراء، بل راحوا يواجهونه بفتنة أخطر وأعظم. . فتنة السراء.

ضحك مستأجر بولس ضحكا هستيريا، وقال: فتنة السراء. . وهل للسراء فتنة؟

قال عبد القادر: فتنة السراء أخطر من فتنة الضراء، ولهذا كان الثبات فى السراء على المبادئ أصعب منه فى الضراء، ولهذا قال من قال من الصحابة ـ رضى الله عنهم ـ: (بلينا بفتنة الضراء فصبرنا، وبلينا بفتنة السراء فلم نصبر).

بل ورد فى الحديث الشريف قوله ﷺ: (لأنا فى فتنة السراء لأخوف عليكم منى فى فتنة الضراء، إنكم ابتليتم بفتنة الضراء فصبرتم، وإن الدنيا حلوة خضرة)[1].

وقد تعرض رسول الله ﷺ لفتن كثيرة من فتن السراء:

**مساومات:**

منها ما تعرض له من أنواع المساومات. .

فقد لجأت قريش لما فشلت مفاوضاتهم المبنية على الإغراء والترغيب، والتهديد والترهيب، وخابوا فيما أبدوه من الرعونة وقصد الفتك، تيقظت فيهم رغبة الوصول إلى حل حصيف ينقذهم عما هم فيه، ولم يكونوا يجزمون أن النبى ﷺ على باطل، بل كانوا، كما قال الله تعالى: ﴿ ...لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾ ﴾ [الشورى]. فرأوا أن يساوموه ﷺ فى أمور الدين، ويلتقوا به فى منتصف الطريق، فيتركوا بعض ما هم عليه، ويطالبوا النبى ﷺ بترك بعض ما هو عليه، وظنوا أنهم بهذا الطريق سيصيبون الحق، إن كان ما يدعو إليه النبى ﷺ حقًا.

ومن ذلك مساومته فى أن يعبد إلههم سنة، ويعبدون إلهه سنة، وأن يسكت عن عيب آلهتهم وعبادتهم.

لقد تصور المشركون أن المسافة بينهم وبين محمد ﷺ قريبة، يمكن التفاهم عليها، بقسمة البلد بلدين، والالتقاء فى منتصف الطريق، مع بعض الترضيات الشخصية.

ولحسم هذه الشبهة، وقطع الطريق على المحاولة، والمفاصلة الحاسمة بين عبادة وعبادة، ومنهج ومنهج، وتصور وتصور، وطريق وطريق[2]، نزلت سورة الكافرون، التى تنص على المفاصلة التامة بين الإيمان والكفر، قال تعالى: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴿١﴾ لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾ ﴾ [الكافرون].

فبهذا الجزم، وبهذا التوكيد، وبهذا التكرار تأتى السورة لتنهى كل قول، وتقطع كل مساومة، وتفرق نهائيًا بين التوحيد والشرك، وتقيم المعالم واضحة، لا تقبل المساومة والجدل فى قليل ولا كثير:

ففيها نفى بعد نفى، وجزم بعد جزم، وتوكيد بعد توكيد، بكل أساليب النفى والجزم والتوكيد.

روى ابن إسحاق بسنده، قال: اعترض رسول الله ﷺ ـ وهو يطوف بالكعبة ـ الأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزى والوليد بن المغيرة وأمية ابن خلف والعاص بن وائل السهمى ـ وكانوا ذوى أسنان فى قومهم ـ فقالوا: يا محمد، هلم فلنعبد ما تعبد، وتعبد ما نعبد، فنشترك نحن وأنت

(1) رواه أبو نعيم فى الحلية.

(2) فى ظلال القرآن.

فى الأمر، فإن كان الذى تعبد خيراً مما نعبد كنا قد أخذنا بحظنا منه، وإن كان ما نعبد خيراً مما تعبد كنت قد أخذت بحظك منه، فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ۝١ لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝٣ وَلا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝٦﴾ [الكافرون].

وعن ابن عباس أن قريشًا قالت: لو استلمت آلهتنا لعبدنا إلهك. فأنزل الله ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ۝١﴾[1] السورة كلها.

وعنه أن قريشًا قالوا لرسول الله ﷺ: تعبد آلهتنا سنة، ونعبد إلهك سنة، فأنزل الله: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ۝٦٤﴾ [الزمر][2].

ولما حسم الله تعالى هذه المفاوضة المضحكة بهذه المفاصلة الجازمة لم تيأس قريش كل اليأس، بل أبدوا مزيدًا من التنازل بشرط أن يجرى النبى ﷺ بعض التعديل فيما جاء به من التعليمات، فقالوا: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ ... ۝١٥﴾ [يونس].

فقطع الله هذا السبيل أيضًا بإنزال ما يرد به النبى ﷺ عليهم فقال: ﴿...قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝١٥﴾ [يونس].

ونبه إلى عظم خطورة هذا العمل بقوله: ﴿وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لاَّتَّخَذُوكَ خَلِيلاً ۝٧٣ وَلَوْلا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً ۝٧٤ إِذًا لأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ۝٧٥﴾ [الإسراء].

ومن ذلك مساومته على أن يطرد المستضعفين، فعن عبد الله بن مسعود ـ رضى الله عنه ـ قال: مر الملأ من قريش على النبى ﷺ وعنده صهيب، وعمار، وبلال، وخباب، ونحوهم من ضعفاء المسلمين، فقالوا: يا محمد أرضيت بهؤلاء من قومك منّ الله عليهم من بيننا، أو نحن نكون تبعًا لهؤلاء؟ اطردهم عنك، فلعلك إن طردتهم أن نتبعك، فأنزل فيهم القرآن: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ۝٥١ وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ۝٥٢﴾ [الأنعام][3].

وعن عكرمة قال: مشى عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وقرظة بن عبد، وغيرهم فى أشراف الكفار من عبد مناف إلى أبى طالب فقالوا: لو أن ابن أخيك طرد عنا هؤلاء الأعبد، فإنهم عبيدنا وعسفاؤنا كان أعظم له فى صدورنا، وأطوع له عندنا، وأدنى لاتباعنا إياه وتصديقه، فذكر ذلك أبو طالب للنبى ﷺ، فقال عمر بن الخطاب: لو فعلت يا رسول الله حتى تنظر ما يريدون بقولهم، وما يصيرون إليه من أمرهم، فأنزل الله: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ۝٥١ وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ۝٥٢﴾ [الأنعام][4].

وقد استمر هذا النوع من المساومة حتى بعد هجرة النبى ﷺ، فعن عمر ابن عبد الله بن المهاجر مولى غفرة، أنه قال فى أسطوان التوبة: كان أكثر نافلة النبى ﷺ إليها، وكان إذا صلى الصبح

---

(1) رواه عَبْدُ بن حُمَيْد وغيره.

(2) رواه ابن جرير وغيره.

(3) رواه أحمد وابن جرير وابن أبى حاتم والطبرانى وأبو الشيخ وابن مردويه وأبو نعيم فى الحلية.

(4) رواه ابن جرير وابن المنذر.

انصرف إليها وقد سبق إليها الضعفاء، والمساكين، وأهل الضر، وضيفان النبي ﷺ والمؤلفة قلوبهم. ومن لا مبيت لـه إلا المسجد، قال. وقد تحلقوا حولها حلقًا بعضها دون بعض فينصرف إليهم من مصلاه من الصبح، فيتلو عليهم ما أنزل الله عليه من ليلته، ويحدثهم ويحدثونه حتى إذا طلعت الشمس جاء أهل الطول والشرف والغنى فلم يجدوا إليه مخلصًا، فتاقت أنفسهم إليه وتاقت نفسه إليهم، فأنزل الله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا (٢٨)﴾ [الكهف] إلى منتهى الآيتين، فلما نزل ذلك فيهم قالوا: يا رسول الله لو طردتهم عنا وتكون نحن جلساءك وإخوانك لا نفارقك، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ (٥٢)﴾ [الأنعام] إلى منتهى الآيتين[1].

بل إن الله عاتب نبيه ﷺ لما أعرض إعراضًا بسيطا على أحد المستضعفين في موقف من المواقف، حيث نزل قوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى (١) أَن جَاءَهُ الأَعْمَى (٢) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى (٣) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَى (٤) أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى (٥) فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّى (٦) وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى (٧) وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَى (٨) وَهُوَ يَخْشَى (٩) فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّى (١٠)﴾ [عبس].

فهذه الآيات الكريمة تتحدث عن قصة رسول الله ﷺ مع ابن أم مكتوم، وقد ذكر غير واحد من المفسرين أن رسول الله ﷺ كان يومًا يخاطب بعض عظماء قريش، وقد طمع في إسلامه، فبينما هو يخاطبه ويناجيه إذ أقبل ابن أم مكتوم، وكان ممن أسلم قديمًا، فجعل يسأل رسول الله ﷺ عن شيء ويلح عليه، وود النبي ﷺ أن لو كف ساعته تلك، ليتمكن من ذلك الرجل طمعًا ورغبة في هدايته، وعبس في وجه ابن أم مكتوم وأعرض عنه، وأقبل على الآخر، فأنزل الله تعالى هذه الآيات تعاتب رسول الله ﷺ.

وقد كان رسول الله ﷺ لهذا يكرم عبد الله بن أم مكتوم، ويقول إذا رآه: (مرحبا بمن عاتبني فيه ربي)، ويقول: هل لك من حاجة، واستخلفه على المدينة مرتين، وكان مؤذنا له.

**إغواء:**

ومن أنواع فتنة السراء التي تعرض لها رسول الله ﷺ في تلك المواقف الشديدة التي مر بها في مكة المكرمة ما أغرته به قريش من أنواع المكاسب الدنيوية التي يسيل لها لعاب كثير من الناس.

فقد وردت الأسانيد الكثيرة بما اقترحت قريش من ذلك على رسول الله ﷺ، فقد اجتمع نفر من قريش يوما فقالوا: انظروا أعلمكم بالسحر والكهانة والشعر فليأت هذا الرجل الذي فرق جماعتنا وشتت أمرنا وعاب ديننا، فليكلمه ولينظر ماذا يرد عليه.

فقالوا: ما نعلم أحدا غير عتبة بن ربيعة.

فقام عتبة حتى جلس إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا ابن أخي إنك منا حيث قد علمت من البسطة في العشيرة والمكان في النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم، فرقت به جماعتهم وسفهت أحلامهم وعبت آلهتهم ودينهم وكفرت من مضى من آبائهم، يا محمد أنت خير أم عبد الله؟ فسكت رسول الله ﷺ، فقال: أنت خير أم عبد المطلب، فسكت رسول الله ﷺ، قال: فإن كنت تزعم أن هؤلاء خير منك، فقد عبدوا الآلهة، وإن كنت تزعم أنك خير منهم فتكلم نسمع قولك، إنا والله ما رأينا سخلة قط أشأم على قومك منك، فرقت جماعتنا وأشتت أمرنا وعبت ديننا وفضحتنا في العرب، حتى طار فيهم أن في قريش ساحرا، وإن في قريش كاهنا، والله ما ننتظر إلا

(١) رواه الزبير بن بكار في أخبار المدينة.

مثل صيحة الحبلى أن يقوم بعضنا بعضا إليك بالسيوف حتى تتفانى، أيها الرجل فاسمع منى أعرض عليك أمورا تنظر فيها لعلك تقبل منا بعضها.

فقال له رسول الله ﷺ: قل أبا الوليد أسمع.

قال: يا ابن أخى، إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا جمعناه لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا، وإن كنت تريد به الشرف سودناك علينا حتى لا نقطع أمرا دونك، وإن كنت تريد ملكا ملكناك علينا، وإن كان هذا الذى يأتيك رئيا لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطلب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه.

حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله ﷺ يسمعه منه قال له: أقد فرغت أبا الوليد؟ قال: نعم، قال: فاسمع منى. قال: أفعل.

فقرأ عليه رسول الله ﷺ من أول سورة فصلت إلى قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾﴾ [فصلت]، فأمسك عتبة على فيه وناشده الرحم أن يكف عنه، ثم انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة منها فسجد ثم قال: قد سمعت أبا الوليد ما سمعت، فأنت وذاك، فقال: ما عندك غير هذا؟ فقال: ما عندى غير هذا.

فقام عتبة، ولم يعد إلى أصحابه واحتبس عنهم فقال أبو جهل: والله يا معشر قريش ما نرى عتبة إلا قد صبا إلى محمد وأعجبه طعامه، وما ذاك إلا من حاجة أصابته، فانطلقوا بنا إليه، فأتوه.

فقال أبو جهل: والله يا عتبة ما جئناك إلا أنك قد صبوت إلى محمد وأعجبك أمره فإن كان لك حاجة جمعنا لك من أموالنا ما يغنيك عن طعام محمد.

فغضب، وأقسم لا يكلم محمدا أبدا وقال: لقد علمتم أنى من أكثر قريش مالا ولكنى أتيته، فقص عليهم القصة.

قالوا: فما أجابك؟ قال: والله الذى نصبها بنية ما فهمت شيئا مما قال غير أنه أنذركم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود، فأمسكت بفيه وناشدته الرحم أن يكف، وقد علمتم أن محمدا إذا قال شيئا لم يكذب، فخفت أن ينزل عليكم العذاب.

قالوا: ويلك يكلمك الرجل بالعربية لا تدرى ما قال؟ قال: والله ما سمعت مثله، والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة، يا معشر قريش أطيعونى واجعلوها بى وخلوا بين الرجل وبين ما هو فيه، فاعتزلوه فو الله ليكونن لقوله الذى سمعت نبأ، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم وعزه عزكم وكنتم أسعد الناس به، يا قوم أطيعونى فى هذا الأمر واعصونى بعده، فو الله لقد سمعت من هذا الرجل كلاما ما سمعت أذناى كلاما مثله وما دريت ما أرد عليه.

قالوا: سحرك والله يا أبا الوليد.

قال: هذا رأيى فيه فاصنعوا ما بدا لكم[1].

وفى حديث آخر عن ابن عباس ـ رضى الله عنه ـ أن أشراف قريش من كل قبيلة اجتمعوا عند غروب الشمس عند ظهر الكعبة، ثم قال بعضهم لبعض: ابعثوا إلى محمد فكلموه وخاصموه حتى تعذروا فيه.

فبعثوا إليه فجاءهم رسول الله ﷺ سريعا، وهو يظن أن قد بدا لهم فيما يكلمهم فيه بداء،

---

(1) رواه ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وأبو يعلى والحاكم وصححه عن جابر بن عبد الله والبيهقى وابن عساكر عن ابن عمر.

وكان حريصا عليهم يحب رشدهم ويعز عليه عنتهم، حتى جلس إليهم فقالوا: يا محمد إنا قد بعثنا إليك لنكلمك، وإنا والله ما نعلم رجلا من العرب أدخل على قومه ما أدخلت على قومك، لقد شتمت الآباء وعبت الدين وشتمت الآلهة وسفهت الأحلام، وفرقت الجماعة، فما بقى أمر قبيح إلا قد جئته فيما بيننا وبينك، فإن كنا إنما جئت بهذا الحديث تطلب به مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا، وإن كنت إنما تريد به الشرف فينا فنحن نسودك علينا، وإن كنت تريد به ملكا ملكناك علينا، وإن كان هذا الذى يأتيك رئيا تراه قد غلب عليك، فربما كان ذلك، بذلنا أموالنا فى طلب الطب لك حتى نبرئك منه أو نعذر فيك.

فقال لهم رسول الله ﷺ: (ما بى ما تقولون، ما جئت به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم، ولكن الله تعالى بعثنى إليكم رسولا وأنزل على كتابا وأمرنى أن أكون لكم بشيرا ونذيرا، فبلغتكم رسالات ربى ونصحت لكم، فإن تقبلوا منى ما جئتكم به فهو حظكم فى الدنيا والآخرة، وإن تردوه على أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بينى وبينكم).

قالوا: يا محمد إن كنت غير قابل منا شيئا مما عرضنا لك، فإنك قد علمت أنه ليس أحد أضيق بلدا ولا أقل مالا ولا أشد عيشا منا، فاسأل لنا ربك أنهارا كأنهار العراق والشام، وليبعث لنا من مضى من آبائنا، وليكن ممن يبعث لنا منهم قصى بن كلاب، فإنه كان شيخ صدق فنسألهم عما تقول: أحق هو أم باطل، فإن صدقوك وصنعت ما سألناك صدقناك وعرفنا منزلتك من الله وأنه بعثك إلينا رسولا كما تقول.

فقال لهم رسول الله ﷺ: (ما بهذا بعثت لكم، إنما جئتكم من الله بما بعثنى به وقد بلغتكم ما أرسلت به إليكم، فإن تقبلوه فهو حظكم فى الدنيا والآخرة، وإن تردوه أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بينى وبينكم).

قالوا: فإذا لم تفعل فخذ لنفسك، سل ربك يبعث معك ملكا يصدقك بما تقول ويراجعنا عنك، وسله فليجعل لك جنانا وقصورا وكنوزا من ذهب وفضة يغنيك بها عما نراك تبغى، فإنك تقوم بالأسواق وتلتمس الرزق وتلتمس المعاش كما نلتمسه، حتى نعرف فضلك ومنزلتك إن كنت رسولا.

فقال لهم رسول الله ﷺ: (ما أنا بفاعل، ما أنا بالذى سأل ربه هذا وما بعثت إليكم بهذا، ولكن الله بعثنى بشيرا ونذيرا، فإن تقبلوا ما جئتكم به فهو حظكم فى الدنيا والآخرة، وإن تردوه على أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بينى وبينكم).

قالوا: فأسقط السماء علينا كسفا كما زعمت أن ربك إن شاء فعل، فإنا لا نؤمن لك إلا أن تفعل.

فقال رسول الله ﷺ: (ذلك إلى الله عز وجل، إن شاء أن يفعله بكم فعله).

قالوا: يا محمد فما علم ربك أنا سنجلس معك ونسألك عما سألناك عنه ونطلب إليك ما نطلب فيتقدم إليك فيعلمك ما تراجعنا به ويخبرك ما هو صانع فى ذلك بنا إذا لم نقبل منك ما جئتنا به؟ إنه قد بلغنا أنك إنما يعلمك هذا رجل باليمامة يقال له: الرحمن، وإنا والله لا نؤمن بالرحمن أبدا فقد أعذرنا إليك يا محمد، وإنا والله لا نتركك وما بلغت منا حتى نهلكك أو تهلكنا.

وقال قائلهم: نحن نعبد الملائكة وهى بنات الله.

وقال قائلهم: لن نؤمن لك حتى تأتينا بالله والملائكة قبيلا.

فلما قالوا ذلك لرسول الله ﷺ قام عنهم وقام معه عبد الله بن أبى أمية بن المغيرة بن عبد

الله بن مخزوم، وهو ابن عمته وهو لعاتكة بنت عبد المطلب، وأسلم بعد ذلك رضى الله عنه، فقال: يا محمد عرض عليك قومك ما عرضوا فلم تقبله منهم، ثم سألوك لأنفسهم أمورا ليعرفوا بها منزلتك من الله تعالى كما تقول ويصدقوك ويتبعوك فلم تفعل، ثم سألوك أن تأخذ لنفسك ما يعرفون به فضلك عليهم ومنزلتك من الله فلم تفعل ثم سألوك أن تعجل لهم بعض ما تخوفهم به من العذاب فلم تفعل، فوالله لا أومن بك أبدا حتى تتخذ إلى السماء سلما ثم ترقى فيه وأنا أنظر إليك حتى تأتيها ثم تأتى بصك معه أربعة من الملائكة يشهدون لك أنك كما تقول وأيم الله إن لو فعلت ذلك ما ظننت أنى أصدقك، ثم انصرف عن رسول الله ﷺ.

وانصرف رسول الله إلى أهله حزينا آسفا لما فاته مما كان يطمع به من قومه حين دعوه، لما رأى من مباعدتهم إياه[1].

**دنياه**

ومن أعظم ثبات السراء الثبات الذى أبداه ﷺ بعد أن فتحت له الدنيا، ولكنه لم يلتفت إليها، بل عاش حياة بسيطة لا تختلف عن حياة أفقر أصحابه.

فلم يتخذ رسول الله ﷺ قصرا كعادة الملوك والأمراء، بل كان يسكن منزلا بلا أثاث أو رياش، ولما دخل عليه عدى بن حاتم الطائى وهو ملك طىء وسيدهم وحبرهم، وقد علق صليبًا من الذهب فى صدره، واستضافه النبى ﷺ إلى منزله لم يجد النبى ﷺ ما يقدمه لضيفه ليجلس عليه إلا وسادة واحدة من ليف وضعها النبى ﷺ ليجلس عليها، وجلس رسول الله ﷺ على الأرض.

لقد كان فى عهده ﷺ من أنواع الترف ما كان، ولكنه ﷺ آثر الحياة التى عاشها على كل ذلك الترف، مؤثرا حياة العبودية.

لقد ذكر عمر - رضى الله عنه - بعض حياة رسول الله ﷺ فى حديث طويل قال فيه: (فجلست فرفعت رأسى فى البيت - أى بيته ﷺ - فوالله ما رأيت فى البيت شيئا يرد البصر إلا أهبة ثلاثة، فقلت: (ادع الله يا رسول الله أن يوسع على أمتك، فقد وسع على فارس والروم وهم لا يعبدون الله)، فاستوى جالسا، ثم قال: (أفى شك أنت يا ابن الخطاب؟ أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم فى الحياة الدنيا)[2].

وقد كان ﷺ ينهى عن الأكل متكئا، ويقول: (إنما أنا عبد، آكل كما يأكل العبد، وأشرب كما يشرب العبد)[3].

وكان ينهى عن إطرائه والمبالغة فى مدحه، ويقول: (لا تطرونى كما أطرت النصارى ابن مريم، فإنما أنا عبده فقولوا: عبد الله ورسوله)[4].

وعندما قال له رجل: يا خيرنا وابن خيرنا وسيدنا وابن سيدنا، قال له النبى ﷺ: (قولوا ما أقول لكم، ولا يستهوينكم الشيطان، أنزلونى حيث أنزلنى الله، أنا عبد الله ورسوله)[5].

أما طعامه ﷺ - بعد أن فتحت له الدنيا - فقد ذكرته عائشة - رضى الله عنها - فقالت: (ما شبع آل محمد ﷺ من خبز شعير يومين متتابعين حتى قبض)[6].

(1) رواه ابن إسحاق وابن جرير والبيهقى.
(2) البخارى ومسلم.
(3) ابن عدى عن أنس.
(4) البخارى.
(5) ابن النجار.
(6) البخارى ومسلم.

وكانت وهي زوج رسول الله ﷺ تقول لابن أختها - عروة، وهي تذكر له طريقة عيشها مع رسول الله ﷺ (والله يا ابن أختي إن كنا لننظر إلى الهلال ثم الهلال ثم الهلال: ثلاثة أهلة في شهرين وما أوقد في أبيات رَسُول الله ﷺ نار، قلت: يا خالة فما كان يعيشكم؟ قالت: الأسودان التمر والماء، إلا أنه قد كان لرَسُول الله ﷺ جيران من الأنصار وكانت لهم منائح وكانوا يرسلون إلى رَسُول الله ﷺ من ألبانها فيسقينا)[1].

وتصف فراش رسول الله ﷺ فتقول: (كان فراش رَسُول الله ﷺ من أدم حشوه ليف)[2].

وأخرجت ـ رضي الله عنها ـ كساء وإزاراً غليظًا، فأرته الصحابة رضي الله عنهم ثم قالت قبض رَسُول الله ﷺ في هذين[3].

وأخبرت ـ رضي الله عنها ـ فقالت: توفي رَسُول الله ﷺ ودرعه مرهونة عند يهودي في ثلاثين صاعًا من شعير[4].

ولم يكن نقل هذه المعيشة خاصا بعائشة ـ رضي الله عنها ـ حتى لا تتهم بتزوير النقل، بل روى ذلك عن كثير من الصحابة الأجلاء رضي الله عنهم:

فهذا أنس رضي الله عنه يقول: (لم يأكل النبي ﷺ على خوان حتى مات، وما أكل خبزاً مرققًا حتى مات)[5]، وفي رواية له: ولا رأى شاة سميطًا بعينه قط.

وقال رضي الله عنه: رهن النبي ﷺ درعه بشعير، ومشيت إلى النبي ﷺ بخبز شعير وإهالة[6] سنخة[7]. ولقد سمعته يقول: (ما أصبح لآل محمد صاع ولا أمسى)، وإنهم لتسعة أبيات[8].

وهذا النعمان بن بشير رضي الله عنه يقول: (لقد رأيت نبيكم ﷺ وما يجد من الدقل[9] ما يملأ به بطنه)[10].

وهذا سهل بن سعد رضي الله عنه يقول: (ما رأى رَسُول الله ﷺ النقي[11] من حين ابتعثه اللَّه تعالى حتى قبضه اللَّه. فقيل له: هل كان لكم في عهد رَسُول الله ﷺ مناخل؟ قال: ما رأى رَسُول الله ﷺ منخلاً من حين ابتعثه اللَّه تعالى حتى قبضه اللَّه تعالى. فقيل له: كيف كنتم تأكلون الشعير غير منخول؟ قال: كنا نطحنه وننفخه فيطير ما طار وما بقي ثَرَّيْنَا[12])[13].

وهذه أسماء بنت يزيد ـ رضي الله عنها ـ قالت: كان كم قميص رَسُول الله ﷺ إلى الرُّصْغ[14])[15].

---

(1) البخاري ومسلم.
(2) البخاري.
(3) البخاري ومسلم.
(4) البخاري ومسلم.
(5) البخاري.
(6) الشحم الذائب.
(7) المتغيرة.
(8) البخاري.
(9) تمر رديء.
(10) مسلم.
(11) هو الخبز الحواري، وهو الدرمك.
(12) بللناه وعجناه.
(13) البخاري.
(14) هو: المفصل بين الكف والساعد.
(15) أبو داود والترمذي وَقَالَ حَدِيثٌ حَسَنٌ.

ويخبر ابن عباس رضى الله عنهما عن معيشة رسول الله ﷺ، فيقول: كان رسول الله ﷺ يبيت الليالى المتتابعة طاويًا، وأهله لا يجدون عشاء، وكان أكثر خبزهم خبز الشعير[1].

ويخبر عمرو بن الحارث رضى الله عنه قال: ما ترك رسول الله ﷺ عند موته ديناراً، ولا درهمًا ولا عبداً ولا أمة ولا شيئًا، إلا بغلته البيضاء التى كان يركبها، وسلاحه، وأرضًا جعلها لابن السبيل صدقة)[2].

ويحكى أبو هريرة رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ رضاه عن هذه المعيشة، بل دعاؤه الله باستمرارها، حيث كان ﷺ يقول: (اللهم اجعل رزق آل محمد قوتًا[3])[4].

ما إن وصل عبد القادر من حديثه إلى هذا الموضع حتى سمع أذان العصر، فقال للمجتمعين حوله المعجبين بحديثه: ائذنوا لى، فقد جعل الله لنا مواقيت معينة نصلى فيها، ولا يجوز لنا أن نتأخر عن المواقيت التى حددها لنا ربنا.

فالصلاة هى ركن أصيل من أركان الثبات، ولهذا أمرنا الله تعالى بالاستعانة بها، فقال: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ۝٤٥﴾ [البقرة].

وقد كان رسول الله ﷺ يلجأ إلى الصلاة ليمسح تلك الآلام التى تحدثها أنواع الأذى التى يصبها عليه أعداؤه.

قال رجل من الجمع: أنا متعجب كل العجب.. كيف استطاع محمد، وهو فرد فى عالم يناوئه، ويبذل له كل صنوف العداوة.. كيف استطاع أن يقيم دينا ودنيا.. وكيف يخرج من كل تلك النيران الموقدة، وليس بجسمه أثر لحريق واحد.

ابتدره عبد القادر مجيبا: إنها الحماية.. إنها حماية الله.. وهى معجزة أخرى من المعجزات لا تقل عن معجزة الثبات.

قالوا: فحدثنا عنها.

قال عبد القادر: إن شئتم أن تسمعوا حديثها، أو لمن شاء منكم أن يسمع حديثها، فليأت هنا غدا صباحا، فسأروى لكم من أخبارها ما تعلمون به أن محمدا رسول من عند الله، فالله يحمى رسله حتى يكملوا ما هيأ لهم من وظائف.

قال ذلك، ثم انصرف، وانصرف الجمع غير مبالين بى ولا بصاحبى حامل ثياب المسيح، وصليب المسيح.

نزلت على فى ذلك الحين أنوار جديدة من شمس محمد، وأحسب أن مثلها، أو بعض مثلها قد نزل على صاحبى بولس.

شعرت بذلك من خلال سنحة وجهه التى بدا عليها سرور عظيم حاول جهده أن يخفيه بسمت الجد الذى تكلف فى رسمه على وجهه.

فى الطريق قال لى: أنت حر غدا.. اذهب حيث شئت.

قلت: أليس لدينا تدريب؟

قال: لدى بعض الوظائف يجب أن أؤديها، فلذلك أدعك ترتاح قليلا، وإن شئت أن تخرج خارج هذه المدينة، فسأكلف السائق بأن يسير بك حيث تشاء.

لقد شعرت - من خلال حديثه هذا - أنه يهم بشىء، ويخشى أن أراه، لذلك قلت: لا داعى لذلك.. سأبقى فى هذه المدينة، فأنا أحتاج إلى مزيد معرفة بها.

---

(1) الترمذى وقال حديث حسن صحيح.

(2) البخارى.

(3) أى ما يسد الرمق.

(4) البخارى ومسلم.

## سابعا - حماية

في اليوم السابع . .

لم أنتظر بولس، فقد أخبرني بعدم تمكنه من زيارتي اليوم، فلذلك بقيت أفكر أين أذهب، وبمن أتصل، وفجأة خطر على بالي الموعد الذي عقده عبد القادر مع أولئك المستضعفين المنبوذين ليحدثهم عن حماية الله لنبيه ﷺ، فسررت كثيرا لهذه الفرصة العظيمة.

سرت إلى ذلك المحل، وكلي همة ونشاط، وكلي ـ في نفس الوقت ـ أسف على صاحبي بولس الذي ستفوته فرصة التعرض لهذه الأنوار الجديدة من شمس محمد ﷺ.

لكني ما وصلت إلى ذلك المحل حتى رأيت من بعيد صاحبي بولس في نفس ذلك المحل متخفيا عن الجمع، بحيث يسمع من غير أن يراه أحد، فلذلك تخفيت أنا الآخر حتى أرى بولس من غير أن يراني، وأسمع عبد القادر من غير أن يلحظ الجمع ذلك مني.

جاء عبد القادر بأنوار الإيمان التي تسري في كل كيانه، وقال للجمع المحيطين به، والذين ازدادوا كثرة على كثرتهم: لقد طلبتم مني الحديث عن حماية الله لنبيه محمد ﷺ.

قال أحدهم: أجل، فنحن نتعجب كيف استطاع محمد في تلك البيئة الموبوءة بالعداء له أن يحمي نفسه، ويحمي رسالته.

قال آخر: إن نجاته من كل تلك الأهوال برسالته كنجاة رجل غرق في عرض المحيط، وغرقت معه كنوز كثيرة يحملها، لكنه فجأة قطع عشرات الآلاف من الأميال ليخرج لا وحده فقط، بل تخرج معه كل كنوزه، لا يضيع منها كنز واحد.

قال عبد القادر: إنها حماية الله . . لقد حمى الله رسوله ليؤدي الرسالة التي كلف بها، كما حمى جميع أنبيائه، قال تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٣)﴾ [يونس]، وقال تعالى ذاكرا نبيه يونس عليه السلام: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ (٨٨)﴾ [الأنبياء].

أنتم تلاحظون أن القرآن الكريم يربط في هذا بين المؤمنين والأنبياء، فالله تعالى يحمي المؤمنين المستضعفين الذين تكون لهم همة الخروج من استضعافهم من كل ما يكيده أعداؤهم لهم، لقد قال تعالى في ذلك: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ (٣٨)﴾ [الحج].

قال رجل من الجمع: لقد عرفنا أمس مواطن البلاء الكثيرة التي تعرض لها محمد ﷺ، فحدثنا اليوم عن جنود الحماية التي وفرها الله له.

قال عبد القادر: هي جنود كثيرة . . فلا يمكن إحصاء جنود الله، قال تعالى: ﴿... وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ ... (٣١)﴾ [المدثر].

وقد حمى الله ببعض هذه الجنود الظاهرة والخفية رسول الله كما حمى الفئة المؤمنة الصامدة في كل مكان وكل زمان، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (٩)﴾ [الأحزاب]، وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (٤)﴾ [الفتح]، وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (٧)﴾ [الفتح].

ولكن مع ذلك . . فسأذكر لكم بعض الأمثلة عن الجنود التي حمى الله بها نبيه ﷺ، والتي تحقق بها وعده له بأن يعصمه من الناس، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٦٧)﴾ [المائدة].

***

## أ - جند الرعب

فمن هؤلاء الجنود الذين حموا رسول الله ﷺ من مؤامرات أعدائه جند الرعب الذى يملأ قلوب من يقترب من جنابه الشريف، وقد أشار ﷺ إلى هذا النوع من الجند، فقال: (نصرت بالرعب)(1).

وأشار إليه القرآن فى مواقف من مواقف نصرة الدين، فقال تعالى: ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾ [آل عمران]، وقال تعالى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾﴾ [الأنفال]، وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾﴾ [الأحزاب]، وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ ﴿٢﴾﴾ [الحشر].

وقد ذكر المؤرخون وعلماء السيرة الكثير من الأمثلة على هذا النوع من الجند:

فممن دكهم هذا الرعب الذى أيد الله به نبيه ﷺ أبو جهل، فقد رويت عنه الروايات الكثيرة المنبئة عما تعرض له من تخويف ربانى نتيجة همه بإيذاء محمد ﷺ:

ومما يروى من ذلك ما حدث به أبو هريرة ـ رضى الله عنه ـ فقال: قال أبو جهل: هل يعفر محمد وجهه بين أظهركم(2)؟ قال: قيل: نعم. فقال: واللات والعزى لئن رأيته يفعل ذلك لأطأن على رقبته، أو لأعفرن وجهه فى التراب.

فأتى رسول الله ﷺ وهو يصلى ليطأ على رقبته، فما فجئهم منه إلا وهو ينكص على عقبيه(3)، ويتقى بيديه، فقيل له: مالك؟ فقال: إن بينى وبينه لخندقًا من نار، وهولاً وأجنحة.

وقد قال رسول الله ﷺ يبين كيف حماه الله تعالى: (لو دنا منى لاختطفته الملائكة عضواً عضواً)(4).

وفى حديث آخر عن العباس ـ رضى الله عنه ـ قال: كنت يوما جالسا فى المسجد، فأقبل أبو جهل، فقال: إن لله على إن رأيت محمدا ساجدا أن أطأ على رقبته، فخرجت على رسول الله ﷺ حتى دخلت عليه، فأخبرته بقول أبى جهل، فخرج غضبانا حتى أتى المسجد فعجل قبل أن يدخل من الباب، فاقتحم الحائط فقلت: هذا يوم شر فاتزرت واتبعته(5).

وفى حديث آخر عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال: قال أبو جهل: يا معشر قريش، إن محمدا قد أبى إلا ما ترون من عيب ديننا، وشتم آبائنا، وتسفيه أحلامنا، وسب آلهتنا، وإنى لأعاهد الله لأجلسن له غدا بحجر فإذا سجد فى صلاته فضحت به رأسه، فليصنع بعد ذلك بنو عبد مناف ما بدا لهم، فلما أصبح أبو جهل أخذ حجرا وقام رسول الله ﷺ يصلى، وقد غدت قريش، فجلسوا فى أنديتهم ينظرون، فلما سجد رسول الله ﷺ احتمل أبو جهل الحجر، ثم أقبل نحوه حتى إذا دنا منه ثم رجع، منتقعا لونه، قد يبست يداه على حجره، حتى قذف الحجر من يده، فأتى قريشا،

---

(1) رواه البخارى ومسلم.
(2) أى يسجد ويلصق وجهه بالعفر وهو التراب.
(3) أى رجع يمشى إلى ورائه.
(4) رواه البخارى ومسلم.
(5) رواه البزار والطبرانى والحاكم وصححه.

فقـالوا له: مالك؟ قـال. لما قمت إليـه عرض لى فـحل من الابل، فوالله مـا رأيت مثل هامـته ولا قصـرته، ولا أنيابه لفـحل قط، فهم أن يأكـلنى. فقال رسـول الله ﷺ: (ذاك جبـريل، لو دنا منى لأخذه)[1].

وفى حـديث آخر عن ابن عـباس ـ رضى الله عنهـما ـ قـال: مر أبو جـهل بالنبى ﷺ وهو يصلى، فقال: ألم أنهك أن تصلى يا محمد، لقد علمت ما بها أحد أكثر ناديا منى فانتهره النبى ﷺ فقال جبريل: فليدع ناديه سندع الزبانية، فوالله لو دعا ناديه لأخذته زبانية العذاب[2].

ومنهم النضر بـن الحارث، فقد روى عـن عروة ـ رضى الله عنه ـ أن النضر بن الحـارث كان يؤذى رسول الله ﷺ ويتعرض له، فـخرج رسول الله ﷺ يوما يريد حاجتـه فى نصف النهار فى حر شديد، فبلغ أسفل من ثنية الحجون، فرآه النـضر بن الحارث، فقال: لا أجده أبدا أخلى منه الساعة، فأغتـاله، فدنا إلى رسول الله ﷺ ثم انصرف راجـعا مرعوبا إلى منزله، فلقى أبا جـهل، فقال: من أين؟ قال النضر: اتبـعت محمدا رجاء أن اغـتاله وهو وحده، فإذا أسود تضـرب بأنيابها على رأسى فاتحة أفـواهها فذعرت منهـا ووليت راجعا، فقـال أبو جهل ـ الذى أصابه من قبل مـا أصابه ـ: هذا بعض سحره[3].

ومنهم دعـثور بن الحارث الغطـفانى، فقـد روى عن عبـد الله بن أبى بكر ـ رضى الله عنه ـ وغيره، أنهم قالوا: كنا مع رسول الله ﷺ فبلغ رسول الله ﷺ أن جمعا من غطفان من بنى ثعلبة بن محارب بذى أمـر، قد تجمعوا يريدون أن يصـيبوا من أطراف رسول الله ﷺ، مـعهم رجل يقال له: دعثور بن الحارث، فخرج رسول الله ﷺ فى أربعمائة وخـمسين رجلا، ومعهم أفراس، فهزمت منه الأعراب فوق ذروة من الجبـال، ونزل رسول الله ﷺ ذا أمر فعسكر به، وأصابهم مطر كـثير، فذهب رسول الله ﷺ لحاجته، فأصابه ذلك المطر فـبل ثوبه، وقد جعل وادى ذى أمر بينه وبين أصحابه، ثم نزع ثيابه فنشرها لتجف، وألقـاها على شجرة، ثم اضطجع تحتها والأعراب ينظرون، فـقالت لدعثور وكان سيدها وأشجعها: قد أمكنك محمد، وقد انفرد من أصحابه، حيث إن غوث بأصحابه لم يغث حتى تقتله، فاختار سيفا من سيوفـهم صارما، ثم أقبل حتى قام على رسول الله ﷺ بالسيف مشهورا فقال: يا محـمد، من يمنعك منى اليوم؟ فقال ﷺ: (الله عز وجل)، ودفع جـبريل فى صدره فوقع السيف من يده، فأخـذه رسول الله ﷺ وقام على رأسه، فقـال: (من يمنعك منى؟) قال: لا أحد، وأنا أشهـد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسـول الله، لا أكثر عليك جمـعا أبدا، فأعطاه سيـفه ثم أدبر، ثم أقبل بوجهه فقال: والله، لأنت خير منى، فقال رسول الله ﷺ: (أنا أحق بذلك منك).

فأتى قـومه فقالوا: أين مـا كنت تقول، والسيف فى يدك، قال: قـد كان والله ذلك، ولكن نظرت إلى رجل أبيض طويل، فدفع فى صـدرى، فوقعت لظهرى، وعـرفت أنه ملك، وشهدت أن محمدا رسول الله.

وجعل الرجل يدعو قـومه إلى الإسلام، ونزلت هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾ [المائدة][4].

---

(1) رواه ابن اسحاق وأبو نعيم والبيهقى.

(2) رواه أحمد والترمذى.

(3) رواه أبو نعيم.

(4) رواه البيهقى، وقال: روى فى غزوة ذات الرقاع قصة أخرى، مثل هذه، فان كان الواقدى قد حفظ ما ذكر فى هذه الغزوة فكانت قصتان.

ومنهم غورث بن الحارث، فعن جابر بن عبد الله ـ رضى الله عنهما ـ قال: كنا مع رسول الله ﷺ بذات الرقاع، فإذا أتينـا على شجرة ظليلة، تركناها لرسول الله ﷺ وإن رجـلا من بنى محارب يقال له غورث قال لقـومه من غطفان: لأقتلن لكم محمـدا، فنزل رسول الله ﷺ تحت ظل شجرة. فعلق سيـفه، فنمنا نومة، فإذا رسول الله ﷺ يدعـونا، فجئناه، فإذا عنده أعرابى جـالس فقال: (إن هذا اخترط سيفى وأنا نائم، فاستـيقظت وهو فى يده صلتا، فقال لى: من يمنعك منى؟ قلت: الله. فـسقط السـيف من يده، وأخذ رسول الله ﷺ السيف وقال: (من يمنعك منى؟) قال: كن خيرا آخذ. فخلى سبيله فأتى أصحابه، فقال: جئتكم من عند خير الناس[1].

ومنهم شيبـة بن عثمان، فعن عكرمة قـال: قال عثمان بن شيبـة لما غزا رسول الله ﷺ حنينا فذكرت أبى وعمى، وقتل على وحمزة إياهما، فقلت: اليوم أدرك ثأرى من محمد، فجئته من خلفه فـدنوت منه حتـى لم يبق إلا أن أسوره بالـسيف إذ دفع لى شـواظ من نار بينى وبينـه كأنه البـرق، فنكصت القهـقرى، فالتـفت الى النبى ﷺ فقال: (يا شـيبة، ادن منى)، فـوضع يده على صدرى، واستخرج الله الشيطان من قلبى، فرفعت إليه بصرى، وهو أحب إلى من سمعى وبصرى[2].

ومنهم نفر من المنافقين أرادوا الفتك به ﷺ، فـعن حذيفة فى قوله تعالى: ﴿ ... وهمُّوا بما لم ينالُوا ... (٧٤) ﴾ [التوبة] أن رسـول الله ﷺ رجع قافلا من تبـوك إلى المدينة، حتى إذا كـان ببعض الطريق مكر برسول الله ﷺ ناس من أصحـابه، فتآمروا عليه أن يطرحوه فى عقـبة فى الطريق، فلما هموا وبلغوا العـقبة أرادوا أن يسلكوها معه، فلما غـشيهم رسول الله ﷺ أخبر خـبرهم، قال: (من شاء منكم أن يأخذ ببطن الـوادى فإنه أوسع لكم)، وأخذ رسول الله ﷺ العقـبة، وأخذ الناس ببطن الوادى إلا النفر الذين مكروا برسول الله ﷺ لما سمعوا ذلك استعدوا وتلثموا وقد هموا بأمر عظيم.

وأمر رسول الله ﷺ حذيفـة بن اليمان، وعمار بن ياسر، فمـشيا معه مشيـا، وأمر عمارا أن يأخذ بزمـام الناقة، وأمر حذيفـة أن يـسوقها، فـبينما هم يسيـرون إذ سمعوا بالقـوم من ورائهم، قد غشوهم، فغضب رسول الله ﷺ وأمر حذيفة أن يردهم، وأبصر حذيفة غضب رسول الله ﷺ فرجع ومعه محـجن، فاستقبل وجوه رواحلهم، فضـربها بالمحجن وأبصر القوم وهم متلثـمون لا يشعر أنما ذلك فعل المسافر، فرعبهم الله حين أبصروا حـذيفة، وظنوا أن مكرهم قد ظهر عليه، فأسرعوا حتى خالطوا الناس.

وأقبل حذيفة حتى أدرك رسول الله ﷺ، فلما أدركه قال: (اضرب الراحلة يا حذيفة، وامش أنت يا عمار)، فأسـرعوا حتى استوى بأعلاها فـخرجوا من العقبة ينتظـرون الناس، فقال رسول الله ﷺ: (يا حذيفة، هل عرفت من هؤلاء الرهط، أو الركب أو أحدا منهم؟)، قال: عرفت راحلة فلان وفلان، وقال: كانت ظلمة الليل وغشيتهم وهم مـتلثمون، فقال رسول الله ﷺ: (هل علمتم شأنهم وما أرادوا؟) قـالوا: لا، والله يا رسول الله، قال: (فإنهم مكروا ليسيروا مـعى حتى إذا أظلمت فى العقبة طرحونى منهـا، وإن الله تعالى قد أخبرنى بأسمائهم، وأسمـاء آبائهم، وهم عبد الله بن سعد ابن أبى السرح، وأبو حـاضر الأعرابى، وأبو عـامر، والجلاس بـن سويد بن الصامت، ومـجمع بن جارية، وفليح التيـمى، وحصين بن نمير، وطعـمة بن أبيرق وعبد الله بن عـيينة، ومرة بن الربيع)، قيل: يا رسـول الله، أفلا تأمر بهم فـتضرب أعناقهم، قـال: (أكره أن يتحـدث الناس، ويقولوا: إن محمدا وضع يده فى أصحابه).

(1) رواه البخارى ومسلم وابن إسحاق وأبو نعيم والحاكم والبيهقى.

(2) رواه البيهقى وأبو نعيم.

فلما أصبح أرسل إليهم كلهم، فقال: (أردتم كذا وكذا)، فحلفوا بالله ما قالوا، ولا أرادوا الذى سألهم عنه فذلك قوله تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (٧٤)﴾ [التوبة]، فهم اثنا عشر رجلا، حاربوا الله ورسوله، وكان أبو عامر رأسهم، وله بنوا مسجد الضرار[1].

***

(١) رواه ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن الضحاك والبيهقى.

## 2 - جند الإخفاء

ومن الجنود الذين حموا رسول الله ﷺ من مؤامرات أعدائه جند الإخفاء.

تعجب الجمع من قوله هذا، فقال: الله قادر على كل شيء، فلذلك قد يلقى الله تعالى سرابيل ستره على من يشاء من بعده لحمايته، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾﴾ [يس].

ومن هؤلاء محمد ﷺ. فقد ألقى الله عليه فى بعض مواضع الحاجة هذه السرابيل حتى يحميه ويحفظه من أعدائه.

ومن المواقف التى حمى الله فيها نبيه بهذا النوع من الجند، موقفه مع العوراء بنت حرب بن أمية، امرأة ابى لهب، فعن أسماء بنت أبى بكر، وغيرها من الصحابة قالوا: لما نزلت: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾﴾ [المسد] اقبلت العوراء أم جميل، ولها ولولة، وفى يديها فهر، وهى تقول

**مذمما أبينا ودينه قلينا وأمره عصينا**

والنبى ﷺ جالس فى المسجد ومعه أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ إلى جنبه فقال أبو بكر: لقد اقبلت هذه، وأنا أخاف أن تراك، فقال: (إنها لن ترانى)، وقرأ قرآنا فاعتصم به، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا ﴿٤٥﴾﴾ [الإسراء].

فجاءت حتى أقامت على أبى بكر فلم تر النبى ﷺ فقالت: أين الذى هجانى وهجا زوجى.

فقال: لا ورب هذا البيت ما هجاك، فولت، وهى تقول: قد علمت قريش أنى بنت سيدها.

وفى لفظ: يا أبا بكر، ما شأن صاحبك ينشد فىّ الشعر، بلغنى أن صاحبك هجانى.

فقال أبو بكر: والله ما صاحبى بشاعر ولا هجاك، فقالت: أليس قد قال: (فى جيدها حبل من مسد)، فما يدريه ما فى جيدى، قال النبى ﷺ: (قل لها: هل ترين عندى أحدا، فإنها لن ترانى، جعل الله بينى وبينها حجابا)، فسألها أبو بكر، فقالت: أتهزأ بى والله، ما أرى عندك أحد، فانصرفت وهى تقول: قد علمت قريش أنى بنت سيدها، فقال أبو بكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ: يا رسول الله، إنها لم ترك، فقال: (حال بينى وبينها جبريل، يسترنى بجناحيه حتى ذهبت)[1].

ومنها ما روى فى عصمته ﷺ من المخزوميين، فعن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أن ناسا من بنى مخزوم تواصوا بالنبى ﷺ ليقتلوه، منهم أبو جهل والوليد بن المغيرة ونفر من بنى مخزوم، فبينما النبى ﷺ قائم يصلى فلما سمعوا قراءته أرسلوا إليه الوليد ليقتله، فانطلق حتى انتهى إلى المكان الذى يصلى فيه، فجعل يسمع قراءته ولا يراه، فرجع إليهم فأعلمهم بذلك، فأتاه من بعده أبو جهل والوليد ونفر منهم، فلما انتهوا إلى الصوت، فإذا الصوت من خلفهم، فينتهون إليه فيسمعونه أيضا من خلفهم، ثم انصرفوا ولم يجدوا إليه سبيلا[2].

ومنها موقفه ﷺ مع زيد بن قيس وعامر بن الطفيل، كما ورد فى الحديث أن عامر بن الطفيل قدم على رسول الله ﷺ وهو يريد أن يغدر به، فقال لاربد: إن قدمنا على الرجل، فإنى شاغل عنك وجهه، فإذا فعلت ذلك، فاعله بالسيف، قال: أفعل.

فلما قدما على رسول الله ﷺ قال: أريدك يا محمد قم معى أكلمك، فقام معه فخليا إلى جدارا ووقف عامر يكلمه، فقال: يا محمد خالنى قال: (لا، حتى تؤمن بالله وحده)، فلما أتى على رسول الله ﷺ فقال: أما والله، لأملأنها عليك خيلا حمرا ورجالا.

---

(1) رواه أبو يعلى وابن حبان والحاكم، وصححه ابن مردويه، والبيهقى، وابن أبى شيبة والدارقطنى وأبو نعيم.
(2) رواه البيهقى، وروى ابن جرير نحوه عن عكرمة ما يؤكد هذا.

فلما ولى قال رسول الله ﷺ: (اللهم اكفنى عامر بن الطفيل).

فلما خرجوا من عند رسول الله ﷺ قال عامر لاربد: ويحك يا اربد، أين ما كنت أمرتك به؟ قال: ما كان على ظهر الأرض رجل أخوف عندى على نفسى منك، وأيم الله، لا أخاف بعد اليوم أبدا، قال: لا أبا لك، لا تعجل على، فوالله، ما هممت بالذى أمرتنى به مرة إلا دخلت بينى وبين الرجل حتى ما أرى غيرك، أفأضربك بالسيف[1]؟

ومنها موقفه الشديد عند الهجرة.. وسأقصه عليكم بطوله، فقد كان إخفاؤه ﷺ فى ذلك المحل آية بينة لا شك فيها.

فعن أبى مصعب المكى قال: أدركت أنس بن مالك، وزيد بن أرقم، والمغيرة بن شعبة يتحدثون أن النبى ﷺ ليلة الغار أمر شجرة[2]، فنبتت فى وجه رسول الله ﷺ، فسترته، وبعث الله العنكبوت، فنسجت ما بينهما، فسترت وجه رسول الله ﷺ، وأمر الله حمامتين وحشيتين فوقفتا فى فم الغار.

وأقبل فتيان قريش من كل بطن بعصيهم وهراويهم وسيوفهم، حتى إذا كانوا من النبى ﷺ على أربعين ذراعا، جعل بعضهم ينظر فى الغار، فلم ير إلا حمامتين وحشيتين بفم الغار، فرجع إلى أصحابه، فقالوا له: ما لك؟ قال: رأيت حمامتين وحشيتين فعرفت أنه ليس فيه أحد، فسمع النبى ﷺ ما قال، فعرف أن الله قد درأ عنه بهما، فبارك عليهما النبى ﷺ وفرض جزاءهن وانحدرتا فى الحرم فأفرخ ذلك الزوج كل شىء فى الحرم[3].

وفى حديث آخر عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أن المشركين قصوا أثر رسول الله ﷺ، فلما بلغوا الجبل اختلط عليهم، فصعدوا الجبل فمروا بالغار فرأوا على بابه نسيج العنكبوت، فمكث فيه ثلاثة أيام[4].

وعن الحسن البصرى ـ رضى الله عنه ـ قال: جاءت قريش يطلبون النبى ﷺ، وكانوا إذا رأوا على باب الغار نسج العنكبوت قالوا: لم يدخله أحد، وكان النبى ﷺ قائما يصلى وأبو بكر يرتقب، فقال أبو بكر: يا رسول الله، هؤلاء قومك يطلبونك، أما والله ما على نفسى أبكى، ولكن مخافة أن أرى فيك ما أكره.

فقال له النبى ﷺ: (لا تخف إن الله معنا)[5].

لقد ذكر القرآن الكريم هذا الموقف الشديد الذى وقفه رسول الله ﷺ فى الغار، فقال تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (40)﴾ [التوبة].

لقد كان الموقف شديدا، فلم يكن يحول بين النبى ﷺ وذلك الكيد العظيم المدبر له إلا تلك الخيوط الواهية من نسيج العنكبوت..

وفى حديث آخر عن أبى بكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ قال: قلت للنبى ﷺ ونحن فى الغار: لو أن أحدهم نظر إلى قدمه لأبصرنا تحت قدميه، فقال: (ما ظنك باثنين الله ثالثهما)[6].

---

(1) رواه الطبرانى وابن المنذر وأبو نعيم عن ابن عباس وابن جرير وأبو الشيخ عن ابن زيد والبيهقى عن ابن اسحاق.
(2) وفى رواية عند قاسم بن ثابت: أنبت الله شجرة الراءة.
(3) رواه ابن سعد وأبو نعيم والبيهقى وابن عساكر.
(4) رواه أحمد بسند حسن.
(5) رواه أبو بكر أحمد بن سعيد القاضى شيخ النسائى فى مسند الصديق.
(6) رواه البخارى ومسلم.

وعن عطاء بن ميسرة قال: (نسجت العنكبوت مرتين مرة على داود حين كان طالوت يطلبه ومرة على النبي ﷺ في الغار)(1).

وفي حديث آخر أن المشركين استأجروا رجلا يقال له علقمة بن كرز بن هلال الخزاعي، فقفا لهم الأثر حتى انتهى إلى غار ثور وهو بأسفل مكة فقال: ههنا انقطع أثره ولا أدرى أخذ يمينا أم شمالا أم صعد الجبل.

فلما انتهوا إلى فم الغار قال أمية بن خلف: ما أربكم في الغار، إن عليه لعنكبوتا كان قبل ميلاد محمد، ثم جاء فبال(2).

وفي حديث آخر عن عروة أن المشركين لما فقدوا رسول الله ﷺ ركبوا في كل وجه يطلبونه، وبعثوا إلى أهل المياه يأمرونهم به ويجعلون لهم الجعل العظيم وأتوا على ثور الجبل الذي فيه الغار الذي فيه النبي ﷺ حتى طلعوا فوقه، وسمع رسول الله ﷺ وأبو بكر أصواتهم، فأشفق أبو بكر وبكى وأقبل عليه الهم والحزن والخوف، فعند ذلك قال رسول الله ﷺ ﴿... لا تحزن إن الله معنا ... ﴿٤٠﴾﴾ [التوبة]، ودعا رسول الله ﷺ فنزلت السكينة من الله تعالى.

وقد ذكر من ستر الله غير نسيج العنكبوت ما حدثت به أسماء بنت أبي بكر - رضي الله عنهما - أن أبا بكر رأى رجلا مواجها الغار فقال: (يا رسول الله إنه يرانا) قال: (كلا إن الملائكة تستره الآن بأجنحتها)(3).

وقد أرخ البوصيري الشاعر المحب لهذه الحادثة، فقال:

ويح قوم جفوا نبيا بأرض ... ألفته ضبابها والظباء
وسلوه وحن جذع إليه ... وقلوه ورده الغرباء
أخرجوه منها وآواه غار ... وحمته حمامة ورقاء
وكفته بنسجها عنكبوت ... ما كفته الحمامة الحصداء

وفي قصيدة أخرى قال:

أقسمت بالقمر المنشق أن له ... من قلبه نسبة مبرورة القسم
وما حوى الغار من خير ومن كرم ... وكل طرف من الكفار عنه عم
فالصدق في الغار والصديق لم يرما ... وهم يقولون ما بالغار من أرم
ظنوا الحمام وظنوا العنكبوت على ... خير البرية لم تنسج ولم تحم
وقاية الله أغنت عن مضاعفة من ... الدروع وعن عال من الأطم

وقبل هذا الموقف عندما وقف المشركون يتربصون برسول الله ﷺ ليقتلوه، أخفاه الله عن أعينهم فلم يروه، فقد حدث محمد بن كعب عن ذلك، فقال: قال أبو جهل وهم جلوس: إن محمداً يزعم أنكم إن تابعتموه كنتم ملوكا، فإذا متم بعثتم بعد موتكم، وكانت لكم جِنَانٌ خيرٍ من جنان الأردُن وأنكم إن خالفتموه كان لكم منه ذبح، ثم بعثتم بعد موتكم وكانت لكم نار تُعَذَّبون بها.

وخرج عليهم رسول الله ﷺ عند ذلك، وفي يده حفنة من تراب، وقد أخذ الله على أعينهم دونه، فجعل يَذُرُّها على رؤوسهم، ويقرأ أول سورة يس حتى انتهى إلى قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ

---

(1) رواه أبو نعيم في الحلية.
(2) رواه البلاذري في تاريخه وأبو سعيد في الشرف.
(3) رواه أبو نعيم.

أيديهم سدًا ومن خلفهم سدًا فأغشيناهم فهم لا يبصرون ﴿٩﴾ [يس]، وانطلق رسول الله ﷺ لحاجته. وباتوا رُصَدَاء على بابه، حتى خرج عليهم بعد ذلك خارج من الدار، فقال: ما لكم؟ قالوا: ننتظر محمدًا. قال: قد خرج عليكم، فما بقي منكم من رجل إلا قد وضع على رأسه ترابا، ثم ذهب لحاجته. فجعل كل رجل منهم ينفض ما على رأسه من التراب[1].

وفي حديث آخر أن النبي ﷺ أمر عليًا - رضي الله عنه - يوم الهجرة أن يبيت في مضجعه تلك الليلة، واجتمع أولئك النفر من قريش يتطلعون من صير الباب ويرصدونه، ويريدون بياته ويأتمرون أيهم يكون أشقاها، فخرج رسول الله ﷺ عليهم، فأخذ حفنة من البطحاء، فجعل يذره على رءوسهم، وهم لا يرونه وهو يتلو قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾﴾ [يس].

ومضى رسول الله ﷺ إلى بيت أبي بكر، فخرجا من خوخة في دار أبي بكر ليلاً، وجاء رجل ورأى القوم ببابه، فقال: ما تنتظرون؟ قالوا: محمدًا قال: خبتم وخسرتم، والله مر بكم وذر على رؤوسكم التراب، قالوا: والله ما أبصرناه.

وقاموا ينفضون التراب عن رؤوسهم، وهم: أبو جهل والحكم بن العاص وعقبة بن أبي معيط والنضر بن الحارث وأمية بن خلف وزمعة بن الأسود وطعيمة بن عدى وأبو لهب وأبي بن خلف ونبيه ومنبه ابنا الحجاج[2].

(1) رواه ابن إسحاق.

(2) رواه ابن سعد وابن هشام وأحمد، وقد حسنه ابن كثير وابن حجر في الفتح.

## 3- جند الدعاء

ومن الجنود التى أيد الله بها نبيه ﷺ وحماه بها من مؤامرات أعدائه الكثيرة جند الدعاء، وهو جند لا يكون إلا مع الصادقين المخلصين.

فالصادقون المخلصون يثبتون فى مواطن الشدة لعلمهم أن الله لن يضيعهم.

وقد ذكر الله تعالى موقف موسى عليه السلام المخلص الصادق، مقارنا له بموقف قومه من الشاكين من بنى إسرائيل، فقال تعالى: ﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾﴾ [الشعراء].

فموسى عليه السلام فى هذا الموقف الشديد ذكر الله، وتوجه إليه، فآتاه الله من خوارق الآيات ما نجاه به، ونجى قومه معه.

ومثل ذلك حصل لإبراهيم عليه السلام عندما أراد قومه أن يحرقوه بالنيران التى أعدوها لهم، فلم يكن له من سلاح يواجه به تلك النيران إلا سلاح التوجه إلى الله.

وقد ذكر ابن عباس ما قاله إبراهيم عليه السلام فى ذلك الموقف الشديد، فقال: (حسبى الله ونعم الوكيل) قالها إبراهيم حين ألقى فى النار، وقالها أصحاب محمد حين قالوا: ﴿... إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ [آل عمران][1].

ومما قاله إبراهيم عليه السلام فى ذلك الموقف الشديد ما نص عليه قوله ﷺ: (لما ألقى إبراهيم، عليه السلام، فى النار قال: اللهم، إنك فى السماء واحد، وأنا فى الأرض واحد أعبدك)[2].

ويروى أنه لما جعلوا يوثقونه قال: لا إله إلا أنت سبحانك لك الحمد، ولك الملك، لا شريك لك.

ويروى أنه عرض له جبريل وهو فى الهواء، فقال: ألك حاجة؟ فقال: أما إليك فلا وأما من الله فبلى.

ويروى عن ابن عباس أنه قال: لما أُلقىَ إبراهيم جعل خازن المطر يقول: متى أومر بالمطر فأرسله؟ قال: فكان أمر الله أسرع من أمره، قال الله تعالى: ﴿... يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾﴾ [الأنبياء].

وعلى خطى هذا النبى الكريم وغيره من الأنبياء ـ عليهم السلام ـ كان رسول الله ﷺ يفزع إلى الله فى كل مواقف الشدة، فكانت حماية الله أسرع إليه من كل جند.

ومن الأمثلة على ذلك عصمته ﷺ من سراقة بن مالك فى الهجرة. ففى الحديث عن أبى بكر ـ رضى الله عنه ـ قال: طلبنا القوم فلم يدركنا أحد منهم غير سراقة بن مالك على فرس له. فقلت: يا رسول الله هذا الطلب قد لحقنا، قال: (لا تحزن، إن الله معنا)، فلما كان بيننا وبينه قيد رمح أو ثلاثة دعا عليه رسول الله ﷺ فقال: (اللهم، اكفناه بما شئت)، فساخت قوائم فرسه فى الأرض إلى بطنها، قال: يا محمد، قد علمت أن هذا عملك فادع الله أن ينجينى مما أنا فيه، فوالله لأعمين كل من ورائى من الطلب، فدعا له فانطلق راجعا)[3].

---

(1) يشير إلى قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾﴾ [آل عمران].

(2) رواه أبو يعلى.

(3) رواه البخارى ومسلم.

وفى حديث آخر مفصل عن هذه الحادثة حدث به سراقة بن مالك ـ رضى الله عنه ـ نفسه، قال: جاءنا رسل كفار قريش يجعلون فى رسول الله ﷺ وأبى بكر دية كل واحد منهما مائة ناقة من الإبل لمن قتله أو أسره، فبينا أنا جالس فى مجلس من مجالس قومى بنى مدلج أقبل رجل منهم حتى قام علينا ـ ونحن جلوس ـ فقال: يا سراقة إنى قد رأيت آنفا أسودة بالساحل أراها محمدا وأصحابه.

قال سراقة: فعرفت أنهم هم، فأومأت إليه بعينى أن اسكت، فسكت، ثم قلت له: إنهم ليسوا بهم، ولكنك رأيت فلانا وفلانا انطلقوا يبتغون ضالة لهم.

ثم لبثت فى المجلس، ثم قمت، فدخلت بيتى فأمرت جاريتى أن تخرج بفرسى وهى من وراء أكمة فتحبسها على، وأخذت رمحى فخرجت به من ظهر البيت، فحططت بزجه الأرض وخفضت عاليه حتى أتيت فرسى فركبتها، فرفعتها تقرب بى حتى رأيت أسودتهما.

فلما دنوت منهم عثرت بى فرسى، فخررت عنها، فقمت فأهويت بيدى إلى كنانتى فاستخرجت منها الأزلام فاستقسمت بها أضرهم، أم لا أضرهم، فخرج الذى أكره: أنى لا أضرهم، وكنت أرجو أن أرده فآخذ المائة ناقة، فركبت فرسى وعصيت الازلام فرفعتها تقرب بى حتى إذا سمعت قراءة رسول الله ﷺ وهو لا يلتفت وأبو بكر يكثر الالتفات ساخت يدا فرسى فى الأرض حتى بلغت الركبتين فخررت عنها، ثم زجرتها فنهضت، فلم تكد تخرج يديها، فلما استوت قائمة إذ الأثر يديها عثان ساطع فى السماء مثل الدخان فاستقسمت بالأزلام، فخرج الذى أكره ـ ألا أضرهم ـ فعرفت حين رأيت ذلك أنه قد منع منى وأنه ظاهر، فناديتهم بالأمان وقلت: أنظرونى فوالله لا آذيتكم ولا يأتيكم منى شىء تكروهونه.

فقال رسول الله ﷺ لأبى بكر: قل له وما تبتغى منا؟ فقلت: إن قومك قد جعلوا فيكما الدية وأخبرتهما أخبار ما يريد الناس بهم وعرضت عليهم الزاد والمتاع فلم يرزآنى شيئا ولم يسألانى إلا أن قال: (أخف عنا)، فسألته أن يكتب لى كتاب موادعة آمن به، قال: (اكتب له يا أبا بكر)[1].

ثم رجعت، فسكت فلم أذكر شيئا مما كان حتى إذا كان فتح مكة على رسول الله ﷺ وفرغ من حنين والطائف خرجت لألقاه ومعى الكتاب الذى كتب لى لقيته بالجعرانة، فبينا أنا عامد له دخلت بين ظهرى كتيبة من كتائب الأنصار، فطفقوا يقرعوننى بالرماح ويقولون: إليك إليك حتى إذا دنوت من رسول الله ﷺ وهو على ناقته، والله لكأنى أنظر إلى ساقه فى غرزه كأنها جمارة، فرفعت يدى بالكتاب، ثم قلت: يا رسول الله هذا كتابك لى وأنا سراقة بن مالك، فقال رسول الله ﷺ: (يوم وفاء وبر أدنه)، فدنوت منه فأسلمت.

ثم تذكرت شيئا أسأل رسول الله ﷺ عنه فما أذكره، إلا أنى قلت: يا رسول الله الضالة من الإبل تغشى حياضى، وقد ملأتها لإبلى: هل لى من أجر فى أن أسقيها؟ قال: (نعم فى كل ذات كبد حرى أجر)، ثم رجعت إلى قومى فسقت إلى رسول الله ﷺ صدقتى[2].

ومن هذا الباب إجابة الله دعاءه على أقوام تكبروا عليه، أو على ما طلبه منهم:

فمنهم من رآه يأكل بشماله، فعن سلمة بن الاكوع ـ رضى الله عنه ـ أن رجلا أكل عند النبى ﷺ بشماله، فقال: (كل بيمينك)، فقال: لا أستطيع، قال: (لا استطعت)، ما منعه إلا الكبر.

قال الراوى: فما رفعها إلى فيه بعد[3].

(1) وفى رواية: فأمر عامر بن فهيرة فكتب فى رقعة من أديم، ثم مضى رسول الله ﷺ.

(2) رواه البخارى ومسلم وأحمد ويعقوب بن سفيان.

(3) رواه مسلم والدارمى وعبد بن حميد وابن حبان وزادوا أن اسمه بسر بن راعى.

ومنهم سبيعة الأسلمية، فعن عقبة بن عامر - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ رأى سبيعة الأسلمية تأكل بشمالها، فقال: (أخذها داء غزة)، فلما مرت بغزة أصابها الطاعون فقتلها[1].

ومنهم رجل يقال له قيس، فعن بريدة - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ سأل عن رجل يقال له قيس فقال: (لا أقرته الأرض)، فكان لا يدخل أرضا يستقر بها حتى يخرج منها[2].

ومنهم معاوية، فعن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال رسول الله ﷺ: (ادع لى معاوية)، فقلت: إنه يأكل، فقال فى الثالثة: (لا أشبع الله بطنه)، فما شبع بطنه أبدا[3].

ومنهم من كف شعره عن التراب فى الصلاة، فعن أنس - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ رأى رجلا ساجدا وهو يقول: بشعره هكذا يكفه عن التراب، فقال ﷺ: (اللهم قبح شعره) قال: فسقط[4].

ومنهم من احتكر طعاما، فعن أبى يحيى عن فروخ مولى عثمان أن عمر، قيل له: إن مولاك فلانا قد احتكر طعاما، فقال: قد سمعت رسول الله ﷺ يقول: (من احتكر على المسلمين طعامهم ضربه الله بالجذام أو بالإفلاس)، فقال مولاه: نشترى بأموالنا ونبيع، فذكر أبو يحيى أنه رأى مولى عمر بعد حين مجذوما[5].

ومنهم قريش، التى دعا رسول الله ﷺ عليها أن يصيبها الله بالسنين، فعن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال: كان رسول الله ﷺ يدعو فى القنوت: (اللهم أنج سلمة بن هشام، اللهم أنج الوليد بن الوليد، اللهم أنج عياش بن أبى ربيعة، اللهم أنج المستضعفين من المؤمنين، اللهم اشدد وطأتك على مضر، اللهم اجعلها سنين كسنى يوسف)[6].

ومنهم بنو حارثة بن عمرو، فقد روى أن رسول الله ﷺ كتب إلى بنى حارثة بن عمرو بن قرط يدعوهم إلى الإسلام، فأخذوا صحيفته فغسلوها، ورقعوا بها دلوهم، فقال رسول الله ﷺ: (ما لهم ذهب الله بعقولهم)، قال: فهم أهل رعدة وعجلة، وكلام مختلط، وأهل سفه.

قال الواقدى: قد رأيت بعضهم عيا لا يحسن تبيين الكلام[7].

ومنهم سراقة بن مالك، فقد روى أنه دعا إليه قبل إسلامه حين اتبع النبى ﷺ وأبا بكر، فعن البراء بن عازب - رضى الله عنه - فى حديث هجرة النبى ﷺ أن رسول الله ﷺ دعا عليه قال: (اللهم اكفناه بما شئت)، فساخت به فرسه فى الأرض إلى بطنها[8].

ومنهم أبو القين، فعن سعيد بن جهمان عن أبى القين - رضى الله عنه - أنه مر برسول الله ﷺ ومعه شيء من تمر، فأهوى رسول الله ﷺ ليأخذ منه قبضة لينثرها بين يدى أصحابه فضم طرف ردائه إلى بطنه وإلى صدره، فقال رسول الله ﷺ: (زادك الله شحا).

زاد أبو عبد الله بن مندة: فكان من أشح الناس[9].

---

(1) رواه البيهقى.
(2) رواه البيهقى.
(3) رواه مسلم والبيهقى.
(4) رواه أبو نعيم.
(5) رواه البيهقى.
(6) رواه البخارى.
(7) رواه أبو نعيم من طريق الواقدى عن شيوخه.
(8) رواه أبو نعيم فى المستخرج عن مسلم.
(9) رواه الطبرانى برجال الصحيح.

ومنهم الحكم بن أبي العاص والد مروان، فقد كان الحكم بن أبي العاص يجلس عند رسول الله ﷺ فإذا تكلم النبي ﷺ اختلج فبصر به النبي ﷺ فقال: (أنت كذلك)، فما زال يختلج حتى مات، وفي لفظ: مر النبي ﷺ بأبي الحكم، فجعل يغمز بالنبي ﷺ فقال: فرآه، فقال: (اللهم اجعل به وزعا)، فرجف مكانه[1].

ومنهم كسرى حين مزق كتابه، فعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أن رسول الله ﷺ بعث بكتابه إلى كسرى، فلما قرأه كسرى مزقه، فدعا عليهم رسول الله ﷺ أن يمزقوا كل ممزق[2].

وفي حديث آخر عن عمير بن اسحاق، قال: كتب رسول الله ﷺ إلى كسرى وقيصر، فأما قيصر فوضعه وأما كسرى فمزقه، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: (أما هؤلاء فيمزقون، وأما هؤلاء فستكون لهم بقية)[3].

* * *

(1) رواه الطبراني والبيهقي عن عبد الرحمن بن أبي بكر، والبيهقي عن مالك بن دينار عن هند بن خديجة.

(2) رواه البخاري.

(3) رواه البيهقي.

## 4 - جند الإعلام

ومن الجنود الذين حمى الله بهم نبيه ﷺ جند الإعلام.. وهم جند ليس لهم من دور غير إخبار رسول الله ﷺ بالمؤامرات التي يدبرها أعداؤه له.

لاشك أنكم تعرفون أهمية المعلومة في المعارك، حتى إن الرؤساء والملوك، بل من هم دونهم يضعون ميزانيات ضخمة للعيون والجواسيس ليترصدوا لهم كل تحرك توجه ضدهم.

أما محمد ﷺ فلم يكن له من العيون إلا ما يطلعه الله عليه سواء من عالم الحكمة أو من عالم القدرة.

وسأذكر لكم بعض الأمثلة عن ذلك:

لعل أولهم هو الوحي الرباني، فالقرآن الكريم كان يتنزل ليفضح المؤامرات المختلفة، كما قال تعالى: ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِءُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [التوبة].

فالنفاق ذلك الخطر الخفي لا يعلمه إلا من يعلم السر وأخفى، ولذلك أخبر القرآن الكريم عن كثير من مؤامرات المنافقين وعلاماتهم ليتميزوا عن المخلصين الصادقين.

فمن الآيات التي بينت لرسول الله ﷺ بعض مواقف هؤلاء المعادية للإسلام، ولرسول الله ﷺ قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾﴾ [النساء].

فقد نزلت هذه الآيات في رجل من المنافقين اختصم مع رجل من اليهود، فجعل اليهودي يقول: بيني وبينك محمد، وذاك يقول: بيني وبينك كعب بن الأشرف[1].

فعن الشعبي قال: كان بين رجل من المنافقين ورجل من اليهود خصومة، فدعا اليهودي المنافق إلى النبي ﷺ لأنه علم أنه لا يقبل الرشوة، ودعا المنافق اليهودي إلى حاكمهم لأنه علم أنهم يأخذون الرشوة في أحكامهم.

فلما اختلفا اجتمعا على أن يحكما كاهنا في جهينة، فأنزل الله تعالى الآيات السابقة.

وفي حديث آخر عن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ أنها نزلت في رجل من المنافقين كان بينه وبين يهودي خصومة، فقال اليهودي: انطلق بنا إلى محمد، وقال المنافق: بل نأتي كعب بن الأشرف، وهو الذي سماه الله تعالى الطاغوت، فأبى اليهودي إلا أن يخاصمه إلى رسول الله ﷺ، فلما رأى المنافق ذلك أتى معه إلى رسول الله ﷺ، فاختصما إليه، فقضى رسول الله ﷺ لليهودي، فلما خرجا من عنده لزمه المنافق وقال: ننطلق إلى عمر بن الخطاب، فأقبلا إلى عمر، فقال اليهودي: اختصمنا أنا وهذا إلى محمد فقضى لي عليه فلم يرض بقضائه، وزعم أنه مخاصم إليك وتعلق بي فجئت إليك معه، فقال عمر للمنافق، أكذلك؟ قال: نعم، فقال لهما: رويدا حتى أخرج إليكما، فدخل عمر وأخذ السيف فاشتمل عليه، ثم خرج إليهما وضرب به المنافق حتى برد، وقال: هكذا أقضي لمن لم يرض بقضاء الله وقضاء رسوله، وهرب اليهودي، ونزلت هذه الآية.

---

(1) هذا على قول من الأقوال، والآية عامة كما هو معلوم.

وقال السدى. كان ناس من اليهود أسلموا ونافق بعضهم، وكانت قريظة و النضير فى الجاهلية إذا قتل رجل من بنى قريظة رجلا من بنى النضير قتل به وأخذ ديته مائة وسق من تمر، وإذا قتل رجل من بنى النضير رجلا من قريظة لم يقتل به وأعطى ديته ستين وسقا من تمر، وكانت النضير حلفاء الأوس وكانوا أكبر وأشرف من قريظة وهم حلفاء الخزرج، فقتل رجل من النضير رجلا من قريظة واختصموا فى ذلك، فقالت بنو النضير: إنا وأنتم اصطلحنا فى الجاهلية على أن يقتل منكم ولا تقتلوا منا، وعلى أن ديتكم ستون وسقا والوسق ستون صاعا وديتنا مائة وسق، فنحن نعطيكم ذلك، فقالت الخزرج: هذا شيء كنتم فعلتموه فى الجاهلية لأنكم كثرتم وقللنا فقهرتمونا، ونحن وأنتم اليوم إخوة وديننا ودينكم واحد، وليس لكم علينا فضل، فقال المنافقون: انطلقوا إلى أبى بردة الكاهن الأسلمى، وقال المسلمون: لا بل إلى النبى ﷺ، فأبى المنافقون وانطلقوا إلى أبى بردة ليحكم بينهم، فقال: أعظموا اللقمة: يعنى الرشوة، فقالوا: لك عشرة أوسق، قال: لا، بل مائة وسق ديتى، فإنى أخاف إن نفرت النضيرى قتلتنى قريظة، وإن نفرت القريظى قتلتنى النضير، فأبوا أن يعطوه فوق عشرة أوسق وأبى أن يحكم بينهم، فأنزل الله تعالى هذه الآية، فدعا النبى ﷺ كاهن أسلم إلى الإسلام، فأبى فانصرف، فقال النبى ﷺ لابنيه: أدركا أباكما، فإنه إن جاوز عقبة كذا لم يسلم أبدا، فأدركاه فلم يزالا به حتى انصرف وأسلم، وأمر النبى ﷺ مناديا فنادى: ألا إن كاهن أسلم قد أسلم.

ومنها قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ ﴾ [الأحزاب].

فقد نزلت هذه الآية تخبر عن استهزاء المنافقين ومثلهم اليهود بما وعد به رسول الله ﷺ أصحابه من النصر والتمكين.

فقد قال ابن عباس وأنس بن مالك ـ رضى الله عنهما ـ: لما افتتح رسول الله ﷺ مكة ووعد أمته ملك فارس والروم، قالت المنافقون واليهود: هيهات هيهات، من أين لمحمد ملك فارس والروم هم أعز وأمنع من ذلك، ألم يكف محمدا مكة والمدينة حتى طمع فى ملك فارس والروم؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية.

وفى حديث آخر عن عمرو بن عوف قال: خطب رسول الله ﷺ على الخندق يوم الاحزاب، ثم قطع لكل عشرة أربعين ذراعا، فكنت أنا وسلمان وحذيفة والنعمان بن مقرن المزنى وستة من الأنصار فى أربعين ذراعا، فحفرنا حتى إذا كنا تحت ذى ناب، أخرج الله من بطن الخندق صخرة مروة كسرت حديدنا وشقت علينا، فقلنا: يا سلمان ارق إلى رسول الله ﷺ فأخبره خبر هذه الصخرة، فإما أن نعدل عنها، وإما أن يأمرنا فيها بأمره، فإنا لا نحب أن نجاوز خطه.

فرقا سلمان إلى رسول الله ﷺ وهو ضارب عليه قبة تركية، فقال: يا رسول الله خرجت صخرة بيضاء مروة من بطن الخندق فكسرت حديدنا وشقت علينا حتى ما يحيك فيها قليل ولا كثير فمرنا فيها بأمر، فإنا لا نحب أن نجاوز خطك، قال: فهبط رسول الله ﷺ مع سلمان الخندق والتسعة على شفة الخندق، فأخذ رسول الله ﷺ المعول من سلمان، فضربها ضربة صدعها وبرق منها برق أضاء ما بين لابتيها، يعنى المدينة، حتى كأن مصباحا فى جوفه بيت مظلم، وكبر رسول الله ﷺ تكبير فتح، فكبر المسلمون، ثم ضربها رسول الله ﷺ فكسرها وبرق منها برق أضاء ما بين لابتيها حتى كأن مصباحا فى جوف بيت مظلم، وكبر رسول الله ﷺ تكبير فتح وكبر المسلمون، ثم ضربها رسول الله ﷺ فكسرها، وبرق منها برق أضاء ما بين لابتيها، حتى كأن مصباحا فى جوف بيت مظلم، وكبر رسول الله ﷺ تكبير فتح وكبر المسلمون.

واخذ يد سلمان ورقى، فقال سلمان. بأبى أنت وأمى يا رسـول الله لقد رأيت شيئا ما رأيت مثله قط، فالتفت رسول الله ﷺ إلى القوم فقـال: رأيتم ما يقول سلمان، قالوا: نعم يا رسول الله، قال: ضربت ضـربتى الأولى فبرق الذى رأيتم أضـاءت لى منها قصور الحيرة ومدائن كسـرى كأنها أنياب الكلاب، وأخبرنى جبـريل عليه السلام أن أمتى ظاهرة عليها، ثم ضربت ضـربتى الثانية فبرق الذى رأيتم، أضاءت لى منها القـصور الحمر من أرض الروم كأنها أنياب الكلاب، وأخـبرنى جبريل عليه السلام أن أمتى ظاهرة عليها، ثم ضربت ضربتى الثـالثة فبرق الذى رأيتم أضاءت لى منها قصور صنعاء كأنها أنياب الكلاب، وأخبرنى جبريل عليه السلام أن أمتى ظاهرة عليها، فأبشروا.

فاستبشر المسلمون وقالوا: الحمد لله موعد صدق وعدنا النصر بعد الحفر، فقال المنافقون: ألا تعجبون يمنيكم ويعدكم الباطل، ويخبركم أنه يبصر من يثرب قصور الحيرة ومدائن كسرى وأنها تفتح لكم، وأنتم إنما تحفرون الخندق من الفرق، ولا تستطيعون أن تبرزوا؟

فنزل القرآن يفـضحهم، وينبئ عن مـقولتهم هذه، ونزل كذلك قـوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾﴾ [آل عمران].

ومنها قوله تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوا وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾﴾ [آل عمران].

فقد نزلت هذه الآية تفضح ما تخبـئه نفوس المنافقين من غرور[1]، فعن أبى سعيد الخدرى ـ رضى الله عنه ـ أن رجالا من المنافـقين على عهـد رسول الله ﷺ كان إذا خـرج رسول الله ﷺ إلى الغزو تخلفوا عنه، فإذا قدم اعتذروا إليه وحلفوا وأحبوا أن يحمدوا بما لم يفعلوا، فنزلت هذه الآية[2].

وفى حديـث آخر عن عن ابن عـباس: دعا النبى ﷺ يـهود فسـألهم عن شىء فكتـموه إياه وأخبروه بغيره، فأروه أن قد استحمدوا إليه بما أخبروه عنه فيما سألهم، وفرحوا بما أوتوا من كتمانهم إياه، ثم قرأ ابن عباس: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ [آل عمران][3].

وفى حديث آخر عن الضـحاك، قال: كتب يهود المدينة إلى يهود العـراق واليمن ومن بلغهم كتابهم من اليهود فى الأرض كلها إن محمدا ليس نبى الله، فاثبتوا على دينكم وأجمعوا كلمتكم على ذلك، فأجمعت كلمتهم على الكفر بمحمد ﷺ والقرآن، ففرحوا بذلك وقالوا: الحمد لله الذى جمع كلمتنا ولم نتفـرق ولم نترك ديننا، وقالوا: نحن أهل الصوم والصـلاة ونحن أولياء الله، فلذلك قول الله تعالى: ﴿ ... يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوا وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا ... ﴿١٨٨﴾﴾ [آل عمران]، يعنى بما ذكروا من الصوم والصلاة والعبادة.

ومنها قـوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾﴾ [آل عمران].

فقد نزلت هذه الآية فى الرد على شبهات بعض المنافـقين، فعن جابر بن عبد الله وأنس وابن عباس وقـتادة ـ رضى الله عنهم ـ: نزلت فى النجاشى، وذلك لما مات نعـاه جبريل ﷺ لرسول الله ﷺ فى اليوم الذى مات فيه، فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: اخرجوا فصلوا على أخ لكم مات بغير

---

(1) هذا معنى من معانيها، بالإضافة إلى معناها العام، فخصوص السبب لا ينفى عموم اللفظ.

(2) رواه مسلم.

(3) رواه البخارى ومسلم.

أرضكم، فقالوا: ومن هو؟ فقال: النجاشي، فخرج رسول الله ﷺ إلى البقيع وكشف له من المدينة إلى أرض الحبشة، فأبصر سرير النجاشي وصلى عليه وكبر أربع تكبيرات واستغفر له وقال لأصحابه: استغفروا له، فقال المنافقون: انظروا إلى هذا يصلى على علج حبشي نصراني لم يره قط وليس على دينه، فأنزل الله تعالى هذه الآية[1].

ومنها قوله تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلاءِ الْقَوْمِ لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا (٧٨)﴾ [النساء].

فقد نزلت هذه الآية - في قول ابن عباس - لما استشهد من المسلمين من استشهد يوم أحد، قال المنافقون الذين تخلفوا عن الجهاد: لو كان إخواننا الذين قتلوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

ومنها قوله تعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً (٨٨)﴾ [النساء].

ففي هذه الآية يخبر الله تعالى المؤمنين المتحيرين عن حقيقة بعض المنافقين، فعن عبد الله بن يزيد بن ثابت، أن قوما خرجوا مع رسول الله ﷺ إلى أحد فرجعوا، فاختلف فيهم المسلمون. فقالت فرقة نقتلهم، وقالت فرقة لا نقتلهم، فنزلت هذه الآية[2].

وفي حديث آخر عن سلمة بن عبد الرحمن، أن قوما من العرب أتوا رسول الله ﷺ فأسلموا وأصابوا وباء المدينة، وحماها فأركسوها، فخرجوا من المدينة فاستقبلهم نفر من أصحاب رسول الله ﷺ، فقالوا: مالكم رجعتم؟ فقالوا: أصابنا وباء المدينة فاجتويناها، فقالوا: ما لكم في رسول الله أسوة؟ فقال بعضهم: نافقوا، وقال بعضهم: لم ينافقوا هم مسلمون، فأنزل الله تعالى الآية[3].

ومنها قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٥٧)﴾ [المائدة].

فقد ذكر ابن عباس أن هذه الآية نزلت في رفاعة بن زيد وسويد بن الحارث اللذين أظهرا الإسلام، ثم نافقا، وكان رجال من المسلمين يوادونهما، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

ومنها قوله تعالى: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْقِلُونَ (٥٨)﴾ [المائدة].

فقد ذكر الكلبي في سبب نزولها أن منادي رسول الله ﷺ كان إذا نادى إلى الصلاة، فقام المسلمون إليها، قالت اليهود: قوموا صلوا اركعوا، على طريق الاستهزاء والضحك فأنزل الله تعالى هذه الآية.

وذكر السدي أنها نزلت في رجل من نصارى المدينة كان إذا سمع المؤذن يقول: أشهد أن محمدا رسول الله قال: حرق الكاذب، فدخل خادمه بنار ذات ليلة، وهو نائم وأهله نيام، فطارت منها شرارة في البيت فاحترق هو وأهله.

وذكر آخرون أن الكفار لما سمعوا الأذان حضروا رسول الله ﷺ والمسلمون على ذلك، وقالوا: يا محمد لقد أبدعت شيئا لم نسمع به فيما مضى من الأمم، فإن كنت تدعي النبوة فقد

---

(1) رواه الواحدي في أسباب النزول.

(2) رواه البخاري ومسلم.

(3) رواه أحمد

خالفت فيما أحدثت من هذا الأذان الأنبياء من قبله، ولو كان فى هذا خير كان أولى الناس به الأنبياء والرسل من قبلك، فمن أين لك صياح كصياح البعير، فما أقبح من صوت ولا أسمج من كفر، فأنزل الله تعالى هذه الآية وأنزل: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [فصلت]

ومنها قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾﴾ [التوبة].

فقد نزلت هذه الآية فى جماعة من المنافقين كانوا يؤذون الرسول ﷺ ويقولون ما لا ينبغى، قال بعضهم: لا تفعلوا، فإنا نخاف أن يبلغه ما تقولون، فيقع بنا، فقال الجلاس بن سويد: نقول ما شئنا، ثم نأتيه فيصدقنا بما نقول، فإنما محمد أذن سامعة، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

وذكر محمد بن إسحاق وغيره أن الآية نزلت فى رجل من المنافقين يقال له نبتل بن الحارث، وكان رجلا أذلم أحمر العينين أسفع الخدين مشوه الخلقة، وهو الذى قال النبى ﷺ: من أراد أن ينظر الشيطان فلينظر إلى نبتل ابن الحارث، وكان ينم حديث النبى ﷺ إلى المنافقين، فقيل له: لا تفعل، فقال: إنما محمد أذن من حدثه شيئا صدقه نقول ما شئنا، ثم نأتيه فنحلف له فيصدقنا، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

وقال السدى: اجتمع ناس من المنافقين فيهم جلاس بن سويد بن الصامت ووديعة بن ثابت فأرادوا أن يقعوا فى النبى ﷺ وعندهم غلام من الأنصار يدعى عامر بن قيس فحقروه، فتكلموا وقالوا: لئن كان ما يقوله محمد حقا لنحن أشر من الحمير، ثم أتى النبى ﷺ فأخبره، فدعاهم فسألهم، فحلفوا أن عامرا كاذب وحلف عامر أنهم كذبة، وقال: اللهم لا تفرق بيننا حتى تبين صدق الصادق من كذب الكاذب، فنزلت فيهم هذه الآية، ونزل قوله: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾﴾ [التوبة].

ومنها قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [التوبة].

فقد نزلت هذه الآية فى أقوام من المنافقين:

فمن قتادة، قال: بينما رسول الله ﷺ فى غزوة تبوك وبين يديه ناس من المنافقين إذ قالوا: يرجو هذا الرجل أن يفتح قصور الشام وحصونها هيهات له ذلك، فأطلع الله نبيه على ذلك، فقال نبى الله: اجلسوا على الركب فأتاهم فقال: قلتم كذا وكذا؟ فقالوا: يا رسول الله إنما كنا نخوض ونلعب، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

وعن زيد بن أسلم ومحمد بن وهب قالا: قال رجل من المنافقين فى غزوة تبوك: ما رأيت مثل قرائنا هؤلاء أرغب بطونا ولا أكذب ألسنا ولا اجبن عند اللقاء، يعنى رسول الله ﷺ وأصحابه، فقال عوف بن مالك: كذبت ولكنك منافق لأخبرن رسول الله ﷺ فذهب عوف ليخبره، فوجد القرآن قد سبقه، فجاء ذلك الرجل إلى رسول الله ﷺ وقد ارتحل وركب ناقته، فقال: يا رسول الله إنما كنا نخوض ونلعب ونتحدث بحديث الركب نقطع به عنا الطريق.

وعن ابن عمر قال: رأيت عبد الله بن أبى يسر قدام النبى ﷺ والحجارة تنكته وهو يقول: يا رسول الله إنما كنا نخوض ونلعب، والنبى ﷺ يقول: أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون.

ومنها قوله تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ فَإِن يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ وَإِن يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾﴾ [التوبة].

فقد نزلت هذه الآية فى أقوام من المنافقين:

فعن الضحاك، قال: خرج المنافقون مع رسول الله ﷺ إلى تبوك، وكانوا إذا خلا بعضهم ببعض سبوا رسول الله ﷺ وأصحابه وطعنوا فى الدين، فنقل ما قالوا حذيفة إلى رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: يا أهل النفاق ما هذا الذى بلغنى عنكم، فحلفوا ما قالوا شيئا من ذلك، فأنزل الله تعالى هذه الآية إكذابا لهم.

وقال قتادة: ذكر لنا أن رجلين اقتتلا، رجلا من جهينة ورجلا من غفار، فظهر الغفارى على الجهينى، فنادى عبد الله بن أبى: يا بنى الأوس انصروا أخاكم، فوالله ما مثلنا ومثل محمد إلا كما قال القائل: سمن كلبك يأكلك، فوالله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، فسمع بها رجل من المسلمين، فجاء إلى رسول الله ﷺ فأخبره، فأرسل إليه، فجعل يحلف بالله ما قال، وأنزل الله تعالى هذه الآية.

أما قوله تعالى: ﴿وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا﴾، فقد قال الضحاك: هموا أن يدفعوا ليلة العقبة، وكانوا قوما قد أجمعوا على أن يقتلوا رسول الله ﷺ وهم معه يلتمسون غرته حتى أخذ فى عقبة، فتقدم بعضهم وتأخر بعضهم وذلك كان ليلا قالوا: إذا أخذ فى العقبة دفعناه عن راحلته فى الوادى، وكان قائده فى تلك الليلة عمار بن ياسر وسائقه حذيفة فسمع حذيفة وقع أخفاف الإبل، فالتفت فإذا هو بقوم متلثمين، فقال: إليكم يا أعداء الله فأمسكوا، ومضى النبى ﷺ حتى نزل منزله الذى أراد، فأنزل الله تعالى قوله: ﴿وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا﴾.

ومنها قوله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ (١٠١)﴾ [التوبة].

فقد ذكر الكلبى أنها نزلت فى جهينة ومزينة وأشجع وأسلم وغفار من أهل المدينة، يعنى عبد الله بن أبى وجد بن قيس ومعتب بن بشير والجلاس ابن سويد وأبى عامر الراهب.

ومنها قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٠٧)﴾ [التوبة].

فقد نزلت هذه الآية فى بعض المنافقين الذين أسسوا مسجدا ليضاروا به المسلمين.

فقد ذكر المفسرون أن بنى عمرو بن عوف اتخذوا مسجد قباء وبعثوا إلى رسول الله ﷺ أن يأتيهم، فأتاهم فصلى فيه، فحسدهم إخوتهم بنو عمرو، وقالوا: نبنى مسجدا ونرسل إلى رسول الله ﷺ ليصلى فيه كما يصلى فى مسجد إخواننا، وليصل فيه أبو عامر الراهب إذا قدم من الشام، وكان أبو عامر قد ترهب فى الجاهلية وتنصر ولبس المسوح، وأنكر دين الحنيفية لما قدم رسول الله ﷺ المدينة وعاداه وسماه النبى ﷺ أبا عامر الفاسق وخرج إلى الشام وأرسل إلى المنافقين أن استعدوا بما استطعتم من قوة وسلاح، وابنوا لى مسجدا فإنى ذاهب إلى قيصر فآتى بجند الروم، فأخرج محمدا وأصحابه فبنوا مسجدا إلى جنب مسجد قباء، وكان الذى بناه اثنا عشر رجلا حزام بن خالد، ومن داره أخرج إلى المسجد وثعلبة بن حاطب ومعتب بن قشير وأبو حبيبة بن الأزعر وعباد بن حنيف وحارثة وجارية وابناه مجمع وزيد ونبتل بن حارث ولحاد بن عثمان ووديعة بن ثابت.

فلما فرغوا منه أتوا رسول الله ﷺ فقالوا: إنا بنينا مسجدا لذى العلة والحاجة والليلة المطيرة والليلة الشاتية، وإنا نحب أن تأتينا فتصلى لنا فيه، فدعا بقميصه ليلبسه فيأتيهم، فنزل عليه القرآن وأخبره الله عز وجل خبر مسجد الضرار وما هموا به، فدعا رسول الله ﷺ مالك بن الدخشم ومعن بن عدى وعامر بن يشكر والوحشى قاتل حمزة، وقال لهم: انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدموه واحرقوه، فخرجوا وانطلق مالك وأخذ سعفا من النخل فأشعل فيه نارا، ثم دخلوا المسجد

وفيه أهله فحرقوه وهدموه وتفرق عنه أهله، وأمر النبي ﷺ أن يتخذ ذلك كناسة تلقى فيها الجيف والنتن والقمامة، ومات أبو عامر بالشام وحيدا غريبا.

ومنها قوله تعالى: ﴿... وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ... ④﴾ [الأحزاب].

فقد نزلت هذه الآية في زيد بن حارثة الذي كان عند الرسول ﷺ فأعتقه وتبناه قبل الوحي، فلما تزوج النبي ﷺ زينب بنت جحش، وكانت تحت زيد بن حارثة، قالت اليهود والمنافقون: تزوج محمد ﷺ امرأة ابنه وهو ينهى الناس عنها، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

ومنها قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ ⑧﴾ [المجادلة].

فقد قال ابن عباس ومجاهد: نزلت في اليهود والمنافقين، وذلك أنهم كانوا يتناجون فيما بينهم دون المؤمنين وينظرون إلى المؤمنين ويتغامزون بأعينهم، فإذا رأى المؤمنون نجواهم قالوا: ما نراهم إلا وقد بلغهم عن أقربائنا وإخواننا الذين خرجوا في السرايا قتل أو موت أو مصيبة أو هزيمة، فيقع ذلك في قلوبهم ويحزنهم، فلا يزالون كذلك حتى يقدم أصحابهم وأقرباؤهم، فلما طال ذلك وكثر، شكوا إلى رسول الله ﷺ، فأمرهم أن يتناجوا دون المسلمين فلم ينتهوا عن ذلك وعادوا إلى مناجاتهم، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

أما قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ﴾، فقد ذكرت عائشة ـ رضى الله عنها ـ أن ناسا من اليهود جاءوا إلى النبي ﷺ فقالوا: السام عليك يا أبا القاسم، فقلت: السام عليكم وفعل الله بكم، فقال رسول الله ﷺ: مه يا عائشة فإن الله تعالى لا يحب الفحش ولا التفحش، فقلت: يا رسول الله ألست أدرى ما يقولون؟ قال: ألست ترين أرد عليهم ما يقولون؟ أقول: وعليكم، ونزلت هذه الآية في ذلك.

وعن أنس أن يهوديا أتى النبي ﷺ فقال: السام عليك، فرد القوم، فقال نبي الله ﷺ: هل تدرون ما قال؟ قالوا: الله ورسوله أعلم يا نبي الله، قال: لا، ولكن قال كذاوكذا ردوه على، فردوه عليه، فقال: قلت السام عليكم، قال: نعم، فقال نبي الله ﷺ عند ذلك: إذا سلم عليكم أحد من أهل الكتاب فقولوا: أي عليك ما قلت، ونزل قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ﴾.

ومنها قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ⑪﴾ [المجادلة].

فقد ذكر مقاتل سبب نزولها، فقال: كان النبي ﷺ في الصفة وفي المكان ضيق وذلك يوم الجمعة، وكان رسول الله ﷺ يكرم أهل بدر من المهاجرين والأنصار، فجاء ناس من أهل بدر وقد سبقوا إلى المجلس، فقاموا حيال النبي ﷺ على أرجلهم ينتظرون أن يوسع لهم فلم يفسحوا لهم، وشق ذلك على رسول الله ﷺ فقال لمن حوله من غير أهل بدر، قم يا فلان وأنت يا فلان، فأقام من المجلس بقدر النفر الذين قاموا بين يديه من أهل بدر، فشق ذلك على من أقيم من مجلسه وعرف النبي ﷺ الكراهية في وجوههم، فقال المنافقون للمسلمين: ألستم تزعمون أن صاحبكم يعدل بين الناس؟ فوالله ما عدل على هؤلاء قوم أخذوا مجالسهم وأحبهم القرب من نبيهم أقامهم وأجلس من أبطأ عنهم مقامهم، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

ومنها قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ⑭﴾ [المجادلة] إلى قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ⑱﴾ [المجادلة].

فقد ذكر السدى ومقاتل أنها نزلت فى عبد الله بن نبتل المنافق كان يجالس النبى ﷺ ثم يرفع حديثه إلى اليهود، فبينا رسـول الله ﷺ فى حجرة من حجره، إذ قال: يدخل عليكم الآن رجل قلبه قلب جبار وينظر بعينى شيطان، فدخل عبـد الله بن نبتل وكان أزرق، فقال له رسول الله ﷺ: علام تشتمنى أنت وأصحابك؟ فحلف بالله مـا فعل ذلك، فـقال له النبى ﷺ: فـعلت، فانطلق فـجاء بأصحابه فحلفوا بالله ما سبوه، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

وفى حديث آخر عن ابن عباس ـ رضى الله عـنه ـ أن رسول الله ﷺ كان فى ظل حجرة من حجره وعنده نفر من المسلمين قد كان الظـل يقلص عنهم، فقال لهم: إنه سيأتيكم إنسان ينظر إليكم بعين شيطان، وإذا أتاكم فلا تكلموه، فجاء رجل أزرق، فـدعاه رسول الله ﷺ وكلمه، فقال: علام تشتمنى أنت وفلان وفلان؟ نفر دعا بأسمائهم، فانطلق الرجل فدعاهم، فحـلفوا بالله واعتذروا إليه، فأنزل الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٨﴾﴾ [المجادلة][1].

بالإضافة إلى هذا كله، فقد أنطق الله لمحمد ﷺ الأشياء لتخبره بما تختزنه من مكايد، ومن ذلك قصة الشاة المسمومة.

والحديث ـ كما روى بأسانيد كثيرة مختلفة[2]ـ هى أن رسول الله ﷺ لما افتتح خيبر، واطمأن الناس، أهدت زينب ابنة الحارث امرأة سلام بن مشكم، وهى ابنة أخى مرحب لصـفية امـرأته شاة مصلية، وقد سألت: أي عـضو الشاة أحب إلى رسول الله ﷺ؟ فقيل لها الذراع، فأكـثرت فيها من السم، ثم سمت سـائر الشاة، فـدخل رسول الله ﷺ على صفـية ومعـه بشر بن البراء بن مـعرور، فقدمت إليه الشاة المصلية، فتناول رسول الله ﷺ الكتف، وانتهس منها فلاكها رسول الله ﷺ وتناول بشر بن البراء عظما، فانتهس منه.

قال ابن إسحـاق: فأما بشر فأساغـها، وأما رسول الله ﷺ فلفظها، فلما اسـترط رسول الله ﷺ لقمته استـرط بشر بن البراء ما فى فيه، فقال رسول الله ﷺ: ارفـعوا ما فى أيديكم، فإن كتف هذه الشاة تخبرنى أنى نعيت فيها.

وقد روى أن رسول الله ﷺ أرسل إلى اليهودية، فقال: (أسممت هذه الشاة؟)، فقالت: من أخبـرك؟ قال: (أخبرتنى هذه التى فى يدى، وهى الـذراع)، قالت: نعم، قال: (ما حـملك على ما صنعت؟)، قالت: بلغت من قومى ما لم يخف عليك، فـقلت: إن كان ملكا استرحنا منه، وإن كان نبيا فسيخبر، فعفا عنها رسول الله ﷺ ومات بشر من أكلته التى أكل ولم يعاقبها.

***

---

(1) رواه الحاكم.

(2) رواه البخارى ومـسلم عن أنس، وأحمد، وابن سعد، وأبو نعـيم عن ابن عباس، والدارمى، والبيـهقى عن جابر، والبيهـقى بسند صحيح - عن عبد الرحـمن بن كعب بن مالك، والطبرانى عنه عن أبيـه، والبزار والحاكم، وأبو نعيم عن أبى سعيد، والبيهقى عن أبى هريرة والبيهقى عن ابن شهاب.

## 5 جند الكفاية

ومن الجند الذى حمى الله به نبيه ﷺ كما حمى به سائر الأنبياء جند الكفاية، وهى التى يشير إليها قوله تعالى: ﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾﴾ [البقرة].

وقد تحقق هذا الوعد الإلهى، وأشار القرآن الكريم إلى هذا التحقق، فقال تعالى: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴿٩٥﴾﴾ [الحجر].

وقد أخبر القرآن الكريم أن الله تعالى يمد عباده الصالحين من أنبيائه وغيرهم بهذا النوع من الجند، قال تعالى: ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الأنعام] وقال تعالى: ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الأنبياء].

وقد أخبر رسول الله ﷺ عن إمداد الله بعض عباده الصالحين بهذا النوع من الجند، فقال - فيما رواه أحد المضطهدين صُهَيب - رضى الله عنه -: كان ملك فيمن كان قبلكم، وكان له ساحر، فلما كبر الساحر قال للملك: إنى قد كبرت سنِّى وحضر أجلى، فادفع إلى غلاما لأعلمه السحر. فدفع إليه غلاما فكان يعلمه السحر، وكان بين الساحر وبين الملك راهب، فأتى الغلام على الراهب فسمع من كلامه، فأعجبه نحوه وكلامه، وكان إذا أتى الساحر ضربه وقال: ما حبسك؟ وإذا أتى أهله ضربوه وقالوا: ما حبسك؟ فشكا ذلك إلى الراهب، فقال: إذا أراد الساحر أن يضربك فقل: حبسنى أهلى. وإذا أراد أهلك أن يضربوك فقل: حبسنى الساحر.

قال: فبينما هو ذات يوم إذ أتى على دابة فظيعة عظيمة، قد حبست الناس فلا يستطيعون أن يجوزوا، فقال: اليوم أعلم أمر الراهب أحب إلى الله أم أمر الساحر. قال: فأخذ حجراً فقال: اللهم إن كان أمر الراهب أحبّ إليك وأرضى من أمر الساحر، فاقتل هذه الدابة حتى يجوز الناس. ورماها فقتلها، ومضى الناس. فأخبر الراهب بذلك فقال: أىْ بُنَى، أنت أفضل منى، وإنك ستُبتلى، فإن ابتليت فلا تدل على.

فكان الغلام يُبرئ الأكمه والأبرص وسائر الأدواء ويشفيهم، وكان جليس للملك فعمى، فسمع به، فأتاه بهدايا كثيرة فقال: اشفنى ولك ما هاهنا أجمعُ. فقال: ما أنا أشفى أحدًا، إنما يشفى الله، عز وجل، فإن آمنت بـه دعوت الله فشفاك. فآمن فدعا الله فشفاه. ثم أتى الملك فجلس منه نحو ما كان يجلس، فقال له الملك: يا فلان، من ردّ عليك بصرك؟ فقال: ربى؟ فقال: أنا؟ قال: لا ربى وربك الله. قال: ولك رب غيرى؟ قال: نعم، ربى وربك الله. فلم يزل يعذبه حتى دل على الغلام، فبعث إليه فقال: أىْ بُنَى، بلغ من سحرك أن تبرئ الأكمه والأبرص وهذه الأدواء؟ قال: ما أشفى أنا أحدًا، إنما يشفى الله، عز وجل. قال: أنا؟ قال: لا. قال: أولك رب غيرى؟ قال: ربى وربك الله.

فأخذه أيضا بالعذاب، فلم يزل به حتى دل على الراهب، فأتى بالراهب فقال: ارجع عن دينك، فأبى، فوضع المنشار فى مفرق رأسه حتى وقع شقاه، وقال للأعمى: ارجع عن دينك، فأبى، فوضع المنشار فى مفرق رأسه حتى وقع شقاه إلى الأرض. وقال للغلام: ارجع عن دينك، فأبى، فبعث به مع نفر إلى جبل كذا وكذا، وقال: إذا بلغتم ذروته، فإن رجع عن دينه وإلا فَدَهدهوه من فوقه فذهبوا به، فلما علوا به الجبل قال: اللهم، اكفنيهم بما شئت. فرجف بهم الجبل فدهدهوا أجمعون. وجاء الغلام يتلمس حتى دخل على الملك فقال: ما فعل أصحابك؟ فقال: كفانيهم الله.

فبعث به مع نفر فى قُرْقُور فقال: إذا لججتم به البحر فإن رجع عن دينه وإلا فغرقوه فى البحر. فلججوا به البحر فقال الغلام. اللهم، اكفنيهم بما شئت. فغرقوا أجمعون، وجاء الغلام حتى دخل على الملك فقال: ما فعل أصحابك؟ فقال: كفانيهم الله.

ثم قال للملك: إنك لست بقاتلى حتى تفعل ما آمرك به، فإن أنت فعلت ما آمرك به قتلتنى، وإلا فإنك لا تستطيع قتلى. قال: وما هو؟ قال: تجمع الناس فى صعيد واحد ثم تصلبنى على جذع، وتأخذ سهمًا من كنانتى ثم قل: بسم الله رب الغلام، فإنك إذا فعلت ذلك قتلتنى. ففعل، ووضع السهم فى كبد قوسه ثم رماه، وقال: باسم الله رب الغلام. فوقع السهم فى صدغه، فوضع الغلام يده على موضع السهم ومات، فقال الناس: آمنا برب الغلام. فقيل للملك: أرأيت ما كنت تحذر؟ فقد والله نزل بك، قد آمن الناس كلهم.

فأمر بأفواه السكك فَخُدّت فيها الأخاديد، وأضرمت فيها النيران، وقال: من رجع عن دينه فدعوه وإلا فأقحموه فيها. قال: فكانوا يتعادون فيها ويتدافعون، فجاءت امرأة بابن لها ترضعه، فكأنها تقاعست أن تقع فى النار، فقال الصبى: اصبرى يا أماه، فإنك على الحق[1].

وسأذكر لكم بعض الأمثلة على من كفى الله نبيه ﷺ شرهم، وهى مصداقا لقوله تعالى: ﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴿٩٥﴾ ﴾ [الحجر].

فمنهم الأسود بن عبد يغوث، وهو ابن خال رسول الله ﷺ، وقد كان يسخر من رسول الله ﷺ، فيقول له إذا لقيه: أما كلمت اليوم من السماء يا محمد.

وكان إذا رأى أصحابه قال: قد جاءكم ملوك الأرض الذين يرثون ملك كسرى وقيصر، وما أشبه هذا القول[2].

فخرج من عند أهله، فأصابته السموم، فاسود وجهه حتى صار حبشيا، فأتى أهله فلم يعرفوه، وأغلقوا دونه الباب، فرجع متلددا حتى مات عطشا[3].

بالإضافة إلى هذا، فقد روى أن جبريل ﷺ أومأ إلى رأسه، فضربته الأكلة، فامتخض رأسه قيحا[4].

بالإضافة إلى هذا، فقد روى أن جبريل ﷺ حنى ظهره حتى احقوقف صدره، فقال رسول الله ﷺ خالى خالى، فقال: دعه عنك يا محمد فقد كفيته[5].

ومنهم الحارث بن قيس السهمى، وكان يأخذ حجرا يعبده، فإذا رأى أحسن منه تركه وأخذ الأحسن، وفيه نزل قوله تعالى: ﴿ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ ﴾ [الفرقان].

وكان يقول مستهزئا: لقد غر محمد نفسه وأصحابه أن وعدهم أن يحيوا بعد الموت، والله ما يهلكنا إلا الدهر ومرور الأيام والأحداث.

وكانت عقوبة الله له أن أكل حوتا مملوحا، فلم يزل يشرب عليه الماء حتى انقد بطنه[6]، ويقال إنه أصابته الذبحة، وقال بعضهم: امتخض رأسه قيحا.

ومنهم الأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزى، وكان هو وأصحابه يتغامزون بالنبى ﷺ وأصحابه ويقولون: قد جاءكم ملوك الأرض، ومن يغلب على كنوز كسرى وقيصر، ثم يمكون ويصفرون.

---

(1) رواه مسلم وأحمد وغيرهما.

(2) رواه البلاذرى.

(3) رواه أبو نعيم بسند ضعيف عن ابن عباس، ورواه أيضا عن الربيع بن أنس.

(4) ويقال أومأ إلى بطنه فسقى بطنه ومات حبنا، رواه الطبرانى والبيهقى والضياء بسند صحيح.

(5) رواه ابن أبى حاتم والبلاذرى بسند صحيح.

(6) رواه عبد الرازق وابن جرير وغيرهما عن قتادة ومقسم مولى ابن عباس..

وكلم رسول الله ﷺ بكلام شق عليه فدعا عليه رسول الله ﷺ أن يعمى الله بصره ويثكله ولده، فخرج يستقبل ابنه، وقد قدم من الشام، فلما كان ببعض الطريق جلس في ظل شجرة فجعل جبريل ﷺ يضرب وجهه وعينه بورقة من ورقها خضراء وبشوك من شوكها حتى عمى، فجعل يستغيث بغلامه، فقال له غلامه: ما أرى أحدا يصنع بك شيئا غير نفسك.

بالإضافة إلى هذا، فقد روى أن جبريل ﷺ أومأ إلى عينيه فعمى فشغل عن رسول الله ﷺ.

ولما كان يوم بدر قتل ابنه زمعة بن الأسود، فتحقق بذلك ما دعا به رسول الله ﷺ عليه[1].

ومنهم مالك بن الطلاطلة بن عمرو بن غبشان، وكان سفيها فدعا عليه رسول الله ﷺ واستعاذ بالله من شره، فعصر جبريل بطنه حتى خرج ما في بطنه فمات[2].

ومنهم العاصي بن وائل السهمي، وقد كان من المستهزئين برسول الله ﷺ، فركب حمارا له ـ ويقال بغلة بيضاء ـ فلما نزل شعبا من تلك الشعاب، وهو يريد الطائف ربض به الحمار ـ أو البغلة ـ على شبرقة فأصابت رجله شوكة منها، فانتفخت حتى صارت كعنق البعير ومات[3].

وقد ذكر خباب بن الأرت بعض سخريته بالمسلمين، فقال: كنت قينا ـ أي حدادا – في الجاهلية فعملت للعاصي بن وائل سيوفا، فجئته أتقاضاه، فقال: لا أعطيك حتى تكفر بمحمد ﷺ، فقلت: لا أكفر حتى يميتك الله ثم تبعث.

قال: وإني لميت ثم مبعوث؟! قلت: بلى.

قال: دعني أموت وأبعث، فتؤتى مالاً وولدا فأعطيك هنالك حقك، ووالله لا تكون أنت وصاحبك يا خباب آثرى عند الله مني ولا أعظم حظا.

فأنزل الله تعالى فيه: ﴿ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ ﴾ [مريم][4].

ومنهم الحكم بن أبي العاصي بن أمية، وكان ممن يؤذي رسول الله ﷺ يشتمه ويسمعه ما يكره.

وكان رسول الله ﷺ يمشي ذات يوم وهو خلفه يخلج بأنفه وفمه فبقي على ذلك، وأظهر الإسلام يوم الفتح، وكان مغموصا عليه في دينه، فاطلع يوما على رسول الله ﷺ وهو في بعض حجر نسائه، فخرج إليه بعنزة، وقال: من عذيري من هذا الوزغة؟ لو أدركته لفقأت عينه أو كما قال ﷺ، ولعنه وغربه من المدينة فلم يزل خارجا منها إلى أن مات عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ[5].

وقد ذكره ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ فقال: كان رجل خلف النبي ﷺ يحاكيه ويلمض فرآه النبي ﷺ فقال: كذلك كن، فرجع إلى أهله، فلبط به مغشيا عليه شهرا، ثم أفاق حين أفاق، وهو كما يحاكي رسول الله ﷺ[6].

ومنهم الوليد بن المغيرة، فقد ذكر أنه مر برجل يقال له حراث بن عامر ابن خزاعة، وهو يريش نبلا له، ويصلحها فوطئ على سهم منها فخدشته خدشا يسيرا، ويقال علق بإزاره فخدش ساقه خدشا خفيفا فأهوى إليه جبريل فانتفض الخدش وضربته الأكلة في رجله أو ساقه فمات[7].

---

(1) رواه البلاذري.

(2) رواه ابن الكلبي والبلاذري.

(3) رواه البلاذري، وذكر أبو نعيم بسند ضعيف عن ابن عباس أنه لما ربض به حماره أو البغلة لدغ، فمات مكانه.

(4) رواه البخاري ومسلم.

(5) رواه البلاذري.

(6) رواه أبو الشيخ وابن مردويه، وهذا المبهم الظاهر أنه الحكم.

(7) رواه البلاذري.

وقد كان من كبار الساخرين من رسول الله ﷺ المستهزئين به مع كونه حكيم قومهم ومرجعهم، وفيه نزل قوله تعالى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾﴾ [المدثر].

فقد ذكر ابن عباس سبب نزولها، فقال: دخل الوليد بن المغيرة على أبى بكر بن أبى قحافة فسأله عن القرآن، فلما أخبره خرج على قريش فقال: يا عجبا لما يقول ابن أبى كبشة. فوالله ما هو بشعر ولا بسحر ولا بهذى من الجنون، وإن قوله لمن كلام الله.

فلما سمع بذلك النفر من قريش ائتمروا، فقالوا: والله لئن صبا الوليد لتصبُوَنَّ قريش، فلما سمع بذلك أبو جهل بن هشام قال: أنا والله أكفيكم شأنه.

فانطلق حتى دخل عليه بيته فقال للوليد: ألم تر قومك قد جمعوا لك الصدقة؟ فقال: ألستُ أكثرهم مالا وولدا. فقال له أبو جهل: يتحدثون أنك إنما تدخل على ابن أبى قحافة لتصيب من طعامه، فقال الوليد: أقد تحدث به عشيرتى؟! فلا والله لا أقرب ابن أبى قحافة، ولا عمر، ولا ابن أبى كبشة، وما قوله إلا سحر يؤثر. فأنزل الله على رسوله ﷺ هذه الآيات.

وقال قتادة: زعموا أنه قال: والله لقد نظرت فيما قال الرجل فإذا هو ليس بشعر، وإن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه ليعلو وما يعلى، وما أشك أنه سحر، فأنزل الله: ﴿فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾﴾ الآية.

وقد روى أنه جاء إلى النبى ﷺ فقرأ عليه القرآن، فكأنه رق له، فبلغ ذلك أبا جهل بن هشام، فأتاه فقال: أى عم، إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالا. قال: لم؟ قال: يعطونكه، فإنك أتيت محمداً تتَعَرض لما قبله. قال: قد علمت قريش أنى أكثرها مالا. قال: فقل فيه قولا يعلم قومك أنك منكر لما قال، وأنك كاره له. قال: فماذا أقول فيه؟ فوالله ما منكم رجل أعلم بالأشعار منى، ولا أعلم برجزه ولا بقصيده ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه الذى يقوله شيئًا من ذلك. والله إن لقوله الذى يقول لحلاوة، وإنه ليحطم ما تحته، وإنه ليعلو وما يعلى.

فقال له أبو جهل: والله لا يرضى قومك حتى تقول فيه. قال: فدعنى حتى أفكر فيه. فلما فكر قال: إن هذا سحر يأثره عن غيره. فنزلت الآيات.

ومن كبار المستهزئين أبو لهب، وكان من أشد الناس عداوة للنبى ﷺ، وكان يطرح القذر والنتن على باب رسول الله ﷺ، فرآه حمزة بن عبد المطلب وقد طرح من ذلك شيئا، فأخذه وطرحه على رأسه، فجعل أبو لهب ينفض رأسه ويقول: صابئ أحمق، فأقصر عما كان يفعل، لكنه كان يدس من يفعله[1].

وعن عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت: قال رسول الله ﷺ: كنت بين شر جارين، بين أبى لهب وعقبة بن أبى معيط، إن كانا ليأتيان بالفروث فيطرحانها على بابى.

قالت: وكان رسول الله ﷺ يقول: يا بنى عبد مناف أى جوار هذا؟ ثم يميطه عن بابه[2].

وقد تحدث ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ عن مشهد من مشاهد حربه لرسول الله ﷺ فذكر

---

(1) رواه البلاذرى.

(2) رواه البلاذرى.

أن رسول الله ﷺ لما نزلت: ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين ﴿٢١٤﴾﴾ [الشعراء] صعد رسول الله ﷺ على الصفا فجعل ينادى: يا بنى فهر، يا بنى عدى، ليطون من قريش، حتى اجتمعوا فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولا ينظر ما هو، فجاء أبو لهب وقريش فقال رسول الله ﷺ: (أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادى تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقى؟) قالوا: نعم ما جربنا عليك إلا صدقا قال: فأنا لكم نذير بين يدى عذاب شديد.

فقال أبو لهب: تبا لك سائر اليوم ألهذا جمعتنا، فأنزل الله تعالى: ﴿تبت يدا أبى لهب وتب ﴿١﴾﴾ [المسد][1].

ولما خوفه النبى ﷺ بالعذاب قال: إن كان ما يقول ابن أخى حقا فإنى أفتدى منه بمالى وولدى فأنزل: ﴿ما أغنى عنه ماله وما كسب ﴿٢﴾﴾ [المسد].

وقد عاقبه الله تعالى بأن مات بداء يعرف بالعداسة، كانت العرب تتشاءم به، وتفر ممن ظهر به، فلما أصاب أبا لهب تركه أهله حتى مات، ومكث مدة لا يدفن حتى خافوا العار، فحفروا له حفرة، فرموه فيها.

ومن كبار المستهزئين عتبة بن أبى لهب، فقد روى أنه قال: يا محمد هو يكفر بالذى دنى فتدلى، فكان قاب قوسين أو أدنى، فقال رسول الله ﷺ: (اللهم سلط عليه كلبا من كلابك).

وكان أبو لهب يحتمل البز إلى الشام، ويبعث بولده مع علمانه ووكلائه، ويقول: إنكم قد عرفتم سنى وحقى، وإن محمدا قد دعا على ابنى دعوة، والله ما آمنها عليه، فتعاهدوه، فكانوا إذا نزلوا المنزل ألزقوه الى الحائط وغطوا عليه الثياب والمتاع حتى نزلوا فى مكان من الشام يقال له الزرقاء ليلا، فطاف بهم الأسد، فجعل عتبة يقول: يا ويل أمى هو والله آكلى كما دعا محمد على، قتلنى محمد وهو بمكة وأنا بالشام، لا والله ما أظلت السماء على ذى لهجة أصدق من محمد، ثم وضع العشاء، فلم يدخل يده فيه، ثم جاء النوم، فحاطوا أنفسهم بمتاعهم ووسطوه بينهم، وناموا فجاء الأسد يهمس يستنشق رؤوسهم رجلا رجلا، حتى انتهى إليه.

وقال هبار: فجاء الأسد فشم وجوهنا فلما لم يجد ما يريد تقابض ثم وثب، فإذا هو فوق المتاع، فشم وجهه ثم هزمه هزمة، ففضخ رأسه فقال وهو بآخر رمق: ألم أقل لكم إن محمدا أصدق الناس؟ ومات، فبلغ ذلك أبا لهب، فقال: ألم أقل لكم إنى أخاف عليه دعوة محمد؟ قد والله عرفت ما كان ليتفلت من دعوة محمد[2].

ومن كبار المستهزئين أم جميل زوجة أبى لهب، وأخت أبى سفيان، وقد كانت تؤذى رسول الله ﷺ كثيرا، وهى حمالة الحطب، وإنما سماها الله تعالى بذلك لأنها كانت تحمل الشوك فتطرحه بالليل على طريق رسول الله ﷺ حيث يمر هو وأصحابه لتعقرهم بذلك.

فبينا هى ذات يوم تحمل حزمة أعيت فقعدت على حجر تستريح أتاها ملك فجذبها من خلفها بالحبل الذى فى عنقها فخنقها به.

ومنهم رجل كان يختلج بوجهه إذا تكلم النبى ﷺ، فعن عبد الرحمن ابن أبى بكر قال: كان رجل يجلس إلى النبى ﷺ فإذا تكلم النبى ﷺ بشىء اختلج بوجهه، فقال له النبى ﷺ: (كن كذلك)، فلم يزل يختلج حتى مات[3].

---

(1) رواه البخارى ومسلم.

(2) رواه البيهقى وأبو نعيم عن أبى نوفل بن أبى عقرب عن أبيه، والبيهقى عن قتادة وأبو نعيم وابن عساكر عن عروة عن هبار بن الأسود، وأبو نعيم عن طاوس، وابن إسحاق وأبو نعيم عن محمد بن كعب القرظى، يزيد بعضهم على بعض.

(3) رواه أبو الشيخ وابن مردويه والبيهقى.

ومنهم ناس كانوا يغمزون فى قفاه ﷺ. فعن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال: مر النبى ﷺ على ناس بمكة، فجعلوا يغمزون فى قفاه، ويقولون: هذا الذى يزعم أنه نبى، ومعه جبريل، فغمز جبريل، فوقع مثل الظفر فى أجسادهم، فصارت قروحا حتى نتنوا، فلم يستطع أحد أن يدنو منهم فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴿٩٥﴾﴾ [الحجر][1].

ومنهم نفر من اليهود أرادوا الفتك به ﷺ فقد روى أن رسول الله ﷺ خرج إلى بنى النضير يستعينهم فى عقل الكلابيين، فقالوا: اجلس يا أبا القاسم، حتى تطعم وترجع بحاجتك، فجلس ومن معه فى ظل جدار ينتظرون أن يصلحوا أمرهم فلما خلوا والشيطان معهم ائتمروا بقتل رسول الله ﷺ فقالوا: لن تجدوه من الآن، فقال رجل منهم: إن شئتم ظهرت فوق البيت الذى هو تحته فدليت عليه حجرا فقتلته، فجاءوا إلى رحى عظيمة ليطرحوها عليه، فأمسك الله عنها أيديهم، وأخبره بما ائتمروا به من شأنه، فقام ورجع أصحابه، ونزل القرآن: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾ [المائدة][2].

ومنهم نفر أرادوا قتله ﷺ، فعن محمد بن كعب القرظى ـ رضى الله عنه ـ قال: كان رسول الله ﷺ إذا نزل منزلا اختار له أصحابه شجرة ظليلة فيقيل تحتها، فأتاه أعرابى فاخترط سيفه، ثم قال: من يمنعك منى؟ قال: الله، فرعدت يد الأعرابى، وسقط السيف منه، وضرب برأسه الشجرة حتى انتثر دماغه، فأنزل الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [المائدة][3].

ومن كبار المستهزئين أبو الأصداء، وقد كان ممن يؤذى رسول الله ﷺ، وكان يقول له: إنما يعلمك أهل الكتاب أساطيرهم، ويقول للناس: هو معلم مجنون، فدعا عليه رسول الله ﷺ، فإنه لعلى جبل إذ اجتمعت عليه الأروى، فنطحته حتى قتلته[4].

ومنهم أمية بن خلف الجمحى، وقد كان إذا رأى رسول الله ﷺ همزه ولمزه، فأنزل الله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴿١﴾ الَّذِي جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ ﴿٢﴾ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ﴿٣﴾ كَلاَّ لَيُنبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ ﴿٤﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ ﴿٥﴾ نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ ﴿٦﴾ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الأَفْئِدَةِ ﴿٧﴾ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴿٨﴾ فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ﴿٩﴾﴾ [الهمزة][5].

ومنهم النضر بن الحارث، وقد كان إذا جلس رسول الله ﷺ مجلسا فدعا فيه إلى الله، وتلا عليهم القرآن، وحذر قريشا ما أصاب الأمم الماضية خلفه فى مجلسه إذا قام فحدثهم عن ملوك الفرس، ثم يقول: والله ما محمد بأحسن حديثا منى، وما أحاديثه إلا أساطير الأولين اكتتبها كما اكتتبها، فأنزل الله تعالى: ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴿٥﴾﴾ [الفرقان].

قال ابن إسحاق: وجلس رسول الله ﷺ يوما مع الوليد بن المغيرة فى المسجد، فجاء النضر بن الحارث حتى جلس معهم، وفى المجلس غير واحد من رجال قريش، فتكلم رسول الله ﷺ فعرض له النضر، فكلمه رسول الله ﷺ حتى أفحمه ثم تلا عليه وعليهم: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَؤُلاءِ آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [الأنبياء].

---

(1) رواه البزار والطبرانى.

(2) رواه ابن جرير عن عكرمة ويزيد بن أبى زياد وعبد الحميد عن مجاهد وابن إسحاق عن عاصم بن عمر، وابن قتادة، وعبد الله بن أبى بكر، وأبو نعيم والبيهقى عن الزهرى وعروة بن الزبير.

(3) رواه ابن جرير.

(4) رواه البلاذرى.

(5) رواه ابن إسحاق.

ثم قام رسـول الله ﷺ وأقبل عبد الله بـن الزبعرى ـ وأسلم بعد ذلك ـ حـتى جلس إليهم.
فقال الوليد بن المغيرة لعبد الله بن الزبعرى: والله مـا قام النضر بن الحارث لابن عبد المطلب آنفا وما قعد، وقد زعم محمد أنا وما نعبد من آلهتنا هذه حصب جهنم.

فقال عبد الله: أما والله لو وجدته لخصمته، فسلوا محمدا أكل ما يعبد من دون الله في جهنم مع من عبده؟ فنحن نعبد الملائكة واليهود تعبد عزيرا والنصارى تعبد عيسى ابن مريم.

فعجب الوليد ومن كان معه في المجلس من قول عبد الله، ورأوا أنه قد احتج وخاصم.

فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال رسـول الله ﷺ: كل من أحب أن يعبد من دون الله فهو مع من عبده، إنهم إنما يعبدون الشيـاطين ومن أمرتهم بعبادته، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [الأنبياء].

ومنهم الأخنس بن شريق الثقفي، وكان من أشراف القوم، وممن يستمع منه، وكان يصيب من رسول الله ﷺ ويرد عليه، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾﴾ [القلم].

ومنهم أبي بن خلف وعقبة بن أبي معيط، وكانا متصافيين حسنا ما بينهما.

وقد روى أن عـقبة بن أبي معـيط كان يجلس مع رسول الله ﷺ بمكة ولا يؤذيه وكـان رجلا حليما، وكان بقـية قريش إذا جلسوا معه آذوه، وكان لأبي معـيط خليل غائب عنه بالشام ـ في رواية أنه أمية بن خلف ـ فقالت قريش: صبأ أبو معيط.

وقدم خليله من الشام ليلا، فقال لامرأته: ما فعل مـحمد مما كان عليه؟ فقالت: أشد ما كان أمرا، فقال: ما فعل خليلي أبو معيط؟ فقالت: صبأ.

فبات بليلة سوء، فلما أصبح أتاه أبو معيط، فحـياه فلم يرد عليه التحية فقال: ما لك لا ترد على تحيتي، فقال: كيف أرد عليك تحيتك وقد صبأت؟

قال: أوقد فعلتها قريش؟

ثم قال: ما يبرئ صدورهم إن أنا فـعلت؟ قال: تأتيه في مجلسه، فتبزق في وجـهه وتشتمه بأخبث ما تعلم من الشتم، ففعل، فلم يزد النبي ﷺ أن مسح وجهه من البزاق[1].

وقد روى أن عقبة لما تفل في وجه النبي ﷺ رجع ما خرج منه إلى وجهه، فصار برصا.

وقال أبي بن خلف: والله لأقـتلن محمدا، فـبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقـال: بل أنا أقتله إن شاء الله.

فلما بلغ أبيـا ذلك أفزعه لأنهم لم يسمعـوا من النبي ﷺ قولا إلا كان حقـا، فلما كان يوم بدر، وخرج أصحـاب عقبة، أبى أن يخـرج فقال له أصحـابه: اخرج معنا، فقـال: قد وعدني هذا الرجل إن وجدني خارجا من جبال مكة أن يضرب عنقي صبرا، فقالوا: لك جمل أحمر لا يدرك فلو كانت الهزيمة طرت عليه.

فخرج معـهم، فلما هزم الله المشركين، وحل به جمله في أخـدود من الأرض فأخذه رسول الله ﷺ أسيرا في سبعـين من قريش وقدم إليه أبو معيط فقال: أتقـتلني بين هؤلاء؟ قال: نعم، فقام إليه علي بن أبي طالب فضرب عنقه، ولم يقتل من الأسارى يومئذ غيره.

---

(١) رواه ابن مردويه وأبو نعيم في الدلائل بسند صحيح.

فلما كان يوم أحد خرج أبى مع المشركين فجعل يلتمس غفلة رسول الله ﷺ ليحمل عليه، فيحول رجل بين النبى ﷺ وبينه، فلما رأى ذلك رسول الله ﷺ قال لأصحابه: خلوا عنه.

فأخذ الحربة ورماه بها، فوقعت فى ترقوته، فلم يخرج منه دم كثير واحتقن الدم فى جوفه، فجعل يخور كما يخور الثور فاحتمله أصحابه وهو يخور فقالوا: ما هذا الذى بك! فوالله ما بك إلا خدش، فقال: والله لو لم يصبنى إلا بريقه لقتلنى! أليس قد قال: أنا أقتله، والله لو كان الذى بى بأهل ذى المجاز لقتلهم، فما لبث إلا يوما حتى مات.

وأنزل الله تعالى فى أبى معيط: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾﴾ [الفرقان][1].

ومنهم أبو جهل عمرو بن هشام، وقد كناه رسول الله ﷺ بذلك وكان يكنى قبل ذلك أبا الحكم[2].

قال ابن إسحاق: ولقى أبو جهل بن هشام رسول الله ﷺ، فقال له: والله يا محمد لتتركن سب آلهتنا أو لنسبن إلهك الذى تعبد، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ... ﴿١٠٨﴾﴾ [الأنعام].

وقد روى أن رسول الله ﷺ لقى أبا جهل، فقال: (إن الله تعالى أمرنى أن أقول لك: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٥﴾﴾ [القيامة]، فنزع ثوبه من يده وقال: ما تستطيع لى أنت ولا صاحبك من شىء، ولقد علمت أنى أمنع أهل البطحاء، وأنا العزيز الكريم، فقتله الله تعالى يوم بدر وأذله وعيره بكلمته، وأنزل: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ الْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾﴾ [الدخان][3].

هذا فى حياته..

أما بعد وفاته، فقد روى من ذلك الكثير، حتى إن المسلمين صاروا يتفاءلون بتصدى الأعداء لمقام رسول الله ﷺ لأنهم يعلمون أن الله سينصره لا محالة، وقد ذكر ابن تيمية هذا، فقال: (إنَّ الله منتقمٌ لرسوله ممن طعن عليه وسبَّه، ومُظْهِرٌ لدينه ولكَذِب الكاذب إذا لم يمكن الناس أن يقيموا عليه الحد، ونظير هذا ما حَدَّثَنَاه أعدادٌ من المسلمين العُدُول، أهل الفقه والخبرة، عمَّا جربوه مرات متعددة فى حَصْرِ الحصون والمدائن التى بالسواحل الشامية، لما حصر المسلمون فيها بنى الأصفر فى زماننا، قالوا: كنَّا نحن نَحْصُرُ الحِصْنَ أو المدينة الشهر أو أكثر من الشهر وهو ممتنعٌ علينا حتى نكاد نيأس منه، حتى إذا تعرض أهلُهُ لِسَبِّ رسول الله والوقيعة فى عرضه تَعَجَّلْنا فتحه وتيَسَّر، ولم يكد يتأخر إلا يومًا أو يومين أو نحو ذلك، ثم يفتح المكان عنوة، ويكون فيهم ملحمة عظيمة، قالوا: حتى إن كنا لَنَتَبَاشَرُ بتعجيل الفتح إذا سمعناهم يقعون فيه، مع امتلاء القلوب غيظًا عليهم بما قالوا فيه).

وقد اشتهر هذا الأمر حتى صار من المجربات التى لا تملك العقول إلا التسليم لها، قال ابن تيمية: (وهكذا حدثنى بعض أصحابنا الثقات أن المسلمين من أهل الغرب - يعنى المغرب - حالهم مع النصارى كذلك، ومن سنة الله أن يعذب أعداءه تارة بعذاب من عنده وتارة بأيدى عباده المؤمنين)[4].

***

---

(1) رواه ابن أبى حاتم.

(2) رواه البلاذرى وغيره.

(3) ذكره السيوطى فى الدر المنثور (7/ 418) وهو مرسل..

(4) الصارم المسلول ص 116-117.

## 6 - جند الهداية

ومن الجنود التى أيد الله بها نبيه ﷺ وحماه بها من مؤامرات أعدائه الكثيرة جند الهداية، وذلك بأن يبث الله فى قلوب من يبغضون رسول الله ﷺ، أو من يريدون به شرا الإيمان ومحبة رسول الله ﷺ، فيتحولون من سبه إلى حبه، ومن حربه إلى الحرب عنه.

ولعل من أشهر الأمثلة على ذلك عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ، فقد كان فى جاهليته شديد العداوة للإسلام ولمحمد ﷺ.

وقد ذكرت إحدى السابقات للإسلام، وهى أم عبد الله بنت أبى حثمة، وكانت زوج عامر بن ربيعة، كيف كان المسلمون الأوائل يستبعدون إسلامه قبل أن يسلم، فقالت: إنا نرحل إلى أرض الحبشة، وقد ذهب عامر لبعض حاجته، إذ أقبل عمر وهو على شركه حتى وقف على.

وكنا نلقى منه البلاء أذى وشدة، فقال: أتنطلقون يا أم عبد الله؟ قالت: قلت: نعم والله، لنخرجن فى أرض الله فقد آذيتمونا، وقهرتمونا، حتى يجعل الله لنا فرجا.

قالت: فقال صحبكم الله، قالت: فلما عاد عامر أخبرته، وقلت له: لو رأيت عمر، ورقته. وحزنه علينا! قال: أطمعت فى إسلامه؟ قلت: نعم، فقال: لا يسلم حتى يسلم حمار الخطاب، لما كان يرى من غلظته، وشدته على المسلمين.

ولكن الله هداه فأسلم فى موقف عدائى شديد لرسول الله ﷺ:

وقصة ذلك كما يرويها المؤرخون، وكما يحكيها هو نفسه، هى أن أخته فاطمة بنت الخطاب كانت تحت سعيد بن يزيد بن عمرو العدوى، وكانا مسلمين يخفيان إسلامهما من عمر، وكان خباب بن الأرت يختلف إلى فاطمة يقرئها القرآن فخرج عمر يوما ومعه سيفه يريد النبى ﷺ والمسلمين، وهم مجتمعون فى دار الأرقم عند الصفا، وعنده من لم يهاجر من المسلمين فى نحو أربعين رجلا، فلقيه نعيم بن عبد الله فقال: أين تريد يا عمر؟ فقال: أريد محمدا الذى فرق أمر قريش، وعاب دينها، فأقتله.

فقال نعيم: والله لقد غرتك نفسك، أترى بنى عبد مناف تاركيك تمشى على الأرض، وقد قتلت محمدا!؟ أفلا ترجع إلى أهلك فتقيم أمرهم؟

فقال عمر: وأى أهلى!؟ قال: ختنك، وابن عمك سعيد بن زيد، وأختك فاطمة، فقد أسلما.

فرجع عمر إليهما، وعندهما خباب بن الأرت يقرئهما القرآن.

فلما سمعوا حس عمر تغيب خباب، وأخذت فاطمة الصحيفة، وألقتها تحت فخذيها، وقد سمع عمر قراءة خباب.

فلما دخل قال: ما هذه الهينمة؟! قالا: سمعت شيئا؟ قال: بلى، قد أخبرت أنكما تابعتما محمدا.

وبطش بختنه سعيد بن زيد، فقامت إليه أخته لتكفه، فضربها فشجها، فلما فعل ذلك قالت له أخته: قد أسلمنا، وآمنا بالله، ورسوله، فاصنع ما شئت.

ولما رأى عمر ما بأخته من الدم ندم، وقال لها: أعطينى هذه الصحيفة التى سمعتكم تقرأون فيها الآن حتى أنظر إلى ما جاء به محمد، قالت: إنا نخشاك عليها، فحلف أنه يعيدها.

ثم قالت له ـ وقد طمعت فى إسلامه ـ: إنك نجس على شركك، ولا يمسها إلا المطهرون، فقام، واغتسل، فأعطته الصحيفة وقرأ فيها: طه، وكان كاتبا فلما قرأ بعضها قال: ما أحسن هذا الكلام وأكرمه.

فلما سمع خباب ذلك خرج إليه وقال: أبشر يا عمر، فإنني أرجو أن تكون دعوة رسول الله ﷺ لك ليلة الخميس: اللهم أعز الإسلام بعمر بن الخطاب، أو بعمرو بن هشام.

فقال عمر عند ذلك: فدلني يا خباب على محمد حتى آتيه فأسلم.

فدله خباب فأخذ سيفه، وجاء إلى النبي ﷺ، وأصحابه فضرب عليهم الباب فقام رجل منهم فنظر من خلل الباب فرآه متوشحا سيفه، فأخبر النبي ﷺ بذلك.

فقال حمزة: إئذن له، فإن كان يريد خيرا بذلناه له، وإن أراد شراً قتلناه بسيفه.

فأذن له فنهض إليه النبي ﷺ حتى لقيه، فأخذ بمجامع ردائه، ثم جذبه جذبة شديدة، وقال: ما جاء بك؟ ما أراك تنتهي حتى ينزل الله عليك قارعة.

فقال عمر: يارسول الله جئت لأؤمن بالله، وبرسوله، فكبر رسول الله ﷺ تكبيرة عرف من في البيت أن عمرا أسلم.

قال عمر: لما أسلمت أتيت باب أبي جهل بن هشام، فضربت عليه بابه، فخرج إلي وقال: مرحبا يا ابن أخي! ما جاء بك؟ قلت: جئت لأخبرك أني قد أسلمت، وآمنت بمحمد ﷺ، وصدقت ما جاء به.

قال: فضرب الباب في وجهي، وقال: قبحك الله، وقبح ما جئت به[1].

وقد حدث عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ نفسه عن سبب إسلامه، فقد خاطب مرة بعض الصحابة، فقال: أتحبون أن أعلمكم كيف كان بدء إسلامي؟ قلنا: نعم، قال: كنت من أشد الناس على رسول الله ﷺ، فبينا أنا يوما في يوم شديد الحر بالهاجرة، في بعض طرق مكة، إذ لقيني رجل من قريش فقال: اين تذهب يا ابن الخطاب؟ أنت تزعم أنك هكذا، وقد دخل عليك هذا الأمر في بيتك قال: قلت: وما ذاك؟ قال: أختك قد صبأت. قال: فرجعت مغضبا.

وقد كان رسول الله ﷺ يجمع الرجل، والرجلين إذا أسلما عند الرجل به قوة فيكونان معه، ويصيبان من طعامه، وقد كان ضم إلى زوج أختي رجلين.

قال: فجئت حتى قرعت الباب فقيل من هذا؟ قلت: ابن الخطاب.

قال: وكان القوم جلوسا يقرؤون القرآن في صحيفة معهم، فلما سمعوا صوتي تبادروا، واختفوا، وتركوا، أو نسوا الصحيفة من أيديهم، فقامت المرأة ففتحت لي.

فقلت: يا عدوة نفسها، قد بلغني أنك صبوت، قال: فأرفع شيئا في يدي فأضربها به قال: فسال الدم: قال: فلما رأت المرأة الدم بكت، ثم قالت: يا ابن الخطاب ما كنت فاعلا فافعل فقد أسلمت.

قال: فدخلت، وأنا مغضب، فجلست على السرير، فنظرت فإذا بكتاب في ناحية البيت، فقلت: ما هذا الكتاب؟ أعطينيه.

فقالت: لا أعطيك لست من أهله، أنت لا تغتسل من الجنابة، ولا تطهر، وهذا ﴿لا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [الواقعة].

قال: فلم أزل بها حتى أعطتنيه فإذا فيه: بسم الله الرحمن الرحيم، فلما مررت بالرحمن الرحيم، ذعرت، ورميت بالصحيفة من يدي.

قال: ثم رجعت إلى نفسي، فإذا فيها: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾﴾ [الحديد].

---

(1) انظر: الكامل في التاريخ: 2 / 84 - 85 - 86 - 87، نور الأبصار: ص 54، الرياض النضرة: 1 / 272 - 276 ترجمة عمر.

قال: فكلما مررت باسم من أسماء الله عز وجل ذعرت، ثم ترجع إلىّ نفسي حتى بلغت: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾﴾ [الحديد]، فقلت: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدا رسول الله[1].

ولما أسلم عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ قال: أى أهل مكة أنقل للحديث فقالوا: جميل بن معمر، فخرج عمر، حتى أتاه فقال: يا جميل هل علمت أنى أسلمت؟ فو الله ما راجعه الكلام حتى قام يجر رداءه، وخرج عمر يتبعه، حتى إذا قام على باب مسجد الكعبه صرخ بأعلى صوته: يا معشر قريش إن عمر قد صبأ.

ومنهم أبو سفيان بن الحارث أخو النبى ﷺ من الرضاع، فقد كان يألف النبى ﷺ أيام الصبا وكان له تربًا، فلما بُعث النبى ﷺ عاداه أبو سفيان عداوةً لم يعادها أحدًا قط، وهجا رسول الله ﷺ وهجا أصحابه، ثم شاء الله أن يكفى رسوله ﷺ لسان أبى سفيان وهجاءه، لا بإهلاكه، وإنما بهدايته.

وحدث أبو سفيان عن نفسه، فقال: ثم إن الله ألقى فى قلبى الإسلام، فسرت وزوجى وولدى حتى نزلنا بالأبواء، فتنكرت وخرجت حتى صرت تلقاء وجه النبى ﷺ، فلما ملأ عينيه منى أعرض عنّى بوجهه إلى الناحية الأخرى، فتحولت إلى ناحية وجهه الأخرى.

قالوا: فما زال أبو سفيان يتبعُهُ، لا ينزلُ منزلاً إلا وهو على بابه ومع ابنى جعفر وهو لا يكلمه، حتى قال أبو سفيان: والله ليأذنن لى رسول الله ﷺ أو لآخذن بيد ابنى هذا حتى نموت عطشًا أو جوعًا، فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ رق لهما فدخلا عليه.

ومنهم شيبة بن عثمان، فقد خرج من بيته يريد قتل رسول الله ﷺ، فلم يرجع إلا بحبه والإيمان به.

وقد حدث عن قصة ذلك، فقال: لما كان عام الفتح دخل رسول الله ﷺ مكة، وغزا حنينا، قلت أسير مع قريش إلى هوازن، فعسى إن اختلطوا أن أصيب من محمد غرة، وتذكرت أبى وقتله حمزة، وعمى وقتله على بن أبى طالب، فقلت: اليوم أدرك ثأرى من محمد، وأكون أنا الذى قمت بثأر قريش كلها، وأقول: لو لم يبق من العرب والعجم أحد إلا اتبع محمدا ما تبعته أبدا، فكنت مرصدا لما خرجت له، لا يزداد الأمر فى نفسى إلا قوة.

فلما اختلط الناس، اقتحم رسول الله ﷺ عن بغلته، وأصلت السيف، ودنوت منه، أريد ما أريد، فجئته من عن يمينه، فإذا العباس قائم عليه درع بيضاء، قلت: عمه لن يخذله، فجئته من عن يساره، فإذا بأبى سفيان بن الحارث. فقلت: ابن عمه لن يخذله، فجئته من خلفه، فلم يبق إلا أن أسوره سورة بالسيف إذ رفع إلى فيما بينى وبينه شواظ من نار كأنه برق، فخفت أن يتمحشنى، فوضعت يدى على بصرى، خوفا عليه، ومشيت القهقرى، وعلمت أنه ممنوع.

فالتفت إلى، وقال: (يا شيب ادن منى)، فدنوت منه، فوضع يده على صدرى وقال: (اللهم أذهب عنه الشيطان)، فرفعت إليه رأسى وهو أحب إلى من سمعى وبصرى وقلبى، ثم قال: (يا شيبة قاتل الكفار).

فتقدمت بين يديه أحب ـ والله ـ أن أقيه بنفسى كل شىء، فلما انهزمت هوازن رجع إلى منزله ودخلت عليه فقال: (الحمد لله الذى أراد بك خيرا مما أردت)، ثم حدثنى بما هممت به ﷺ[2].

---

(1) أسد الغابة 4 / 54 - 55، الرياض النضرة: 2 / 277.

(2) رواه ابن سعد وابن عساكر عن عبد الملك بن عبيد، وأبو القاسم البغوى، والطبرانى، والبيهقى، وأبو نعيم، وابن عساكر عن عكرمة.

ومنهم النضير بن الحارث[1] الذى حدث عن نفسه، فقال: الحمد لله الذى أكرمنا بالإسلام ومنّ علينا بمحمد ﷺ، ولم نمت على ما مات عليه الآباء، فذكر حديثا طويلا، ثم قال: خرجت مع قوم من قريش، هم على دينهم بعد أبو سفيان بن حرب، وصفوان بن أمية، وسهيل بن عمرو، ونحن نريد إن كانت دبرة على محمد أن نغير عليه فيمن يغير، فلما تراءت الفئتان ونحن فى حيز المشركين حملت هوازن حملة واحدة، ظننا أن المسلمين لا يجبرونها أبدا، ونحن معهم وأنا أريد بمحمد ما أريد.

وعمدت له فإذا هو فى وجوه المشركين واقف على بغلة شهباء حولها رجال بيض الوجوه، فأقبلت عامدا إليه، فصاحوا بى: إليك، فأرعب فؤادى وأرعدت جوارحى، فقلت: هذا مثل يوم بدر، إن الرجل لعلى حق، وإنه لمعصوم، وأدخل الله تعالى فى قلبى الإسلام وغيره عما كنت أهم به.

فما كان حلب ناقة حتى كر أصحاب رسول الله ﷺ كرة صادقة، وتنادت الأنصار بينها: الكرة بعد الفرة: يا للخزرج، يا للخزرج، فحطمونا حطاما، فرقوا شملنا، وتشتت أمرنا، وهمة كل رجل نفسه.

فتنحيت فى غبرات الناس حتى هبطت بعض أودية أوطاس فكمنت فى خمر شجرة لا يهتدى إلى أحد إلا أن يدله الله تعالى على، فمكثت فيه أياما وما يفارقنى الرعب مما رأيت، ومضى رسول الله ﷺ إلى الطائف، فأقام ما أقام، ثم رجع إلى الجعرانة، فقلت: لو صرت إلى الجعرانة، فقاربت رسول الله ﷺ ودخلت فيه المسلمون، فما بقى فقد رأيت عبرا، وقد ضرب الإسلام بجرانه، ولم يبق أحد، ودانت العرب والعجم لمحمد ﷺ فعز محمد لنا عز، وشرفه لنا شرف.

فوالله إنى لعلى ما أنا عليه إن شعرت إلا برسول الله ﷺ يلقانى بالجعرانة كنة لكنة فقال: (النضير؟) قلت: لبيك، فقال: (هذا خير لك مما أردت يوم حنين مما حال الله بينك وبينه).

فأقبلت إليه سريعا، فقال: (قد آن لك أن تبصر ما أنت فيه توضع)، قلت: قد أرى أن لو كان مع الله تعالى إلها غيره لقد اغنى شيئا، وإنى أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأنك رسول الله.

فقال رسول الله ﷺ: (اللهم زده ثباتا)، قال النضير: فو الله الذى بعثه بالحق لكأن قلبى حجر ثباتا فى الدين وبصيرة فى الحق، وذكر الحديث[2].

ومنهم صفوان بن أمية الجمحى، الذى حدث عن نفسه، فقال: ما زال رسول الله ﷺ يعطينى من غنائم حنين، وهو أبغض الخلق إلى حتى ما خلق الله تعالى شيئا هو أحب إلى منه[3].

وقال محمد بن عمر: يقال إن صفوان طاف مع رسول الله ﷺ يتصفح الغنائم إذ مر بشعب مملوء إبلا مما أفاء الله به على رسوله ﷺ فيه غنم وإبل ورعاؤها مملوء، فأعجب صفوان وجعل ينظر إليه، فقال رسول الله ﷺ: (أعجبك هذا الشعب يا أبا وهب؟) قال: نعم، قال: (هو لك بما فيه)، فقال صفوان: أشهد أنك رسول الله، ما طابت بهذا نفس أحد قط إلا نبى.

وقد كان سلوك رسول الله ﷺ مع هؤلاء هو السر فى كل ذلك التحول الذى انتقلوا به من حربه وسبه إلى الإيمان به ومحبته.

---

(1) وهو غير النضر بن الحارث الذى مات على كفره.

(2) رواه الواقدى فى المغازى.

(3) رواه البخارى.

وسأضرب لكم مثالا على هذا بصفوان بن أمية ـ الذى حدثتكم حديثه ـ فقد خرج بعد فتح مكة يريد جدة ليركب منها إلى اليمن، فقال عمير بن وهب: يا نبى الله إن صفوان بن أمية سيد قومى، وقد خرج هاربا منك، ليقذف نفسه فى البحر، فأمنه ﷺ قال: (هو آمن).

فخرج عمير حتى أدركه، وهو يريد أن يركب البحر، وقال صفوان لغلامه يسار ـ وليس معه غيره ـ: ويح! انظر من ترى؟ قال: هذا عمير بن وهب، قال صفوان: ما أصنع بعمير بن وهب، والله ما جاء إلا يريد قتلى، قد ظاهر على محمدا، فلحقه فقال: يا أبا وهب جعلت فداك، جئت من عند أبر الناس، وأوصل الناس، فداك أبى وأمى، الله الله فى نفسك أن تهلكها، هذا أمان من رسول الله ﷺ قد جئتك به.

فقال: ويحك، اغرب عنى فلا تكلمنى، فقال عمير: أى صفوان فداك أبى وأمى.. أفضل الناس وأبر الناس وخير الناس ابن عمك، عزه عزك، وشرفه شرفك وملكه ملكك.

فقال صفوان: إنى أخافه على نفسى، فقال عمير: هو أحلم من ذلك وأكرم، قال: ولا أرجع معك حتى تأتينى بعلامة أعرفها، فقال: امكث مكانك حتى آتيك بها.

فرجع عمير إلى رسول الله ﷺ فقال: إن صفوان أبى أن يأنس لى حتى يرى منك أمارة يعرفها، فنزع رسول الله ﷺ عمامته فأعطاه إياها، وهى البرد الذى دخل فيه رسول الله ﷺ معتجرا به برد حبرة.

فرجع معه صفوان حتى انتهى إلى رسول الله ﷺ وهو يصلى بالمسلمين العصر فى المسجد، فلما سلم رسول الله ﷺ صاح صفوان: يا محمد، إن عمير بن وهب جاءنى ببردك، وزعم أنك دعوتنى إلى القدوم عليك، فإن رضيت أمرا وإلا سيرتنى شهرين، فقال ﷺ: (انزل أبا وهب)، قال: لا والله حتى تبين لى قال: (بل لك تسير أربعة أشهر).

فنزل صفوان، ولما خرج رسول الله ﷺ إلى هوازن وفرق غنائمها فرأى رسول الله ﷺ صفوان ينظر إلى شعب ملآن نعما وشاء ورعاء، فأدام النظر إليه، ورسول الله ﷺ يرمقه فقال: (يا أبا وهب يعجبك هذا الشعب؟) قال: نعم. قال: (هو لك وما فيه).

فقبض صفوان ما فى الشعب، وقال عند ذلك: ما طابت نفس أحد بمثل هذا إلا نفس نبى، أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا عبده ورسوله، وأسلم مكانه[1].

***

(1) رواه ابن إسحاق عن عروة بن الزبير، والبيهقى عن الزهرى.

## 7 - جند العقوبة

ومن الجند الذى حمى الله به نبيه ﷺ كما حمى به سائر الأنبياء ما رتب على الاستهزاء بالنبى أو السخرية منه أو استنقاصه من ألوان العقوبة.

وليس ذلك خاصا بالنبى ﷺ، بل يعم سائر الأنبياء...

والعقوبات نوعان: عقوبات دنيوية، وعقوبات أخروية.

**العقوبات الدنيوية:**

أما العقوبات الدنيوية، فهى ما رتبت الشريعة على السخرية من رسول الله ﷺ من ألوان العقوبات، فقد وقف الفقهاء ومثلهم القضاة جنودا يحمون عرض محمد ﷺ وعرض الأنبياء جميعا من أن ينتهك أو ينتقص.

فقد نص الفقهاء على أن جميع من سب النبى ﷺ، أو عابه، أو ألحق به نقصا فى نفسه أو نسبه أو دينه، أو خصلة من خصاله، أو عرض به، أو شبهه بشىء على طريق السب له، أو الإزراء عليه، أو التصغير لشأنه، أو الغض منه، والعيب له، فهو ساب له.

ومثله من لعنه أو دعا عليه، أو تمنى مضرة له، أو نسب إليه ما لا يليق بمنصبه على طريق الذم، أو عبث فى جهته العزيزة بسخف من الكلام وهجر، ومنكر من القول وزور، أو عيره بشىء مما جرى من البلاء والمحنة عليه، أو غمصه ببعض العوارض البشرية الجائزة والمعهودة لديه.

فهؤلاء جميعا نص الفقهاء على خطورة هذه المواقف منهم، وأنهم يستتابون، فإن تابوا، فيها، وإلا قتلوا لخطرهم الشديد على المجتمع بما يثونه من عدم احترام لمنصب النبوة الرفيع.

قال بعض القوم: أليس فى ذلك تشدد وقمع؟

قال عبد القادر: لا... هذا نوع من الردع للنفوس الظالمة التى تريد تخريب المجتمع.

قال الرجل: كيف ذلك؟

قال عبد القادر: لأن النبى - أى نبى - هو رمز المعانى السامية التى جاء من أجلها، وأهمها معرفة الله وعبادته، فاستهزاؤنا به استهزاء بمن أرسله.

ثم ألا ترون فى الواقع أنا نحكم بمثل هذا أو قريب منه فى سب ناس لا ذمة لهم ولا خلق. بل فى سب أشياء ورموز نعتقد أنها تمثل أمة أو وطنا أو تاريخا؟

قالوا: ذلك صحيح.

قال عبد القادر: فمنصب النبوة الرفيع يتطلب شدة وحزما... لأن المعانى التى جاء بها الأنبياء أعظم من كل المعانى التى صاغها البشر لأنفسهم.

**العقوبات الأخروية:**

هذا عن عقوبات الدنيا، أما عقوبات الآخرة، فقد نصت عليها آيات من القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾﴾ [التوبة].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾﴾ [الأحزاب].

فقد رتب الله على إذاية رسول الله ﷺ - حسب هاتين الآيتين - نوعين من العذاب ينسجمان تماما مع النفس التى سولت هذه الإذاية:

أما أولهما، فهو العذاب الأليم الشديد، وهو يتناسب مع عظم الجرم.

وأما الثانى، فهو العذاب المهين، وهو يتناسب مع مصدر الجرم، فليس لهذه الإذاية إلا مصدر واحد هو كبر صاحبها وتعاليه وتعاظمه، فلذلك يكون جزاؤه العذاب الذى يرده إلى حقيقته الخسيسة.

* * *

ما إن وصل عبد القادر من حديثه إلى هذا الموضع حتى ابتدره أحد الحاضرين قائلا: لقد عرفنا كيف حمى الله نبيه ﷺ بصنوف الجنود الذين صدوا عنه كل من تعرض له، أو كل من أراد أن يتعرض له، ومع تسليمنا لكل ما ذكرته، واعتقادنا بأن اجتماع كل ذلك من الأمور التى تدل على قصد الحماية.

ولكنا ـ مع ذلك ـ لا نرى كل ما ذكرته كافيا لنشر الدين وحمايته، فالدين لم يكن محمداً وحده، بل كان أمة من الناس.. فكيف امتدت الحماية إليهم جميعا؟

قال عبد القادر: أنت تسأل عن انتصارات محمد ﷺ بالثلة القليلة التى معه.

قال الرجل: يمكنك أن تقول ذلك.

قال عبد القادر: لذلك حديث آخر.. فتلك معجزة أخرى، وسأحدثكم عنها غدا ـ إن شاء الله ـ لمن شاء منكم أن يحضر.

قال الرجل: وكيف لا نشاء.. إن حديثك عن محمد ينفخ فينا من روح الثبات والعزيمة ما كنا نفتقده.

قال عبد القادر: فموعدنا غدا إن شاء الله فى هذا المحل.

قال ذلك، ثم انصرف، فلاحظت بولس ينصرف متخفيا متغير الوجه، وكأنه يهم بشىء، أو يخطط لشىء.

أما أنا، فانصرفت، ومعى بصيص جديد من النور اهتديت به بعد ذلك إلى شمس محمد ﷺ.

* * *

# ثامنا - انتصارات

فى اليوم الثامن..

بقيت أنتظر بولس كعادتى، لنذهب للتداريب التى بدأتها معه، وقد كنت أتصور مجيئه بنشاطه المعتاد، وبهمته العالية التى لا يؤثر فيها شيء، ولكنه لم يأت.

بعد مدة جاءنى السائق، وقال لى: إن حضرة القس يعتذر إليك عن مجيئه اليوم، فلديه بعض الشؤون الخاصة، ولذا، فقد طلب منى أن أصطحبك حيث تشاء.

لم أشأ أن أرهق السائق معي، فلذلك أذنت له فى الانصراف، وأخبرته بأنى سأكتفى بالسير فى شوارع المدينة.

لم يصعب على حينها معرفة المحل الذى سأجد فيه بولس، إنه نفس المحل الذى تخفى فيه اليوم السابق..

ولكنى لم أكن أعلم أن بولس يحمل هو الآخر أنوارا من أشعة محمد توشك أن تضمه إلى دين محمد..

لقد كنت أتصوره يتسلل إلى القوم ليتجسس عليهم، ولعله يقتنص منهم ما يستخدمه سلاحا ضدهم، وهذا ما أكدته لى صحبتى له لليومين التاليين لذلك اليوم.. ولكنى عرفت بعد ذلك أن الرجل كان يلقى ما بقى لديه من قنابل، ليرفع بعدها الراية البيضاء.

فى محل المستضعفين اخترت مجلسا أتمكن فيه من سماع عبد القادر، ورؤية بولس، فى نفس الوقت، من غير أن يلتفت أحد لذلك.

كان الجمع فى ذلك اليوم قد تضاعف مقارنة بالأيام السابقة، وكانت تكسو وجوههم همة لم تكن تكسوها من قبل.

بدأ عبد القادر حديثه، فقال: لقد طلبتم منى الحديث عن معجزة انتصار الإسلام فى تلك البيئة وذلك الزمان.. إنها معجزة بكل المقاييس، وفى فترة قياسية نادرة، بل لم يحصل فى التاريخ مثلها.

وهى درس بليغ لكل من يريد أن يخرج من كهوف الاستضعاف والذلة والمهانة.

لقد تحقق لرسول الله ﷺ ما وعده الله به من نصرة كما قال تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٤٠)﴾ [التوبة].

وهذه سنة الله مع عباده الذين ينصرونه من المرسلين وغيرهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ (٣٤)﴾ [الأنعام]، وقال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (١١٠)﴾ [يوسف]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ (٤٧)﴾ [الروم]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ (٥١)﴾ [غافر].

وسأذكر لكم نوعين من الجنود نصر الله بهما نبيه ﷺ على أعدائه الذين تترسوا بكل أنواع الأسلحة.

***

## 1 - جنود من السماء

أما النوع الأول.. فهم جنود السماء.

وجنود السماء هم الملائكة الذين أمد الله بهم رسوله عندما احتاج إلى مدد يمد به جنوده من الصحابة ـ رضى الله عنهم ـ.

فعن عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ قال: لما كان فى يوم بدر نظر رسول الله ﷺ إلى المشركين وهم ألف، وأصحابه ثلاثمائة وتسعة عشر رجلا، فاستقبل نبى الله ﷺ القبلة، ثم مد يديه. فجعل يهتف، بربه يقول: (اللهم أنجز لى ما وعدتنى، اللهم آتنى ما وعدتنى، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد فى الأرض)، فما زال يهتف بربه مادا يديه مستقبل القبلة حتى سقط رداؤه عن منكبيه، فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه وألقاه على منكبيه، ثم التزمه من ردائه، فقال: يا نبى الله كفاك تناشد ربك، فإنه سينجز لك ما وعدك، فأنزل الله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾﴾ [الأنفال]، فأمده الله تعالى بالملائكة[1].

وفى حديث آخر عن ابن عباس ـ رضى الله عنه ـ: أن رسول الله ﷺ قال وهو فى قبة يوم بدر: (اللهم إنى أنشدك عهدك ووعدك، اللهم إن تشأ لا تعبد بعد اليوم)، فأخذ أبو بكر بيده، فقال: حسبك يا رسول الله، لقد ألححت على ربك، فخرج وهو يثب فى الدرع وهو يقول: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾﴾ [القمر].

وأنزل الله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾﴾ [الأنفال]، أى متتابعين يتبع بعضهم بعضا، وأنزل الله تعالى: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلاثَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾﴾ [آل عمران][2].

وقد ذكر الكثير ممن حضر غزوة بدر مشاهدتهم للملائكة ـ عليهم السلام ـ التى نزلت لتنصرهم، ومجموع هذه الروايات يفيد القطع بنزولهم كما وعد الله تعالى:

فعن على ـ رضى الله عنه ـ قال: بينما أنا أمتح من قليب بدر جاءت ريح شديدة ما رأيت مثلها قط، ثم ذهبت، ثم جاءت ريح شديدة لم أر مثلها قط إلا التى كانت قبلها، ثم جاءت ريح شديدة، قال: فكانت الريح الأولى جبريل عليه السلام، نزل فى ألف من الملائكة، وكانت الريح الثانية ميكائيل نزل فى ألف من الملائكة عن يمين رسول الله ﷺ، وكان أبو بكر عن يمينه، وكانت الثالثة إسرافيل نزل فى ألف من الملائكة عن ميسرة رسول الله ﷺ، وأنا فى الميسرة، فلما هزم الله تعالى أعداءه حملنى رسول الله ﷺ على فرسه، فجمزت بى، فلما جمزت خررت على عنقها فدعوت ربى فأمسكنى، فلما استويت عليها طعنت بيدى هذه فى القوم حتى خضبت هذا، وأشار إلى إبطه[3].

وعن ابن عباس عن رجل من بنى غفار قال: حضرت أنا وابن عم لى بدرا، ونحن على شركنا، فإنا لفى جبل ننظر الوقعة على من تكون الدبرة فننتهب، فأقبلت سحابة، فلما دنت من الجبل سمعنا فيها حمحمة وسمعنا فيها فارسا يقول: أقدم حيزوم، فأما صاحبى فانكشف قناع عليه، فمات، وأما أنا فكدت أهلك، ثم انتعشت بعد ذلك[4].

عن أبى رهم الغفارى عن ابن عم له قال: بينا أنا وابن عم على ماء ببدر فلما رأينا قلة من مع محمد وكثرة قريش قلنا: إذا التقت الفئتان عمدنا إلى عسكر محمد وأصحابه فانطلقنا نحو المجنبة

---

(1) رواه ابن أبى شيبة والإمام أحمد ومسلم وأبو داود والترمذى وغيرهم.

(2) رواه البخارى والنسائى وابن المنذر.

(3) رواه أبو يعلى والحاكم والبيهقى.

(4) رواه إسحاق وابن جرير.

اليسرى من أصحابه، ونحن نقول. هؤلاء ربع قريش، فبينا نحن نمشى فى الميسرة إذ جاءت سحابة فغشيتنا فرفعنا أبصارنا إليها، فسمعنا أصوات الرجال والسلاح، وسمعنا رجلا يقول لفرسه: أقدم حيزوم، وسمعناهم يقولون: رويدا تتام أمراكم.

فنزلوا على ميمنة رسول الله ﷺ، ثم جاءت أخرى مثل ذلك، فكانت مع النبى ﷺ وأصحابه، فإذا هم على الضعف من قريش، فمات ابن عمى، وأما أنا فتماسكت، وأخبرت النبى ﷺ، وأسلمت.

وعن ابن عباس ـ رضى الله عنه ـ قال: بينما رجل من المسلمين يومئذ يشتد فى إثر رجل من المشركين أمامه إذ سمع ضربة بالسوط فوقه، وصوت الفارس يقول: أقدم حيزوم، إذ نظر إلى المشرك أمامه مستلقيا فنظر إليه فإذا هو قد خطم أنفه، وشق وجهه، كضربة السوط، فاخضر ذلك الموضع أجمع، فجاء الأنصارى فحدث بذلك رسول الله ﷺ فقال: (صدقت، ذلك مدد من السماء الثالثة)[1].

وعن ابن أسيد الساعدى أنه قال بعد ما عمي: لو كنت معكم ببدر الآن ومعى بصرى لأخبرتكم بالشعب الذى خرجت منه الملائكة، لا أشك فيه ولا أتمارى[2].

وعن على ـ رضى الله عنه ـ قال: قيل لى ولأبى بكر يوم بدر، قيل لأحدنا: معك جبريل، وقيل للآخر: معك ميكائيل، وإسرافيل ملك عظيم يشهد القتال ولا يقاتل يكون فى الصف[3].

وعن أبى سفيان بن الحارث قال: لقينا يوم بدر رجالا بيضا على خيل بلق بين السماء والأرض[4].

وعن سهيل بن حنيف قال: لقد رأيتنا يوم بدر وإن أحدنا ليشير بسيفه إلى رأس المشرك، فيقع رأسه قبل أن يصل إليه[5].

وعن الربيع بن أنس قال: كان الناس يعرفون قتلى الملائكة ممن قتلوه بضرب فوق الأعناق وعلى البنان مثل سمة النار قد احترق[6].

عن سهيل بن عمرو قال: لقد رأيت يوم بدر رجالا بيضا على خيل بلق بين السماء والارض، معلمين، يقتلون ويأسرون[7].

وعن خارجة بن إبراهيم عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ لجبريل: من القائل يوم بدر من الملائكة: أقدم حيزوم؟ فقال جبريل: ما كل أهل السماء أعرف[8].

وعن حكيم بن حزام قال: لقد رأيتنا يوم بدر، وقد وقع بوادى خلص بجاد من السماء قد سد الأفق، فإذا الوادى يسيل نملا فوقع فى نفسى أن هذا شىء أيد به محمد ﷺ، فما كانت إلا الهزيمة، وهى الملائكة[9].

---

(1) رواه مسلم وابن مردويه.
(2) رواه ابن إسحاق وإسحاق بن راهويه.
(3) رواه أحمد والبزار والحاكم برجال الصحيح.
(4) رواه إبراهيم الحربى.
(5) رواه الحاكم وصححه البيهقى وأبو نعيم.
(6) رواه البيهقى.
(7) رواه البيهقى وابن عساكر.
(8) رواه البيهقى.
(9) رواه البيهقى.

وعن عبد الرحمن بن عوف قال: رأيت يوم بدر رجلين: عن يمين النبي ﷺ أحدهما، وعن يساره أحدهما، يقاتلان أشد القتال، ثم ثلثهما ثالث من خلفه، ثم ربعهما رابع أمامه[1].

وعن حويطب بن عبد العزى، قال: لقد شهدت بدرا مع المشركين فرأيت عبرا، رأيت الملائكة تقتل وتأسر بين السماء والأرض[2].

وعن السائب بن أبي حبيش ـ رضي الله عنه ـ أنه كان يقول: والله ما أسرني أحد من الناس، فيقال: فمن؟ فيقول: لما انهزمت قريش انهزمت معها، فيدركني رجل أبيض طويل على فرس أبلق بين السماء والأرض، فأوثقني رباطا، وجاء عبد الرحمن بن عوف فوجدني مربوطا، فنادى في العسكر: من أسر هذا؟ فليس أحد يزعم أنه أسرني، حتى انتهى بي إلى رسول الله ﷺ فقال: (يا ابن أبي حبيش من أسرك؟)، فقلت: لا أعرفه، وكرهت أن أخبره بالذي رأيت، فقال: (أسرك ملك من الملائكة)[3].

وعن أبي بردة بن نيار ـ رضي الله عنه ـ قال: جئت رسول الله ﷺ يوم بدر بثلاثة رؤوس، فقلت له: يا رسول الله، أما رأسان فقتلتهما، وأما الثالث فإني رأيت رجلا أبيض طويلا ضربه، فأخذت رأسه، فقال رسول الله ﷺ: (ذاك فلان من الملائكة)[4].

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ قال: كان الملك يتصور في صورة من يعرفون من الناس يثبتونهم، فيقول. إني قد دنوت منهم وسمعتهم يقولون: لو حملوا علينا ما ثبتنا، ليسوا بشيء، إلى غير ذلك من القول[5].

وعن ابن جبير بن مطعم قال: رأيت قبل هزيمة القوم، والناس يقتتلون، مثل البجاد الأسود مبثوث، حتى امتلأ الوادي، فلم أشك أنها الملائكة، فلم يكن إلا هزيمة القوم[6].

وعن ابن عباس، وعلي ـ رضي الله عنهما ـ قالا: كان الذي أسر العباس أبو اليسر، وكان رجلا مجموعا وكان العباس رجلا جسيما، فقال رسول الله ﷺ: (يا أبا اليسر كيف أسرت العباس؟)، قال: يا رسول الله لقد أعانني عليه رجل ما رأيته قبل ذلك ولا بعده، هيئته كذا وكذا، فقال رسول الله ﷺ: (لقد أعانك عليه ملك كريم)[7].

وعن أبي واقد الليثي قال: إني لأتبع يوم بدر رجلا من المشركين لأضربه فوقع رأسه قبل أن يصل إليه سيفي، فعرفت أن غيري قتله[8].

وعن صهيب قال: ما أدري كم يد مقطوعة أو ضربة جائفة لم يدم كلمها يوم بدر، وقد رأيتها[9].

وعن أبي دارة قال: حدثني رجل من قومي من بني سعد بن بكر قال: إني لمنهزم يوم بدر إذ أبصرت رجلا بين يدي منهزما، فقلت: ألحقه، فأستأنس به، فتدلى من جرف ولحقته، فإذا رأسه قد زايله ساقطا، وما رأيت قربه أحدا[10].

---

(1) رواه محمد بن عمر الأسلمي وابن عساكر.
(2) رواه ابن سعد.
(3) رواه البيهقي.
(4) رواه محمد بن عمر الأسلمي والبيهقي.
(5) رواه البيهقي.
(6) رواه ابن راهويه وأبو نعيم والبيهقي بسند حسن.
(7) رواه أحمد وابن سعد وابن جرير والبيهقي.
(8) رواه ابن إسحاق والبيهقي.
(9) رواه البيهقي.
(10) رواه أبو نعيم.

وقد كان هذا التنزل مبعثًا لرسول الله ﷺ، فعن عطية بن قيس قال: لما فرغ رسول الله ﷺ من قتال بدر جاء جبريل على فرس أنثى أحمر، عليه درعه، ومعه رمحه، فقال: يا محمد، إن الله بعثني إليك وأمرني ألا أفارقك حتى ترضى، هل رضيت؟ قال: (نعم، رضيت، فانصرف)[1].

وعن جابر قال: كنا نصلي مع رسول الله ﷺ في غزوة بدر إذ تبسم في صلاته، فلما قضى صلاته قلنا: يا رسول الله رأيناك تبسمت، قال: (مر بي ميكائيل وعلى جناحه أثر الغبار، وهو راجع من طلب القوم، فضحك إلي فتبسمت إليه)[2].

وكما وعد المؤمنون بأن يمدوا بالملائكة، وحصل ما وعدوا به، فقد وعد الشيطان أولياءه من المشركين بأن يمدهم بقوته، ولكنه نكل وخالف.

فعن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ قال: أمد الله تعالى نبيه ﷺ والمؤمنين بألف، فكان جبريل في خمسمائة مجنبة، وميكائيل في خمسمائة مجنبة، وجاء إبليس في جند من الشياطين معه رايته في صورة رجال من بني مدلج، والشيطان في صورة سراقة بن مالك بن جعشم، فقال الشيطان للمشركين: لا غالب لكم اليوم من الناس، وإني جار لكم.

وأقبل جبريل إلى إبليس فلما رآه ـ وكانت يده في يد رجل من المشركين ـ انتزع إبليس يده، ثم ولى مدبرا وشيعته، فقال الرجل: يا سراقة، ألست تزعم أنك جار لنا، فقال: إني أرى ما لا ترون، إني أخاف الله، والله شديد العقاب.

فذلك حين رأى الملائكة، فتشبث به الحارث بن هشام، وأسلم بعد ذلك، وهو يرى أنه سراقة لما سمع كلامه، فضرب الشيطان في صدر الحارث فسقط الحارث، وانطلق إبليس لا يلوى، حتى سقط في البحر، ورفع يديه وقال: يا رب، موعدك الذي وعدتني، اللهم إني أسألك نظرتك إياي.

وخاف أن يخلص إليه القتل، فقال أبو جهل: يا معشر الناس لا يهمنكم خذلان سراقة. فإنه كان على ميعاد من محمد، ولا يهمنكم قتل عتبة وشيبة، فإنهم قد عجلوا، فواللات والعزى لا نرجع حتى نقرن محمدا وأصحابه بالحبال، ولا ألفين رجلا منكم قتل رجلا منهم، ولكن خذوهم أخذا حتى نعرفهم سوء صنيعهم[3].

ويروى أنهم رأوا سراقة بمكة بعد ذلك فقالوا له: يا سراقة أخرمت الصف، وأوقعت فينا الهزيمة، فقال: والله ما علمت بشيء من أمركم حتى كانت هزيمتكم، وما شهدت وما علمت، فما صدقوه حتى أسلموا، وسمعوا ما أنزل الله تعالى فيه، فعلموا أنه كان إبليس تمثل لهم.

* * *

(1) رواه ابن سعد وأبو الشيخ.

(2) رواه أبو يعلى.

(3) رواه الطبراني عن رفاعة بن رافع، وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه، عن ابن عباس.

## 2- جنود من الأرض

أما النوع الثاني، فهو جنود الأرض..

وهم جنود كثيرون جدا.. فكل ما خلق الله من أشياء جند من جند الله ﴿... وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ... ﴿٣١﴾﴾ [المدثر].

**الريح:**

ومن هذه الجنود الريح.. وهي التي نصر الله بها هودا ﷺ على قومه، حين أرسل عليهم ريحا باردة كبرودة قلوبهم، في أيام مشؤومات كشؤم نفوسهم مقابلة لهم على تشاؤمهم من نبيهم ﷺ، وتحقيقا لطلبهم، قال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾﴾ [فصلت]

وكانت الريح قد جاءتهم بصورة يحبونها فانتهضوا مستبشرين يصيحون هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا. فأجابهم هود ﷺ بلسان العارف بربه: ﴿... بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾﴾ [الأحقاف].

قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ يصف ذلك المشهد: (أول ما رأوا العارض قاموا فمدوا أيديهم، فأول ما عرفوا أنه عذاب رأوا ما كان خارجًا من ديارهم من الرجال والمواشي تطير بهم الريح ما بين السماء والأرض مثل الريش، فدخلوا بيوتهم وأغلقوا أبوابهم فقلعت الريح الأبواب وصرعتهم، وأمر الله الريح فأمالت عليهم الرمال، فكانوا تحت الرمال سبع ليال وثمانية أيام حسوما، ولهم أنين، ثم أمر الله الريح فكشفت عنهم الرمال واحتملتهم فرمتهم في البحر)[1].

وهو تصوير دقيق لما نراه كثيرا على شاشات التلفزيون من أنواع الأعاصير، والتي لا نسمع لها سببا إلا حركات الرياح وتحولات الضغط، والتفسيرات المادية الكثيرة، والتي لا ينكرها القرآن، وإنما ينكر الاكتفاء بها وتصور أنها فاعلة بذاتها.

وقد أمد الله نبيه محمدا ﷺ بجند الريح يوم تحزبت الأحزاب تبغي استئصال شأفة المسلمين، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾﴾ [الأحزاب]، فالريح من الجنود المرئية، وغيرها من الجنود غير المرئية.

وقد ذكر رسول الله ﷺ هذا النوع من الجند، فقال: (نصرت بالصبا، وأهلكت عاد بالدبور)[2].

وقد روي بأسانيد كثيرة كيفية ذلك:

فعن سعيد بن جبير قال: لما كان يوم الخندق أتى جبريل ومعه الريح، فقال رسول الله ﷺ حين رأى جبريل: (ألا أبشروا) ثلاثا، فأرسل الله تعالى عليهم الريح، فهتكت القباب، وكفأت القدور، ودفنت الرجال، وقطعت الأوتاد، فانطلقوا لا يلوي أحد على أحد، وأنزل الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾﴾ [الأحزاب][3].

وعن قتادة قال: بعث الله تعالى عليهم الريح والرعب كلما بنوا قطع الله أطنابه، وكلما ربطوا دابة قطع الله رباطها، وكلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله، حتى لقد ذكر لنا: أن سيد كل حي

---

(1) القرطبي: 16/ 175.

(2) رواه البخاري ومسلم.

(3) رواه ابن سعد.

يقول: يا بنى فلان، هلم إلىّ حتى إذا اجتمعوا عنده قال: (النجاة النجاة، أتيتم) لما بعث الله تعالى عليهم من الرعب[1].

قال البلاذرى: ثم إن الله تعالى تصر المسلمين عليهم بالريح، وكانت ريحا صفراء فملأت عيونهم، فداخلهم الفشل والوهن وانهزم المشركون، وانصرفوا إلى معسكرهم، ودامت عليهم الريح، وغشيتهم الملائكة تطمس أبصارهم، فانصرفوا ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾﴾ [الأحزاب].

وقد ذكر شاهد عيان ما رآه من فعل الريح بهم، فعن حذيفة بن اليمان ـ رضى الله عنه ـ وقد قال له بعض جلسائه من التابعين: أما والله لو شهدنا ذلك لكنا فعلنا وفعلنا[2]، فقال حذيفة: لا تمنوا ذلك، لقد رأيتنا ليلة الأحزاب ونحن صافون قعود، وأبو سفيان ومن معه من الأحزاب فوقنا، وقريظة اليهود أسفل منا نخافهم على ذرارينا، وما أتت علينا ليلة قط أشد ظلمة، ولا أشد ريحا منها، وفى أصوات ريحها أمثال الصواعق، وهى ظلمة ما يرى أحدنا إصبعه، فجعل المنافقون يستأذنون رسول الله ﷺ ويقولون: ﴿... إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ ... ﴿١٣﴾﴾ [الأحزاب]، فما يستأذنه أحد منهم إلا أذن له، فيتسللون، ونحن ثلاثمائة أو نحو ذلك.

فاستقبلنا رسول الله ﷺ رجلا رجلا، يقول: ألا رجل يأتينى بخبر القوم يكون معى يوم القيامة ـ وفى لفظ: جعله الله رفيق إبراهيم يوم القيامة ـ فلم يجبه منا أحد، ثم الثانية، ثم الثالثة مثله.

فقال أبو بكر: يا رسول الله ابعث حذيفة، فقلت: دونك والله، فمر على رسول الله ﷺ وما على جنة من العدو ولا من البرد إلا مرطا لامرأتى ما يجاوز ركبتى، قال: فأتانى وأنا جاث على ركبتى فقال: (من هذا؟)، فقلت: حذيفة، قال رسول الله ﷺ: (حذيفة)، قال حذيفة: فتقاصرت للأرض، فقلت: بلى يا رسول الله، كراهية أن أقوم، قال: (قم)، فقمت، فقال: (إنه كائن فى القوم خبر، فأتنى بخبر القوم).

فقلت: والذى بعثك بالحق، ما قمت إلا حياء منك من البرد، قال: (لا بأس عليك من حر ولا برد حتى ترجع إلى).

قال: وأنا من أشد الناس فزعا وأشدهم قرا، فقلت: والله ما بى أن أقتل، ولكن أخشى أن أوسر، فقال: (إنك لن تؤسر)، قال: فخرجت، فقال: (اللهم احفظه من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه، وعن شماله، ومن فوقه ومن تحته).

قال: فوالله ما خلق الله تعالى فى جوفى فزعا ولا قرا إلا خرج، فما أجد فيه شيئا، فمضيت كأنما أمشى فى حمام، فلما وليت، دعانى فقال:(يا حذيفة، لا تحدثن فى القوم شيئا حتى تأتينى)[3].

فقال حذيفة: فخرجت حتى إذا دنوت من عسكر القوم نظرت فى ضوء نار لهم توقد، وإذا

(1) رواه ابن جرير وابن أبى حاتم.

(2) وفى رواية: فقال رجل: لو أدركت رسول الله ﷺ لقاتلت معه وأبليت.

(3) وقد ورد فى رواية أخرى ذكر سبب هذا الإرسال، وهو التفريق بين الأحزاب، فقد ورد فيها: فقلت: يا رسول الله مرنى بما شئت، فقال ﷺ:«اذهب حتى تدخل بين ظهرى القوم، فأت قريشا، فقل: يا معشر قريش، إنما يريد الناس إذا كان غدا أن يقولوا: أين قريش؟ أين قادة الناس؟ أين رؤوس الناس؟ فيقدموكم، فتصلوا القتال فيكون القتل فيكم، ثم ائت بنى كنانة فقل: يا معشر بنى كنانة، إنما يريد الناس إذ كان غدا أن يقولوا: أين بنى كنانة؟ أين رماة الحدق فيقدموكم، فتصلوا القتال، فيكون القتل فيكم، ثم ائت قيسا فقل: يا معشر قيس، إنما يريد الناس إذا كان غدا أن يقولوا: أين قيس؟ أين أحلاس الخيل؟ أين الفرسان؟ فيقدموكم، فتصلوا القتال، فيكون القتل فيكم».

رجل أدهم ضخم يقول بيده على النار ويمسح خاصرته، وحوله عصبة، قد تفرق عنه الأحزاب، وهو يقول: الرحيل الرحيل.

ولم أكن أعرف أبا سفيان قبل ذلك، فانتزعت سهما من كنانتى أبيض الريش، فوضعته فى كبد القوس لأرميه فى ضوء النار، فذكرت قول رسول الله ﷺ: (لا تحدثن فى القوم شيئا، حتى تأتينى)، فأمسكت ورددت سهمى.

فلما جلست فيهم أحس أبو سفيان أن قد دخل فيهم غيرهم، فقال: يأخذ كل رجل منكم بيد جليسه، فضربت بيدى على يد الذى عن يمينى، فأخذت بيده، فقلت: من أنت؟ قال: معاوية بن أبى سفيان، ثم ضربت بيدى على يد الذى عن شمالى، فقلت: من أنت؟ قال: عمرو بن العاص، فعلت ذلك خشية أن يفطن بى، فبدرتهم بالمسألة، ثم تلبثت فيهم هنيهة.

وأتيت بنى كنانة وقيسا، وقلت ما أمرنى به رسول الله ﷺ، ثم دخلت فى العسكر، فإذا أدنى الناس منى بنو عامر، ونادى عامر بن علقمة بن علاثة: يا بنى عامر، إن الريح قاتلتى وأنا على ظهر، وأخذتهم ريح شديدة، وصاح بأصحابه.

فلما رأى ذلك أصحابه جعلوا يقولون: يا بنى عامر، الرحيل الرحيل، لا مقام لكم.

وإذا الريح فى عسكر المشركين ما تجاوز عسكرهم شبرا، فوالله إنى لأسمع صوت الحجارة فى رحالهم، وفرشهم والريح تضرب بها، فلما دنا الصبح نادوا: أين قريش؟ أين رؤوس الناس؟ فقالوا: أيهات، هذا الذى أتينا به البارحة، أين كنانة؟ فقالوا: أيهات، هذا الذى أتينا به البارحة، أين قيس؟ أين أحلاس الخيل؟ فقالوا: أيهات، هذا الذى أتينا به البارحة.

فلما رأى ذلك أبو سفيان أمرهم بأن يتحملوا فتحملوا، وإن الريح لتغلبهم على بعض أمتعتهم حتى رأيت أبا سفيان وثب على جمل له معقول، فجعل يستحثه ولا يستطيع أن يقوم، حتى حل بعد.

ثم خرجت إلى رسول الله ﷺ فلما انتصف بى الطريق، أو نحو ذلك إذا أنا بعشرين فارسا أو نحو ذلك معتمين، قالوا: أخبر صاحبك أن الله تعالى كفاه القوم بالجنود والريح.

فرجعت إلى رسول الله ﷺ وهو مشتمل فى شملة يصلى، فوالله ما عدا أن رجعت راجعنى القر، وجعلت أقرقف، فأومأ إلى رسول الله ﷺ بيده، وهو يصلى، فدنوت منه، فسدل على من فضل شملته ـ وكان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر صلى ـ فأخبرته خبر القوم، وأنى تركتهم يرحلون، فلم أزل نائما حتى جاء الصبح فلما أن أصبحت قال رسول الله ﷺ: (قم يا نومان)[1].

**المطر:**

ومن هؤلاء الجنود المطر..

فالمطر هو الذى نصر الله به عبده نوحا عليه السلام حين صاح: ﴿... أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ ﴿١٠﴾﴾ [القمر]، فأجابه ربه، فقال: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾﴾ [القمر].

وقد أنزل الله هذا الجند من المطر على المؤمنين فى أول غزوة كانت فرقانا بين الحق والباطل، قال تعالى: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴿١١﴾﴾ [الأنفال].

---

(1) رواه الحاكم وصححه ابن مردويه، وأبو نعيم والبيهقى كلاهما فى الدلائل من طرق عن حذيفة ومسلم، وابن عساكر عن إبراهيم بن يزيد التيمى عن أبيه، وابن إسحاق عن محمد بن كعب القرظى، وأبو نعيم مختصرا عن ابن عمر.

فقد ذكر تعالى أنّه أنزل المطر على المؤمنين لأربعة أسباب: للتطهير من الحدث، ولإذهاب وسوسة الشيطان، ولتثبيت القلوب(1)، ولتلبيد الأرض الرملية فى بدر لتثبت عليها أقدام المؤمنين فى سيرهم.

قال مجاهد: أنزل الله المطر فأطفأ الغبار وتلبدت الأرض وطابت نفوسهم وثبتت أقدامهم.

وقال عروة بن الزبير: بعث الله السماء وكان الوادى دهساً، فأصاب رسول الله ﷺ وأصحابَه مالبَّد لهم الأرض ولم يمنعهم من المسير، وأصاب قريشًا ما لم يقدروا أن يرحلوا معه.

وكان نزول المطر سببًا فى إذهاب وسوسة الشيطان الذى أراد به تثبيط المؤمنين عن القتال بعد احتلامهم بالليل حيث كانوا يصلون مجنبين، فحين نزول المطر وجد الماء الذى اغتسلوا به من الجنابة، وأذهب الله بذلك رجز الشيطان.

قال ابن سعد: وكانت بنو عدى بن كعب مع النفير، فلما بلغوا ثنية لفت عدلوا فى السحر إلى الساحل منصرفين إلى مكة، فصادفهم أبو سفيان ابن حرب فقال: يا بنى عدى، كيف رجعتم، لافى العير ولافى النفير؟ قالوا: أنت أرسلت إلى قريش أن ترجع ويقال: بل لقيهم بمر الظهران، ومضت قريش حتى نزلت بالعدوة القصوى من الوادى خلف العقنقل وبطن الوادى، ونزل رسول الله ﷺ والمسلمون بينهم وبين الماء رحلة.

وغلب المشركون المسلمين فى أول أمرهم على الماء، فظمئ المسلمون، وأصابهم ضيق شديد، وألقى الشيطان فى قلوبهم الغيظ، فوسوس إليهم: تزعمون أنكم أولياء الله وفيكم رسول الله وقد غلبكم المشركون على الماء، وأنتم تصلون مخبتين، فأنزل الله تعالى تلك الليلة مطرا كثيرا فكان على المشركين وابلا شديدا منعهم من التقدم، وكان على المسلمين طلا طهرهم الله به، وأذهب عنهم رجز الشيطان، ووطأ به الأرض، وصلب الرمل، وثبت الأقدام، ومهد به المنزل، وربط به على قلوبهم. ولم يمنعهم من السير، وسال الوادى فشرب المؤمنون، وملأوا الأسقية، وسقوا الركاب، واغتسلوا من الجنابة.

**النعاس:**

وهو من جنود الله التى تثبت القلوب، وتعيد إلى النفس هدوءها، وإلى الجسد قوته، قال تعالى فى ذكر نعمته على المؤمنين يوم بدر: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ ... ﴿١١﴾﴾ [الأنفال].

فقد أصاب المسلمين تلك الليلة نعاس ألقى عليهم فناموا، حتى إن أحدهم ذقنه بين يديه، وما يشعر حتى يقع على جنبه.

فعن على ـ رضى الله عنه ـ قال: ما كان فينا فارس يوم بدر غير المقداد، ولقد رأيتنا وما فينا إلا نائم، إلا رسول الله ﷺ يصلى تحت شجرة حتى أصبح(2).

وعن قتادة قال: كان النعاس أمنة من الله، وكان النعاس نعاسين: نعاس يوم بدر، ونعاس يوم أحد، وكانت ليلة الجمعة، وبين الفريقين قوز من الرمل(3).

---

(1) أثبت العلم الحديث أن عضلات القلب عبارة عن ألياف عضلية فى شكل خيوط طولية وعرضية تلف القلب، فإذا أفرزت مادة (الأدرينالين) عملت على ارتخاء عضلات القلب، وبالتالى ترتخى تلك الألياف والحبال العضلية، كما تعمل على ارتعاش الأطراف، وقد وجد أن من أسرع الوسائل لتخفيض مادة (الأدرينالين) هو أن يرش الجسم بالماء، فيربط على القلب بتلك الحبال العضلية بانقباض العضلات، ويزول الارتخاء، كما تثبت الأقدام من ارتعاشها، كما قال تعالى: ﴿...وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴿١١﴾﴾ [الأنفال] انظر: بينات الرسول، عبد المجيد الزندانى.

(2) رواه أبو يعلى والبيهقى فى الدلائل.

(3) رواه عبد بن حميد.

يقول سيد قطب مبينا سر هذا الجندي المؤثر من جنود الله: (أما قصة النعاس الذي غشي المسلمين قبل المعركة فهي قصة حالة نفسية عجيبة، لا تكون إلا بأمر الله وقدره وتدبيره.

لقد فزع المسلمون وهم يرون أنفسهم قلة في مواجهة خطر لم يحسبوا حسابه ولم يتخذوا له عدته، فإذا النعاس يغشاهم، ثم يصحون منه والسكينة تغمر نفوسهم؛ والطمأنينة تفيض على قلوبهم، وهكذا كان يوم أحد، تكرر الفزع، وتكرر النعاس، وتكررت الطمأنينة).

ثم حدث عن نفسه، فقال: (وقد كنت أمر على هذه الآيات، وأقرأ أخبار هذا النعاس، فأدركه كحادث وقع، يعلم الله سره، ويحكي لنا خبره، ثم إذا بي أقع في شدة، وتمر عليّ لحظات من الضيق المكتوم، والتوجس القلق، في ساعة غروب، ثم تدركني سنة من النوم لا تتعدى بضع دقائق، وأصحوا إنسانًا جديدًا غير الذي كان، ساكن النفس، مطمئن القلب، مستغرقًا في الطمأنينة الواثقة العميقة.. كيف تم هذا؟ كيف وقع هذا التحول المفاجئ؟ لست أدري! ولكني بعدها أدرك قصة بدر وأحد.. أدركها في هذه المرة بكياني كله لا بعقلي، وأستشعرها حية في حسي لا مجرد تصور، وأرى فيها يد الله وهي تعمل عملها الخفي المباشر، ويطمئن قلبي.

لقد كانت هذه الغشية، وهذه الطمأنينة، مددًا من أمداد الله للعصبة المسلمة يوم بدر)(1).

**الرعب:**

وهو جند من جند الله، وقد أنزله الله تعالى على من يتجرأ على حرب المؤمنين، قال تعالى: ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾ [آل عمران].

وقال تعالى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾﴾ [الأنفال].

وقال تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾﴾ [الأحزاب].

وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٢﴾﴾ [الحشر].

وقد أشار ﷺ إلى هذا النوع من الجند، فقال: (نصرت بالرعب مسيرة شهر)(2)، وهذا يعني أنه ﷺ كان إذا قصد قتال قوم من الكفار ألقى الله الرعب في قلوبهم قبل وصوله إليهم بشهر، ولو كانت مسيرة شهر.

وقد ورد في السيرة الكثير من الأحداث التي أمد الله فيها المؤمنين بهذا النوع من الجند ليقضوا به على عدوهم:

فمن ذلك ما ذكره محمد بن عمر عن شيوخه، قال: لما تفرق المشركون عن الخندق خافت بنو قريظة خوفًا شديدًا، وقالوا: محمد يزحف إلينا، وكان رسول الله ﷺ لم يؤمر بقتالهم حتى جاءه جبرئيل يأمره به.

وكان ذلك الخوف هو سبب هزيمتهم من غير قتال.

ومن ذلك ما روى عن قتادة قال: بعث الله تعالى عليهم الريح والرعب كلما بنوا قطع الله

(1) في ظلال القرآن.

(2) رواه البخاري ومسلم.

أطنابه، وكلما ربطوا دابة قطع الله رباطها، وكلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله، حتى لقد ذكر لنا: أن سيد كل حي يقول: يا بني فلان، هلم إلى حتى إذا اجتمعوا عنده قال: (النجاة النجاة، أتيتم) لما بعث الله تعالى عليهم من الرعب[1].

ومن ذلك ما روى عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ: أن رسول الله ﷺ مر بنفر من بنى النجار بالصورين فيهم حارثة بن النعمان قد صفوا عليهم السلاح فقال: (هل مر بكم أحد؟) قالوا: نعم، دحية الكلبي مر على بغلة عليها رحالة عليها قطيفة من استبرق وأمرنا بحمل سلاحنا فأخذنا وصففنا، وقال لنا: هذا رسول الله ﷺ يطلع عليكم الآن، قال حارثة بن النعمان: وكنا صفين، فقال رسول الله ﷺ: (ذاك جبريل بعث إلى بنى قريظة ليزلزل بهم حصونهم ويقذف الرعب فى قلوبهم)[2].

ومن ذلك الرعب الذى قذفه الله تعالى فى قلوب جواسيس المشركين فى غزوة حنين، فعن أمية بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان أنه حدث أن رسول الله ﷺ قد انتهى إلى حنين مساء ليلة الثلاثاء لعشر خلون من شوال، وبعث مالك بن عوف ثلاثة نفر من هوازن ينظرون إلى رسول الله ﷺ وأصحابه، وأمرهم أن يتفرقوا فى العسكر فرجعوا إليه وقد تفرقت أوصالهم، فقال: ويلكم ما شأنكم، فقالوا: رأينا رجالا بيضا على خيل بلق، فو الله ما تماسكنا أن أصابنا ما ترى، والله ما نقاتل أهل الأرض، إن نقاتل إلا أهل السماوات وإن أطعتنا رجعت بقومك، فإن الناس إن رأوا مثل الذى رأينا أصابهم مثل ما أصابنا.

فقال: أف لكم، أنتم أجبن أهل العسكر، فحبسهم عنده فرقا أن يشيع ذلك الرعب فى العسكر، وقال: دلونى على رجل شجاع، فأجمعوا له على رجل، فخرج ثم رجع إليه قد أصابه كنحو ما أصاب من قبله منهم، فقال: ما رأيت؟ قال: رأيت رجالا بيضا على خيل بلق، ما يطاق النظر إليهم، فوالله ما تماسكت أن أصابنى ما ترى، فلم يثن ذلك مالكا عن وجهه[3].

ومن ذلك ما روى من الرعب الذى أنزل يوم حنين:

فعن يزيد بن عامر السوائى وكان حضر يوم غزوة حنين، فسئل عن الرعب فكان يأخذ الحصاة فيرمى بها فى الطست، فيطن فيقول: أن كنا نجد فى أجوافنا مثل هذا[4].

وعن محمد بن عمر عن مالك بن أوس بن الحدثان قال: حدثنى عدة من قومى شهدوا ذلك اليوم يقولون: (لقد رمى رسول الله ﷺ تلك الرمية من الحصى فما منا أحد إلا يشكو القذى فى عينيه، ولقد كنا نجد فى صدورنا خفقانا كوقع الحصى فى الطاس ما يهدأ ذلك الخفقان، ولقد رأينا يومئذ رجالا بيضا، على خيل بلق، عليهم عمائم حمر، قد أرخوها بين أكتافهم، بين السماء والأرض كتائب ما يليقون شيئا، ولا نستطيع أن نتأملهم من الرعب منهم).

وعن ربيعة بن أبزى قال: حدثنى نفر من قومى، حضروا يومئذ قالوا: كمنا لهم فى المضايق والشعاب، ثم حملنا عليهم حملة، ركبنا أكتافهم حتى انتهينا إلى صاحب بغلة شهباء، وحوله رجال بيض حسان الوجوه، فقالوا لنا: شاهت الوجوه ارجعوا. فانهزمنا، وركب المسلمون أكتافنا، وكانت إياها، وجعلنا نلتفت وإنا لننظر إليهم يكلدوننا فتفرقت جماعتنا فى كل وجه، وجعلت الرعدة تستخفنا حتى لحقنا بعلياء بلادنا، فإن كنا ليحكى عنا الكلام ما ندرى به، لما كان بنا من الرعب، وقذف الله تعالى الإسلام فى قلوبنا.

---

(1) رواه ابن جرير وابن أبى حاتم.
(2) رواه الحاكم، والبيهقى وأبو نعيم.
(3) رواه أبو نعيم والبيهقى.
(4) رواه عبد بن حميد، والبيهقى.

وعن شيوخ من ثقيف أسلموا بعد ما كانوا حضروا ذلك اليوم قالوا: ما زال رسول الله ﷺ في طلبنا فيما ترى، ونحن مولون حتى إن الرجل ليدخل منا حصن الطائف وإنه ليظن أنه على أثره من رعب الهزيمة.

***

ما وصل عبد القادر من حديثه إلى هذا الموضع حتى ارتفعت تكبيرات الجماعة الملتفة حوله، وأعلن الكثير منهم إسلامه.

تقدم أحدهم، وقال: لقد نفخت فينا كلماتك من روح العزة والهمة ما كنا نفتقده، وقد أيقنا أن النصر من الله، وأن من ينصر الله لا بد أن ينتصر لا محالة.

وقال آخر: لقد كان قومنا يسمّونا منبوذين، وقد ظللنا دهرنا نعاني هذا النبذ، ولا نرى لنا من مخرج من هذا النبذ إلا أن نتمسك بالعزة التي يملؤنا بها هذا الدين.

وقال آخرون كلاما قريبا من هذا.

لم نجد أنا وبولس إلا أن ننصرف، ومعي بصيص جديد من النور، اهتديت به بعد ذلك إلى شمس محمد.

# تاسعا - طاقات

في اليوم التاسع.. جاءني بولس، واعتذر لي عن عدم مجيئه في اليومين السابقين، وقال لي: لقد اشتقنا إلى التبشير بالمسيح.. وستتحدث اليوم عن نوع من معجزات المسيح لم يحصل إلا للمسيح.

قلت: تقصد ما كان للمسيح من طاقات..

قال: نعم.. لقد تجلت في المسيح جميع القدرات العجيبة التي لا تكون إلا لإله، أو لأقنوم لإله.

سرت معه، ولم نبتعد كثيرا حتى رأينا جمعا من الناس يلتفون حول رجل يسير فوق الزجاج من غير أن يؤذى، وقد ملأهم العجب.

وكان أجير بولس حاضرا، ويعلم ما يقول في هذا الموقف، فما إن رأى بولس، حتى صاح: ألا تريدون أن تسمعوا ما هو أعجب من هذا الذي يمشي على الزجاج؟

قالوا: وما ذاك؟

قال: من يمشي على الماء؟

قالوا: وهل حصل ذلك؟

هنا تدخل بولس، وقال: أجل.. ذلك هو المسيح.. وسأقص عليكم قصة سيره على الماء[1].

لقد كان المسيح يصلي على الجبل وحده في الليل، بينما كان تلاميذه في السفينة، عندما وقع اضطراب في البحيرة، إذ هاج البحر من ريح عظيمة، وكانت السفينة معذبة من الأمواج لأن الريح كانت مضادة، لم يكن التلاميذ قد نسوا ما علمه المسيح في النوء قبل هذا الوقت بنحو نصف سنة، ولكنه كان وقتها معهم في السفينة، أما الآن فيخيفهم غيابه، فهل ظنوا يا ترى أن الذي يشفي العليل بكلمة، وعن بُعْد، يستطيع أن يحفظ ويعطي السلامة عن بُعْد أيضًا؟

ظلوا يصارعون الأمواج إلى قرب الصباح، دون أن يتمكنوا من عبور البحيرة، وعرف المسيح بعذابهم، وهو في مخدع الصلاة الهادئ على الجبل، وهو المحب الذي لا يريد عذابهم إلا بمقدار ما يؤول لخيرهم، فلما رأى اضطرابهم والخطر عليهم، نزل من الجبل ومشى على البحر الهائج معتليًا أمواجه في هبوطها وارتفاعها، كأنها اليابسة، وهو مسرع للإفراج منهم.

هذا هو الكلمة (الذي كُلُّ شَيْء بِهِ كَانَ) (يوحنا 1: 3)، وقد وصفه بقوله: (الْبَاسِطُ السَّمَاوَاتِ وَحْدَهُ وَالْمَاشِي عَلَى أَعَالِي الْبَحْرِ) (أيوب 9: 8).

رفقًا بهم لم يتجه فوراً إلى السفينة لئلا يخيفهم، بل مرّ بقربهم كأنه يتجاوزهم.

---

(1) هذا نص ما ورد من هذه المعجزة في إنجيل متى: «وَبَعْدَمَا صَرَفَ الْجُمُوعَ صَعِدَ إِلَى الْجَبَلِ مُنْفَرِدًا لِيُصَلِّيَ. وَلَمَّا صَارَ الْمَسَاءُ كَانَ هُنَاكَ وَحْدَهُ. وَأَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ قَدْ صَارَتْ فِي وَسَطِ الْبَحْرِ مُعَذَّبَةً مِنَ الأَمْوَاجِ. لأَنَّ الرِّيحَ كَانَتْ مُضَادَّةً. وَفِي الْهَزِيعِ الرَّابعِ مِنَ اللَّيْلِ مَضَى إِلَيْهِمْ يَسُوعُ مَاشِيًا عَلَى الْبَحْرِ. فَلَمَّا أَبْصَرَهُ التَّلاَمِيذُ مَاشِيًا عَلَى الْبَحْرِ اضْطَرَبُوا قَائِلِينَ: «إِنَّهُ خَيَالٌ». وَمِنَ الْخَوْفِ صَرَخُوا! فَلِلْوَقْتِ قَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: «تَشَجَّعُوا! أَنَا هُوَ. لاَ تَخَافُوا». فَأَجَابَهُ بُطْرُسُ: «يَا سَيِّدُ، إِنْ كُنْتَ أَنْتَ هُوَ، فَمُرْنِي أَنْ آتِيَ إِلَيْكَ عَلَى الْمَاءِ». فَقَالَ: «تَعَالَ». فَنَزَلَ بُطْرُسُ مِنَ السَّفِينَةِ وَمَشَى عَلَى الْمَاءِ لِيَأْتِيَ إِلَى يَسُوعَ. وَلكِنْ لَمَّا رَأَى الرِّيحَ شَدِيدَةً خَافَ. وَإِذِ ابْتَدَأَ يَغْرَقُ صَرَخَ: «يَا رَبُّ نَجِّنِي». فَفِي الْحَالِ مَدَّ يَسُوعُ يَدَهُ وَأَمْسَكَ بِهِ وَقَالَ لَهُ: «يَا قَلِيلَ الإِيمَانِ، لِمَاذَا شَكَكْتَ؟» وَلَمَّا دَخَلاَ السَّفِينَةَ سَكَنَتِ الرِّيحُ. وَالَّذِينَ فِي السَّفِينَةِ جَاءُوا وَسَجَدُوا لَهُ قَائِلِينَ: «بِالْحَقِيقَةِ أَنْتَ ابْنُ اللهِ» (متى 14: 22-33).

لا شك أنهم اعتادوا القصص الخرافية الدارجة فى كل عصر، عن ظهور أشباح روحية مزعجة، والآن يشاهدون لأول مرة فى حياتهم روحًا أو خيالاً، فصرخوا مرتعدين لعلهم أرادوا أن يخيفوا هذا الخيال ليبتعد عنهم.

ولكن أتى صدى صراخهم خلافًا لما انتظروا، لأن هذا الخيال أجابهم بصوت لا يُشتبه به، وبكلام مطمئن حبى قال: (تشجعوا، أنا هو، لا تخافوا).

ولا زال هذا الصوت الحنون المشجع يُسمع حينما يوجد مؤمن مضطرب من جراء هموم ومخاوف الحياة، ولا سيما متى كان انزعاجه نتيجة لثقل خطاياه ومخاوف الابتعاد الأبدى عن الله.

فلما اقترب المتكلم وعرفوه، تمنى بطرس الجسور أن يتشبّه بسيده فى المشى على الماء، فصرخ: (يا سيد إن كنت أنت هو، فمُرنى أن آتى إليك على الماء)، فهل يسمح له بما طلب، رغم قوله: (إن كنت أنت هو) خصوصًا بعد أن قال سيده: (أنا هو) نعم، إذا كان بذلك يقدر أن يُرى تلاميذه أن كل شىء مستطاع عند الله، فمتى شاء يمكّن الإنسان من فعل المستحيلات.

نجح بطرس فى أول الأمر لأنه نزل من السفينة ومشى على الماء ليأتى إلى المسيح، لما كان فكره ونظره متجهين إلى المسيح لم يكن خائفًا، واستطاع أن يفعل المستحيل.

لكن نجاحه أدّى إلى فشله، لأنه ابتدأ يفكر بذاته ويفتخر بعمل لم يسبقه إليه أحد، فحوّل فكره ونظره من المسيح إلى نفسه، فابتدأت الأمواج الهائجة ترعبه، وحالاً أخذ يغرق، ولم تفده معرفته بالسباحة، وصار يحسد رفقاءه فى السفينة، بعد أن كانوا هم يحسدونه لما مشى على الماء. صرخ: (يا رب نجنى). ففى الحال مدّ المسيح يده وأمسك به ونشله، ثم وبخه بقوله: (يا قليل الإيمان، لماذا شككت؟). فصحّ فيه كلام داود النبى: (نَشَلَنِى مِنْ مِيَاهٍ كَثِيرَةٍ) (مزمور 18: 16).

نجا بطرس من الغرق لأن المسيح أمسك به، وهكذا نجاة الخاطئ عندما تكلّ يداه وتغمض عيناه ويرتخى تمسكه بالمخلّص، فلا يرى أمامه إلا الهلاك، ولكن متى أدرك أن المخلص المقتدر الذى لا ينام يمسك به يحلّ الرجاء عنده مكان اليأس.

لما ظن التلاميذ فى السفينة أنهم رأوا خيالاً، صرخوا ليبعدُوه عنهم. أما الآن فقبلوا أن يدخل السفينة، فصعد إليهم، وبمجرد دخوله إليها سكنت الريح وللوقت صارت السفينة إلى أرض جنيسارت، التى كانوا ذاهبين إليها.

ويذكر الإنجيل أن التلاميذ (لم يفهموا بالأرغفة، إذ كانت قلوبهم غليظة) فلما رأوا هذه المعجزة الثانية فى اليوم الواحد بُهتوا وتعجبوا جدًا مع أن المسيح أسكت هذا البحر من أجلهم منذ بضعة أشهر، وحالما وصلوا إلى الشاطئ تقدموا وسجدوا له سجودهم الأول كجماعة قائلين: (بالحقيقة أنت ابن الله).

لم أكن أتصور أن عبد القادر كان حاضرا فى ذلك المحل، فقد توجه للجمع بعد انتهاء بولس من حديثه قائلا: ليس الشأن أن نخالف ما وضعه الله فينا من قدرات، بل الشأن أن نخرق من أنفسنا ما يملؤها بالكدورات.

لقد حصل لكثير من الصالحين من جميع الأمم ما ذكره هذا الرجل من المشى على الماء، أو الطيران فى الهواء، ولكنهم لم يكونوا يبالون بكل ذلك.

لقد حدث أبو الحسين النورى عن ذلك، فقال: كان فى نفسى شىء من هذه الكرامات، فأخذت قصبة من الصبيان وقمت بين زورقين، ثم قلت: وعزّتك إن لم تخرج لى سمكة فيها ثلاثة أرطال لأغرقنّ نفسى، قال: فخرج لى سمكة فيها ثلاثة أرطال، فبلغ ذلك الجنيد فقال: كان حكمه أن تخرج له أفعى تلدغه.

وقيل لأبي يزيد: فلان يمشي في ليلة إلى مكة! فقال: الشيطان يمشي في ساعة من المشرق إلى المغرب في لعنة الله.

وقيل له: فلان يمشي على الماء، ويطير في الهواء، فقال: الطير يطير في الهواء، والسمك يمر على وجه الماء.

وقال سهل بن عبد الله: أكبر الكرامات أن تُبدل خُلقًا مذمومًا من أخلاقك.

وكان رجل يقال له عبد الرحمن بن أنس يصحب سهل بن عبد الله، فقال له يومًا: ربما أتوضأ للصلاة فيسيل الماء بين يدي قضبان ذهب وفضة، فقال سهل: أما علمت أن الصبيان إذا بكوا يعطون خشخشة ليشتغلوا بها؟

هنا قام أجير بولس ببلاهته المعهودة، وقال: أراك تقول هذا، لأنه لم يكن لنبيكم شيء من الطاقات.. لقد كان مجرد بشر كسائر البشر.. يحمل ضعف البشر، وفقر البشر.

قال عبد القادر: نعم.. لقد كان نبينا كذلك كما كان سائر الأنبياء ـ عليهم السلام ـ فالله تعالى اختار بحكمته أن يرسل للبشر بشرا مثلهم، وقد قال ردا على من طلب أن ترسل لهم ملائكة: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾﴾ [الأنعام].

ولهذا، فليس هناك من حرج في كون النبي بشرا كسائر البشر، بل إن من مهمته أن ينبه الناس إلى كونه مثلهم، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾﴾ [فصلت].

بل إن النبي ﷺ اختار أن يكون كسائر الناس بسيطا متواضعا عبدا، فقد روي أن رسول الله ﷺ بينما هو جالس، ومعه جبريل ﷺ، إذ انشق أفق السماء، فأقبل جبريل يدنو من الأرض، ويدخل بعضه في بعض، ويتضاءل فإذا ملك[1] قد مثل بين يدي رسول الله ﷺ، فقال: (السلام عليك يا محمد، إن ربك يقرئك السلام، أنا رسول ربك إليك، أمرني أن أخيرك: إن شئت نبيا عبدا، وإن شئت نبيا ملكا)، فنظرت إلى جبريل عليه السلام كالمستشير، فأشار إلى جبريل بيده، أن تواضع، فقلت: (بل نبيا عبدا، يا عائشة لو قلت: نبيا ملكا، ثم شئت لسارت معي الجبال ذهبا)، قالت عائشة: وكان رسول الله ﷺ بعد ذلك لا يأكل متكئا ويقول: (آكل كما يأكل العبد، وأجلس كما يجلس العبد)[2].

وعن حمزة بن عبيد الله بن عتبة قال: كانت في رسول الله خصال ليست في الجبارين، كان لا يدعوه أحمر، ولا أسود، إلا أجابه، وكان ربما وجد تمرة ملقاة فيأخذها، فيرمي بها إلى فيه، وإنه ليخشى أن تكون من الصدقة، وكان يركب الحمار عريا، ليس عليه شيء[3].

وعن جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ أخذ بيد مجذوم، فأدخله معه في القصعة، ثم قال له: (كل باسم الله، وثقة بالله، وتوكلا عليه)[4].

---

(1) وفي رواية: إن الله سبحانه تعالى أرسل إلى النبي ﷺ ملكا من الملائكة حجزته تساوي الكعبة، ما هبط على نبي قبلي، ولا يهبط على أحد بعدي، وهو إسرافيل عليه السلام، فقال: وأكمل الحديث.

(2) رواه أبو نعيم وابن عساكر من طرق عن ابن عباس موقوفا، وابن سعد عن عائشة، وأبو نعيم عن ابن عمر مرفوعا.

(3) رواه ابن سعد.

(4) رواه أبو داود والترمذي.

وعن عبد الرحمن بن جبر الخزاعى قال: بينما رسول الله ﷺ يمشى مع أصحابه إذ أخذ رجل منهم، فستره بثوب فلما رأى ما عليه، رفع رأسه، فإذا هو علاه قبلى ستر، فقال: (مه)، فأخذ الثوب، فوضعه، وقال: ﴿ ... إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ... ﴿١١٠﴾ ﴾ [الكهف][1].

وعن أبى المثنى الأملوكى ـ رضى الله عنه ـ قال: كان رسول الله ﷺ، ومن قبله من الأنبياء ـ عليهم السلام ـ يمشون على العصا، يتوكئون عليها، تواضعا لله عز وجل[2].

وعن أنس ـ رضى الله عنه ـ قال: كان رسول الله ﷺ يركب الحمار، ويردف بعده، ويجيب دعوة المملوك[3].

وعن أبى موسى ـ رضى الله عنه ـ قال: كان رسول الله ﷺ يركب الحمار، ويلبس الصوف، ويعقل الشاة، ويأتى مدعاة الضعيف[4].

وعن عبد الله بن أبى أوفى ـ رضى الله عنه ـ قال: كان رسول الله ﷺ يكثر الذكر، ويقل اللغو، ويطيل الصلاة، ويقصر الخطبة، ولا يأنف، ولا يستكبر أن يمشى مع الأرملة والمسكين يقضى لهما حاجتهما[5].

عن ابن عباس، وأنس - رضى الله عنهما - قالا: كان رسول الله ﷺ يجلس على الأرض، ويأكل على الأرض، ويعقل الشاة، ويجيب دعوة المملوك، ويقول: (لو دعيت إلى ذراع لأجبت، ولو أهدى إلى كراع لقبلت)[6].

وعن أنس ـ رضى الله عنه ـ قال: كان رسول الله ﷺ يركب الحمار، ويعود المريض، ويشهد الجنازة، ويأتى دعوة المملوك، وكان يوم بنى قريظة على حمار مخطوم بحبل من ليف، على إكاف من ليف[7].

وعن الحسن ـ رضى الله عنه ـ قال: والله ما كان رسول الله ﷺ تغلق دونه الأبواب، ولا يقوم دونه الحجاب، ولا يغدى عليه بالجفان، ولا يراح بها عليه، ولكنه كان بارزا، من أراد أن يلقى نبى الله ﷺ لقيه، كان يجلس على الأرض، ويطعم ويلبس الغليظ، ويركب الحمار، ويردف خلفه، ويلعق يده[8].

وعن ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ كلم رجلا فأرعد، فقال: (هون عليك، فإنى لست بملك، إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديدة)[9].

وعن عبد الله بن بسر قال: أهديت إلى رسول الله ﷺ شاة فجثا على ركبتيه، فأكل، فقال أعرابى: يا رسول الله ما هذه الجلسة؟ فقال: (إن الله عز وجل جعلنى عبدا كريما، ولم يجعلنى جبارا عنيدا)[10].

---

(1) رواه ابن أبى شيبة وعلى بن عبد القدير البغوى.

(2) رواه ابن الأعرابى.

(3) رواه ابن سعد.

(4) رواه الحاكم.

(5) رواه الدارمى.

(6) رواه أبو الشيخ عن ابن عباس، وابن سعد عن أنس.

(7) رواه الترمذى.

(8) رواه أحمد فى الزهد، وابن عساكر - وقال هذا حديث مرسل - وقد جاء معناه فى الأحاديث المسندة.

(9) رواه ابن ماجه.

(10) رواه ابن ماجه.

وعن أنس ـ رضى الله عنه ـ قال: إن كـانت الوليدة من ولائد أهل المدينة لتـجئ فتأخـذ بيد رسول الله ﷺ، فما ينزع يده من يدها، حتى تذهب به حيث شاءت من المدينة[1].

وقد روى أن رسول الله ﷺ مر بغلام يسلخ شاة. فقال له رسول الله ﷺ: (تنح حتى أريك. فإنى لا أراك تحسن تسلخ)، فأدخل رسول الله ﷺ يده بين الجلد واللحم، فدخس بهـا حتى توارت إلى الإبط، ثم قال: (يا غلام هكذا فاسلخ)[2].

وعن أنس ـ رضى الله عنه ـ قال: كان رسول الله ﷺ إذا صلـى الغداة جاءه خدم أهل المدينة بآنيتهم فيها الماء فما يؤتى بإناء إلا غمس يده فيه، فربما جاءوه فى الغداة الباردة، فيغمس يده فيها[3].

قام أجير بولس، وقال: ما أراك تقول هذا الكلام إلا هربا من الحقيقة.

قال عبد القادر: ما الحقيقة التى أهرب منها؟

قال أجير بولس: الحـقيقة المعروفة عند الجميـع.. وهى أن نبيكم لم تخرق له أى عادة، ولم تكن له أى طاقة.

قال عـبد القادر: كأنى بك تسـتفزنى للحـديث عن ذلك.. فإن شاء الجـمع أن أحدثهم عن بعض الطاقات العظيمة التى حبا الله بها نبيه (ليؤدي الرسالة التى كلف بها حدثتهم.

أشار الجمع بالإيجاب، وقد لاحظت سرورا على وجه بولس كان يحاول إخفاءه.

***

(1) رواه أبو بكر بن أبى شيبة.

(2) رواه أبو داود، وابن ماجه، وابن حبان، وقاسم بن ثابت، والطبرانى عن أبى سعيد وغيره من الصحابة.

(3) رواه مسلم.

## 1 - الوحى

نظر عبد القادر إلى الجمع الملتف حوله، وقال: أول طاقة حبا الله بها أنبياء،، بما فيهم المسيح ومحمد ـ عليهما الصلاة والسلام ـ طاقة تلقى الوحى .

إن هذه الطاقة طاقة عظيمة لا يمكن تصورها. . إنها اتصال الإنسان الضعيف القاصر بالعالم الآخر. .

ولهذا عبر القرآن الكريم عن ثقل الوحى، فقال تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً ﴿٥﴾﴾ [المزمل].

وقد ذكر القرآن الكريم أن كلام الله لعبادة لا يتم إلا من خلال ثلاثة أمور، فقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ [الشورى].

ومعنى الوحى أن يلقى الله المعنى فى القلب، أى أن الله تعالى يقذف فى روع النبى ﷺ شيئا لا يمارى فيه أنه من الله تعالى، كما قال ﷺ: إن روح القدس نفث فى روعى أن نفسا لن تموت حتى تستكمل رزقها وأجلها، فاتقوا الله واجملوا فى الطلب[1].

والثانى تكليمه من وراء حجاب، كما كلم الله موسى عليه السلام، فقد سمع النداء من وراء الشجرة، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [القصص].

والثالث نزول أمين الوحى جبريل عليه السلام، كما روى فى الحديث عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ أن الحارث بن هشام سأل رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله: كيف يأتيك الوحى؟ فقال: أحيانا يأتينى مثل صلصلة الجرس، وهو أشده على، فيفصم عنى ـ أى يقلع ـ وقد وعيت عنه ما قال ـ أى حفظت ـ وأحيانا يتمثل لى الملك رجلا فيكلمنى فأعى ما يقول[2].

وقد كان هذا النوع الأخير هو النوع الذى تنزل به القرآن الكريم، وقد كان أثقل الوحى على رسول الله ﷺ، وإنما كان كذلك لأنه انسلاخ من البشرية واتصال بالروحانية.

أما الثانية فأخفها؛ لأنها انتقال ملك الوحى من الروحانية إلى البشرية بسهولة ويسر، بإذن من الله تعالى.

وقد وصف المعايشون لرسول الله ﷺ كيف كان يأتيه هذا النوع من الوحى، وهو بحد ذاته دليل على أنه حقيقة ملموسة لا علاقة لها بأى مرض كما يشيع المرجفون.

فقد وصفت عائشة ـ رضى الله عنه ـ شدة الوحى على رسول الله ﷺ، فقالت: إن كان ليوحى إلى رسول الله ﷺ وهو على راحلته، فتضرب بجرانها فما تستطيع أن تتحرك حتى يسرى عنه وتلت الآية[3].

وقالت: لقد رأيته ـ تعنى النبى ﷺ ـ ينزل عليه الوحى فى اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقا[4].

وقالت: كان رسول الله ﷺ إذا أنزل عليه الوحى يغط فى رأسه ويتربد وجهه ويجد بردا فى ثناياه ويعرق حتى لينحدر منه مثل الجمان[5].

---

(1) رواه ابن حبان.
(2) رواه البخارى.
(3) رواه أحمد وعبد بن حميد وابن جرير والحاكم وصححه.
(4) رواه البخارى.
(5) رواه ابن سعد.

وقال زيد بن ثابت ـ رضى الله عنه ـ: أنزل على رسول الله ﷺ وفخذه على فخذى، فكادت فخذه ترض فخذى[1].

وقال أبو أروى الدوسى ـ رضى الله عنه ـ: رأيت الوحى ينزل على رسول الله ﷺ، وإنه على راحلته، فترغو وتفتل يديها حتى أظن أن ذراعها تنقصم، فربما بركت وربما قامت موتدة يديها حتى يسرى عنه عن ثقل الوحى، وإنه ليتحدر منه مثل الجمان[2].

وقال عبادة بن الصامت ـ رضى الله عنه: كان رسول الله ﷺ إذا نزل عليه الوحى كرب لذلك وتربد وجهه وغمض عينيه[3].

وقال أبو هريرة ـ رضى الله عنه ـ: كان رسول الله ﷺ إذا أوحى إليه لم يستطع أحد منا يرفع طرفه إليه حتى يقضى الوحى[4].

وقالت أسماء بنت يزيد ـ رضى الله عنها ـ: كنت آخذة بزمام ناقة رسول الله ﷺ حين أنزلت عليه سورة المائدة فكاد يتكسر عضدها من ثقل السورة[5].

وقال ابن عمر ـ رضى الله عنه ـ: أنزلت على رسول الله ﷺ سورة المائدة وهو راكب على راحلته فلم تستطع أن تحمله فتزل عنها.

وقال: سألت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله هل تحس بالوحى؟ فقال رسول الله ﷺ: أسمع صلاصل ثم أسكت عند ذلك، فما مرة يوحى إلى إلا ظننت أن نفسى تقبض[6].

وكان يعلى بن أمية يقول: ليتنى أرى رسول الله ﷺ حين ينزل عليه الوحى، فلما كان النبى ﷺ بالجعرانة وعليه ثوب قد أضل عليه، ومعه ناس من أصحابه فيهم عمر، إذ جاءه رجل متضمخ بطيب، فقال: يا رسول الله كيف ترى فى رجل أحرم فى جبة بعد ما تضمخ بطيب فنظر رسول الله ﷺ، ثم سكت، فجاءه الوحى، فأشار عمر: أن تعال، فجاء يعلى، فأدخل رأسه، فإذا هو محمر الوجه يغط، ما يغط البكر، كذلك ساعة ثم سرى عنه، الحديث[7].

وقال ابن عباس ـ رضى الله عنه ـ: كان رسول الله ﷺ إذا أنزل عليه الوحى تربد لذلك جسده ووجهه وأمسك عن أصحابه ولم يكلمه أحد منهم[8].

قال أجير بولس: ألا ترون ـ أيها الجمع ـ إلى هذه الخرافات التى يلقيها هذا الرجل.. كيف يمكن لعقل أن يقبل باتصال محمد ذلك البدوى الأمى بالسماء.. كيف يمكن أن يحصل منه هذا الاتصال بالعالم الآخر؟

ابتسم عبد القادر، وقال: لاشك أنك مسيحى، ومخلص للمسيحية.

قال أجير بولس: لو لم يهدنى عقلى إليها ما آمنت بها.

قال عبد القادر: لقد ورد فى الكتاب المقدس اتصال الله بكثير من أنبيائه.. بل ليس هناك نبى إلا واتصل بالله، ونزل عليه وحى من الله.. أم أنك تنكر ذلك.

(1) رواه البخارى ومسلم.
(2) رواه ابن سعد.
(3) رواه مسلم.
(4) رواه مسلم.
(5) رواه أحمد والطبرانى.
(6) رواه أحمد.
(7) رواه البخارى ومسلم.
(8) رواه أبو داود الطيالسى.

فإن كنت تنكر ذلك.. فإن كل النبوءات التى على أساسها تقيم إيمانك بالمسيح غير صحيحة..

وإن كنت تنكر أن يختص الله محمدا بالنبوة لكونه عربى، فأنت لا تختلف عن الشيطان الذى قال لآدم عليه السلام: ﴿... أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾ [الأعراف].

فالشيطان هو الذى أراد أن يحجر على الله فضله على عباده، وعلى دربه سار الإسرائيليون الذين تتلقون عنهم الدين حين جعلوا فضل الله محصورا فى نسل معين من بنى إسرائيل امتلأ بالكبر والغرور.

أما نحن المسلمين، فنعتقد أن هذا الفضل يمن الله به على من يشاء من عباده، ونعتقد فوق ذلك ما قاله القرآن الكريم من أنه لم تخل أمة من الأمم من وحى الله، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾ [فاطر].

ولكن مع ذلك.. فسأجيب عن سؤالك لا باعتبارك مسيحيا مخلصا فى مسيحيته، بل باعتبارك رجلا صاحب عقل، يتصور أن عقله يمنعه من الإيمان بالوحى[1].

إننا - اليوم - نستطيع أن نفهم هذه المسألة بسهولة تامة بفضل الحقائق المعلومة.

إن هناك وقائع كثيرة جدا تجرى من حولنا فى كل لحظة، ونحن نعجز عن إدراكها، أو سماعها، أو الإحساس بها بوساطة أجهزتنا العصبية، وقد استطاع العلم الحديث أن ييسر لنا إدراكها بفضل الأجهزة العلمية التى اخترعناها.

وهذه الأجهزة تستطيع أن تدل على صوت ذباب طائر على بعد بضعة أميال، وكأنه يطير عند أذنك.

ومن الأجهزة العلمية ما وصل التقدم فيه إلى حد أنها تسجل صدام الأشعة الكونية فى الفضاء.

لقد اخترعنا آلات كثيرة أثبتت أنها تستطيع إدراك كثير من الأحداث التى لا يمكننا سماعها بالطرق السمعية التقليدية.

وهذه الطاقة غير العادية للسماع لا تخص الآلات العلمية الحديثة، وإنما وهبها الله لبعض الحيوانات أيضا.

ومما لا شك فيه أن جهاز سماع الإنسان محدود جدا، ولكن أجهزة بعض الحيوانات تختلف كل الاختلاف؛ فالكلب، مثلا، يستطيع أن يشم ريح الحيوان الذى مر من الطريق، ومن ثم استغلت الكلاب فى البحث عن الجرائم والمجرمين.

وهناك حيوانات كثيرة تسمع أصواتا تخرج عن نطاق أسماعنا، وقد أثبتت البحوث فى هذا الميدان أن بعض الحيوانات يتمتع بقوة (الإشراق) Telepathy. فلو أنك وضعت حشرة مما يطلق عليه (Moth)، أو (العثة)، وهى حشرة مجنحة-على نافذة مفتوحة، فستحدث صوتا يسمعه زوجها على مسافة بعيدة جدا، ولسوف يجيبها هذا الزوج أيضا بطريقته.

وهناك نوع خاص من هذه الحشرات يدعى (الجندب)، يحك رجليه وجناحيه ويصوت بطريق غير عادية، ويسمع على مبعدة نصف ميل وهو يحرك فى هذه العملية ستمائة طن من الهواء، ليدعو زوجه وهذه الزوج ترسل أيضا وهى ساكنة بلا حراك جوابا لا نعرفه، إنما يعرفه الجندب الذكر ثم يلحق بها أينما كانت.

---

(1) انظر: الإسلام يتحدى، لوحيد الدين خان.

وقد أثبتت البحـوث أيضا أن (أبو النطيط) العادى Grasshoper لديه قدرة خارقـة على السماع حتى إنه يستطيع أن يسمع ويحس الحركة التى تحدث فى نصف قطر من ذرة الهيدروجين.

وهناك أمثلة أخرى كثيرة، تؤكد إمكان وجود وسائل غير مرئية لدى ذوى الحواس الخاصة.

وإذا كان الأمر كذلك فما وجه الغرابة فى ادعاء إنسان أنه يسمع صوتا من لدن ربه، لا يدركه عامة الناس مـا دام من الممكن أن توجد فى هذا العالم حركـات وأصوات لا تسمعـها آذان الإنسان، ولكن تسجلها الآلات؟ وما دامت هناك رسائل تدركها حيوانات دون أخرى؟

إن الله تعالى- لحكمة يعلمها- يرسل رسائله بوسائل خافتة خفية إلى الإنسان المختار للرسالة بعد أن يودع فيه صلاحية التقاطها وفهمها، فليس هناك من تصادم فى الحقيقة، بين مشاهداتنا وتجاربنا العلمية، فهو واقع من الوقائع الكثيرة التى نشاهدها ونجربها فى أمكنة وطرق مختلفة، فالوحى إمكان وجدناه فى شكل الواقع بعد التجربة.

وقد تبين أن تجارب الإشراق أو الانكشاف ومعرفة الغيب لا تخص الحيوانات، وإنما توجد فى الإنسان (بالقوة)، يقول الـدكتور ألكسيس كريل: إن حدود الفرد فى إطار الـزمان والمكان هى مجرد افتراض، فـيستطيع عامل الإشـراق أن يجعلك تنام، وتضحك أو تبكى، كمـا يستطيع أن ينقل إليك كلمات أو خواطر، لسـت على علم بها. إنها عملية لا تسـتعمل فيـها أية وسائل ولا يشعر بهـا غير عامل الإشراق وصاحبه.

كيف يستحيل وقوع هذه العملية نفسها بين العبد وربه؟ إننا بعد الإيمان بالله، والاطلاع على هذه التجارب الكثيرة بما ذلك الإشراق، لا نجد أساسا لإنكار الوحى والإلهام.

وقد حدث سنة 1950 أن المسئولين فى (بافاريا) رفعوا قـضية ضـد أحد النمسويين، واسـمه (فرنتر ستروبيل)، بتهمة التدخل فى برامج الإذاعة عن طريق الإشراق.

وكان فـرنتر ستروبيل يستعرض أعـماله فى فندق ريجينا، بميـونيخ، عندما ناول أوراق لعب الكوتشينة إلى أحد المتفـرجين، وطلب إليه اختيار ورقة مـا، وادعى أنه سوف ينقل اسم تلك الورقة واسم الفندق مع ترتيبـهما، كما هما فـى ذهن المتفرج، إلى المذيع الذى كان يقرأ الأخـبار من إذاعة ميونيخ المحلية، ذلك دون أن يعرف المذيع نفسه شيئا من هذا.

بعد ثوان سمع الناس صوت مذيع مرتعش، هو يقـول: (فندق ريجينا- بنت البستونى) وكان الترتيب واسم الورقة صحيحين، كما أراد المتفرج.

وكان الارتعاش والرهبة واضحين فى صوت المذيع ولكنه واصل قراءة الأخبار.

استـغرب الكثيرون من المستمعيـن من سكان ميونيخ، واتصل مئـات منهم تليفونيـا بالإذاعة يستفـسرون عن السر الغامض، فكان من الصـعب عليهم إدراك علاقة الأخبـار (بفندق ريجينا- بنت البستـونى): وحضر طبيب الإذاعـة للكشف على المذيع، فوجده فى حـالة اضطراب خطيرة، وأدلى المذيع ببيانه قائلا: (إننى شعرت بصداع شديد فى رأسى، ولا أعرف ماذا حدث بعد ذلك!).

وقد عرض العلماء نـظريات عديدة لشرح هذه الصور من عملية الإشـراق، ومنها أن أمواجا تصدر من المخ وتنتشر فى العالم أجمع بسرعـة فائقة، ولذلك سموها بنظرية الموجة المخية Brain Wave Theory.

فإذا كان الإنسـان ـ كـما يرى هؤلاء العلماء ـ يستطيع تحويل الأفكار بأكـملها إلى إنسان آخر، على بعد غير عادى، وبدون استعمال أى واسطة مادية ظاهرية، فلماذا تستحيل نفس العملية بين الإله وعباده؟

إن هذا المظهر من كفاءة قوى الإنسان، وأمثلته كثيرة لا تحصى، ليس إلا قرينة تجريبية تجعلنا نفهم علاقة الألفاظ والمعاني التي تربط العبد بالإله عندما يرسل رسالاته.

إن الإشراق أمر معروف لدى الناس، وهو يدلنا على فهم ذلك النظام الإشراقي العظيم بين الإله والعباد.

قال رجل من الجمع: ولكن الوحي أخطر بكثير من هذه الأمثلة الإشراقية التي ذكرتها..

قال عبد القادر: ليس هناك شيء لدى أي شخص من الناس يشبه الوحي.. لأن الوحي خاص بالأنبياء ـ عليهم السلام ـ.

سكت قليلا، ثم قال: لقد ورد في السيرة بأسانيد كثيرة ما يدل على أن محمدا ﷺ هيئ جسميا لهذا الوحي، كما هيئ للوظائف الكبرى التي يقوم بها.

وهذه التهيئة هي ما يسمى حادثة شق الصدر.

فقد تكرر شق صدره الشريف ﷺ ـ كما يذكر علماء السيرة ـ أربع مرات:

أما الأولى، وهو ﷺ صغير في بني سعد، فعن أنس ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ أتاه جبريل وهو يلعب مع الغلمان، فأخذه فصرعه فشق عن قلبه واستخرج القلب ثم شق القلب فاستخرج منه علقة فقال: هذا حظ الشيطان منك، ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم، ثم لأمه فأعادة مكانه.

وجعل الغلمان يسعون إلى أمه ـ يعني ظئره حليمة ـ فقالوا: إن محمدا قد قتل فجاءوه وهو منتقع اللون.

قال أنس: فلقد كنت أرى أثر المخيط في صدره ﷺ[1].

وعن عتبه بن عبد السلمي ـ رضي الله عنه ـ، أن رسول ﷺ قال: كانت حاضنتي من بني سعد بن بكر، فانطلقت أنا وابن لها في بهم لنا ولم نأخذ معنا زادا فقلت: يا أخي اذهب فائتنا بزاد من عند أمنا.

فانطلق أخي ومكثت عند البهم فأقبل إلى طائران كأنهما نسران، فقال أحدهما لصاحبه: أهو هو؟ قال: نعم، فأقبلا يبتدراني فأخذاني فبطحاني للقفا فشقا بطني ثم استخرجا قلبي فشقاه فأخرجا منه علقتين سوداوين فقال أحدهما لصاحبه: إيتني بماء ثلج فغسلا به جوفي، ثم قال: إيتني بماء برد فغسلا به قلبي، ثم قال: إيتني بالسكينة فذراها في قلبي، ثم قال أحدهما لصاحبه: حصه، فحاصه وختم عليه بخاتم النبوة، وذكر الحديث[2].

أما المرة الثانية، فقد حصلت له ﷺ وهو ابن عشر سنين، فعن أبي بن كعب ـ رضي الله عنه ـ أن أبا هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: يا رسول الله ما أول ما ابتدئت به من أمر النبوة؟ قال: إني لفي صحراء أمشي ابن عشر حجج إذا أنا برجلين فوق رأسي يقول أحدهما لصاحبه: أهو هو؟ قال نعم.

فأخذاني فاستقبلاني بوجوه لم أرها لخلق قط وأرواح لم أرها من خلق قط، وثياب لم أرها على أحد قط، فأقبلا إلي يمشيان حتى أخذ كل واحد منهما بعضدي لا أجد لأخذهما مسا، فقال أحدهما لصاحبه: أضجعه.

فأضجعاني لا قصر ولا هصر وفي لفظ: فقلباني لحلاوة القفا ثم شقا بطني[3].

(1) رواه أحمد ومسلم.

(2) رواه أحمد والدارمي والحاكم وصححه والطبراني والبيهقي وأبو نعيم.

(3) وفي لفظ فقال أحدهما لصاحبه: افلق صدره.

فخوى أحدهما إلى صدرى ففلقه فيما أرى بلا دم ولا وجع، فكان أحدهما يختلف بماء فى طست من ذهب، والآخر يغسل جوفى، فقال أحدهمـا لصاحبه: افلق صدره فإذا صدرى فيما أرى مفلوقا لا أجد له وجعا.

ثم قال: شق قلبه، فشق قلبى فقال: أخرج الغل والحسد منه، فأخرج شبه العلقة فنبذ به، ثم قال: أدخل الرأفة والرحمة فى قلبه، فأدخل شيئا كهيئة الفضة، ثم أخرج ذرورا كان معه فذره عليه ثم نقر إبهامى ثم قال: اغد واسلم، فرجعت بما لم أغد به من رحمتى للصغير ورأفتى للكبير[1].

أما المرة الثالثة، فعند المبعث، فعن عائشة ـ رضى الله عنه ـ أن النبى ﷺ نذر أن يعتكف شهرا هو وخديجة، فوافق ذلك شهر رمضان فخرج ذات ليلة، فسمع: السلام عليك.

قال: فظننت أنها فجاءة الجن، فجئت مسرعا حتى دخلت على خديجة فقالت: ما شأنك؟ فأخبرتها فقالت: أبشر فإن السلام خير.

ثم خرجت مرة أخرى فإذا أنا بجبريل على الشمس له جناح بالمشرق وجناح بالمغرب، فهلت منه فجئت مسرعا، فإذا هو بينى وبين الباب، فكلمنى حتى أنست منه، ثم وعدنى موعدا، فجئت له فابطأ على فأردت أن أرجع فإذا أنا به وبميكائيل قد سد الأفق فهبط جبريل وبقى ميكائيل بين السماء والأرض، فأخذنى جبريل فألقانى لحلاوة القفا، ثم شق عن قلبى، فاستخرجه ثم استخرج منه ما شاء الله أن يستخرج ثم غسله فى طست من ماء زمزم ثم أعاده مكانه ثم لأمه ثم أكفأنى كما يكفأ الإناء ثم ختم فى ظهري حتى وجدت مس الخاتم فى قلبى، وذكر الحديث[2].

أما المرة الرابعة، فليلة الإسراء، فعن أنس ـ رضى الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: أتيت وأنا فى أهلى فانطلق بى إلى زمزم فشرح صدرى، ثم أتيت بطست من ذهب ممتلئا حكمة وإيمانا فحشى بهما صدرى، قال أنس: والنبى ﷺ يرينا صدره، فعرج بى الملك إلى سماء الدنيا، وذكر حديث المعراج[3].

وعن مالك بن صعصعة ـ رضى الله عنه ـ أن النبى ﷺ حدثهم عن ليلة أسرى به قال: بينما أنا فى الحطيم مضطجعا إذ أتانى آت فجعل يقول لصاحبه: الأوسط من الثلاثة، فأتانى فشق ما بين هذه إلى هذه يعنى من ثغرة نحره إلى شعرته، فاستخرج قلبى، فأتيت بطست من ذهب مملوءة إيمانا وحكمة فغسل قلبى ثم حشى ثم أعيد، ثم أتيت بدابة دون البغل وفوق الحمار[4].

فهذه الروايات كلها تدل على أن النبى ﷺ هُيئ جسميا لتلقى الرسالة وما يرتبط بها من وحى وغيره، فثقل الوحى يستدعى طاقات خاصة.

***

---

(1) رواه عبد الله بن أحمد فى زوائد المسند بسند رجاله ثقات، وابن حبان والحاكم وأبو نعيم وابن عساكر والضياء، فى (المختارة).

(2) رواه أبو داود الطيالسى والحارث بن أبى أسامة فى مسنديهما، والبيهقى وأبو نعيم كلاهما فى الدلائل.

(3) رواه مسلم.

(4) رواه البخارى ومسلم

## 2 - الإستبصار

نظر عبد القادر إلى الجمع الملتف حوله، فرأى فيهم اهتماما كبيرا لما يقول، فقال: هناك طاقة أخرى من الطاقات القريبة من الوحى، ولو أنها لم تكن تحتاج تنزل ملك.

قالوا: ما هى هذه الطاقة؟

قال عبد القادر: هى طاقة الاستبصار.. فالنبى ﷺ كان يبصر أشياء لا طاقة لغيره بإبصارها، ويسمع أشياء لا طاقة لغيره بسماعها.

قالوا: حدثنا عن ذلك.

قال: من ذلك رؤيته الفتن، فعن أسامة بن زيد ـ رضى الله عنه ـ قال: أشرف رسول الله ﷺ على أطم من آطام المدينة، فقال: (هل ترون ما أرى؟ إنى لأرى مواقع الفتن تقع خلال بيوتكم كوقع المطر)[1].

وعن بلال ـ رضى الله عنه ـ قال: رفع رسول الله ﷺ بصره إلى السماء، فقال: (سبحان الذى يرسل عليهم الفتن إرسال القطر)[2].

ومن ذلك رؤيته الدنيا وسماع كلامها، فعن أبى بكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ قال: كنت مع رسول الله ﷺ فرأيته يدفع عن نفسه شيئا، ولم أر معه أحدا، فقلت: يا رسول الله، ما الذى تدفع؟ قال: هذه الدنيا مثلت لى، فقلت لها: إليك عنى، ثم رجعت فقالت: إن أفلت منى فلن ينفلت منى من بعدك[3].

ومن ذلك قوله ﷺ: (أتتنى الدنيا خضرة حلوة ورفعت لى رأسها وتزينت لى، فقلت: لا أريدك، فقالت: إن انفلت منى لم ينفلت منى غيرك)[4].

ومن ذلك رؤيته الجمعة والساعة، فعن أنس ـ رضى الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: (أتانى جبريل، وفى يده مرآة بيضاء فيها نكتة سوداء، قلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذه الجمعة، يعرضها عليك ربك، لتكون لك عيدا ولقومك، قلت: ما هذه النكتة السوداء فيها؟ قال: هذه الساعة)[5].

ومن ذلك ما اطلع عليه من أحوال البرزخ والجنة والنار، فعن الحسين ابن على ـ رضى الله عنه ـ قال: لما توفى القاسم ابن رسول الله ﷺ قالت خديجة ـ رضى الله عنها ـ وددت لو كان الله أبقاه حتى يستكمل رضاعه، فقال رسول الله ﷺ: (إن تمام رضاعه فى الجنة)، قالت: لو أعلم ذلك يا رسول الله يهون على أمره، قال: (إن شئت دعوت الله عز وجل يسمعك صوته)، قالت: بل أصدق الله ورسوله[6].

ومن ذلك ما روى عن زيد بن ثابت ـ رضى الله عنه ـ قال: بينما رسول الله ﷺ فى حائط بنى النجار على بغلة له، ونحن معه إذ جادت به فكادت تلقيه، وإذا بقبر ستة أو خمسة، فقال: (من يعرف أصحاب هذه الأقبر؟)، فقال رجل: أنا، فقال: قوم هلكوا فى الجاهلية فقال: (إن هذه الأمة تبتلى فى قبورها، فلولا أن تدافنوا لدعوت الله عز وجل أن يسمعكم من عذاب القبر)[7].

---

(1) رواه البخارى ومسلم.

(2) رواه الطبرانى.

(3) رواه البيهقى والحاكم وصححه.

(4) رواه أحمد فى الزهد عن عطاء بن يسار مرسلا.

(5) رواه البزار وأبو يعلى والطبرانى وابن أبى الدنيا من طرق جيدة.

(6) رواه ابن ماجه.

(7) رواه مسلم.

ومن ذلك ما روى عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال: مر رسول الله ﷺ على قبرين، فقال: (إنهما ليعذبان، أما أحدهما فكان لا يستبرئ من بوله وأما الآخر فكان يمشى بالنميمة بين الناس)(1).

ومن ذلك ما روى عن أسماء ـ رضى الله عنها ـ قالت: كسفت الشمس، فصلى رسول الله ﷺ ثم حمد الله، وأثنى عليه، ثم قال: (ما من شيء لم أكن رأيته إلا رأيته فى مقامى هذا حتى الجنة والنار)(2).

ومن ذلك ما روى عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال: انكسفت الشمس على عهد رسول الله ﷺ فصلى، ثم انصرف، فقالوا: يا رسول الله، رأيناك تناولت شيئا فى مقامك هذا ثم رأيناك تكعكعت قال: (إنى رأيت الجنة، فتناولت عنقودا، ولو أصبته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا، ورأيت النار فلم أر منظرا كاليوم قط أفظع ورأيت أكثرها النساء)(3).

ومن ذلك ما روى عن أنس ـ رضى الله عنه ـ قال: صلى رسول الله ﷺ ذات ليلة صلاة، فمد يده ثم أخرها فسألناه، فقال: (إنه عرضت على الجنة، فرأيت قطوفها دانية، فأردت أن أتناول منها شيئا، وعرضت على النار فيما بينكم وبينى كظلى وظلكم فيها)(4).

وعنه، قال: بينا رسول الله ﷺ وبلال يمشيان فقال: (يا بلال، هل تسمع ما أسمع؟)، قال: لا والله يا رسول الله، ما أسمع شيئا، قال: (ألا تسمع أهل القبور يعذبون؟)(5).

ومن ذلك ما روى عن أبى أمامة ـ رضى الله عنه ـ قال: أتى رسول الله ﷺ بقيع الغرقد، فوقف على قبرين ثريين، قال: (أدفنتم هاهنا فلانا وفلانة؟)(6) قالوا: نعم، قال: (قد أقعد فلان الآن يضرب)، ثم قال: (والذى نفسى بيده، لقد ضرب ضربة سمعها الخلائق إلا الثقلين ولولا تمريج قلوبكم وتزيدكم فى الحديث لسمعتم ما أسمع)، ثم قال: (الآن يضرب هذا)، ثم قال: (والذى نفسى بيده، لقد ضرب ضربة ما بقى منه عظم إلا انقطع)، وقال: (تطاير قبره نارا)، قالوا: يا رسول الله، وما ذنبهما؟ قال: (أما هذا فإنه كان لا يستبرئ من البول، وأما هذا فكان يأكل لحوم الناس)(7).

ومن ذلك ما روى عن عمران بن الحصين وعبد الله بن عمرو ـ رضى الله عنهما ـ أن رسول الله ﷺ قال: (اطلعت فى الجنة فرأيت أكثر أهلها الضعفاء والفقراء، واطلعت فى النار فرأيت أكثر أهلها الأغنياء)(8).

ومن ذلك ما روى عن عقبة بن عامر ـ رضى الله عنه ـ قال: صليت مع رسول الله ﷺ يوما فأطال القيام، وكان إذا صلى لنا خفف، فرأيته أهوى بيده ليتناول شيئا ثم ركع بعد ذلك، فلما سلم رسول الله ﷺ قال: (علمت أنه راعكم طول صلاتى وقيامى)، قلنا: أجل، يا رسول الله، وسمعناك تقول: (أى رب، وأنا فيهم؟)، فقال رسول الله ﷺ: (والذى نفسى بيده، ما من شيء وعدتموه فى الآخرة إلا قد عرض على فى مقامى هذا حتى عرضت على النار، فأقبل منها حتى حاذى خبائى هذا

---

(1) رواه مسلم.
(2) رواه البخارى.
(3) رواه البخارى.
(4) رواه الحاكم.
(5) رواه الحاكم، ورواه أحمد برجال الصحيح بلفظ قال: صاحب القبر يعذب، فسئل عنه، فوجده يهوديا.
(6) أو قال: «فلانا وفلانا؟».
(7) رواه ابن خزيمة فى كتاب السنة.
(8) رواه أحمد بإسناد جيد عن عبد الله بن عمر والطبرانى برجال ثقات عن عمران بن حصين، فى رواية عمران: (النساء)، وفى رواية ابن عمرو: (الأغنياء)

فخشيت أن تغشاكم فقلت: أى رب، وأنا فيهم؟ فصرفها الله تعالى عنكم، فأدبرت قطعا كأنه الزرابى فنظرت نظرة، فرأيت عمر بن حرثان بن الحارث أحد بنى غفار متكئا فى جهنم على قوسه. ورأيت فيها الحميرية صاحبة القطة التى ربطتها، فلا هى أطعمتها ولا هى سقتها)[1].

ومن ذلك ما روى عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت: قال رسول الله ﷺ: (رأيت جهنم يحطم بعضها على بعض ورأيت عمرا بن عامر الخزاعى يجر قصبه وهو أول من سيب السوائب)[2].

ومن ذلك ما روى عن جابر بن عبد الله وأبى بن كعب ـ رضى الله عنهما ـ قالا: بينما نحن صفوفا خلف رسول الله ﷺ فى الظهر أو العصر إذ رأيناه يتناول شيئا بين يديه فى الصلاة ليأخذه، ثم يتناوله ليأخذه ثم حيل بينه وبينه، ثم تأخر وتأخرنا ثم تأخر الثانية وتأخرنا فلما سلم، قال أبى بن كعب: يا رسول الله، رأيناك اليوم تصنع فى صلاتك شيئا لم تكن تصنعه، قال: (إنى عرضت لى الجنة بما فيها من الزهرة والنضرة، فتناولت قطفا منها لآتيكم به، ولو أخذته لأكل منه مَنْ بين السماء والأرض لا ينقصونه فحيل بينى وبينه، ثم عرضت على النار فلما وجدت حر شعاعها، تأخرت، وأكثر من رأيت فيها النساء اللاتى إن ائتمن أفشين، وإن سئلن أخفين، وإن أعطين لم يشكرن، ورأيت فيها لحى بن عمرو يجر قصبه في النار وأشبه من رأيت به معبد بن أكتم)، قال معبد: أى رسول الله يخشى على من شبهه فإنه والد، قال: (لا، أنت مؤمن وهو كافر، وهو أول من جمع العرب على عبادة الأصنام)[3].

---

(1) رواه الطبرانى بإسناد جيد.

(2) رواه البخارى.

(3) رواه أحمد، ورواه أيضا عن أبى بن كعب.

# 3 - التسخير

قام رجل من الجمع، وقال: لقـد أعطى سليمان طاقات كثيرة، فقـد كان يسمع منطق الطير. بل ورد فى القرآن أنه كان يسمع صوت النمل، ويضحك من حديثها.

ابتسم عبـد القادر، وقـال: ذاك سليمـان ﷺ، وقد عـاش فى واقع تطلب أن يكون بتلك المواصفات، ولذلك دعا ربه أن يهبـه ملكا لا ينبغى لأحد من بعده[1]، فقال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾﴾ [ص].

وقد راعى رسول الله ﷺ هذه الدعـوة، فقد روى بأسانيد مـختلفة[2] أن رسول الله ﷺ كان يصلى صلاة الصبح، فقرأ فالتبست عليه القراءة، قال أبو الدرداء: قام رسول الله ﷺ فسمعناه يقول: (أعوذ بـالله منك)، ثم قال: (ألعنك بلعنـة الله ثلاثا)، وبسط يده كأنه يتناول شيـئـا، فلما فـرغ من صلاته، قلنا يا رسول الله، قد سـمعناك تقول فى الصلاة شيئا لم نسـمعك تقوله قبل ذلك، ورأيناك بسطت يدك، قال: (إن عدو الله إبليس جاء بشهاب من نار ليجعله فى وجهى).

فلما فرغ من صلاته قال: (لو رأيتمونى وإبليس فـأهويت بيدى فما زلت أخنقه حتى وجدت برد لعابه بين أصـبعى هاتين الإبهام والتى تليـها، ولقد هممت أن أوثقـه إلى سارية، حتى تصـبحوا وتنظروا إليه، فذكرت قول أخى سليمان: ﴿... وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي ... ﴿٣٥﴾﴾ [ص]، فرده الله تعالى خائبا، ولولا دعوة أخى سليمان لأصبح مربوطا بسارية من سوراى المسجد تتلاعب به صبيان المدينة.

قام أجـير بولس، وقال: فلم يـرو عن محمـد شيء مما يرتبط بطاقات سليـمان من تسخـير الأشياء له، وسماعه أصواتها.

قال عبد القادر: لا.. بل روى الكثير من ذلك..

قال بولس: تقصد قصة الحمار يعفور[3].

قال عبد القادر: ومن الحمار يعفور؟

قال بولس: لقـد حدث أبو منظور قال: لما فـتح الله على نبيه ﷺ خيـبراً أصاب من سهمه أربعة أزواج من البغال وأربعة أزواج خفاف، وعشر أواق ذهب وفضة، وحمار أسود ومكتل.

قال: فكلم النبى ﷺ الحـمار، فكلمه الحمار، فـقال له: ما اسمك؟ قـال: يزيد بن شهاب، أخرج الله من نسل جدى سـتين حماراً كلهم لم يركبهم إلا نبى، لم يبق من نـسل جدى غيرى، ولا من الأنبيـاء غيرك، وكنت أتوقع أن تركـبنى، قد كنت قبلك لرجل يهـودى، وكنت أعثر به عـمداً. وكان يجيع بطنى ويضـرب ظهرى، فقال النبى ﷺ: سمـيتك يعفور، يا يعفور! قـال: لبيك، قال: تشتهى الإناث؟ قال: لا.

فكان النبى ﷺ يركبـه لحاجته، فإذا نزل عنه بعث به إلى باب الـرجل، فيأتى الباب فيـقرعه برأسه فإذا خرج إليه صاحب الدار أومـأ إليه أن أجب رسول الله ﷺ، فلما قبض النبى ﷺ جاء إلى بئر كان لأبى التيهان فتردى فيها، فصارت قبره جزعًا منه على الرسول.

---

(1) حاولنا فى رسالـة (مفاتيح المدائن) من (رسائل السـلام) أن نبين المعانى السامية التى يتضمنها هـذا الدعاء، فانظره فيها.

(2) رواه مسلـم عن أبى الدرداء، وأحمـد بسند حسن عن ابن أبى شيبـة، وأبو داود عن أبى سعـيد الخـدرى، وجابر والنسائى عن عائشة.

(3) من الشبه الخطيرة التى يوردها المسيحيون فى مواقعهم.

ابتسم عبد القادر، وقال: هذه قصة مكذوبة على رسولنا.. وأنت تعلم أكثر منى أن كل دين يتعرض للكذابين الذين يريدون تشويهه بما يختلقون من الأكاذيب.

فإن كذبتنى فى هذا، فعليك تصديق كل الكتب المقدسة التى رمتها مجامعكم بحجة كونها مكتوبة من كذبة لا كتبة.

قال بولس: ومن قال لك بأن هذا الحديث مكذوب؟

قال عبد القادر: المحدثون الذى يعرفون الرواة، ويميزون بين الصادقين منهم والكاذبين.

لقد ذكر ابن الأثير أن القصة ضعيفة لا أصل لها، فقال: (هذا حديث منكر جداً إسناداً ومتناً لا أحل لأحد أن يرويه عنى إلا مع كلامى عليه)[1].

وأورد الحافظ الكبير ابن حجر العسقلانى فى كتاب لسان الميزان، باب من اسمه محمد بن مزيد هذه القصة كمثال إلى الكذب الذى يرويه محمد بن مزيد، وأورد كلام الحافظ ابن حبان، فقال: (محمد بن مزيد أبو جعفر: عن أبى حذيفة النهدى ذكر ابن حبان أنه روى عن أبى حذيفة هذا الخبر الباطل).

ثم ذكر ابن حجر القصة كاملة، وقال: قال ابن حبان: هذا خبر لا أصل له، وإسناده ليس بشىء. وقال ابن الجوزى: لعن الله واضعه.

قال ذلك، ثم التفت إلى بولس مبتسما، وقال: لاشك أن الذى اختلق هذه القصة متأثر بالكتاب المقدس.

قال بولس: كيف عرفت ذلك؟

قال عبد القادر: لقد ورد فيه حديث أتان بلعام، وأنا أحفظ النص، وسأسمعك إياه: (فَلَمَّا رَأَتِ الأَتَانُ مَلاَكَ الرَّبِّ رَبَضَتْ تَحْتَ بَلْعَامَ. فَثَارَ غَضَبُ بَلْعَامَ وَضَرَبَ الأَتَانَ بِالْقَضِيبِ. عِنْدَئِذٍ أَنْطَقَ الرَّبُّ الأَتَانَ، فَقَالَتْ لِبَلْعَامَ: (مَاذَا جَنَيْتُ حَتَّى ضَرَبْتَنِي الآنَ ثَلاَثَ دَفَعَاتٍ؟) فَقَالَ بَلْعَامُ: (لأَنَّكِ سَخِرْتِ مِنِّي. لَوْ كَانَ فِي يَدِي سَيْفٌ لَكُنْتُ قَدْ قَتَلْتُكِ). فَأَجَابَتْهُ الأَتَانُ: (أَلَسْتُ أَنَا أَتَانَكَ الَّتِي رَكِبْتَ عَلَيْهَا دَائِمًا إِلَى هذَا الْيَوْمِ؟ وَهَلْ عَوَّدْتُكَ أَنْ أَصْنَعَ بِكَ هكَذَا؟) فَقَالَ: (لاَ).

وقد قال كاتب رسالة بطرس الثانية (2: 16): (إِنَّ الْحِمَارَ الأَبْكَمَ نَطَقَ بِصَوْتِ بَشَرِيٍّ، فَوَضَعَ حَدًّا لِحَمَاقَةِ ذَلِكَ النَّبِيِّ!).

سكت قليلا، ثم قال: لقد ورد فى النصوص أحاديث كثيرة تشير إلى ما سخر الله لرسوله ﷺ من أشياء من الحيوانات وغيرها، سأسوق لكم بعضها كشواهد على ذلك:

فمن ذلك ما روى عن جابر بن عبد الله ـ رضى الله عنه ـ قال: سرنا مع رسول الله ﷺ حتى إذا نزلنا واديا أفيح فذهب رسول الله ﷺ يقضى حاجته، فاتبعته بإداوة من ماء، فنظر فلم ير شيئا يستتر به، فإذا شجرتان بشاطئ الوادى، فانطلق رسول الله ﷺ إلى إحداهما، فأخذ بغصن من أغصانها، فقال: (انقادى على بإذن الله)، فانقادت معه كالبعير المخشوش الذى يصانع قائده حتى أتى إلى الشجرة الأخرى فأخذ بغصن من أغصانها، وقال: (انقادى على بإذن الله تعالى)، فانقادت معه كالبعير المخشوش الذى يصانع قائده كذلك، حتى إذا كان بالمنصف مما بينهما لأم بينهما ـ يعنى جمعهما ـ: فقال: (التئما على بإذن الله)، فالتأمتا.

قال جابر: فخرجت أحضر مخافة أن يحس رسول الله ﷺ بقربى، فيبتعد، فجلست أحدث

---

(1) أسد الغابة: 4 / 707.

نفسي، فحانت مني لفتة، فإذا أنا برسول الله ﷺ مقبلا، وإذا الشجرتان قد افترقتا، فقامت كل واحدة منهما على ساق، فرأيت رسول الله ﷺ وقف وقفة، فقال برأسه هكذا يمينا وشمالا[1].

ومن ذلك ما حدث به ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: كنا مع رسول الله ﷺ في غزوة خيبر، فأراد أن يقضي حاجته، فقال: (يا عبد الله، انظر هل ترى شيئا)، فنظرت، فإذا شجرة واحدة، فأخبرته، فقال: (انظر هل ترى شيئا؟)، فنظرت شجرة أخرى متباعدة عن صاحبتها فأخبرته، فقال: (قل لهما: رسول الله ﷺ يأمركما أن تجتمعا)، فقلت لهما، فاجتمعتا ثم أتاهما فاستتر بهما ثم قام، فانطلقت كل واحدة منهما إلى مكانها[2].

ومن ذلك ما حدث به غيلان بن سلمة الثقفي قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ فرأينا منه عجبا، مررنا بأرض فيها إشات متفرق فقال: (يا غلام، ائت هاتين الإشاءتين فمر إحداهما تنضم إلى صاحبتها)، فانطلقت، فقمت بينهما، فقلت: إن نبي الله ﷺ يأمر إحداكما أن تنضم إلى صاحبتها، فنزل فتوضأ خلفهما، ثم ركب، وعادت تخد في الأرض إلى موضعها[3].

ومن ذلك ما حدث به أسامة بن زيد ـ رضي الله عنهما ـ أن رسول الله ﷺ قال له في حجة الوداع: (انظر هل ترى من نخل أو حجارة؟)، فقلت: رأيت شجرات متفرقات ورضخا من حجارة، قال: (انطلق إلى النخلات فقل لهن: إن رسول الله ﷺ يأمركن أن تدانين لمخرج رسول الله ﷺ، وقل للحجارة مثل ذلك، فأتيتهن، فقلت لهن ذلك، فوالذي بعثه بالحق لقد جعلت أنظر إلى النخلات يخددن الأرض خدا حتى اجتمعن، وإلى الحجارة يتقافزن حتى صرن رضخا خلف النخلات، فلما قضى رسول الله ﷺ حاجته، وانصرف قال: (عد للنخلات والحجارة، فقل لهن: إن رسول الله ﷺ يأمركن أن ترجعن إلى مواضعكن)[4].

ومن ذلك ما روى عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: جاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ فقال: بم أعرف أنك رسول الله ﷺ؟ قال: (أرأيت إن دعوت هذا العذق من هذه النخلة أتشهد أني رسول الله ﷺ، قال: نعم، فدعا العذق، فجعل العذق ينزل من النخلة حتى سقط على الأرض، فأقبل إليه، وهو يسجد ويرفع ويسجد ويرفع حتى انتهى إلى رسول الله ﷺ ثم قال له: (ارجع)، فرجع إلى مكانه، فقال: والله لا أكذبك بشيء تقوله بعد أبدا أشهد أنك رسول الله، وآمن[5].

ومن ذلك ما روى عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: أتى النبي ﷺ رجل من بني عامر فقال: يا رسول الله، أرني الخاتم الذي بين كتفيك فإني من أطيب الناس، فقال له رسول الله ﷺ: (ألا أريك آية؟)، قال: بلى، قال: فنظر إلى نخلة، فقال: ادع ذلك العذق، قال: فدعاه، فأقبل يخد الأرض، ويسجد، ويرفع رأسه حتى وقف بين يديه فقال رسول الله ﷺ: (ارجع) فرجع إلى مكانه، فقال: أشهد أنك رسول الله وآمن[6].

ومن ذلك ما روى عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: كنا في سفر، فأقبل أعرابي فلما دنا منه قال له رسول الله ﷺ: (أين تريد؟)، قال: إلى أهلي، قال: (هل لك في خير؟)، قال: وما هو؟ قال: (تشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله)، قال: هل لك من

---

(1) رواه مسلم وأبو نعيم والبيهقي.

(2) رواه أبو نعيم ورواه ابن سعد عن عطاء مرسلا.

(3) رواه أبو نعيم وابن عساكر.

(4) رواه أبو يعلى وأبو نعيم.

(5) رواه البخاري في التاريخ والترمذي وصححه وأبو يعلى وابن حبان.

(6) رواه أحمد والبخاري في تاريخه والترمذي والحاكم وصححاه وأبو نعيم.

شاهد على ما تقول؟ قال: (هذه الشجرة)، فدعاها رسول الله ﷺ وهى بشاطئ الوادى، فأقبلت تخد الأرض خدا فقامت بين يدى رسول الله ﷺ فاستشهدها ثلاثا، فشهدت أنه كما قال، ثم رجعت إلى منبتها.

ورجع الأعرابى إلى قومه، وقال لرسول الله ﷺ: إن يتبعونى آتك بهم، وإلا رجعت إليك فكنت معك[1].

ومن ذلك ما روى عن أنس ـ رضى الله عنه ـ قال: جاء جبريل إلى النبى ﷺ ذات يوم وهو جالس حزين قد خضب بالدماء ضربه بعض أهل مكة، فقال له: مالك؟ فقال رسول الله ﷺ: (فعل بى هؤلاء وفعلوا)، فقال له جبريل: كم تحب أن أريك آية؟ فقال: (نعم)، فنظر إلى شجرة من وراء الوادى، فقال: ادع تلك الشجرة فدعاها فجاءت تمشى حتى قامت بين يديه، قال: مرها فلترجع، فأمرها، فرجعت إلى مكانها، فقال رسول الله ﷺ: (حسبى)[2].

ومن ذلك ما روى عن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود قال: سألت مسروقا من آذن النبى ﷺ بالجن ليلة استمعوا القرآن، فقال: حدثنى أبوك، قال: آذنته بهم شجرة[3].

عن يعلى بن مرة ـ رضى الله عنه ـ قال: بينما نحن نسير مع رسول الله ﷺ فنزلنا منزلا. فنام رسول الله ﷺ فجاءت شجرة استأذنت تشق الأرض حتى غشيته، ثم رجعت إلى مكانها، فلما استيقظ ذكرت له ذلك، فقال: (هى شجرة استأذنت ربها عز وجل أن تسلم على فأذن لها[4]).

ومن ذلك ما روى عن بريدة ـ رضى الله عنه ـ قال: جاء أعرابى إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله قد أسلمت فأرنى شيئا أزداد به يقينا، قال: (ما الذى تريد؟)، قال: ادع تلك الشجرة، فلتأتك، قال: (اذهب فادعها)، فأتاها الأعرابى، فقال: أجيبى رسول الله ﷺ فمالت على جانب من جوانبها، فقطعت عروقها، ثم مالت على الجانب الآخر فقطعت عروقها حتى أتت رسول الله ﷺ فقالت: السلام عليك يا رسول الله، فقالت: (بم تشهدين، يا شجرة؟)، قالت: أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك عبد الله ورسوله، قال: (صدقت).

فقال الأعرابى: حسبى حسبى، مرها فلترجع إلى مكانها، فقال: (ارجعى إلى مكانك. وكونى كما كنت)، فرجعت إلى حفرتها، فجلست على عروقها فى الحفرة، فوقع كل عرق مكانه الذى كان فيه، ثم التأمت عليها الأرض، فقال الأعرابى: أتأذن لى يا رسول الله أن أقبل رأسك ورجليك، ففعل، ثم قال: أتأذن لى أن أسجد لك؟ فقال: (لا يسجد أحد لأحد)[5].

ومن ذلك ما روى عن تنكيس الأصنام حين أشار إليها ﷺ، ومما روى فى ذلك:

أن النبى ﷺ لما دخل مكة وجد بها ثلاثمائة وستين صنما، فأشار إلى كل صنم بعصا، فقال: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾ [الإسراء]، ﴿... جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾﴾ [سبأ].

فكان لا يشير إلى صنم إلا سقط من غير أن يمسه بعصا[6].

---

(1) رواه الدارمى وابن حبان والحاكم وصححاه وقال الذهبى إسناده جيد.

(2) رواه أحمد وابن ماجه بسند صحيح، ورواه ابن سعد عن عمر وفيه: فسلمت عليه، انظر: ابن كثير فى البداية 6 / 142.

(3) رواه البخارى ومسلم.

(4) رواه أحمد والبيهقى وأبو نعيم.

(5) رواه البزار وأبو نعيم.

(6) رواه البخارى ومسلم عن ابن مسعود والإمام أحمد وأبو نعيم والبيهقى عن ابن عباس وابن إسحاق والبيهقى عن على وأبو نعيم والبيهقى من طريق نافع عن ابن عمر.

وفى رواية. دخل رسول الله ﷺ يوم فتح مكة وحول البيت ثلاثمائة وستون صنما، فأخذ بقوسه، فجعل يهوى إلى صنم صنم وهو يهوى حتى مر عليها كلها.

وفى ذلك يقول تميم بن أسد الخزاعى:

**وفى الأصنام معتبر وعلم لمن يرجو الثواب أو العقابا**

ومن ذلك ما روى عن سفينة مولى رسول الله ﷺ قال: ركبت سفينة فى البحر فانكسرت، فركبت لوحا منها، فأخرجنى إلى أجمة فيها أسد فأقبل الأسد، فلما رأيته قلت: يا أبا الحارث، أنا سفينة مولى رسول الله ﷺ. فأقبل إلى فدفعنى بمنكبه حتى ضربنى بجنبه كأنى سمعت صوتا أهوى إليه ثم أقبل يمشى إلى جنبى حراقا حتى أقامنى على الطريق ثم همهم ساعة، فرأيت أنه يودعنى[1].

***

ما وصل عبد القادر من حديثه إلى هذا الموضع حتى التف الجمع حوله يسألونه عن محمد ﷺ وعن الدين الذى جاء به.

أما أنا وبولس، فقد انصرفنا.. ومعى بصيص جديد من النور اهتديت به بعد ذلك إلى شمس محمد.

(1) رواه ابن سعد وأبو يعلى والبزار والحاكم وصححه والبيهقى.

## عاشرا - إكرامات

في اليوم العاشر..

جاءني بولس ربما بآخر ذرة من النشاط الذي تعودته منه.. ليلقى آخر قنبلة في جعبته.

قال لي، وفي فمه ابتسامة ذابلة: سنخرج اليوم لنبشر بالتكريمات التي لم ينلها أحد في هذا الكون عدا المسيح..

قلت: إلى أين نسير؟

قال: لقد أعد لنا البعض تكريما خاصا، وسنحضر إليه، لننال ما أراد هؤلاء الأفاضل أن يتحفونا به من صنوف التكريمات، وسنستغل ذلك للتبشير بالتكريمات العظمى التي نالها المسيح.

قلت: ألا تخاف أن يظهر ذانك الرجلان اللذان لا هم لهما إلا التبشير بمحمد؟

قال: فليظهرا كما يشاءان، وليتكلما بما يريدان..

لاح لي من كلامه شوق كبير لحضورهما، ولو أنه حاول أن يظهر ذلك على أنه من ثقته بنفسه، وبما عنده.

قلت: ولكن ألا تخاف أن ينغصا علينا جلساتنا التدريبية كما تعودا؟

قال: أنا واثق جدا مما عندي، ولا يرهبني أحد من الناس، والحقيقة التي أمتلئ بها تجعلني أحن للعواصف التي تريد أن تقاومها، لأن لدي من الحصون ما أتحصن به منها.

قلت: لقد كنت تذكر لي هذا كل مرة.. ولكنا نرجع من غير أن نفعل شيئا، بينما هما يفعلان كل شيء.

لم يجد إلا أن يقول: هذه المرة تختلف عن كل المرات.. في هذه المرة سنلقي قنبلة التكريمات التي لم يحظ بها أحد في العالم كما حظي بها المسيح.

***

بعد انقضاء حفل التكريم، واستلام القس للجائزة التي أهدتها له بعض الجمعيات الخيرية عرفانا له بما قدم من أعمال خيرية في تلك القرية، أذن لأهل القاعة أن يتحدثوا بما يشاءون، ويسألوا عما يشاءون، كما جرت عادتهم في مثل هذه الأحوال.

استغل أجير بولس ذلك، فقام وقال: نطلب من القس الكريم الذي نال هذا التكريم أن يحدثنا عن التكريمات التي نالها المسيح.. فلا أحسب أن تكريمه إلا نوعا من تكريمات المسيح.

قام بولس مطأطئ الرأس يبدي تواضعا عظيما، وقال: أشكر هذا السائل الذي أتاح لي الحديث عن المسيح.. فأنا وكل إخواني ذائبون في المسيح فانون فيه، فلذلك نحسب أن يدنا التي امتدت لهذا التكريم هي يد المسيح لا يدنا.. وأن الخير الذي نال هذه القرية خير نالها من المسيح لا منا.

أول تكريم للمسيح هو أنه الشفيع الوحيد للبشرية، فالقدّيس يوحنّا بالروح، يقول: (يَا أَوْلاَدِي، أَكْتُبُ إِلَيْكُمْ هذَا لِكَيْ لاَ تُخْطِئُوا، وَإِنْ أَخْطَأَ أَحَدٌ فَلَنَا شَفِيعٌ عِنْدَ الآبِ، يَسُوعُ الْمَسِيحُ الْبَارُّ. وَهُوَ كَفَّارَةٌ لِخَطَايَانَا. لَيْسَ لِخَطَايَانَا فَقَطْ، بَلْ لِخَطَايَا كُلِّ الْعَالَمِ أَيْضًا) (رسالة يوحنا الأولى: 2/ 1-2).

المسيح هو الشفيع الوحيد للبشريّة، لأنّه البار الوحيد الذي بلا خطيئة، والحيّ الوحيد الجالس

عن يمين العظمة فى الأعالى: (مَنْ هُوَ الَّذِى يَدِينُ؟ الْمَسِيحُ هُوَ الَّذِى مَاتَ بَلْ بِالْحَرِيِّ قَامَ أَيْضًا الَّذِى هُوَ أَيْضًا عَنْ يَمِينِ اللهِ الَّذِى أَيْضًا يَشْفَعُ فِينَا)(رومية: 8/ 34).

هناك إجماع على أنَّه لا يستطيع مخلوق على الإطلاق مهما كان أنْ يشفع فى البشريَّة أمام اللَّه، لأنَّه لا يوجد مخلوقٌ واحدٌ لم يخطئْ، عدا شخص المسيح وحده الذى لم يجرؤ أحد، ولن يجرؤ على أنْ يقول إنَّه فعل خطيئة، فقد أجمع الكلُّ على أنَّه الوحيد الذى لم يفعل الخطيئة، بل والوحيد الذى كانت تصرخ منه الشياطين قائلة: (مَا لَنَا وَلَكَ يَا يَسُوعُ ابْنَ اللهِ؟ أَجِئْتَ إِلَى هُنَا قَبْلَ الْوَقْتِ لِتُعَذِّبَنَا؟)(متى:8/ 29)، ويقولون: (آهِ! مَا لَنَا وَلَكَ يَا يَسُوعُ النَّاصِرِيُّ! أَتَيْتَ لِتُهْلِكَنَا! أَنَا أَعْرِفُكَ مَنْ أَنْتَ قُدُّوسُ اللهِ!) (مرقس:1/ 24).

ولأنَّ المسيح هو الوحيد الذى لم يفعلْ خطيئة والوحيد الذى كان يرتعب منه الشيطان، كما أنَّه الوحيد الذى كان فى إمكانه أنْ يدفع ثمن خطايا كلِّ العالم، لذا فهو الشفيع الوحيد والوسيط الوحيد بين اللَّه والناس: (لأَنَّهُ يُوجَدُ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَوَسِيطٌ وَاحِدٌ بَيْنَ اللهِ وَالنَّاسِ: الإِنْسَانُ يَسُوعُ الْمَسِيحُ)(متى:2/ 5).

والتكريم الثانى للمسيح أنه الوحيد الذى شهد له الآب علانية من السماء، فبالرغم من كلِّ الأعمال التى عملها المسيح أمام الجموع، والتى تميَّز بها وحده دون سائر الكائنات فى الكون كلِّه، وكانت تشهد لحقيقة شخصه كالمسيح ابن اللَّه الحىِّ الآتى من السماء إلى العالم، فقد شهد له اللَّه الآب علانية أمام الكثيرين من الناس:

لقد شهد له فى العماد، فلما اعتمد الرب يسوع المسيح انفتحت السماء، يقول الكتاب: (وَإِذَا السَّمَاوَاتُ قَد انْفَتَحَتْ)(متى:3/ 16)، (وَنَزَلَ عَلَيْهِ الرُّوحُ الْقُدُسُ بِهَيْئَةٍ جِسْمِيَّةٍ مِثْلِ حَمَامَةٍ)(لوقا: 3/ 22)، (وَصَوْتٌ مِنَ السَّمَاوَاتِ قَائِلاً: (هَذَا هُوَ ابْنِي الْحَبِيبُ الَّذِي بِهِ سُرِرْتُ)(مَتَى: 3/ 17).

فهنا حدثت ثلاثة أمور: السماء انفتحت أو انشقت، ونزل الروح القدس ظاهرًا بهيئة جسميَّة مثل حمامة، وجاء صوت اللَّه الآب يعلن من السماء: (هَذَا هُوَ ابْنِي الْحَبِيبُ الَّذِي بِهِ سُرِرْتُ).

وشهد له فى التجلى، ففى حادثة التجلِّى يذكر الكتاب المقدس أنَّ المسيح أظهر شيئًا من مجده ولاهوته أمام ثلاثة من تلاميذه (أَخَذَ يَسُوعُ بُطْرُسَ وَيَعْقُوبَ وَيُوحَنَّا أَخَاهُ وَصَعِدَ بِهِمْ إِلَى جَبَلٍ عَالٍ مُنْفَرِدِينَ. وَتَغَيَّرَتْ هَيْئَتُهُ قُدَّامَهُمْ وَأَضَاءَ وَجْهُهُ كَالشَّمْسِ وَصَارَتْ ثِيَابُهُ بَيْضَاءَ كَالنُّورِ)(متى:17/ 1-2)، (وَصَارَتْ ثِيَابُهُ تَلْمَعُ بَيْضَاءَ جِداً كَالثَّلْجِ لاَ يَقْدِرُ قَصَّارٌ عَلَى الأَرْضِ أَنْ يُبَيِّضَ مِثْلَ ذَلِكَ)(مرقس: 9/ 3)، (وَإِذَا رَجُلاَنِ يَتَكَلَّمَانِ مَعَهُ وَهُمَا مُوسَى وَإِيلِيَّا اللَّذَانِ ظَهَرَا بِمَجْدٍ وَتَكَلَّمَا عَنْ خُرُوجِهِ الَّذِي كَانَ عَتِيداً أَنْ يُكَمِّلَهُ فِي أُورُشَلِيمَ)(لوقا: 9/ 30-31).

وعندما شاهد التلاميذ الربَّ والسيِّد فى هذا المشهد السمائىِّ الروحانىِّ الإلهىِّ المهيب صاروا فى حالة ذهول روحىٍّ، دهش، وراحوا فى غيبوبة روحيَّة، يقول الكتاب المقدس: (فَجَعَلَ بُطْرُسُ يَقُولُ لِيَسُوعَ: (يَا سَيِّدِي جَيِّدٌ أَنْ نَكُونَ هَهُنَا، فَلْنَصْنَعْ ثَلاَثَ مَظَالَّ لَكَ وَاحِدَةً وَلِمُوسَى وَاحِدَةً وَلإِيلِيَّا وَاحِدَةً). لأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ مَا يَتَكَلَّمُ بِهِ إِذْ كَانُوا مُرْتَعِبِينَ)(مرقس:9/ 5-6).

وهنا يقول الكتاب المقدس: (وَفِيمَا هُوَ يَتَكَلَّمُ إِذَا سَحَابَةٌ نَيِّرَةٌ ظَلَّلَتْهُمْ وَصَوْتٌ مِنَ السَّحَابَةِ قَائِلاً: (هَذَا هُوَ ابْنِي الْحَبِيبُ الَّذِي بِهِ سُرِرْتُ) (متى:17:5)

هذا المشهد الإلهى المهيب يقول عنه القديس بطرس بالروح: (لأَنَّنَا لَمْ نَتْبَعْ خُرَافَاتٍ مُصَنَّعَةً إِذْ عَرَّفْنَاكُمْ بِقُوَّةِ رَبِّنَا يَسُوعَ الْمَسِيحِ وَمَجِيئِهِ، بَلْ قَدْ كُنَّا مُعَايِنِينَ عَظَمَتَهُ. لأَنَّهُ أَخَذَ مِنَ اللهِ الآبِ كَرَامَةً وَمَجْداً، إِذْ أَقْبَلَ عَلَيْهِ صَوْتٌ كَهَذَا مِنَ الْمَجْدِ الأَسْنَى: (هَذَا هُوَ ابْنِي الْحَبِيبُ الَّذِي أَنَا سُرِرْتُ بِهِ). وَنَحْنُ سَمِعْنَا هَذَا الصَّوْتَ مُقْبِلاً مِنَ السَّمَاءِ إِذْ كُنَّا مَعَهُ فِي الْجَبَلِ الْمُقَدَّسِ) (2بط1/ 16-18).

وشهد له أمام الجموع فى أورشليم، ففى الأسبوع الأخير طلب أناس يونانيون من تلميذه فيلبس أن يروا الربّ يسوع المسيح، وهنا قال هو (قَدْ أَتَتِ السَّاعَةُ لِيَتَمَجَّدَ ابْنُ الإِنْسَانِ)، ثم خاطب الآب مناجيًا: (أَيُّهَا الآبُ مَجِّدِ اسْمَكَ).

فَجَاءَ صَوْتٌ مِنَ السَّمَاءِ: (مَجَّدْتُ وَأُمَجِّدُ أَيْضًا)، يقول الكتاب المقدس: (فَالْجَمْعُ الَّذِى كَانَ وَاقِفًا وَسَمِعَ قَالَ: (قَدْ حَدَثَ رَعْدٌ)، وَآخَرُونَ قَالُوا: (قَدْ كَلَّمَهُ مَلاَكٌ)، أَجَابَ يَسُوعُ: (لَيْسَ مِنْ أَجْلِى صَارَ هَذَا الصَّوْتُ بَلْ مِنْ أَجْلِكُمْ)(يوحنا: 121/ 23 و28-30).

لقد شهد الآب للابن علانية أمام الجموع فى العماد، وفى الأسبوع الأخير، وفى حادثة التجلى، فهل حدث مثل هذا لأحد غير المسيح؟

والإجابة؛ كلا. فهل يقول أحد بعد ذلك ان هناك أحدًا ما أو مخلوقًا ما فى السماء وعلى الأرض أعظم من المسيح؟

قال ذلك، ثم أجاب نفسه بنفسه: والإجابة؛ كلا وحاشا!!

لست أدرى كيف اقتصر بولس على هذا فقط، مع أنه كان يمكن أن يقول كلاما كثيرا تعود قومنا أن يقولوه فى مثل هذه المحافل.

جلس، فقام أجيره ببلاغته المعهودة، وكأنه يستفز المسلمين، وقال: هذا هو المسيح.. وهذه هى منزلته كما ذكرها لنا حضرة القس الفاضل.. وفى ذلك رد عظيم على أولئك المسلمين البسطاء الذى يتصورون أن نبيهم نال من التكريمات ما لم ينله أحد.

لم أكن أتصور أن عبد الحكيم أو عبد القادر فى القاعة، فقد كانت قاعة مغلقة، وكان المدعوون فيها محدودين، ولكن تصورى كان خاطئا، وقد فرحت لخطئه، ولا أظن صاحبى بولس إلا مثلى فى ذلك، فقد ظهرت علامات السرور على وجهه عندما لاحظ عبد الحكيم، وهو يقوم قائلا: إن أذنتم لى، فإن لى بعض التعقيبات على ما ذكره هذا القس الفاضل، وعلى ما ذكره بعده هذا الرجل الكريم.

سكت الجمع، وقال رئيس الجلسة: لا بأس.. يسرنا أن نسمع لك، ولا أظن حضرة القس إلا مسرورا بذلك.

أجاب القس بالإيجاب، فتقدم عبد الحكيم، وقال: قبل أن أتحدث بما قد تسيئون فهمه، أحب أن أذكر لكم أن الله تعالى الذى خلق هذا الكون الواسع بمنتهى العدل والرحمة والحكمة ميز بعض خلقه بميزات خاصة، تجعلهم يستحقون رئاسة معينة على سائر البشر، فهم من جسم البشر كالدماغ والقلب بالنسبة لجسم الإنسان.

لقد ذكر الله تعالى ذلك، فقال: ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [القصص].

وهؤلاء المختارون لهم من الأسباب العادلة ما تفضل الله به عليهم بذلك الاختيار، فهم فى طيبتهم وسلامة نفوسهم وصفاء جواهرهم ما جعلهم أهلا لحلول ذلك الفضل الإلهى، فهم مثل التربة الطيبة عندما تسقى بالماء الزلال، فتنتج من كل خير، وتنبت من كل طيب.

لقد ذكر الله تعالى ذلك، فقال: ﴿ وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ... ﴿١٢٤﴾ ﴾ [الأنعام: ].

لقد قال الله ذلك لمن أنكروا أن يتفضل الله على محمد ﷺ كما تفضل على إخوانه من المرسلين.

لقد كان هؤلاء الكفار ينظرون باحتقار إلى رسول الله ﷺ، لأنهم كانوا يتصورون أن الرسول عندما يختاره الله سيختاره من تلك الفئة المستكبرة الغنية الوجيهة، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ [الزخرف]، أو كما يتصور اليهود أن الله تعالى لابد أن يختار رسولا من بنى إسرائيل، وكأن بنى إسرائيل وحدهم خلق الله، وغيرهم خلق الشيطان.

لقد رد الله على هذا الاحتقار، فقال: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الزخرف][1].

وقد قوبل بهذا النوع من الاحتقار جميع الأنبياء ـ عليهم السلام ـ بما فيهم المسيح نفسه، وأخونا القس الفاضل يقر بما لا نقر به نحن المسلمين من الإهانة الشديدة التى وجهها اليهود للمسيح حين صلبوه، ووضعوا تاج الشوك على رأسه.

انطلاقا من هذا، فإن الله الشكور المتفضل على عباده يكرم هؤلاء الأنبياء بمزيد فضله، ليقابل به ما قابلهم به أقوامهم من الاحتقار.

بالإضافة إلى أن هؤلاء الأنبياء نجحوا فى أنواع البلاء التى ابتلوا بها، لذلك كان جزاؤهم أن ينالوا تكريمات الله، كما قال تعالى عن إبراهيم عليه السلام: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾ [البقرة].

ولذلك، نحن المسلمين لا نخالف القس فى كون الله كرم المسيح ﷺ تكريما عظيما، ولكنا نخالفه فى قصر ذلك على المسيح، وفى سوء فهم المراد بذلك التكريم.

قام أجير بولس ببلاهته، وقال: لا.. ذلك التكريم خاص بالمسيح.. وذلك التكريم لا يعنى إلا بنوة المسيح لله.

ابتسم عبد القادر، وقال: أرأيت لو أدخلتك دارى، وكلت لك من أنواع الثناء، ومثلها من أنواع الفضل ما كلت لك.. أتراك تخرج للناس، لتزعم لهم أنك ابن لمن كال لك ذلك الثناء، وأن تلك الدار التى آوتك هى دارك وملكك، وأنت صاحبها.

سكت الأجير، فقال عبد القادر: يحدث هذا كثيرا.. بعض الناس يسيئون فهم التكريمات.. فيتصورونها بخلاف مقصودها.

ونحن المسلمين بحمد الله وقينا هذا، فمع ما ورد فى فضل نبينا من نصوص إلا أنا نهينا أن نخرج به عن كونه عبدا لله، بل نحن لا نرى لنبينا مقاما أرفع من مقام عبوديته لله.

هذا فيما يخص سوء فهم التكريمات.

أما كونها عامة غير خاصة، فهذا مما لا شك فيه عندنا، ولا عندكم، فالله تعالى أكرم كثيرا من عباده، فالله تعالى يصطفى من يشاء من عباده، قال تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ [البقرة].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ [آل عمران].

وقال تعالى: ﴿قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ [الأعراف].

---

(1) ومثل ذلك قوله تعالى مخبراً عنهم: ﴿وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الأنبياء]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾﴾ [الفرقان].

وقال تعالى: ﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ [النمل].

هذا بعض ما ورد فى كتابنا عن اصطفاء الله لمن يشاء من عباده، وهو اصطفاء مفتوح غير مغلق، مفتوح على كل البشر.. لا على عنصر من الناس، فالله رب البشر جميعا.

وفى الكتاب المقدس مثل ما فى القرآن الكريم من هذا، فقد ذكر كثيرا ممن اصطفاهم الله، وليس فيه قصر للاصطفاء بالمسيح عليه السلام.

***

## ١ - تكريم الله

هنا قام أجير بولس، وقال بطريقته المعهودة في الاستفزاز: كل كلامك هذا مجرد كلام.. ونحن - كما يقال - نريد أفعالا لا أقوالا.

لقد ذكر - حضرة القس الفاضل - الجوائز العظيمة التي نالها المسيح.. ولكن محمدا الذي تفتخرون به لم ينل حتى فتات الموائد.

هنا قام عبد القادر، وقد احمر وجهه، وقال: إن أذنتم لي أن أجيب هذا الرجل فعلت، فقد تكلم بكلام لا يليق بي - وأنا مسلم - أن أسكت عنه.

أذن له رئيس الجلسة، بعد أن التفت إلى بولس، وأشار له بالإيجاب.

قام عبد القادر إلى المنصة، وقال: لقد بدأ حضرة القس الفاضل ذكره لتكريمات المسيح بذكره لسر مجيئه، وهو الشفاعة، وأنا أطلب منه أن يوضح لنا معناها عنده، لأشرح له معناها عندنا، لنرى جميعا إمكانية تحققها في المسيح أو في محمد ﷺ؟

قال بولس: نحن نعتقد أن المسيح صلب ليكفر الخطيئة الأزلية التي ارتكبها آدم تحت تأثير زوجته بإغواء من الحية حينما أكل من الشجرة، وانتقلت هذه الخطيئة بطريق الوراثة إلى جميع نسله، وكانت ستظل عالقة بهم إلى يوم القيامة، لولا أن افتداهم المسيح بدمه كفارة عن خطاياهم.

وسر ذلك يرجع إلى أن من صفات الله العدل والرحمة، فبمقتضى صفة العدل كان على الله أن يعاقب ذرية آدم بسبب الخطيئة التي ارتكبها أبوهم، وطرد بها من الجنة، واستحق هو وأبناؤه البعد عن الله بسببها.

وبمقتضى صفة الرحمة كان على الله أن يغفر سيئات البشر.

ولم يكن هناك من طريق للجمع بين العدل والرحمة إلا بتوسط ابن الله الوحيد، ليموت على الصليب كفارة ونيابة عنهم، وبهذا العمل يكون الله قد جمع بين عدله ورحمته مع الإنسان وأخذ العدل حقه، وظهرت رحمة الله.

سكت بولس، فقال عبد القادر: وأنتم لم تكتفوا بصلب المسيح ليكفر خطايا البشر، بل أضفتم إلى ذلك تكريمين عظيمين لا يعلمهما كثير من الناس:

أما أولهما، فتكريمه بدخوله إلى جهنم وعذابه فيها.. وأما الثاني، فاعتباره لكم ملعونا، كما جاء في رسالة بولس إلى أهل غلاطية (3/ 13): (المسيح افتدانا من لعنة الناموس إذ صار لعنة لأجلنا لأنه مكتوب ملعون كل من علق على خشبة)

قال ذلك، ثم التفت إلى بولس، وقال: أليس كذلك حضرة القس؟

قال بولس: نحن نقول الثانية، ولا نقول الأولى.

قال عبد القادر: بل تقولون بكليهما، أو على الأحرى يقول كثير من قومك بكليهما، وبما أنك سلمت للثانية، فسأذكر لك أدلة الأولى[1].

لقد ذكر جواد بن ساباط هذه العقيدة من كتاب الصلاة المطبوع سنة 1506 هكذا: (كما أن المسيح مات لأجلنا ودفن، فكذا لا بد أن نعتقد أنه دخل جهنم).

وفيلبس كوادنولس الراهب كتب في رد رسالة أحمد الشريف بن زين العابدين الأصفهاني كتابًا بالعربية سماه بـ (خيالات فيلبس)[2] قال فيه: (الذي تألم لخلاصنا وهبط إلى الجحيم ثم في اليوم الثالث قام من بين الأموات).

---

(1) انظر: إظهار الحق لرحمة الله الهندي.

(2) ذكر رحمة الله الهندي أن هذا الكتاب طبع سنة 1669 في الرومية الكبرى في بسلوقيت وأنه حصل له بطريق العارية نسخة قديمة من هذا الكتاب من كتبخانة إنكليز في بلدة دهلي.

وفى بريثربوك فى بيان عـقيدة أتهانييش التى يؤمن بهـا المسيحيون لفظ (هل) مـوجود ومعناه الجحيم.

وقد ذكر جواد بن ساباط أن القسيس مارطيروس قال له فى توجيه هذه العقيدة: (إن المسيح لما قبل الجسم الإنسانى فلا بـد عليه أن يتحمل جميع العوارض الإنسانية فـدخل جهنم وعُذب أيضاً ولما خرج من جهنم أخرج منها كل من كان معذبًا فيها قبل دخوله).

قال جواد: فسـألته هل لهذه العقيدة دليل نقلى، فـقال: إنها غير محتـاجة إلى الدليل، فقال رجل مسيحى من أهل ذلك المحفل على وجـه الطرافة: إن الأب كان قاسى القلب وإلا لما ترك الابن فى الجحيم، فغضب القسيس، وطرده من المحـفل، فجاء هذا الرجل عندى وأسلم، لكن أخذ العهد منى ألا أظهر حال إسلامه ما دام حيًا.

وذكـر رحمـة الله الهندى أن يوسف ولف دخل بـلدة لكهنو سنة 1833 من الميـلاد وكان من القسيسين المشهورين، وكان يدعى الإلهام لنفسه، وكان يدعى أن نزول المسيح يكون فى سنة 1847 من الميلاد، ووقعت المناظرة فـيما بينه وبين مجتـهد الشيعة تحريراً وتـقريراً فى هذا الباب، فسأله مجـتهد الشيعة عن هذه العـقيدة أيضًا، فقال: نعم دخل المسيح الجحـيم وعذب، لكن لا بأس فيه، لأن هذا الدخول كان لنجاة أمته[1].

قال ذلك، ثم التفت إلى بولس ينتظر تعقيـبا منه، فلم يفعل بولس، فقال: لا بأس، فأنا لم أرد أن أذكر لكـم ما يهيـن به الكثيـر من المسيـحيين المـسيح ﷺ، بل أردت ـ فقط ـ أن أذكـر لكم مفهومنا للتكريم الإلهى لمحمد ﷺ ولإخوانه من المرسلين بما فيهم المسيح ﷺ.

وقبل أن أذكر بعض ما ورد فى نصوصنا المقـدسة من هذا التكريم أحب أن أناقش ما طرحه ـ حضرة القس ـ على ضوء العقل والنقل.. على ضوء العقل المجرد الذى هو البرنامج الذى وضعه الله لنا لنعرف به الحقائق، وعلى ضوء النقل الذى يعتمده حضرة القس الفاضل، وهو الكتاب المقدس[2].

ولنبدأ بالعقل..

من الواضح ـ حـسب الكتـاب المقدس ـ أن المخطئ هـو آدم وزوجتـه، وليس الأولاد، ومن العـجيب أنه يصف الله بالعـدل، ثم يدعى أن خطيـئة آدم تـتعداه إلى نـسله، لأنهم ورثة لطبيـعتـه الساقطة.. فأى عدل فى هذا!؟

ثم أى عدل، وأى رحمة فى تعـذيب وصلب إنسان غير مذنب؟ إن معاقـبة وتعذيب شخص برىء لم يقترف آثامًا من أجل خطايا الآخرين إنما هو ذروة الظلم.

ثم من الذى قيـد الله، وجعل عليـه أن يلزم العدل، وأن يلزم الرحمـة، وأن يسعى للتـوفيق بينهما؟

ثم أين كان عدل الله ورحمته منذ خطيئة آدم وحتى قصة الصلب؟

وإذا كان الله سبحانه عادلاً، وفى نفس الوقت محب ورحيم، فأين كانت رحمته وابنه الوحيد يلاقى ـ دون ذنب ـ ألوان التعذيب والسخرية، ثم الصلب، مع دق المسامير فى يديه؟

---

(1) بالإضافة إلى هذا، فقـد ذكر رحمة الله الهندى أن بعض الفرق المسيحـية تعتقد أن عيـسى عليه السـلام بعد ما مات دخل جهنم ونجى أرواح قابيل وأهل سدوم لأنهم حضروا عنده وكـانوا غير مطيعين لإله خالق الشر وأبقى أرواح هابيل ونوح وإبراهيم والصلحاء الآخرين من القدماء فى جهنم لأنهم خالفوا الفرقة الأولى.

وهذه الفرقة كانت تعـتقد أن خالق العالم ليس منحصراً فى الإله الذى أرسل عـيـسى ولذلك ما كانت تـسلم كون كتب العهد العتيق إلهامية.

(2) هناك تفاصـيل كثـيرة مرتبطة بالرد عـلى هذه المسألة الجوهرية فى الـعقيـدة المسيحـية فى رسالـة (الإنسان) من هذه السلسلة.

وإذا كان الله عادلاً، وفي كل الشرائع أن العقوبة تناسب الذنب، فهل تم التوازن بين صلب المسيح على هذا النحو، وبين الخطيئة التي ارتكبها آدم؟

ولماذا ترك إله العدل والمحبة الإنسانية تتوالد تحت ناموس اللعنة والخطيئة، وأن يعم الفساد وينتشر!؟

وأين عدل الله في رجل يحمل خطايا أناس ظلمة قتلة فجرة، وهو قد تعذب وقتل، وآخرون يسكرون ويرقصون مستمتعين بحياتهم؟

قال بولس: لقد قدم يسوع المسيح نفسه طوعًا، وباختياره قاسى عذاب الموت على الصليب ليدفع الثمن من أجل خطايا الناس.

قال عبد القادر: لا.. إن الأمر ليس صحيحا تاريخيًا، فنحن نقرأ في الأناجيل أنه لم تكن إرادته أن يموت على الصليب، نحن نقرأ في متى (ثُمَّ ذَهَبَ يَسُوعُ وَتَلاَمِيذُهُ إِلَى بُسْتَانٍ يُدْعَى جَثْسَيْمَانِي، وَقَالَ لَهُمْ: اجلِسُوا هُنَا رَيْثَمَا أَذْهَبُ إِلَى هُنَاكَ وَأُصَلِّي. وَقَدْ أَخَذَ مَعَهُ بُطْرُسَ وَابْنَيْ زَبَدِي وَبَدَأَ يَشْعُرُ بِالْحُزْنِ وَالْكَآبَةِ. فَقَالَ لَهُمْ: نَفْسِي حَزِينَةٌ جداً حَتَّى الْمَوْتِ! ابقَوا هُنَا وَاسهَرُوا مَعِي! وَابْتَعَدَ عَنْهُمْ قَلِيلاً وَارْتَمَى عَلَى وَجْهِهِ يُصَلِّي، قَائلاً: يا أبي، إِنْ كَانَ مُمْكِنًا، فَلْتَعْبُرْ عَنِّي هَذِهِ الْكَأْسُ وَلَكِنْ، لاَ كَمَا أُرِيدُ أَنَا، بَلْ كَمَا تُرِيدُ أَنْت) (متى 26: 39).

ونحن نقرأ في الأناجيل أنه عندما أيقن أن أعداءه قد تآمروا على قتله وإزهاق حياته قال لهم كما في (يوحنا 8: 40): (لَوْ كُنْتُمْ أَوْلاَدَ إِبْرَاهِيمَ لَعَمِلْتُمْ أَعْمَالَ إِبْرَاهِيمَ. وَلكِنَّكُمْ تَسْعَوْنَ إِلَى قَتْلِي وَأَنَا إِنْسَانٌ كَلَّمْتُكُمْ بِالْحَقِّ الَّذِي سَمِعْتُهُ مِنَ اللهِ).

وقد أعلن يسوع لتلاميذه قائلاً: (نَفْسِي حَزِينَةٌ جداً حَتَّى الْمَوْتِ. ابقَوا هُنَا وَاسْهَرُوا. ثُمَّ ابتَعَدَ قَلِيلاً، وَخَرَّ عَلَى الأَرضِ، وَأَخَذَ يُصَلِّي لِكَيْ تَعْبُرَ عَنْهُ السَّاعَةُ إِنْ كَانَ مُمْكِنًا. وَقَالَ أَبَا، يَاأَبِي، كُلُّ شَيْءٍ مُسْتَطَاعٌ لَدَيْكَ. فَأَبْعِدْ عَنِّي هَذِهِ الْكَأْسَ، وَلكِنْ لِيَكُنْ لاَ مَا أُرِيدُ أَنَا، بَلْ مَا تُرِيدُ أَنْت)(مرقس 14: 34).

فأنتم ترون أنه يطلب من تلاميذه أن يسهروا على سلامته وحمايته من أعدائه مع جسارته هذه وإيمانه الوطيد بالله حافظه ومنجيه.

ومع هذا احتاط لنفسه لمواجهة سافرة مع أعدائه فقال لتلاميذه: (من له كيس فليأخذه ومزود كذلك، ومن ليس له فليبع ثوبه ويشتر سيفا) (لوقا:22/ 36 - 38).

ثم تقدم قليلا، وخر على الأرض، وكان يصلي قائلا: «يَاأَبِي، كُلُّ شَيْءٍ مُسْتَطَاعٌ لَدَيْكَ. فَأَبْعِدْ عَنِّي هَذِهِ الْكَأْسَ، وَلكِنْ لِيَكُنْ لاَ مَا أُرِيدُ أَنَا، بَلْ مَا تُرِيدُ أَنْتَ!» لقد وكل المسيح أمره إلى الله بقوله: «لاَ مَا أُرِيدُ أَنَا، بَلْ مَا تُرِيدُ أَنْتَ!» [مرقس 14: 36]. فأي عاقل بعد هذا يدعي أن المسيح جاء ليقدم نفسه ويقاسي العذاب طوعًا واختيارًا؟

بالإضافة إلى هذا كله، فإن ما تعتقدونه ـ حضرة القس ـ من أن المسيح مات مصلوبًا فداءً للبشرية وكفارة للخطيئة الموروثة هو اعتقاد مخالف للقواعد والنصوص الأساسية التي اشتمل عليها كتابهم المقدس، والتي تثبت أن كل إنسان يتحمل نتيجة فعله:

ففي سفر التثنية (24: 16): (لا يُقْتَلُ الآبَاءُ عَنِ الأَوْلادِ وَلا يُقْتَلُ الأَوْلادُ عَنِ الآبَاءِ. كُلُّ إِنْسَانٍ بِخَطِيَّتِهِ يُقْتَلُ).

وفي حزقيال (18: 20): (الابْنُ لاَ يَحْمِلُ مِنْ إِثْمِ الأَبِ وَالأَبُ لاَ يَحْمِلُ مِنْ إِثْمِ الابْنِ. بِرُّ الْبَارِّ عَلَيْهِ يَكُونُ وَشَرُّ الشِّرِّيرِ عَلَيْهِ يَكُونُ. فَإِذَا رَجَعَ الشِّرِّيرُ عَنْ جَمِيعِ خَطَايَاهُ الَّتِي فَعَلَهَا وَحَفِظَ كُلَّ فَرَائِضِي وَفَعَلَ حَقًّا وَعَدْلاً فَحَيَاةً يَحْيَا. لاَ يَمُوتُ. كُلُّ مَعَاصِيهِ الَّتِي فَعَلَهَا لاَ تُذْكَرُ عَلَيْهِ).

وقد قال موسى وهارون للرب: (اللهمَّ إِلهَ أَرْوَاحِ جَمِيعِ الْبَشَرِ هَل يُخْطِئُ رَجُلٌ وَاحِدٌ فَتَسْخَطَ عَلَى كُلِّ الْجَمَاعَةِ؟)(العدد 16: 22).

وقال الرب فى (إشعيا: 55: 7): (لِيَتْرُكِ الشِّرِّيرُ طَرِيقَهُ وَالأَثِيمُ أَفْكَارَهُ، وَلْيَتُبْ إِلَى الرَّبِّ فَيَرْحَمَهُ، وَلْيَرْجِعْ إِلَى إِلَهِنَا لأَنَّهُ يُكْثِرُ الْغُفْرَانَ).

وقال الرب فى (حزقيال:33: 11): (حَيٌّ أَنَا يَقُولُ السَّيِّدُ الرَّبُّ، إِنِّي لاَ أَبْتَهِجُ بِمَوْتِ الشِّرِّيرِ بَلْ بِأَنْ يَرْتَدِعَ عَنْ غَيِّهِ وَيَحْيَا).

وفيه (حزقيال: 18: 21، 22) قال الرب: (وَلَكِنْ إِنْ رَجَعَ الشِّرِّيرُ عَنْ خَطَايَاهُ كُلِّهَا الَّتِي ارتكبَهَا، وَمَارَسَ جَمِيعَ فَرَائِضِي وَصَنَعَ مَا هُوَ عَدْلٌ وَحَقٌّ فَإِنَّهُ حَتْمًا يَحْيَا، لاَ يَمُوتُ. وَلاَ تُذْكَرُ لَهُ جَمِيعُ آثَامه الَّتي ارتكبَهَا. إِنَّمَا يَحْيَا بِبِرِّهِ الَّذِي عَمِلَهُ).

وفى (سفر الخروج: 40: 12) نجد الرب يغفر لهارون خطاه[1]، ويأمر بجعله وذريته كهنة على بنى اسرائيل.

وفى سفر (أخبار الأيام الثانى: 7: 14): (فَإِذَا تَوَاضَعَ شَعْبِي الَّذِينَ دُعِيَ اسْمِي عَلَيْهِمْ وَصَلَّوا وَطَلَبُوا وَجْهِي وَرَجَعُوا عَنْ طُرُقِهِمِ الرَّدِيئَةِ فَإِنِّي أَسْمَعُ مِنَ السَّمَاءِ وَأَغْفِرُ خَطِيَّتَهُمْ وَأُبْرِئُ أَرْضَهُمْ).

بالإضافة إلى هذا كله، فقد علمكم المسيح أن تصلوا إلى الله قائلين: (وَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا، كَمَا نَغْفِرُ نَحْنُ لِلْمُذْنِبِينَ إِلَيْنَا)(متى 6: 12).

ويقول: (فَإِنْ غَفَرْتُمْ لِلنَّاسِ زَلاَّتِهِمْ، يَغْفِرْ لَكُمْ أَبُوكُمُ السَّمَاوِيُّ زَلاَّتِكُمْ. وَإِنْ لَمْ تَغْفِرُوا لِلنَّاسِ، لاَ يَغْفِرْ لَكُمْ أَبُوكُمُ السَّمَاوِيُّ زَلاَّتِكُمْ)(متى 6: 14، 15).

إن هذه العقيدة التى تنسجم مع العدل والرحمة هى العقيدة التى جاء بها القرآن الكريم، فالله لا يعاقب إلا من استحق العقوبة بسبب الجرائم التى ارتكبها، والله القادر على المعاقبة قادر كذلك على التجاوز والمغفرة من دون أن يحتاج إلى أى وساطة.

قام مستأجر بولس، وقال: دعنا من هذا الحديث، وحدثنا عما تزعمه من تكريمات، فلا أراك تذكر ما تذكر إلا لتفر منها.

قال عبد القادر: لا.. كل ما ذكرته يصب فى هذه التكريمات، بل يصب فى تكريمات المسيح ﷺ، فنحن نعتقد أن فكرة الاستعاضة أو التضحية النيابية فكرة غير منطقية عقلا، وغير مقبولة نصا.. بالإضافة إلى أنه لا معنى لها، وهى أشبه ما تكون بطبيب يحطم رأسه ليشفى صداع المرضى لديه، فهل يغنى ذلك عن مرضاه شيئا؟

ضحك الجمع، فقال: إن مبدأ الكفارة أو التضحية تجعل الأقنوم الأول فى الثالوث المقدس المكذوب متعطشًا لسفك الدم من أجل إظهار التضحية بالذات محبةً للأقنوم الثانى.

لقد عقب آرثر ويجال Arthur Weigall على مبدأ الكفارة كما يؤمن بها حضرة القس، فقال: (نحن لا نقدر أن نقبل المبدأ اللاهوتى الذى من أجل بعض البواعث الغامضة أوجب تضحية استرضائية، إن هذا انتهاك إما لتصوراتنا عن الله بأنه الكلى القدرة وإما لما نتصوره عنه ككلى المحبة، إن الدكتور كرودن الشهير يعتقد أنه من أجل مآرب لهذه التضحية فإن يسوع المسيح قاسى أشد العذاب أوقعها الله قصاصًا عليه، وهذا بالطبع وجهة نظر يتقزز منها العقل العصرى، والتى قد تكون شرطا

---

(1) بناء على ما فى الكتاب المقدس، أما القرآن الكريم فهو يبرئ هارون ﷺ من ذلك الإثم، انظر (الكلمات المقدسة) من هذه السلسلة.

لعقيدة بشعة ليست منفصلة عن ميول التلذذ بالقسوة للطبيعة البشرية البدائية، وفى الواقع إن هذه العقيدة دخيلة من مصدر وثنى وهى حقا من آثار الوثنية[1] فى الإيمان.

إن المنهج المسيحى للخلاص ليس فقط لا أخلاقيًا ولا منطقيًا ومعتلاً، بل أيضا لا سند له فى كلمات يسوع المسيح، ربما قال يسوع أنه يتعذب من أجل خطايا الناس، بمعنى أنه من أجل أن يخرجهم من الظلمات إلى النور تجشم النقمة الإلهية على فاعلى الشر، وكانوا سبب تعذيبه ولكن لا يعنى هذا أن موته كان تضحية من أجل خطايا الآخرين، وأن أولئك الذين يؤمنون فقط بدمه المسفوك عنهم ينالون غفران الخطايا.

لقد جاء يسوع المسيح لينقذ الناس من خطاياهم بتعاليمه وحياته المثالية فى تقوى الله وليس بالموت عمداً من أجلهم على الصليب ومنحهم دمه كفارة لخطاياهم.

وعندما جاء شاب إليه يسأله: (أَيُّهَا الْمُعَلِّمُ الصَّالِحُ، مَاذَا أَعْمَلُ لأَرِثَ الْحَيَاةَ الأَبَدِيَّةَ؟ وَلَكِنَّ يَسُوعَ قَالَ لَهُ: لِمَاذَا تَدْعُونِى الصَّالِحَ؟ لَيْسَ أَحَدٌ صَالِحًا إِلاَّ وَاحِدٌ، وَهُوَ اللهُ. أَنْتَ تَعْرِفُ الْوَصَايَا: لاَ تَقْتُلْ؛ لاَ تَزْنِ؛ لاَ تَسْرِقْ؛ لاَ تَشْهَدْ بِالزُّورِ؛ لاَ تَظْلِمْ؛ أَكْرِمْ أَبَاكَ وَأُمَّكَ)(مرقس 10: 17).

إن المسيح لم يذكر للسائل شيئًا عن تضحيته كفارة وقوة فداءه بسفك دمه، وكان جواب يسوع هو نفس جواب كل نبى قبله: (قَالَ لَهُ: لِمَاذَا تَدْعُونِى الصَّالِحَ؟ لَيْسَ أَحَدٌ صَالِحًا إِلاَّ وَاحِدٌ، وَهُوَ اللهُ) (مرقس 10: 18).

فحفظ الوصايا ـ وفقا لكلام يسوع المسيح ـ هى الطريق إلى الحياة الأبدية، فالخلاص يمكن الحصول عليه بالإيمان بالله، والتنحى عن الشر وفعل الخير وليس بقبول يسوع المسيح ملعونًا على الخشبة والإيمان بدمه المسفوك كفارة لخطايا الجنس البشرى).

قام رجل من الجمع، يظهر أنه مسيحى مخلص، فقال: فكيف يكفر الإنسان عن الخطايا التى كتبت فى جبينه؟

قال عبد القادر: نحن نعتقد بأن الله العادل الرحيم لم يكتب أى خطيئة فى أى جبين، ونعتقد أن كل إنسان مسؤول عن عمله وحده، فربنا يقول لنا: ﴿أَلاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النجم].

بل إن الله تعالى يخبرنا بأن هذه الحقيقة موجودة فى كل الكتب التى جاء بها الأنبياء ـ عليهم السلام ـ فهو يقول لنا: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰ ﴿٣٤﴾ أَعِندَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰ ﴿٣٥﴾ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النجم].

ويقول لنا ـ مخبرا عن يوم القيامة ـ: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾﴾ [الزلزلة].

ولهذا، فإن الله تعالى يضع عن كواهلنا جميع الأوزار التى لم ترتكبها أيدينا، فيقول: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٥٤﴾﴾ [النور].

ويقول: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾﴾ [البقرة]، ويقول: ﴿قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾﴾ [البقرة]، ويقول: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴿٥٥﴾﴾

---

(1) سنرى التأثيرات الوثنية فى المسيحية فى رسالة (الله جل جلاله) من هذه السلسلة.

[القصص]، ويقول: ﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾ [الشورى]، ويقول: ﴿قُل لاَّ تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [سبأ].

قام الرجل، وقال: فلنسلم لما ذكرت، ولكن كيف تكفر الخطايا؟

قال عبد القادر: لقد وضع الله تعالى للخطايا قوانين كثيرة:

أما الخطايا الكبرى التى تتعدى جميع الحدود، فتكفر بالعذاب.. بالعذاب الشديد الذى يحرق أسباب تلك الخطايا، ويكون كالداء العضال الذى لا يجدى معه إلا العملية الجراحية.

ومن هذا النوع من الخطايا الشرك بالله باعتباره أساس كل الانحرافات، فالله تعالى يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾﴾ [النساء].

ومن هذا النوع الظلم والتعدى وسفك الدم بغير حق، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾﴾ [النساء].

ومن الخطايا ما هو دون ذلك بكثير، فيكفر بأسباب كثيرة وضعها الشرع لتطهر القلب من أوزار الغفلة والمعصية.

**الشفاعة:**

قام مستأجر بولس، وقال: والشفاعة.. لا أراك تتحدث عنها.

قال عبد القادر: الشفاعة التى وردت بها نصوصنا المقدسة نوعان:

أولها ما يسمى بالشفاعة العظمى، وهى الشفاعة فى ذلك الموقف العظيم الذى يقفه العباد ينتظرون أن يحاسبوا على أعمالهم، ويجازوا عليها.

فقد أخبر رسول الله ﷺ عن قصة تلك الشفاعة فى حديث طويل، فقال: (أنا سيّد النّاس يوم القيامة، وهل تدرون ممّ ذلك؟ يجمع الله النّاس الأوّلين والآخرين فى صعيد واحد يسمعهم الدّاعى وينفذهم البصر، وتدنو الشّمس، فيبلغ النّاس من الغمّ والكرب ما لا يطيقون ولا يحتملون، فيقول النّاس: ألا ترون ما قد بلغكم؟ ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم؟ فيقول بعض النّاس لبعض: عليكم بآدم. فيأتون آدم عليه السّلام فيقولون له: أنت أبو البشر، خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأمر الملائكة فسجدوا لك، اشفع لنا إلى ربّك، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ ألا ترى إلى ما قد بلغنا؟ فيقول آدم: إنّ ربّى قد غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنّه قد نهانى عن الشّجرة فعصيته، نفسى نفسى نفسى اذهبوا إلى غيرى، اذهبوا إلى نوح.

فيأتون نوحًا فيقولون: يا نوح إنّك أنت أوّل الرّسل إلى أهل الأرض، وقد سمّاك الله عبدًا شكورًا، اشفع لنا إلى ربّك، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ فيقول: إنّ ربّى عزّ وجلّ قد غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنّه قد كانت لى دعوة دعوتها على قومى. نفسى نفسى نفسى، اذهبوا إلى غيرى، اذهبوا إلى إبراهيم.

فيأتون إبراهيم فيقولون: يا إبراهيم أنت نبىّ الله وخليله من أهل الأرض، اشفع لنا إلى ربّك، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ فيقول لهم: إنّ ربّى قد غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنّى قد كنت كذبت ثلاث كذبات نفسى نفسى نفسى، اذهبوا إلى غيرى، اذهبوا إلى موسى.

فيأتون موسى فيقولون: يا موسى أنت رسول الله، فضّلك الله برسالته وبكلامه على النّاس، اشفع لنا إلى ربّك، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ فيقول: إنّ ربّى قد غضب اليوم غضبًا لم

يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنّي قد قتلت نفسًا لم أومر بقتلها، نفسي نفسي نفسي. اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى عيسى.

فيأتون عيسى فيقولون: يا عيسى أنت رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وكلّمت النّاس في المهد صبيًّا، اشفع لنا إلى ربّك ألا ترى إلى ما نحن فيه، فيقول عيسى إنّ ربّي قد غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله - ولم يذكر ذنبًا - نفسي نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى محمّد ﷺ.

فيأتون محمّدًا، فيقولون: يا محمّد أنت رسول الله وخاتم الأنبياء، وقد غفر الله لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخّر، اشفع لنا إلى ربّك، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟

فأنطلق فآتي تحت العرش فأقع ساجدًا لربّي عزّ وجلّ، ثمّ يفتح الله عليّ من محامده وحسن الثّناء عليه شيئًا لم يفتحه على أحد قبلي، ثمّ يقال: يا محمّد ارفع رأسك، سل تعطه، واشفع تشفّع.

فأرفع رأسي فأقول: أمّتي يا ربّ، أمّتي يا ربّ[1]. فيقال: يا محمّد أدخل من أمّتك من لا حساب عليهم من الباب الأيمن من أبواب الجنّة، وهم شركاء النّاس فيما سوى ذلك من الأبواب. -ثم قال- والّذي نفسي بيده إنّ ما بين المصراعين من مصاريع الجنّة كما بين مكّة وحمير، أو كما بين مكّة وبصرى)[2].

التفت عبد القادر إلى أجير بولس، وقال: هذه هي الشفاعة الأولى.. وهي الشفاعة العظمى، وهي تبين لك بعض التكريم الذي كرم الله به نبيه ﷺ.

لقد وعد الله نبيه ﷺ بهذا المقام الرفيع[3]، فقال: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾﴾ [الإسراء].

أما الشفاعة الثانية، فهي شفاعته ﷺ في بعض المخطئين من أمته بأن يغفر لهم، ويدخلوا الجنة، أو يخفف لهم من النار.

قاطعه بولس، وقال: ألا ترى أن كلامك هذا يتناقض مع ما ذكرته سابقا من مسؤولية الإنسان على عمله.

قام رجل آخر، وقال: بل إن كلامه هذا يتناقض مع القرآن، ففي آيات كثيرة يخبر القرآن أنه لا شفاعة عند الله:

ففي القرآن نجد هذه الآيات المخبرة عن عدم جدوى الشفاعة: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [البقرة].. ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ [البقرة].. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٥٤﴾﴾ [البقرة].. ﴿قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الزمر].. ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [المدثر].

---

(1) في الحديث - كما نرى - شفاعتان: شفاعة عامة وهي في أهل الموقف - وشفاعة خاصة، في أمته.

(2) رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

(3) قال ابن جرير في تفسير الآية: قال أكثر أهل التأويل: ذلك هو المقام الذي يقومه ﷺ يوم القيامة للشفاعة للناس، ليريحهم ربهم من عظيم ما هم فيه من شدة ذلك اليوم.

وفيه نجد هذه الآية المخبرة عن عدم وجود الشفعاء: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾﴾ [الأنعام].. ﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [الأنعام].. ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾﴾ [السجدة].. ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾﴾ [غافر].

ويمثل هذا نادى محمد فى قومه وأهل بيته، فقال: (يا معشر قريش! اشتروا أنفسكم من الله، لا أغنى عنكم من الله شيئا، يا بنى عبد مناف اشتروا أنفسكم من الله، لا أغنى عنكم من الله شيئا، يا عباس بن عبد المطلب! لا أغنى عنك من الله شيئا، يا صفية عمة رسول الله! لا أغنى عنك من الله شيئا، يا فاطمة بنت محمد! سلينى من مالى ما شئت، لا أغنى عنك من الله شيئا)[1].

وقال لعمه العباس: (يا عباس أنت عمى، وإنى لا أغنى عنك من الله شيئا، ولكن سل ربك العفو والعافية فى الدنيا والآخرة)[2].

بل أخبر عن بعض أصحابه، بأنه لا يتمكن من الشفاعة لهم يوم القيامة، ففى الحديث: (يا أيها الناس! إنكم محشورون إلى الله تعالى حفاة عراة غرلا، ﴿... كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ ... ﴿١٠٤﴾﴾ [الأنبياء]، ألا وإن أول الخلائق يكسى يوم القيامة إبراهيم، ألا وإنه يجاء برجال من أمتى فيؤخذ بهم ذات الشمال، فأقول: يا رب أصحابى أصحابى، فقال: إنك لا تدرى ما أحدثوا بعدك، فأقول كما قال العبد الصالح: ﴿... وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ... ﴿١١٧﴾﴾ [المائدة]، فيقال: إن هؤلاء لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم)[3].

قال عبد القادر: صدقت.. إن كل ما ذكرته صحيح..

قام أجير بولس مقاطعا عبد القادر، وهو يقول بسخرية متوجها للجمع: انظروا أيها الناس إلى تناقضات هذا الرجل.. هو يتحدث عن الشفاعة، ويدافع عنها، ثم سرعان ما ينفيها..

ابتسم عبد القادر، وقال: لا.. لست متناقضا، وليس فى الحقائق الأزلية أى تناقض.

لقد ذكر هذا الرجل الفاضل الأصل والقاعدة العامة التى ينبنى على أساسها التكليف، فالتكليف مبنى على الجزاء.. والجزاء لا يكون إلا على العمل.

قال بولس: ولكن هذا يتناقض مع الشفاعة التى تعنى الجزاء الخالى من العمل.

قال عبد القادر: هذا ما يفهمه العامة الذين لم يدققوا فى النصوص، وهؤلاء هم الذين ينبغى أن يخاطبوا بما أورد ذلك الرجل الفاضل من النصوص.

أما الشفاعة فى حد ذاتها فهى نوع من الجزاء على أنواع دقيقة من العمل.

سأضرب لكم مثالا يقرب هذا.

لو أن شخصا من الناس كان يحب وجيها من الوجهاء حبا جما، ويخلص فى حبه والمنافحة له ما قدر عليه قلبه من الإخلاص، ثم وقع فى بعض الإساءات التى لم ترتبط بمصالح الناس، فهل ترون ذلك الوجيه يقعد عن نصرته أو الشفاعة له.

---

(1) رواه البخارى ومسلم.

(2) رواه أحمد وابن سعد والطبرانى فى الكبير.

(3) رواه البخارى ومسلم.

قالوا: لا..

قال عبد القادر: فهكذا الأمر.. فالشفاعة فى حقيقتها التى تدل عليها النصوص هى جزاء كسائر أنواع الجزاء التى يتالها الخلق فى الآخرة لأعمال عملوها أو صفات اتصفوا بها، وليست كما يتوهم من أنها وساطة ينجو على أساسها قوم فى الوقت الذى يحرم منها غيرهم مع تساوى الاستحقاق، لأن ذلك لا يتناسب مع العدل المطلق الذى بنيت عليه قوانين الآخرة[1].

ونرى بناء على هذا، وبناء على أدلة كثيرة لا يمكن ذكرها هنا أن الشفاعة خاصة بالمقصرين من محبى رسول الله ﷺ الذين قعدت بهم أعمالهم عن النجاة، فرفعتهم محبتهم إلى محل الشفاعة.

ولهذا ورد فى الحديث عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ أنه قال: قيل: يا رسول الله من أسعد النّاس بشفاعتك يوم القيامة؟ فقال رسول الله ﷺ: (لقد ظننت يا أبا هريرة ألاّ يسألنى عن هذا الحديث أحد أوّل منك، لما رأيت من حرصك على الحديث، أسعد النّاس بشفاعتى يوم القيامة من قال: لا إله إلاّ الله خالصًا من قلبه أو نفسه)[2].

وهذا النوع من الشفاعة ليس خاصا برسول الله ﷺ، بل قد ورد فى النصوص ما يدل على أن الأنبياء يشفعون فى أقوامهم، بل إن المؤمنين يفتح لهم باب الشفاعة، فيشفعوا فى أهاليهم وغيرهم بشرطين ذكرتهما النصوص.

أما الأول، فهو إذن الله تعالى للشافع: قال تعالى: ﴿... مَن ذَا الَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ... (٢٥٥)﴾ [البقرة]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ (٣)﴾ [يونس].

وأما الثانى، فهو الرضى، رضى الله تعالى عن المشفوع، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ (٢٦) لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (٢٧) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ (٢٨)﴾ [الأنبياء].

**الطاعة:**

قام أجير بولس، وقال: أهذا كل ما كرم به نبيكم؟

قال عبد القادر: هناك تكريمات إلهية كثيرة لنبينا ﷺ إن شئتم ذكرت لكم منها ما تعلمون به المكانة العظيمة التى هيأها الله لنبيه ﷺ.

أجاب الجمع بالإيجاب، فقال: من أعظم التكريمات التى كرم الله بها نبيه ﷺ أنه قرن طاعته بطاعة رسوله، ولهذا قال تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٣)﴾ [النساء]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا (٦٩)﴾ [النساء]، وقال: ﴿مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَن تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا (٨٠)﴾ [النساء]، وقال: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (٥٢)﴾ [النور]، وقال: ﴿يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا (٧١)﴾ [الأحزاب].

وغيرها من الآيات الكثيرة التى تقرن بين طاعة الله وطاعة رسوله.

قام رجل من الجمع، وقال: أليس ذلك من الشرك الذى نراكم تنفرون منه؟

قال عبد القادر: لا.. الشرك أن نعبد محمدا، أو تجعله لله ندا.. أما أن نتخذه أستاذا ومعلما

---

(1) انظر الأدلة الكثيرة لهذا الرأى فى رسالة (أسرار الأقدار) من سلسلة (رسائل السلام).

(2) رواه البخارى.

ومرشدا إلى الله، فليس في ذلك أي شرك، فنحن في حياتنا نستعمل الوسائط الكثيرة للبلوغ لأي مآرب.

ولهذا، فإن الله تعالى دل من يزعم محبة الله بالبحث عن مراضي الله، ومراضي الله لا تعرفها إلا عن طريق رسوله ﷺ، قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣١)﴾ [آل عمران].

قام رجل من الجمع، وقال: ولكن الله أرسل رسلا آخرين غير محمد.. لقد ذكر القرآن الكريم ذلك.

قال عبد القادر: نعم.. وتجب طاعتهم على أقوامهم الذين أرسلوا إليهم.

قال الرجل: فنحن مسيحيون.. ولهذا يجب علينا أن نطيع المسيح لا محمد؟

قال عبد القادر: أنت لست من أمة المسيح.. لقد أرسل المسيح عليه السلام إلى بني إسرائيل..

لقد كان يصيح في أتباعه قائلا: (إلى طريق أمم لا تمضوا وإلى مدينة للسامريين لا تدخلوا، بل اذهبوا بالحرى إلى خراف بني إسرائيل الضالة)(متى:10/ 5، 6).

قال رجل آخر: فأنا إسرائيلي النسب، وأدين بدين المسيح.

قال عبد القادر: لو كنت قبل محمد ﷺ كان يمكنك أن تدين بدين المسيح، ولكنك اليوم تبع لأمة محمد لا أمة المسيح.

قال الرجل: أنتم تحتكرون الدين بذلك؟

قال عبد القادر: سأضرب لك مثالا يبين لك هذه الحقيقة.. فكن معي وأجبني.

ألم تظهر أمراض كثيرة لم تعرفها البشرية من قبل؟

قال الرجل: بلى.. أمراض كثيرة ربما مرض بها من قبلنا من غير أن يعرفوها.

قال عبد القادر: فإذا مرض أحد الناس بهذا المرض هل نرشده إلى ما كتبه الأطباء في القرون الوسطى، أم نرشده إلى الأطباء الذين عايشوا المرض، واكتشفوا علاجه؟

قال الرجل: بل نرسله إلى الأطباء الذين عايشوا المرض، واكتشفوا علاجه.

قال عبد القادر: فهكذا الأمر مع الأنبياء ـ عليهم السلام ـ كل منهم جاء لوظيفة خاصة.. وقد أكملهم الله بخاتمهم محمد ﷺ الذي جاء بالشريعة الخاتمة التي تكفي احتياجات البشرية في جميع أزمانها الباقية إلى يوم القيامة.

ولهذا فإن الله تعالى جعل شريعة رسول الله ﷺ هي الشريعة المهيمنة على سائر الشرائع والناسخة لها، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٤٨)﴾ [المائدة].

ولهذا أخبر أنه لا يقبل إلا الإسلام، فقال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٨٥)﴾ [آل عمران].

وهذا ليس خاصا برسول الله ﷺ، فقد أمر الله كل رسول سابق بأن يؤمن وينصر من تلاه من الرسل، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ (٨١) فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٨٢)﴾ [آل عمران].

ففي هذه الآية يخبر الله تعالى أنه أخذ ميثاق كل نبي بعثه من لدن آدم عليه السلام إلى عيسى عليه السلام

لَمَهْمَا آتى الله أحدَهم من كتاب وحكمة، وبلغ أىّ مبلَغ، ثم جاءه رسول من بعده، ليؤمنَنَّ به ولينصرنَّه، ولا يمنعه ما هو فيه من العلم والنبوة من اتباع من بعث بعده ونصرته، كما قال طاووس، والحسن البصرى، وقتادة: أخذ الله ميثاق النبيين أن يصدق بعضهم بعضا.

وقد ذكر على بن أبى طالب وعبد الله بن عباس ـ رضى الله عنهم ـ تفسير هذه الآية، فقالا: ما بعث الله نبيا من الأنبياء إلا أخذ عليه الميثاق، لئن بَعَث محمداً وهو حىّ ليؤمنن به ولينصرنه، وأمَرَه أن يأخذ الميثاق على أمته: لئن بعث محمد ﷺ، وهم أحياء ليؤمنُنَّ به ولينصرنَّه.

ولهذا ورد فى الحديث أن عمر جاء إلى النبى ﷺ فقال: يا رسول الله، إنى مررتُ بأخٍ لى من قُرَيْظَة، فكتب لى جَوَامعَ من التوراة، ألا أعرضها عليك؟ قال: فتغيَّرَ وَجْهُ رسول الله ﷺ قال عبد الله بن ثابت[1]: قلت له: ألا ترى ما بوجه رسول الله ﷺ؟ فقال عمر: رضينا بالله ربا، وبالإسلام دينا، وبمحمد رسولا، فسُرِّىَ عن رسول الله ﷺ وقال: (وَالَّذِى نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْ أَصْبَحَ فِيكُمْ مُوسَى عليه السلام، ثُمَّ اتَّبَعْتُمُوهُ وَتَرَكْتُمُونِى لَضَلَلْتُمْ، إِنَّكُمْ حَظِّى مِنَ الأُمَمِ، وَأَنَا حَظُّكُمْ مِنَ النَّبِيِّينَ)[2].

وفى حديث آخر قال رسول الله ﷺ: (لا تَسْأَلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ عَنْ شَىْءٍ، فَإِنَّهُمْ لَنْ يَهْدُوكُمْ وَقَدْ ضَلُّوا، وَإِنَّكُمْ إِمَّا أَنْ تُصَدِّقُوا بِبَاطِلٍ وإما أَنْ تُكَذِّبُوا بِحَقٍّ، وَإِنَّهُ -والله- لَوْ كَانَ مُوسَى حَيًّا بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ مَا حَلَّ لَهُ إِلا أَنْ يَتَّبِعَنِى)[3].

فبمقتضى هذه النصوص، فإن محمدا ﷺ هو خاتم الأنبياء دائما إلى يوم الدين، وهو الإمام الأعظم الذى لو وجد فى أى عصر كان هو الواجب الطاعة المقدَّم على الأنبياء كلهم؛ ولهذا كان إمامهم ليلة الإسراء لما اجتمعوا ببيت المقدس، وكذلك هو الشفيع فى يوم الحشر فى إتيان الرب لِفَصْلِ القضاء.

قال الرجل: فهل تميز هذا الدين عما جاءت به سائر الأديان؟

قال عبد القادر: بأشياء كثيرة لا يمكن حصرها.

وقد تميزت رسالته ﷺ بأمور ثلاثة تفوق بها على الرسالات التى قبلها وتؤهلها لأن تكون خاتمة:

العموم: بمعنى أن رسالة الإسلام ليست محددة بزمن من الأزمان ولا بمكان من الأمكنة ولا بأمة دون الأمم منذ نزولها إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

يقول تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [سبأ].

ويقول تعالى أيضًا: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء].

ويقول تعالى أيضًا آمراً إعلان هذا الأمر: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ... ﴿١٥٨﴾﴾ [الأعراف] وهذه النصوص كلها تدل على عمومية رسالة النبى ﷺ وهى من إحدى خصائصه كما يدل عليه قوله ﷺ: "أعطيت خمسًا لم يعطهن أحد قبلى.. ثم ذكر من بينها: وكان النبى يبعث إلى قومه وبعثت إلى الناس كافة".

ويؤيد خصوصية الرسالات السابقة قوله تعالى: ﴿... وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾ [فاطر].

---

(1) راوى الحديث.

(2) رواه أحمد، قال الهيثمى فى المجمع (1/ 173): رجاله رجال الصحيح إلا أن فيه جابر الجعفى وهو ضعيف.

(3) رواه البزار وأحمد وأبو يعلى.

ثانيًا: الحفظ: حيث تكفل الله بحفظها باقية كما نزلت إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها دون تغيير شيء منها بالنقص منها أو الزيادة عليها.

يقول تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحجر] وهذا أمر مشاهد اليوم لا ينكره أحد بحيث لم يتغير منها شيء بعد أربعة عشر قرنًا وستبقى كذلك إلى حين يشاء الله تعالى، بخلاف الكتب السابقة التي تعرضت للتحريف والتبديل من قبل أصحابها كالتوراة والإنجيل.

ثالثًا: الكمال والتمام: ولقد أكملها سبحانه وتعالى لرسوله ﷺ كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿... الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا ... ﴿٣﴾﴾ [المائدة].

وقد نزلت هذه الآية في حجة الوداع في العام العاشر من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والتسليم كما ورد في الحديث الصحيح.

روى البخاري بسنده عن طارق بن شهاب قال: قالت اليهود لعمر: إنكم تقرأون آية لو نزلت فينا لاتخذناها عيدًا فقال عمر: "إني لأعلم حيث أنزلت وأين أنزلت وأين رسول الله ﷺ حين أنزلت يوم عرفة، وإنا والله بعرفة".

ومن هنا أقول: إنّ هذه الآية نزلت بعد جهاد طويل دام ثلاثة وعشرين سنة، وفي وقت أظهر الله دينه، وفي حجة الوداع التي لم يحج فيها مشرك لما ورد في الصحيح.

روى البخاري بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: "بعثني أبو بكر رضي الله عنه في تلك الحجة في المؤذنين بعثهم يوم النحر يؤذنون بمنى أن لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان".

وكان ذلك في العام التاسع من الهجرة. ولهذا لم يحج عام حجة الوداع الذي حج فيه رسول الله ﷺ مشرك.

كما أني أقول أيضًا: إنّ الرسول ﷺ قد أبلغ الأمة ما كلف به دون كتمان شيء تنفيذًا لأمر الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ... ﴿٦٧﴾﴾ [المائدة].

وتقول عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها في هذا الصدد: "من حدثك أنّ محمدًا قد كتم شيئًا مما أنزل عليه، فقد كذب، والله يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ... ﴿٦٧﴾﴾ [المائدة].

وقد شهد له بذلك جموع من أصحابه رضوان الله عليهم في حجة الوداع حينما قال لهم أثناء خطبته بوادي عرنة في يوم عرفة: ".. أنتم مسؤولون عني فما أنتم قائلون؟ قالوا: "نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت" فقال بأصبعه السبابة يرفعها إلى السماء وينكبها إلى الناس: "اللهم اشهد اللهم اشهد، ثلاث مرات.. ".

ولكني سأذكر لك بعض الأحاديث التي ذكر فيها رسول الله ﷺ تميز شرعه وأمته عن سائر الشرائع والأمم:

فمن ذلك قوله ﷺ: (جعلت لي الأرض مسجدا وطهورا، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد بعدي)[1].

ومنها قوله ﷺ: (فضلت على الناس بست: أعطيت جوامع الكلم، ونصرت بالرعب، وأحلت لي الغنائم، وجعلت لي الأرض طهورا ومسجدا)[2].

---

(1) رواه البخاري ومسلم.

(2) رواه مسلم.

ومنها قوله ﷺ: (فضلت أنا وأمتى فى الصلاة تصف كما تصف الملائكة، وجعل الصعيد لى وضوءا، وجعلت لى الأرض مسجدا، وأحلت لى الغنائم)[1].

ومنها قوله ﷺ: (كان الأنبياء يقربون الخمس، فتجيء النار فتأكله وأمرت أنا أن أقسمه فى فقراء أمتى)[2].

ومنها قوله ﷺ: (إن أمتى يدعون يوم القيامة غرا محجلين من آثار الوضوء)[3].

وفى حديث عن معاذ ـ رضى الله عنه ـ قال: أخر رسول الله ﷺ صلاة العتمة ليلا، حتى ظن الظان أنه قد صلى ثم خرج، فقال: (أعتموا بهذه الصلاة، فإنكم فضلتم بها على سائر الأمم ولم تصلها أمة قبلكم)[4].

وفى حديث آخر عن أبى موسى ـ رضى الله عنه ـ قال: أعتم رسول الله ﷺ بالعشاء حتى إبهار الليل، ثم خرج فصلى فلما قضى صلاته، قال لمن حضر: (أبشروا فإن من نعمة الله عليكم أنه ليس أحد من الناس يصلى هذه الساعة غيركم)[5].

وفى حديث آخر عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: (ما حسدتكم اليهود على شيء ما حسدتكم على آمين، فأكثروا من قول آمين)[6].

وفى حديث آخر عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت: قال رسول الله ﷺ: (لم تحسدنا اليهود بشيء حسدنا بثلاث: التسليم، والتأمين، واللهم ربنا لك الحمد)[7].

وفى حديث آخر عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ أن النبى ﷺ قال: (إنهم لا يحسدوننا على شيء كما حسدونا على الجمعة التى هدانا الله لها، وضلوا عنها، وعلى القبلة التى هدانا الله لها، وضلوا عنها، وعلى قولنا خلف الإمام آمين)[8].

وفى حديث آخر عن حذيفة وأبى هريرة ـ رضى الله عنهما ـ أن رسول الله ﷺ قال: (أضل الله تعالى عن الجمعة من كان قبلنا، فكان لليهود يوم السبت، وكان للنصارى يوم الأحد، فجاء الله بنا، فهدانا ليوم الجمعة، فجعل الجمعة، والسبت، والأحد، وكذلك هم تبع لنا يوم القيامة ونحن الآخرون من أهل الدنيا، والأولون يوم القيامة المقضى لهم قبل الخلائق)[9].

وفى حديث آخر عن ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: (أقيموا الصفوف، فإنما تصفون كما تصف الملائكة، وحاذوا المناكب، وسدوا الخلل، ولينوا فى أيدى إخوانكم، ولا تذروا فرجات للشيطان، ومن وصل صفا وصله الله، ومن قطع صفا قطعه الله)[10].

وفى حديث آخر عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: (لا يزال هذا الدين ظاهرا ما عجل الناس الفطر، إن النصارى واليهود يؤخرون)[11].

---

(1) رواه الطبرانى.
(2) رواه البخارى فى (التاريخ) والبزار والبيهقى وأبو نعيم عن ابن عباس رضى الله عنهما.
(3) رواه البخارى ومسلم.
(4) رواه ابن أبى شيبة فى المصنف والبيهقى فى سننه.
(5) رواه البخارى ومسلم.
(6) رواه ابن ماجة.
(7) رواه البيهقى.
(8) رواه أحمد والبيهقى.
(9) رواه مسلم.
(10) رواه أحمد ومسلم وأبو داود والنسائى.
(11) رواه أبو داود، وابن ماجة.

وفى حديث آخر عن أنس ـ رضى الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: (إن الله وهب لأمتى ليلة القدر، ولم يعطها أحدا ممن كان قبلكم)[1].

وفى حديث آخر عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: (أعطيت أمتى شيئا لم يعطهن أحد من الأمم، أن يقولوا عند المصيبة: إنا لله وإنا إليه راجعون)[2].

وفى حديث آخر عن ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ أن رسول الله ﷺ قال: (إنما بقاؤكم فيما سلف قبلكم من الأمم كما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس، أوتى أهل التوراة التوراة فعملوا بها حتى إذا انتصف النهار عجزوا، فأعطوا قيراطا قيراطا، ثم أوتى أهل الإنجيل الإنجيل، فعملوا إلى صلاة العصر، ثم عجزوا، فأعطوا قيراطا قيراطا، ثم أوتينا القرآن فعملنا إلى غروب الشمس فأعطينا قيراطين قيراطين فقال أهل الكتابين أى ربنا: أعطيت هؤلاء قيراطين قيراطين وأعطيتنا قيراطا قيراطا، ونحن كنا أكثر عملا، قال: هل ظلمتكم من أجركم من شىء؟ قالوا: لا، قال: فهو فضلى أوتيه من أشاء)[3].

وفى حديث آخر: (لا يزال ناس من أمتى ظاهرين على الحق حتى يأتى أمر الله وهم على ذلك ظاهرون)[4].

وغيرها من الأحاديث الكثيرة التى تبين ما امتن الله به على أمته وشرعه مما لم يوجد نظيره فى الملل الأخرى.

**الصلاة:**

قال عبد القادر: ومن التكريمات التى كرم الله بها نبيه ﷺ صلاته علينا، وأمر المؤمنين بأن يصلوا عليه، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾﴾ [الأحزاب].

قام أجير بولس، وقال ببلاهته المعهودة: ها أنتم تشاركوننا فى عبادة محمد.. أليست الصلاة نوعا من العبادة، بل من أهم أنواعها.

قال عبد القادر: نعم الصلاة على رسول الله ﷺ عبادة، ولكنها عبادة لله، لا عبادة لمحمد.

قال رجل من الحاضرين: كيف ذلك؟

قال عبد القادر: لأنا نمارسها طاعة لله، واستجابة لأمره، إن الأمر فيها يشبه أمر الله للملائكة بالسجود لآدم ﷺ، فهل ترى الله فى ذلك المحل أمرهم بعبادة آدم؟

سكت الرجل، فقال عبد القادر: أساس الإشكال الذى حصل لكم هو فى كون لفظ الصلاة يطلق على معنيين:

أولهما العبادة المعروفة، والتى لا يتوجه بها إلا لله.

وثانيهما الدعاء والتبريك، ولهذا قال تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾﴾ [التوبة].

وقال تعالى فى حق المنافقين: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨٤﴾﴾ [التوبة].

---

(1) رواه الديلمى.

(2) رواه الطبرانى.

(3) رواه البخارى ومسلم.

(4) رواه البخارى ومسلم.

وقد ورد فى الحديث عن عبد الله بن أبى أوفى قال: كان رسول الله ﷺ إذا أتى بصدقة قال: (اللهم صل على آل فلان)، فأتاه أبى بصدقة فقال: (اللهم صل على آل أبى أوفى)[1]، وعن جابر بن عبد الله قال: أتانا النبى ﷺ، فقالت له امرأتى: يا رسول الله صلٍّ على وعلى زوجى، فقال: (صلى الله عليك وعلى زوجك)[2].

فالصلاة فى كل هذه المحال تعنى طلب الرحمة والمغفرة والتقريب وغيرها من أفضال الله وبركاته[3].

قال الرجل: فرسولكم يحتاج إلى دعواتكم إذن؟

قال عبد القادر: لا أحد من الناس يستغنى عن الدعوات.. ولكن مع ذلك، فحاجتنا إلى الصلاة عليه تفضل كل حاجة، لأننا بالصلاة عليه نذكره، وبذكره نتعرف عليه، وبالتعرف عليه نحبه، وبحبه نصل إليه، وبالوصول إليه ننال كل خير فى الدنيا والآخرة.

إن المكروب منا يصلى عليه، فيجد من لذة الأنس به ما يشغله عن كربه.

وإن صاحب الحاجة منا تنسد فى طريقه الأبواب، فإذا صلى عليه فتح الله عليه مغاليقها.

لقد عرفنا هذا بالتجربة، وعرفنا به قبل ذلك نبينا ﷺ، فقد ساق من فضائل الصلاة عليه ما بين عظم المكانة التى جعلها الله له:

فقد أخبر ﷺ أن أول جزاء يناله من صلى على محمد ﷺ أن يصلى الله عليه، وقد ورد ذلك فى أحاديث كثيرة ترغب فى هذا الجزاء العظيم:

فعن عبد الرحمن بن عوف ـ رضى الله عنه ـ قال: خرج رسول الله ﷺ، فاتبعته حتى دخل نخلاً، فسجد، فأطال السجود حتى خفت أو خشيت أن يكون الله قد توفاه أو قبضه، قال: فجئت أنظر، فرفع رأسه فقال: (ما لك يا عبد الرحمن؟)، فذكرت ذلك له، فقال: (إن جبريل عليه السلام قال لى ألا أبشرك؟ أن الله عز وجل يقول: من صلى عليك صليت عليه، ومن سلم عليك سلمت عليه[4])[5].

بل ورد فى حديث آخر ما هو أعظم من ذلك، قال رسول الله ﷺ: (من صلى علىّ صلاة واحدة صلى الله عليه عشر صلوات، وحط عنه عشر خطيئات)[6].

وعن أبى طلحة الأنصارى ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ جاء ذات يوم والسرور يرى فى وجهه فقالوا: يا رسول الله إنا لنرى السرور فى وجهك؟ فقال: (إنه أتانى الملك فقال: يا محمد أما يرضيك أن ربك عز وجل يقول إنه لا يصلى عليك أحد من أمتك إلا صليت عليه عشراً، ولا يسلم عليك أحد من أمتك إلا سلمت عليه عشراً؟ قلت: بلى)[7].

(1) رواه البخارى ومسلم، وأبو داود والنسائى وابن ماجة.

(2) رواه ابن أبى شيبة.

(3) أما طلبنا من الله الصلاة على محمد ﷺ، فيتضمن معانى كثيرة منها:

1. الدعاء له بالرحمة، فعن الضحاك قال: صلاة الله رحمته، وصلاة الملائكة الدعاء، وقال بعض علماء اللغة: أصل الصلاة الرحمة، فهى من الله رحمة ومن الملائكة رقة واستدعاء للرحمة من الله.

2. طلب المغفرة، فعن الضحاك فى قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾﴾ [الأحزاب] قال: صلاة الله مغفرته، وصلاة الملائكة الدعاء.

3. ثناؤه وتعظيمه وإظهار شرفه وفضله وحرمته، قال أبو العالية: «صلاة الله عليه ثناؤه عليه عند الملائكة».

(4) زاد فى رواية: «فسجدت لله شكراً».

(5) رواه أحمد والحاكم.

(6) رواه أحمد.

(7) رواه أحمد وابن حبان، وفى رواية أخرى رواها أحمد والنسائى عن أبى طلحة الأنصارى ـ رضى الله عنه ـ قال:=

بل ورد فى حديث آخر ما هو أعظم من ذلك كله، فقد قال ﷺ يحكى عن الله تعالى: (من صلى عليك صليت عليه، ومن سلم عليك سلمت عليه)[1].

التفت إلى الجمع، وقال: هل ترون ـ أيها الجمع الفاضل ـ تكريما أعظم من هذا التكريم.. الله خالق كل شيء، ومالك كل شيء، ومليك كل شيء يقول لنا هذا، ويربط صلاته وسلامه علينا بصلاتنا وسلامنا على محمد ﷺ.

سكت قليلا، ثم قال: وبعد هذا، فقد ورد فى النصوص تكريمات أخرى ترتبط بالذين يصلون على محمد ﷺ:

فقد أخبر ﷺ أن الملائكة لا تزال تصلى على الذى يصلى على النبى ﷺ، قال رسول الله ﷺ: (من صلى على صلاة لم تزل الملائكة تصلى عليه ما صلى على، فليقل عبد من ذلك أو ليكثر)[2].

وأخبر ﷺ أن الذين يصلون عليه هم أولى الناس به، وبشفاعته يوم القيامة، فقد قال رسول الله ﷺ: (إن أولى الناس بى يوم القيامة أكثرهم على صلاة)[3].

وفى حديث آخر قال ﷺ: (إذا سمعتم المؤذن، فقولوا مثل ما يقول ثم صلوا على، فإنه من صلى على صلاة صلى الله عليه بها عشرا، ثم سلوا لى الوسيلة فإنها منزلة من الجنة لا تنبغى إلا لعبد من عباد الله وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل الله لى الوسيلة حلت له الشفاعة)[4].

وفى حديث آخر قال رسول الله ﷺ: (من قال: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وآل إبراهيم، وترحم على محمد وعلى آل محمد كما ترحمت على إبراهيم وآل إبراهيم، شهدت له يوم القيامة بالشهادة وشفعت له)[5].

وأخبر ﷺ عن الأجور الكثيرة بأنواعها المختلفة التى أعدها الله لمن يصلون على النبى ﷺ، فقال: (من صلى على من أمتى صلاة مخلصًا من قلبه صلى الله عليه بها عشر صلوات، ورفعه بها عشر درجات، وكتب له بها عشر حسنات، ومحا عنه بها عشر سيئات)[6].

هذا فى الأجور.. والتى هى رأسمال المؤمن الذى يرجو الدار الآخرة.

وبما أن الله رب الدنيا والآخرة، فإنه جعل لمن صلى على حبيبه ﷺ أجورا دنيوية بالإضافة إلى الأجور الأخروية:

فقد أخبر ﷺ أن الذى يجعل صلاته كلها للنبى ﷺ يكفيه الله همه ويغفر له ذنبه، فقد سأل أبى بن كعب ـ رضى الله عنه ـ رسول الله ﷺ: كم أجعل لك من صلاتى؟ قال: (ما شئت)، قلت: الربع؟ قال: (ما شئت، فإن زدت فهو خير لك)، فقلت: النصف؟ قال: (ما شئت وإن زدت فهو خير لك)، قلت: أجعل لك صلاتى كلها؟ قال: (إذا يكفى همك ويغفر ذنبك)[7].

---

=أصبح رسول الله ﷺ يومًا طيب النفس يرى فى وجهه البشر، قالوا: يا رسول الله أصبحت اليوم طيب النفس يرى فى وجهك البشر، قال: «أجل، أتانى آت من ربى عز وجل فقال: من صلى عليك من أمتك صلاة كتب الله له بها عشر حسنات، ومحا عنه عشر سيئات، ورفع له عشر درجات، ورد عليه مثلها».

(1) رواه أحمد والحاكم..

(2) رواه أحمد وابن أبى شيبة وابن ماجه.

(3) رواه الترمذى وابن حبان.

(4) رواه مسلم وأبو داود والترمذى.

(5) رواه البخارى.

(6) رواه النسائى والطبرانى والبزار.

(7) رواه أحمد والترمذى والحاكم.

وفى حديث آخر قال رجل: يا رسول الله أرأيت إن جعلت صلاتى كلها عليك؟ قال: (إذا يكفيك الله تبارك وتعالى ما أهمك من دنياك وآخرتك)[1].

ولهذا ربط السلف الصالح - رضى الله عنهم - بين الدعاء والصلاة على النبى ﷺ، فعن على رضى الله عنه قال: (كل دعاء محجوب حتى يصلى على محمد ﷺ)[2].

وعن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - قال: (إن الدعاء موقوف بين السماء والأرض لا يصعد منه شىء حتى تصلى على نبيك ﷺ)[3].

ولهذا علمنا ﷺ كيف نمزج فى دعائنا بين مطالبنا الشخصية وبين الصلاة على رسول الله ﷺ، فعن فضالة بن عبيد - رضى الله عنه - قال: سمع رسول الله ﷺ رجلا يدعو فى صلاته لم يمجد الله تعالى ولم يصل على النبى ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: (عجل هذا)، ثم دعاه فقال له أو لغيره: (إذا صلى أحدكم، فليبدأ بتمجيد ربه سبحانه والثناء عليه، ثم يصلى على، ثم يدعو بعد بما شاء)[4].

وعن عبد الله بن مسعود - رضى الله عنه - قال: كنت أصلى والنبى ﷺ وأبو بكر وعمر معه، فلما جلست بدأت بالثناء على الله ثم الصلاة على النبى ﷺ ثم دعوت لنفسى، فقال النبى ﷺ: (سل تعطه، سل تعطه)[5].

* * *

(1) رواه أحمد.

(2) رواه الطبرانى موقوفا ورفعه بعضهم.

(3) رواه الترمذى.

(4) رواه أبو داود والترمذى أحمد والنسائى والحاكم، وفى رواية: فليبدأ بتحميد ربه عز وجل.

(5) رواه الترمذى.

## 2 - تكريم السماء

قام أجير بولس: لقد كرم المسيح برفعه إلى السماء.. ولكن محمدا لم يكرم بهذا النوع من التكريم.

ابتسم عبد القادر، وقال: لكأني بك تريد أن تستفزني لأحدثك عن تكريم من أعظم تكريمات الله لنبيه ﷺ، وهو تكريمه بالإسراء والمعراج، فإن أذنتم لي حدثتكم عن ذلك.

أشار إليه الجميع بالإيجاب، فقال: لقد اختار الله تعالى لذلك التكريم زمنا[1] بلغ فيه البلاء قمته برسول الله ﷺ، وكأن الله تعالى ـ برحمته ولطفه ـ أراد أن يتفس عن رسوله ما يمر به من أزمات.

أو كأنه يقول له: يا محمد إن كان الخلق قد قلوك وآذوك، فإن السماء، بل إن السموات السبع وما فوقها، كلها بما فيها من الملائكة والأنبياء والأولياء يعظمك ويكنّ لك كل المودة والاحترام.

ولتعرفوا هذا سأقص عليكم قصة الإسراء والمعراج[2] كما رويت بالأسانيد الكثيرة التي لا يشك عاقل في صحتها.

---

(1) اختلف العلماء في تعيين زمن الإسراء والمعراج على الأقوال التالية:

1. كان الإسراء في السنة التي أكرمه الله فيها بالنبوة، واختاره الطبري.
2. كان بعد المبعث بخمس سنين، رجح ذلك النووي والقرطبي.
3. كان ليلة السابع والعشرين من شهر رجب سنة 10 من النبوة.
4. قبل الهجرة بستة عشر شهراً، أي في رمضان سنة 12 من النبوة.
5. قبل الهجرة بسنة وشهرين، أي في المحرم سنة 13 من النبوة.
6. قبل الهجرة بسنة، أي في ربيع الأول سنة 13 من النبوة.

وردت الأقوال الثلاثة الأول بأن خديجة ـ رضي الله عنها ـ توفيت في رمضان سنة عشر من النبوة، وكانت وفاتها قبل أن تفرض الصلوات الخمس، ولا خلاف أن فرض الصلوات الخمس كان ليلة الإسراء.

أما الأقوال الثلاثة الباقية فليس في النصوص ما يرجح واحداً منها، غير أن سياق سورة الإسراء يدل على أن الإسراء وقع متأخراً جداً.

(2) القصة التي اخترنا سردها هنا مجموعة من أحاديث مختلفة، جمعها علامة السيرة الجليل شمس الدين أبو عبد الله محمد بن يوسف الصالحي الشامي، في كتابه القيم (سبل الهدى والرشاد في سير خير العباد).

وقد ذكر في مقدمة جمعه لها ما قد يعترض عليه، وهو مهم جدا لمن قد يعترض على هذا السرد، فقال: اعلم رحمني الله وإياك أن في حديث كل من الصحابة السابق ذكرهم في الباب السابع ما ليس في الآخر، فاستخرت الله تعالى وأدخلت حديث بعضهم في بعض ورتبت القصة على نسق واحد، لتكون أحلى في الآذان الواعيات، وليعم النفع بها في جميع الحالات.

فإن قلت إن أحاديث المعراج كل حديث منها مخالف للآخر، فقد يكون المعراج تعدد بعددها فلم جعلت الكل قصة واحدة؟ فأقول: قال في (زاد المعاد): «هذه طريقة ضعفاء الظاهرية من أرباب النقل الذين إذا رأوا في القصة لفظة تخالف سياق بعض الرواة جعلوه مرة أخرى فكلما اختلفت عليهم الرواة عددوا هم الوقائع والصواب الذي عليه أئمة النقل أن الإسراء كان مرة واحدة بمكة بعد البعثة، ويا عجبا لهؤلاء الذين زعموا أنه وقع مرارا كيف ساغ لهم أن يظنوا أنه في كل مرة تفرض عليه الصلاة خمسين، ثم يتردد بين ربه وبين موسى حتى تصير خمسا، ثم يقول: «أمضيت فريضتي وخففت عن عبادي»، ثم يعيدها في المرة الثانية خمسين ثم يحطها عشرا عشرا؟

وقد نقل عن ابن كثير في تاريخه، سر اختلاف الرواة، فقال: «وكان بعض الرواة يحذف بعض الخبر للعلم به، أو ينساه، أو يذكر ما هو الأهم عنده، أو ينشط تارة فيسوقه كله، وتارة يحدث مخاطبه بما هو الأنفع له.. ومن جعل كل رواية خالفت الأخرى مرة على حدة، فأثبت إسراءات متعددة فقد أبعد وأغرب وهرب إلى غير مهرب ولم يحصل على مطلب.. وذلك أن كل السياقات فيها تعريفه بالأنبياء، وفي كلها تفرض عليه الصلوات، فكيف يدعى تعدد ذلك؟ هذا في غاية البعد.. ولم ينقل ذلك عن أحد من السلف ولو تعدد هذا التعدد لأخبر النبي ﷺ به أمته ولنقله الناس على التكرار». =

فالقصة هي أن سقف بيت النبي ﷺ فرج، فنزل جبريل، فشق من ثغرة نحره إلى أسفل بطنه، ثم قال جبريل لميكائيل: ائتيني بطست من ماء زمزم كيما أطهر قلبه وأشرح صدره، فاستخرج قلبه، فغسله ثلاث مرات، ونزع ما كان فيه من أذى، واختلف إليه ميكائيل بثلاث طسوت من ماء زمزم، ثم أتى بطست من ذهب ممتلئ حكمة وإيمانا، فأفرغه في صدره، وملأه حلما وعلما ويقينا وإسلاما.

ثم أطبقه ثم ختم بين كتفيه بخاتم النبوة، ثم أتى بالبراق مسرجا ملجما، وهو دابة، أبيض طويل، فوق الحمار ودون البغل، يضع حافره عند منتهى طرفه، مضطرب الأذنين، إذا أتى على جبل ارتفعت رجلاه، وإذا هبط ارتفعت يداه، له جناحان في فخذيه يحفز بهما رجليه.

فساروا حتى بلغوا أرضا ذات نخل، فقال له جبريل: انزل، فصل ههنا، ففعل، ثم ركب، فقال له جبريل: أتدرى أين صليت؟ قال: لا، قال: صليت بطيبة وإليها المهاجر.

فانطلق البراق يهوى به، يضع حافره حيث أدرك طرفه، فقال جبريل: انزل فصل، ففعل، ثم ركب، فقال جبريل: أتدرى أين صليت؟ قال: لا، قال: صليت بمدين عند شجرة موسى.

ثم ركب، فانطلق البراق يهوى، ثم قال: انزل فصل، ففعل، ثم ركب، فقال: أتدرى أين صليت؟ قال: لا، قال: صليت بطور سيناء حيث كلم الله موسى.

ثم بلغ أرضا بدت له قصورا، فقال له جبريل: انزل فصل، ففعل، ثم ركب وانطلق البراق يهوى، فقال له جبريل: أتدرى أين صليت؟ قال: لا، قال: صليت ببيت لحم، حيث ولد عيسى.

وبينا هو يسير على البراق إذ رأى عفريتا من الجن، يطلبه بشعلة من نار، كلما التفت رآه، فقال له جبريل: ألا أعلمك كلمات تقولهن، فإذا قلتهن طفئت شعلته وخر لفيه؟ فقال رسول الله ﷺ: بلى، فقال جبريل: (قل أعوذ بوجه الله الكريم، وبكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر، من شر ما ينزل من السماء، ومن شر ما يعرج فيها، ومن شر ما ذرأ في الأرض، ومن شر ما يخرج منها، ومن شر فتن الليل والنهار، ومن طوارق الليل والنهار إلا طارقا يطرق بخير يا رحمن)، فانكب لفيه وانطفأت شعلته.

فساروا حتى أتوا على قوم يزرعون في يوم ويحصدون في يوم، كلما حصدوا عاد كما كان فقال: يا جبريل ما هذا؟ قال: هؤلاء المجاهدون في سبيل الله تضاعف لهم الحسنة بسبعمائة ضعف، وما أنفقوا من شيء فهو يخلفه.

ووجد ريحا طيبة، فقال: يا جبريل ما هذه الرائحة؟ قال: هذه رائحة ماشطة بنت فرعون وأولادها، بينا هي تمشط بنت فرعون إذ سقط المشط، فقالت: بسم الله، تعس فرعون، فقالت ابنة فرعون: أو لك رب غير أبي؟ قلت: نعم، ربي وربك الله.

وكان للمرأة ابنان وزوج، فأرسل إليهم فراود المرأة وزوجها أن يرجعا عن دينهما، فقال: إني قاتلكما، فقالت: إن لي إليك حاجة، قال: وما هي؟ قالت: تجمع عظامي وعظام ولدي، فتدفنا جميعا.

قال: ذلك لك بما لك علينا من الحق، فأمر بنقرة من نحاس فأحميت، ثم أمر بها لتلقى فيها

---

= ومثل ذلك قال ابن حجر في الفتح نحوه وزاد: «ويلزم أيضا وقوع التعدد في سؤاله ﷺ عن كل نبي وسؤال أهل كل باب: هل بعث إليه؟ وفرض الصلوات الخمس وغير ذلك، فإن تعدد مثل ذلك في القصة لا يتجه، فيتعين رد بعض الروايات المختلفة إلى بعض أو الترجيح إلا أنه لا يعد وقوع مثل ذلك في المنام توطئة ثم وقوعه يقظة» انظر: سبل الهدى:3/ 79، فما بعدها.

هى وأولادها، فألقوا واحدا واحدا، حتى بلغوا أصغر رضـيع فيهم، فقال: يا أمه قعى ولا تقاعسى، فإنك على الحق.

قال: وتكلم أربعة وهم صـغار: هذا وشاهد يوسف وصاحب جريج وعيـسى ابن مريم عليه السلام.

ثم أتى على قوم ترضخ رؤوسهم، كلما رضخت عـادت كما كانت، ولا يفتر عنهم من ذلك شىء، فقال: يا جبريل من هؤلاء؟ فقال: هؤلاء الذين تتشاغل رؤوسهم عن الصلاة المكتوبة.

ثم أتى على قوم على أقبـالهم رقاع وعلى أدبارهم رقاع، يسرحون كـما تسرح الإبل والغنم، ويأكلون الضريع والزقوم ورضف جـهنم وحجارتها، فقال: من هؤلاء يا جـبريل؟ قال: هؤلاء الذين لا يؤدون صدقات أموالهم، وما ظلمهم الله شيئا.

ثم أتى على قوم بين أيديهم لحم نضيج فى قدور، ولحم آخر نيئ خبيث، فجعلوا يأكلون من النيئ الخبيث ويدعون النضيج، فقـال: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الرجل من أمتك تكون عنده المرأة الحلال الطيب، فيـأتى امرأة خبيـثة، فيبيت عنـدها حتى يصبح، والمرأة تقوم من عند زوجـها حلالا طيبا، فتأتى رجلا خبيثا فتبيت معه حتى تصبح.

ثم أتى على خـشبـة على الطريق لا يمر بهـا ثوب ولا شىء إلا خـرقته، فـقال: مـا هذا يا جبريل؟ فقال: هذا مثل أقوام من أمتك يقعدون على الطريق فيقطعونه، وتلا: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ ... ﴿٨٦﴾﴾ [الأعراف].

ورأى رجلا يسبح فى نهر من دم، يلقم الحجارة، فقال: من هذا؟ قال: آكل الربا.

وأتى على قوم قـد جمع الرجل منهم حـزمة عظيمـة لا يـستطيع حـملها، وهو يزيد عليـها. فقال: مـا هذا يا جبريل؟ قال: هذا الرجل من أمتك تكون عنده أمـانات الناس لا يقدر على أدائها، ويريد أن يتحمل عليها.

ثم أتى على قوم تقرض ألسـنتـهم وشفاههم بمقاريض من حديد كلما قـرضت عادت، لا يفتر عنهم من ذلك شىء، فقال: من هؤلاء يا جـبريل؟ قال: هؤلاء خطباء الفتنة من أمـتك يقولون ما لا يفعلون.

ومر بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشـون وجوههم وصدورهم، فقال: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون فى أعراضهم.

وأتى على حجر صـغير يخرج منه ثور عظيم، فجعل الثـور يريد أن يرجع من حيث خرج، فلا يـستطيع، فقال: ما هذا يا جـبريل؟ قال: هذا الرجل يتكلم بالكلمـة العظيمة ثم يندم عليـها فلا يستطيع أن يردها.

وأتى على واد فوجد ريحا طيبة باردة كريح المسك، وسـمع صوتا، فقال: يا جبريل ما هذا؟ قال: هـذا صوت الجنة تقـول: يا رب إيتنى بما وعدتنى، فـقد كـثرت غـرفى واستـبرقى وحـريرى وسندسى، وعبقرى ولؤلؤى ومرجانى وفضـتى وذهبى، وأكوابى وصحافى وأباريقى ومراكبى وعـسلى ومائى، ولبنى وخمرى.

قال: لك كل مـسلم ومسلمة ومـؤمن ومؤمنة، ومن آمن بى وبرسلى، وعمل صـالحا، ولم يشرك بى، ولم يتـخذ من دونى أندادا، ومن خشينى فـهو آمن، ومن سألنى أعطيتـه، ومن أقرضنى جزيـته، ومن توكل على كـفيـته، إنى أنا الله لا إله إلا أنا، لا أخلف المـيعاد، وقـد أفلح المؤمنون، وتبارك الله أحسن الخالقين، قالت: قد رضيت.

وأتى على واد فسمع صوتا منكرا ووجد ريحا منتنة، فقال: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا صوت جهنم تقول: يا رب إيتنى بما وعدتنى فقد كثرت سلاسلى وأغلالى وسعيرى وحميمى وضريعى وغساقى وعذابى، وقد بعد قعرى واشتد حرى، فأتنى بما وعدتنى.

فقال: لك كل مشرك ومشركة، وكافر وكافرة، وخبيث وخبيثة، وكل جبار لا يؤمن بيوم الحساب: قالت: قد رضيت.

ورأى الدجال فى صورته رؤية عين لا رؤيا منام، فقيل: يا رسول الله ﷺ كيف رأيته؟ فقال: رأيته فيلمانيا أقمر هجان إحدى عينيه قائمة كأنها كوكب درى، كأن شعر رأسه أغصان شجرة، أشبهه بعبد العزى بن قطن.

وبينا يسير إذ دعاه داع عن يمينه: يا محمد، أنظرنى أسألك، فلم يجبه، فقال: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا داعى اليهود، أما إنك لو أجبته لتهودت أمتك.

وبينا هو يسير إذ دعاه عن شماله: يا محمد أنظرنى أسألك، فلم يجبه، فقال: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا داعى النصارى، أما إنك لو أجبته لتنصرت أمتك.

وبينا هو يسير، إذا بامرأة حاسرة عن ذراعها وعليها من كل زينة خلقها الله تعالى، فقالت: يا محمد أنظرنى أسألك، فلم يلتفت إليها، فقال: ما هذه يا جبريل؟ قال: تلك الدنيا، أما إنك لو أجبتها لاختارت أمتك الدنيا على الآخرة.

وبينا هو يسير، فإذا هو بشىء يدعوه متنحيا عن الطريق، يقول: هلم يا محمد، فقال جبريل: سر يا محمد، فقال: من هذا؟ هذا عدو الله إبليس، أراد أن تميل إليه.

وسار، فإذا هو بعجوز على جانب الطريق، فقالت: يا محمد أنظرنى أسألك، فلم يلتفت إليها، فقال: من هذه يا جبريل؟ قال: إنه لم يبق من الدنيا إلا ما بقى من عمر هذه العجوز.

وبينا هو يسير إذ لقيه خلق من خلق الله، فقالوا: السلام عليك يا أول، السلام عليك يا آخر، السلام عليك يا حاشر، فقال جبريل: اردد السلام، فرد، ثم لقيه الثانية فقال له مثل ذلك، ثم لقيه الثالثة فقال له مثل ذلك.

فقال: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: إبراهيم وموسى وعيسى.

ومر على، موسى، وهو يصلى فى قبره الكثيب الأحمر، رجل طوال سبط آدم كأنه من رجال شنوءة، وهو يقول يرفع صوته: أكرمته وفضلته، فدفع إليه، فسلم عليه فرد عليه السلام، وقال: من هذا معك يا جبريل؟ فقال: هذا أحمد، فقال: مرحبا بالنبى العربى الذى نصح لأمته ودعا له بالبركة وقال: سل لأمتك اليسر.

فساروا فقال: يا جبريل من هذا؟ قال: هذا موسى بن عمران.

ثم مر برجل قائم يصلى قال: من هذا معك يا جبريل؟ قال جبريل: هذا أخوك محمد، فرحب به ودعا له ببركة فقال: سل لأمتك اليسر، فقال: من هذا يا جبريل: قال هذا أخوك عيسى.

ومر على شجرة كان ثمرها السلاح، تحتها شيخ وعياله، فرأى مصابيح وضوءا، فقال: من هذا يا جبريل؟ قال: هذا أبوك إبراهيم، فسلم عليه فرد عليه السلام، وقال: من هذا معك يا جبريل؟ قال: هذا: ابنك أحمد، فقال: مرحبا بالنبى العربى الذى بلغ رسالة ربه ونصح لأمته، يا بنى إنك لاق ربك الليلة، وإن أمتك آخر الأمم وأضعفها، فإن استطعت أن تكون حاجتك أو جلها فى أمتك فافعل، ودعا له بالبركة.

فسار حتى أتى الوادى الذى فى المدينة يعنى بيت المقدس، فإذا جهنم تتكشف عن مثل الروابى، فقيل: يا رسول الله كيف وجدتها؟ قال: (مثل الحمم).

ثم سار حتى انتهى إلى المدينة، فدخلها من بابها اليمانى، وإذا عن يمين المسجد وعن يساره نوران ساطعان، فقال: يا جبريل ما هذان النوران؟ قال: أما الذى عن يمينك فإنه محراب أخيك داود، وأما الذى عن يسارك فعلى قبر أختك مريم.

فدخل المسجد، فأتى جبريل الصخرة التى ببيت المقدس، فوضع أصبعه فيها فخرقها، فشد بها البراق[1].

فلما استوى بها النبى ﷺ فى صخرة المسجد، قال جبريل: يا محمد هل سألت ربك أن يريك الحور العين؟ قال: نعم، قال جبريل: فانطلق إلى أولئك النسوة فسلم عليهن، وهن جلوس عن يسار الصخرة، فانتهى إليهن، فسلم عليهن، فرددن عليه السلام، فقال: من أنتن؟ فقلن: (خيرات حسان نساء قوم أبرار، نقوا فلم يدرنوا، وأقاموا فلم يظعنوا، وخلدوا فلم يموتوا).

ثم صلى هو وجبريل كل واحد ركعتين فلم يلبث إلا يسيرا حتى اجتمع ناس كثيرون، فعرف النبيين من بين قائم وراكع وساجد، ثم أذن مؤذن وأقيمت الصلاة، فقاموا ينتظرون من يؤمهم، فأخذ جبريل بيده فقدمه فصلى بهم ركعتين[2].

---

(1) وفى رواية مسلم: فربطه بالحلقة التى تربط بها الأنبياء.

(2) وفى رواية: ثم أقيمت الصلاة، فتدافعوا حتى قدموا محمدا، وعند الواسطى عن كعب: فأذن جبريل ونزلت الملائكة من السماء وحشر الله له المرسلين، فصلى النبى ﷺ بالملائكة والمرسلين، فلما انصرف، قال جبريل: يا محمد، أتدرى من صلى خلفك؟ قال: لا، قال: كل نبى بعثه الله تعالى.

وفى حديث أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ عند الحاكم وصححه البيهقى: فلقى أرواح الأنبياء، فأثنوا على ربهم.

فقال إبراهيم: «الحمد لله الذى اتخذنى خليلا وأعطانى ملكا عظيما وجعلنى أمة قانتا يؤتم بى، وأنقذنى من النار، وجعلها على بردا وسلاما»، ثم إن موسى أثنى على ربه تبارك وتعالى فقال: «الحمد لله الذى كلمنى تكليما وجعل هلاك فرعون ونجاة بنى اسرائيل على يدى، وجعل من أمتى قوما يهدون بالحق وبه يعدلون».

ثم إن داود أثنى على ربه فقال: «الحمد لله الذى جعل لى ملكا عظيما، وعلمنى الزبور، وألان لى الحديد، وسخر لى الجبال يسبحن والطير، وأعطانى الحكمة وفصل الخطاب».

ثم إن سليمان أثنى على ربه فقال: «الحمد لله الذى سخر لى الرياح وسخر لى الشياطين والإنس يعملون لى ما شئت من محاريب وتماثيل وجفان كالجوابى وقدور راسيات، وعلمنى منطق الطير وأتانى من كل شىء فضلا، وسخر لى جنود الشياطين والإنس والجن والطير، وفضلنى على كثير من عباده المؤمنين، وأتانى ملكا عظيما لا ينبغى لأحد من بعدى وجعل ملكى ملكا طيبا ليس فيه حساب ولا عقاب».

ثم إن عيسى ابن مريم أثنى على ربه تبارك وتعالى فقال: «الحمد لله الذى جعلنى كلمته وجعل مثلى مثل آدم خلقه من تراب، ثم قال له: كن فيكون، وعلمنى الكتاب والحكمة، والتوراة والإنجيل، وجعلنى أبرئ الأكمه والأبرص وأحيى الموتى بإذن الله، ورفعنى وطهرنى. وأعاذنى وأمى من الشيطان الرجيم، فلم يكن للشيطان علينا سبيل».

فقال النبى ﷺ: «كلكم أثنى على ربه وإنى مثن على ربى»، فقال: «الحمد لله الذى أرسلنى رحمة للعالمين وكافة للناس بشيرا ونذيرا، وأنزل على الفرقان فيه تبيان كل شىء، وجعل أمتى خير أمة أخرجت للناس، وجعل أمتى وسطا، وجعل أمتى هم الأولون والآخرون، وشرح لى صدرى ووضع عنى وزرى ورفع لى ذكرى وجعلنى فاتحا وخاتما».

فقال إبراهيم صلى الله عليه وسلم: «بهذا فضلكم محمد ﷺ».

ثم تذاكروا أمر الساعة، فردوا أمرهم إلى إبراهيم فقال: «لا علم لى بها».

فردوا أمرهم إلى موسى فقال: «لا علم لى بها».

فردوا أمرهم إلى عيسى فقال: «أما وجبتها فلا يعلمها إلا الله، وفيما عهد إلى ربى أن الدجال خارج، ومعى قضيبان، فإذا رآنى ذاب كما يذوب الرصاص، فيهلكم الله ثم يرجع الناس إلى بلادهم وأوطانهم فعند ذلك يخرج يأجوج ومأجوج، وهم من كل حدب ينسلون فيطأون بلادهم لا يأتون على شىء إلا أهلكوه، ولا يمرون على ماء إلا شربوه، ثم يرجع الناس فيشكونهم إلى، فأدعو الله تعالى عليهم، فيهلكهم ويميتهم حتى تجوى الأرض من ريحهم، فينزل الله تعالى المطر، فيجرف أجسادهم حتى يقذفهم فى البحر ففيما عهد إلى ربى أن ذلك إذا كان كذلك فإن الساعة كالحامل المتم لا يدرى أهلها متى تفجأهم بولادتها ليلا أو نهارا».

وأخذ النبى ﷺ من العطش أشد ما أخذه، فعرض عليه الماء والخمر واللبن - وفى رواية العسل بدل الماء - فشرب من العسل قليلا، وتناول اللبن فشرب منه حتى روى، فضرب جبريل منكبيه وقال: (أصبت الفطرة ولو شربت الخمر لغوت أمتك ولم يتبعك منهم إلا القليل، ولو شربت الماء لغرقت أمتك).

ثم أتى بالمعراج الذى تعرج عليه أرواح بنى آدم، فلم ير الخلق أحسن من المعراج، فصعد هو وجبريل حتى انتهيا إلى باب من أبواب السماء الدنيا يقال له باب الحفظة وعليه ملك يقال له إسماعيل، وهو صاحب السماء الدنيا، وبين يديه سبعون ألف ملك مع كل ملك جنده مائة ألف.

فاستفتح جبريل باب السماء: قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: أو قد أرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحبا به وأهلا، حياه الله من أخ ومن خليفة، فنعم الأخ ونعم الخليفة، ونعم المجىء جاء ففتح لهما.

فلما خلصا إلى السماء، فإذا فيها آدم كهيئته يوم خلقه الله على صورته، تعرض عليه أرواح ذريته الكفار، فيقول: روح خبيثة ونفس خبيثة، اجعلوها فى سجين وعن يمينه أسودة وباب تخرج منه ريح طيبة وعن شماله أسودة وباب تخرج منه ريح خبيثة، فإذا نظر عن يمينه ضحك واستبشر، وإذا نظر عن شماله حزن وبكى.

فسلم عليه النبى ﷺ، فرد عليه السلام، ثم قال: مرحبا بالابن الصالح والنبى الصالح فقال النبى ﷺ: يا جبريل من هذا؟ قال: هذا أبوك آدم، وهذه الأسودة نسم بنيه، فأهل اليمين منهم أهل الجنة، وأهل الشمال منهم أهل النار، فإذا نظر عن يمينه ضحك، وإذا نظر عن شماله بكى، وهذا الباب الذى عن يمينه باب الجنة، إذا نظر من يدخله من ذريته ضحك واستبشر، والباب الذى عن شماله باب جهنم، إذا نظر من يدخله من ذريته بكى وحزن.

ثم مضى ﷺ هنيهة، فإذا هو بأخونة عليها لحم مشرح ليس يقربه أحد، وإذا بأخونة عليها لحم قد أروح وأنتن، عنده ناس يأكلون منه.

فقال: يا جبريل من هؤلاء؟ قال: هؤلاء من أمتك يتركون الحلال ويأتون الحرام[1].

ثم مضى هنيهة فإذا هو بأقوام بطونهم أمثال البيوت فيها الحياة ترى من خارج بطونهم، كلما نهض أحدهم خر، فيقول: اللهم لا تقم الساعة، قال: وهم على سابلة آل فرعون، فتجىء السابلة فتطؤهم فسمعتهم يضجون إلى الله تعالى.

فقال: يا جبريل من هؤلاء؟ قال: هؤلاء من أمتك: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لا يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ... ﴿٢٧٥﴾﴾ [البقرة].

ثم مضى هنيهة، فإذا هو بأقوام مشافرهم كمشافر الإبل، فتفتح أفواههم ويلقمون حجرا، وفى رواية: يجعل فى أفواههم صخر من جهنم، ثم يخرج من أسافلهم، فسمعهم يضجون إلى الله تعالى، فقال: يا جبريل من هؤلاء؟ قال: هؤلاء: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾﴾ [النساء].

ثم مضى هنيهة، فإذا هو بنساء معلقات بثديهن ونساء منكسات بأرجلهن، فسمعهن يضججن إلى الله تعالى، فقال: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء اللاتى يزنين ويقتلن أولادهن.

---

(1) وفى رواية: وإذا هو بأقوام على مائدة عليها لحم مشوى كأحسن ما روى من اللحم، وإذا حوله جيف، فجعلوا يقبلون على الجيف يأكلون منها ويدعون اللحم.

فقال، من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الزناة يحلون ما حرم الله عليهم ويتركون ما أحل الله لهم.

ثم مضى هنيهة، فإذا هو بأقوام يقطع من جنوبهم اللحم فيلقمونه، فيقال له: كل كما كنت تأكل من لحم أخيك، فقال: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الهمازون من أمتك اللمازون.

ثم صعدا إلى السماء الثانية، فاستفتح جبريل، قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: أوقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحبا به وأهلا، حياه الله من أخ ومن خليفة، فنعم الأخ ونعم الخليفة ونعم المجيء جاء، ففتح لهما.

فلما خلصا فإذا هو بابني الخالة: عيسى بن مريم، ويحيى بن زكريا، شبيه أحدهما بصاحبه: ثيابهما وشعرهما ومعهما نفر من قومهما.

وإذا بعيسى جعد مربوع الخلق إلى الحمرة والبياض سبط الشعر كأنما أخرج من ديماس أي حمام، شبهه بعروة بن مسعود الثقفي.

فسلم عليهما فردا عليه السلام، ثم قالا: مرحبا بالأخ الصالح والنبي الصالح ودعوا له بخير.

ثم صعدا إلى السماء الثالثة، فاستفتح جبريل، فقيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: أوقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحبا به وأهلا، حياه الله من أخ ومن خليفة، فنعم الأخ ونعم الخليفة ونعم المجيء جاء.

ففتح لهما، فلما خلصا، فإذا هو بيوسف ومعه نفر من قومه فسلم عليه، فرد عليه السلام، ثم قال: مرحبا بالأخ الصالح والنبي الصالح ودعا له بخير، وإذا هو قد أعطى شطر الحسن[1]، قال: من هذا يا جبريل؟ قال: أخوك يوسف.

ثم صعدا إلى السماء الرابعة، فاستفتح جبريل، فقيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: أوقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحبا به وأهلا حياه الله من أخ ومن خليفة، فنعم الأخ ونعم الخليفة ونعم المجيء جاء.

فلما خلصا فإذا هو بإدريس فقد رفعه الله مكانا عليا، فسلم عليه فرد عليه السلام ثم قال: مرحبا بالأخ الصالح والنبي الصالح ثم دعا له بخير.

ثم صعدا إلى السماء الخامسة، فاستفتح جبريل، فقيل: من هذا؟ فقال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: أوقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحبا به وأهلا، حياه الله من أخ ومن خليفة، فنعم الأخ ونعم الخليفة ونعم المجيء جاء.

ففتح لهما، فلما خلصا فإذا هو بهارون، ونصف لحيته بيضاء ونصف لحيته سوداء، تكاد تضرب إلى سرته من طولها، وحوله قوم من بني إسرائيل، وهو يقص عليهم فسلم عليه فرد عليه السلام، ثم قال: مرحبا بالأخ الصالح والنبي الصالح، ثم دعا له.

فقال: يا جبريل من هذا؟ فقال: الرجل المحبب في قومه هارون بن عمران.

ثم صعد إلى السماء السادسة، فاستفتح جبريل، قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: أوقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحبا به وأهلا، حياه الله من أخ ومن خليفة، فنعم الأخ ونعم الخليفة ونعم المجيء جاء، ففتح لهما، فجعل يمر بالنبي والنبيين معهم الرهط، والنبي والنبيين معهم القوم، والنبي والنبيين ليس معهم أحد.

ثم مر بسواد عظيم، فقال: من هذا؟ قيل له: موسى وقومه ولكن ارفع رأسك فإذا بسواد عظيم قد سد الأفق من ذا الجانب ومن ذا الجانب فقيل له: هؤلاء أمتك وسوى هؤلاء سبعون ألفا يدخلون الجنة بغير حساب.

---

(1) وفي رواية أحسن ما خلق الله، قد فضل الناس بالحسن كالقمر ليلة البدر على سائر الكواكب.

فلما خلصا فإذا بموسى بن عمران، رجل آدم طوال كأنه من رجال شنوءة، كثير الشعر، فسلم عليه النبى ﷺ فرد عليه السلام، ثم قال: مرحبا بالأخ الصالح والنبى الصالح، ثم دعا له بخير، وقال: يزعم الناس أنى أكرم على الله من هذا، بل هذا أكرم على الله منى.

ثم صعد، فلما انتهينا إلى السماء السابعة رأى فوقها رعدا وبرقا وصواعق، فاستفتح جبريل. قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: أوقد أرسل إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحبا به وأهلا، حياه الله من أخ ومن خليفة، فنعم الأخ ونعم الخليفة ونعم المجيء جاء.

ففتح لهما فسمع تسبيحا فى السموات العلا مع تسبيح كثير.

فلما خلصا فإذا النبى ﷺ بإبراهيم رجل أشمط، جالس عند باب الجنة، على كرسى مسندا ظهره إلى البيت المعمور، ومعه نفر من قومه، فسلم عليه النبى ﷺ، فرد عليه السلام، فقال: مرحبا بالنبى الصالح والابن الصالح وقال: مر أمتك فليكثروا من غراس الجنة، فإن تربتها طيبة وأرضها واسعة، فقال له: وما غراس الجنة؟ قال: (لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم)[1].

وهو أشبه ولده به، وعنده قوم جلوس بيض الوجوه أمثال القراطيس، وقوم فى ألوانهم شىء، فقام هؤلاء الذين فى ألوانهم شىء، فدخلوا نهرا، فاغتسلوا فيه فخرجوا وقد خلصت ألوانهم، وصارت مثل ألوان أصحابهم.

فجاءوا فجلسوا إلى أصحابهم فقال: يا جبريل من هؤلاء البيض الوجوه ومن هؤلاء الذين فى ألوانهم شىء، وما هذه الأنهار التى دخلوها؟ فقال: أما هؤلاء البيض الوجوه فقوم لم يلبسوا إيمانهم بظلم، وأما هؤلاء الذين فى ألوانهم شىء فقوم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا فتابوا فتاب الله عليهم، وأما هذه الأنهار فأولها رحمة الله، والثانى نعمة الله، والثالث: ﴿... وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾﴾ [الإنسان]، وقيل له: هذا مكانك ومكان أمتك.

وإذا هو بأمته شطرين: شطر عليهم ثياب كأنها القراطيس، وشطر عليه ثياب رمد، فدخل البيت المعمور، ودخل معه الآخرون الذين عليهم الثياب البيض وحجب الآخرون الذين عليهم الثياب الرمد وهم على خير، فصلى ومن معه من المؤمنين فى البيت المعمور، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه إلى يوم القيامة، آخر ما عليهم، ثم خرج ومن معه[2].

ثم رفع إلى سدرة المنتهى، وإليها ينتهى ما يعرض من الأرض فيقبض منها، وإليها ينتهى ما يهبط من فوق فيقبض منها، وإذا هى شجرة يخرج من أصلها أنهار من ماء غير آسن، وأنهار من خمر لذة للشاربين، وأنهار من عسل مصفى، يسير الراكب فى ظلها سبعين عاما لا يقطعها، وإذا نبقها مثل قلال هجر، وإذا ورقها كآذان الفيلة، تكاد الورقة تغطى هذه الأمة، تغشاها ألوان لا يدرى ما هى، فلما غشيها من أمر الله تعالى ما غشيها تغيرت، فما يستطيع أحد أن ينعتها من حسنها[3].

---

(1) وفى رواية: «اقرئ على أمتك منى السلام، وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة عذبة الماء وأن غراسها؟ سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر».

(2) وفى حديث عند الطبرانى بسند صحيح: «مررت ليلة أسرى بى على الملأ الأعلى فإذا جبريل كالحلس البالى من خشية الله»، وفى رواية عند البزار: «كأنه حلس لاطئ»، والحلس هو الكساء الذى يلى ظهر البعير تحت القتب، شبهها به للزومها ودوامها.

(3) وفى رواية: فإذا فى أصلها عين تجرى يقال لها السلسبيل، ينشق منها نهران: أحدهما الكوثر، يطرد عجاجا مثل السهم، عليه خيام اللؤلؤ والياقوت والزبرجد، وعليه طيور خضر أنعم طير، رأى فيه آنية الذهب والفضة، تجرى على رضراض من الياقوت والزمرد، ماؤه أشد بياضا من اللبن، فأخذ من آنية، فاغترف من ذلك الماء، فشرب فإذا هو أحلى من العسل، وأشد ريحا من المسك، فقال له جبريل: هذا هو النهر الذى حباك به ربك، والنهر الآخر نهر الرحمة فاغتسل فيه، فغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر.

وفى حديث عبد الله بن مسعود رضى الله عنه: أنه ﷺ رأى جبريل عند السدرة له ستمائة جناح، جناح منها قد سد الأفق، تتناثر من أجنحته التهاويل: الدر والياقوت مما لا يعلمه إلا الله تعالى.

ثم أخذ على الكوثر حتى إذا دخل الجنة فإذا فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، فرأى على بابها مكتوبا: الصدقة بعشر أمثالها، والقرض بثمانية عشر.

فقال: يا جبريل ما بال القرض أفضل من الصدقة؟ قال: لأن السائل يسأل وعنده، والمستقرض لا يسأل إلا من حاجة.

فاستقبلته جارية فقال: لمن أنت يا جارية؟ فقالت: لزيد بن حارثة.

ورأى الجنة من درة بيضاء وإذا فيها جنابذ اللؤلؤ، فقال: يا جبريل، إنهم يسألوني عن الجنة. فقال: أخبرهم أنها قيعان ترابها المسك.

وسمع في خارجها وجسا[1]، فقال: يا جبريل ما هذا؟ قال: بلال المؤذن.

فسار فإذا هو بأنهار من لبن لم يتغير طعمه، وأنهار من خمر لذة للشاربين، وأنهار من عسل مصفى، وإذا رمانها كالدلاء، وفي رواية: وإذا فيها رمان كأنه جلود الابل المقتبة، وإذا بطيرها كالبخاتي[2]، فقال أبو بكر: يا رسول الله إن تلك الطير لناعمة، قال: أكلتها أنعم منها، وإني لأرجو أن تأكل منها.

وبينا هو يسير بنهر على حافيته الدر المجوف، وإذا طينة مسك أذفر، فقال: ما هذا يا جبريل؟ قال: هو الكوثر.

ثم عرضت عليه النار، فإذا فيها غضب الله وزجره ونقمته، ولو طرح فيها الحجارة والحديد لأكلتها، فإذا بقوم يأكلون الجيف، فقال: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس.

ورأى رجلا أحمر أزرق فقال: من هذا يا جبريل؟ قال: هذا عاقر الناقة.

ورأى مالك خازن النار، فإذا رجل عابس يعرف الغضب في وجهه، فبدأ النبي ﷺ بالسلام، ثم أغلقت دونه، ثم رفع إلى سدرة المنتهى، فغشيها من أنوار الخلائق ومن أنوار الملائكة أمثال الغربان حين يقض على الشجرة وينزل على كل ورقة ملك من الملائكة فغشيها سحابة من كل لون.

ثم عرج به حتى ظهر لمستوى سمع فيه صريف الأقلام[3].

ورأى رجلا مغيبا في نور العرش، فقال: من هذا؟ ملك، قيل: لا، قال: نبي، قيل: لا، قال: من هو؟ قيل: هذا رجل كان في الدنيا لسانه رطب من ذكر الله، وقلبه معلق بالمساجد، ولم يتسبب لوالديه قط[4].

---

(1) الوجس: الصوت الخفي، وتوجس بالشيء: أحس به فتسمع له.

(2) البختية: الأنثى من الجمال البخت.

(3) أسمع صريف الاقلام: أي صوت جرياتها بما تكتبه من أقضية الله تعالى ووحيه، وما ينسخونه من اللوح المحفوظ..

(4) ورد في بعض الزوايات الضعيفة في هذا المحل أن محمدا ﷺ رأى ربه، وليس ذلك صحيحا، وقد ردت عائشة - رضي الله عنها - على من زعم ذلك بقوة، قال مسروق: فدخلت على عائشة فقلت يا أمتاه، هل رأى محمد ربه؟ فقالت: لقد قف شعري بما قلت، أين أنت من ثلاث من حدثكهن فقد كذب - وفي لفظ: فقد أعظم علي الله الفرية - من حدثك أن محمدا رأي ربه فقد كذب وفي لفظ فقد أعظم علي الله الفرية، ثم قرأت: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأنعام]، ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ [الشورى].

ومن حدثك أنه يعلم ما في غد فقد كذب، وفي لفظ: فقد أعظم على الله الفرية، ثم قرأت: ﴿... وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ... ﴿٣٤﴾﴾ [لقمان].

ومن حدثك أنه قد كتم فقد كذب، وفي لفظ فقد أعظم على الله الفرية، ثم قرأت: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [المائدة]، ولكنه رأى جبريل في صورته مرتين.

=

ثم كلمه ربه تعالى عند ذلك، فقال له: يا محمد، قال: لبيك يا رب، قال: سل.

فقال: إنك اتخذت إبراهيم خليلا، وأعطيته ملكا عظيما وكلمت موسى تكليما، وأعطيت داود ملكا عظيما وسخرت له الجن والإنس والشياطين وسخرت له الرياح وأعطيته ملكا لا ينبغي لأحد من بعده، وعلمت عيسى التوراة والإنجيل، وجعلته يبرئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذنك، وأعذته وأمه من الشيطان الرجيم فلم يكن للشيطان عليهما سبيل.

فقال الله سبحانه وتعالى: قد اتخذتك حبيبا، وأرسلتك للناس كافة بشيراً ونذيرا، وشرحت لك صدرك، ووضعت عنك وزرك، ورفعت لك ذكرك، لا أذكر إلا وذكرت معي وجعلت أمتك خير أمة أخرجت للناس وجعلت أمتك أمة وسطا، وجعلت أمتك هم الأولون والآخرون، وجعلت أمتك لا يجوز لهم خطبة حتى يشهدوا أنك عبدي ورسولي، وجعلت من أمتك أقواما قلوبهم أناجيلهم، وجعلتك أول النبيين خلقا وآخرهم بعثا، وأولهم يقضى له، وأعطيتك سبعا من المثاني لم أعطها نبيا قبلك، وأعطيتك خواتيم سورة البقرة من كنز تحت عرشي لم أعطها نبيا قبلك، وأعطيتك الكوثر، وأعطيتك ثمانية أسهم: الإسلام والهجرة والجهاد والصدقة وصوم رمضان والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأني يوم خلقت السموات والأرض، فرضت عليك وعلى أمتك خمسين صلاة في كل يوم وليلة، فقم بها أنت وأمتك.

ثم انجلت عنه السحابة، وأخذ بيده جبريل، فانصرف سريعا، فأتى على إبراهيم، فلم يقل شيئا، ثم أتى على موسى، قال: ونعم الصاحب كان لكم، فقال: ما صنعت يا محمد؟ ما فرض عليك ربك وعلى أمتك؟ قال: فرض علي وعلى أمتي خمسين صلاة كل يوم وليلة.

قال: فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف عنك وعن أمتك، فإن أمتك لا تطيق ذلك، فإني قد خبرت الناس قبلك وبلوت بني إسرائيل وعالجتهم أشد المعالجة على أدنى من هذا فضعفوا وتركوه، فأمتك أضعف أجسادا وأبدانا وقلوبا وأبصارا وأسماعا.

فالتفت النبي ﷺ إلى جبريل يستشيره، فأشار إليه أن نعم إن شئت، فرجع سريعا حتى انتهى إلى الشجرة، فغشيته السحابة، وخر ساجدا، وقال: رب خفف عنا، قال: قد وضعت خمسا.

ثم انجلت السحابة، ورجع إلى موسى فقال: وضع عني خمسا، قال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف فإن أمتك لا تطيق ذلك.

فلم يزل يرجع بين موسى وبين ربه، يحط عنه خمسا خمسا، حتى قال: يا محمد، قال: لبيك وسعديك، قال: هن خمس صلوات كل يوم وليلة، لكل صلاة عشر، فتلك خمسون صلاة لا يبدل القول لدي، ولا ينسخ كتابي تخفيفها عنك كتخفيف خمس صلوات، ومن هم بحسنة فلم يعملها كتبت حسنة فإن عملها كتبت له عشرا، ومن هم بسيئة فلم يعملها لم يكتب شيئا فإن عمله كتبت سيئة واحدة.

فنزل حتى انتهى إلى موسى، فأخبره فقال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف فإن أمتك لا تطيق ذلك، قال له: قد راجعت ربي حتى استحييت منه، ولكن أرضى وأسلم، فناداه مناد أن قد أمضيت فريضتي وخففت عن عبادي.

---

= وكنت متكئا فجلست فقلت: ألم يقل الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣﴾ [النجم]، قالت: إن أول هذه الأمة سأل رسول الله ﷺ عن ذلك فقلت: يا رسول الله هل رأيت ربك؟ فقال: لا، إنما رأيت جبريل منهبطا».

والمسألة ـ على العموم ـ فيها خلاف قديم.

فقال له موسى: اهبط بسم الله.

ولم يمر على الملأ من الملائكة إلا قالوا له: عليك بالحجامة. وفي لفظ: مر أمتك بالحجامة.

ثم انحدر، فقال جبريل: ما لي لم آت لأهل السماء إلا رحبوا بي وضحكوا إلي، غير واحد سلمت عليه فرد السلام ورحب بي ودعا لي، ولم يضحك إلي، قال: مالك خازن النار، لم يضحك منذ خلق، ولو ضحك لأحد لضحك إليك.

فلما نزل إلى السماء الدنيا نظر أسفل منه، فإذا هو برهج ودخان، فقال ما هذا يا جبريل؟ قال: هذه الشياطين يحومون على أعين بني آدم، لا يتفكرون في ملكوت السموات والأرض، ولولا ذلك لرأوا العجائب.

ثم نزل رسول الله ﷺ إلى الأرض، فلما أصبح أخبر الناس بما رآه فصدقه كل من آمن به إيمانا قويا، وكذبه الكفار واستوصفوه مسجد بيت المقدس، فوصفه لهم وسألوه عن أشياء في المسجد فمثل بين يديه، فجعل ينظر إليه ويصفه ويعد أبوابه لهم بابا بابا فيطابق ما عندهم، وسألوه عن عير لهم فأخبرهم بها وبوقت قدومها فكان كما أخبر.

**الأجوبة النقلية:**

هنا قام بولس، وقال: أليس عجيبا ما تخبر به من هذه الرحلة العجيبة.. إن العقل السليم لا يكاد يصدق ما تقول.

التفت إليه عبد القادر، وقال: أي عقل تقصد؟ هل عقل علماء الدنيا، أم عقل علماء بالدين؟

قال بولس: العقل عقل واحد.. سواء كان لأهل الدين، أم لأهل الدنيا، وكلاهما يشتركان في إنكار ما تقول.

قال عبد القادر: نعم العقل عقل واحد، ولكني أرى أن عقل أهل الدين يتسع لما لا يتسع له عقل أهل الدنيا.

فأهل الدين يعرفون أن قدرة الله التي لا يحدها شيء لا يمتنع عليها ما حصل لرسول الله ﷺ من خوارق، فلا يعجز خالق السموات أن يرفع إليها من يشاء، أو يخفض من يشاء.

قال بولس: ولكن العادة الكونية جرت باستحالة ذلك.

قال عبد القادر: هل هي استحالة مطلقة، أم أنها مستحيلة لأن محمدا ﷺ هو الذي عرج به؟

سكت بولس، فقال: أرأيت لو ذكر لك أن المسيح عليه السلام حصل له هذا، أكنت تنكره؟

قال بولس: أنا لا أنكره، لأني أعتقد أن المسيح إله، وللإله أن يتصرف في ملكه بما يشاء[1].

---

(1) نقل رحمة الله الهندي عن جواد بن ساباط في البرهان السادس عشر من المقالة الثانية من كتابه أن القسيس كياروس سألني في حضور المترجمين: ماذا يعتقد المسلمون في معراج محمد ﷺ؟ قلت: إنهم يعتقدون أنه من مكة إلى أورشليم ومنه إلى السماء، قال: لا يمكن صعود الجسم إلى السماء. قلت: سألت بعض المسلمين عنه فأجاب أنه يمكن كما أمكن لجسم عيسى عليه السلام.

قال القسيس: لمَ لَمْ تستدل بامتناع الخرق والالتئام على الأفلاك؟ قلت: استدللت به لكنه أجاب أنهما ممكنان لمحمد ﷺ كما كانا ممكنين لعيسى عليه السلام.

قال القسيس: لمَ لَمْ تقل إن عيسى إله له أن يتصرف ما يشاء في مخلوقاته؟ قلت: قد قلت ذلك لكنه قال إن ألوهية عيسى باطلة لأنه يستحيل أن يطرأ على الله علامات العجز كالمضروبية والمصلوبية والموت والدفن.

ونقل أن قسيسا في بلد بنارس من بلاد الهند كان يقول في بعض المجامع تغليطا لجهال المسلمين البدويين: كيف تعتقدون المعراج وهو أمر مستبعد، فأجابه مجوسي من مجوس الهند أن المعراج ليس بأشد استبعادا من كون العذراء حاملة من غير زوج، فلو كان مطلق الأمر المستبعد كاذبا، فهذا أيضا يكون كاذبا فكيف تعتقدونه فبهت القسيس.

قال عبد القادر: فأنت تريد منا إذن أن نزعم لمحمد ﷺ الإلـهية حتى تعطيه القدرة على القيام بالخوارق.

سكت بولس، فقال عبد القادر: على مقتضى مذهبك هذا، فإن هناك كثيرين ممن ذكروا في الكتاب المقدس ينبغي أن يكونوا أقانيم جديدة في الاتحاد الإلهي الذي تقيمونه.

فأخنوخ عليه السلام (إدريس) صعد إلى السماء، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾﴾ [مريم].

وقد ذكر القسيس وليم إسمت في كتابه (طريق الأولياء) أنه رفع إلى السماء بجسده حيًا، وقد ورد في قصة أخنوخ في سفر التكوين (5/ 24) هذا النص المشير إلى ذلك: (وسار أخنوخ مع الله، ولم يوجد لأن الله أخذه).

ومثله إيليا الذي صعد إلى السماء وقصته وارده في سفر الملوك الثاني (2/ 10- 12) ففيه: (وفيما هما يسيران ويتكلمان إذا مركبة من نار وخيل من نار ففصلت بينهما فصعد إيليا في العاصفة إلى السماء).

وقد قال آدم كلارك في تفسيره: لا شك أن إيليا رفع إلى السماء حيًّا.

ومثلهما المسيح عليه السلام الذي صعد إلى السماء كما يشير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾﴾ [النساء].

وقد جاء في إنجيل مرقس (16/ 19): (ثم إن الرب بعدما كلمهم ارتفع إلى السماء، وجلس عن يمين الله).

ولا شك أن كل طوائف المسيحيين يعتقدون أن المسيح ارتفع بجسده كما هو.

ليس هؤلاء فقط، بل إن بولس يدعي أنه صعد إلى السماء، وأنت تعرف قصته الواردة في الرسالة الثانية إلى أهل كرونثوس (12/ 2-4) هكذا: (أعرف إنسانا في المسيح قبل أربع عشرة سنة أفي الجسد لست أعلم أم خارج الجسد لست أعلم. الله يعلم. اختطف هذا إلى السماء الثالثة. وأعرف هذا الإنسان أفي الجسد أم خارج الجسد لست اعلم. الله يعلم. أنه اختطف إلى الفردوس وسمع كلمات لا ينطق بها ولا يسوغ لإنسان أن يتكلم بها).

ومع هؤلاء جميعا أنت وطائفتك جميعا تعتقدون أن يوحنا صعد إلى السماء كما يُفهم من كلامه في سفر الرؤيا (4/ 1-2)، فقد جاء فيه: (بعد هذا نظرت، وإذا باب مفتوح في السماء والصوت الأول الذي سمعته كبوق يتكلم معي قائلا: اصعد إلى هنا فأريك ما لا بدّ أن يصير بعد هذا. وللوقت صرت في الروح وإذا عرش موضوع في السماء وعلى العرش جالس).

فلماذا تعتقدون أن كل هؤلاء رفعوا إلى السماء، ثم تحيل ذلك على محمد ﷺ.

**الأجوبة العقلية:**

قام رجل من الجمع، وقال: أجبت عقل الدين، فأجب عقل الدنيا[1].

قال عبد القادر: ليس هناك عصر من العصور يسهل عليه أن يوقن بصدق ما حصل لمحمد ﷺ من هذا العصر.

قال الرجل: كيف ذلك؟

---

(1) انظر: معجزة الإسراء والمعراج من منظور علمي، أ.د/ كارم السيد غنيم، أستاذ بكلية العلوم جامعة الأزهر، أمين جمعية الإعجاز العلمي للقرآن والسنة.

قال عبد القادر: لأن الكثير من المفاهيم الخاطئة عن الزمان والمكان لم تصحح إلا فى عصرنا.
ثم التفت إلى الجمع، قال: لاشك أنكم تعرفون نظرية النسبية.
قالوا: أجل..
قال عبد القادر: لقد أدمج إينشتين المكان والزمان فى نظرية النسبية الخاصة عام 1905م، وأعلن أنه (ليس لنا أن نتحدث عن الزمان دون المكان، ولا عن المكان دون الزمان، ومادام كل شىء يتحرك فلابد أن يحمل زمنه معه، وكلما تحرك الشىء أسرع فإن زمنه سيتكمش بالنسبة لما حوله من أزمنة مرتبطة بحركات أخرى أبطأ منه).
وقد تحققت ظاهرة انكماش الزمن علميا فى معامل الفيزياء، حيث لوحظ أن الجسيمات الذرية atomic particles تطول أعمارها فى نظر راصدها إذا ما تحركت بسرعة قريبة من سرعة الضوء.
وعلى سبيل المثال، يزداد نصف العمر لجسيم البيون (نصف العمر هو الزمن اللازم لينحل هذا الجسيم إشعاعيا حتى يصل إلى نصف كميته) فى الساعة المعملية الأرضية إلى سبعة أمثال قيمته المعروفة إذا تحرك بسرعة قدرها 99 بالمائة من سرعة الضوء.
وطبقا لنظرية إينشتين، فإننا إذا تخيلنا أن صاروخا اقتربت سرعته من سرعة الضوء اقترابا شديدا، فإنه يقطع رحلة تستغرق خمسين ألف سنة (حسب الساعة الأرضية) فى يوم واحد فقط (بالنسبة لطاقم الصاروخ).
فإذا فكرت فى زيارة أطراف الكون فإنك ستعود إلى الكرة الأرضية لتجد أجيالا أخرى وتغيرات كبيرة حدثت على هذا الكوكب الذى سيكون قد مر عليه حينئذ آلاف أو ملايين أو بلايين السنين بحساب أهل الأرض الذين لم يخوضوا معك هذه الرحلة المذهلة، وذلك إذا كنت قد تحركت فى رحلتك بسرعة قريبة من سرعة الضوء.. وذلك لأن الزمن ينكمش مع ازدياد السرعة، وتزداد السرعة مع ازدياد القدرة على ذلك.
وهكذا أصبح من المقنع للماديين أن السرعة والزمن والقدرة أشياء مترابطة.
قال الرجل: ولكن نظرية النسبية تعتبر أن أكبر سرعة هى سرعة الضوء، وبناء على معلوماتنا الفلكية البسيطة، فإن الأبعاد الهائلة للكون تحوجنا إلى ملايين السنين الضوئية لنصل إلى بعض ما فى الكون من نجوم وأشباه نجوم.
ففى أغسطس سنة 1988 تم اكتشاف مجرة راديوية تبعد عنا خمسة عشر بليونا من السنين الضوئية، وفى نهاية سنة 1989 تم اكتشاف شبيه نجم يبعد عنا بمسافة (17400) مليون سنة ضوئية، ويعتبر بعده أقصى حد وصل إليه علماء الفلك فى الجزء المدرك من الكون الذى يتسع باستمرار.
وفوق هذا، فإن قرآنكم يعتبر كل ما نراه سماء دنيا، فيقول: ﴿... وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ ... ﴿١٢﴾﴾ [فصلت].
وكل هذا يعنى أن محمدا لو ركب مركبة ضوئية، فإنه سيحتاج كل تلك الملايين من السنين ليقطع هذه المسافات التى لا تخرج به عن السماء الدنيا.
قال عبد القادر: ومن ذكر لك أن محمدا ﷺ ركب مركبة ضوئية، أو سار بسرعة الضوء..
ومن قال لك بعد ذلك بأن سرعة الضوء هى أكبر سرعة ممكنة.
نعم.. سرعة الضوء فى الفراغ (أو الهواء) هى أعلى سرعة معروفة حتى الآن، ولكن العلم الحديث لا ينكر وجود سرعة أكبر من سرعة الضوء فى الفراغ، وإن لم يصل إليها حتى الآن، رغم سريان دقائق بيتا (B - particles) فى الماء بسرعة أكبر من سرعة الضوء فيه، لأن هذه الدقائق اخترقت

حاجــز الضوء فى الماء فقط، وليس فى الهـواء أو الفراغ، فتسبيت فى صـدور إشعاع يدعى إشـعاع كيرنكوف.

قال الرجل: فنظرية النسبية لا تفسر هذه الرحلة إذن؟

ابتسم عـبد القـادر، وقال: لا.. نظرية النسـبية أعـجز من أن تفسـر هذه الرحلة.. إن هذه النظرية تبين القوانين التى تحكم ما نراه من عالم مادى، ولكنها لا تجرؤ على تفسير كل شىء.

ولهذا، فنحن لا نفسر بنظرية النسبية هذه الرحلة العجيبة، ولكننا نقرب بها إمكانها فقط.

ويوشك أن تظهر نظريات في المستقبل تجلى الحقائـق التي انطوت عليها هذه الرحلة العجيبة، نحن نوقن بذلك، فربنا يقول: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾ [فصلت].

***

## 3 - تكريم الأرض

قال عبد القادر: ومن التكريم الذى كرم به محمد ﷺ تكريمه فى الأرض، فالله المتفضل الشكور يمن على عباده الذى أخلصوا له برفعة قدرهم وتعظيمهم وتوقيرهم.

وكما حصل هذا مع سائر الأنبياء ـ عليهم السلام ـ فقد حصل مثله لمحمد ﷺ.

**1 - تكريم البشر**

فليس هناك من البشر من نال الاحترام الذى ناله محمد ﷺ سواء من أصحابه، أو من غيرهم، فالكل حتى أعداؤه الذين لا يزالون يشتدون فى عداوته يعترفون فى قرارة نفوسهم بالمكانة السامية التى يحتلها محمد ﷺ، وكل ذلك تصديق لقوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾﴾ [الشرح][1].

واتمار بقوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [التوبة].

وبقوله ﷺ: (لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده)[2].

فمحبة النبى ﷺ أصل كل خير، كما أن محبة النفس والسعى فى هواها أصل كل شر، ولهذا اعتبر ﷺ كمال الإيمان فى كمال محبته.

ولهذا كان الزاد الأكبر للمؤمنين هو محبة رسولهم ﷺ، فعن أنس ـ رضى الله عنه ـ أن رجلا أتى النبى ﷺ فقال له: متى الساعة؟ قال: (ما أعددت لها؟)، قال: ما أعددت لها من كثير صلاة ولا صيام ولا صدقة، ولكنى أحب الله ورسوله، فقال: (أنت مع من أحببت)[3].

وعن عائشة وابن عباس ـ رضى الله عنهم ـ أن رجلا أتى النبى ﷺ فقال: لأنت أحب إلى من أهلى ومالى، وإنى لأذكرك، فما أصبر عنك حتى أنظر إليك، وإنى ذكرت موتى وموتك فعرفت أنك إذا دخلت الجنة رفعت مع النبيين وإن دخلتها لا أراك، فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾﴾[النساء][4].

وعن أنس ـ رضى الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: (من أحبنى كان معى فى الجنة)[5].

وقد روى أن امرأة من الأنصار قتل أبوها وأخوها وزوجها يوم أحد مع رسول الله ﷺ فقالت: ما فعل رسول الله ﷺ قالوا: خيرا هو بحمد الله تعالى كما تحبين، قالت: أرونيه، فلما رأته قالت: كل مصيبة بعدك جلل[6].

وروى أن ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ خدرت رجله فقيل له: اذكر أحب الناس إليك يزل عنك فصاح: يا محمداه، فانتشرت[7].

وعن عروة ـ رضى الله عنه ـ أن أهل مكة أخرجوا زيد بن الدثنة من الحرم ليقتلوه، فقال له أبو سفيان: أنشدك بالله يا زيد، أتحب أن محمدا عندنا بمقامك تضرب عنقه، وأنت فى أهلك، فقال

---

(1) خصصنا لهذا النوع من الاستدلال رسالة خاصة هى (قلوب مع محمد) من هذه السلسلة.

(2) رواه البخارى.

(3) رواه البخارى ومسلم.

(4) رواه الطبرانى، وابن مردويه.

(5) رواه الأصبهانى فى الترغيب.

(6) رواه ابن إسحاق والبيهقى.

(7) رواه ابن السنى فى (عمل يوم والليلة).

زيد ـ رضى الله عنه ـ: والله ما أحب أن محمدا الآن فى مكانه الذى هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه، وأنا جالس فى أهلى، فقال أبو سفيان: والله ما رأيت أحدا يحب أحدا كحب أصحاب محمد محمدا[1].

وقد قادت هذه المحبة ـ التى امتلأت بها قلوب المؤمنين ـ إلى تحقيق ما أمر الله به من تعظيم نبيه ﷺ وتوقيره وبره، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾﴾ [الفتح]، وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾﴾ [الحجرات]، وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾﴾ [الحجرات]، وقوله تعالى: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [النور].

قد كان الصحابة ـ رضى الله عنهم ـ يعظمون رسول الله ﷺ، وتمتلئ قلوبهم مهابة له:

حدث أسامة بن شريك قال: أتيت النبى ﷺ وأصحابه حوله كأن على رؤوسهم الطير[2].

وعن المسور بن مخرمة أن قريشا لما وجهوا عروة ابن مسعود إلى رسول الله ﷺ عام الحديبية، فرأى تعظيم أصحابه ـ رضى الله عنهم ـ ما رأى، وأنه لا يتوضأ إلا ابتدروا وضوءه، فكادوا يقتتلون عليه، ولا يبصق بصاقا إلا تلقوه بأكفهم، فدلكوا بها وجوههم وأجسادهم، ولا تسقط منه شعرة إلا ابتدروها وإذا أمرهم بأمر ابتدروا أمره، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدون النظر إليه تعظيما له، فقال لهم حين رجع إليهم: يا معشر قريش إنى جئت كسرى وقيصر، والنجاشى فى ملكهم، وإنى والله ما رأيت ملكا فى قوم قط مثل محمد فى أصحابه وفى رواية: إن رأيت ملكا قط يعظمه أصحابه ما يعظم محمدا أصحابه وقد رأيت قوما لا يسلمونه أبدا[3].

وعن أنس ـ رضى الله عنه ـ قال: لقد رأيت رسول الله ﷺ والحلاق يحلقه، وقد أطاف به أصحابه، فما يريدون أن تقع شعرة إلا فى يد رجل[4].

وقد قال عثمان ـ رضى الله عنه ـ لما اذنت له قريش أن يطوف بالبيت، حين وجهه ﷺ إليهم فى القضية، أبى وقال: ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله ﷺ.

وكما امتلأت القلوب محبة له ﷺ وتعظيما فى حياته، فقد امتلأت بهما بعد مماته، ولهذا كان العلماء من تعظيمهم لرسول الله ﷺ يخشعون عند ذكره ويسكنون، قال أبو إبراهيم التجيبى: (واجب على كل مؤمن متى ذكر ﷺ أو ذكر عنده أن يخضع ويخشع ويتوقر، ويسكن من حركته، ويأخذ من هيبته وإجلاله بما كان يأخذ به نفسه لو كان بين يديه، ويتأدب بما أدبنا الله تعالى به من قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾﴾ [الحجرات]، وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾﴾ [الحجرات]، وقوله تعالى: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا ... ﴿٦٣﴾﴾ [النور].

ولما ناظر أبو جعفر المنصور عبد الله بن محمد بن عباس ثانى خلفاء بنى العباس مالكا فى مسجده ﷺ قال له مالك: (يا أمير المؤمنين لا ترفع صوتك فى هذا المسجد، فإن الله تعالى أدب قوما

---

(1) رواه البيهقى.

(2) رواه النسائى وأبو داود وابن ماجة والترمذى، وصححه.

(3) رواه البخارى.

(4) رواه مسلم.

فقال: ﴿لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي﴾، وإن حرمته ميتا كحرمته حيا، فاستكان لها أبو جعفر.
وقال لمالك: يا أبا عبيد الله أأستقبل القبلة وادعو أم أستقبل رسول الله ﷺ؟ فقال له: لم تصرف وجهك عنه وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم إلى الله تعالى يوم القيامة، بل استقبله واستشفع به فيشفعك الله، فإنه تقبل به شفاعتك لنفسك قال الله تعالى: ﴿وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيما ﴿٦٤﴾﴾ [النساء][1].

وقال مالك ـ وقد سئل عن أبي أيوب السختياني ـ: ما حدثتكم عن أحد إلا وأيوب أفضل منه.

وقال: وحج أيوب حجتين فكنت أرمقه ولا أسمع منه غير أنه إذا ذكر النبي ﷺ بكى حتى أرحمه، فلما رأيت منه ما رأيت، وإجلاله للنبي ﷺ، كتبت عنه.

وقال مصعب بن عبد الله بن مصعب بن ثابت الزبيري: كان مالك إمام دار الهجرة إذا ذكر النبي ﷺ يتغير لونه، وينحني حتى يصعب على جلسائه لما يراه من هيبته، وعظيم قدره، ورفعة محله عند ربه، فقيل له يوما في ذلك: أي لِمَ تتغير إذا ذكر النبي ﷺ؟ فقال: لو رأيتم ما رأيت لما أنكرتم علي ما ترون مني، ولقد كنت أرى محمد بن المنكدر بن عبد الله بن الهدير التيمي وكان سيد القراء لا يكاد نسأله عن حديث ورد عن النبي ﷺ إلا بكى حتى نرحمه، لما يأخذه من لوعة الاحتراق بألم الفراق.

ولقد كنت أرى جعفر الصادق بن محمد الصادق بن زين العابدين، وكان كثير الدعابة، إذا ذكر النبي ﷺ اصفر لونه مهابة منه وإجلالا له، وما رأيته يحدث عن رسول الله ﷺ إلا على طهارة تعظيما لحديثه ﴿وما ينطق عن الهوى ﴿٣﴾ إن هو إلا وحي يوحى ﴿٤﴾﴾ [النجم]، ولقد اختلفت مترددا إليه زمانا فما كنت أراه إلا على ثلاث خصال، إما مصليا، وإما صامتا، وإما يقرأ القرآن، وكان من العلماء والعباد الذين يخشون الله تعالى.

ولقد كان عبد الرحمن بن القاسم بن أبي بكر الصديق يذكر النبي ﷺ فينظر إلى لونه كأنه نزف ـ أي سال منه الدم ـ وقد جف لسانه في فمه هيبة لرسول الله ﷺ، ولقد كنت آتي عمار بن عبد الله بن الزبير بن العوام، فإذا ذكر عنده الرسول ﷺ بكى حتى لا يبقى في عينيه دموع.

ولقد رأيت محمد بن شهاب الزهري وكان من أهنأ الناس وأقربهم فإذا ذكر عنده النبي ﷺ فكأنه ما عرفك ولا عرفته.

ولقد كنت آتي صفوان بن سليم وكان من المتعبدين المجتهدين، فإذا ذكر النبي ﷺ بكى حتى يقوم الناس عنه، ويتركوه رحمة به، وحذرا من رؤيته على تلك الحالة المحزنة.

وروى عن قتادة ـ رضي الله عنه ـ أنه كان إذا سمع حديثا لرسول الله ﷺ أخذه العويل ـ أي: صوت الصدر بالبكاء، والزويل أي القلق ـ والانزعاج بحيث لا يستقر بمكان.

وقد كانوا لأجل ذلك يعظمون كل ما يتصل برسول الله ﷺ:

فعن عمرو بن ميمون قال: كنت أختلف إلى ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ فما سمعته يقول: قال رسول الله ﷺ إلا أنه حدث يوما، فجرى على لسانه قال: قال رسول الله ﷺ، ثم علاه كرب، فرأيت العرق ينحدر عن جبهته، ثم قال: هكذا إن شاء الله، أو فوق، أو قريب من ذا، أو ما دون ذا[2].

---

(1) هذه النصوص منقولة ببعض التصرف من (سبل الهدى) للصالحي الشامي.
(2) رواه الدارمي.

ومر مالك بن أنس على أبي حازم ـ رضى الله عنه ـ وهو يحـدث فحاذاه وقال: إنى لم أجد موضعا أجلس فيه، فكرهت أن آخذ حديث رسول الله ﷺ وأنا قائم.

وقال مـالك: جاء رجل إلى ابن المسيب ـ رضى الله عنـه ـ فسأله عن حـديث وهو مضطجع فجلس فحدثه، فقال الرجل: وددت أنك لم تتـعن فقال: إنى كرهـت أن أحدثك عن رسول الله ﷺ وأنا مضطجع.

وروى أن ابن سيرين قد يكون يضحك، فإذا ذكر عنده حديث رسول الله ﷺ خشع.

وقال أبو مصعب: كان مالك بن أنس لا يحدث إلا وهو على وضوء إجلالا لحديثه ﷺ.

وقال مصـعب بن عبد الله بن مصـعب بن ثابت الزبيرى: كان مالك إذا حـدث توضأ ولبس ثيابه، ثم يحـدث من أراد منه أن يحدثه، فـسئل عن ذلك، فـقال: لأنه حديث رسـول الله ﷺ فلا أحدثه إلا على وضوء.

وقال مطرف بـن عبد الله بن مطرف بـن سليمان بن يســار: كان الناس إذا أتى النـاس مالكا خرجت إليهم الجـارية فتقول لهم: يقول لكـم سيدى تريدون الحديث أو المسائل؟ فـإن قالوا المسائل، خرج إليهم، وإن قالوا الحديث، دخل مغتسله فاغتسل وتطيب ولبس ثيابا جددا ولبس ساجة - بسين مهملة فألف فجيم فهاء - طيلسان أخضر.

قال ابن أبى أويس إسمـاعيل ابن أخت مالك: فقيل لمـالك فى ذلك، فقال: أحب أن أعظم حديثه ﷺ ولا أحـدث به إلا على طهارة متمكنا، وكان يكره أن يـحدث فى الطريق أو وهو قائم أو مستعجل.

وقال ضرار بن مرة ـ أبو سنان الشيبانى الكوفى ـ: كانوا ـ أى: من لقـيتهم من التابعين كعبد الله بن شداد وأبو الأحوص بن سعيد بن جبير ـ يكرهون أن يحدثوا عنه ﷺ على غير وضوء.

وقال ابن مهدى: مش يت يوما مع مالك إلى العقيق فسألته عن حـديث فانتهرنى، وقال لى: كنت فى عيـنى أجل من أن تسألنى عن حديـث من حديثه ﷺ ونحن نمشى، وسـأله جرير بن عـبد الحميد عن حديث وهو قائم، فأمر بحبسه، فقيل له: إنه قاض فقال: القاضى أحق بالأدب.

هذه بعض مواقف التكريم من أهل ديـنه، أما من غيرهم. . فكل المنصـفين يشهدون لمحـمد ﷺ بأنه الرجل الوحيد الذى لا يسبقه رجل فى العالم صدقا وإخلاصا وإيجابية.

لقد ذكر مـايكل هارت فى كتابه (العظماء مـائة وأعظمهم محمـد ﷺ) سبب اختيـاره لمحمد ﷺ، وكونه الأعظم فقال: (إن اختيارى لمحمد ليقود قـائمة أكثر أشخاص العالم تأثيراً فى البشرية قد يدهش بعض القراء، وقد يعترض عليه البعض. . ولكنه كـان (أى محمد) الرجل الوحيد فى التاريخ الذى حقق نجاحًا بارزًا فى كل من المستوى الدينى والدنيوى).

ويقول: (كان محـمد الرجل الوحيد فى التاريخ الذى نجح فى مهمتـه إلى أقصى حد، سواء على المستوى الدينى أم على المستوى الزمنى)[1].

وفى ديوانه الرائع (الديوان الشـرقى للشاعـر الغربى) يخـاطب شاعـر الألمان غوته، أستاذه الروحى الشاعر حافظ شيرازى فيقول: (أى حافظ! إن أغانيك لتبعث السكون. . . وإننى مهاجر إليك بأجناس البشرية المحطمة، لتحملنا فى طريق الهجرة إلى المهاجر الأعظم محمد بن عبد الله)[2].

ويقول غـوته: (إننا أهل أوربة بجمـيع مفاهيـمنا، لم نصل بعد إلى مـا وصل إليه محـمد،

---

(1) (المائة الأوائل) مايكل هارت (33).

(2) (الديوان الشرقى للشاعر الغربى) غوته ص(31).

وسوف لا يتقدم عليه أحد، ولقد بحثت في التاريخ عن مثل أعلى لهذا الإنسان، فوجدته في النبي محمد، وهكذا وجب أن يظهر الحق ويعلو، كما نجح محمد الذي أخضع العالم كله بكلمة التوحيد).

ويقول الأديب الروسي (ليو تولستوي) والذي حرمته الكنيسة بسبب آرائه: (أنا واحد من المبهورين بالنبي محمد الذي اختاره الله الواحد لتكون آخر الرسالات على يديه، وليكون هو أيضًا آخر الأنبياء... ويكفيه فخراً أنه هدى أمة برمتها إلى نور الحق، وجعلها تجنح للسكينة والسلام، وفتح لها طريق الرقي والمدنية).

ويقول الشاعر الفرنسي الشهير (لا مارتين): (أعظم حدث في حياتي هو أنني درست حياة رسول الله محمد دراسة واعية، وأدركت ما فيها من عظمة وخلود، ومن ذا الذي يجرؤ على تشبيه رجلٍ من رجال التاريخ بمحمد؟! ومن هو الرجل الذي ظهر أعظم منه، عند النظر إلى جميع المقاييس التي تقاس بها عظمة الإنسان؟! إن سلوكه عند النصر وطموحه الذي كان مكرسًا لتبليغ الرسالة وصلواته الطويلة وحواره السماوي هذه كلها تدل على إيمان كامل مكّنه من إرساء أركان العقيدة. إن الرسول والخطيب والمشرع والفاتح ومصلح العقائد الأخرى الذي أسس عبادة غير قائمة على تقديس الصور هو محمد، لقد هدم الرسول المعتقدات التي تتخذ واسطة بين الخالق والمخلوق)[1].

ويقول الفيلسوف الإنجليزي جورج برناردشو: (لقد درست محمداً باعتباره رجلاً مدهشًا، فرأيته بعيداً عن مخاصمة المسيح، بل يجب أن يدعى منقذ الإنسانية، وأوربة بدأت في العصر الراهن تفهم عقيدة التوحيد، وربما ذهبت إلى أبعد من ذلك، فتعترف بقدرة هذه العقيدة على حل مشكلاتها بطريقة تجلب السلام والسعادة! فبهذه الروح يجب أن تفهموا نبوءتي)[2].

ويقول المؤرخ ول ديورانت في موسوعته (قصة الحضارة): (إذا حكمنا على العظمة بما كان للعظيم من أثر في الناس، قلنا إن محمداً رسول المسلمين أعظم عظماء التاريخ، فقد كبح جماح التعصب والخرافات، وأقام فوق اليهودية والمسيحية ودين بلاده القديم دينًا واضحًا قويًا، استطاع أن يبقى إلى يومنا هذا قوة ذات خطر عظيم).

ويقول المؤرخ فيليب حتّي: (لم يسجل التاريخ أن رجلاً واحداً، سوى محمد، كان صاحب رسالة وباني أمة، ومؤسس دولة... هذه الثلاثة التي قام بها محمد، كانت وحدة متلاحمة، وكان الدين هو القوة التي توحدها على مدى التاريخ).

أما عالم اللاهوت السويسري المعاصر د. هانز كونج والذي يعتقد أن المسيح إنسان ورسول اختاره الله لا غير، فيقول: (محمد نبي حقيقي بمعنى الكلمة، ولا يمكننا بعد إنكار أن محمداً هو المرشد القائد على طريق النجاة)[3].

ويقول المؤرخ البريطاني الشهير (أرنولد توينبي): (الذين يريدون أن يدرسوا السيرة النبوية العطرة يجدون أمامهم من الأسفار مما لا يتوافر مثله للباحثين في حياة أي نبي من أنبياء الله الكرام).

ويقول الكونت كاتياني في كتابه (تاريخ الإسلام): (أليس الرسول جديراً بأن تقدَّم للعالم سيرته حتى لا يطمسها الحاقدون عليه وعلى دعوته التي جاء بها لينشر في العالم الحب والسلام؟! وإن الوثائق الحقيقية التي بين أيدينا عن رسول الإسلام ندر أن نجد مثلها، فتاريخ عيسى وما ورد في شأنه في الإنجيل لا يشفي الغليل).

---

(1) (السفر إلى الشرق) ص(277).

(2) عن (موسوعة مقدمات المناهج والعلوم) أنور الجندي (8 / 211).

(3) عن (الإسلام نهر يبحث عن مجرى) الدكتور شوقي أبو خليل (15).

ويقول المستشرق المعروف غوستاف لوبون: (تعرف ما فيه الكفاية عن حياة محمد، أما حياة المسيح فمجهولة تقريبًا، وإنك لن تطمع أن تبحث عن حياته في الأناجيل).

ويذكر و. ف. بودلي نفس هذا المعنى فيقول: (لا نعرف إلا شذرات عن حياة المسيح، أما في سيرة محمد فنعرف الشيء الكثير، ونجد التاريخ بدل الظلال والغموض).

ويقول المستشرق هيل في كتابه (حضارة العرب): (لقد أخرج محمد للوجود أمة، ومكن لعبادة الله في الأرض، ووضع أسس العدالة والمساواة الاجتماعية، وأحل النظام والتناسق والطاعة والعزة في أقوام لا تعرف غير الفوضى).

ويقول بسمارك: (يا محمد أنا متأثر جداً إذ لم أكن معاصراً لك! إن البشرية رأت قدوة ممتازة مثلك مرة واحدة، وأنا أعظمك بكمال الاحترام).

ويقول المؤرخ كريستوفر دارسون في كتابه (قواعد الحركة في تاريخ العالم): (إن الأوضاع العالمية تغيرت تغيراً مفاجئًا بفعل فرد واحد ظهر في التاريخ هو محمد).

ويقول العلامة شيريل، عميد كلية الحقوق بفيينا: (إن البشرية لتفتخر بانتساب رجل كمحمد إليها).

ويقول الباحث الفرنسي كليمان هوارت عن (محمد في الآداب العالمية المنصفة): (لم يكن محمداً نبيًا عاديًا، بل استحق بجدارة أن يكون خاتم الأنبياء، لأنه قابل كل الصعاب التي قابلت كل الأنبياء الذين سبقوه مضاعفة من بني قومه... نبي ليس عاديًا من يقسم أنه (لو سرقت فاطمة ابنته لقطع يدها)! ولو أن المسلمين اتخذوا رسولهم قدوة في نشر الدعوة لأصبح العالم مسلمًا).

حتى الذين ناصبوا محمدا ﷺ العداء عادوا يعتذرون إليه، فهذا الفيلسوف (فولتير) الذي أعلن توبته عن مواقفه من الإسلام، ومن محمد ﷺ ولكن الأضواء لا تسلط إلا على أقواله الأولى، أما أقواله الأخيرة فقد طُمست.

فهو يعترف بأنه كان ضحية الأفكار السائدة الخاطئة: (قد هدم محمد الضلال السائد في العالم لبلوغ الحقيقة، ولكن يبدو أنه يوجد دائمًا من يعملون على استبقاء الباطل وحماية الخطأ).

ثم يقول في قاموسه الفلسفي: (أيها الأساقفة والرهبان والقسيسون إذا فُرض عليكم قانون يحرم عليكم الطعام والشراب طوال النهار في شهر الصيام.. إذا فرض عليكم الحج في صحراء محرقة.. إذا فُرض عليكم إعطاء 2,5 بالمائة من مالكم للفقراء.. إذا حُرِّم عليكم شرب الخمور ولعب الميسر.. إذا كنتم تتمتعون بزوجات تبلغ ثماني عشرة زوجة أحيانًا، فجاء من يحذف أربع عشرة من هذا العدد، هل يمكنكم الادعاء مخلصين بأن هذه الشريعة شريعة لذات؟!).

ويقول: (لقد قام الرسول بأعظم دور يمكن لإنسان أن يقوم به على الأرض... إن أقل ما يقال عن محمد أنه قد جاء بكتاب وجاهد، والإسلام لم يتغير قط، أما أنتم ورجال دينكم فقد غيرتم دينكم عشرين مرة).

**2- تكريم الكائنات:**

قال عبد القادر: بل إن تكريم محمد ﷺ ومعرفة قدره العظيم لم يقتصر على البشر، فقد شهدت له الأرض بحجارتها وأشجارها وحيواناتها:

**الحنين:**

فقد كانت تظهر له من المودة والحنين والحب ما تنافس به البشر أنفسهم، وقد كان ﷺ يبادل هذه الكائنات مشاعرها، فكان يقول عن أحد: (هذا جبل يحبنا ونحبه[1])[2].

وهو يخاطبه كما يخاطب الأحياء، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: (صعد النبي ﷺ أحدا، ومعه أبو بكر وعمر وعثمان، فرجف بهم فضربه برجله، وقال: (اثبت أحد، فما عليك إلا نبي أو صديق أو شهيدان)[3].

عن سعيد بن زيد قال: سمعت رسول الله ﷺ وهو على حراء فتحرك فضربه برجله، ثم قال: (اسكن حراء، فإنه ليس عليك إلا نبي أو صديق أو شهيد)، ومعه أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير وسعد وعبد الرحمن بن عوف وأنا[4].

وروى بأسانيد كثيرة[5] أن النبي ﷺ كان يخطب إلى جذع نخلة، فاتخذ له منبر، فلما فارق الجذع، وغدا إلى المنبر الذي صنع له حن له كما تحن الناقة[6]، فنزل رسول الله ﷺ فضمه إليه، فسكن، فأمر به أن يحفر له ويدفن[7] .

ومثله الداجن التي خشيت عليه ﷺ، فعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: كان لآل رسول الله ﷺ داجن[8] فإذا خرج رسول الله ﷺ لعب واشتد وأقبل وأدبر، فإذا أحس برسول الله ﷺ قد دخل ربض فلم يترمرم ما دام رسول الله ﷺ في البيت كراهية أن يؤذيه[9].

---

(1) اختلف العلماء في سبب حبه له، ومن أقوالهم في ذلك أنه ﷺ كان يستعمل الوتر ويحبه في شأنه كله إشعارا للأحدية، وقد وافق اسم هذا الجبل لأغراضه ومقاصده في الأسماء، ويدل عليه أنه ﷺ بدل كثيرا من أسماء البقاع والناس استقباحا لها، وكان ﷺ يحب الاسم الحسن، ولا أحسن من اسم مشتق من الأحدية.

ومنها أن ذلك تعبير مجازي عبر عنه بلسان الحال، لأنه كان يبشره إذا رآه عند قدومه بالقرب من أهله، وذلك فعل المحب فنزل منزلته، (انظر: فيض القدير: 1/ 185)، وهو تأويل بعيد لا نرى صحته، قال النووي: «الصحيح المختار أن معناه أن أحدا يحبنا حقيقة، جعل الله تعالى فيه تمييزا يحب به» النووي على مسلم: 9/ 139 .

ونرى أنه ﷺ كان يحبه لما حصل فيه في غزوة أحد من تقديم الشهداء في سبيل الله، ولعله ﷺ خشي أن يتشاءم منه، فأخبر عن حبه له.

(2) رواه البخاري ومسلم.

(3) رواه البخاري: 3/ 1348، ابن حبان: 15/ 348، الترمذي: 5/ 624.

(4) رواه أبو نعيم.

(5) روى القصة جمع من الصحابة، منهم أبي بن كعب رواه الشافعي وأحمد وابن ماجه والبغوي وابن عساكر، ومنهم أنس بن مالك رواه أحمد والترمذي وصححه وأبو يعلى والبزار وابن ماجه وأبو نعيم من طرق على شرط مسلم، ومنهم بريدة، رواه الدارمي، وجابر بن عبد الله، رواه أحمد والبخاري والترمذي، والمطلب بن أبي وداعة، رواه الزبير بن بكار، وأبو سعيد الخدري، رواه عبد بن حميد وابن أبي شيبة، وأبو يعلى وأبو نعيم بسند على شرط مسلم، وعائشة رواه الطبراني والبيهقي، وأم سلمة رواه أبو نعيم والبيهقي بإسناد جيد.

كلها روى بألفاظ متقاربة المعنى وهو بذلك حديث متواتر المعنى.

(6) وفي لفظ: فخار كخوار الثور، وفي لفظ: فصاحت النخلة صياح الصبي حتى تصدع وانشق.

(7) وقد روى عن مصير هذا الجذع في روايات أخرى أن أبي بن كعب رضي الله عنه أخذه لما هدم المسجد، فلم يزل عنده حتى بلي وعاد رفاتا.

وقد روى في رواية أخرى أن النبي ﷺ قال له: «اختر أن أغرسك في المكان الذي كنت فيه فتكون كما كنت ـ يعني قبل أن تصير جذعا ـ وإن شئت أن أغرسك في الجنة فتشرب من أنهارها فيحسن نبتك وتثمر فيأكل منك أولياء الله، فقال: «أختار أن أغرسه في الجنة» وهي رواية يظهر عليها الوضع، وقد قال البيهقي: «قصة حنين الجذع من الأمور الظاهرة التي حملها الخلف عن السلف، ورواية الأخبار الخاصة فيها كالتكلف» انظر: فتح الباري: 6/ 605.

(8) الداجن: ما يألف البيوت من الحيوانات كالشاة والطير . .

(9) رواه أحمد والترمذي ومسدد وأبو يعلى والبزار والطبراني بإسناد صحيح.

بل قد روى من شفقة الحيوانات عليه ما حدث به نافع بن الحارث بن كلدة ـ رضى الله عنه ـ قال: كنا مع رسول الله ﷺ فى سفر، وكنا زهاء أربعمائة، فنزلنا منزلا فى موضع ليس فيه ماء، فشق على أصحاب الرسول ﷺ فجاءت شاة لها قرنان فقامت بين يدى رسول الله ﷺ فحلبها، فشرب حتى روى وسقى أصحابه حتى رووا ثم قال: (يا نافع احفظها الليلة وما أراك تملكها)، قال: فأخذتها فوتدت لها فى الأرض ثم أخذت رباطا فربطتها فاستوثقت منها، ثم قمت بعض الليل فلم أر الشاة، ورأيت الحبل مطروحا فأخبرت النبى ﷺ فقال: (ذهب بها الذى جاء بها)[1].

وعن سعد مولى أبى بكر قال: كنا مع رسول الله ﷺ فى سفر فنزلنا منزلا، فقال لى رسول الله ﷺ: (يا سعد احلب تلك العنز)، قال: وعهدى بذلك الموضع لا عنز فيه فجئته، فإذا بعنز حافل فاحتلبتها لا أدرى كم مرة واحتفظت بالعنز وأوصيت بها فاشتغلنا بالرحلة ففقدت العنز، وقال رسول الله ﷺ: (ذهب بها ربها)[2].

ومثلها الطائر الذى حلق بإحدى خفيه ﷺ، فعن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أن رسول الله ﷺ دعا بخفيه فلبس إحداهما فجاء طائر أخضر فأخذ الخف الآخر فحلق به فى السماء فاستلب أسود سالخ، فقال رسول الله ﷺ: (هذه كرامة أكرمنى الله عز وجل بها)[3].

وعن أبى أمامة ـ رضى الله عنه ـ قال: دعا رسول الله ﷺ بخفيه، فلبس أحدهما ثم جاء غراب فاحتمل الآخر فرمى به فخرجت منه حية، فقال رسول الله ﷺ: (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فلا يلبس خفيه حتى ينفضهما)[4].

ومن ذلك ازدلاف البدنات لما أراد نحرهن إليه ﷺ، فعن عبد الله بن قرط ـ رضى الله عنه ـ قال: قرب لرسول الله ﷺ خمس أو ست بدنات ينحرهن يوم عيد فطفقن يزدلفن إليه بأيتهن يبدأ، فلما وجبت جنوبها، قال: فتكلم بكلمة لم أفهمها، فسألت الذى يليه فقال: قال: (من شاء فليقتطع)[5].

**الشهادة:**

وفى الوقت الذى كُذِّب فيه ﷺ كانت هذه الكائنات تقف شاهدة له:

عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال: جاء قوم من الأنصار إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله، إن لنا بعيرا قطم فى حائط، فجاء إليه رسول الله ﷺ فقال: (تعال)، فجاء مطأطئا رأسه حتى خطمه، وأعطاه أصحابه، فقال له أبو بكر: يا رسول الله، كأنه علم أنك نبى فقال رسول الله ﷺ: (ما بين لابتيها أحد إلا يعلم أنى نبى إلا كفرة الإنس والجن)[6].

وعن جابر بن عبد الله ـ رضى الله عنه ـ قال: أقبلنا مع رسول الله ﷺ من سفر حتى إذا دفعنا إلى حائط بنى النجار إذا فيه جمل لا يدخل أحد إلا شد عليه، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فجاء حتى أتى الحائط فدعا البعير، فجاء واضعا مشفره إلى الأرض حتى برك بين يديه، فقال النبى ﷺ: (هاتوا خطامه)، ودفعه إلى صاحبه ثم التفت إلى الناس، فقال: (إنه ليس شىء بين السماء والأرض إلا يعلم أنى رسول الله إلا عاصى الإنس والجن)[7].

---

(1) رواه ابن سعد والبيهقى وأبو نعيم وابن السكن وغيرهم.
(2) رواه الطبرانى وأبو نعيم والبيهقى.
(3) رواه الطبرانى، وأبو نعيم والبيهقى والخرائطى فى المكارم.
(4) رواه أبو نعيم.
(5) رواه أبو داود والنسائى.
(6) رواه الطبرانى والبيهقى.
(7) رواه مسلم.

وقد روى بأسانيد مختلفة[1] بينما أعرابى بيعض نواحى المدينة فى غنم له إذ عدا ذئب على شاة، فأخذها، فطلبها الراعى، فاستنقذها منه، فصعد الذئب على تل فاقع واستقر، وقال: ألا تتقى الله عز وجل، تنزع منى رزقا ساقه الله عز وجل إلى؟ فقال: يا عجبا لذئب يقع على ذنبه مستذفر ذنبه يتكلم، فقال الذئب: والله إنك تصادف أعجب من هذا قال: وماذا أعجب من هذا؟ قال: رسول الله ﷺ فى النخلات بين الحرتين يحدث الناس عن نبأ ما سبق وما يكون بعد ذلك[2]، فأقبل الراعى يسوق حتى دخل المدينة، فزواها إلى زاوية من زوايا المدينة، ثم أتى رسول الله ﷺ فأخبره.

وفى حديث أبى هريرة فقال له رسول الله ﷺ: (إذا صليت الصبح معنا غدا فأخبر الناس بما رأيت)، فلما أصبح الرجل وصلى الصبح فأمر رسول الله ﷺ فنودى الصلاة جامعة، ثم خرج فقال للأعرابى: (أخبرهم)، فقال رسول الله ﷺ: (صدق، والذى نفسى بيده، لا تقوم الساعة حتى يخرج من أهله فيخبره نعله أو سوطه أو عصاه بما أحدث أهله من بعده).

ومن ذلك استجارة الغزالة به ﷺ وشهادتها له بالرسالة، فقد روى بأسانيد مختلفة[3]، أن رسول الله ﷺ مر على قوم قد اصطادوا ظبية فشدوها على عمود فسطاط فقالت: يا رسول الله أخذت ولى خشفان فى البرية، وقد انعقد اللبن فى أخلاقى، فلا هو يذبحنى فأستريح، ولا يدعنى، فأرجع إلى خشفى فى البرية)[4]، فقال لها رسول الله ﷺ: (إن تركتك ترجعين؟)، قالت: نعم، وإلا عذبنى الله عذابا أليما).

فقال: (أين صاحب هذه؟)، فقال القوم: نحن يا رسول الله، قال: (خلوا عنها حتى تأتى خشفها ترضعها وترجع إليكم)، فقالوا: من لنا بذلك؟ قال: (أنا)، فأطلقوها فذهبت فأرضعت ثم رجعت إليهم فأوثقوها، فمر بهم رسول الله ﷺ فقال: (أين صاحب هذه؟)، قالوا: هوذا نحن يا رسول الله، قال: (تبيعونها؟)، فقالوا: هى لك يا رسول الله، فقال: (خلوا عنها)، وأطلقوها، فذهبت، وهى تضرب برجلها فرحا وتقول: أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله.

قال زيد بن أرقم: فأنا والله رأيتها تسبح فى البرية وهى تقول: لا إله إلا الله محمد رسول الله.

ومما يدخل فى هذا الباب ما روى من تسبيح الأشياء بين يديه:

وعن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال: قدم ملوك حضرموت على رسول الله ﷺ وفيهم الأشعث بن قيس، فقالوا: إنا قد خبأنا لك خبأ فما هو؟ قال: (سبحان الله إنما يفعل هذا الكاهن والكهانة فى النار)، فقالوا: فكيف نعلم أنك رسول الله عز وجل فأخذ رسول الله ﷺ كفا من حصى، فقال: (هذا يشهد أنى رسول الله)، فسبح الحصى فى يده، فقالوا: نشهد أنك رسول الله عز وجل[5].

---

(1) رواه أحمد والترمذى والحاكم وصححاه عن أبى سعيد والبيهقى عن ابن عمر، وأبو نعيم عن أنس وابن مسعود، وأحمد عن أبى هريرة.

(2) وفى لفظ: يدعو الناس إلى الهدى، وإلى دين الحق وهم يكذبونه.

(3) رواه الطبرانى والبيهقى وأبو نعيم عن أنس بن مالك - رضى الله عنه - عن زيد بن أرقم والبيهقى من طريق على بن قادم وأبو العلاء خالد بن طهمان بن عطية عن أبى سعيد الخدرى، والطبرانى وأبو نعيم عن أم سلمة، وأبو نعيم عن أنس بن مالك وهو غريب، ورجاله خرج لهم فى الكتب الستة.

قال القطب الحضرمى فى خصائصه: هذا الحديث ضعفه بعض الحفاظ لكن طرقه يتقوى بعضها ببعض، وقال الشيخ: لهذا الحديث طرق كثيرة تشهد أن للقصة أصلا.

(4) وفى رواية أنس: كنا مع رسول الله ﷺ فى بعض سكك المدينة فمررنا بخبأ أعرابى وإذا بظبية مشدودة إلى الخباء، فقالت: يا رسول الله، إن هذا الأعرابى اصطادنى.

(5) رواه أبو نعيم والحكيم الترمذى.

وعن ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ قال: كنا نأكل مع رسول الله ﷺ فنسمع تسبيح الطعام، وهو يؤكل[1].

وعن أنس ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ أتى بطعام ثريد، فقال: (إن هذا الطعام يسبح)، قالوا: يا رسول الله، وتفقه تسبيحه، قال: (نعم)، ثم قال لرجل: (ادن هذه القصعة من هذا الرجل)، فأدناها منه فقال: نعم، يا رسول الله، هذا الطعام يسبح فقال: (ادنها من آخر) وأدناها منه فقال: هذا الطعام يسبح ثم قال: (ردها) فقال رجل: يا رسول الله، لو أمرت على القوم جميعا، فقال: (لا إنها لو سكتت عند رجل لقالوا: من ذنب ردها)، فردها[2].

وعن أنس ـ رضى الله عنه ـ قال: تناول النبى ﷺ من الأرض سبع حصيات، فسبحن فى يده، ثم ناولهن أبا بكر فسبحن كما سبحن فى يد النبى ﷺ ثم ناولهن النبى ﷺ عمر فسبحن فى يده كما سبحن فى يد أبى بكر، ثم ناولهن عثمان فسبحن فى كفه كما سبحن فى يد أبى بكر وعمر[3].

**التحية:**

وكانت هذه الكائنات بأنواعها المختلفة تهدى لرسول الله ﷺ أصناف التحيات باللغات التى تعرفها:

فعن جابر بن سمرة، قال: قال رسول الله ﷺ: (إنى لأعرف حجرا كان يسلم على قبل أن أبعث إنى لأعرف الآن)[4].

وعن على ـ رضى الله عنه ـ قال: كنت مع رسول الله ﷺ بمكة فخرجنا فى بعض نواحيها، فما استقبله جبل ولا شجر إلا قال: السلام عليك، يا رسول الله[5].

وعن جابر بن سمرة ـ رضى الله عنه ـ قال: (لما كانت ليالى بعثت ما مررت بشجر ولا حجر إلا قال: السلام عليك، يا رسول الله)[6].

وعن برة بنت أبى تجراة قالت: إن رسول الله ﷺ حين أراد الله كرامته وابتداءه بالنبوة كان إذا خرج لحاجته أبعد حتى لا يرى بيتا ويفضى إلى الشعاب وبطون الأودية، فلا يمر بحجر ولا شجر إلا قال: السلام عليك يا رسول الله، وكان يلتفت عن يمينه وشماله وخلفه فلا يرى أحدا[7].

ومن ذلك تحية السجود التى مارسها هذا الجمل العارف بفضل محمد ﷺ، فعن جابر بن عبد الله ـ رضى الله عنهما ـ أن جملا جاء إلى رسول الله ﷺ، فلما كان قريبا منه خر الجمل ساجدا فقال رسول الله ﷺ: (يا أيها الناس، من صاحب هذا الجمل؟)، فقال فتية من الأنصار: هو لنا يا رسول الله، قال: (فما شأنه؟)، قالو: سنونا عليه عشرين سنة، فلما كبرت سنه، أردنا نحره، فقال رسول الله ﷺ: (تبيعونه؟)، فقالوا: هو لك يا رسول الله فقال: (أحسنوا إليه حتى يأتيه أجله)، فقالوا: يا رسول الله، نحن أحق أن نسجد لك من البهائم، فقال: (لا ينبغى لبشر أن يسجد لبشر ولو كان النساء لأزواجهن)[8].

---

(1) رواه البخارى ومسلم.
(2) رواه أبو الشيخ.
(3) رواه ابن عساكر.
(4) رواه مسلم وأحمد.
(5) رواه الترمذى، وحسنه.
(6) رواه أبو نعيم.
(7) رواه ابن سعد.
(8) رواه أحمد والبيهقى واللفظ له، ورجاله ثقات.

وعن عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت: كان النبى ﷺ فى نفر فجاء بعير فسجد له، فقال أصحاب رسول الله ﷺ يسجد لك البهائم والشجر، فنحن أحق أن نسجد لك، قال: (اعبدوا ربكم، وأكرموا أخاكم ولو كنت آمرا أحدا أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها)[1].

وعن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أن رجلا من الأنصار كان له فحلان، فاغتلما فأدخلهما حائطا، فسد عليهما الباب، ثم جاء رسول الله ﷺ فأراد أن يدعو له، والنبى ﷺ قاعد معه نفر من الانصار فقال: يا رسول الله، إنى جئت فى حاجة، وإن فحلين لى اغتلما، وإنى أدخلتهما حائطا، وسددت عليهما الباب، فأحب أن تدعو لى أن يسخرهما الله عز وجل، فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: (قوموا معنا).

فذهب حتى أتى الباب، فقال: (افتح)، فأشفق الرجل على رسول الله ﷺ فقال: (افتح)، ففتح، فإذا أحد الفحلين قريب من الباب، فلما رأى رسول الله ﷺ سجد له فقال رسول الله ﷺ: (ائتنى بشىء أشد به رأسه وأمكنك منه)، فجاء بخطام فشد رأسه وأمكنه منه ثم مشى إلى أقصى الحائط إلى الفحل الآخر، فلما رآه وقع ساجدا له، فقال للرجل: (ائتنى بشىء أشد به رأسه)، فشد رأسه وأمكنه منه، فقال: (اذهب فإنهما لا يعصيانك)[2].

***

ما وصل عبد القادر من حديثه إلى هذا الموضع حتى التفت إلى بولس، فوجدت عينيه تكادان تغرقان فى دموع يحاول حبسها، ولكنه لم يستطع، فأخرج منديلا، وتظاهر بأن بعينيه شيئا يريد إزالته.

ولما لم يجد معه ذلك شيئا، وغلبته عيناه، وقف منصرفا.

ولم أجد إلا أن أنصرف معه، ومعى بصيص جديد من النور اهتديت به بعد ذلك إلى شمس محمد.

***

---

(1) رواه أحمد وأبو نعيم والطبرانى بسند جيد.

(2) رواه الطبرانى.

# الخاتمة

فى اليوم الحادى عشر انتظرت بولس صباحا لنذهب للتداريب الميدانية كما تعودنا.. لكنه لم يأت، وقد احترت فى سر ذلك، وخفت أن يكون قد أصابه مكروه، فذهبت إلى بيته، وسألت عنه. فلم أجده..

سألت جيرانه، فلم يعرف أحد أين ذهب، ولا متى غادر بيته.

ظللت أبحث يومى ذلك.. فلم أظفر بأى معلومة توصلنى إليه.

وهكذا ظللت أبحث أسبوعا كاملا.. ولكنى لا أعثر على أى معلومة، لا من قريب، ولا من بعيد.

ذهبت إلى الشرطة، فابتسموا، وقالوا: أنت كمن يبحث فى بحر عميق عن إبرة.. فكف عن بحثك.. فلم يسبق لأحد ضاع فى هذه البلاد أن عاد، إلا أن يعود بمحض رضاه.

مضى شهر على غيابه، ولم يأت..

ثم مضى شهر ثان، فلم يأت..

وفى الشهر الثالث، لم يأت.. ولكنى رأيته.. وعجبا ما رأيت.

فى ذلك اليوم الذى رأيته فيه سرت إلى عاصمة الهند، لبعض المصالح لى هناك، وفى أحد الشوارع الكبرى من المدينة رأيت إعلانا عن إلقاء محاضرة من طرف قس أسلم.

اهتممت كثيرا للموضوع إلى درجة انشغالى عما جئت من أجله.

لقد كان الحضور كثيرا، والقاعة مكتظة، ولكنى تمكنت بعد جهد جهيد من رؤية المنصة، فقد كنت أحب أن أرى هذا القس الذى تخلص من قيوده.

لم يطل بى الزمن حتى اعتلى عبد القادر وعبد الحكيم المنصة، ثم أخذ عبد القادر مكبر الصوت، وقال: يشرفنا أن يجلس معنا اليوم رجل امتلأ قلبه بالإيمان، وامتلأ محبة لرسول الله ﷺ.. إنه نموذج حى لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [المائدة].

فهذا الرجل كان مخلصا للمسيح ﷺ غاية الإخلاص، وقد هداه حبه للمسيح إلى محمد ﷺ.

ربما يوجد هناك الكثير ممن مر بتجربته، ولكنه لم يجرؤ على أن ينطق بالإيمان، أو ينضم إلى المؤمنين، ولكن هذا الرجل المخلص استطاع أن يتخلص من كل قيوده، ويضم إلى إيمانه بالمسيح وإخلاصه للمسيح إيمانه بمحمد وإخلاصه لمحمد.

ما انتهى من قوله هذا حتى اعتلى بولس المنصة أمام تكبيرات الجمهور الحاضر، وقال: قبل أن أعلن لكم عن أعظم قرار اتخذته فى حياتى، أود أن أشكر هذين الرجلين الفاضلين اللذين كانا سببا لهذا القرار الخطير.

لقد امتلأ عقلى بأوهام كثيرة أفرزها جهلى بالإسلام، وجهلى بمحمد ﷺ.

لقد كنت أغلق عينى، وأصم آذانى، فلا أرى، ولا أسمع إلا ما يذكره قومى عن محمد، وعن الإسلام، وقد أتيح لى فى هذه البلاد أن أسمع من المسلمين أحاديث عذبة عن نبيهم كان عقلى وقلبى يفتقر إليها.

لقد أوهمنى أساتذتى الذين تعلمت على أيديهم بأن محمدا فى أحسن أحواله لا يعدو كونه بطلا قوميا، أو مصلحا اجتماعيا، أو رجلا عبقريا، لا علاقة له بالسماء، ولا بخوارق السماء.

ولكني في هذه البلاد، وبفضل هذين الرجلين، عرفت أنه لا يوجد في العالم رجل له من الخوارق ما لمحمد، بل إن خوارقه لا تزال ممتدة تشهد له بأنه رسول من الله.

لقد أيد الله رسله بمعجزات كثيرة على قدر من لقيهم من الناس، ولكن معجزات محمد لا تكاد تعد، وهي فوق ذلك بيننا حاضرة لا يزال عطاؤها ممتدا.

بعد هذا..

أريد أن أحذر أولئك المسلمين البسطاء الذين يريدون أن يلغوا هذا الجانب العظيم من جوانب النبوة لإرضاء أقوامنا، لأقول لهم ما قال الله تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ... (١٢٠)﴾ [البقرة].

لقد ذكر الله تعالى السبب الوحيد لرضاهم عنكم، وهو انسلاخكم عن دينكم وهويتكم ونبيكم.

أما قبل ذلك، فسيظلون يطالبونكم بالتخلي عن كل ذرة تربطكم بدينكم إلى أن يحولوه دينا كديننا نحن الذي بعناه لأباطرة الرومان مقابل رضاهم عنا.

بعد هذا، اسمحوا لي أن أنطق أمامكم بأعظم حقيقة ينطق بها كل الوجود (لا إله إلا الله.. محمد رسول الله).

صاح الجمع مكبرين، ولم أدر إلا وأنا أصيح معهم مكبرا من غير شعور.

* * *

ما وصل البابا من حديثه إلى هذا الموضع حتى عادت الكهرباء، وانطفأت تلك السرج العجيبة التي كانت تضيء لنا.. وكأن الكهرباء عادت تأمرنا بلسان حالها أن نعود لعالم الأسباب.. عالم الحكمة والسنن التي أمرنا الله بالتزامها.

قلت للبابا: لقد ظفرت في هذه الرحلة بأشعة كثيرة من شمس محمد ﷺ.

قال: لم أظفر بتلك الأشعة فقط.. بل ظفرت معها بمعان عميقة خففت من غلواء عقلي المتثاقل إلى الأسباب..

لقد علمت أن الأسباب التي نراها، ولا نرى غيرها، والتي تستعبدنا، وتسجننا في سجونها الضيقة خرافة امتلأت بها عقولنا، فراحت تفرضها على الله مقدرها وواضع قوانينها فرضا.

وقد أكسبني ذلك أملا عظيما في الله.. فصرت أشعر بأن الله قادر على كل شيء.. فليس هناك شيء مستحيل أمام الله.

قلت: ألم تكفك تلك الأشعة لتعلن إسلامك كما أعلن ذلك القس؟

قال: لا.. لقد كانت الأشعة كافية.. ولكن أوهاما كثيرة لا تزال تعلق بصدري، وتكاد تخنقني، فلذلك كلما اقتربت أبعدتني، وكلما أردت أن أتصل بمصدر النور فصلتني..

لقد كان ذلك سببا من الأسباب.. وهو أهم الأسباب.

أما السبب الثاني، فقد أرسل لي أخي التوأم رسالة يبشرني فيها باعتلائه مناصب رفيعة في سلم الكنيسة، وأنه لذلك اختار أن يرسلني إلى بقعة أخرى من العالم تمتلئ بالحضارة والثقافة والعلوم، فحنت نفسي المتثاقلة إلى هذا العرض السخي، وأقعدني ذلك عن الاتصال بالنور، وبمصدر النور.

قلت: ما هي هذه البقعة الممتلئة حضارة وثقافة وعلوما؟

قال: اصبر.. فسأحدثك عنها في رحلتنا الخامسة إلى شمس محمد ﷺ.

قلت: فحدثني عنها الآن.

قال: ما أشد شوقي لأن أحدثك عنها الآن.. ولكن لي أورادا من الذكر والقرآن والمناجاة التزمت أمام ربي بأدائها.. ولا ينبغي لي أن أقصر فيها.

قلت: فحدثني عن نوع الأشعة التي نلتها فيها.

قال: لقد قطفت في تلك الرحلة ثمارا يانعة من شجرة محمد ﷺ ظللت أتمتع بطيب مذاقها في كياني كله إلى اليوم.

قلت: فستحدثني عن (ثمار من شجرة النبوة)[1] إذن.

قال: أجل.. ذلك ما سأحدثك عنه غدا إن شاء الله.

---

(1) هو عنوان الجزء الخامس من هذه السلسلة، وهو التالي لهذا الجزء.

# فهرس المحتويات

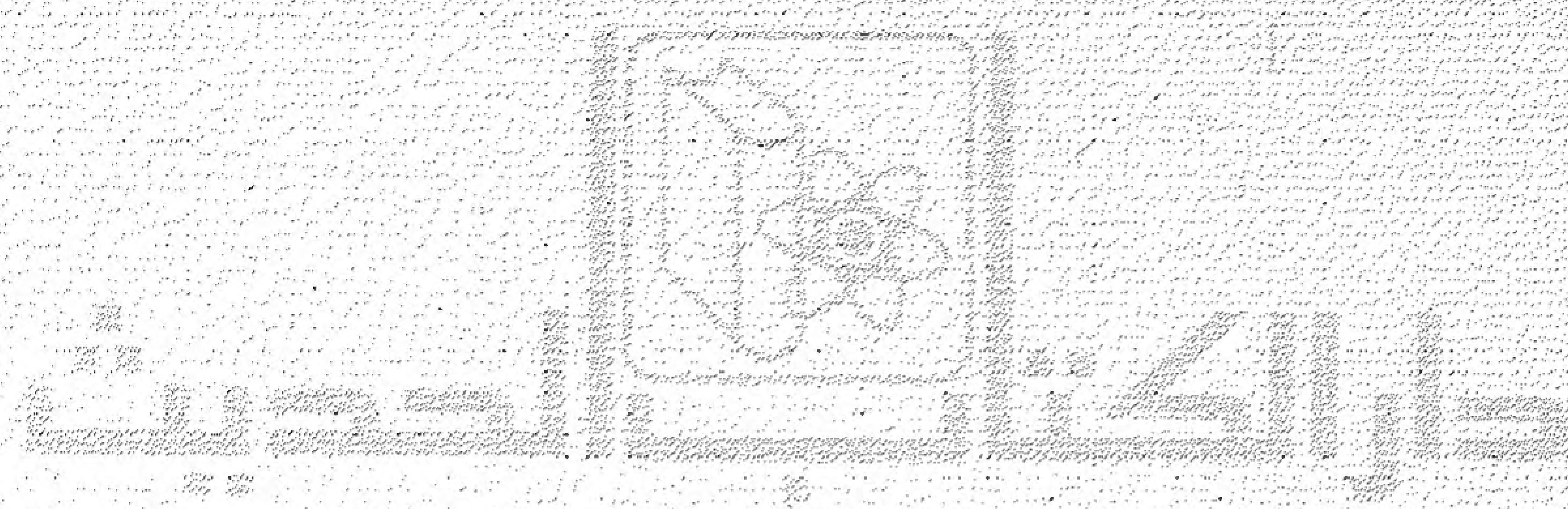
| الموضوع | الصفحة |
|---|---|

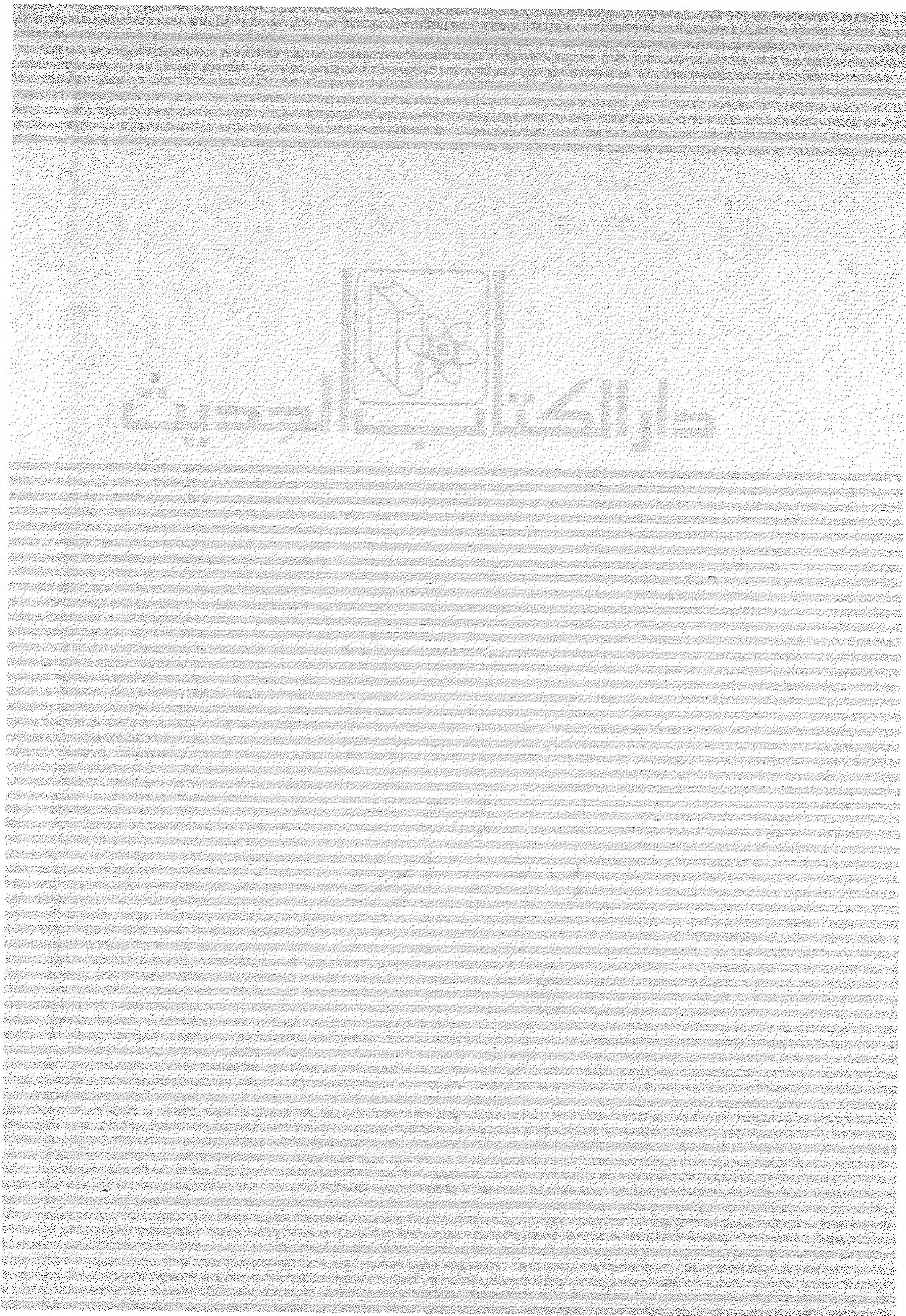
| الموضوع | الصفحة |
|---|---|

| الموضوع | الصفحة |
| --- | --- |

| الموضوع | الصفحة |
|---|---|
| القرآن ومعجزات محمد | 225 |
| سند المعجزات | 232 |
| 3 ـ المعجزة الخالدة | 235 |
| 4 ـ المعجزة الكونية | 241 |
| إجابات نقلية | 242 |
| إجابات عقلية | 246 |
| 5 ـ معجزات أرضية | 249 |
| إحياء الموتى | 249 |
| شهادة الرضيع | 252 |
| انقلاب الأعيان | 252 |
| أضواء معجزة | 254 |
| سادسا ـ ثبات | 255 |
| 1 ـ فتنة الضراء | 262 |
| تأليب أهله عليه | 262 |
| إيذاء أصحابه | 265 |
| الحصار الاقتصادى | 270 |
| الإذاية النفسية | 271 |
| الإذاية الجسدية | 276 |
| 2 ـ فتنة السراء | 277 |
| مساومات | 277 |
| إغراء | 279 |
| دنيا | 282 |
| سابعا ـ حماية | 285 |
| 1 ـ جند الرعب | 286 |
| 2 ـ جند الإخفاء | 290 |
| 3 ـ جند الدعاء | 294 |
| 4 ـ جند الإعلام | 298 |
| 5 ـ جند الكفاية | 306 |
| 6 ـ جند الهداية | 314 |
| 7 ـ جند العقوبة | 319 |
| العقوبات الدنيوية | 319 |
| العقوبات الأخروية | 319 |

| الموضوع | الصفحة |
| --- | --- |


دار الكتاب العربي


دار الكتاب الحديث


محمد
صلى الله عليه وسلم